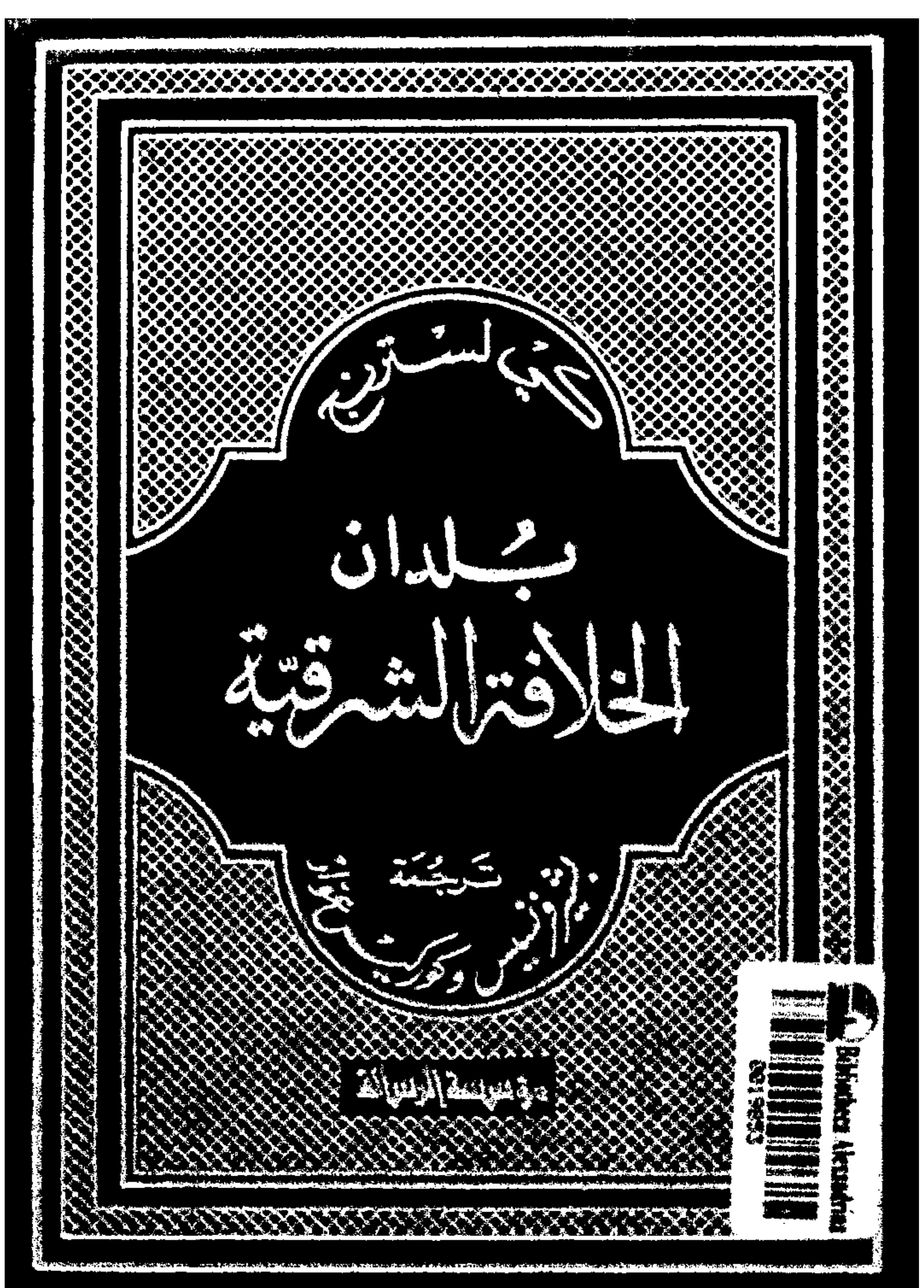

كي لسترنج
بلدان
الخلافة الشرقية
ترجمة
بشير فرنسيس وكوركيس عواد
مؤسسة الرسالة

بُلدان الخلافة الشرقيّة

يتناول صفة العِراق والجزيرة وايران
وأقاليم آسية الوسطى
مُنذ الفتح الإسلامي حتى أيّام تيمُور

تأليف
كي لسترنج
مؤلّف كتاب «فلسطين في عهد الاسلام»،
و«بغداد في عهد الخلافة العباسيّة»، وغيرهما

نقله إلى العربيّة
وأضاف إليه تعليقات بلدانية وتاريخيّة وأثريّة،
ووضع فهارسه

بشير فرنسيس — **كوركيس عوّاد**
عضو المجمع العلمي العراقي

مؤسسة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الثانية

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

مضامين الكتاب

الفصل الثالث

العراق (تابع)

واسط ـ البطائح ـ المذار والقرنة ـ دجلة العوراء ـ البصرة وأنهارها ـ الابلة وعبادان ـ دجلة فوق بغداد ـ البردان ـ طسوج دجيل ـ عكبرا وحربى والقادسية .

(٥٩ ـ ٧٥)

الفصل الرابع

العراق (تابع)

سامراء ـ تكريت ـ النهروان ـ باعقوبا وغيرها من المدن ـ مدينة جسر النهروان وطريق خراسان ـ جلولاء وخانقين ـ البندنيجين وبيات ـ مدن الفرات من الحديثة الى الانبار ـ نهر عيسى ـ المحول وصرصر ونهر الملك ـ نهر كوثى .

(٧٦ ـ ٩٥)

الفصل الخامس

العراق (تتمة)

انشطار الفرات ـ نهر سورا ـ قصر ابن هبيرة ـ النيل ونهر النيل ـ نهر النرس ـ نهر البداةويمباديتا ـ نهر الكوفة ـ مدينة الكوفة ـ القادسية ـ مشهد علي وكربلاء ـ استانات العراق الاثنا عشر ـ التجارة والصناعة ـ طرق العراق .

(٩٦ ـ ١١٣)

الفصل السادس

الجزيرة

الديار الثلاث ـ ديار ربيعة ـ الموصل ونينوى والمدن المجاورة ـ الزاب الكبير والحديثة واربل ـ الزاب الصغير والسن وداقوق ـ الخابور الصغير والحسنية

الفصل السابع

الجزيرة (تتمة)

الفصل الثامن

الفرات الاعلى

الفصل التاسع

بلاد الروم ــ اي آسية الصغرى

الفصل العاشر

بلاد الروم (تتمة)

الفصل الحادى عشر

اذربيجان

الفصل الثانى عشر

كيلان والاقاليم الشمالية الغربية

شيز أو ستوريق ــ خونج ــ ناحيتا الطالقان وطارم ــ قلعة شميران ــ تجارات اقليم الجبال وغلاته ــ مسالك اقليم الجبال واذربيجان واقاليم الحدود الشمالية الغربية •

(٢٤٩ ــ ٢٦٦)

الفصل السادس عشر

خوزستان

نهر دجيل أى كارون ــ خوزستان والاهواز ــ تستر أو شوستر ــ الشاذروان العظيم ــ نهر المسرقان ــ عسكر مكرم ــ جنديسابور ــ دزفول ــ السوس ونهر كرخه ــ بصنا ومتوث ــ قرقوب ودور الراسبى ــ الحويزة ونهر تيرى ــ الدورق وكورة سرّق ــ حصن مهدى ــ فيض دجيل ــ رامهرمز وكورة الزط ــ بلاد اللر الكبرى ــ ايذج أو مال أمير ــ سوسن ــ لردگان ــ تجارات خوزستان وغلاته ــ مسالكه •

(٢٦٧ ــ ٢٨٢)

الفصل السابع عشر

فارس

تقسيم الاقليم الى خمس كور ــ كورة اردشير خره ــ شيراز ــ بحيرة ماهلوية ــ نهر سكان ــ جويم ــ بحيرة دشت أرزن ــ كوار ــ خبر والصيمكان ــ كارزين وكورة قباذ خره ــ جهرم ــ جويم أبى أحمد ــ ماندستان ــ ايراهستان ــ جور أو فيروز اباد ــ أسياف فارس ــ جزيرة قيس ــ سيراف ــ نجيرم ــ توج ــ الغندجان ــ خارك وسائر جزر خليج فارس •

(٢٨٣ ــ ٢٩٧)

الفصل الثامن عشر

فارس (تابع)

كورة شابور خرّه ــ مدينة سابور وكهفها ــ نهر رتين ــ النوبنجان ــ القلعة

البيضاء وشعب بوّان ـ زموم الاكراد ـ كازرون وبحيرة كازرون ـ نهر أخشين ونهر جرشيق ـ جره وقنطرة سبوك ـ كورة ارجان ـ نهر طاب ـ بهبهان ـ نهر شيرين ـ كنبذ ملغان ـ مهروبان ـ سينيز وجنابة ـ نهر الشاذكان •

(٢٩٨ - ٣١٠)

الفصل التاسع عشر

فارس (تابع)

كورة اصطخر ومدينة اصطخر أى برسبوليس ـ نهر الكر وبلوار ـ بحيرة البختكان وما حولها من مدن ـ سهل مرودشت ـ البيضاء ومايين ـ كوشك زرد ـ سرمق ويزد خواست ـ الطرق الثلاث من شيراز الى اصفهان ـ أبرقوه ـ يزد : ناحيتها ومدنها ـ ناحية الروذان ومدنها ـ شهر بابك وهراة •

(٣١١ - ٣٢٤)

الفصل العشرون

فارس (تتمة)

كورة دار أبجرد أو كورة شبانكاره ـ مدينة دار أبجرد ـ دركان وايك ـ تبريز واصطهبانات ـ فسا وورونيز وخسو ـ لار وفرج ـ طارم ـ سورو ـ تجارات فارس وصناعاتها ـ مسالك اقليم فارس •

(٣٢٥ - ٣٣٦)

الفصل الحادى والعشرون

كرمـــان

كور كرمان الخمس ـ قصبتا الاقليم ـ القصبة الأولى : السيرجان ، موضعها وتاريخها ـ القصبة الثانية : بردسير ، وهى مدينة كرمان اليوم ـ ماهان ووليها ـ خبيص ـ زرند وكوه بنان وهى كوبنان (Cobinan) لدى ماركو بولو •

(٣٣٧ - ٣٤٨)

الفصل الخامس والعشرون

قوهستان

اقليم قوهستان ، هو تونوكـاين (Tunocain) لدى ماركـو پولو – قاين وتون – ترشيز ورستاق بشت : سروة زرادشت العظيمة – زاوة – بوزجان واقليم زم – رستاق باخرز ومالن – خواف – زيركوه – دشت بياض – كناباد وبجسـتان – طبس التمـر – خوست أو خوسف برجنـد – مومناباد – طبس مسينان ، ودره ·

(٣٩٢ – ٤٠٣)

الفصل السادس والعشرون

قومس وطبرستان وجرجان

اقليم قومس – الدامغان – بسطام – بيار – سمنان وخوار – طريق خراسان المار بقومس – اقليم طبرستان أو مازندران – آمل – سارية – جبل دماوند ورساتيق فادوسبان وقارن وروبنج – فيروز كوه وغيرها من القلاع – ناتل وسالوس وناحية رويان – حصن الطاق وناحية رستمدار – ممطير وطميسة – كبود جامه وخليج نيم مردان – اقليم كركان أو جرجان – نهر جرجان ونهر أترك – مدينة جرجان واستراباد – ميناء أبسكون – ناحية دهستان وآخر – مسالك طبرستان وجرجان ·

(٤٠٤ – ٤٢٢)

الفصل السابع والعشرون

خراســـان

أرباع خراسان الاربعة – ربع نيسابور – مدينة نيسابور وشاذياخ – كورة نيسابور – طوس والمشهد – بيهق وسبزوار – جوين وجاجرم واسفرايين – استوا وكوجان – رادكان ونسا وابيورد – كلات – خابران وسرخس ·

(٤٢٣ – ٤٣٨)

الفصل الثامن والعشرون

خراســان (تابع)

ربع مرو ـ نهر مرغاب ـ مرو الكبرى وقراها ـ آمل وزم على جيحون ـ مرو الروذ أو مرو الصغرى وقصر الأحنف . (٤٣٩ ـ ٤٤٨)

الفصل التاسع والعشرون

خراســان (تابع)

ربع هراة ـ نهر هراة أو هرى رود ـ مدينة هراة ـ مالن والمدن التى فى أعلى نهر هرى رود ـ بوشنج ـ كورة اسفزار ـ كورة بادغيس ومدنها ـ كنج رستاق ـ رساتيق غرجستان والغور ـ الباميان . (٤٤٩ ـ ٤٦١)

الفصل الثلاثون

خراســان (تتمة)

ربع بلخ فى اقليم خراسان ـ مدينة بلخ والنوبهار ـ ناحية الجوزجان ـ الطالقان والجرزوان ـ ميمنة أو اليهودية ـ الفارياب ، شبرقان ، أنبار ، واندخود ـ ناحية طخارستان ـ خلم ، سمنجان واندرابة ـ ورواليز والطايقان ـ تجارات خراسان وغلاته ـ المسالك فى خراسان وقوهستان .

(٤٦٢ ـ ٤٧٥)

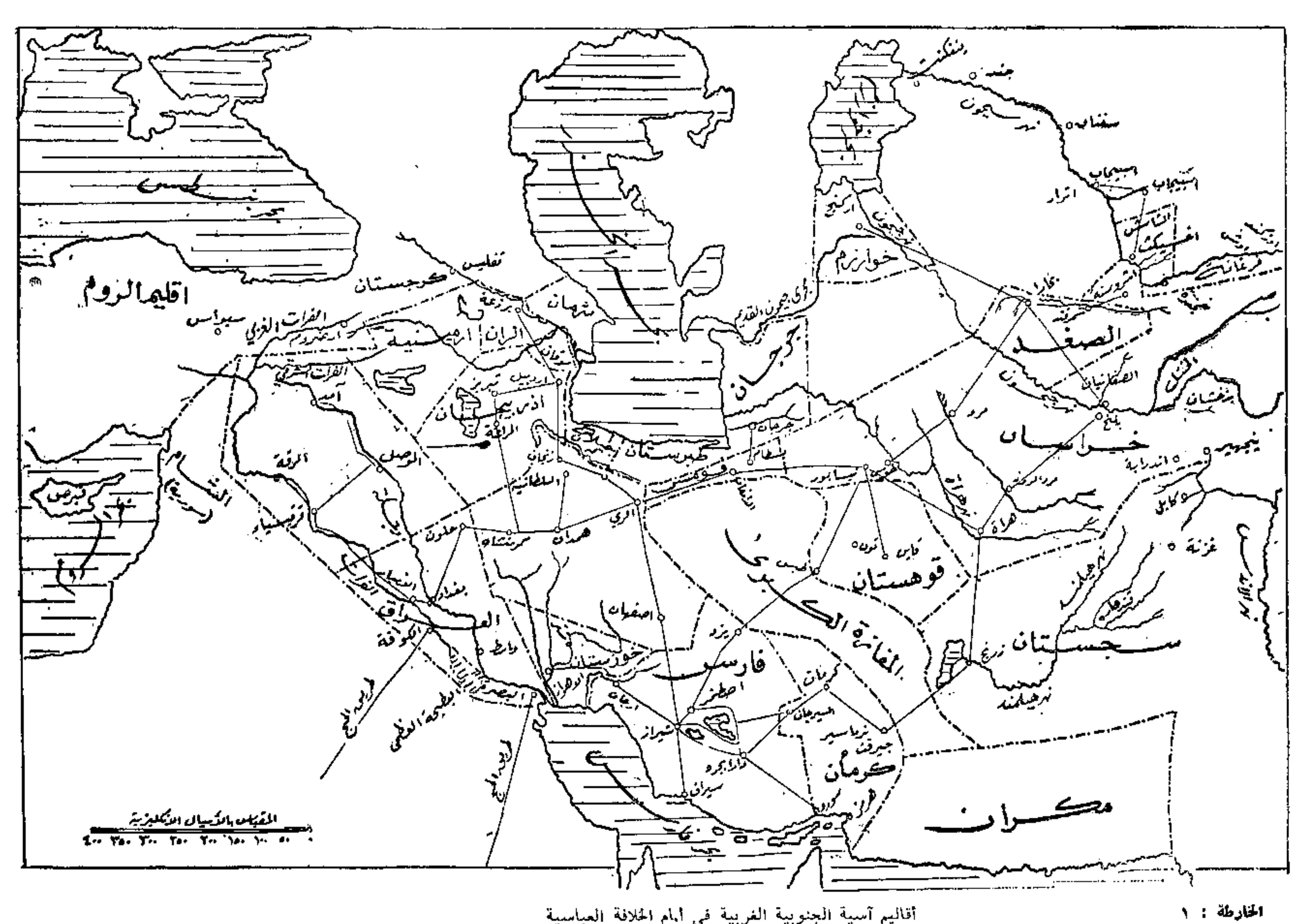
الفصل الحادى والثلاثون

ما وراء النهر (نهر جيحون)

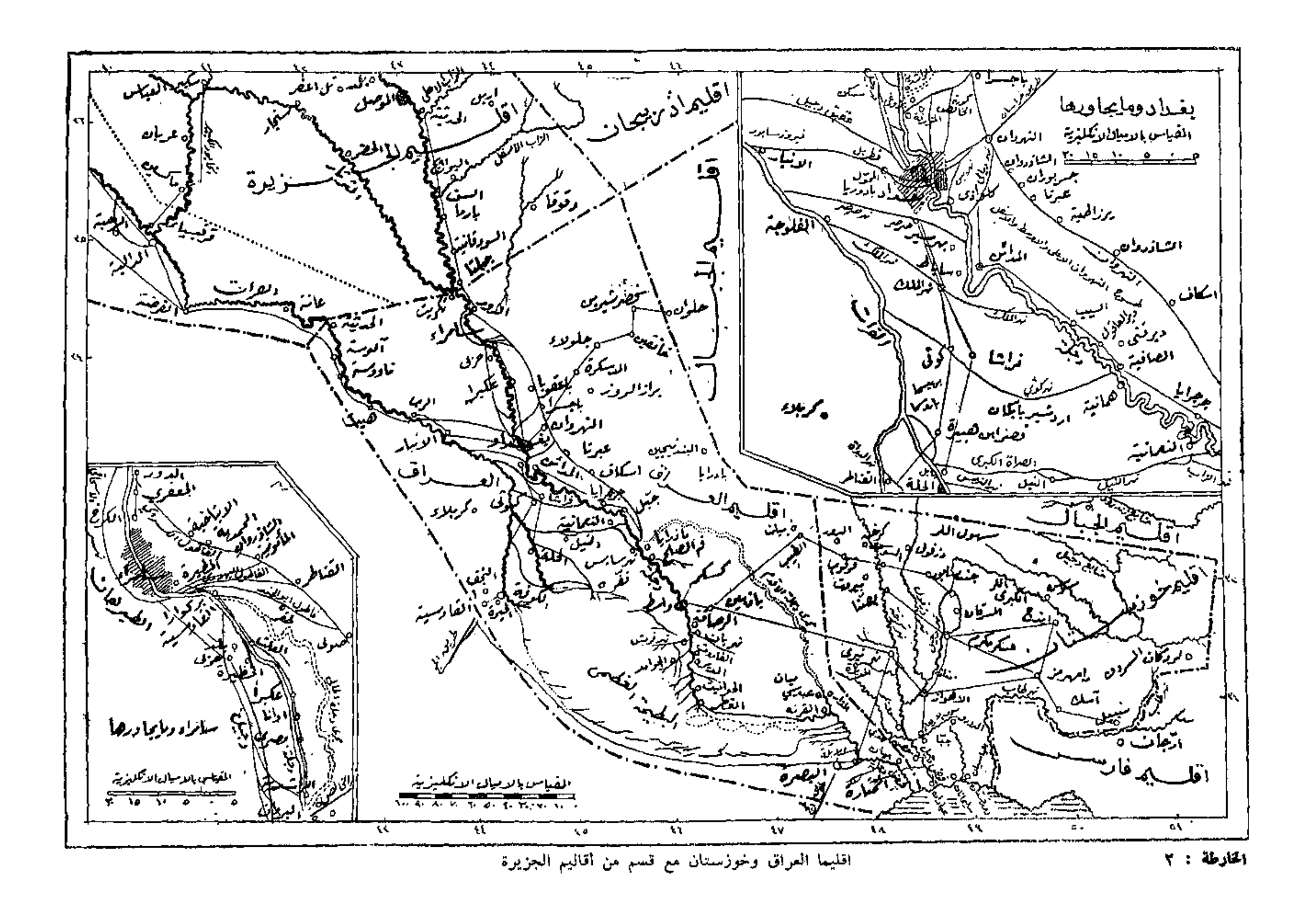
بلاد ما وراء النهر اجمالا ـ اسما جيحون (Oxus) وسيحون (Jaxartes) ـ روافد نهر جيحون العليا ـ بدخشان ووخان ـ الختل والوخش ـ القباذيان والصغانيان ومدنهما ـ قنطرة الحجارة ـ ترمذ ـ الابواب الحديد ـ كالف واخسيسك وفربر ـ بحر آرال أى بحيرة خوارزم ـ انجماد ماء جيحون شتاء .
(٤٧٦ ـ ٤٨٨)

ثبت الخوارط

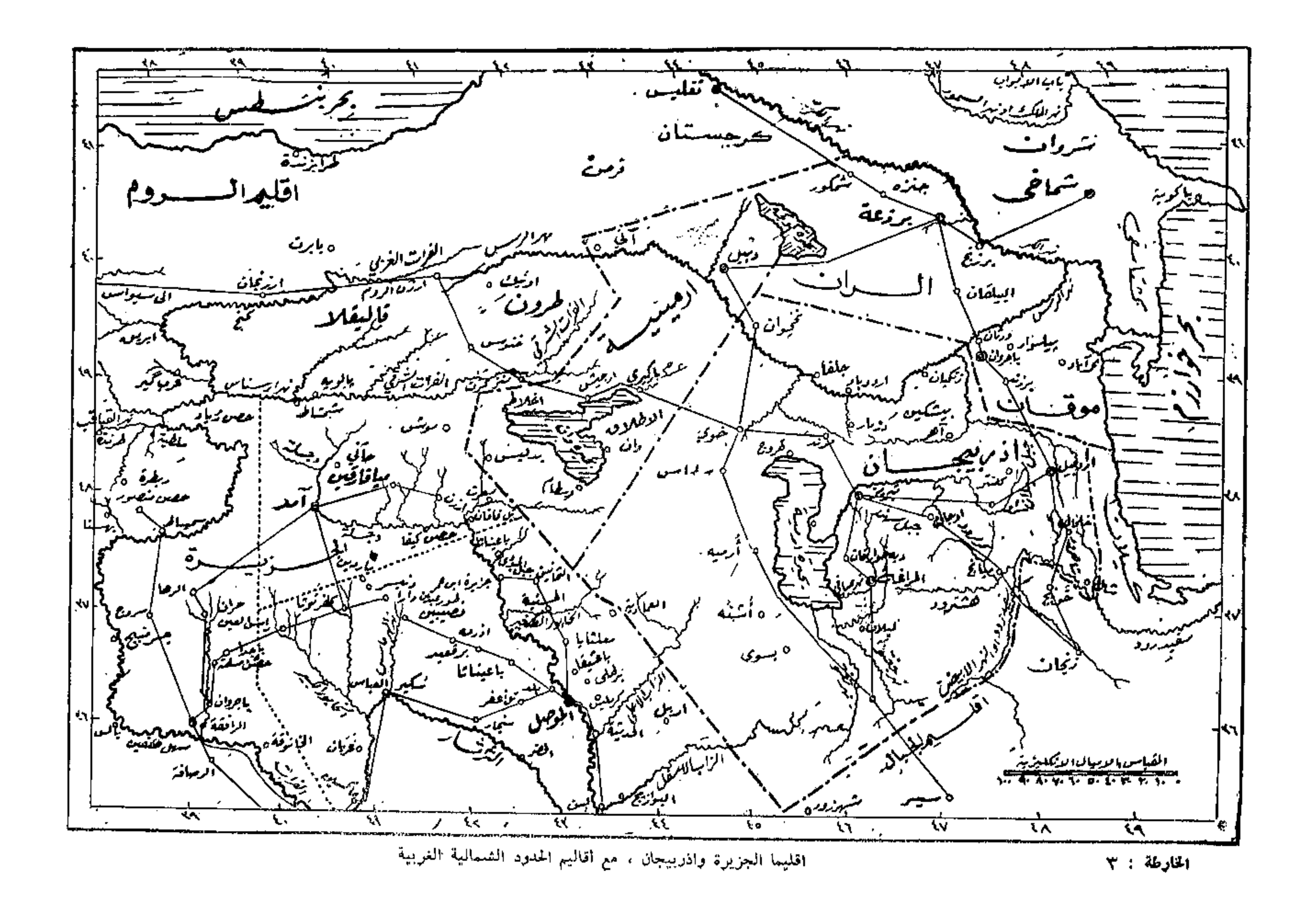
رقم الخارطة ... الصفحة



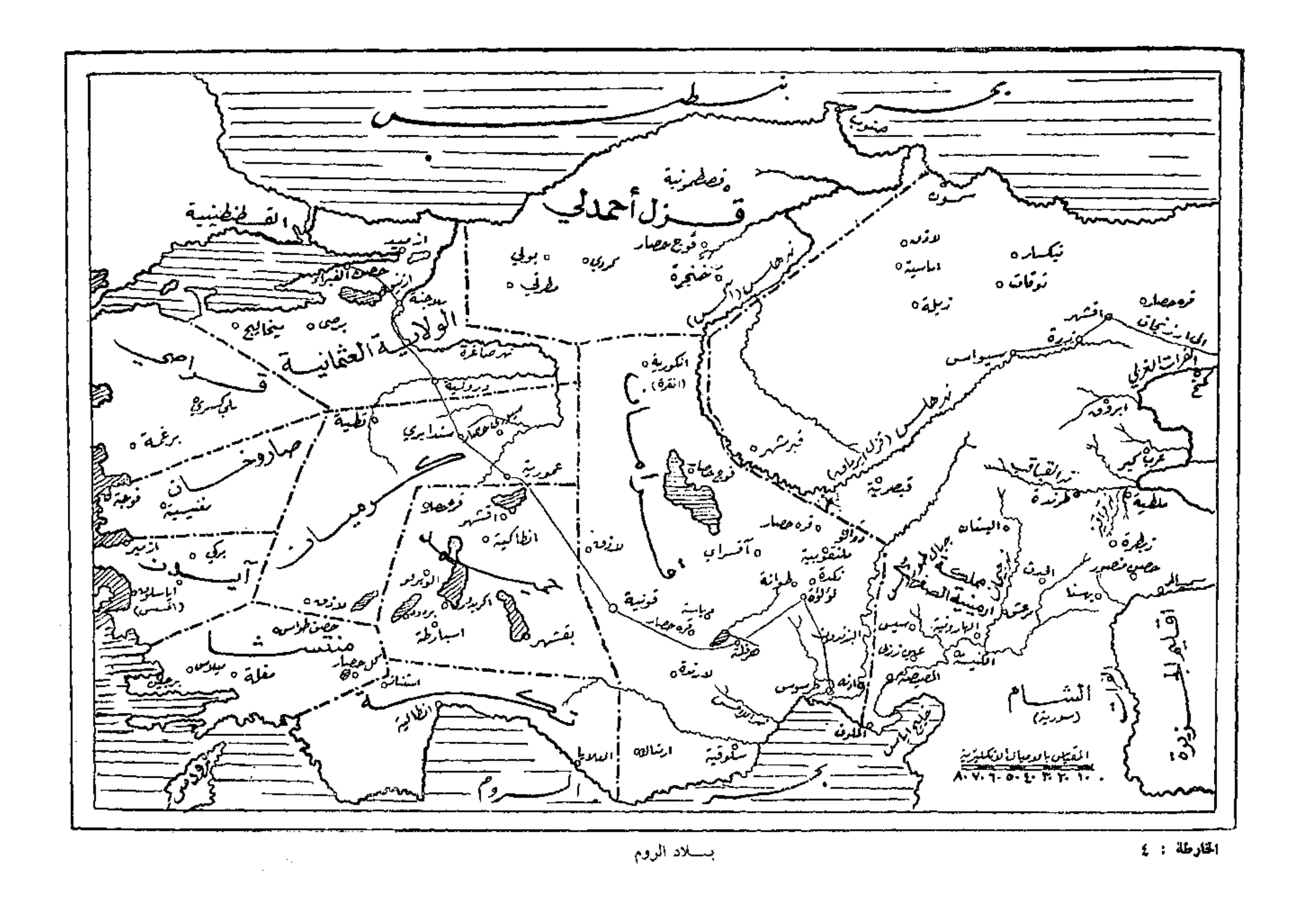
الخارطة : ١ أقاليم آسية الجنوبية الغربية فى أيام الخلافة العباسية



الخارطة : ٢ اقليما العراق وخوزستان مع قسم من أقاليم الجزيرة

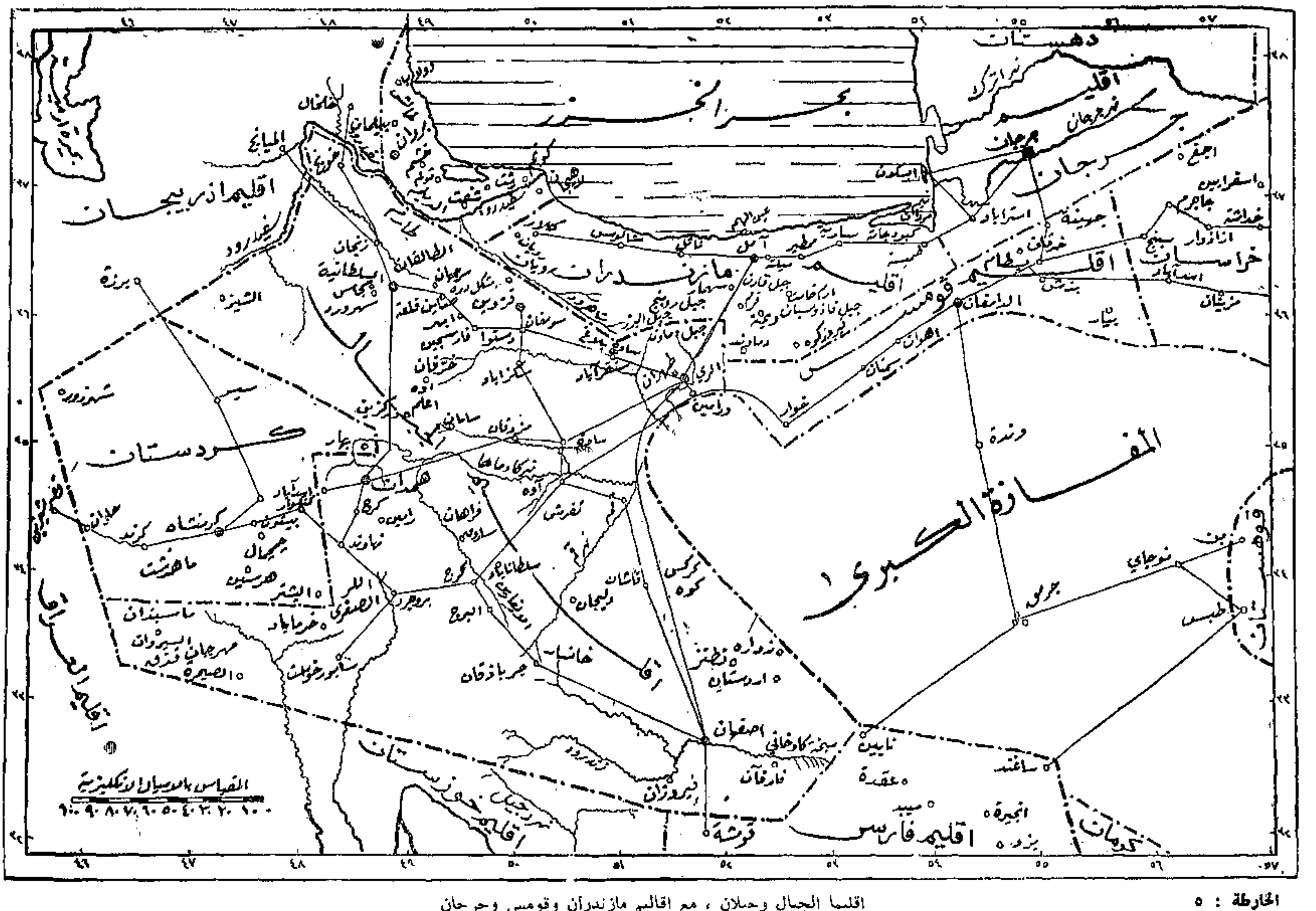


الخارطة : ٣ — اقليما الجزيرة واذربيجان ، مع أقاليم الحدود الشمالية الغربية

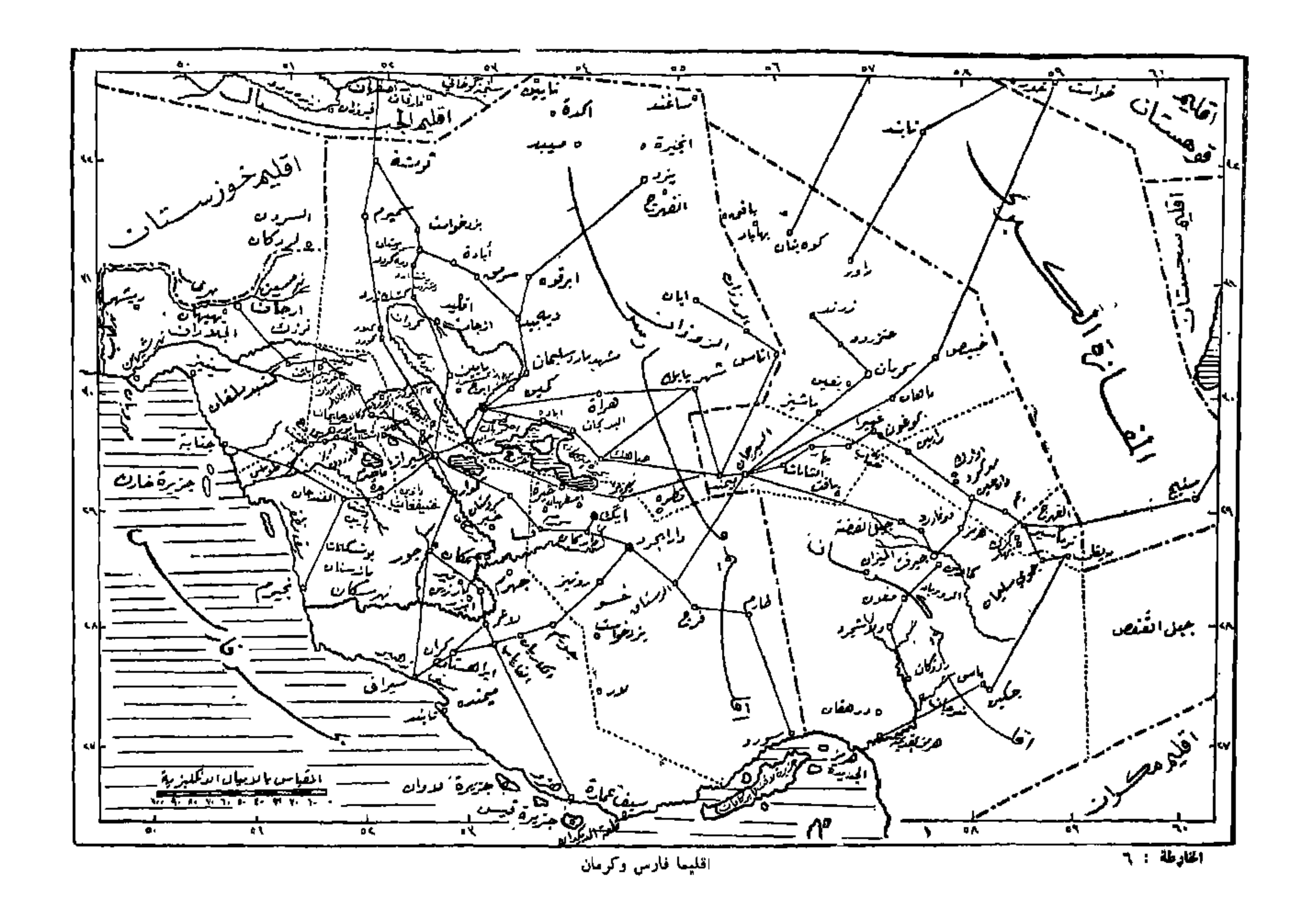


الخارطة : ٤

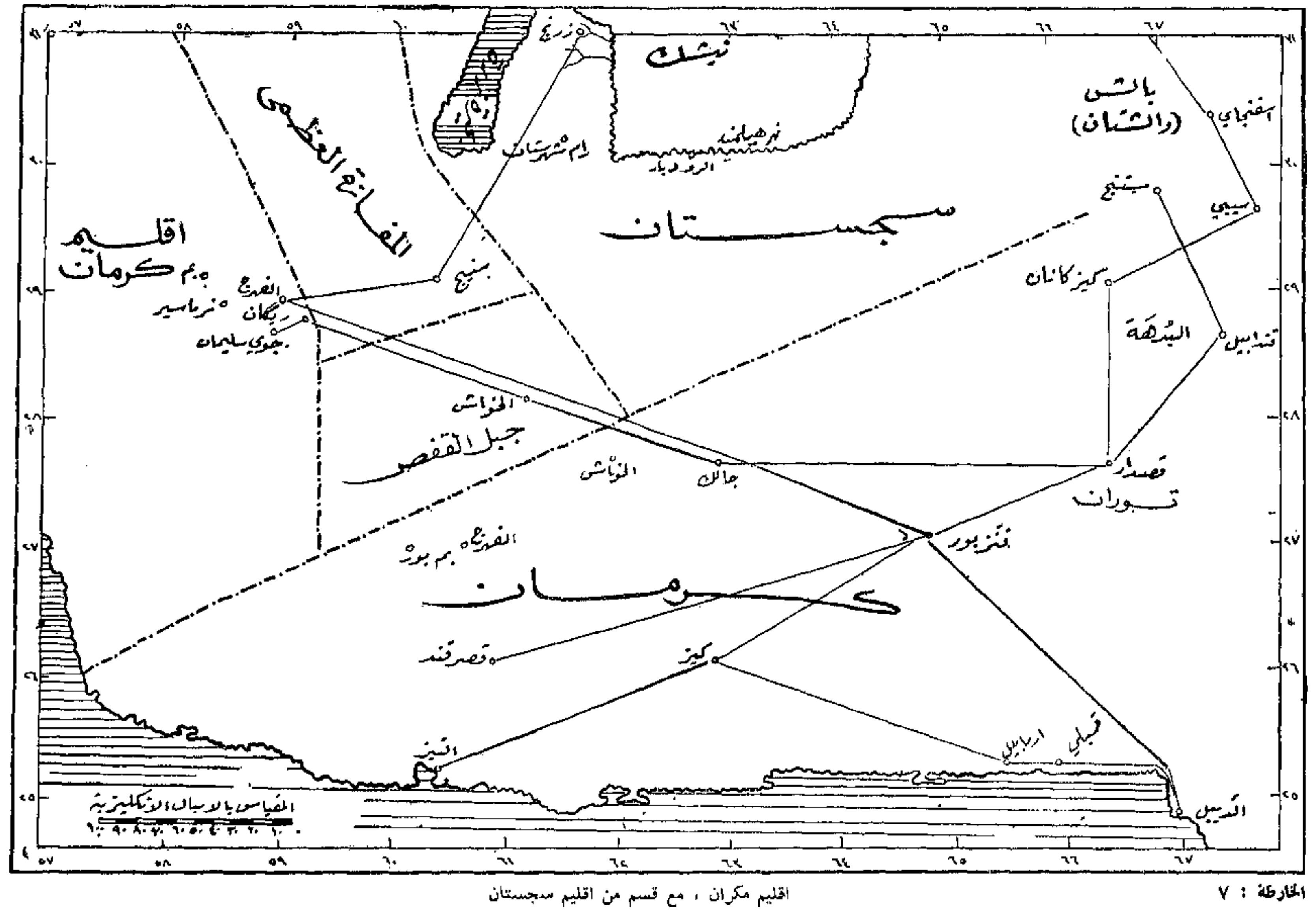
بلاد الروم



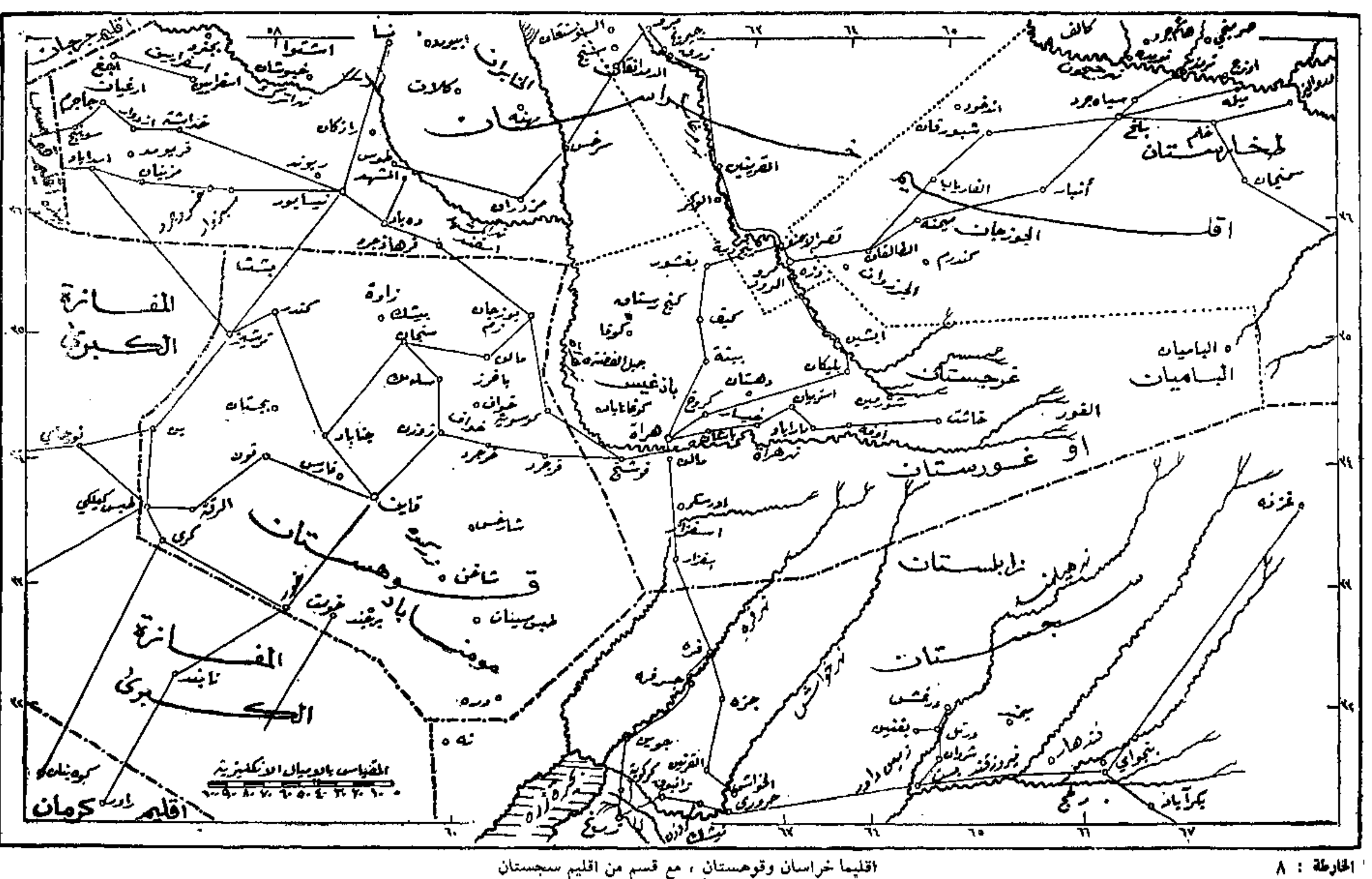
اقليما الجبال وجيلان ، مع اقاليم مازندران وقومس وجرجان



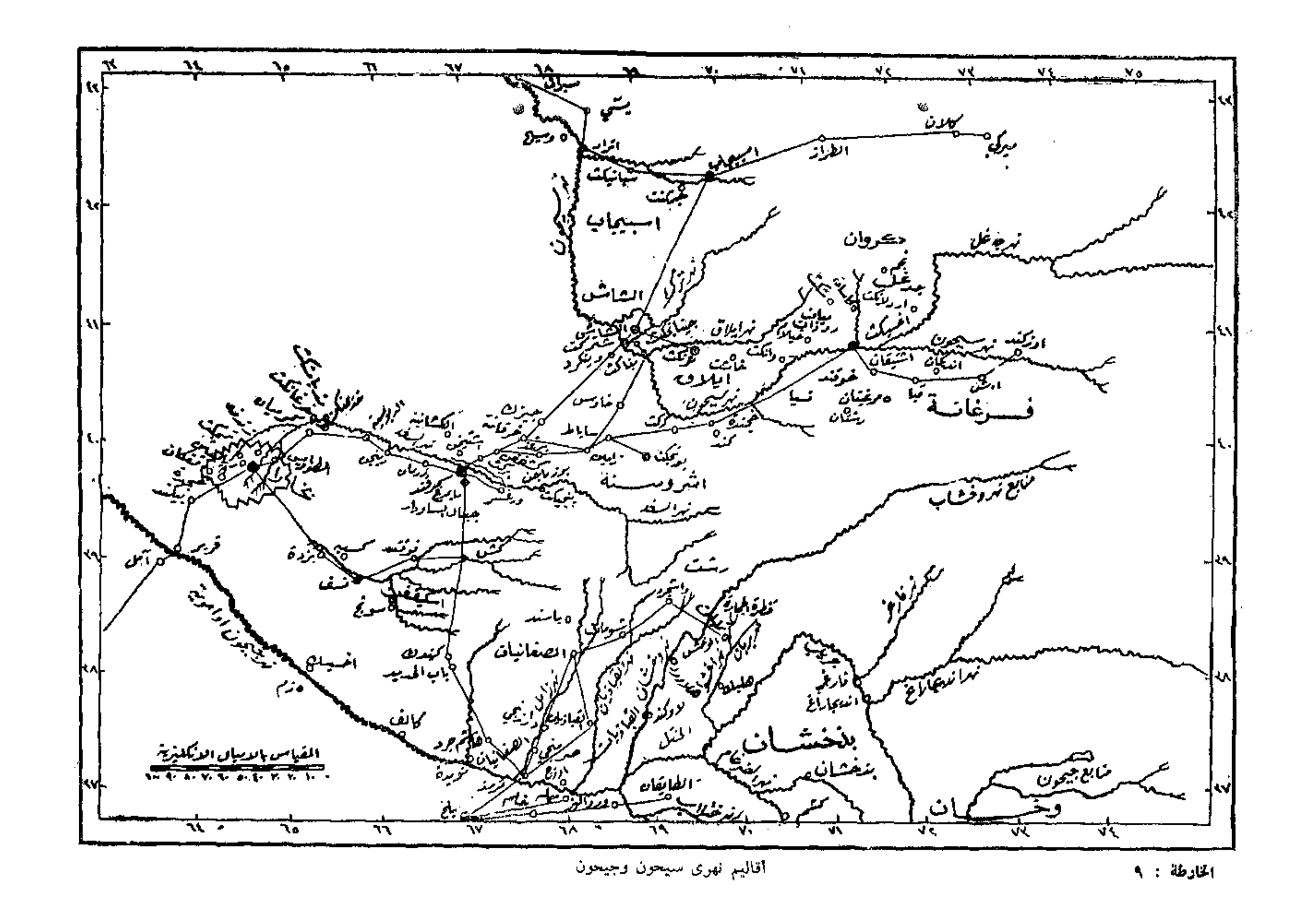
الخارطة : ٦ اقليما فارس وكرمان



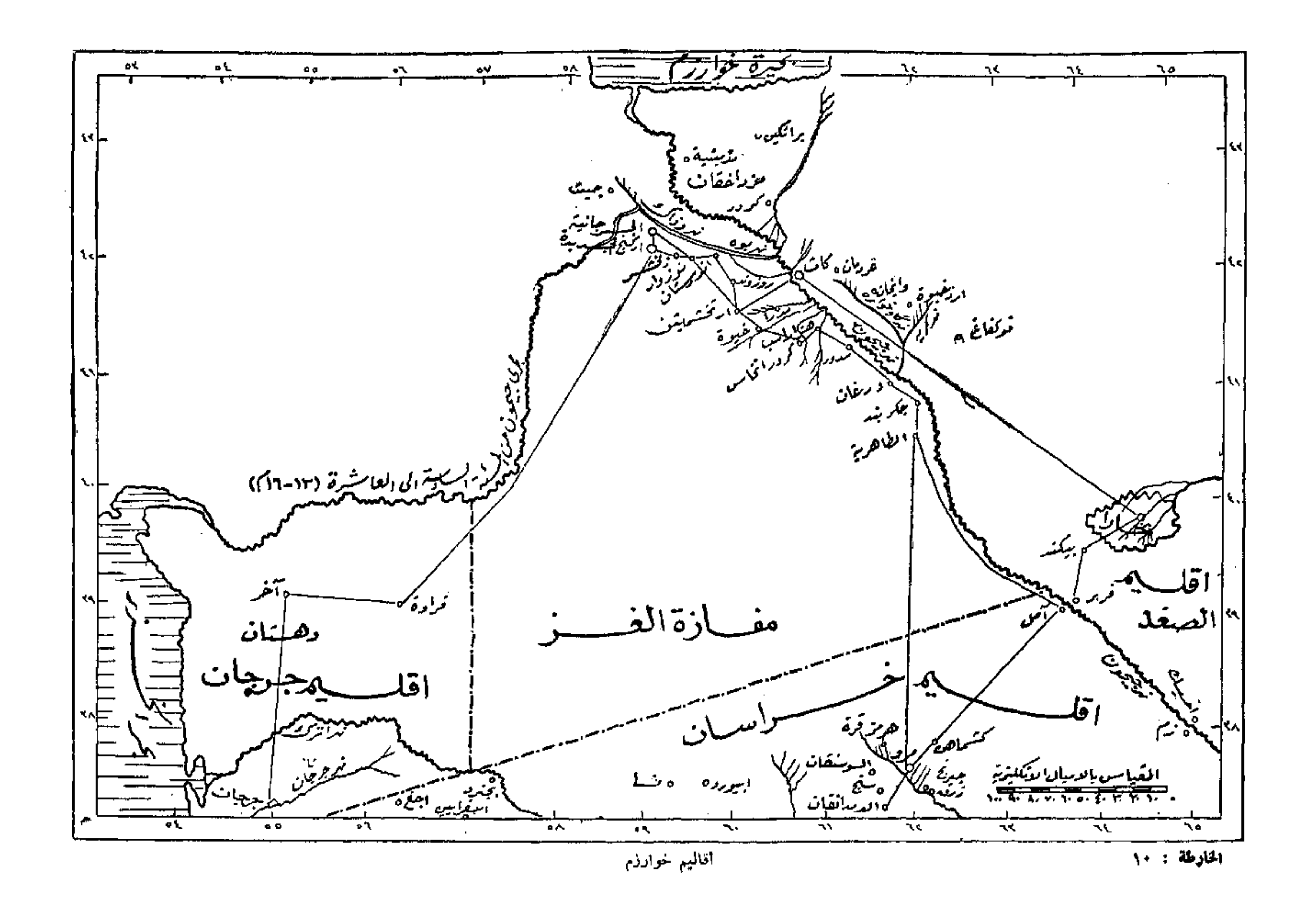
الخارطة : ٧ اقليم مكران ، مع قسم من اقليم سجستان



الخارطة : ٨ اقليما خراسان وقوهستان ، مع قسم من اقليم سجستان



الخارطة : ٩ أقاليم نهري سيحون وجيحون



اقاليم خوارزم

الخارطة : ١٠

صفة

أقاليم الدولة العباسية

من العراق الى اقاصى الشرق

مقدمة الترجمة

عني المؤرخون المسلمون الاقدمون عناية كبيرة بوضع التصانيف البلدانية : من معجمات ورحلات ومسالك وخطط وخوارط ومصورات ، تناولوا فيها بالوصف والتخطيط أقاليم العالم المعروف فى أيامهم . فلم يدعوا شاردة ولا واردة وقعت اليهم بالمشاهدة والمعاينة أو بالسماع والنقل الا دوّنوها فى أسفارهم . فخلّفوا لنا بذلك ثروة علمية ثمينة صارت مرجعا أساسيا لمن يبحث فى جغرافيا البلاد الاسلامية وغيرها ، من الوجهة العمرانية والتاريخية والاقتصادية والخططية . ولا ريب فى أن عناية الاولين بهذه الموضوعات ، كابن حوقل وابن خرداذبه والمقدسى والاصطخرى وياقوت ، انما كانت صفحة من صفحات النهضة العلمية التى ازدهرت منذ صدر الدولة العباسية .

والى اولئك المصنفين الثقات الذين كتبوا بالعربية ، ولا يتعدى زمنهم فى الغالب المئة التاسعة للهجرة (المئة الخامسة عشرة للميلاد) ، نجد جماعة ممن كتب بالفارسية والتركية . وبعض ما كتبه هؤلاء مستمد من المصادر العربية وبعضه من زياداتهم . وتصانيفهم هذه لا يستغنى عنها الباحث فى الجغرافيا التاريخية للاقطار الاسلامية ، ولاسيما ما تأخر زمنه عن اولئك المصنفين الاولين . وأشهرهم الحاج خليفة وأبو الغازى .

وحين بدأ اهتمام الغربيين ببلاد الشرق — ومبعث ذلك أسباب كثيرة مختلفة — ، رأينا منهم من قصد هذه الديار مستطلعا حال بلدانها وآثارها دارسا لغاتها وتاريخها . فصنفوا فى ذلك الكتب وكتبوا المقالات ووضعوا الخوارط . ومنهم من وجه همه الى مخلفات اولئك المصنفين الاقدمين ، فأقبلوا عليها يتدارسونها ، وكانت يومذاك مخطوطات تفرق شملها فى خزائن كتب العالم ، ويحققونها وينشرونها بالطبع وينقلون بعضها الى لغاتهم . ومنهم من انصرف الى التأليف فى الجغرافيا التاريخية

للبلدان الاسلامية بلغته ، مستمدا مادة بحثه من اولئك وهؤلاء جميعا .

ولعل في طليعة من يذكر من علماء هذا الصنف الاخير ، البحاثة الانكليزي المشهور كي لسترنج ، مؤلف هذا الكتاب الذي نضع ترجمته اليوم بين أيدي قراء العربية . فقد ألفينا كتابه أجمعها مادة وأكثرها شمولا . حوى بين دفتيه صفة الاقاليم الاسلامية من الفرات غربا حتى أقاصي ما بلغته الدولة العباسية في أواسط آسية شرقا . وهو الى ذلك كثيرا ما تناول زمنا تقدم عصر هذه الدولة وتأخر عنه استيفاء للموضوع الذي يعالجه . وقد رجع في كتابه هذا الى امهات التآليف البلدانية والتاريخية التي انتهت الينا من المصنفين المسلمين الاقدمين ، ويدخل في ذلك المطبوع والمخطوط ، كما رجع الى ما كتبه المستشرقون والرحالون من أبناء الغرب .

وقد جعل المؤلف لكتابه هذا خوارط عديدة استند في وضعها الى الخوارط الجغرافية الحديثة وأثبت فيها التسميات القديمة حسبما هداه اليه علمه ودله عليه بحثه . فذكر في هذه الخوارط أشهر كور الاقاليم الاسلامية ومدنها وقراها وأنهارها ، مبينا ما كان يتخللها من مسالك ، فان حصل في تعيين بعض المواقع شيء من الوهم ، فمرد ذلك في الغالب الى أن كثيرا من التسميات لا يعرف من أمره اليوم شيء ، ومبنى تعيينه على الحدس والتخمين . ولابد من القول ان متن الكتاب وخوارطه وحدة متماسكة يكمل بعضها بعضا .

ثم أن المؤلف ، على ما بان لنا من تتبع النصوص التي نقلها من المراجع القديمة ، كان أمينا في نقلها حريصا على رجع الفضل لذويه . ولم يتردد قط في أن ينوه بالمرجع الذي استقى منه وبزمنه كلما نقل منه . وان وهم المؤلف أحيانا في نقل بعض النصوص أو فهمها على غير وجهها - على ما أشرنا اليه في موطنه - فقد سبق هو الى الاعتذار عن ذلك في مقدمته ، بكون معظم مراجعه مكتوبا بالعربية والفارسية والتركية ، وهي لغات قل من أجادها معا .

والمؤلف ، على ما سيرى القارىء ، متمكن من موضوعه ، خبير بدقائقه ، مطلع على اصوله وفروعه ، يتنقل فيه تنقل العارف . وليس أدل على ذلك من تصانيفه الكثيرة في هذا الباب - وسيرد ذكرها في ترجمة حياته .

ولقد راعينا فى نقل هذا الكتاب ، أن تكون الترجمة العربية مطابقة للاصل . ولما كان المؤلف قد رجع الى جملة كبيرة من المصادر العربية القديمة ، منقبًا فيها وناقلا منها ما يتعلق بموضوعه ، رأينا لزاما علينا أن نعود الى تلك الاصول أنفسها فننقل منها النصوص بالحرف الواحد أو نوفّق بين جملة نصوص أدمجها المؤلف نفسه فى صفة مدينة أو موضع ما . وننتقى من ألفاظ الحضارة والعمران ومن تعابير تلك المصادر ما طابق سياق البحث فى الاصل الانكليزى وتمشى مع اسلوب المصنفين الاقدمين فى هذه الموضوعات . ولم نغفل مراجعة ما ظهر من كتب بعد تأليف هذا السفر . فاستعنّا بها فى استكمال بعض جوانب الموضوع بما أضفناه من حواش حيثما اقتضى الامر ، وقد ذيلناها بحرف (م) .

ولا يسعنا ، ونحن نقدّم ترجمة هذا السفر الى قراء العربية ، الا أن نشيد بفضل المجمع العلمى العراقى ، الذى رأى ما لهذا الكتاب من جزيل الفائدة وعظيم النفع ، فعهد الينا نقله الى العربية وأقرّ طبعه بنفقته ، وعني بنشره خدمة للعلم . فله منا أبلغ الشكر وأطيب الثناء .

بشير فرنسيس　　　كوركيس عواد

ترجمة لسترنج

مؤلف الكتاب*

ولـد لسـترنج Guy Le Strange فى هنستنتن هل بانكلترة سـنة ١٨٥٤ ، وتوفى فى كمبرج فى ٢٤ كانون الاول ١٩٣٣ ، عن عمر ناهز الثمانين سـنة .

أمضى لسترنج وقتا طويلا من عمره خارج بلاده ، فعاش فى باريس مع امه . وهناك اتصل بالمستشرق موهل Julius Mohl ناشـر الشـاهنامة ومترجمها الى الفرنسية . فشوّقه الى درس اللغتين الفارسية والعربية . وحضر فى باريس دروس المسـتشـرق ستانسـلاس گويار Stanislas Guyard فى اللغة العربية . فحفّزته هذه الدراسات الى زيارة بلاد فارس وهو فى عنفوان شبابه ، فمكث فيها ثلاث سنوات (١٨٧٧ ــ ١٨٨٠) توفر فى أثنائها على الوقوف على تاريخ هذه البلاد وأحوالها ولغتها . وكان من ثمار ذلك أن نشر سنة ١٨٨٢ بمشـاركة هگرد Haggard قصة The Vizir of Lankuran بالفارسية مع ترجمة انكليزية لها ومعجم لألفاظها وتعليق عليها . وفى سنة ١٨٨٦ نشر ترجمة قصة فارسية اخرى عنوانها The Alchemist . ونشر فى سنة ١٩١٥ القسم الجغرافى من كتاب « نزهة القلوب » لحمدالله المستوفى القزوينى

(*) استخلصنا هذه الترجمة من مراجع مختلفة ولاسيما مما كتبه عنه صديقه المستشرق براون ، فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية JRAS الصادرة سنة ١٩٣٤ ، ومما كتبته جريدة التايمس اللندنية فى عددها الصادر فى ٢٧ــ١٢ــ١٩٣٣ وقد تفضل علينا البروفسور ملوان Prof. Dr. M.E.L. Mallowan فبعث الينا بما ورد فى هذه الجريدة وبصورة المؤلف المنشورة فى آخر ترجمته هذه . (م) .

مع ترجمة له ، فى سلسلة مطبوعات لجنة گب . وكان لسترنج من أعضاء هذه اللجنة العاملين .

ولكن أجلّ الميادين التى برز فيها لسترنج ورفعته الى مصاف كبار المستشرقين ، كان فى ما ألفه من كتب فى الجغرافيا التاريخية للبلاد الاسلامية . فقد نشر فى سنة ١٨٨٦ ترجمة لما كتبه المقدسى عن فلسطين فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم » . وفى سنة ١٨٩٠ ظهر كتابه « فلسطين فى عهد الاسلام » Palestine Under the Moslems . وفى سنة ١٨٩٥ نشر قطعة من كتاب « عجائب الاقاليم السبعة » لابن سرابيون (سهراب) فيها صفة أنهار العراق والجزيرة ، مع ترجمة انكليزية وتعليقات وخارطة . وفى سنة ١٩٠٠ طبع كتابه الموسوم « بغداد فى عهد الخلافة العباسية » Baghdad During the Abbasid Caliphate . ثم أصدر فى سنة ١٩٠٥ كتابه «بلدان الخلافة الشرقية» The Lands of the Eastern Caliphate وهو هذا الذى نقدم اليوم ترجمته بالعربية .

وفى سنة ١٩١٢ نقل صفة اقليم فارس من كتاب « فارسنامه » لابن البلخى ونشره فى سلسلة كتب الجمعية الآسيوية الملكية . وقد ساهم أيضا فى نشر « تجارب الامم » لمسكويه الذى طبعت بعض أجزائه لجنة گب . وله مقالات عديدة فى الجغرافيا التاريخية لبلاد الاسلام ، نشرها فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية منذ انتخابه عضوا فيها سنة ١٨٨٠ حتى وفاته .

ولقد انجز لسترنج جميع هذه التآليف الجليلة وهو يعانى ضعفا شديدا فى بصره ، آل به سنة ١٩١٢ الى العمى . ولم يحل العمى دون مواصلة نشاطه العلمى ، فكان يلجأ الى مَن يقرأ ويكتب له . وانكبّ وهو فى هذه الحال على دراسة الاسبانية فأثمر ذلك نشره سنة ١٩٢٠ « كتاب الاغانى الاسبانية »

The Book of Spanish Ballads • وفى ســــنة ١٩٢٦ نقــل من الاسبانية تاريخ « دون جوان الفارسى » Don Juan of Persia وفى سنة ١٩٢٨ نشر حوادث «سفارة كلافيجو» The Embassy of Clavijo

والتف حول لسترنج كثير من الاصــدقاء والمعجبين به • وكان من أقرب أصدقائه اليه ، المستشرق براون E. G. Browne الذى مهد له السبل الى العمل فى جامعة كمبرج حيث ألقى محاضرات كثيرة فى شتى المواضيع • وقد اشتغلا معا فى لجنة گب التذكارية • ولم تخل أيام لسترنج من تلميذ ، شيخ أو شاب ، يتلقى عنه العلم بالفارسية أو العربية أو الاسبانية •



لسترنج فى اواخــر ايامــه

(عن صورة لتصرافية زودنا بهـا البروفسور ملوان)

مقدمة المؤلف

حاولت في هذه الصفحات ، أن أجمع في مجلد معتدل الحجم ما تفرق من أخبار في مؤلفات جغرافيي القرون الوسطى : العرب والفرس والترك ممن وصف بلاد العراق والجزيرة وفارس والاصقاع الدانية من آسية الوسطى . وما نقلتُ عنه من مراجع يبدأ بمصنفات المسلمين الاقدمين وينتهي بالمؤلفين الذين وصفوا استيطان هذه البلدان فيما بعد وفاة تيمورلنك ـ أي بعد الفتوحات الكبرى في آسية الوسطى ـ ففي وسعنا القول ان بالقرن الخامس عشر للميلاد ختمت العصور الوسطى في آسية .

وما السفر الذي أضعه بين أيدي القراء الا تكملة لكتاب « بغداد في عهد الخلافة العباسية » المطبوع سنة ١٩٠٠[1] وصلة للبحث الجغرافي الذي بدأته بكتاب « فلسطين في عهد الاسلام » الصادر سنة ١٨٩٠ .

ولكي احافظ على اعتدال حجم هذا الكتاب ، ضربت صفحا عن جغرافيا جزيرة العرب ووصف المدينتين المقدستين مكة والمدينة ، مع أن معظم هذه البلاد كان تابعا لدولة بني العباس . وقد يتناول هذا الموضوع من هو أدرى به مني من الباحثين فيكتب الجغرافيا التاريخية لجزيرة العرب ولمصر الفاطمية في الجانب الثاني من البحر الاحمر . ويصف أقاليم شمالي أفريقية المختلفة وبلدان الخلافة الغربية في الاندلس البعيدة التي ازدهرت على قصر عمرها . فحينذاك يتكامل علمنا بالبلاد الاسلامية .

وان أردنا أن يكون التاريخ الاسلامي ممتعا مفيدا وأن يفهم على حقيقته فهما صحيحا ، وجب علينا أن نبحث في الجغرافيا التاريخية للشرق الأدنى خلال

(١) نقل هذا الكتاب الى العربية وعلق عليه أحدنا : بشير فرنسيس ، وطبعه في بغداد سنة ١٩٣٦ .

العصور الوسطى بحثا مستفيضا شاملا . وها أنذا قد بذلت أول جهد فى هذا السبيل . أما ما يفتقر اليه هذا الكتاب من مزيد العناية به وجعله خيرا مما هو عليه الآن فأنا أول المسلّمين لذلك . ومهما يكن الامر فقد مهدت الطريق لمن يتناول الموضوع من بعدى بما أشرت اليه فى الحواشى من مراجع كل قول وبما قوّمته من أغلاط كتاب سالفين ، فكان ما جئت به باكورة التآليف فى وصف أقاليم الخلافة العباسية وصفا كاملا خلال هذه الحقبة . وما كتابى هذا الا مجمل ولست أدعي أنه وعى كل واردة وشاردة ، فقد اضطررت للمحافظة على الحجم الذى أردته له ، الى تحاشى ترجمة نصوص الرحلات المنتهية الينا من مؤلفى الاسلام ترجمة كاملة . وعلى ذكر الرحلات أقول ان الحاجة تمس الى اصدار طبعة جديدة لكتاب « طرق البريد والسفر فى بلاد الشرق » Sprenger, Post und Reise Routen des Orients مصححة تصحيحا وافيا بالاستناد الى المتون المنشورة حديثا . ذلك بالرغم من أن ترجمة المسالك والممالك التى ألحقها الاستاذ دى غويه بطبعته لابن خرداذبه وقدامة ، قد سدّت هذه الفجوة الى حد بعيد .

وقد ألحقت بوصف كل اقليم ، ذكر تجاراته وصناعاته على ما جاء فى المصادر التى اعتمدت عليها . على أن ما أوردته ليس الا نزرا يسيرا ، ومن أراد الوقوف على تجارات وصناعات الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى ، فليرجع الى الفصل الموسوم بـ « التجارة والصناعة » من كتاب فون كريمر « تاريخ حضارة الشرق » Culturgeschichte des Orients فهو ما زال خير ما كتب فى هذا الشأن .

ويرى القارىء بعد ثبت « مضامين » الكتاب ، أسماء البلدانيين المسلمين مرتبة بحسب سياق زمنهم . وقد أشرت اليهم فى الهوامش بالحروف الاولى من أسمائهم . أما غيرهم ممن رجعت اليهم فى الحواشى ، فقد ذكرت أسماءهم كاملة لدى الاشارة الاولى اليهم فقط . ومن اليسير معرفة أسماء مؤلفاتهم حين النقل منهم فى ما يلى المرة الاولى بالرجوع الى الفهرست الهجائى للوقوف على أول ذكر لهم فى الكتاب .

وسيقف القارىء فى الفصل التمهيدى ، على وصف موجز لمؤلفات

البلدانيين العرب . وكنت قد بسطت القول فيها في كتـاب « فلسطين في عهـد الاســـلام » Palestine Under the Moslems .

ولقد ذكرت السنين بالتاريخ الهجري مقرونة بما يوافقها من السنين الميلادية (بين قوسين) . وأراني في غنى عن التعليق على ما اتبعته في ضبط الاعلام : فقد جريت فيه على الطريقة الشائعة الاستعمال . وحسبي أن أذكر أن حرف (و) العربي يلفظ عادة (ڤ V) بالفارسية وأن (ض ـ ظ) يلفظان بالفارسية (ز) ، و (ث) يلفظ (س) .

ولا ريب في أن كتابا مثل هذا ، أعتمد في تأليفه على مصادر يكاد جميعها يكون شرقيا ، قد يقع القارىء على هفوات جمة فيه . ثم انه لتعدد المراجـع ، لا مناص من الزلل . واني لأشكر فضـل من يهـديني الى صـواب أو ينبهني الى ســهو .

وأرجو أن يقدم غيري على العناية بموضوع الجغرافيا التاريخية . فان ظهر كتاب غير هذا أوفى بحثا وأشمل موضوعا ، يكون كتابي قـد أصـاب الغاية من تمهيد الطريق الى ما هو أحسن .

لسترنج

شارع سان فرنسسكو بوليرينو رقم ٣
فلورنسة ـ ايطاليـة
ايـــار ١٩٠٥

البلدنيون المسلمون

وقد رتبت أسماؤهم بحسب زمن تصانيفهم

الاســـم	السنة الهجرية	السنة الميلادية
ابن خرداذبه	٢٥٠	(٨٦٤)
قدامة	٢٦٦	(٨٨٠)
اليعقوبى	٢٧٨	(٨٩١)
ابن سرابيون	٢٩٠	(٩٠٣)
ابن رسته	٢٩٠	(٩٠٣)
ابن الفقيه	٢٩٠	(٩٠٣)
المسعودى	٣٣٢	(٩٤٣)
الاصطخرى	٣٤٠	(٩٥١)
ابن حوقل	٣٦٧	(٩٧٨)
المقدسى	٣٧٥	(٩٨٣)
ناصر خسرو	٤٣٨	(١٠٤٧)
فارسنامه	٥٠٠	(١١٠٧)
الادريسى	٥٤٨	(١١٥٤)
ابن جبير	٥٨٠	(١١٨٤)
ياقوت	٦٢٣	(١٢٢٥)
القزوينى	٦٧٤	(١٢٧٥)
مراصد الاطلاع	٧٠٠	(١٣٠٠)
أبو الفداء	٧٢١	(١٣٢١)
المستوفي	٧٤٠	(١٣٤٠)

الاســـم	السنة الهجرية	السنة الميلادية
ابن بطوطة	٧٥٦	(١٣٥٥)
حافظ ابرو	٨٢٠	(١٤١٧)
على اليزدى	٨٢٨	(١٤٢٥)
جهان نما	١٠١٠	(١٦٠٠)
أبو الغازى	١٠١٥	(١٦٠٤)

الفصل الاول

تمهيد

بلاد ما بين النهرين وفارس واقاليمها فى ايام الخلفاء العباسيين ـ الاقاليم فى الاطراف الشمالية الغربية والشمالية الشرقية ـ الطرق من بغداد الى اقاصى حدود بلاد الاسلام ـ البلدانيون المسلمون وتصانيفهم ـ المؤلفون الاخرون ـ اسماء المواضع فى الاقاليم العربية والتركية والفارسية .

كانت بلاد العراق والجزيرة وفارس تؤلف مملكة الاكاسرة الساسانيين التى قضى عليها العرب قضاء مبرما حين ساروا لهداية العالم الى الاسلام بعد وفاة النبى محمد . أما الروم البزنطيون ، وهم الدولة العظمى الثانية التى هاجمها المسلمون ، فلم يغلبوها كل الغلبة ، بل استولوا على أقسام متفرقة من أقاليمها الغنية ، لا سيما سواحلها المطلة على جنوب البحر المتوسط وشرقه . وأما فى غير ذلك ، فقد أفلح القياصرة فى صد تقدم الخلفاء ، وظلوا على ذلك قرونا عدة . بل ان دولة الروم عاشت مئتى سنة ونيفا بعد زوال الخلافة العباسية .

على أن العرب اكتسحوا مملكة الساسانيين وأخضعوها لسلطانهم . أما يزدجرد آخر الاكاسرة فقد اعترضه بعضهم وقتله[1] . وانضوت بلاد فارس كلها الى الاسلام . وكانت دولة الخلفاء الذين اضطلعوا بتدبير المملكة الفارسية العابرة، قد نهجت نهج الاكاسرة فى الحكم . ولاسيما فى أيام العباسيين الذين غلبوا خصومهم الامويين بعد وفاة النبى بقرن ونيف من الزمن ، ونقلوا قاعدة الخلافة من الشام الى العراق ، وأسسوا بغداد على دجلة ، على بضعة أميال فوق طيسفون

---

(١) وللاطلاع على تفصيل ما كان من فرار يزدجرد ومقتله ، راجع : فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٣١٥ ـ ٣١٦ طبعة ليدن) وتاريخ الطبرى (١ : ٢٦٨١ ـ ٢٦٩٢ طبعة ليدن) . (م) .

عاصمة الساسانيين الشتوية الاولى. وسرعان ما أصبحت بغداد قاعدة الدولة الاسلامية فى الشرق . ولكن هذه الدولة منذ أيام أول خلفاء بنى العباس ، لم تحافظ على وحدتها ، ولو اسميًا . فانفصلت عنها الاندلس ، وما عتم أن قام فى قرطبة خليفة أموى زاحم خليفة بغداد العباسى . ولم يمض قرن وبعض قرن على قيام دولتهم حتى أفلتت مصر من أيديهم . فحين أعلن أمير قرطبة الاموى نفسه أميرا للمؤمنين فى الاندلس ، كانت السلطة قد انتقلت فى مصر الى الفاطميين الذين أخذوا بنظام الخلافة أيضا ، ونبذوا طاعتهم لبغداد . أما الشام فقد كانت تواكب مصر فى أغلب الاحيان . وأما جزيرة العرب فكانت تتنازعها الاثنتان . أما فى الشرق البعيد ، فقد استقلت أقاليم كثيرة عن الخليفة العباسى ، بيد أنها لم تقم فيها خلافة تساوى. بغداد[1] . وبالاجمال فجميع تلك الاقاليم الواسعة التى كانت تؤلف المملكة الساسانية قبل الاسلام ، لبثت حتى الاخير خاضعة لخلفاء بنى العباس خضوعا اسميًا ، ان لم يكن حقيقيا . فان هاتيك البلاد المترامية الاطراف التى يحدها شرقا صحارى آسية الوسطى وجبال أفغانستان ، وغربا دولة الروم البزنطيين ، كانت منقسمة الى أقاليم عديدة سنتبسط فى صفة أحوالها فى الفصول الآتية من الكتاب . وقد ظلت أسماء الاقاليم وحدودها فى أيام العرب على ما كانت عليه فى أيام الاكاسرة فى الغالب (على ما انتهى اليه علمنا) . فالشرق فى واقع الامر ، لم يتغير الا قليلا بحيث ان الاسماء والحدود لم يطرأ عليها تبدل يذكر حتى يومنا هذا ، وان كانت أحوال البلاد السياسية وأوضاعها الاقتصادية أى المادية قد تغيرت على ما هو منتظر تغيرا كبيرا فى خلال الالف والثلاثمئة سنة الاخيرة .

وقبل أن أتوغل فى هذا الموضوع ، أرى أن اوجز القول فى هذه الاقاليم المختلفة تبعا لسياق ورودها فى الفصول الآتية .

فالاقليم السهلي العظيم الذى أطلق عليه اليونان اسم « ميزوبوتامية » Mesopotamia (أى ما بين النهرين) ما هو الا هبة الرافدين : الفرات ودجلة . وهذا النهر الاخير (على ما سنبين فى الفصل الثانى) لم يكن مجراه الاسفل أيام

---

(١) سيأتى فى الفصل الثانى عشر ، كلام المؤلف على مدينة « خشم » وان الداعى العلوى كان يحكم فيها حكم السلطان المستقل ولا يعترف للخليفة بالامامة ، هذا اذا لم نذكر صاحب الزنج فى البصرة على قربها من قاعدة الخلافة (م) .

العباسيين فيما هو عليه اليوم • ونظرة واحدة الى الخارطة ترينا أن بادية العرب القاحلة ، تمتد حتى طف الفرات الغربي ، اذ ليس لهذا النهر روافد في يمينه • أما دجلة ، فحاله خلاف ذلك : لأن الجبال الايرانية تبعد مسافة كبيرة عن شرقيّه ، فتنحدر منها جداول كثيرة تؤلف روافد عدة لدجلة تصب في يساره • وقد ورث المسلمون عن الساسانيين في العراق نظاما للري جعل هذا الاقليم من أخصب بلاد الدنيا[1] • وستنبسط في ذكر هذا النظام • ولكن نكتفي الآن بالقول ان العرب كانوا يسقون أرض ما بين النهــرين بتحويل الفائض من ماء الفرات الى جملة أنهر تأخذ من الفرات الى دجلة مخترقة سهول ما بين هذين النهرين • أمـا الارض من شرقي دجلة حتى سفوح جبال ايران ، فقد كان بعضها تسقيه أنهار تنحدر من هذه الجبال ، وبعضها تسقيه جملة أنهار تخرج من دجلة وتعود اليه في جانبه الايسر • وكانت هذه الانهار تستوعب مياه فيضانات كثير من الانهار الصغيرة التي تنبع في الجبال الشرقية •

وقد قسم العرب بلاد ما بين النهرين الى اقليمين : الاسفل والاعلى • وقوام الاقليم الاسفل أرض الرسوب الخصبة وهي بلاد بابل القديمة ، وقد عرف هـــذا الاقليم بالعراق • وحدّه الشمالي (وقد اختلف باختلاف الازمان) خط يمتد من الشرق الى الغرب مبتدئا من دجلة ومنتهيا بالفرات ، حيث يأخذ هذان النهران باقتراب أحدهما من الآخر في السهل الذي بينهما • ولا ريب أن أكبر مدن العراق في أيام بني العباس كانت بغداد • ولكن قبل قيـام الدولة العباسية بقرن ، أنشـأ

---

(١) قلنا : بل ان قدماء العراقيين ، منذ أبعد العصور ، قد وجهوا جل عنايتهم الى مياه الرافدين ، فأقاموا السدود وشقوا الأنهار لضبط مياه الفيضان وارواء الأراضي الصالحة للزراعة • فنشأ من ذلك نظام للري تعاقب على رعايته وتحسينه السومريون والأكديون والبابليون والآشوريون • ويثبت ذلك ما يرى من معالم الأنهار القديمة المندرسة الكثيرة في جميع انحاء العراق وما يرى بجانبها وبقربها من أطلال ألوف القرى والمدن • ففي شمالي العراق • أوقفتنا التحريات الأثرية على الأنهار التي شقها الآشوريون في المناطق الجبلية وغيرها لارواء عواصمهم ، نذكر منها مشروع ارواء كالح من نهر الزاب الأعلى • وارواء نينوى من نهر الكومل • وارواء اربل من مياه وادي باستورة • وفي وسط العراق وشرقيه وجنوبيه ، شقت أنهار كثيرة ، كان يأخذ بعضها من يمين دجلة ويساره ، مثل : النهروان وكان يعرف عند البابليين باسم تاراث ، ودجيل • وبعضها كان يأخذ من يسار الفرات الى دجلة مخترقا أواسط وادي الرافدين لارتفاع وادي الفرات عن وادي دجلة • وقد ذكر طه باقر في كتابه « مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة » (١ : ٣٧٢) اسماء بعضها وهي باتي انليل ، الذي عرف بنهر عيسى في العصر العباسي • ونارشاري اي نهر الملك وقد عرف في العصر العباسي بنهر ملكا أو نهر الملك • ونهر كوثي وكان قرب مدينة كوثي البابلية • ونهر النيل وكان يأخذ من الفرات في شمال بابل ويمر بمدينة كيش • ونهر كان يأخذ من يمين دجلة فينساب في منطقة الغراف الحالية الى أراضي مملكة لكش ويعزى حفره الى احد ملوك مدينة لكش (تلو اليوم) في نحو سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد • (م) •

المسلمون الاولون بعد فتح العراق ، ثلاث مدن كبيرة وهى : واسط والكوفة والبصرة . ظلت هذه المدن مزدهرة بضعة قرون ، وكانت هى والانبار (والانبار مدينة من أيام الساسانيين)[1] التى على الفرات فى خط عرض بغداد ، أكبر المدن الآهلة فى اقليم العراق أيام بنى العباس .

وتمتد فى شمال أرض الرسوب ، السهول الصخرية فى أعالى ما بين النهرين . وهناك قامت مملكة نينوى فى العصور القديمة . وقد سمى العرب بلاد ما بين النهرين العليا بالجزيرة ، لأن تلك السهول العظيمة تحيط بها مياه أعالى الفرات ودجلة والأنهار التى تنصب فيهما جنوبى السهول الصخرية . ويمتد اقليم الجزيرة شمالا حتى الجبال التى ينبع فيها هذان النهران العظيمان . وكانت الجزيرة تنقسم الى ثلاثة أقسام ، نسب كل قسم منها الى القبيلة العربية التى نزلته أيام الاكاسرة . وأشهر مدنها : الموصل وهى على مقربة من أطلال نينوى ، وآمد فى أعالى دجلة ، والرقة على عدوة الفرات الكبرى بالقرب من طف البادية . وفى أقصى الطرف الآخر من هذه البادية مدينة دمشق .

ويصف الفصل الذى يليه ، البلاد الجبلية التى يخرج منها النهران التوأمان، وهما منبعا الفرات . وهذه البلاد قد تناوبتها أيدى العرب والروم . فقد كانت مدنها وحصونها تارة بيد المسلمين وتارة بيد النصارى ، بحسب مدّ الحرب وجزرها بينهم . ولم يستقر العرب فى هذه الاصقاع ، ولهذا جاء وصفها فى مصادرنا الاولى مختصرا فى الغالب . ونظير ذلك ما كان من أمر الاقليم المعروف ببلاد الروم بل بمدى أوسع : فقد لبث هذا الاقليم حتى النصف الاخير من المئة الخامسة للهجرة (المئة الحادية عشرة للميلاد) جزءا لا يتجزأ من دولة الروم البزنطيين ومرجع ذلك أنه كان يفصل بين هذا الاقليم وبين بلدان الخلافة ، حاجز عظيم وهو جبال طوروس . على أن المسلمين كانوا فى نحو كل سنة يغزون بلاد الاناضول عابرين دروب جبال طوروس . ولقد حاصروا القسطنطينية غير مرة

---

(١) يؤخذ من دراسة وارد W. H. Ward وهلبرخت Hilprecht لأطلال الأنبار ان مدينة كانت قائمة فى هذا الموضع قبل ان يختط فيه الملك الساساني سابور الثانى (٣١٠ – ٣٧٩ م) مدينة سنة ٣٥٠ م باسم فيروز سابور وهى التى عرفت بالأنبار . (أنظر دائرة المعارف الاسلامية ، مادة « الأنبار ») (م) .

دون جدوى وأقاموا فى بعض الاوقات حاميات ، واستولوا على حصون فى هضبة آسية الصغرى . أما فى ما عدا ذلك فلم يكتب لخلفاء بنى العباس الاستيلاء على تلك البلاد . فقد غزوا غزوات كثيرة فى آسية الصغرى ، دون أن يتاح لهم أخذ رقعة فيها . ولم يتوطد حكم المسلمين هناك حتى ضعفت الخلافة فحلّ السلاجقة الاتراك فى هذه الهضاب التى غنموها من البزنطيين ، فصارت آسية الصغرى ، أى بلاد الروم أخيرا ، من جملة ديار المسلمين . وهى ما زالت على ذلك . وفى شرق اقليم الجزيرة العليا ، وهى بلاد ما بين النهرين ، اقليم اذربيجان . وقد عرف قديما باسم « أتروباتين » Atropatene ويحدّه من أعلاه نهر أرس Araxes ومن أسفله النهر الابيض وهو « سفيد رود » ، وكلاهما يصب فى بحر قزوين . وأبرز العوارض الطبيعية فى هذا الاقليم ، البحيرة الملحة الكبرى المعروفة الآن ببحيرة أرمية ، وبقربها تبريز ومراغة قاعدتا الاقليم . والى شرقها : أردبيل ، وهى من كبار مدنه وأقربها الى بحر قزوين . وتناول الفصل الذى يليه ، جملة أقاليم صغيرة على الحدود الشمالية الغربية . أولها كيلان أو جيلان ، على بحر قزوين حيث يشق سفيد رود جبل ألبرز وهو الحاجز الجبلى فى الهضبة الايرانية . ويجرى هذا النهر فى سهل رسوبى كوّنه الغرين فألف دلتا صغيرة فى داخل بحر قزوين . وتناول هذا الفصل أيضا صفة اقليم موقان، وهو عند فم نهرى أرس والكر، Cyrus المتحد . واقليم أران الى غربه ، وهو بين هذين النهرين ، واقليم شروان فى شمال الكر ، وكرجستان « جورجية » عند منابعه . وفى آخره : أرمينية الاسلامية عند منابع أرس وهى الاقليم الجبلى المحيط ببحيرة وان .

وفى جنوب شرقى أذربيجان ، اقليم ماذى الخصب الذى أحسن العرب فى تسميته باقليم الجبال . فان جباله تشرف على سهل ما بين النهرين الاسفل . وهذه الجبال تمتد شرقا حتى تبلغ حدود المفازة الكبرى فى أواسط ايران . ولما علا شأن الاكراد وعظم أمرهم فى الازمنة الاخيرة ، عرف القسم الغربى من اقليم الجبال بكردستان . وسيمرّ بنا أن اقليم الجبال فى القرون الوسطى غالبا ما أخطأوا فى تسميته بالعراق العجمى تمييزا له عن العراق العربى الذى يراد به بلاد

ما بين النهرين السفلى . وفى اقليم الجبال ، مدن كثيرة : ففى الغرب كرمانشاه وهمذان (وهى اكبتانا Ecbatana القديمة) . وفى الشمال الشرقى : الرى (وهى Rhages) . وفى الجنوب الشرقى: أصفهان . ثم ابتنى مغول فارس مدينة السلطانية فى سهول هذا الاقليم الشمالية ، وقد أخذت مكان بغداد حينا من الزمن فأضحت قاعدة هذا القسم من دولتهم التى كانت تتألف فى أيام الايلخانيين من بلاد ما بين النهرين وفارس . وكانت تخرج من جبال « اقليم الجبال » أنهار كثيرة، منها كارون ، وقد سماه العرب دجيل (تصغير دجلة) . وهذا النهر بعد أن ينساب فى مجرى طويل متعرج يصب فى رأس خليج فارس الى شرق المصب المشترك للفرات ودجلة .

أما اقليم خوزستان ، فهو فى جنوب ماذى وشرق العراق ، على جانبى المجرى الاسفل لنهر كارون ، أى دجيل وفروعه العديدة . كان هذا الاقليم عظيم الخصب وافر الخير . وأشهر مدنه تُستَر والاهواز . ولوفرة مياهه زكت غلات أرضه . وفى شرق خوزستان على الخليج ، اقليم فارس العظيم . وهو بلاد برسس Persis القديمة مهد المملكة الفارسية . وقد ظل هذا الاقليم فى أيام العباسيين منقسما الى خمس كور على نحو ما كان عليه فى عهد الساسانيين . وكانت فارس مكتظة بالمدن الصغيرة والكبيرة . وأجلّها شيراز قاعدة الاقليم ، واصطخر (برسبوليس Persepolis) ويزد ، وأرّجان ، ودار أبجرد . وكانت جزر الخليج تعد من أعمال فارس . وكانت جزيرة قيس مركزا تجاريا ذا شأن قبل نشوء مدينة هرمز . وأبرز العوارض الطبيعية فى فارس بحيرة بختيكان الكبرى الملحة ، ورقع مائية اخرى أصغر منها منتشرة فى وديان الهضبة العريضة . وما فى هذا الاقليم من جبال ، متشعب من سلاسل اقليم الجبال ، وقد مرت الاشارة اليه . وصارت كورة دار أبجرد فى فارس اقليما قائما بنفسه فى أيام المغول . وكانت تسمى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة للميلاد) شبان كاره. وفى أواخر العصور الوسطى الحقت كورة يزد أيضا باقليم الجبال .

وفى شرق فارس ، اقليم كرمان . وهو دون سالفه خصبا لخلوه من الانهار تقريبا . ولمتاخمته المفازة الكبرى . وكان لهذا الاقليم قصبتان فى أيام العباسيين،

وهما : السيرجان وكرمان . وأشهر مدنه : هرمز على الساحل وجيرُفت فى الداخل ، وكانت مدينة رائجة التجارة . وأبرز العوارض الطبيعية فى هضبة ايران العالية : المفازة الكبرى فى وسط بلاد فارس . وهذه المفازة مقفرة ملحة مترامية الاطراف ، تنحرف باتجاه الجنوب الشرقى قاطعة بلاد فارس من الرى فى لحف الجبال المشرف جانبها الشمالى على بحر قزوين . وهى تنبسط كنطاق عريض يندمج طرفه الاسفل بجبال مكران ، الاقليم المتاخم للمحيط الهندى . وفى هذه المفازة واحات قليلة وتغطى الاملاح رقعة واسعة من سطحها المجدب . على أن عبور المفازة هيّن شتاء ففيها مسالك كثيرة واضحة المعالم تربط بين المدن القائمة على جوانبها . ومع ذلك فان هذه المفازة الكبرى حاجز يحول دون الاتصال الدائم بين اقليمى فارس وكرمان ، وهما فى شفيرها الجنوبى الغربى والاقليمين الشرقيين فيما يلى حدها الآخر ، ونعنى بذلك خراسان ومعه سيستان فى جنوبه الشرقى . وكان لهذا الحاجز الصحراوى أثر كبير فى تاريخ بلاد فارس خلال جميع أدواره . وبعد أن ذكرنا فى هذا الفصل ما انتهى الينا من أقوال البلدانيين المسلمين فى المفازة الكبرى ، تناولنا بالبحث اقليم مكران الذى يصاقب الهند من شرقه ويصعد المرتفعات المشرفة على وادى الاندس (Indus) ويعرف قسم منه اليوم ببلوجستان . على أن مراجعنا لم تستوف صفة هذه الاتجاه .

والى شمال مكران ، عبر أضيق أقسام المفازة ، بازاء كرمان ، اقليم سجستان أى سيستان . وهو فى شرق زره ، البحيرة الواسعة الضحلة . ويصب فى هذه البحيرة نهر هلمند وغيره من الانهار الكثيرة المنحدرة من جبال أفغانستان الشاهقة ـ فوق كابل وغزنة ـ الى الجنوب الغربى . وفى هذا الموضع مدينة قندهار . وهى فى سهل يحف به رافدان من روافد هلمند . ومدينة زرنج قاعدة سجستان ، عند مصب هذا النهر الكبير فى بحيرة زره . وفى شمال غربى بحيرة زره ، على شفير المفازة الكبرى ، الاقليم الجبلى المسمى قوهستان (أى بلاد الجبال) وأشهر مدنه : تون وقاين وقد ذكرهما ماركو بولو فى رحلته معا باسم تونكين

(Tunocain) [١] ويؤلف اقليما سجستان وقوهستان حدود خراسان الجنوبية وهو الاقليم الشرقى العظيم فى بلاد فارس .

ويحسن بنا قبل أن نصف هذا الاقليم الاخير الاشارة الى الاقاليم الصغيرة الثلاثة : قومس وطبرستان وجرجان وهى موضوع الفصل المقبل . فقومس وقصبته الدامغان ، يمتد بحذاء الحافة الشمالية للمفازة الكبرى شرقى الرى . وفيه السفوح الجنوبية لجبال ألبرز التى تفصل هضبة ايران العالية عن بحر قزوين . وهذه الجبال ، ولاسيما جانبها الشمالى ، تنحدر الى بحر قزوين وتؤلف اقليم طبرستان المسمى أيضا مازندران ، الممتد من كيلان ودلتا النهر الابيض (سفيد رود) فى الغرب الى الزاوية الجنوبية الشرقية من بحر قزوين . ويتصل هاهنا اقليم طبرستان بجرجان ، أى كركان ، وهو هركانية (Hircania) القديمة ، وفيه الاودية التى يسقيها نهر اترك (Atrak) ونهر جرجان . وعلى هذا الاخير تقوم مدينة جرجان . ويمتد اقليم جرجان شرقا من بحر قزوين الى الصحراء التى تفصل خراسان عن الارض الزراعية فى دلتا جيحون (Oxus) وهى التى يقال لها اقليم خوارزم .

واقليم خراسان الحالى ليس الا بقية للصقع الكبير الذى كان يعرف بهذا الاسم منذ أيام العباسيين حتى أواخر العصور الوسطى . فان اقليم خراسان ، كان حينذاك يضم أيضا ما هو اليوم شمال غربى أفغانستان . وكان يكتنف خراسان فى العصور الوسطى نهر بدخشان من الشرق ونهر جيحون وصحراء خوارزم من الشمال . وقسّم البلدانيون المسلمون خراسان الى أربعة أرباع ، عرف كل ربع باسم قصبته ، وهى : نيسابور ومرو وهراة وبلخ . وأبرز

---

(١) ماركو بولو Marco Polo سائح بندقى (ولد نحو سنة ١٢٥٤ ومات سنة ١٣٢٤م) رحل مع ابيه وعمه الى بلاد الشرق سنة ١٢٧١ م فشاهد بلاد فارس وهضبة بامير وصحراء غوبى . وعاش فى بلاط قبلاى خان (فى بكين) منذ سنة ١٢٧٥ م واصبح من المقربين اليه ، فبعثه غير مرة الى بلاد شتى . وتعلم كثيرا من لغات ولهجات الأقوام التى كان يحكمها هذا الخان . وفى خلال ذلك زار يونان قرب حدود التبت وشمال برما وكوشن شين وجنوبى الهند . واقامه الخان حاكما على يانغجو . وفى نحو سنة ١٢٩٣م عاد الى البندقية وفيها كتب رحلته التى ضمنها مشاهداته فى الصين والشرق وهى تعد من اثمن المصادر عن العالم فى المئة الثالثة عشرة للميلاد . وقد ترجمت الى لغات كثيرة وطبعت غير مرة . (م) .

العوارض الطبيعية فى خراسان : النهران العظيمان ، نهـر هراة ونهـر مرو . ومخرجهما فى جبال البلاد المعروفة اليوم بأفغانستان ، وينعطفان شمالا ، ثم يفنى ماؤهما فى رمال الصحراء أمام خوارزم ، فلا ينتهيان الى بحر أو بحيرة .

ويتناول الفصل الذى يليه أعالى نهر جيحون وصفـة جملة أقاليم صغيرة تمتد من بدخشـان فالى الغرب وتقع فى شمال هذا النهر العظيم وعلى روافد ضفته اليمنى . وفى هذا الفصل أيضا وصفنا اقليم خوارزم وهو فى جنوب بحر آرال. وقوامه دلتا هذا النهر ، وقصبته القديمة أركنج . وقد أفردنا بعض صفحات هذا الفصل لايضاح المجرى القديم لنهر جيحون الماد الى بحر قزوين ، وهو موضوع قد كثر حوله الجدل . ووراء هذا النهر ، فيما بينه وبين سيحون (Jaxartes) ، اقليم الصغد وهو صغدبانا (Soghdiana) القديم ، وفيه المدينتـان الجليلتـان : سمرقند وبخارى ، وهما على نهر الصغد . وهذا الفصل يسبق آخـر فصـول الكتاب . أما الفصل الاخير ، فيتناول بالبحث الاقاليم التى على نهـر سيحون من اقليم فرغانة ، بالقرب من تخوم صحارى الصين ، وقاعدته أخسيكث ، الى الشاش وهى طشقند الحديثة . كما يتناول اقليم أسبيجاب فى الشمال الغربى . ووراء هذا الاقليم ينساب نهر سـيحون حتى يصب فى أعلى بحـر آرال مـارا بالتيـه الصحراوى القارس . ولم يذكر البلدانيون العرب الاقدمون الا أخبارا مختصرة عن هذه الاقاليم الشمالية التى فى أقاصى الشرق فيما وراء آسية الوسطى . وتلك الاصقاع موطن الترك ولم تصبح ذات شأن الا بعد الغزو المغولى . ومما يؤسف عليه أنه لم ينته الينا مما يعتد به من الاخبار عن هذه الحقبة الا النزر القليل . وفى الغالب لم يسعفنا البلدانيون العرب فى ذلك . وكان لنا العوض بالمؤلفين الفرس والترك ، ولكن ما انتهى الينا منهم مشوش لا يوثق به .

وحين بلغت الدولة الاسلامية أقصى اتساعها فى أيام بنى العباس ، انشـىء نظام محكم للطرق مركزه بغداد . فكانت الطرق الآتية من أقاصى الشرق تعبر دجلة ميممة شطر الحجاز لأداء فريضة الحج ، اذ على المسلمين الحج الى مكة ولو مرة واحدة فى العمر[١] . وقد انتهت الينا من ذلك الزمن أوصاف وافية عن نظام

(١) ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا (آل عمران : ٩٦) . (م) .

الطرق هذا (وقد ورثه العرب عن مملكة الفرس القديمة)[١] وفى وسعنا أن نجمل وصف أهم الطرق التى تخترق الاقاليم المار ذكرها فى الفقرات السابقة •

وأشهر الطرق العامة : طريق خراسان العظيم الضارب الى الشرق • وهو يربط العاصمة بمدن ما وراء النهر التى فى تخوم الصين • ولعل هـذا الطريق أوفر الطرق حظا من وصف البلدانيين له • يبدأ من باب خراسان فى بغـداد الشرقية ، ثم يقطع السهل عابرا أنهارا عديدة فوق قناطر حسنة البناء ، حتى يبلغ حلوان وهى أسفل الدرب المؤدى الى جبال ايران • وهناك يدخل هذا الطريق اقليم الجبال • وبعد أن يصعد الجبال صعودا حادا ، يصل كرمنشاه قاعدة كردستان فيجتاز اقليم الجبال من أقصاه الى أقصاه باتجاه الشمال الشرقى ، ويمر بهمذان ، فالرى • ومن الرى فما بعدها يأخذ نحو الشرق فى الغالب ، فيمر بقومس تاركا جبال طبرستان فى يساره والمفازة الكبرى فى جنوبه ، حتى يدخل اقليم خراسان قرب مدينة بسطام • ثم يتابع سيره فيأتى الى نيســابور ، ثم الى طوس حتى يبلغ مرو • وبعد أن يبارح مرو ، يجتاز الصحراء فيبلغ ضفة نهر جيحون عند آمل ، ثم الى بخارى ، فسمرقند ، وهما فى اقليم الصغد • وينشطر الطريق فى زامين ، وهى على مسافة قصيرة من سمرقند ، شطرين : الايسر ــ يتابع سيره الى الشاش (وهى طشقند الآن) ثم الى معبر النهر عند أترار (Utrar) ــ فى أسافل نهر جيحون • أما الشـطر الثانى ، فلدى مبارحته زامين ، ينعطف يمينا ثم يتجه الى

---

(١) قلنا : بل ان التحقيقات الاثرية اظهرت اتصال جنوب العراق بشماله بطرق عامة فى ايام الآكديين والبابليين والآشوريين • وكانت طرق اخرى تربط عواصم العراق القديمة بحدوده • وبعض هذه الطرق كان يمتد فيتجاوز تلك الحدود الى غيره من الاقطار • وكان ملوك البابليين والاشوريين يعنون بهذه الطرق وينشؤون فى نقاطها السوقية العسكرية الحصون ويقيمون الحاميات للمحافظة على سلامتها ولاسيما فى المواضع القريبة من الحدود • وكانت هذه الطرق تسلكها قوافل التجار كما تسلكها الجيوش • ولاشك ان نظام الطرق هذا ، قد وجده الفرس قائما حين مجيئهم الى العراق وحكمهم له ، فاولوه عنايتهم لأنه يربط بين أجزاء مملكتهم ويوحدها من جهة ، ويوصلهم الى بلاد اعدائهم فى زمن الحرب من جهة ثانية • وظل هذا النظام قائما حتى زوال الدولة الفارسية فى العراق بقدوم العرب اليه بعد الاسلام فأحكموا أمره ووسعوا خطوطه بما يتفق هو وسعة مملكتهم •

وفى امهات الكتب التى وضعها علماء الآثار والباحثون فى تاريخ العراق القديم ، شىء كثير من اخبار هذه الطرق وعناية القوم بها • وكذلك عنى بلدانيو العرب بهذا الموضوع فافردوا له كتبا عرفت بكتب « المسالك » • (م)

اقليم فرغانة ونهر سيحون الاعلى ، فيبلغ أخسيكث قاعدته . وينتهى أخيرا الى أوزكند على تخوم صحراء الصين .

هذا ما كان عليه طريق خراسان العظيم فى أقصى مداه . وما زال طريق البريد فى يومنا هذا ، الذى يقطع بلاد فارس ومركزه طهران وهى قرب الرى القديمة ، يقتفى ذيالك الطريق الطويل نفسه الذى وصفه البلدانيون العرب الاولون . وبعد سقوط الخلافة العباسية ، تغير بعض نظام الطرق بانشاء مدينة السلطانية التى أضحت قاعدة المغول . على أن كل ما طرأ فى الواقع لم يكن الا فتح طريق فرعى يتجه شمالا من همذان الى السلطانية التى صارت حينا من الزمن مركزا للطرق فى هذه الربوع بدلا من الرى .

وفى أوائل أيام الدولة العباسية ، كان يتشعب من المدن الكبرى التى على طريق خراسان العظيم ، طرق من يساره ويمينه ، تمتد الى سائر أنحاء بلاد فارس . فكان يخرج من جوار كرمانشاه ، طريق يأخذ الى الشمال نحو تبريز وغيرها من المدن التى على بحيرة أرمية . ولهذا الطريق شعب تنتهى الى اردبيل والى مواضع على نهر أرس . ويخرج من همذان طريق نحو الجنوب الشرقى الى أصفهان ، كما يخرج من الرى نحو الشمال الغربى الى زنجان طريق معروف المسافات . ومنها طريق يؤدى الى اردبيل . وكانت نيسابور فى خراسان مركز طرق فرعية كثيرة يتجه أحدها جنوبا الى طبس على شفير المفازة الكبرى فى قوهستان . وطريق آخر كان يذهب الى قاين وآخر يتجه نحو الجنوب الشرقى الى هراة ثم الى زرنج فى سجستان . ومن مرو ، يبدأ طريق يحاذى نهر مرو صاعدا الى نهر مرو الاصغر (أى مرو الروذ) حيث يلتقى بطريق آت من هراة ، فيمضى الى بلخ وأصقاع الحدود الشرقية فيما وراء نهر جيحون (Oxus) . ثم أنه كان يخرج من بخارى ، طريق نحو الشمال الغربى يوصلها بأركنج فى خوارزم . وطريق نحو الجنوب الغربى يوصلها بترمذ على نهر جيحون بازاء بلخ .

وبهذا ، يكمل وصف نظام طريق خراسان وفروعه . ولنعد الآن الى بغداد ، لنجمل القول فى الطرق العامة الخارجة منها الى الجهات الاخرى .

فقد كان بانحدار دجلة ، الطريق المار بواسط الى البصرة ، الميناء التجارى العظيم على خليج فارس ، ومـا فى هـذا الطريق من مسافات ومراحل ، فى كلا البر والماء ، معروف لدينا . ومن واسط والبصرة ، كان يصل طريق الى الاهواز فى خوزستان ، ثم يشرّق الى شيراز فى فارس . وكانت هذه المدينة مركزا لكثير من الطرق : طريق يذهب شمالا الى أصفهان ثم الى الرى ، وطريق نحو الشمال الشرقى يمر بيزد مخترقا المفازة الكبرى ، حتى يصل الى طبس . وهذه تتصل بنيسابور . ويصل شيراز بالسيرجان وكرمان فى الشرق جملة طرق . ثم فى شرقيهما يصلها بزرنج فى سجستان طريق يخترق المفازة الكبرى . وكان يتفرع من شيراز طريقان : نحو الجنوب الشرقى والجنوب، يؤديان الى موانىء خليج فارس . أحدهما يمر بدار أبجرد الى سورو قرب هرمز ، والثانى الى سيراف ، وكانت حينا من الزمن أجلّ موانىء اقليم فارس .

واذا عدنا الى بغداد ، مركز الطرق العام ، ألفينا طريق الحج الى مكة والمدينة يبدأ من بغداد الغربية فيتجه جنوبا الى الكوفة على طف البادية العربية ، فيقطعها بخط يكاد يكون مستقيما حتى الحجاز . وقد كان يخرج من البصرة طريق ثان للحج ، يسير فى بادىء أمره فى موازاة الطريق الاول ، ويلتقيان أخيرا على مرحلتين من شمال مكة . وكان يخرج من بغداد ، من شمالها الغربى ، طريق يصل الى الفرات عند الانبار ، ومنها يصعد بمحاذاة النهر الى الرقة . وكان يخرج من الرقة طريق يخترق بادية الشام الى دمشق ، وطرق غيرها كثيرة تذهب شمالا الى ثغور الروم . ثم أنه كان يمتد من بغداد الى الشمال ، طرق تصعد الى الموصل فى جانبى دجلة . ومن الموصل كان هذا الطريق يصل الى آمد من جهة ، والى قرقيسياء على الفرات فى الجنوب الغربى من جهة ثانية . وكانت تخرج من آمد طرق تتصل بمعظم الثغور التى بازاء بلاد الروم .

هذا مجمل ما كانت عليه المسالك الخارجة من بغداد فى أيام العباسيين . وكانت تلك المسالك ، بما يتخللها من محطات للبريد ، تربط العاصمة بأقاليم الدولة النائية . ولقد عنى البلدانيون العرب بوصف هذه المسالك كل العناية وللرجوع الى ما كتبوه ، يحسن بنا أن نوجز القول فى اولئك الاقدمين بحسب

زمن كتابة تصانيفهم • فعلى ما كتبوه كان اعتمادنا فى ما أوردنا من أخبار فى فصول هذا الكتاب[١] •

وأقدم اولئك المصنفين ، عاش فى أواسط المئة الثالثة للهجرة (المئة التاسعة للميلاد) • وأول ما دوّنه العرب فى صفة البلدان من كتب ، كان فى المسالك • فان هاتيك المصنفات تبسطت فى ذكر مختلف الطرق ، وضمنت ذلك نبذا من الاخبار عن المدن التى كانت تمر بها تلك الطرق ، وذكرت ما يرتفع من كل اقليم من أقاليم الدولة من خراج وغلة • وفى طليعة ما ذكر مما فى أيدينا من كتب المسالك ، أربعة يكمل بعضها بعضا ، لأن نصوصها فى كثير من المواضع مخرومة • ومؤلفو هذه الكتب من أهل المئة الثالثة (التاسعة) وهم : ابن خرداذبه وقدامة واليعقوبى وابن رسته •

فالاثنان الاولان يكادان يتفقان فى مادتهما • فابن خرداذبه كان صاحب البريد فى اقليم الجبال ، وقدامة كان من عمال الخراج • وعلى ذلك فمسالكهما قد ذكرت المسافات التى على طريق خراسان العظيم وغيره من الطرق الكبيرة التى كانت تتشعب من بغداد ، مرحلة مرحلة على ما بينّاه فى الفقرات السابقة • ومما يؤسف عليه ، ان كتاب اليعقوبى لم يتنه الينا كله • وقد تيسّر لنا أن نصف عاصمة العباسيين وصفا خططيا مفصلا بالاستناد الى ما جاء عن بغداد فى كتابه وفى كتاب ابن سرابيون • هذا الى أن اليعقوبى أورد أخبارا ثمينة عن كثير من المدن الاخرى ، وتفاصيل عن الطرق التى تخترق اقليم العراق مما لا وجود له فى غير كتابه • أما ابن سرابيون ، معاصره ، فلم يصلنا من كتابه غير قسم[٢] • وهذا

---

(١) وللاستزادة من اخبار بلدانيي العرب ، راجع الفصل التمهيدى من كتاب فلسطين فى عهد الاسلام Palestine under the Moslems (لندن ١٨٩٠) وللتوسع فى الموضوع راجع مقدمة الترجمة الفرنسية لتقويم البلدان لابى الفداء بقلم رينو M. Reinaud (باريس ١٨٤٨) •

(٢) فى سنة ١٨٩٥ طبع لسترنج فى .JRAS قطعة من هذا الكتاب نقلا عن نسخة خطية فريدة فى المتحف البريطانى (رقم Add. 23379) تصف انهار العراق والجزيرة اى دجلة والفرات وما يصب فيهما أو يحمل منهما ، مع مقدمة وتعليق وترجمة الى الانكليزية • ووضع خارطة لانهار العراق مستندا فى وضعها الى هذا الوصف • وفى سنة ١٩٢٩ نشر المستشرق مزيك فى فيينه Hans V. Mzik مخطوطة المتحف البريطانى نفسها كلها بعنوان « عجائب الاقاليم السبعة الى نهاية العمارة » لسهراب والكتاب يقوم من ١٩٢ صفحة ، وما فى طبعة لسترنج يرى فى ص ١١٧–١٣٨ و١٤٦ من هذه الطبعة الجديدة • (م) •

القسم ، الى احتوائه على صفة بغداد ، فان قيمته الكبرى فى ذكر أنهار العراق والجزيرة . كما أن ابن سرابيون أوجز القول فى صفة أنهار الاقاليم الاخرى . أما ابن رستة ، فقد صنّف كتابا مماثلا لكتاب اليعقوبى ، وزاد عليه تنويهه بالمدن، الا أن أفضل ما جاءنا به هو تدقيقه فى كلامه على طريق خراسان العظيم حتى طوس قرب المشهد ، وذكره ما تفرّع منه من طرق لاسيما الذاهب من طوس الى أصفهان وهراة . ومثل ذلك وصفه الطريق من بغداد فجنوبا الى الكوفة والى البصرة مع تتمته المتجهة شرقا الى شيراز . وهو لم يقتصر على ذكر مسافات هذه الطرق ومنازلها ، بل وصف طبيعة الارض التى تخترقها مبيّنا عما اذا كان الطريق فى الجبال صاعدا أم هابطا ، أم كان الطريق فى السهول . فوصف ابن رستة هذا كبير الشأن فى تعيين الخطوط التى كانت تقطعها هذه الطرق وتثبيت مواضع كثير من الاماكن الدارسة . ومن ثقات المؤلفين الآخرين : ابن الفقيه ، وهو معاصر لابن رستة فقد كتب كشكولا بلدانيا عجيبا جدا لم يتنه الينا يا للأسف غير مختصره على أن بعض أقواله فى الامكنة نافع فى استكمال أخبار من تقدمه وتصحيحها[1] .

أما البلدانيون الذين نهجوا نهجا متسقا فيما كتبوا ، فكان أول ظهورهم فى المئة الرابعة للهجرة (العاشرة للميلاد) وقد وفوا القول فى صفة كل اقليم من أقاليم الدولة الاسلامية ولم يذكروا شيئا عن المسالك الا عرضا . ولكنهم بوجه عام ذكروا ما فى كل اقليم من طرق . ولا مراء فى أن تصانيفهم أرقى من كتب المسالك ونحن مدينون لهم بالتفاصيل البلدانية الواسعة التى سيقف عليها القارىء

---

(١) حقق البروفسور دى غويه مؤلفات ابن خرداذبه وقدامة واليعقوبى وابن رسته وابن الفقيه ونشرها فى المجلدات الخامس والسادس والسابع من سلسلته الموسومة بـ « الخزانة الجغرافية العربية » Bibliotheca Geographorum Arabicorum (ليدن ١٨٨٥ الى ١٨٩٢) . وهو الى ذلك قد اضاف الى المجلد السادس ترجمة فرنسية الى الكتابين الاولين مع تعليقات كثيرة مهمة عليهما . اما ابن سرابيون ، فقد نشر منه الجزء الذى يصف العراق والجزيرة فى مجلة الجمعية الآسيوية الملكية الصادرة سنة ١٨٩٥ ص ٩ وقد اعتمد فى نشره على مخطوطة المتحف البريطانى برقم Add. 23379 اما اليعقوبى فهو الى كتابه « البلدان » قد صنف كتابا فى التاريخ نشره البروفسور هوتسما M. T. Houtsma بعنوان « تاريخ ابن واضح المعروف باليعقوبى » (ليدن ١٨٨٣) ويتضمن هذا الكتاب فى الغالب اخبارا بلدانية ثمينة .

قلنا : كتابا اليعقوبى « البلدان » و « التاريخ » قد طبعا فى النجف سنة ١٩٣٩ . وعنى المستشرق فييت G. Wiet بنقل كتاب البلدان الى الفرنسية وطبعه سنة ١٩٢٧ فى ليدن . (م)

فى تضاعيف هذا الكتاب . وفى طليعة هؤلاء ثلاثة هم : الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى . فتصانيفهم زاخرة بالفوائد . وما كتاب ابن حوقل الا نسخة محدثة موسعة منقحة لكتاب الاصطخرى . على أن الاصطخرى ، وهو من أهل اصطخر (برسبوليس) ، قد وصف فارس موطنه وصفا مسهبا فيه لا تجده فى ابن حوقل الذى اختصر هذا الفصل عن فارس بالقياس الى سائر فصول كتابه . أما المقدسى، وقد عاصرهما ، فانه كتب جغرافيته باسلوب خاص يختلف عمن سبقه . ذلك أنه بناه على ما شاهده بنفسه فى مختلف الاقاليم . فلعل كتابه أعظم من كل ما صنفه البلدانيون العرب وأكثرها اصالة . فوصفه للأمكنة والعادات والطبائع والتجارات والصناعات وتلخيصه لخصائص كل اقليم يعدان من خير ما كتب فى سلسلة مصنفات العرب فى القرون الوسطى .

ويحسن بنا أن نشير الى أننا مدينون لاولئك البلدانيين المنهجيين الثلاثة فى تعيين معظم الاسماء التى ذكرت فى الخوارط الملحقة بكتابنا تعيينا صحيحا . فانهم أوردوا فى آخر كل فصل ثبتا بالمسافات ، أى منازل الطرق ومراحلها التى وصفناها ، أو ما فى الاقليم المبحوث فيه من طرق . وهم الى ذكر الطرق ، قد أشاروا الى عدد كبير من الطرق الفرعية التى بين المدن المجاورة . وهذه المسافات التى سردوها ابتداء من نقاط معروفة قد أعانتنا على ملء الخارطة بشبكة من نقاط التثليث ، فأوقفتنا على مواضع بعض المدن التى مضى زمن طويل على اندراسها وزوال معالمها فى معظم الاحوال ، فتسنى لنا تعيينها فى الخارطة بوجه تقريبى . مثال ذلك مدينة توّج فى بلاد فارس : فانه لم يتحقق موضع خرائبها الى اليوم ، وان كنا قد تمكنّا الآن من تعيين موضعها فى الخارطة ضمن أضيق نطاق . ومن مؤلفى المئة الرابعة أيضا (العاشرة) : المسعودى . فقد صنف كتابين : أولهما تاريخى فى جملته وهو « مروج الذهب » وثانيهما من التصانيف الجامعة الزاخرة بأخبار وفوائد غريبة وهو كتاب « التنبيه والاشراف »[1] .

---

(١) تؤلف كتب الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، المجلدات الاول والثانى والثالث بالتعاقب من السلسلة التى سبق ذكرها باسم « الخزانة الجغرافية العربية » (ليدن ١٨٧٠–١٨٧٧) . اما كتاب التنبيه والاشراف للمسعودى فقد حققه البروفسور دى غويه ونشره فى المجلد الثامن من السلسلة

فاذا انتهينا الى المئة الخامسة والسادسة (الحادية عشرة والثانية عشرة) ، أصبنا كتابين لحاجّين من مشاهير الرحالين ، ووصفهما لما مرا به من أماكن كبير الشأن . أحدهما ناصر خسرو ، وهو رجل فارسي خرج حاجاً من خراسان في منتصف المئة الخامسة (الحادية عشرة) الى مكة ، ثم عاد اليها بعد طوافه بمصر والشام واختراقه الجزيرة العربية . ويومياته التي دوّنها بالفارسية من أقدم ما وقع لنا في هذه اللغة من تصانيف وبعده بقرن خرج ابن جبير الرحالة العربي الأندلسي ، حاجاً من غرناطة . ووصفه للعراق ، ولا سيما بغداد ، من اروع ما انتهى الينا . ومن التصانيف الفارسية الواصلة الينا من اوائل المئة السادسة (الثانية عشرة) مؤلّف يسمى « فارسنامه » (كتاب فارس) تناول مؤلفه هذا الاقليم بوصف ثمين قد أوفى على الغاية . ووصل الينا من منتصف هذا القرن أيضا ، مصنّف جغرافي علمي للادريسي الذي عاش في بلاط الملك النورمندي روجر الثاني ملك صقلية . دوّن الشريف الادريسي كتابه باللغة العربية ووصف العالم المعروف في زمنه بحسب الاقاليم المناخية وصفا تشقّ مراجعته . فقد قطّع أوصال الولايات المختلفة في الغالب اعتباطا لأنه جرى في وصفها بحسب الاقاليم أي بحسب مناطق العرض . فبلاد العراق والجزيرة مثلا ، جاء وصف بعضها في الاقليم الثالث وبعضها في الاقليم الرابع . والمؤلف الى ذلك لم يكن وا أسفا ، واقفا بنفسه على بلاد فارس ولا على الاصقاع التي في شرق البحر المتوسط وهو ما نهتم له في كتابنا . الا أنه زار آسية الصغرى وقد كانت حتى زمنه ولاية تابعة لدولة الروم[1] . ووصفه لهذه البلاد لا يثمّن ، الا أن أسماء الامكنة (بسبب تصحيف المخطوط) لا تتيسر قراءتها في كثير من الاحوال

نصها (ليدن ١٨٩٤) . ونشر البارون كارا دو فو Carra de Vaux ترجمة فرنسية له بعنوان Le Livre de l'Avertissement باريس ١٨٩٦) . ونشر تاريخه المسمى بـ « مروج الذهب » بنصه العربي وترجمته الفرنسية : باربيه دى ميتار وباڤه دى كورتي Barbier de Meynard, Pavet de Courteille (باريس ١٨٦١) والكتابان من منشورات الجمعية الآسيوية الفرنسية .

قلنا : كتاب « التنبيه والاشراف » للمسعودي طبع في القاهرة سنة ١٩٣٨ ، اما مروج الذهب فقد طبع في القاهرة غير مرة . (م) .

(١) كانت آسية الصغرى في زمن الادريسي اي اواسط المئة السادسة في حكم السلاجقة ، وسيشير المؤلف الى ذلك في كلامه على بلاد الروم . (م) .

اذ أن التصحيف قد بلغ فيها حدا لا يمكن معه تبيّن وجه الصواب فى الاصل[١].

ووصلنا من مصنفات المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، وفيها كان الغزو المغولى وسقوط الخلافة العباسية ، « معجم البلدان » لياقوت الحموى . وهو سفر كبير كثير الاجزاء . ومع أن مصنّفه استقاه ممن تقدم من المؤلفين ، الا أنه زاد عليهم مشاهداته فى رحلاته الواسعة المدى . فهو كتاب لا يقدّر بثمن اذا روجع بنقد وتمحيص . صنّف ياقوت المواد فيه على الترتيب الهجائى واقتبس ، دون تقيّد ، من كل ما وضعه أسلافه من بلدانيى العرب ، وبينهم مؤلفون لم يكن لنا أن نطلع على ما دوّنوه لولا مقتبسات ياقوت منهم . كالرحالة ابن مهلهل الذى كتب فى سنة ٣٣٠ (٩٤٢) . وبعد مضى ثلاثة أرباع القرن على تأليف هذا المعجم الكبير ، ظهر مختصر له بعنوان « مراصد الاطلاع » لمؤلف من أهل العراق[٢] له فى الغالب استدراكات ثمينة موثوق بها على الامكنة التى فى أنحاء بغداد . وممن نشأ فى نحو هذا الزمن : القزوينى ، وقد دوّن كتابا فى جزءين وصف فيهما الارض[٣] ضمنهما فوائد فى تجارات مختلف المدن والاقاليم وغلاتها . وانتهى الينا من النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كتاب منسّق فى البلدان لأبى الفداء . وأبو الفدا أمير شامى . ومع أنه ألّف كتابه نقلا عمن تقدمه فى

---

(١) نشر شيفر C. Schéfer النص الفارسى لرحلة ناصر خسرو مع ترجمة وتعليق بالفارسية فى سلسلة Ecole des Langues Orientales Vivantés (باريس ١٨٨١) وعنى رايت W. Wright عناية فائقة بنشر النص العربى لرحلة ابن جبير (ليدن ١٨٥٢) . اما فارسنامه ، فمازال مخطوطا ، وقد استفدنا لدى مراجعته الى مخطوطة المتحف البريطانى ذات الرقم Or. 5983 ونشر جوبرت A. Jaubert ترجمة فرنسية لا بأس بها لكتاب الادريسى (باريس ١٨٣٦) . وقد قابلت ما اقتبسته من هذه الترجمة بالاصل العربى المحفوظة مخطوطته فى الخزانة الوطنية بباريس (Mss. Ar. No. 2221-2222)

قلنا : نقل الدكتور يحيى الخشاب سفرنامه لناصر خسرو من الفارسية الى العربية (القاهرة ١٩٤٥). ونشر دى غويه رحلة ابن جبير فى ليدن ١٩٠٧ واعيد طبعها نفسها بالزنكغراف حديثا . اما فارسنامه ، فقد نشر نصه الفارسى ، لسترنج ونيكلسون سنة ١٩٢١ ضمن « مجموعة كب » . أما كتاب الادريسى فقد نشر مختصره فى رومة سنة ١٥٩٢ م . كما ان المستشرق ملر K. Miller نشر خارطة العالم للادريسى بالالوان ، ولكنه جعل الاسماء فيها بحروف لاتينية . ثم نشر المجمع العلمى العراقى هذه الخارطة بعد ان أعاد الاسماء الى أصلها العربى (م) .

(٢) قلنا : هو صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق المتوفى سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٨ م) . (م) .

(٣) قلنا : هذان الجزءان هما « آثار البلاد واخبار العباد » و « عجائب المخلوقات » . وهما فى واقع الحال كتابان وليسا بكتاب واحد . وقد طبع ثانيهما فى مصر غير مرة . (م) .

الغالب ، فانه أضاف اليه مشاهداته لما زاره من بلدان[١] .

ومما جاءنا من هذا الزمن نفسه ، أى النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، رحلة ابن بطوطة . وابن بطوطة رجل مغربى قام برحلات طويلة جارى فيها ماركو بولو البندقى . وقد دوّن كتابه بالعربية . أما حمداالله المستوفى، وقد عاصر ابن بطوطة ، فقد كتب بالفارسية وصفا لمملكة ايران المغولية (بلاد العراق وفارس) اوضح فيه حال البلاد بعد أن حلّ فيها المغول أيام الايلخانيين . وصنّف المستوفى كتابا فى التأريخ وهو « تاريخ گزيدة » (زبدة التاريخ) وهذا السفر ، الى قيمته العظيمة عن العهد المغولى ، يحتوى فى الغالب على فوائد جغرافية جليلة[٢] .

وفى طليعة ما وصلنا من مصادر عن عهد تيمور ، كتاب تأريخى لعلى اليزدى، ثم مصنّف جغرافى لحافظ أبرو وكلاهما بالفارسية . ويرقى عهدهما الى النصف الاول من المئة التاسعة للهجرة (الخامسة عشرة للميلاد) . ومما نذكر من المصادر أيضا عما بعد فتوحات تيمور ، تصانيف مؤلفين تركيين أحدهما كتب بالتركية الشرقية والثانى بالتركية العثمانية ، وهما من أهل النصف الاول من المئة الحادية

---

(١) عنى ف . وستنفلد بنشر المتن العربى لمعجم البلدان لياقوت (ليبزك ١٨٦٦-١٨٧٣) ومواضيعه الخاصة فى البلدان الفارسية قد نقلت الى اللغة الفارسية مع اضافات من المستوفى وغيره ممن جاء بعده من المصنفين فى كتاب « معجم بلاد فارس » Dictionnaire de la Perse باريس ١٨٦١ وقد نشره باربيه دى مينار Barbier de Meynard . ونشر جوينبل « مراصد الاطلاع » وهو مختصر معجم ياقوت (ليدن ١٨٥٢) . ونشر وستنفلد كتابى القزوينى (غوتنجن ١٨٤٨) . ونشر رينو Reinaud ودى سلان De Slane تقويم البلدان لابى الفداء (باريس ١٨٤٠) . وبدأ رينو ايضا بنقل هذا الكتاب الى الفرنسية ، مقدما له مقدمة نفيسة عن البلدانيين العرب (باريس ١٨٤٨) . واكمل الترجمة بعده س . غويار S. Guyard (باريس ١٨٨٣) أ-هـ.

قلنا : طبع « المراصد » طبعة حجرية فى ايران سنة ١٣١٥ هـ (م) .

(٢) نشر ديفريمرى و سنغوينتى Defrémery and Sanguinetti رحلة ابن بطوطة بنصها العربى مع ترجمة فرنسية (باريس ١٨٧٤-١٨٧٩) . وطبع كتاب « نزهة القلوب » لحمدالله المستوفى طبعة على الحجر فى بمبى سنة ١٣١١ (١٨٩٤ م) . وكتابه « گزيده » الذى رجعت اليه ، مخطوط فى المتحف البريطانى برقم Add. 22693 وقابلته بمخطوط رقمه Add. 7630 ومخطوط اكرتن برقم Add. 690Egerton ، ان قسما من كتاب گزيده طبعه الآن M. J. Gantin بترجمة فرنسية (باريس ١٩٠٣) .

قلنا : نشر تاريخ گزيده بالزنكوغراف مع ملخص له بالانكليزية فى مجلدين من مطبوعات گب بعناية براون ونيكلسون سنة ١٩١١-١٩١٣ . اما نزهة القلوب فقد نشر القسم الجغرافى منه مع ترجمة انكليزية بعناية لسترنج فى مجلدين من مطبوعات گب ايضا سنة ١٩١٥-١٩١٨ م . اما رحلة ابن بطوطة فقد طبعت غير مرة فى مصر ونقلت الى التركية والانكليزية (م) .

عشرة (السابعة عشرة) • وهذان السفران هما : « تأريخ الترك والمغول » لأبى الغازى أمير خوارزم ، وجغرافية العالم المسماة « جهان نما » للحاج خليفة واضع الكشف المشهور[١] بأسماء الكتب[٢] •

ولا مندوحة لنا ، ان ابتغينا التعمق فى بعض التفاصيل ، من الرجوع الى مصنفات كثير من المؤرخين العرب • فقد كان المؤلفون الاقدمون يعالجون التأريخ والبلدان معا فى مصنفاتهم • فمن ذلك كتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى ، وقد ألّفه فى المئة الثالثة للهجرة (التاسعة للميلاد) • وصف فيه فتوح المسلمين فى الشرق والغرب بحسب وقوعها • وهذا الكتاب جليل القدر لأنه يرينا حال البلاد حين أصبح الاسلام الدين السائد فيها • ولدينا الى كتاب « تاريخ اليعقوبى » ، وقد مر ذكره ، كتاب آخر يرقى الى المئة الثالثة (التاسعة) صنفه ابن مسكويه[٣] ولم يطبع منه غير القسم السادس • ومما يدخل فى هذا الباب تأريخ حمزة الاصفهانى ، وقد كتبه فى منتصف المئة الرابعة (العاشرة) • ومع أن هذا الكتاب مؤلف بالعربية ، الا أنه رجع فى تأليفه الى كثير من الكتب الفارسية الضائعة الآن وأورد فيه حقائق كنا على جهل بها لولاه •

على أن أكمل التواريخ العربية وأجمعها المنتهية الينا من أوائل المئة الرابعة (العاشرة) تأريخ الطبرى • والطبرى ممن عاش فى ذلك الزمن • وهذا الكتاب مرجع جغرافى أساسى • ويحسن أن يعتمد على تاريخ ابن الاثير فى تعرف أحوال العباسيين فى أواخر عهدهم • وكذلك الموجز فى التأريخ الاسلامى المعروف بـ « الفخرى » • ويفيدنا تأريخ ابن خلدون فى استكمال الاخبار اليسيرة التى

---

(١) يريد بذلك كتاب « كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون » وقد طبع غير مرة (م) •

(٢) يعرف الاصل الفارسى لتاريخ تيمور تأليف على اليزدى بـ « ظفرنامه » وقد نشر فى مجموعة Bibliotheca Indica (كلكتة ١٨٨٧) • وصدرت له ترجمة فرنسية بعنوان Histoire de Timour Bec (باريس ١٧٢٢) وهى بقلم Petit de la Croix • اما كتاب حافظ ابرو فمازال مخطوطا • والنسخة التى رجعنا اليها محفوظة فى المتحف البريطانى برقم Or. 1577 • وطبع ابراهيم المتفرقة (متفرقة) الاصل التركى لجهان نما فى القسطنطينية سنة ١١٤٥ (١٧٣٢) • ونشر نربرج M. Norberg ترجمة لاتينية لجزء من هذا الكتاب (لند Lund ١٨١٨) • ونشر البارون دميزون Desmaisons النص التركى لتاريخ المغول لأبى الغازى مع ترجمة فرنسية (سانت بطرسبورج ١٨٧١) •

(٣) والأصح انه « مسكويه » وترجمته فى معجم الأدباء لياقوت (٢ : ٨٨ وما بعدها طبعة مرجليوث) (م) •

تجدها فى تاريخ ابن الاثير • ويزيدنا تعريفا بها كتاب « وفيات الاعيان » لابن خلكان • فكل هؤلاء المؤلفين دوّنوا مؤلفاتهم باللغة العربية[1] • ومما يحسن ذكره من المؤلفات التاريخية باللغة الفارسية « روضة الصفا » لميرخواند و «حبيب السير » لخواند مير حفيده • وهما كتابان جليلان حويا فوائد جغرافية ثمينة ، لاسيما ما اتصل بالاقاليم الفارسية • ولا تفوتنا الاشارة أيضا الى تاريخين فارسيين آخرين يبحثان فى الدولة السلجوقية فى آسية الصغرى وكرمان وقد رجعت اليهما غير مرة فى صفحات كتابى باسم المؤرخين ابن ببى وابن ابراهيم[2] •

ويحسن بنا ، لاكمال ما بسطناه ، أن نخصّص بضع صفحات نختتم بها هذا الفصل التمهيدى ، نذكر فيها شيئا عن أسماء الامكنة التى وردت فى فصول الكتاب وثبّت فى خوارطه • فمعظم أسماء الامكنة فى اقليمى العراق والجزيرة

---

(١) بعد ان طبع لسترنج كتابه نشرت بضعة تواريخ عربية ذات قيمة فى الجغرافيه التاريخيه نذكر منها ، المنتظم لابن الجوزى ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وتاريخ الاسلام للذهبى (نشرت اجزاؤه الاولى ومازال طبع البقية جاريا) ، والحوادث الجامعة لابن الفوطى ، وتاريخ مختصر الدول لابن العبرى ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى • (م) •

(٢) نشر دى غويه « فتوح البلدان » للبلاذرى (ليدن ١٨٦٦) كما نشر ابن مسكويه « اى مسكويه » فى الجزء الاخير من مجموعة Fragmenta Historicorum Arabicorum (ليدن ١٨٧١) • وحقق كوترالد Gottwaldt تاريخ حمزة الاصفهانى ونشره مع ترجمة لاتينية (ليبسك ١٨٤٤) • اما المجلدات الكثيرة التى يتالف منها تاريخ الطبرى فقد نشرت فى ثلاث سلاسل بعناية البروفسور دى غويه (ليدن ١٨٧٩-١٩٠١) • ونشر ترنبرغ Tornberg تاريخ ابن الاثير (ليدن ١٨٦٧-١٨٧٦) • ونشر اهلورد Ahlwardt كتاب الفخرى لابن الطقطقى (غوطا ١٨٦٠) • وطبعة ابن خلدون التى رجعت اليها فى هذا الكتاب هى المطبوعة فى بولاق سنة ١٢٨٤ هـ (١٨٦٧ م) ونشر وستنفلد Wüstenfeld ابن خلكان (غوتنجن ١٨٣٧) • ونقله الى الانكليزية دى سلان بنفقة Oriental Translation Fund (لندن ١٨٤٢) • وكان اعتمادى فى مراجعة الاصل الفارسى « لروضة الصفا » تاليف (ميرخواند) أو امير خواند و « حبيب السير » لخواند امير على الطبعتين الحجريتين الصادرتين فى بمبى طبع الاول فى سنة ١٢٦٦ (١٨٥٠) والثانى ١٢٧٣ (١٨٥٧) • ونشر البروفسور هوتسما Houtsma الكتابين الباحثين فى اخبار الدولة السلجوقية فى المجلدين الاول والرابع من سلسلة Textes relatifs a l'Histoire des Seljucides (ليدن ١٨٨٦-١٩٠٢) • واولهما كتبه ابن ابراهيم (ويعرف بمحمد ابراهيم او محمد بن ابراهيم) وقد عاش فى نحو سنة ١٠٢٥ (١٦١٦) والثانى تصنيف ابن بيبى وقد كتب فى نحو سنة ٦٨٠ (١٢٨١) • انظر ايضا بحثا للبروفسور هوتسما فى مجلة Zeit. Deutsch. Morg. Gesell., 1885, p. 362 قلنا . عنى لسترنج وغيره بطبع الجزء الاول والخامس والسادس من « تجارب الامم لمسكويه » بالزنكوغراف ضمن مجموعة كب • وعنى امدروز بنشر الجزءين الخامس والسادس منه فى القاهرة • ونقل مرجيلوث هذين الجزءين الى الانكليزية • اما كتاب حمزة الاصفهانى فهو « تاريخ سنى ملوك الارض والانبياء » وقد طبع فى برلين ايضا • وعنى دى غويه بوضع فهارس للطبرى ومعجم لالفاظه نشرها فى مجلدين فى ليدن •(م) •

اما أن يكون عربى النجار أو اراميا ، اذ كانت الثانية هى لغة القوم الشائعة قبل الفتح الاسلامى • ولأسماء المدن بالعربية معنى ، ومن الامثلة على ذلك الكوفة والبصرة وواسط • أما الاسماء الارامية ، فمن اليسير تمييزها من صيغتها ومن انتهائها بحرف الالف الطويلة • مثال ذلك : « جبلتا » • ومعانى هذه الاسماء أيضا لا تصعب معرفتها بوجه عام • فمثلا « عبرتا » معناها (المعبر ، أى موضع العبور) فهى تعيّن موضعا لجسر على قوارب • و « باجسرا » ومعناها فى العربية (بيت الجسر) • أما الاسماء الفارسية القديمة مثل « بغداد »[1] (أى موضع عطية الله) فنادر • وتجد أيضا هنا وهناك اسما يونانيا ما زال حيّا مثل « الأُبلة » وهى « أبلوغس » (Apologos).

ولم تصبح بلاد الروم فى آسية الصغرى بلادا اسلامية ، على ما بيّنا ، الا بعد الفتح السلجوقى لها فى النصف الثانى من المئة الخامسة (الحادية عشرة) • ومن ثمّة ، فالاسماء اليونانية فيها انتهت الينا بصيغتين : قديمة (عربية) وحديثة (تركية) • فسلوسية (Seleucia) مثلا عرفت أولا بسلوقية ثم بسلفكة (Selefkeh) • وهركلية (Heracha) نجدها أولا بصيغة هرقلة وفى العصور الحديثة أراكلية (Arakliyah) ولا ريب أنه بعد الفتح السلجوقى للبلاد والسيادة العثمانية التى أعقبت ذلك ، حلّت التسميات التركية محل الاسماء اليونانية القديمة • ولكن ما يجب ذكره بصدد ضبط التهجئة ، أن الالقاب العربية غريبة

---

(١) اختلفت آراء الباحثين فى اصل اسم بغداد ، فذهب بعضهم الى انه فارسى على رأى مؤلف هذا الكتاب • وقد سبقهم الى ذلك بلدانيو العرب فقالوا ان اسمها مركب من كلمتين فارسيتين « بغ » و « داد » •

ورجحه بعضهم الى اصل آرامى مركب من « ب » المقتضبة من كلمة « بيت » و « كدادا » ومعنى ذلك بيت أو دار أو مدينة الضأن أو الغنم • وايدوا رأيهم بايراد اسماء آرامية لمدن عراقية مبدوءة بالباء على شاكلتها •

وظهر ايضا من الدراسات الاثرية ، ان مثل هذا الاسم قد ورد فى الكتابات المسمارية القديمة التى ترجع الى العصر البابلى والآشورى بصورة « بغدادو » و « بغدادى » أو « خودادو » يرقى زمن بعضها الى اوائل الالف الثانى قبل الميلاد • وان مدينة قريبة من بغداد الحالية واقليما ايضا ، كانا يعرفان بمثل هذا الاسم فى العصر البابلى •

راجع • مقدمة تاريخ بغداد للخطيب البغدادى • ومعجم البلدان لياقوت (مادة بغداد) • وغيرهما من الكتبة الاقدمين • وكذلك مادة « بغداد » فى دائرة المعارف الاسلامية ، ومجلة لغة العرب (٤ : ٨٠ و٢٤٢ و٢٨١ و٦٠٧ ، ٦ : ٧٤٨) و « اصول معنى بغداد » لتوفيق وهبى (مجلة المجمع العلمى العراقى الجزء الاول من المجلد الاول الصادر سنة ١٩٥٠) •

و Herzfeld, Geschichte der Stadt Samarra (p. 26-29)

وهو المجلد السادس من مجموعة « حفريات سامراء » وقد صدر فى همبرغ سنة ١٩٤٨ • (م) •

عن التركية غرابتها عن اليونانية . ولهذا صار للكلمات التركية (كما يظهر ذلك في كل معجم تركي) تهجئتان مختلفتان . وكان حال أسماء الامكنة حال ألفاظ اللغة نفسها . فنجد اسم « قراحصار » و « قره حصار » و « قره سى » و «قراسى» و « قرمان » و « قرامان » وغير ذلك من الامثلة الكثيرة .

واذا ألقينا نظرة على خوارط الاقاليم الفارسية ، تبيّن لنا قلة الاسماء المنحدرة من أصل عربي . فمن الصعب آن نجد أسماء مدن بالعربية هناك ما عدا المراغة[١] في أذربيجان وبيزا (البيضاء أي « البلدة البيضاء ») في فارس . فالمسلمون لم يغيّروا الاسماء في الواقع أو غيّروها بعض التغيير حينما استولوا على المملكة الساسانية[٢] . وكثيرا ما نجد قرى ومنازل ذات أسماء مأخوذة من أشياء طبيعية أو مشهورة ، كقرية الآس وقرية الجمل وقرية الملح . فقد كانت تسمى بالفارسية : ده مرد ، ده اشتران ، ده نمك . وقد أورد البلدانيون العرب هذه الاسماء مترجمة دائما ، فنجد في تصانيفهم القرى السالفة الذكر مثلا باسم قرية الآس وقرية الجمل وقرية الملح[٣] . ولدينا ما يؤيد أن الاسم الفارسي كان هو المستعمل في كل الاوقات في بلاد فارس . وبعبارة اخرى ، ان الامر هنا على نحو ما هو عليه عندنا حين نقول : الغابة السوداء (Black Forest) وهي بالالمانية (Schwarz-Wald) ورأس الرجاء الصالح (Cape of Good Hope) فمثل هذه الاسماء يرد عادة بصيغ متنوعة في الخوارط وفي الكتب على حسب لغة المتكلم .

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان (٤ : ٤٧٦) « .... كانت المراغة تدعى أفراز هروذ ، فعسكر مروان بن محمد بن مروان .... بالقرب منها . وكان فيها سرجين كثير فكانت دوابه ودواب اصحابه تتمرغ فيها فجعلوا يقولون : ابنوا قرية المراغة ، وهذه قرية المراغة ، فحذف الناس القرية وقالوا مراغة » (م) .

(٢) مما يلاحظ اننا لا نعثر في جميع ارجاء الاندلس ، حيث تكثر المدن العامرة ، الا على مدينة واحدة ذات اسم عربي وهي ميساء « المريا » Almeria الذي هو « المرية » ومعناها « المرقب » . ونجد اسم مكان مثل كلتايود Calatayud يمكن اتخاذه مثالا آخر لذلك . فهذا الاسم لم يطلق على مدينة بل كان اسما لقلعة ليس الا وهي « قلعة أيوب » . ثم نشأ بعد ذلك في اسفلها بلدة . وفي كثير من الاحوال لا يعرف اصل الاسم الايبري أو الروماني أو القوطي الغربي Visigothic لعدم وجود وثائق عنه ، على ما هو الامر في « غرناطة » Granada . وما ذكرناه هنا يمكن القول به في اسماء بلاد فارس .

(٣) قلنا : وقد جرى الكتبة العرب المحدثون في ترجمة بعض الاسماء الجغرافية على هذا الغرار ، فقالوا : رأس الرجاء الصالح ، وجزيرة ارض النار ، والمحيط الهادي ، والبحر المتوسط ، وبلاد الجبل الاسود ، وغير ذلك (م) .

ومما تحسن الاشارة اليه ، أننا قد نجد في جداول الاسماء العربية ، اسم منزل بالعربية لم يتنه الينا ما يقابله بالفارسية . فمن ذلك « رأس الكلب » وقد يكون الموضع ما صار يعرف بعد ذلك باسم « سمنان » ونعت العرب أحيانا مدينة فارسية فعرفت في أوان واحد باسمها وبنعتها ، على نحو ما كان الامر في كنكوار فقد سماها المسلمون الاولون « قصر اللصوص » لأن دوابهم كانت تسرق فيها . ومع ذلك فالاسم الذي عاش في الاخير هو « كنكوار » لا النعت العربي ، حتى أنه لما أسس المسلمون الفاتحون عاصمة اقليمية جديدة ، على نحو ما حصل في شيراز التي سرعان ما حجبت اصطخر القديمة « برسوبلس » ، كانوا قد اتخذوا للمدينة الجديدة على ما يظهر اسم القرية الفارسية الاصلية وخلّدوه لها . ولا يمكن تحقق أصل اسم شيراز واشتقاقه على ما يبدو ، شأن غيره من الاسماء الكثيرة . اذ أننا يا للأسف نكاد نجهل جغرافيا المملكة الساسانية القديمة برمتها .

أما تهجئة الاسماء ، فكانت بالطبع تتغير بتغير الزمن . فان « طربثيث » أصبح « تُرشيز » و « همذان » صارت تهجئتها في الكتب الحديثة « همدان »[1]. وقد تستعمل الى ذلك أيضا ، تهجئة عربية وتهجئة فارسية لاسم ما في وقت واحد . مثال ذلك « قاشان » العربية فهي تكتب في الفارسية « كاشان » ، و « صاهك » ظهرت أخيرا « جاهك » و « صغانيان » : « حفانيان » وبمقتضى قواعد اللغة العربية في الالفاظ الثلاثية ذات الحروف الصحيحة ، فان : بم الفارسية يجب أن تكتب في العربية مشددة « بمّ » وقم : « قمّ » مجاراة لمخارج الحروف في العربية . ولم يستعمل الحرف الصحيح الاخير المشدد في الفارسية البتة . وقد يحصل أن يبطل استعمال اسم لأسباب مجهولة ليحل محله اسم آخر ، ولكنه فارسي كالأول ، على نحو ما حدث في « قرماسين » أو « قرميسين » التي عرفت بعدئذ باسم « كرماشاهان » ثم اختصرت الى « كرماشاه » في الوقت الحاضر . وكما أننا نجهل المنشأ الاصلي لهذه الاسماء ، نجهل أيضا علة تبديلها .

---

(١) يحسن بنا ان نلاحظ ان « ذ » يلفظه الفرس في زمننا « ز » فيقولون « ازربيجان » ويكتبونها « اذربيجان » . واحيانا لا يلفظون الدال زايا ، فاسم همذان يلفظونه « همدان » لا « همزان » . والحرف « و » العربي يلفظونه في الفارسية « ڤ » ولكن هذا ليس دائما ، اذ يقولون « قزوين » أو « قزفين » .

أما « أل » أداة التعريف العربية التي تعرّف بها أسماء الامكنة ، فاستعمالها سماعي الى حد بعيد ، لأن القاعدة الصرفية تقضي بادخال « أل » التعريف على الاسماء العربية دون الاعجمية ، غير أن هـذه القاعـدة لا تطّرد دائمـا ، ففي العراق ، حيث معظم الاسماء من أصل سامي بطبيعة الحال ، نجد أن دجلة يكتب دائما بدون « أل » ، أما الفرات فقد دخلته « أل » التعريف وان كان مثل صنوه اسما غير عربي[1] ، وفي تسمية الاقاليم الفارسية درجـوا على اسـقاط « أل » التعريف العربية بمرور الزمن : فالسـيرجان (بالعربيـة) أصبحت بالفـارسية سيرجان ، ومهما يكن من أمر فاستعمال هذه الاداة عرفي ، فليس من تفسـير لاستعمال العرب « أل » التعريف على اسم « الري » بينما نجد أن اسم « جي » وهو الاسم القديم لقسم من أصفهان يكتب دائما بدون « أل »[2] .

وكان العرب مقلّين في اطلاق التسميات فكان ذلك علة كثير من الارتباك ، فالقاعدة عندهم أن يسمّوا عاصمة اقليم باسم ذلك الاقليم ، حتى ولو كان لتلك العاصمة اسم آخر : فدمشق مثلا ما زالت تعرف عندهـم بالشـام وهي عاصمـة الشـام ، وزرنج أهم مدن سجستان كانوا يسمونها في الغالب سجستان أو مدينـة سجستان ويريدون بها مدينة ذلك الاقليم ، وقد أدى هذا الاستعمال طبعـا الى ارتباك حينما يكون للاقليم عاصمتان ، كما حدث مثلا في اقليم كرمان ، فان اسم كرمان (ونقصد المدينة) اطلق في الكتب القديمة على العاصمة الاولى السيرجان ، وفي العصور الاخيرة اطلق هذا الاسم على كرمان المدينة الحالية وهي غير تلـك المدينة بالمرة ، ولم تصبح عاصمة الا بعد خراب السيرجان ، وكذلك اذا قارنا بين الخوارط الموضوعة استنادا الى روايات بلدانيي القرون الوسطى وبين خوارط هذه

---

(١) وهكذا فللدينا « الأبلة » (واصل الاسم يوناني) قد دخلها « ال » التعريف ، وهنالك من الاسماء ما يناظرها ، ونجد احيانا اسماء عربية معرفة منها ما هي معرفة بال ومنها ما كان بدونها ، مثل الكوفة ويقال ان مصاها « اكواخ القصب » بينما نجد اسم واسط تكتب دائما بدون « ال » ، وكان ممكنا ان يكون معرفا مثل الكوفة .

(٢) اما كم تستقيم اية قاعدة من هذه القواعد ، فيتبين من حالة « جدة » ميناء مكة ، فقد ذكرها جميع المصنفين الاقدمين بصورة « جدة » و « الجدة » ، وفي صفحات هذا الكتاب حيثما ورد اسم موضع استعمله الكتاب العرب مسبوقا بـ « ال » ، فانما نذكره في الكتاب بهذا الوجه لاول مرة فقط ، فاذا تكرر الاسم حذفنا منه « ال » عادة على سبيل الاختصار ، وسرنا على ذلك في الخوارط توفيرا للمكان ، كما ان استعمال هذه الاداة أو عدم استعمالها يختلف باختلاف البلدانيين العرب ، وهم كذلك ليسوا على قاعدة ثابتة في تهجئة الاسماء الاعجمية .

الايام ، رأينا فى الغالب أن اسم مدينة مندرسة قد بقى محافظا عليه فى الولاية الحديثة . وهكذا الامر فى بلدة السيرجان المندرسة مثلا ، فان هذا الاسم نفسه ما زال مستعملا لولاية السيرجان الحديثة . ونحو ذلك « بردسير » و « جيرفت » وكانا قبلا اسمين لبلدتين جليلتين فبقيا لولايتيهما فقط . ومجمل القول فالولاية وقصبتها يطلق عليهما دائما اسم واحد ، وبمرور الزمن يهجر اما اسم الولاية أو اسم المدينة . وبناء على ما تقدم من الامثلة فان اسم مقاطعة اردون القديمة يطلق الآن على بلدة صغيرة تعرف باسم اردون ، وقد كان يقال لها قديما خوار (خوار الرى) .

وفى الجغرافيا الطبيعية ، لم تكن التسميات العربية وافرة أيضا . نعم نجد بوجه عام أن قمم جبال مشهورة لها أسماء تعرف بها (مثل دماوند وألوند) ولكنهم لم يطلقوا اسما خاصا على سلسلة من الجبال . فسلسلة جبال طوروس العظيمة التى تحجز بلاد الروم عن غيرها ، تذكر غالبا (وخطأ) باسم جبل لكام ، غير أن هذا الاسم ليس الا جبلا واحدا من مجموعة طوروس الداخلة (انتى طوروس) . ولم يطلق البلدانيون العرب اسما لسلسلة القمم الطويلة التى تتألف منها جبال ألبرز العظيمة الشهيرة الفاصلة بين هضبة ايران وبحر قزوين . ولقد كانوا يطلقون عادة على البحيرات الكبيرة أسماء خاصة (مثل : ماهالو ، زره ، جنجست). ولكن المألوف أن البحيرة كانت تعرف باسم أشهر مدينة على سواحلها كبحيرة أرمية وبحيرة وان ونسبت أيضا الى مدينة أرجيش . بل أن البحار كان الامر فى تسميتها أكثر غموضا . فكانت تذكر تسميات مختلفة مقتبسة من الاقاليم أو المدن الكبيرة الواقعة على سواحلها . وهكذا سمى بحر قزوين بتسميات شتى فقيل فيه : « بحر طبرستان » و « بحر گيلان » و « بحر جرجان » وكذلك « بحر باكو » وعرف أخيرا ببحر الخزر نسبة الى مملكة الخزر التى قامت فى شماله فى أوائل العصور الوسطى . ومثل ذلك « آرال » فقد كان يعرف ببحر خوارزم . وعرف خليج فارس ببحر فارس .

وفى الختام أود أن أجعل القارىء يحيط علما بأننى لم أذكر فى فصول الكتاب الا منتخبات مما بيدنا من مصادر اذ أن المدن والقرى التى وردت أسماؤها

فى هذا الاقليم أو ذاك ، كثيرة جدا ٠ وهى ولا شك أكثر من ضعف الاسماء المثبتة فى فهرست هذا الكتاب ٠ وقد أغفلت ذكر أسماء المواضع التى لم يكن فى الامكان تعيينها تعينا تقريبيا ٠ أما الخوارط ، فهى على ما يرى ليست الا رسوما يانية لايضاح المتن ، وهى لا تبين عما كان عليه أى قطر فى حقبة ما من الزمن ٠ وهكذا فالمدن التى تعاقبت الواحدة بعد الاخرى اشير اليها غالبا فى الخوارط كأنها كانت كلها فى وقت واحد ٠ والمتن كفيل بايضاح ما اذا كانت هذه المدن تعزى الى زمن واحد أم لا[1] ٠

(١) لا مندوحة من تبيان علة اكتظاظ الحواشى فى صفحات هذا الكتاب بعدد كبير من المراجع وان كان الباحث الراغب فى التحقيق عن امر ما ، لا يعد ذلك نقصا ولا ريب ٠ فلم يكن لى الا احد امرين٠٠ اما ذكرها جملة او اغفالها جميعا ٠ والمعروف ان المصنفين المسلمين من عرب وفرس وترك اعظم من انتحل آثار غيرهم ، وهم قل ان نوهوا بفضل من نقلوا عنه ٠ ومن جهة ثانية اضاف كل بلدانى أو مؤرخ شيئا من عنده الى ما نقله عن سلفه (دون التنويه بذلك) ٠ وهو فى الغالب ، بتوحيده كثيرا من الملتبسات، يتوصل الى جمع اخبار مختلفة تكفى فى اثبات حقيقة او تعيين موضع ٠ ولايضاح ذلك اشير الى بلدة خرقان فى اقليم قومس ، فهى ليست مدينة جليلة الشان ولا يعرف عنها شىء كثير ، على انه يبدو من المفيد ان نقول ان خرقان قومس هذه ، وان كانت قد زالت من الخارطة ، ينبغى ان تميز عن الاسم الذى يكتب بالعربية على شاكلتها وهو بلدة خرقان فى اقليم الجبال ٠ فكل ما يعرف عن البلدة القومسية هذه هو موضعها ، ولكن لتعيينها ، علينا ١ ــ مراجعة القزوينى الذى قال ان البلدة على اربعة فراسخ من بسطام ٠ و ٢ ــ اضاف ياقوت الى هذا القول انها تقع على الطريق الذاهب الى استراباد ٠ و ٣ ــ مع ان المستوفى قال ان خرقان كانت فى ايامه قرية ذات شان فيها مياه وافرة ٠ وعليه فانها لم تكن محطة بريد فقط ٠ ومع هذا كان علينا ، لكى ندون كل ما دوناه عنها وهو شىء ضئيل ، ان نرجع الى ثلاثة مؤلفين ونشير الى تصانيفهم فى الحاشية ٠

الفصل الثاني

العراق

تقسيم ارض ما بين النهرين الى شمالية وجنوبية ـ العراق اى بلاد بابل ـ
التغير في مجريي الفرات ودجلة ـ انهر الري العظيمة ـ بغداد ـ
المدائن وما في جنوبها من مدن على دجلة حتى فم الصلح

قسمت الطبيعة سهل ما بين النهرين العظيم الذى اتخذ الفرات ودجلة فيه مجريهما الى قسمين : الشمالى (وهو مملكة آشور القديمة) ومعظمه مراع تغطى سهلا حجرى التكوين • والجنوبى (وهو بلاد بابل القديمة) وأرضه رسوبية خصبة يكثر فيها النخيل وتسقيها أنهار الرى • وعدّ أهل الشرق هذه البلاد من جنان الدنيا الاربع لوفرة خصبها • وقد سمى العرب ما بين النهرين الشمالى بالجزيرة ، والجنوبى بالعراق • ومعنى العراق « الجرف » أو « الساحل »[1] وأما

---

(١) جاء تفسير اسم « العراق » فى معاجم اللغة وكتب البلدان العربية • وقد اخترنا ما قاله « تاج العروس » (مادة عرق ٧ . ٩) فى هذا الاسم : « العرق جمع عراق ، بالكسر : لشاطىء البحر على طوله ، نقله الليث • وهو ككتاب وكتب • وقال وبه سمى العراق عراقا •••••• والعراق شاطىء الماء او شاطىء البحر خاصة • زاد الليث • طولا ، اى على طول البحر ••••• قال ابو زيد ـ كل ما اتصل بالبحر من مرعى فهو عراق •••••• لان العراق بين الريف والبر أو لانه على عراق دجلة والفرات ، اى شاطئهما • او هى (اى العراق) معربة ايران شهر ومعناه كثيرة النخل والشجر ، فعربت فقيل عراق • هكذا نقلوه • وعندى فى معناه نظر • وقال الازهرى ـ قال ابو الهيثم ، زعم الاصمعى ان تسميتهم العراق اسم اعجمى معرب • انما هو ايران شهر فاعربته العرب فقالت عراق » اهـ•

وفى معجم البلدان لياقوت (مادة . عراق) قوله « قال قطرب : انما سمى العراق عراقا ، لانه دنا من البحر وفيه سباخ وشجر • وقال الخليل ـ العراق شاطىء البحر وسمى العراق عراقا لانه على شاطىء دجلة والفرات مدا حتى يتصل بالبحر على طوله • قال الاصمعى هو معرب عن ايران شهر وفيه بعد من لفظه ، وان كانت العرب تتلغلغ فى التعريب بما هو مثل ذلك • وقال ابو عمرو : سميت العراق عراقا لقربها من البحر • قال واهل الحجاز يسمون ما كان قريبا من البحر عراقا • وقال حمزة . الساحل بالفارسية اسمه ايراه ، ولذلك سموا كورة اردشير خره من

كيف جرى استعمال هذا الاسم فى العهود السالفة فأمر يعتريه الشك ، فلعله يمثّل اسما قديما ضاع الآن ، أو أنه اريد به فى الاصل غير هذا المعنى وكان العرب يسمون السهل الرسوبى بأرض السواد أى الارض السوداء . واتسع مدلول كلمة السواد حتى صارت هى والعراق لفظين مترادفين فى الغالب . وأصبح يراد بها اقليم بلاد بابل جميعه[1] .

وقد تغيرت الحدود بين العراق والجزيرة فى أزمنة مختلفة فكان الحد بينهما لدى البلدانيين العرب الاولين يطابق بوجه عام خطا يذهب شمالا من الانبار على الفرات الى تكريت على دجلة . وكانت كلتا هاتين المدينتين تعد من أعمال العراق. أما من أعقبهم من البلدانيين ، فقد جعلوا الخط يذهب من تكريت باتجاه الغرب تقريبا ، فأدخلوا فى العراق كثيرا من المدن التى على الفرات فى شمال الانبار . وهذا الخط ، بالنظر الى الجغرافيا الطبيعية ، أقرب الى التقسيم الطبيعى بين الاقليمين . وهو يقطع الفرات أسفل من عانة حيث ينعطف النهر انعطافه الكبير نحو الجنوب . وقد سمى العرب نهر « يفراتس » (Euphrates) بالفرات كما سموا « تايكرس » (Tigris) بدجلة خاليا من « أل » التعريف . وهذا الاسم الاخير ورد فى الترجوم بصورة « ديكلات » التى تقابل الشطر الاخير من كلمة « حدّاقل » (Hiddekel) وهى الصيغة التى ذكر بها دجلة فى سفر التكوين[2].

ارض فارس . ايراهستان لقربها من البحر . فعربت العرب لفظ ايراه بالحاق القاف فقالوا ايراق . وقال حمزة والعراق تعريب ايراف بالفاء ومعناه مغيض الماء وحدور المياه ، وذلك ان دجلة والفرات وتامرا ، تنصب من نواحى ارمينية وبند من بنود الروم الى ارض العراق وبها يقر قرارها فتسقى بقاعها » . اهـ .

وللاثرى هرسفلد ، رأى فى اصل كلمة العراق ومعناها نشره فى مجلة لغة العرب (٤ : ٤٤١–٤٤٣) رأينا ان نجمله استكمالا للفائدة – ان العراق معرب لفظ ايراك الايرانى ومعناه البلاد السفلى او الجنوب. وكانت انحاء واسط الى خليج فارس عائدة الى هذا القسم من ديار الدولة الساسانية . وفى مفاتيح العلوم للخوارزمى وتاريخ حمزة الاصفهانى : ايران العراق . ولا جرم انها غلط . والصواب – ايراك (بالكاف الفارسية) ولكنهم لم يعرفوا معنى ايراك وألفوا لفظة ايران ، فصحفوا ايراك بايران ، كما ان ابدال الهمزة من العين امر شائع . وجاء فى نص الافستا كلمة « ايرانستان » وهو اسم كورة واقعة بين فيروزاباد وخليج فارس . وكان يجب ان تقرا ايراكستان (بالكاف الفارسية) وما ايراكستان الا العراق . (م) .

(١) للفظة « سواد » معنى ثان هو « العقار » الذى يكتنف المدينة . فقيل سواد بغداد وسواد الكوفة وسواد البصرة . ويراد بذلك ما يحيط بهذه المدن من اراض زراعية .

(٢) لا يعرف اصل اسم الفرات بالضبط وقد ورد اسمه فى الكتابات المسمارية بالعلامات نفسها التى يكتب بها اسم مدينة (سبار) القديمة وهى أبو حبة اليوم . ويرجح ان اسمه سومرى . وسماه البابليون بلغتهم السامية باسم « بورتو » و « بوراتى » ولعل الاسم البابلى ومنه الاسم العربى « الفرات »

ولما فتح المسلمون العراق في خلال النصف الاول من المئة الاولى للهجرة (السابعة للميلاد) ، كانت طيسفون ، وهي على دجلة ، وقد سموها المدائن ، أجلّ مدن هذا الاقليم والعاصمة الشتائية للملوك الساسانيين • ولرغبة العرب في مدن يسكنونها ويعسكرون فيها ، أسسوا في زمن قصير مدنا ثلاثا : الكوفة والبصرة وواسط سرعان ما نمت وصارت أهم مدن هذا الاقليم الاسلامي الجديد • وكانت الكوفة والبصرة بوجه خاص عاصمتي العراق الشقيقتين في أيام بني امية[1] •

ولما انتقل الامر من الامويين الى العباسيين ، اقتضى الحال اتخاذ عاصمة جديدة لدولتهم الجديدة • فأسس ثاني خلفاء بني العباس بغداد على دجلة فوق طيسفون (المدائن) بضعة أميال • وما عتمت بغداد أن غطت على ما اتصفت به دمشق من مفاخر في العهد الاموي وأصبحت قاعدة الخلافة العباسية وعاصمة العراق أيضا بطبيعة الحال • وعلا شأن اقليم العراق فصار قلب الدولة الاسلامية ومركزها في الشرق •

وكانت أحوال العراق الطبيعية في القرون الوسطى تختلف اختلافا بيّنا عما نعهده الآن ، لما طرأ من تغير عظيم في مجريي الفرات ودجلة ، وما نجم عن ذلك من خراب في أنهر الري العديدة التي جعلت من العراق في زمن الخلفاء الاولين جنة عدن لخصب أرضه • ينساب دجلة اليوم في مجرى متعرج يأخذ الى الجنوب الشرقي ويلتقي على نحو ٢٥٠ ميلا (بخط مستقيم) أسفل من بغداد هو ومياه الفرات في القرنة • ومن اقتران النهرين يتكون نهر يعرف بشط العرب ، كان يجري حينذاك في مجرى عريض أي في فيض يصب في خليج فارس •

مشتق من كلمة الفرع • اما دجلة فقد ورد اسمه بصوره « ادقلات » أو « ادكلات » • ومن معاني اسمه الاصلي • « الجاري » أو « الراوي » • وعرف الآشوريون منبع دجلة وعسوه في ارمينية • فقد ذكر الملك الآشوري شلمنصر الثالث (المئة التاسعة قبل الميلاد) انه اقام في عام حكمه الخامس عشر ، نصبا عند منبع دجلة ، وانه سار من بعد ذلك الى ينابيع الفرات • راجع ـ مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة للسيد طه باقر (١ ، ٣٧٧) • اما الاسم حداقل فقد ورد في سفر التكوين ٢ • ١٤ • (م) •

(١) عرفت الكوفة والبصرة بالعراقين ، ومعنى ذلك « عاصمتا العراق » • على انه حين فقدت الكوفة والبصرة منزلتيهما بعد زمن ، صار اسم « العراقين » يستعمل في غير وجهه الصحيح • فكان يعني « اقليمي » العراق وهما العراق العربي والعراق العجمي ، ويراد بالاخير اقليم الجبال وسنوضح ذلك في موضعه من الفصل الثالث عشر •

وكان يبلغ طوله زهاء مئة ميل فى أعدل الخطوط • وهذا ما يرى فى الخارطة الحديثة • ويغلب على الظن أن دجلة كان منذ صدر الاسلام حتى منتصف المئة لعاشرة (السادسة عشرة) اذا تجاوز أسفل بغداد بمئة ميل انحرف عن اتجاهه الجنوبى ، حيث مجراه الحالى ، فانساب الى واسط فى مجرى يعرف اليوم بشط الحى (أى شط الحية)[1] على ما سيأتى بيانه • وكانت مدينة واسط على جانبى النهر • وعلى نحو ستين ميلا أسفل من واسط كان دجلة يوزع معظم مائه على أنهار الرى ، وكانت بقيته تتشعب ثم تفنى فى البطيحة العظمى •

وكانت البطيحة العظمى طوال القرون الوسطى ، تتبطّح فى رقعة يبلغ عرضها خمسين ميلا وطولها قرابة مئتى ميل ، وتمتد جنوبا حتى تناوح البصرة • وكانت البطيحة يأتيها الماء من الفرات عند موضع فى شمالها الغربى ، يبعد بضعة أميال عن جنوب الكوفة ، اذ كان عمود الفرات فى تلك الايام شط الكوفة • ولم يكن شط الحلة حينذاك (وهو عموده الآن) الا نهرا عظيما للرى يعرف بنهر سورا • وكان على الحافة الشمالية من أسفل البطيحة العظمى ، أهوار يوصل ما بينها أزقة لسير السفن • وقد كان دجلة يدخل البطائح عند القطر ، وكانت السفن تخرج منها الى موضع (قرب القرنة الحالية) تجتمع فيه مياه الفرات ودجلة فتجرى فى نهر أبى الأسد الى رأس فيض شط العرب[2] ، وكانت سفن النهر تنحدر فى هذا الطريق المائى دون أن تلقى صعوبة من بغداد حتى البصرة • والبصرة فرضة

---

(١) لا نرى رأى المؤلف فى تفسير شط الحى بشط الحية فالحى هنا بمعنى محلة القوم وربعهم ، ومنه حى واسط وهى بلدة الحى اليوم ، وبها عرف هذا النهر لوقوعها عليه ، ويقال له ايضا نهر الغراف ، وهو غير النهر الذى تقوم عليه اطلال واسط ، فان عقيق هذا النهر يعرف فى يومنا بالدجيلة وهو دجلة قبل رجوعه الى مجراه الشرقى الحالى (م) •

(٢) هذا ما قاله البلاذرى فى هذا الصدد « وكانت دجلة تصب الى دجلة البصرة التى تدعى العوراء فى انهار متشعبة ومن عمود مجراها الذى كان باقى مائها يجرى فيه وهو كبعض تلك الانهار » (فتوح البلدان • ص ٢٩٠ طبعة مصر) •

وقال ابن رسته . « ويخرج من هذه البطائح انهار • من ذلك ــ نهر المرة ويصب هذا النهر فى دجلة العوراء • ومن ذلك نهر يقال له نهر ابى الاسد وهو قريب من نهر المرة ويصب فى دجلة العوراء • ويمتزج هذا الماء بماء البحر الذى يدخل فى دجلة العوراء من ماء المد • ومن ذلك نهر فى اسفل البطائح مما يلى قصر انس بن مالك يقال له نهر ابى عمر ، وهو عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز ، حفره فى ولاية بنى امية ليعذب ماء اهل البصرة • وطوله اربعة فراسخ من اسفل البطائح الى فيض البصرة • ونهر ابن عمر يصب فى نهر البصرة • وما صار فى فيض البصرة وقع فى نهر الابلة حتى يخرج الى دجلة العوراء ثم يقع فى بحر الهند » (الاعلاق النفيسة • ص ٩٤) • (م) •

بغداد • وقد كانت عند منتهى نهر قصير يحمل من الفيض الى الغرب ــ والفيض هو دجلة العوراء على ما كان يعرف به شط العرب فى الغالب حينذاك •

ودجلة الحالى على ما يرى فى الخارطة الحديثة ، يجرى فى شرق شط الحى منسلاً من عند قربة يقال لها اليوم كوت العمارة[١] ، وهى فى موضع بلدة ماذرايا القرون الوسطى • ومجرى دجلة الحالى هذا الى القرنة هو المجرى نفسه الذى كان أيام الساسانيين على ما يبدو ، حين لم تكن البطيحة العظمى التى وصفها البلدانيون العرب قد تبطّحت • وقد ذهب المؤرخ البلاذرى الى أن نشأة البطيحة كانت فى أيام قباذ الاول[٢] الملك الساسانى ، وقد تولى العرش فى أواخر المئة الخامسة للميلاد • ففى أيامه أغفل أمر السدود فى دجلة اغفالا دام سنين كثيرة • وارتفعت المياه فجأة فندفقت من جملة بثوق ، فغلب الماء على ما كان من الارضين منخفضا فى جنوبه وجنوبه الغربى • وفى عهد أنوشروان العادل ابن قباذ وخليفته، رممت السدود بعض الترميم حتى عادت تلك الارضين الى عمارتها وزراعتها • الا أنه فى عهد كسرى أبرويز ، وقد عاصر النبى محمد ، زاد الفرات ودجلة ثانية فى نحو السنة السابعة أو الثامنة للهجرة (٦٢٩م)[٣] زيادة عظيمة لم ير مثلها قبلها • وانبثقت بثوق عظام فى مواضع لا تحصى ، وغلب الماء على الارضين• وعلى ما جاء فى البلاذرى ، ان كسرى أبرويز ، ركب بنفسه لسد تلك البثوق بعد فوات الاوان و « نثر الاموال على الانطاع وقتل الفعلة بالكفاية وصلب على بعض البثوق فيما يقال أربعين جسّارا فى يوم ، فلم يقدر للماء على حيلة » • ولما لم تعد المياه الى حالها الاولى ، أصبحت ما غمرته من بقاع بطيحة دائمة • اذ أنه

---

(١) راجع عن كوت العمارة كتاب « مباحث عراقية » ليعقوب سركيس (ص ٢٦٤ ــ ٢٨٣ و ٣١٢ ــ ٣١٤ بغداد ١٩٤٨) (م) •

(٢) حكم قباذ الاول من سنة ٤٨٨ــ٥٣١ للميلاد • وكسرى انو شروان من ٥٣١ــ٥٧٩ للميلاد (م)•

(٣) وهم المؤلف في قوله ان زيادة الفرات ودجلة كانت في سنة سبع او ثمان من الهجرة • فقد قال البلاذرى في هذا الشأن : « ثم لما كانت السنة التي بعث فيها رسول الله (ص) عبدالله بن حذافة السهمى الى كسرى ابرويز وهي سنة سبع من الهجرة ويقال « سنة ست » زاد الفرات ودجلة زيادة عظيمة لم ير مثلها قبلها ولا بعدها » • ويؤخذ من ذلك ان سنة ٦٢٩ م التي ذكرها المؤلف اعلاه لا تتفق مع وسنى حكم كسرى ابرويز ، اذ انه حكم من سنة ٥٩٠ الى سنة ٦٢٨ للميلاد • فالزيادة الانهار حصلت في آخر سنة من حكمه وهي ٦٢٨ المقابلة لسنة ٦ و٧ للهجرة (م) •

للفوضى التى سادت السنوات التالية ، ولقيام الجيوش الاسلامية باكتساح بلاد ما بين النهرين ، ولانحلال المملكة الساسانية ، بقى حال السدود على ما آلت اليه مغفلة بطبيعة الحال . « فكانت البثوق تنفجر فلا يلتفت اليها ، ويعجز الدهاقين (أى النبلاء الفرس الذين كانوا يملكون تلك الارض) عن سد عظمها فاتسعت البطيحة وعرضت » .

والاخبار المارة الذكر عن تكوّن البطيحة الكبرى واشارة ابن رسته الى هذه الحقبة من آخر عهد الساسانيين ، تبين أول تحول كبير لدجلة من مجراه الشرقى ، فيما وراء ماذرايا ، الى مجراه الغربى (أى شط الحى)[1] . ثم أن دجلة « خرقت الارض حتى مرت بين يدى واسط قبل أن تكون واسط » . فلما تحولت دجلة على ما ذكر ابن رسته — صارت الارضين المتاخمة للمجرى الشرقى القديم صحارى ومفاوز ، وقد كانت على هذه الحال فى المئة الثالثة (التاسعة) حين كتب كتابه . ثم وصف ابن رسته ما بقى من دجلة — وكان طوله ستة فراسخ (فوق القرنة) — الصاعد شمالا الى عبدسى والمذار حيث سكرت دجلة[2] وواضح أن هــذا النهر هو أسافل مجرى دجلة الشرقى القديم والحديث . وقال ابن رسته ان هذا السكر ، وقد كان فى أيامه يعرقل الملاحة فيما فوق هذا الموضع ، لم يكن موجودا فى أيام الساسانيين . فكانت السفن تجرى الى شمال عبدسى والمذار حتى ملتقاه بدجلة (أى دجلة أيامه) ثانية فى كورة فى شــمال واســط (فى ماذرايا) حتى تأتى المدائن ، فلا عائق فى النهر يحول دون سير السفن . ثم يوالى ابن رسته قوله : « فكانت سفن البحر قبل الاسلام تجرى من بلاد الهند ، فتدخل دجلة البصرة (أى فيض دجلة) حتى تأتى المدائن (طيســفون) فتمر حتى تخرج فوق فم

---

(١) سبق لنا القول ان دجلة تحول مجراه الى ما يعرف اليوم بالدجيلة لا الى شط الحى أى الغراف وهو غير الدجيلة (م) .

(٢) قال ابن رسته فى ذلك ما يأتى .

« ثم ان دجلة هذه التى هى اليوم سكرت من عند الخيزرانية ليعود الماء الى دجلة العوراء وينفذ الى المذار فيصير الى بقية دجلة العوراء ، فخرقت وانفق عليها كسرى ابرويز مالا عظيما فأعياه ذلك وجرت دجلة فى موضعها الذى هو اليوم بين يدى واسط ، فصارت البطائح هذه التى تكون اليوم فاعورت دجلة من ذلك الموضع المكسور الى مذار وبطلت تلك البطائح التى كانت بجوخى لبقى من دجلة دجلة العوراء من المذار الى بحر الهند وذلك فى مقــدار ثلاثين فرســـــخا . وهى دجلــة البصرة ، واليه ينتهى مد البحر ومنه يجزر اذا رجع الماء الى البحر » (الاعلاق النفيسة . ص ٩٥) (م) .

الصلح فتصير الى دجلة (أى موضع دجلة السفلى فى الازمنة المتأخرة) بغداد » .

فأسفل دجلة الحالى ، ينساب فى المجرى الاصلى الذى كان يتبعه بوجه عام فى أيام الساسانيين . ولكنه كان طوال العصر العباسى ، ينحدر الى البطيحة فى مجراه الغربى المار بواسط . ولسائل أن يسأل : متى تحوّل النهر ثانية الى مجراه الشرقى الحالى ؟ والجواب عن هذا ، ان التحول حصل ولا شك تدريجا من ترسّب الطمى فى المجرى الغربى . ومهما يكن من أمر فان مراجعنا الاسلامية حتى عهد تيمور وبدء المئة التاسعة (الخامسة عشرة) أجمعت على أن دجلة الاسفل كان ما زال يمر بواسط . وقد أيد حافظ ابرو هذا الامر ، حين كتب فى سنة ٨٢٠ (١٤١٧م) . وفى طليعة الرحالين الذين نوهوا بالفرع الشرقى وذكروا أنه نهر صالح لسير السفن هو جون نيوبرى (John Newberie) فانه بعد أن زار بغداد أقلع فى سنة ١٥٨١م بسفينة الى البصرة فبلغها فى ستة أيام ، وكان قد مر فى اليوم الخامس بالقرنة ، فقال انها « قلعة تقوم عند ملتقى نهر فرّو (الفرات) بنهر بغداد (دجلة) » . وفى القرن الذى يليه انحدر تافرنيه الفرنسى برحلة فى دجلة كسلفه . فقد غادر بغداد فى شباط سنة ١٦٥٢م . وذكر أنه على مسافة غير قليلة أسفل من هذه المدينة ، يتفرع دجلة الى فرعين ، كان الفرع الغربى (وهو المار بواسط) فى أيامه قد أصبح غير صالح لسير السفن ، وكان يجرى فى ناحية ما بين النهرين ـ على حد قوله ـ فاتبع الرحالة الفرنسى فى سفينته النهر الشرقى الحالى الذى كان يجرى فى ناحية « كلدية القديمة » بعد مغادرته (كوت) العمارة . وقبل وصوله البصرة بشىء يسير مر بالقرنة فقال : ان دجلة والفرات يلتقيان هناك [1] وبعد نشوء البطيحة العظمى وما تلا ذلك من تبدل فى مجريى الفرات

---

(١) البلاذرى ٢٩٢ ؛ ابن رسته ٩٤ ؛ ياقوت ١ : ٦٦٩ . وفى سنة ١٥٨٣ م ، انحدر جون الدرد John Eldred فى النهر من بغداد الى البصرة ووصف كيف « يلتقى قبل بلوغ البصرة بنحو يوم ـ نهرا دجلة والفرات وتقوم هناك قلعة يقال لها القرنة » (انظر رحلته فى Hakluyt's Principle Navigations (Glascow, 1904 Vol. VI, p. 6) وانظر ايضا Vol. V., p. 371 فعيها ان سيزار فردريك Caesar Fredrick قد قام بما يشبه هذه الرحلة فى سنة ١٥٦٣ م وذكر بمثل ذلك قلعة القرنة . وانظر عن رحلة جون نيوبرى Purchas, His Pilgrimes (Fol. 1625-1626) Vol. 5, p. 1411-1412) وانظر Six Voyages en Turquie de j-B. Tavernier (Utrecht, 1712, 1.240). اما الرحالون الآخرون فلم يأتونا باخبار وافية . ويظهر ان اقدم من ذكر صلاح فرع دجلة الغربى

ودجلة أهم ما يلفت النظر للحالة الطبيعية لأرض ما بين النهرين السفلى فى أيام الخلافة • ولا يقل عن ذلك شأنا ما كان عليه نظام الرى الذى ورثه العرب بعد الفتح بانتقال البلاد اليهم من الفرس • وبوجيز القول نجد أن العراق جميعا ، مما كان فى شمال البطيحة وواقعا بين النهرين ، كانت تشقه على ما قد بينا ، أنهار تلو انهار ، تأخذ من الفرات وتتجه نحو الشرق فتصب فى دجلة • بينما كان فى شرق دجلة ، نهر طوله مئتا ميل يعرف بالنهروان[1] يبدأ أسفل من تكريت[2] وينتهى فى دجلة على نحو من خمسين ميلا من شمال واسط وكان يروي ما فى الجانب الابعد من دجلة ، أى ما تاخم ايران • وسنبسط القول فى هذا النظام المائى العظيم فى موضعه من الكتاب • على أننا ، ان ألقينا نظرة الى الخارطة المرفقة الموضوعة بالاستناد الى ما كتبه المؤلفون المعاصرون ، بان لنا أن مرجع خصب العراق العجيب فى أيام العباسيين كان نظامهم الدقيق فى استغلال مصادر المياه كل الاستغلال • فبينما كانت الاراضى الممتدة بين الفرات ودجلة تكاد تسقيها كلها الانهار الآخذة من الفرات الى ناحية الشرق ، كانت الاراضى التى فى يسار دجلة وأمام سفوح الجبال الايرانية ، تسقيها أنهار تأخذ من النهروان • فقد كانت توزع مياه دجلة الفائضة على الاراضى الشرقية توزيعا فنيا اقتصاديا ، وتجرّ مياه فيضان الانهار الكثيرة المنحدرة من جبال كردستان •

(اى المالى) لسير السعن ، الرحالة البرتغالى المجهول ، ونسخة رحلته المخطوطة لدى ميجر م• هيوم (انظر The Athenaeum عدد ٢٢ الصادر فى آذار ١٩٠١ ص ٣٧٣) وقد نره فيها بالقلعة (يريد القرنة) وهى على سنة فراسخ فوق البصره حيث يقترن الفرات بدجلة • ويؤخذ مما جاء فى كلامه ، انه قام برحلته فى نحو سنة ١٥٥٥ م • وصفوه القول ان دجلة على ما يظهر ، كان منذ صدر الاسلام حتى نهاية المئة التاسعة للهجره ، يجرى فى الفرع الغربى منحدرا الى البطيحة • ثم انه فى اوائل القرن السادس عشر للميلاد ، عاد ثانية الى مجراه الشرقى حيث كان يجرى فى العصر الساسانى قبل ظهور الاسلام وهو مجراه فى ايامنا•

(١) الظاهران المؤلف يعدالقاطول الكسروى قسما من النهروان ، وهذا مخالف لما ذكره البلدانيون كياقوت وغيره • (م)

(٢) تقوم تكريت فى غربى دجلة • ومراد المؤلف ان النهروان يخرج من اسفل تكريت من الجانب الشرقى (م) •

وقد عُنيت فى أحد تآليفى السابقة ، بوصف خطط بغداد[١] وغاية ما نتوخاه الآن هو أن نلخص أهم الاخبار عن هذه المدينة اظهارا لمنزلة العاصمة العباسية بين مدن العراق وايضاحا لنظام الطرق (وقد نوهنا به فى الفصل الاول) الذى كانت بغداد مركزه •

فأول الانهار الكبيرة التى كانت تحمل من الفرات الى دجلة ، نهر عيسى[٢]• وفى نحو سنة ١٤٥ (٧٦٢) ابتنى المنصور فوق مصب نهر عيسى فى دجلة المدينة المدورة وهى نواة مدينة بغداد • وكان للمدينة المدورة أربعة أبواب متساوية الابعاد بعضها عن بعض ، بين الباب والباب ميل عربى • ويخرج من كل باب طريق • ثم نشأت مع الايام أرباض واسعة على هذه الطرق الاربعة • ولم يمض وقت طويل عليها حتى اندمجت فى نطاق المدينة وقام منها مدينة بغداد الكبرى • وكانت أبواب المدينة المدورة الاربعة :

(١) باب البصرة فى الجنوب الشرقى ، وهو يفضى الى الارباض الممتدة على ضفة دجلة حيث تصب فروع نهر عيسى المختلفة •

(٢) باب الكوفة فى الجنوب الغربى من بغداد ، ويخرج منه طريق الى الجنوب وهو طريق الحج الى مكة •

(٣) باب الشام فى الشمال الغربى ، حيث ينفرع الطريق يسارا الى الانبار على الفرات ويمينا الى المدن الواقعة على ضفة دجلة الغربية شمال بغداد •

(٤) باب خراسان المؤدى الى الجسر الكبير لمن أراد عبور النهر • وهذا الجسر كان يفضى الى بغداد الشرقية ، وهى التى عرفت بعسكر المهدى أولا ، والمهدى هو ابن المنصور وخليفته • وقد بنى المهدى هاهنا قصره ، وأنشأ أيضا المسجد الجامع فى بغداد الشرقية •

---

(١) انظر (بغداد فى عهد الخلافة العباسية) اكسفورد ١٩٠٠ • وينبغى ان يلاحظ ان عدد كور العراق ومدنه وقراه التى انتهت الينا اخبارها كبير جدا ، ولتحتاج الى مجلد لذكر كل ماعرف عن هذا الاقليم الذى كان قلب الدولة العباسية • والخارطة التى وضعتها لاتن سترابيون JRAS, 1895, p. 32. تبين جميع المواضع التى على النهر والترع • الا ان هذه الخارطة لم تستوعبها جميعا • وللتوسع ينبغى للقارىء ان يرجع الى كتاب البروفسور م• شترك الموسوم : Die Alte Landschaft Babylonien (Leyden, 1901) فالمجال يضيق عن ذكرها كلها فى هذا الفصل •

(٢) اطلق العرب لفظة « نهر » على ما كان نهرا طبيعيا أو صناعيا • و « عيسى » اسم الامير العباسى الذى شق هذا النهر •

وكان فى الجانب الشــرقى ثلاث محلات : المحلة التى بالقــرب من رأس الجسر ، وقد عرفت بالرصافة • ومحلة الشمّاسية فوقها على النهر • ومحلة المخرّم تحتها • وكان يطيف بهذه المحلات الثلاث من بغداد الشرقية سور نصف دائرى يبدأ من ضفة النهر فوق الشماسية وينتهى بالنهر أيضا تحت المخرم • وكان يخترق القسم الوسطى الضيّق من بغداد الشرقية ، أول طريق خراسان الذى يبدأ من باب خراسان فى المدينة المدورة ، ويعبر الجسر الكبير الى باب خراسان (الثانى) فى بغداد الشرقية • ومنه ــ على ما بينّا فى الفصل السابق ــ يتابع سيره شرقا حتى يبلغ أقاصى ديار الاسلام •

وكان يخرج من باب الكوفة فى المدينة المدورة ، طريق الكوفة ، أى طريق الحج ــ على ما بينّا ــ فيتجه جنوبا • وكان الربض العظيم الممتد من هذا الباب الى نحو فرسخ من أسوار المدينة المدورة يعرف بالكرخ • وفى غربى المدينــة المدورة ربض باب المحوّل ، وكان الوصول اليه من باب الكوفة وباب الشام • وفيه مجتمع الطرق التى تتصل بالطريق الغربى الكبير الذاهب الى الانبار مارا ببلدة المحوّل • وكان فى شمال باب الشام محلة الحربية (تناظر الكرخ فى جنوب المدينة المدورة) • وكانت المقابر الشمالية فى بغداد الغربية فيما وراء محلة الحربيــة ، يكتنف دجلة جانبين منها • وعرفت هذه المقابر بعدئذ بالكاظمين وسميت بذلك نسبة الى ضريحى امامين من أئمة الشيعة[1] •

ومدينة بغداد ، تتوسط اربعة طساسيج : كل طسوجين منها فى جانب من دجلة ففى الجانب الغربى طسوج قطربل فى شمال نهر عيسى ، وطسوج بادوريا فى جنوبه • وفى الجانب الشرقى طسوج نهر بوق وهو فى شمال طريق خراسان ، وطسوج كلواذى فى الجنوب • وكانت بلدة كلواذى قائمة على ضفة دجلة على

---

(١) والكاظمية اليوم احدى المدن المقدسة فى العراق لدى الشيعة ، على بعد خمسة كيلومترات عن شـــمال بغداد وهى اليوم مركز قضاء الكاظمية التابع للواء بغداد وقامـت فى موضع مقبرة قريش الكبرى • وقد دفن فيها الامام موسى بن جعفر الملقب بالكاظم فى سنة ١٨٣هـ (٧٩٩) فنسبت اليه لقيل لها الكاظمية • ولما مات حفيده الامام محمد بن على الملقب بالجواد فى سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥) دفن الى جواره • فبنى شيعتهما عمارة حول القبرين ثم وسعوا فيها فصارت المشهد الكاظمى (م) •

شيء يسير تحت اقصى ابواب بغداد الشرقية الى الجنوب[١] • ويخرج من بغداد ، وهى المركز الذى تتفرع منه طرق الدولة جميعها ، طريقان - على ما ذكرنا - يذهب احدهما الى الجنوب والآخر الى الغرب ، وكانا ينفصلان عند باب الكوفة فى المدينة المدورة • وطريقان يذهبان الى الشمال والى الشرق يخترقان بغداد الشرقية ويبدآن من منتهى الجسر الكبير • فالطريق الجنوبى وهو الذاهب الى الكوفة (ومكة) كان بعد ان يغادر ربض الكرخ ، يصل الى بلدة صرصر وهى على نهر صرصر ثانى الانهار الكبيرة الآخذة من الفرات الى دجلة ، ويجرى بموازاة نهر عيسى فى جنوبه • ويبدأ الطريق الغربى ، أى طريق الانبار ، من باب الكوفة فيخترق ربض براثا ، وبعد نحو فرسخ يصل الى بلدة المحوّل على نهر عيسى • والطريق الشرقى ، أى طريق خراسان ، يترك بغداد الشرقية ، على ما بينا الآن ، عند باب خراسان شمال محلة المخرم • واول مدينة يبلغها : جسر النهروان وعندها معبر النهر العظيم : النهروان • وآخر الطرق : الطريق الشمالى ، وكان يخترق محلة الشماسية فباب البردان فى بغداد الشرقية ، وما يعتم ان يصل الى بلدة البردان وهى على ضفة دجلة الشرقية • ثم يتابع سيره يسار النهر فيبلغ سامراء ومدن ما بين النهرين الشمالى (اقليم الجزيرة) •

وفى غضون القرون الخمسة التى عاشت فيها الخلافة العباسية ، تغيرت خطط بغداد وارباضها تغيرا كبيرا ، لاتساع المدينة من جهة وخراب بعض اقسامها من جهة اخرى • وما صورناه فى الفقرات السابقة ان هو الا صورة المدينة على ما كانت عليه فى خلافة هرون الرشيد • وكانت الحروب الداخلية التى نشبت بعد وفاته ، قد اوقعت الخراب فى المدينة المدورة • وفى سنة ٢٢١ (٨٣٦) ، نقل مقام الخلافة الى سامراء فضؤل شأن بغداد فى عهد سبعة من الخلفاء ، وامست مدينة اقليم لا غير • ولما هجرت سامراء سنة ٢٧٩ (٨٩٢) وعاد الخليفة الى العاصمة

---

(١) كان يحيط بالجانب الشرقى من بغداد ، سور عظيم يكتنفه خندق وفى السور اربعة ابواب - الباب الشمالى « باب السلطان » وهو باب المعظم الآن • ويليه « باب الظفرية » (الباب الوسطانى الحالى وفيه اليوم متحف الاسلحة) • ويليه باب الحلبة (باب الطلسم وقد نسفه الاتراك سنة ١٩١٧ حين خروجهم من بغداد) اما اقصى الابواب جنوبا فهو بباب كلواذى وعرف ايضا بباب البصلية لقربه من المحلة التى بهذا الاسم وسمى فى الازمنة الحديثة بالباب الشرقى • وقد نقض قبل سنوات (م) •

القديمة ، كانت بغداد الشرقية ، وقد استجد فيها الكثير من القصور ، قد خلفت مجد المدينة المدورة التي ازدادت خرابا على خراب • وأقام الخلفاء في الجانب الشرقي خلال القرون الاربعة التالية حتى الفتح المغولي دون ان يتحولوا عنه •

وقد ابتنى الخلفاء في اواخر العصر العباسي قصورهم هذه في جنوب المخرّم • والمخرّم سفلى المحلات الثلاث التي في داخل اسوار بغداد الشرقية على ما كانت عليه في ايام هرون الرشيد • وكانت هذه المحلات الثلاث في الزمن الذي تتكلم عليه ، قد استولى عليها الخراب ، الا انه ما عتم ان نشأ حول القصور المحدثة ارباض جديدة ، ما كاد يمضي عليها وقت طويل حتى احيطت هي ايضا بسور عظيم نصف دائري • وقد كان سور بغداد الشرقية الجديد يضم قسما من محلة المخرم العتيقة ، وبدؤه من ضفة النهر فوق القصور ، وانتهاؤه في ضفة النهر تحتها (أي انه يصاقب طسوج كلواذى) • وكان المستظهر[1] قد بنى السور في سنة ٤٨٨ (١٠٩٥) ثم رُمّ غير مرة • الا انه في سنة ٦٥٦ (١٢٥٨) لم يقو على صد هجوم المغول فانتهى الامر بسقوط الخلافة العباسية • ومازال هذا السور المتشعث قائما حتى اليوم يحتضن ما تبقى من مدينة الخلفاء ، ويحمي بغداد الحديثة عاصمة العراق اليوم مثلما كانت بالامس ومقام واليها التركي[2] •

وعلى سبعة فراسخ اسفل من بغداد : المدائن ، على جانبي دجلة • والمدائن

---

(١) التحقيق انه شرع في بناء السور على عهد الخليفة المستظهر بالله وبنيت منه مئة قامة ، ولكنه يعد مما شيده المسترشد بالله سنة ٥١٧ • راجع المنتظم ٦ : ٢٤٣ ومناقب بغداد ص ١٧ (الدكتور مصطفى جواد) •

(٢) زالت اليوم معالم هذا السور ولم يبق منه سوى باب واحد يقال له الآن « الباب الوسطاني » وهو باب الظفرية قديما • وقد رممت دائرة الآثار العراقية هذا الباب واتخذت منه متحفا للاسلحة القديمة • اما بغداد نالها بعد اعلان استقلال العراق سنة ١٩٢١م صارت عاصمة المملكة العراقية الحديثة ، واتسعت عمارتها في السنوات الاخيرة ، فامتدت خارج حدود اسوارها القديمة مسافة بعيدة • فاتصلت البنايات من جهة باب المعظم حتى بلغت الاعظمية فالصليخ ، اي انها شملت ما كان يعرف قديما بمحلة المخرم وسوق العطش ومحلة الرصافة والشماسية • ومن الجنوب اتصلت من الباب الشرقي حتى الزوية والسبعة قصور وامتدت شرقا الى بغداد الجديدة أي انها شملت ما كان يعرف قديما بطسوج كلواذى اما في الجانب الغربي ، وقد كانت الى سنوات قليلة تقتصر على ما كان يعرف بمحلة الكرخ ، فقد امتدت المباني حوله الى الكاظمية شمالا وكرادة مريم جنوبا والحارثية ونهر الخر غربا • أي شملت ما كان يعرف قديما بمدينة المنصور المدورة وما حولها من محال وقسما من طسوجي بادوريا وقطربل • فاصبح طول بغداد اليوم من أقصى شمالها الى أقصى جنوبها نحوا من عشرين كيلومترا • فلم تبلغ بغداد في أي عصر من عصورها ما بلغته اليوم من سعة وعمران (م) •

هو الاسم الذى اطلقه العرب على اطلال العاصمتين التوأمين : قطيسفون وسلوقية التى اسسها السلوقيون الاولون قبل الميلاد بثلاثة قرون . وسلوقية ، وهى فى الجانب الغربى ، قد سميت باسم سلوقس نقطور . اما « قطيسفون » ، وقد اختصر العرب اسمها فقالوا طيسفون ، فلا يعرف اصل اشتقاقه . وهو وان بدا اغريقياً ، فقد يكون تصحيفا لاسم المدينة الفارسى القديم ، اذ لسنا نعلم ما كان يسمي بـه الساسانيون عاصمة دولتهم هذه[1] وفى سنة ٥٤٠ للميلاد ، استولى انوشروان العادل على انطاكية الشام وسلوقية نهر الكلب ، واجلى اهل سلوقية هذه الى عاصمته طيسفون على عادة ملوك الفرس ، فانزلهم فيها فى ربض جديد فى جانب دجلة الشرقى ، أى بازاء موضع سلوقية العراق . وكان هذا الربض باقيا حين فتح العرب العراق بعد ذلك بقرن . وكان ما زال يعرف بـ « رومية » أى المدينـة الرومية « اليونانية » وقد ذكر بعضهم انها بنيت على غرار انطاكية .

وكانت المدائن على ما ذكر المصنفون المسلمون تتألف من سبع مدن ذات اسماء معروفة على اختلاف فى قراءتها . والظاهر ان خمسا من هذه المدن فقط كانت قائمة عامرة حينما كتب اليعقوبى فى المئة الثالثة (التاسعة) ، وهى : المدينة العتيقة أى طيسفون . وعلى ميل من جنوبها اسبانبر . وبجوارها رومية وهذه المدن فى الجانب الشرقى . وفى الجانب الآخر من دجلة كانت بهرسير وهى تصحيف « به ـ اردشير » ـ (أى بلدة الملك اردشير الطيبة) ـ وعلى فرسخ من اسفلها : ساباط ، وكان الفرس على ما ذكر ياقوت يسمونها بلاس أباذ .

والقصر الساسانى الفخم الذى مازالت بقاياه قائمة فى الجانب الشرقى من

---

(١) من الآراء المقبولة فى هذا الصدد ان لطيسفون تطابق كسفيا الوارد ذكرها فى سفر عزرا (٨ : ١٧) بانها بين بابل والقدس وقد ترجمت فى الترجمة السبعينية للتوراة بـ « المدينه الفضية » اما المدائن فهى صيغة الجمع بالعربية للفظة « المدينة » . و « كسفيا » صيغة كلدانية للاسم الفارسى المفقود فى رنتنا لعاصمة الاكاسرة . اهـ .

قلنا: وللعالم الاثرى هرتسفيلد راى فى اسمها ذكره فى كتابه Herzfeld, Geschichte der Stadt Samarra, p. 29-32 وهذه خلاصته : اسـمها الماذى القـديم كسـبيا او كسبيالام (اى حصن القزوينيين وهم قوم سكنوا فى شمال ايران وبهم عرف بحر قزوين) ويلفظ بالآرامية « كسفون » . وعرفه اليونان بصورة « كتيسفون » . وصارت منذ نحو سنة ١٥٠ ق.م مقرا للفرثيين . وعسكر بوليبوس فى كتيسفون سنة ٢٢ ق.م . ثم اتخذها الساسانيون عاصمة شتائية لدولتهم ، وعرفت فى التلمود الارامى باسم (ماحوزى) ومعناها المدائن . ومن بقاياها الشاخصة اليوم طاق كسرى (م) .

دجلة ، سماه العرب : ايوان كسرى . وكان هذا الايوان ، على ما جاء في اليعقوبي يقوم في اسبانبر . وهناك بناء فخم آخر يعرف بالقصر الابيض ، كان يرى في المدينة العتيقة على ميل من شمالها . الا ان هذا الاخير قد اندرس وعفت آثاره منذ ابتداء المئة الرابعة (العاشرة) . فان جميع المصنفين المتأخرين ، اطلقوا اسم « القصر الابيض » و « ايوان كسرى » دون تفريق على البناء المعقود الكبير وهو الاثر الوحيد القائم حتى اليوم في هذا الموضع من أبنية الملوك الساسانيين . وقد كاد هذا البناء يمحق عن آخره في اواسط المئة الثانية (الثامنة) حين كان المنصور يبني بغداد . فان هذا الخليفة امر بنقض القصر الساساني واستعمال آجره في بناء مدينته الجديدة ، وحاول وزيره الفارسي ، خالد البرمكي ، دون جدوى ، اقناعه بالعدول عن نقضه ، فقد اصر الخليفة على ذلك ولكن الوزير تحقق رأيه حين بدىء بالنقض وتبين ان ذلك يكلف اكثر من صنع الآجر الجديد للبناء . فترك ايوان كسرى ، على ما سماه به ياقوت ، قائما في مكانه . وبعد ذلك بزمن نقل شيء كثير من آجره لبناء اسوار « قصر التاج » الجديد في بغداد الشرقية . وقد فرغ الخليفة علي المكتفي من بنائه في سنة ٢٩٠ (٩٠٣) .

والمدائن ، وقد عمها الخراب اليوم ، كانت في المئة الرابعة (العاشرة) بلدة صغيرة آهلة ذات مسجد جامع عامر بني في زمن الفتح الاسلامي . وبالقرب منه ضريح سلمان الفارسي[١] من اشهر صحابة النبي محمد . وكانت اسواق المدائن من الآجر ، عامرة . وقد عقد الخليفة المنصور مجلسه حينا من الزمن في رومية المجاورة لها . كما اقام المأمون ايضا في ساباط ، وهي في الجانب الثاني من النهر . وكانت فخامة قصر الاكاسرة العتيق وروعته موضوعا تحدث به البلدانيون العرب وافاضوا في الكلام عليه . فقد ذكر اليعقوبي ان علو قمة الطاق عن الارض ثمانون ذراعا . واشار ياقوت الى عظم آجره : فطول كل آجرة نحو ذراع في عرض اقل من شبر[٢] . وروى المستوفي ، وقد سرد حديثا خرافيا عن المدائن وقصرها ،

(١) وحول هذا الجامع اليوم بلدة صغيرة تسمى « سلمان باك » مركز ناحية بهذا الاسم في لواء بغداد (م) .

(٢) يعد هذا الطاق ، اعرض طاق في العالم معقود بالآجر دون استعمال السمنت في تقويته . عرضه خمسة وعشرون مترا وبعض المتر ، وعلوه عن مستوى التبليط سبعة وثلاثون مترا (م) .

ان فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) صارت المدائن ورومية خرابا يابلحوان بقيت القرى التى بازائها فى الجانب الغربى آهلة . وكان من اعمر تلك القرى على قوله بهرسير ، وقد مر ذكرها ، سماها ياقوت حين زارها : الرومقان . والى جنوبها : زريران ، وهى على مرحلة فى طريق الحاج ، وفى غربها صرصر ، وقد مر ذكرها . وهى على نهر صرصر وهو يصب فى دجلة على شىء يسير فوق المدائن . والطسوج الذى حول المدائن الممتد شرقا من دجلة الى النهروان ، كان يعرف بالراذان (الاعلى والاسفل) . وقد سرد ياقوت اسماء قرى عديدة فيه ، واطرى المستوفى وفرة غلاته[1] .

ودير العاقول (أى عقلة « النهر » وعوجته) ، ما زالت الخارطة الحديثة تشير اليه ، وهو فى الجانب الشرقى على عشرة فراسخ اسفل المدائن . واسمه يدل على شكل مجرى دجلة فى هذا الموضع . وقد كان ديرا للنصارى حوله مدينة كبيرة كانت من اجلّ مدن طسوج النهروان الاوسط . وكان فى المدينة مسجد جامع[2] لا يبعد كثيرا عن السوق . وذكر ابن رسته فى نهاية المئة الثالثة (التاسعة) المآصر على دجلة فى هذا الموضع « وبها اصحاب السيارة والمآصر من قبل السلطان » . قال : « والمآصر ان تشد سفينتان من احد جانبى دجلة وسفينتان من الجانب الآخر ، وتشد السفن على شطين ثم تؤخذ قلوس (حبال) على عرض دجلة وتشد رؤوسها الى السفن لئلا تجوز السفن بالليل » . وذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) ان « ليس على دجلة من نحو واسط مدينة اجلّ من دير العاقول ، كبيرة عامرة آهلة » . ثم ان دجلة حوّل مجراه . فذكر ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة)

---

(١) اليعقوبى ٣٢٠ و ٣٢١ ، ابن سرابيون ٩ ، ابن حوقل ١٦٧ ، المقدسى ١٢٢ ، ياقوت ١ : ٤٢٥ و٤٢٦ و٧٦٨ و٨٠٩ ، ٢ : ٧٢٩ و٩٢٩ ، ٣ : ٣ ، المستوفى ١٣٩ و١٤٠ .

(٢) (فى اول هذه الحاشية كلام للمؤلف فيما جرى عليه فى ترجمة لفظة « الجامع » الى الانكليزية ثم قال) : للمسلمين نوعان من المساجد : الاول ما كان صغيرا ويعرف بـ « المسجد » وفيه يصلى الناس أى وقت ارادوا ، والمسجد نظير « المقام » و « المشهد » . و « المصلى » تقام فيه الصلاة بوجه خاص فى الاعياد الكبيرة . والثانى المسجد الجامع وفيه تقام صلاة الجمعة وتلقى « الخطبة » وهو يترجم فى الغالب بالانكليزية بلفظة « كتدرائية » ويقاس كبر المدينة او القرية بما فيها من جوامع او منابر . وهذا ما جرى عليه غالبا البلدانيون العرب لدى وصفهم المدن . فالاصطخرى مثلا سرد ثبتا طويلا لمواضع فى فارس منها ما كان ذا منبر ومنها ما ليس كذلك . وهذا يشبه ما يقال من ان فى القرية الفلانية فى بلد نصرانى كنيسة اسقفية . وقد تبدلت تسمية المسجد الجامع فى الازمنة المتأخرة الى مسجد الجمعة على ان هذه التسمية لم تعرف فى صدر الاسلام .

ان دير العاقول كان على شاطىء دجلة ، فاما الآن فبينه وبين دجلة مقدار ميل ، وهو بمفرده في وسط البرية . على ان المستوفي بعد ياقوت بقرن كان يعد دير العاقول مدينة كبيرة ذات هواء رطب لتوسطها بساتين النخيل .

وفي الضفة الشرقية ايضا على ثلاثة فراسخ فوق دير العاقول ، بلدة السيب الصغيرة ، وسميت بسيب بني قوما تفريقا لها عن غيرها . وكانت تكثر فيها بساتين الزيتون ، واشتهر امرها في التاريخ بالوقعة التي جرت فيها سنة ٢٦٢ (٨٧٦) حين تغلبت جيوش الخليفة المعتمد على يعقوب الصفار . وعلى بعد قليل اسفل من دير العاقول ، دير مر ماري الملقب بالسليح ، ويعرف أيضا بدير قُنّى أو (قنه) ، وهو في الجانب الشرقي ، بينه وبين دجلة ميل ، على ستة عشر فرسخا من بغداد . وصفه الشابشتي[1] المؤرخ في المئة الرابعة (العاشرة) ، (وعنه نقل ياقوت) ، بانه « دير عظيم شبيه بالحصن المنيع وعليه سور عظيم عال محكم البناء ، وفيه مئة قلاية لرهبانه ، وهم يتبايعون هذه القلالي بينهم من الف دينار الى مائتي دينار (٥٠٠ــ١٠٠ باون) . وحول كل قلاية بستان ، وتباع غلة البستان منها من مائتي دينار الى خمسين دينارا (١٠٠ــ٢٥ باونا) وفي وسطه نهر جار » .

وبالقرب من دير قنى على نهر دجلة : الصافية . وهي بليدة قال ياقوت انها كانت في ايامه خرابا ، وبازائها في الجانب الغربي : همانية (أو هيمنيا) ومازالت ترى في الخارطة الحديثة وهي على فرسخين جنوب شرقي دير العاقول . وفي بدء المئة الثالثة (التاسعة) كانت همانية بلدة قليلة الشأن ، فبعد وفاة الخليفة الامين حجر فيها المأمون حينا من الزمن : ابني الامين وامه زبيدة ارملة هرون الرشيد[2] . ووصف ياقوت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) همانية بقوله : انها قرية كبيرة

(١) راجع كتاب الديارات للشابشتي ، وقد عني بتحقيقه ونشره احدنا كوركيس عواد (بغداد ١٩٥١ ص ١٧١) (م) .

(٢) قال الطبري في حوادث سنة ١٩٨هـ « امر (المأمون) بتحويل زبيدة وموسى وعبدالله ابني محمد (الامين) معها من قصر ابي جعفر الى قصر الخلد ، فحولوا ليلة الجمعة لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الاول ثم مضى بهم من ليلتهم في حراقة الى هيمنيا (وهي همانية) على الجانب الغربي من الزاب الاعلى . ثم أمر بحمل موسى وعبدالله الى عمهما بخراسان » (م) .

حولها مزارع[١] حسنة[٢] .

وعلى اربعة فراسخ جنوب شرقي دير العاقـــول ، جرجرايا أو جرجراى ومازالت باقية[٣] . ووصفها المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) بانها « بلدة عظيمة ، الجامع بقرب الساحل عامر ، ولهم ماء يدور حول قطعة من المدينة » . وذكـر اليعقوبي ، وقد سبقه بقرن ، انها « ديار اشراف الفرس ، وهي مدينة النهروان الاسفل » . وكانت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، على ما جاء في ياقوت ، قد « خربت مع ما خرب من النهروانات » . وفي جانب دجلة الغربي ، على اربعة فراسخ اسفل من جرجرايا ، حيث الخرائب المعروفة اليوم بتل نعمان ، تقوم بلدة النعمانية ، وقد ذكر ياقوت انها « بلدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق » وهي مدينة الزاب الاعلى ومسجدها الجامع في السوق وزاد اليعقوبي على ذلك ان في مدينة النعمانية دير هزقل ، وفيه يعالج المجانين . واشتهرت النعمانية ، على ما ذكر ابن رسته ، لان « بها تتخذ الطنافس الحرير » . وفي المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ذكر المستوفي النعمانية انها بلدة زاهرة حولها بساتين النخيل[٤] . وكانت جَبُّل بليدة في الجانب الشرقي على تسعة فراسخ اسفل من جرجرايا . وذكر ابن رسته في المئة الثالثة (التاسعة) ان بها « دار طبيخ للسلطان » وهي مدينة كبيرة وبها مسجد جامع في السوق . وقال المقدسي ان جبل تلي دير

---

(١) قال ياقوت : انها « في وسط البرية ليس بقربها شيء من العمارات » (معجم البلدان ٤: ٩٨٠) . مازال يرى على يسار مجرى دجلة الحالي على مقربة من جنوب العزيزية مجموعة من التلول تعرف حتى اليوم بخرائب صبيلة يبلغ محيطها نحو ٣ كيلومترات وارتفاعها نحو عشرة امتار . وقد درست مديرية الآثار العراقية سنة ١٩٤٢ اطلالها وآثارها السطحية فوجدت انها ترقى الى الزمن الساساني والاسلامي . ويلاحظ ان صبالية القديمة كانت على يمين دجلة اما الحالية فقد صارت في الجانب الآخر لتبدل مجرى دجلة ومازال يرى عميق المجرى القديم في الجانب الغربي (م) .

(٢) ابن رسته ١٨٥ و١٨٦ ، اليعقوبي ٣٢١ ، قدامة ١٩٣ ، المقدسي ١٢٢ ، المسعودي : التنبيه ١٤٩ ، ياقوت ٢ : ٦٧٦ و ٦٨٧ ، ٣ . ٣٦٢ ، ٤ : ٩٨٠ ، المستوفي ١٣٩ ، ابن الاثير ٦ : ٢٠٧ .

(٣) عين فيلكس جونس في خارطته المعنونة « القاطول الكسروي والنهروان » الملحقة بكتابه ، موضع « جرجرايا » فجعله على ضفة دجلة الشرقية عند صدر نهر الشاعورة الحديث (م) .

(٤) على نحو خمسة كيلومترات من شمال بلدة النعمانية الحالية قرب ضفة دجلة اليمنى ، تل النعمان . وهو تل واسع محيطه نحو كيلومتر وارتفاعه نحو ثمانية امتـار . وقـد درست مديرية الآثار العراقية العامة آثاره السطحية سنة ١٩٣٧ فبان لها من ذلك ان ادوار سكناه ترقى الى العصر البابلي الحديث والفرثي والاسلامي . والنعمانية الحديثة كانت تعرف الى وقت قريب باسم « البغيلة » بالتصغير فسميت بالنعمانية احياء لاسم المدينة القديمة التي كانت قائمة قربها (م) .

الماقول فى الكبر . الا انها صارت فى ايام ياقوت قرية كبيرة[١] .

وكانت بلدة ماذرايا حيث تقوم اليوم كـوت العمارة[٢] عند مخرج شـط الحى من مجرى دجلة الشرقى وهو دجلة الحالى المنحدر اليوم باتجاه الجنوب الشرقى الى القرنة . وكانت ماذرايا فى ضفته الشرقية . وكان يسكنها فى المئة الثالثة (التاسعة) اشراف الفرس ، وعندها كان مصب النهروان فى دجلة . ويلى ماذرايا سفلاً : المبارك ، وهى بلدة بازاء نهر سابس الذى هو فى الجانب الغربى من دجلة وبلدة نهر سابس كانت عند فم النهر الذى بهذا الاسم . وسيأتى الكلام على ذلك . وكانت هذه البلدة قصبة طسوج الزاب الاسفل ، وقيل انها كانت على خمسة فراسخ من جبل[٣] وفى الضفة المقابلة ، على خمسة فراسخ بانحـدار دجلة : نهر الصلح وبلدة فم الصلح عند فمه أى مخرجه . وكانت على سبعة فراسخ فوق واسط . وفم الصلح ، على ما جاء فى ابن رسته ، « مدينة على شرقى دجلة . وبها مسجد جامع وأسواق » . وقد اشتهر أمرها فى التاريخ الاسلامى بالقصر الفخم الذى أنشأه فيها الحسن بن سهل وزير المأمون . وفيه بنى المأمون ببوران ابنته . فأنفق فى ذلك العرس على العطـايا والهبـات أموال جسام تفوق حدود التصديق ، على ما فصله المسعودى فى كتابه[٤] . ثم خربت فم الصلح .

---

(١) قدامة ١٩٣ ، اليعقوبى ٣٢١ ، ابن رسته ١٨٦ و١٨٧ ، المقدسى ١٢٢ ، ياقوت ٢ : ٢٣ و٥٤ ، ٤ : ٧٩٦ ، ابو الفداء ٣٠٥ ، المستوفى ١٤١ .

(٢) بلدة الكوت على يسار دجلة تبعد عن جنوب بغداد نحو ١٨٠ كيلومترا ، وهى اليوم مركز لواء باسمها . وفى سنة ١٩٣٦ اقيم على دجلة عندها « سدة الكوت » لضبط مياه دجلة ورفع منسوبها لسقى اراضى الجانب الغربى من دجلة . ومن المرجح ان موضعا باسم « الكوت » نشأ هناك فى اواخر المئة الثانية عشرة (اوائل المئة الثامنة عشرة للميلاد) .

جاء فى دائرة المعارف الاسلامية ، ان « الكوت » كلمة هندية معناها القلعة . وعرفت هـذه البلدة بكوت العمارة . ثم تغير اسمها من كوت العمارة الى كوت الامارة فى رسميات الحكومة العثمانية فى المدة الواقعة بين سنة ١٢٨٧ الى ١٢٩٩هـ (١٨٧٠ــ١٨٨١ م) . واهم سبب لقلب الاسم . قرب لفظ « العمارة » من « الامارة » ، ونزول « امارة ربيعة » فى الكوت قبل استعمال هذه التسمية الرسمية ، أى كوت الامارة ، فى السالنامات التركية التى كانت تصدرها الحكومة العثمانية عن احوال العراق . وفى كتاب « مباحث عراقية » (ص٢٦٤ــ٢٨٣) فصل طويل فى تاريخ قيام الكوت واسمها (م).

(٣) مازالت اطلال بلدة نهر سابس ، ترى فى الضفة الغربية من شط الدجيلة (وهو مجرى دجلة فى ايام العباسيين) . ويقال لها اليوم تل سابس على نحو ١٥ كيلومترا من غرب بلدة الكوت ، وورد فى مذكرات تحسين العسكرى اسم تل سابس فى اخبار حصار الكوت فى الحرب العالمية الاولى (م) .

(٤) وممن وصف هذا العرس من المؤلفين الاقدمين : الطبرى (٣ : ١٠٨١ــ١٠٨٤) ، الشابشتى (الديارات ص ١٠١ــ١٠٢)، الثعالبى (ثمار القلوب ص ١٣٠ــ١٣١)، ابن خلكان (١ : ١٣٠ــ١٣٢) (م).

فلما زارها[١] ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) وجد البلدة وما جاورها من قرى على امتداد النهر خرابا الا قليلا[٢] ومن بلدة فم الصلح كان المسجد الجامع فى واسط يرى فى الأفق الجنوبى .

(١) لم نجد فى وصف ياقوت لها انه قد زارها (م) .

(٢) اليعقوبى ٣٢١ ، قدامة ١٩٤ ، ابن رسته ١٨٧ ، ياقوت ٢ : ٣-٩ ، ٣ : ٩١٧ ، ٤ : ٣٨١ ـ المسعودى ٧ : ٦٥ .

الفصل الثالث

العراق

واسط ـ البطائح ـ المذار والقرنة ـ دجلة العوراء ـ البصرة وانهارها ـ الابلة وعبادان ـ دجلة فوق بغداد ـ البردان ـ طسوج دجيل ـ عكبرا وحربى والقادسية .

سميت واسط واسطا ، لتوسطها بين الكوفة والبصرة والاهواز . فهي على خمسين فرسخا من كل واحدة منها . وقد كانت اعظم مدن طسوج كسكر ، بل كانت على ما ذكرنا احدى مدن العراق الكبرى الثلاث قبل بناء بغداد .

ابتنى الحجاج ، والي العراق المشهور في أيام الخليفة عبد الملك الاموي ، مدينة واسط في نحو سنة ٨٤هـ (٧٠٣) . وكانت واسط على جانبي دجلة ، بينهما جسر سفن . لها جامعان ، في كل جانب جامع . وذكر اليعقوبي ان الجانب الشرقي من واسط كان مدينة قبل زمن الحجاج . والغلبة على سكان هذا الجانب ، حتى المئة الثالثة (التاسعة) ، للعجم . وبنى الحجاج في المدينة الغربية القصر الاخضر ويقال له القبة الخضراء ، وهو المشهور بقبته العظيمة فقد كانت ترى من اعلاها فم الصلح ، وهي على سبعة فراسخ في شمالها . كانت ارض واسط وفيرة الخصب ، وبها قوام مدينة السلام اذا أسنتت[1] نواحيها أو عيهت ،[2] وكان خراجها في العام ألف

(١) اسنتت بمعنى اصابها الجدب والقحط ، وعيهت اصابتها عاهة (م) .

(٢) صورة الارض لابن حوقل (١ : ٢٣٩ طبعة كريمرز) (م) .

ألف درهم (٤٠ الف دينار) على ما ذكر ابن حوقل • وقد كان في واسط سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م)[١] • وروى المقدسي ، ان جامع الجانب الشرقي قد بناه الحجاج كذلك[٢] وكانت أسواقها حسنة عامرة ، وقد جعل في طرفي الجسر موضعان تدخل فيهما السفن لتفريغ وسقها •

وبقيت واسط طوال عصور الخلافة من اشهر مدن العراق • ويظهر ان جانبها الشرقي كان اول ما انتابه الخراب منها • فالقزويني ، وكان قاضيا في واسط في النصف الاخير من المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، ذكر ان المدينة بمفردها في جانب دجلة الغربي • واشاد ابن بطوطة ، وكان فيها في اوائل المئة التالية ، بمبانيها الفخمة ، وقال ان فيها مدرسة عظيمة حافلة فيها نحو ثلاثمئة خلوة ينزلها القادمون للتعلم • ونوه المستوفي ، وهو ممن عاصر ابن بطوطة ، بما حولها من بساتين النخيل الكثيفة التي ترطب هواءها كثيرا • وفي نهاية المئة الثامنة للهجرة (الرابعة عشرة) ورد ذكر واسط غير مرة بكونها موضعا ذا شأن في حروب تيمور الذي أقام فيها حامية قوية • ولكن بعد ذلك بنحو قرن ، ابتعد مجرى دجلة عن واسط — على ما بينا في مطلع الفصل السابق — وتحوّل الى مجراه الشرقي المنحدر الى القرنة • فاستولى الخراب على سائر المدينة • فلما كتب الحاج خليفة في مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) ، قال انها بمفردها في وسط البرية وان النهر قد كان مشهورا بقصبه الذي تتخذ منه الاقلام[٣] •

---

(١) ما في ابن حوقل (١ : ٢٣٦) ستة آلاف درهم (م) •

(٢) هذا ما قاله المقدسي بصدد الجامع : « واسط •••• ذات جانبين وجامعين •••• جامع الحجاج وقبته في الغرب في طرف الاسواق بعيد عن الشط متشعث عامر بالقرآن » (احسن التقاسيم - ص ١١٨) - ولم نقف في المقدسي على اشارة الى ان الحجاج قد بنى أيضا جامع الجانب الشرقي (م) •

(٣) اليعقوبي ٣٢٢ ؛ ابن رسته ١٨٧ ؛ الاصطخري ٨٢ ؛ ابن حوقل ١٦٢ ؛ المقدسي ١١٨ ؛ القزويني ٢ : ٣٢٠ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢ ؛ المستوفي ١٤١ ؛ علي اليزدي ١ : ٦٤٠ و ٦٥٧ ؛ ٢ : ٥١٧ ؛ جهان نما ٤٦٣ •

يظهر ان خرائب واسط لم يتفقدها أحد من الرحالة المحدثين - الا ان من كتب من الرحالة العرب عنها ، حدد موضع خرائبها في مكان على مقربة من شط الحي • وروى جسني في كتابه :
Chesney, Report of the Euphrates and Tigris Expedition. (Vol. I, p. 37).
ان اورمسبي واليوت زارا هذه الخرائب في سنة ١٨٣١ — ١٨٣٢ ، ولكنهما لم يشيرا الى موضعها • (انتهت حاشية المؤلف) •

قلنا : تعرف خرائب واسط اليوم بالمنارة أيضا لان منارة قديمة ما زالت قائمة في مسجد الجانب الشرقي منها • واطلال مدينة واسط واسعة فسيحة تمتد على جانبي عقيق دجلة القديم المعروف اليوم

وعلى ما ذكر ياقوت ، كان دجلة أسفل من واسط ، اذا انفصل عنها ، انقسم الى خمسة أنهر عظام تحمل السفن ، ذكرها باسمائها[١] • ثم تصب في البطائح • وهذا القول يوافق ما ذكره المصنفون الاولون • فقد ذكر ابن سرابيون ، جملة مدن على دجلة أسفل من واسط وفوق القطر ، وهى فم البطيحة فى المئة الرابعة (العاشرة) • وأولى هذه المدن : الرصافة في الجانب الايسر على عشرة فراسخ من واسط • وبالقرب منها نهر يحمل من دجلة شرقا ويصب فى البطيحة ، يقال له نهر بان • وفى مصبه بلدة بهذا الاسم • ويلفظ ايضا نهر أبان • واسفله : الفاروث ، فدير العمال • وهذه المواضع فى الجانب الشرقى ، وبازائها ثلاثة أنهر تجرى غربا وتصب فى البطائح ، هى اولا نهر قريش وعليه قرية كبيرة بهـــذا الاسم ، فنهر السيب وعليه بلدتا الجوامد والعقر ، فنهر بردودى أوله عند قرية الشديدية • وكلها كانت مدنا ذات شأن فى البطيحة حول الجامدة وقربها ، ويقال لها ايضا « الجوامد » (بصيغة الجمع) • والى ذلك فقد وصف المقدسى مدينة كبيرة فى هذه البقعة تعرف بالصليق على بحيرة حولها ضياع ومزارع حسنة • وكان تجاه هذه الأمكنة على الجانب الشرقى من دجلة : الحوانيت[٢] وبها المآصر يشد جانبى دجلة كالمآصر الذى قد وصفناه فى دير العاقول (ص ٥٤) • وكان هذا المآصر

بالدجيلة على نحو ٢٥ كيلومترا من جنوب شرقى الحى التى على نهر الغراف •

وقد نقبت مديرية الآثار العراقية العامة فى أطلال واسط منذ سنة ١٩٣٦ حتى ١٩٤٢ وكان مما عثر عليه فى الجانب الغربى ، بقايا من جامع الحجاج ، وقصره الذى كانت ترى قبته الخضراء من فم الصلح ، اى من مسافة ٣٥ كيلو مترا ، وثلاث طبقات بنائية لثلاثة جوامع أقيمت فوق جامع الحجاج بعد خرابه • وعثر بين انقاض الجامع على اسطوانة من الحجر مكتوبة ، جاء فيها « صلوها الواسطين » (كذا) واكتشف على ضفتى النهر بقايا الجسر الذى كان يربط جانبى واسط • وعثر فى مكان آخر على مئات من دمى الطين ترقى الى العصر الايلخانى •

وفى الجانب الشرقى من واسط كشفت عن بقايا جامع ما زال بابه واحدى منارتيه وبعض جدرانه قائمة حتى اليوم • وعثر فى مواضع منه على قبور فيها شواهد مؤرخة بسنوات من المئة السابعة للهجرة راجع . نشرة حفريات « واسط » لمديرية الآثار القديمة العامة فى العراق ، بقلم فؤاد سفر (طبع المعهد الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩٥٢) • (م) •

(١) اسماء هذه الانهار ، على ما فى معجم البلدان (٢ : ٥٥٣) ، هى « نهر ساسى ، ونهر الغراف، ونهر دقلة ، ونهر جعفر ، ونهر ميسان » (م) •

(٢) ترى بقايا مدينة الرصافة على نحو ٣٠ كيلومترا من شرق قلعة سكر على نهر الدجيلة المندرس • وتعرف بالرصافة • وترى بقايا مدينة الحوانيت على ٢٥ كيلومترا من جنوب شرقى القنطرة وتعرف بالحوانيت أيضا • انظر موضعيهما فى « خارطة العراق الأثرية » لمديرية الآثار العراقية • (م) •

عند القطر على اثنى عشر فرسخا اسفل الرصافة حيث كان دجلة فى المئة الثالثة (التاسعة) ، على ما ذكر ابن رسته ، يتشعب ثلاث شعب وينصب ماؤه فى البطائح[١] .

والبطائح جمع البطيحة وقد وصفناها فى صفحة ٤٣ . والرقعة التى تبطّحت فيها هذه البطائح ، تنتشر فيها المدن والقرى ، وكل واحدة منها تتوسّد نهرها . ومع ان هواءها وخم ، فان تربتها كانت حين تجف غاية فى الخصب . فابن رسته ، وقد كتب فى نهاية المئة الثالثة (التاسعة) ، وصف البطائح بقوله ينبت فيها القصب ، ويخرج من هذه البطائح أنهار منها سمكهم من الطرى والمالح ، كان يحمل الى النواحي المجاورة . اما مياه دجلة فالظاهر انها من قطر فشرقا — ولعلها كانت تتبع مجرى الفرات الحالى بوجه التقريب — تشق طريقها بين اهوار متصلة الى نهر ابى الاسد ، وتنصبّ مياه البطائح من هذا النهر الى فيض البصرة . والبطائح ان خلت من القصب ، سماها العرب الهور أو الهول . ويصل فيما بينها أزقة تسير فيها الزواريق . اما السفن النهرية الكبيرة فانها تجنح أسفل القطر على ما جاء فى ابن رسته : « ويحمل بعض ما فيها فى الزواريق فتمر فى شبه أزقة قصب تصل ما بين الاهوار . وبين هذه الازقة ، مواضع — متخذة من قصب — أشباه الدكاكين — عليها اكواخ من قصب يكتنون بها من البقّ ، وفيها مسالح يعمل رجالها على تطهير المجرى وحماية الملاحين ، لان فى البطائح مكامن طبيعية يختبىء فيها اللصوص[٢] .

وقد سرد ابن سرابيون أسماء اربعة من هذه الاهوار التى تحمل الماء الى البصرة : الاول هور بحصّى ، والثانى هور بكمصى ، والثالث هور بصريانا ، والهور الرابع المحمدية وهو اعظم الاهوار ، وفيه كانت المنارة المسماة منارة حسان .

---

(١) ابن سرابيون ٩ و ٢٠ ؛ قدامة ١٩٤ ؛ ابن رسته ١٨٤ و ١٨٥ ؛ المقدسى ١١٩ ؛ ياقوت ٢ : ١٠ و ٥٥٣ ؛ ٣ : ٢٠٦ و ٤١٥ و ٨٤٠ ؛ ٤ : ٢١٧ و ٧٥٨ .

للنا : رمن المآصر ، راجع : « المآصر فى بلاد الروم والاسلام » لميخاليل عواد (بغداد ١٩٤٨) . (م)

(٢) لعل خير ما كتب عن منطقة البطائح (اى الاهوار) فى المراجع الحديثة ، مقالات الشيخ على الشرقى ، فى مجلة « لغة العرب » للأب انستاس الكرملى ٤ : [١٩٢٦] ٢٧٥ و ٤٧٤ و ٥٢٦ و ٥٧٥ ؛ ٥ : [١٩٢٧] ص ١٤٣ و ٥٣٥ و ٦ : [١٩٢٨] ص ٢٧٥ . وكتاب
Haji Rikkan Marsh Arab, by Fulanain (London, 1927).
و « فلانين » اسم مستعار الخلد Hetchcock وكان من الموظفين الانكليز الذين اشتغلوا فى لواء العمارة . (م) .

وانما عرفت بذلك نسبة الى حسان النبطى الذى كان فى خدمة الحجاج عامل بني امية ، فاعاد بعض تلك الارضين الى عمارة . ويلى الهور الاخير زقاق قصب وهو مادّ الى نهر ابى الاسد ، ويمرّ النهر بالحالة وقرية الكوانين ، وهو يحمل ماء البطيحة الى رأس فيض دجلة . وابو الاسد هذا ، ونهره يتفق هو ومجرى الفرات الحالى فوق القرنة ، كا نمن موالى الخليفة المنصور . وحين كان قائدا للجيش فى البصرة ، حفر بها النهر على ما ذكر ياقوت ، وقيل ان السفن لم تدخله لضيقه ، فوسعه حتى دخلته فنسب اليه . وكان على ما ذكر ياقوت ، محفورا قبله منذ ايام الساسانيين . اما القرنة ، وهى حيث يقترن اليوم الفرات بدجلة ، فلم يذكرها احد من البلدانيين العرب[1] . واول اشارة الى قلعة القرنة ، وردت فى جهان نما التركية فى مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) .

وكان القسم الاسفل من مجرى دجلة الشرقى - وهو دجلة الزمن الساسانى وزمننا ايضا - فى العصور الوسطى ، على ما قد ذكرنا ، تصعد اليه المياه المرتدة وفد سكر فى نهايته الشمالية . وكانت هذه المياه المرتدة تسمى نهر المذار . وكان طوله ستة فراسخ ويؤدى الى مدينتى عبدسى (أو عبداسى) والمذار اللتين لا يعرف موضعهما الصحيح . وكان ما يحف بجانبيه من اراض - أعنى بامتداد عقيق دجلة الشرقى حينذاك - يعرف بجوخى ، وهى تمتد الى الشمال الغربى حتى كسكر ، كورة واسط . وكانت المذار فى ايام الفتح الاسلامى بلدة جليلة ، وهى قصبة ميسان وعرفت ايضا بدستميسان . وبينهما وبين البصرة اربعة ايام ، وبها مشهد عامر عظيم فيه ضريح عبد الله بن علي بن أبي طالب. اما مدينة عبدسى ، القريبة منها فانها على ما ذكر ياقوت ، فارسية الأصل ، واسمها تعريب افداسهى اسمها القديم ، وكانت مصنعة فى كورة كسكر قبل الفتح . وكانت كسكر وميسان كورتى القسم الشرقى من البطائح . وعلى ما ذكر القزوينى ، كان يجلب من كسكر الرز الجيد ، وتربى فى مراعيها الجواميس والبقر والجداء . وتكثر فى اهوار القصب : البطوط والفراريج التى تصاد بالشباك وتحمل الى اسواق المدن المجاورة . وكان يصاد فى انهارها كثير من الشبوط فيملح ويحمل الى غيرها . وفى ميسان مشهد العزير

[1] راجع ما كتبناه عن القرنة فى مجلة « سومر » ٨ : [١٩٥٢] ص (٢٧١ - ٢٧٢) . (م) .

النبى[١] ويسمى عزرا • وقد ذكر القزوينى انه « معمور يقوم بخدمته اليهود ، وعليه وقوف وتأتيه النذور » فقد كان مشهورا فى تلك الانحاء ان الصلاة فيه مقبولة مستجابة[٢] •

والفيض العريض المتكون من اقتران مياه دجلة والفرات ، يبلغ مئة ميل طولا ، وهو يبدأ من فم نهر ابى الاسد ويصب فى خليج فارس عند عبادان • وقد عرف هذا الفيض ايضا بدجلة العوراء وبفيض البصرة • وسماه الفرس بهمن شير وهو يعرف اليوم بشط العرب • ويدركه المدّ والجزر من خليج فارس حتى رأسه عند المذار وعبدسى شمالا • ويدرك المد انهار البصرة العديدة وانهار الرى فى شرق الفيض وفى غربه ثم يجزر منها • وتقع البصرة ، ثغر العراق التجارى الكبير ، على طفّ البادية على بعد قليل من غرب الفيض • وكانت السفن تبلغه من البصرة بنهرين • وفى شمال البصرة وجنوبها انهار كثيرة تحمل مياه البطائح السفلى الى دجلة العوراء • وكان يصب فى الجانب الشرقى من الفيض انهار اخرى كثيرة • هذا الى نهر محفور يقال له نهر بيان على نحو من ثلاثين ميلا فوق عبادان ، يصل فيض دجلة بفيض دجيل (نهر كارون) ، ودجيل ينحدر من اقليم خوزستان ويصب فى خليج فارس عند سليمانان[٣] •

والبصرة — وقد اشتق اسمها من الحجارة السود[٤] — أنشئت فى أيام عمر فى سنة ١٧ (٦٣٨) ، وأقطع سوادها القبائل العربية التى نزلت فيها بعد تقويض الدولة الساسانية • وسرعان ما اتسعت هذه المدينة فاذا هى والكوفة تصبحان من عواصم العراق الجديدة • وفى سنة ٣٦ (٦٥٦) ، جرت قرب البصرة وقعة الجمل

---

(١) ما زال مشهد الامام عبدالله بن على ، قائما فى هذه البقعة • وهو يزار • وبالقرب منه تلول يقال لها (البجة) ترقى آثارها الى العصرين الساسانى والاسلامى ويظن انها تمثل مدينة (المذار) القديمة • اما قبر العزير فما زال قائما فى موضعه القديم (م) •

(٢) ابن رسته ٩٤ و ١٨٥ ؛ ابن سرابيون ٢٨ ؛ قدامة ٢٤٠ ؛ البلاذرى ٢٩٣ و ٣٤٢ ؛ القزوينى ٢ : ٢٩٦ و ٣١٠ ؛ ياقوت ١ : ٦٦٩ ؛ ٣ : ٦٠٣ ؛ ٤ . ٤٦٨ و ٨٣٠ ؛ جهان نما ٤٥٥ •

(٣) ابن سرابيون ٢٨ • تطلق لفظة « العوراء » على الأنهار التى يطمرها القرين ، وعلى الطرق التى لا تنفذ • ويبدو ان اسم دجلة العوراء أطلق اولا على نهر عبدسى ولم تعم أسفل النهر الا فى زمن متاخر • المسعودى : التنبيه ٥٢ ؛ ياقوت ١ : ٧٧٠ ؛ جهان نما ٤٥٤ • وقد ذكر المرجع الأخير فيض دجلة باسم شط العرب •

(٤) راجع فى أصل اسم البصرة : المقدسى ص ١١٨ ؛ وياقوت ١ : ٦٣٦ ؛ وسومر ٤ : [١٩٤٨] (ص ١٣٦ — ١٤١) • (م) •

المشهورة ومع ان الامام عليا قد تغلب على من سبّب موت الخليفة عثمان ، فذلك لم يؤثر في مجرى الامور • وفي هذه الوقعة قتـــل طلحة والزبـير الصحابيان المشهوران • والبصرة ، على نحو اثني عشر ميلا من فيض دجلة في خط مستقيم • وقد شق اليها من دجلة نهران : نهر معقل[1] من الشمال الشرقي وتأتيه السفن النازلة من بغداد ، ونهر الأُبلّة وتسير فيه السفن من البصرة نحو الجنوب الشرقي فتخرج الى خليج فارس عند عبادان • ويتألف مما توسط بين هذين النهرين وبين مياه الفيض في الشرق ، الجزيرة الكبرى ، على ما كانت تسمى به • وبلدة الأُبلّة في الزاوية الجنوبية الشرقية لهذه الجزيرة ، فوق مصب نهر الأُبلّة في الفيض • وكانت البصرة تقوم على امتداد النهر الموصل بين نهري معقل والأُبلّة • وكانت دورها من ناحية البر غربا تطيف بها البادية بشكل قوس • وللبصرة في هذه الجهة باب يقال له باب البادية • وفي المئة الرابعة (العاشرة) كان امتدادها من النهر الى هذا الباب نحو ثلاثة أميال • أما طولها فيزيد على ذلك بكثير • وأكثر دورها بالآجر • وحول اسوارها ارض خصبة تسقيها انهار صغار كثيرة ، ويليها بساتين النخيل الواسعة • وذكر المقدسي ان بالبصرة ثلاثة جوامع : احدها على الباب الغربي في وجه البادية وهو القديم ، وجامع ثان في الاسواق « بهيّ جليل عامر آهل ليس بالعراق مثله ، على أساطين مبيّضة » • وجامع ثالث « على طرف البلدة » • وفي البصرة ثلاث اسواق فيها الدكاكين والخانات ، وهذه الاسواق كأسواق بغداد سعة • وكان المربّد من اشهر محالها في الباب الغربي ، وفيه تحطّ القوافل الآتية من البادية • وهو أكثر أقسام المدينة اكتظاظا[2] وبها قبر طلحة والزبير •

---

(١) قامت في عصرنا في تلك الجهة مبان واسعة كالمطار الجوي والميناء ومحطة القطار ودور الموظفين والعمال القائمين بشؤون هذه المصالح • وقد حرف الانكليز اسم « المعقل » حين احتلالهم البصرة في اول الحرب العالمية الاولى فنطقوا به « ماركيل » وجاراهم في ذلك من كان يشتغل عندهم ، فشاعت هذه التسمية المغلوط فيها وقتا ما • ثم رجع القوم اليوم الى استعمال الاسم الصحيح أي « المعقل » • (م) •

(٢) كان المربد قبل ن تخطط البصرة ، بل كان قبل الاسلام • واخباره في الجاهلية منقطعة أو معدومة مما يدل على قلة اهميته اذ ذاك • انما كانت له اهمية بعد فتح العرب العراق وسكنوه وخططوا البصرة • فقد اتصلت فيه المساكن بعد ان كان مربدا للابل فقط ، لان المربد في اللغة كل شيء حبست فيه الابل والغنم • واتصلت العمارة بينه وبين البصرة • وصار المربد في الاسلام صورة معدلة لعكاظ • كان سوقا للتجارة وكان سوقا للدعوات السياسية وكان سوقا للأدب • فكان مجتمع العرب من

وكان كثير من محال البصرة حين كتب المقدسي قد آل الى الخراب[١] . وذكر المقدسي فيما ذكر من دور العلم : دار كتب كانت في المئة الرابعة (العاشرة) ، انشأها ابن سوّار ووقفها ، وأنشأ أيضا دار كتب مثلها في مدينة رامهرمز بخوزستان . « وأجرى في الدارين على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ » . وكانت دار الكتب في البصرة حافلة بجمهرة كبيرة من الاسفار .

وقد عانت البصرة كثيرا من جراء الحروب والفتن المذكورة في تاريخ الدولة العباسية . ففي سنة ٢٥٧ (٨٧١) حين كانت ثورة الزنج على أشدها ، خرب صاحب الزنج ـ وكان يدعي انه من سلالة الامام علي ـ البصرة وأحرق معظم أقسامها . وكان الجامع مما خرب . وانتهب جنده المدينة ثلاثة أيام[٢] . وفي سنة ٣١١ (٩٢٣) نهب زعيم القرامطة مدينة البصرة ، ودام النهب في هذه المرة سبعة عشر يوما . ولكن المدينة استرجعت بعض رخائها السابق . فلما زارها الرحالة الفارسي ناصر خسرو في سنة ٤٤٣ (١٠٥٢) قال : بها خلق كثير ولها سور عظيم يحيط بها ، وكان معظم البصرة خرابا . وكان بيت الخليفة علي ، قرب المسجد الجامع . وكان فيها ثلاثة عشر مزارا تشير الى الاحداث المختلفة التي جرت حين مقام علي فيها . وسرد ناصر خسرو أيضا اسماء العشرين ناحية المحيطة بالمدينة .

وفي سنة ٥١٧[٣] (١١٢٣) استحدث القاضي عبد السلام سورا للمدينة كان يمتد نصف فرسخ في داخل حدودها القديمة . وكانت البصرة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين زارها ابن بطوطة بعد الفتح المغولي ، مدينة آهلة . وقد تكلم ابن بطوطة على مسجد علي بن ابي طالب فقال : انه « بناء عال مثل الحصن

الافطار ، يتناشدون فيه الاشعار ويبيعون ويشترون . راجع : فيض الخاطر لأحمد أمين (٤ : ٢٧٨ ـ ٢٨٧) . (م) .

(١) تعين عبر الزبير الآن ، الخرائب المعروفة بهذا الاسم ، وهي في موضع البصرة القديمة . اما البصرة الحديثة فتقوم على فيض دجلة (أي شط العرب) وهي في موضع الأبلة عند نهر الأبلة .

قلنا : والزبير اليوم ، بلدة صغيرة عامرة ولها جامع فيه قبر الزبير . تقوم على جزء صغير من خرائب البصرة القديمة (م) .

(٢) من أحدث المراجع في هذا الموضوع ، كتاب « ثورة الزنج » للدكتور فيصل السامر (م) .

(٣) في كتاب صورة الارض لابن حوقل (١ : ٢٣٧ طبعة كريمرز) ان القاضي عبد السلام الجيلي سور ما بقي من البصرة سنة ٥١٦ هـ .

وهذا الكلام ليس لابن حوقل بل للمعلق المجهول على ابن حوقل ، وكان من أهل المئة السادسة (م) .

وله سبع صوامع وهم يصلون الجمعة فيه فلا يأتونه الا فى الجمعة ، • وبينه الآن وبين أحيائها العامرة ميلان وحوله الخرائب ، وكذلك بينه (أى بين الجامع) وبين السور الاول ميلان • وبالقرب من السور قبر طلحة[1] وقبر الزبير • اما البلدة نفسها فلم يبق فيها غير ثلاثة أحياء آهلة • وسرد المستوفى ، وقد كتب فى ذلك الزمن نفسه ، اخبارا طويلة عن البصرة ، فذكر ان جامعها لم يجدده الا الخليفة علي ، وكان أعظم جامع فى الاسلام — ولم يبن جامع أوسع منه — وعيّن علي قبلة هذا الجامع فى اتجاهها الصحيح • وكان فيه منارة تتحرك أو تبقى ساكنة وفقا للقسم الذى يُحلف به فى وجهها ان كان صدقا أو كذبا وهى كرامة تعزى الى الامام علي بن ابى طالب وكان رافعها • وللمستوفى كلام آخر فى مشاهد البصرة • وأطرى بساتينها الغنّ ونخيلها الذى يحف بالمدينة حتى انه لالتفاف اشجارها لا يكاد يرى الرائى أبعد من مئة خطوة • وتمرها من أجود التمور وتجارته رابحة فى الهند والصين •

واشتهرت البصرة فى كل الازمنة بانهارها • وقد عدّت ، على ما ذكر ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ، فزادت على مئة الف نهر تجرى فى أكثرها الزواريق • ونهر معقل ، وقد بيّنا انه هو النهر الكبير الآتى من جهة بغداد ، حفره معقل بن يسار الصحابى فى أيام عمر • وهذا النهر ونهر الابلة، وهما يمتدان من البصرة نحو الجنوب الشرقى ، كان طول كل منهما أربعة فراسخ • وكانت بساتين نهر الابلة بامتداد الجانب الجنوبى للجزيرة الكبرى ، احدى جنان الدنيا الاربع[2] •

---

(١) يرى قبر طلحة فى خرائب البصرة القديمة فى جنوب شرقى المنارة الأثرية • عليه قبة معقودة مربعة الشكل • وهو يزار (م) •

(٢) والجنان الثلاث الأخرى المشهورة هى : غوطة دمشق ، وشعب بوان فى فارس وسنصفه فى الفصل الثامن عشر ، ووادى الصغد بين سمرقند وبخارى وسيأتى ذكره فى الفصل الثالث والعشرين •

الاصطخرى ٨٠ ؛ ابن حوقل ١٥٩ و ١٦٠ والحاشية G ؛ المقدسى ١١٧ و ١٣٠ و ٤١٣ ؛ ناصر خسرو ٨٥ — ٨٩ ؛ ياقوت ١ : ٦٣٦ ؛ ٤ : ٨٤٥ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٨ و ١٣ و ١٤ ؛ المستوفى ٣٧ •

قلنا : وراجع مما كتب حديثا عن البصرة • خطط البصرة للدكتور صالح احمد العلي (سومر ٨ [١٩٥٢] ص ٧٢ — ٨٣) وكتابه « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الاول للهجرة » (بغداد ١٩٥٣) • (م) •

والأُبلة ، وهي تعريب اسمها اليوناني (Apologos) ، يرجع تاريخها الى العهد الساساني بل الى أقدم من ذلك[١] . وهي على الفيض ، ذات هواء حار . ولما ابتنى المسلمون البصرة مدينتهم الجديدة ، جعلوها في الداخل عند طرَف البادية . وكانت الابلة على ما بينا ، عند فم نهر الأُبلة من قبل الشمال في الجزيرة الكبرى وبازائها من نحو الجنوب البلدة المسماة شقّ عثمان (ويقال ان عثمان هذا حفيد سميه الخليفة الثالث) وكانت فوق فم نهر الابلة وتجاهه في الجانب الشرقي من الفيض ، مرحلة ينزل فيها من يعبر دجلة ويريد خوزستان . وكان يقال لهذا الموضع عسكر ابى جعفر ، أي عسكر الخليفة المنصور . وكانت الابلة في المئة الرابعة (العاشرة) بلدة كبيرة ذات مسجد جامع . وكان شق عثمان مثل ذلك . وهما على ما روى المقدسي عامرتان . وذكر ناصر خسرو ، وقد زارها بعد ذلك بنصف قرن ، ان قصور هاتين المدينتين وأسواقهما وجامعيهما في حال حسنة . ولكن المغول بعد ذلك بقرنين خرّبوا هذه الجهات . ولما كتب القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة) قال ان هذه المواضع قد آلت الى الخراب . وبقي شق عثمان مشهورا بسدرته العظيمة . وبعد ذلك بقرن وصف ابن بطوطة الأُبلة فقال هي الآن قرية . وقد نهضت في العصر الحديث من حالتها هذه التي ألمت بها حين قامت البصرة الحديثة في موضعها القديم[٢] .

« وكان على ركن الأُبلة في دجلة بين يدى نهرها ، خور عظيم الخطر جسيم الضرر ، وكانت أكثر السفن تغرق فيه » . وعلى ما جاء في ابن حوقل « احتالت له بعض نساء بني العباس ـ ذكر بعضهم انها زبيدة ـ بمراكب أوسقتها بالحجارة العظام وبلّعتها ذلك المكان فابتلعها ، وقد توافت على مقدار فانسد المكان

---

(١) كان اسم الأُبلة باسمها اليوناني Apologos معروفا في المئة الرابعة قبل الميلاد . فقد ذكره نيارخس Nearchus البحار الاقريطشي وقد كان قائدا لاسطول الاسكندر الكبير . واشتهر برحلته البحرية التي طالت خمسة اشهر . وقال فيها ان هذه المدينة مستودع لتجارات خليج فارس . واسم هذه المدينة ظهر في الخارطة الثانية المرفقة برحلته المقابلة لصفحة ٢٨٥ منها . وعنوان الرحلة في طبعتها الانكليزية :
The Voyage of Nearchus from the Indus to the Euphrates (ed. W. Vincent; London 1797). (م) .

(٢) خربت بلدة الأبلة ولم يصل التحقيق الى اثبات انها البصرة الحديثة ومنها العشار . وانظر سومر ٩ [١٩٥٣] (ص ١٦٢ ـ ١٦٦) . (الدكتور مصطفى جواد) .

وزال الضرر » • وذكر ابن سرابيون الانهار التسعة وكلها يصب الى فيض البصرة في جانبه الغربي وهي : نهر معقل وثلاثة فوقه وأربعة جنوب البصرة بين نهر الابلة وفم الفيض[١] على ان أهم هذه الانهار هو نهر ابى الخصيب – وانما سمي بذلك نسبة الى مولى من موالى الخليفة المنصور – فقد بني عليه في أواسط المئة الثالثة (التاسعة) ، حصن عظيم للثوار من الزنج • وهذه المدينة التى سماها الزنج « المختارة » كانت حصينة مكينة فامتنعت زمناً طويلاً على جيوش الخليفة العباسى التى جردها عليها ولم يقض بعد ذلك على فتنة الزنج القضاء النهائى الا بعد حروب دامت خمس عشرة سنة[٢] •

وكانت أهم الانهار في شرقي فيض دجلة ، على ما ذكر ابن سرابيون ، نهر الريّان وعليه أو على مقربة منه مدينتا المفتح والدسكرة ولايعلم موضعهما الصحيح، وان كانت الاولى ذات شأن بحيث غلب أسمها على الفيض فسمي دجلة المفتح • وأسفل هذا النهر ، نهر بيان وعند فمه بلدة بيان على خمسة فراسخ من الابلة بازائها على الفيض • وفي موضعها اليوم ميناء المحمرة على نهر الحفار وهذا النهر يصل أعالى فيض دجلة بفيض دجيل (كارون) • قال المقدسى ، وقد كتب بعد ابن سرابيون بثلاثة أرباع القرن ، ان هذا النهر ، وطوله أربعة فراسخ ، قد شقه عضد الدولة البويهى • وقبل ذلك بقرن ذكره قدامة باسم « النهر الجديد » وكانت تسير فيه السفن الآتية من البصرة الى الاهواز وكانت السفن قبل ان يشق النهر العضدى (على ما سماه المقدسى) تذهب في النهر الى البحر ثم تعود فتدخل من البحر الى فيض دجلة مارة ببيان الى الابلة[٣] •

والجزيرة الكبرى التى بين الفيضين (أى فيض دجلة ودجيل) ، سماها ياقوت ميان روذان (وهو فارسي معناه وسط الانهار) وقد وصفها المقدسى بانها

---

(١) هذه الانهار التسعة ، على ما في ابن سرابيون (ص ٢٩) ، هي : (١) نهر المرأة (٢) نهر الدبر (٣) بثق شيرين (٤) نهر معقل (٥) نهر الأبلة (٦) نهر اليهودى (٧) نهر ابى الخصيب (٨) نهر الامير (٩) نهر العدل (م) •

(٢) الاصطخرى ٨١ ؛ البلاذرى ٣٦٢ ، ابن حوقل ١٦٠ و ١٦١ ؛ المقدسى ١١٨ و ١٣٥ ؛ ابن سرابيون ٢٩ و ٣٠ ؛ ناصر خسرو ٨٩ ؛ القزوينى ٢ : ١٩٠ ؛ ياقوت ٣ ، ٦٧٥ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٧ ؛ الطبرى ٣ : ١٩٨٢ •

(٣) ابن سرابيون ٣٠ ؛ ابن خرداذبه ١٢ ؛ قدامة ١٩٤ ؛ الاصطخرى ٩٥ ؛ ابن حوقل ١٧١ ؛ المقدسى ٤١٩ ؛ المسعودى : التنبيه ٥٢ ، ياقوت ٤ : ٥٨٦ •

سبخة فى زاوية منها على ساحل البحر مدينة عبادان ، وفى زاوية أخرى عند فيض دجيل سليمانان . وما زالت عبادان قائمة[1] ولكنها الآن على فيض دجيل تبعد عن ساحل خليج فارس الحالى أكثر من عشرين ميلا ، اذ ان البحر قد انحسر الى هذا المدى بفضل دلتا النهر العظيم . ومع ذلك فالمقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) وصف عبادان بان ليس وراءها بلد ولا قرية غير البحر ، فيها صنّاع الحصر من الحلفاء التى تنبت فى الجزيرة وحولها مسالح عظيمة لحراسة فم الفيض . وقال ناصر خسرو ، وقد حل فيها سنة ٤٣٨ (١٠٤٧) ، ان البحر فى زمنه كان يبتعد عنها أقل من فرسخين فى اثناء الجزر . وقد أقاموا فيه ما عرف بالخشاب[2] وهو بمثابة منار « يتكون من أربعة أعمدة كبيرة من خشب الساج على هيئة المنجنيق وهو مربع قاعدته متسعة وقمته ضيقة ويرتفع عن سطح البحر أربعين ذراعا وعلى قمته حجارة وقرميد مقامة على عمد من خشب كأنها سقف ومن فوقها أربعة عقود يقف بها الحراس ... ففى الليل يشعلون سراجاً فى زجاجة بحيث لا تطفؤه الرياح وذلك حتى يراه الملاحون من بعيد فيحتاطون وينجون . »[3] وكانت عبادان كثيرة الجوامع والرباطات ولكنها حين مر بها ابن بطوطة فى المئة الثامنة كانت قد صارت قرية كبيرة بينها وبين الساحل ثلاثة أميال . ومع ذلك فان المستوفى ، معاصر ابن بطوطة ، قال فى عبادان انها ميناء كبير وروى ان جبايتها بلغت اربعمئة وواحدا

---

(١) اشتهرت عبادان فى العصر الحديث بكونها تنتهى فيها أنابيب النفط الايرانى الممتدة من مسجد سليمان اليها مسافة ١٣٧ ميلا . وبعد ان كانت عبادان قرية أصبحت بلدة آهلة بسبب مصافى النفط المنشأة فيها . وصارت ميناء كبيرا تؤمه السفن ولاسيما حاملات النفط . (م) .

(٢) ان « الخشاب » تحريف « الخشبات » لقد ذكرها المسعودى فى المروج (١ : ٨٧) من الطبعة المصرية الجديدة بصورة « الخشبات » وقال « وخير الموضع المعروف الجدارة وهى دخلة من البحر الى البر من نحو بلاد الابلة ، ولهذه الجدارة اتخذت الأخشاب فى لم البحر مما يلى الأبلة وعبادان ، عليها أناس يوقدون النار بالليل على « خشبات » ثلاث كالكرسى فى جوف الليل خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرهما أن تقع فى تلك الجدارة فلا يكون لها خلاص » . وقال ابن سعيد المغربى فى جغرافيته « دار الكتب الوطنية بباريس ٢٢٣٤ ورقة ٧٥ » فى وصفها « الخشبات وهى علامات فى البحر للمراكب وفى شرقى الخشبات دجلة الأهواز » . وقال ابن الوردى فى خريدة العجائب « ومن عبادان الى الخشبات ـ وهى خشبات منصوبة فى قعر البحر باحكام وهندسة وعليها الواح مهندسة يجلس عليها احراس البحر » . وجاء فى حوادث سنة ٦٤٤ من كتاب الحوادث الجامعة ـ ص ١٢ ـ « وفى هذه السنة وصلت الطيور الحمام من عبادان والخشبات » . وهذه نصوص لا تدع شكا فى حدوث التصحيف فيما نقل منه المحقق لسترنج (الدكتور مصطفى جواد) .

(٣) سفرنامه لناصر خسرو الترجمة العربية ليحيى الخشاب ص ١٠٠ (م) .

واربعين ألف دينار بصرف زمنه تدفع الى بيت مال البصرة . وكانت ميناء سليمانان على بضعة فراسخ شرق عبادان ، وهي تعد في الغالب من أعمال خوزستان . وما نعرفه عنها ان مؤسسها رجل يقال له سليمان بن جابر الملقب بالزاهد[1] .

ولنعد الى سمت بغداد لنصف المدن التي على امتداد دجلة في شمال العاصمة حتى حدود العراق والمدن القريبة من ضفاف النهروان . ولقد تكلمنا قبلا (انظر الصفحة ٥٠) على الطريق العام من بغداد الى الموصل والمدن الشمالية التي على دجلة الشرقية أي اليسرى . فهذا الطريق كان يبدأ في شرقي بغداد من باب البَرَدان بمحلة الشماسية . وبعد نحو أربعة فراسخ يبلغ بليدة البردان وهي ما زالت قائمة باسم تحرّف الى بدران[2] . وعند البردان قريتان أخريان جليلتا الشأن هما بزوغى والمزرفة . والمزرفة على ثلاثة فراسخ فوق بغداد[3] . ويلتقي نهر الخالص ودجلة عند الراشدية قرب البردان ، على ما سيأتي بيانه ، وينتهي فوق ملتقاه منعطف دجلة الكبير المتجه شرقا وهو المنعطف الذي يبدأ من القادسية على ستين ميلا شمال بغداد . وقد كان مجرى النهر في القرون الوسطى يتابع في الغالب خطاً مستقيماً من القادسية الى البردان . واطلال ما كان على شرقي عقيقه

---

(١) البلاذري ٣٦٤ ؛ الاصطخري ٩٠ ؛ ابن حوقل ١٧٣ ؛ المقدسي ١١٨ ؛ القزويني ٢ : ٢٨٠ ؛ ناصر خسرو ٨٩ و ٩٠ ؛ ياقوت ٤ : ٧٠٨ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٨ ؛ المستوفي ١٣٧ ؛ المسعودي ١ : ٢٣٠ .

واشار ياقوت (١ : ٦٤٥) الى ان من اصطلاح أهل البصرة ان يزيدوا في اسم الرجل الذي تنسب اليه القرية الفا ونونا ، نحو قولهم طلحتان و نهر تنسب الى طلحة » . وهذا يفسر صيغة اسم سليمانان وعبادان وهذه الأخيرة تنسب الى عباد .

وقد ابتعد الساحل من فم فيض دجلة بمعدل نحو ٧٢ قدما في السنة أو نحو ميل ونصف ميل في القرن . وهذا هو السبب في ابتعاد عبادان الآن عن النهر .

قلنا : هناك نظرية جديدة في هذا الموضوع ، قامت على نتائج التحريات الجيولوجية التي اجرتها شركات النفط في جنوبي العراق وخوزستان بايران . ويحسن بالقارىء مراجعة ما كتبه G. M. Lees و N. L. Falcon في المجلة الجغرافية
(The Geographical Journal, Vol. 118, Part 1; March, 1952, pp. 24 ff).
وعنوان البحث : Geographical History of the Mesopotamian Plains.

(٢) يبعد تل بدران عن الضفة الشرقية لدجلة الحالي نحو ستة كيلومترات وهو في شرق قرية الداودية التي على النهر . ويبعد من شمال بغداد نحو ١٨ كيلومترا (م) .

(٣) في الجانب الغربي من دجلة ، شمال غربي محطة التاجي ، أراض تعرف اليوم بالمزرفة في ناحية الطارمية . وهي تقابل تل بدران الذي في الجانب الشرقي . وقد وهم المؤلف في قوله ان بزوغى والمزرفة في الجانب الشرقي (م) .

من مدن قد أشير اليها في الخارطة ، وذكرها ابن سرابيون وغيره من المصنفين الأولين .

والظاهر ان مجرى دجلة قد تحول هنا غير مرة ، فالمجرى الحالي (الشرقي) لدجلة سماه مؤلف المراصد ، وقد كتب كتابه في نحو سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) ، الشطيطة[1] ومن أعظم التبدلات في مجراه ، ما حصل أيام الخليفة المستنصر ، أعني بين سنتي ٦٢٣ و ٦٤٠ (١٢٢٦ – ١٢٤٢) فقد روت الأخبار ان الخليفة شق كثيرا من الانهار لسقي ما أجدب من أراض بتحوّل المجرى الاصلي عنها . وقد تكلم المسعودي منذ أوائل المئة الرابعة (العاشرة) على تسوية شرعية لمطالبات بالاراضي بين أهل الجانب الغربي والجانب الشرقي فوق بغداد ، نشأت من هذا التحول الأخير لمجرى دجلة . فما كان من مدن في الجانب الشرقي (وترى اطلالها الآن على عقيق دجلة وهو يبعد كثيرا عن غرب المجرى الحالي) : عُكبرا وهي أشهرها ويجاورها أوانا ويليها بانحدار النهر بُصري . وهذه المدن الثلاث على نحو عشرة فراسخ من بغداد . وكانت تكتنفها البساتين التي يقصدها أصحاب اللهو والطرب . وقد أطرى المقدسي أعناب عكبرا بوجه خاص وقال انها مدينة كبيرة عامرة . وفوق عكبرا بشيء يسير ، بلدة علث أو العلث وما زالت تعيّن في خوارطنا ولكن في الجانب الغربي . ووصفها المقدسي بقوله انها مدينة كبيرة آهلة على نهر يُجرّ اليها من دجلة . وفي شمال غربي العلث حيث ينعطف النهر اليوم الى ناحية الشرق انعطافه العظيم : قادسية دجلة ، فلا يختلطن بين هذه القادسية وقادسية الفرات التي كانت في غرب هذا النهر[2] . وكانت قادسية دجلة مشهورة بعمل

---

(١) الذي يفهم من كلام المراصد ، وهو المصدر الوحيد ، في مادة « عكبرا » و « العلث » و « سريفون » ، ان الصواب هو العكس ، أي ان المجرى العتيق (الغربي) هو الذي كان يسمى الشطيطة (الدكتور مصطفى جواد) .

(٢) يقوم سور القادسية في جنوب اطلال سامراء بين الضفة اليمنى لنهر القائم المندرس وضفة دجلة اليسرى . وهو سور مثمن من اللبن طول كل ضلع من اضلاعه ٦٢٠ مترا تدعمه من الخارج ١٧ دعامة نصف دائرية وفي كل ركن من اركان السور برج مدور كبير قطره نحو ٨ امتار . وثخن السور أربعة امتار وعلوه نحو خمسة امتار . وتبلغ مساحة الارض التي يكتنفها السور نحو ٧٤٥ دونما (الدونم = ٢٥٠٠ متر مربع) . في هذا السور فتحات تدل على انها كانت ابوابا له . والسور من الداخل مؤلف من اروقة كل رواق بين دعامتين من دعائمه وبعض هذه الاروقة اتخذ حجرات . وتشاهد في داخل القادسية ، في وسطها ، معالم ابنية من اللبن . وقد جيء بالماء الى القادسية من النهر المار من القاطول الكسروي الى نهر القائم ، ثم يعبره فوق قنطرة من الآجر قد

الزجاج[1] . وبازائها يأخذ نهر دجيل من دجلة ماداً صوب الجنوب[2] .

ونهر دجيل (وهو غير نهر دجيل المعروف بنهر كارون) ، كان في أصله ، على ما سنبينه في الفصل الآتي ، يحمل من الفرات الى دجلة . غير انه في مطلع المئة الرابعة (العاشرة) انطمر قسمه الغربي وبقي الماء في مجراه الاسفل وهو قسمه الشرقي ، بشق نهر جديد يأخذ من دجلة أسفل القادسية . وكان دجيل يسقي طسوج مسكن الخصب في شمال بغداد الغربية مما يلي طسوج قطربل . فنهر دجيل الآخير هذا ، على ذلك ، كان يأخذ من دجلة ثم يصب فيه بازاء عكبرا وينفرع منه أنهار كثيرة ، منها ما يمد الى الجنوب فيسقي الحربية الربض الشمالي الكبير في بغداد الغربية (أنظر ص ٤٩) . وكان في طسوج دجيل ، ويسمى أيضا مسكن ، كثير من القرى والمدن في غرب عكبرا ودجلة وأهمها : حربى وقد زارها ابن جبير في سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وكانت حينذاك قائمة . وفي هذا الموضع اليوم بقايا قنطرة كبيرة فوق النهر شيدها ، على ما جاء في (الفخرى) ، الخليفة المستنصر بالله في سنة ٦٢٩ (١٢٣٢) وهو ما تؤيده الكتابة التي ما زالت فيها[3] .

الدرست . وعند وصول النهر الى سور القادسية يدخلها من أحد أبوابها ويتفرع في داخلها .
راجع : « سامراء » لدار الآثار العراقية (ص ٧٢) ؛ سومر (٣ ١٦٧) ؛ رى سامراء ١ . ٢٤٨ . (م) .

(١) يلاحظ الآن في شرقي سور القادسية خرائب عباسية قرب ضفة دجلة تكثر فوق سطحها كل من الزجاج المنصهر وكسر كثيرة من الأواني الزجاج . وقد تقبت دائرة الآثار العراقية هذا الموضع سنة ١٩٤٠ وعثرت فيه على مقادير كبيرة من هذه المواد الزجاجية وعلى بقايا آنية وأكوام من رماد . (م) .

(٢) قدامة ٢١٤ ؛ المقدسي ١٢٢ و ١٢٣ ؛ المسعودي ١ : ٢٢٣ ؛ ياقوت ١ : ٣٩٥ و ٥٥٢ و ٦٠٦ و ٦٥٤ ؛ ٣ : ٧٠٥ ؛ ٤ : ٦ و ٥٢٠ ؛ المراصد ٢ : ٢٧٠ و ٤٢٩ .

(٣) في أعلى جبهتي هذه القنطرة كتابة منقوشة بالآجر وهذا نص كتابة الجبهة الغربية . « بسم الله الرحمن الرحيم واقيموا الصلوة وآتوا الزكوة واقرضوا الله قرضا حسنا وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا واستغفروا الله ان الله غفور رحيم . الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فاولئك كان سعيهم مشكورا . أمر بانشاء هذه القنطرة المباركة تقربا الى الله تعالى الذي لا يضيع أجر من احسن عملا وطلبا للفوز بجنات الفردوس التي اعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات نزلا ، سيدنا ومولانا الامام امام المسلمين ووارث الانبياء والمرسلين وخليفة رب العالمين وحجته على الخلائق أجمعين » .

ونص الجبهة الشرقية :

« الذي أيد الله تعالى باعزاز نصره الدين وافترض طاعته على الحاضرين والبادين (واختصه من جليل نعما) يعجز عنه حصر العادين أبو جعفر المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين مكن الله له في أرضه

وقرب حربى كانت الحظيرة « ينسج فيها الثياب الكرباس الصفيق ويحملها التجار الى البلاد » • وسرد ياقوت ، الى ذلك ، أسماء قرى كثيرة وهى مئة قرية ونيف كانت فى هذا الطسوج ، وما زال كثير منها يرى فى الخارطة كـ « بلد » قرب الحظيرة • وظل طسوج دجيل ومدينته حربى حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فى غاية الخصب على ما وصفه به المستوفى • وكان رمّانه أجود ما يرى فى أسواق بغـــداد •

وكان فى هذا الطسوج مدن كثيرة غيرها • فعلى عشرة أميال فوق القادسية مدينة سامراء وسيأتى وصفها فى الفصل الآتى • وتتوسط المسافة بينهما : المطيرة وهى فوق موضع تفرع ثلاثة أنهار صغيرة من يسار (شرق) دجلة • وفى منتصف الطريق بين المطيرة والقادسية وأسفل صدور هذه الأنهر يقوم بركوار ويقال له أيضا بلكوار وبزكوار • وقرية المطيرة على ما جاء فى ياقوت « نسبت الى مطر الشيبانى ، وكان يرى رأى الخوارج ، وانما هى المطرية فغيرت وقيل المطيرة »[1]• وكان أيضا على عشرة أميال شمال سامراء ، كرخ فيروز ويقال له أيضا كرخ سامراء تمييزا له عن الكرخ ، المحلة الجنوبية فى الجانب الغربى من بغداد • ثم الى شماله «الدُور» وبالقرب منها يحمل النهروان[2] من يسار دجلة• وبازائها يأخذ

لسكين الوارثين ورمع مقدس اعماله الصالحات الى عليين ونشر بعدالته الزاهرة فى آفاق الارضين راوضح للخلائق بولاية سبيل الرشاد رمنهج الحق المبين ابن الامام السعيد البر التقى ابى نصر محمد الظاهر بأمر الله بن الامام السعيد الزكى الطاهر الولى ابى العباس الناصر لدين الله بن الامام السعيد الزكى ابى الحسن محمد (كذا • • والصواب ابى محمد الحسن) المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ووارث الخلفاء الراشدين الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين وذلك فى سـنة تسع وعشرين وستمئة وصلى الله على سيدنا محمد النبى وآلـه الطاهـرين وسلامه » — (م) •

(١) اليعقوبى ٢٦٥ ؛ ابن سرابيون ١٤ ؛ ابن جبير ٢٢٣ ؛ ياقوت ١ : ١٧٨ و ٦٠٥ ؛ ٢ : ٢٣٥ و ٢٩٢ و ٥٥٥ ؛ ٤ : ٥٢٩ و ٥٦٨ ؛ المستوفى ١٣٨ ؛ الفخرى : ٣٨٠ ؛ وفى كتاب جيمس فلكس جونس

J. F. Jones, Records of the Bombay Government (New Series No. XLIII, 1857, P. 252).

صورة لقنطرة حربى • وفى ص ٤٧ منه كتب اسم بركوارا بصورة بزكوارا •

قلنا : لمديرية الآثار القديمة فى العراق نشرة مصورة بالعربية والانكليزية عنوانها « جسر حربى » صدرت سنة ١٩٣٥ وفيها نص الكتابة على قنطرة حربى مع صور لها • (م) •

(٢) يريد به القاطول الكسروى (م) •

من ضفة دجلة الغربية ، أي اليمنى ، نهر الاسحاقي وهو نهر يأخذ من دجلة ثم يعود اليه ثانية بازاء المطيرة . ومواضع هذه الأمكنة جميعا تعينها الانهار وهي وان كان بعضهـا خرائب ، الا انها ما زالت موجودة ، ولكـن علمنـا بها لا يتجاوز اسمائها .

الفصل الرابع

العـراق «تتمة»

سامراء – تكريت – النهروان – باعقوبا وغيرها من المدن – مدينة
جسر النهروان وطريق خراسان – جلولاء وخانقين – البندنيجين
وبيات – مدن الفرات من الحديثة الى الانبار – نهر
عيسى – المحول وصرصر ونهر الملك –
نهر كوثى

كانت مدينة سامراء التي اتخذها سبعة من خلفاء بني العباس عاصمة لهم مدى نصف قرن ونيف ، أي من سنة ٢٢١ الى ٢٧٩ هـ (٨٣٦ – ٨٩٢) ، معروفةً قبل الفتح العربي ، ثم بقيت بعد ان تهاوت من ذروة عزها الذي لم يدم كثيرا مدينة ذات شأن ردحا طويلا من الزمن . واسمها بالارامية سامرا ، فأمر الخليفة المعتصم ، حين أقام فيها ، ان تسمى سر من رأى . وبهذه الصيغة الاخيرة وجد اسمها في النقود العباسية المضروبة فيها . وكانت التسمية مع ذلك تلفظ بصور مختلفة ، ذكر ابن خلكان ستاً منها أشهرها « سامراء » وهو الاسم الذي اختاره ياقوت عنوانا لبحثه عن هذه المدينة[1] .

---

(١) اثبتت التنقيبات الأثرية في أطلال سامراء ، ان موضع سامراء ، كان آهلا منذ أدوار ما قبل التاريخ . لقد اكتشف فيها البروفسور هرتسفلد المنقب الالماني ، مقبرة من تلك الادوار بين بقايا العصر العباسي والسن الصخري الذي بنيت عليه المدينة العباسية على نحو ميل واحد من جنوب دار الخليفة . وقد عثر فيها على ضرب من الفخار المصبوغ اطلق عليه اسم فخار سامراء ، وهو يمثل دورا من أدوار ما قبل التاريخ في العراق سمي بـ « دور ثقافة سامراء » نسبة الى الموضع الاثري الذي اكتشف فيه هذا الفخار لاول مرة . كما عثرت مديرية الآثار العراقية على موضعين آخرين في

وانتهى الينا من اليعقوبى ، وقد كتب فى آخر المئة الثالثة (التاسعة) ، حديث طويل مفصل لسامراء وقصورها . فالخلفاء السبعة الذين أقاموا فيها ، وكانوا فى الغالب أسرى جندهم من الترك ، قد شغلوا وقت فراغهم المفروض عليهم فرضاً ، بالبناء وتنظيم الأحياء وميادين اللعب . قامت المدينة نفسها على ضفة دجلة الشرقية فامتدت قصورها سبعة فراسخ بمحاذاة النهر وقام فى الجانب الغربى كثير من القصور وأنفق الخلفاء ، الواحد تلو الآخر أموالا طائلة لا يكاد العقل يصدقها ، على انشاء ميادين جديدة للصيد واللعب ، وكانت الارض التى بنى عليها الخليفة المعتصم (وهو أصغر أبناء هرون الرشيد) أول قصر له حين قدم الى سامراء فى سنة ٢٢١ (٨٣٦) ، ديرا للنصارى اشتراه من أصحابه بأربعة آلاف دينار[١] (٢٠٠٠ باون) وكانت أرضه تعرف بالطيرهان . وأقطع جنده الاتراك قطائع فى الكرخ وما فوقها حتى الدور ، وقطائع أخرى فى جنوبى سامراء فى جهة المطيرة . وبنى الخليفة أول مسجد جامع قرب ضفة دجلة الشرقية . وخطّ قصره . وكتب فى اشخاص الفعلة والبنائين وأهل المهن من سائر انحاء الدولة ، وفى حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة ، وفرش الرخام من انطاكية واللاذقية . واختط الشارع المسمى بالشارع الاعظم ، بموازاة دجلة . وقامت على يمين الشارع ويساره القصور الجديدة والقطائع . وكان الشارع الاعظم ممتدا من المطيرة الى الكرخ وفى جانبيه دروب وأسواق . وانشأ أيضا بيت المال الجديد

سامراء برتفيان الى هذا الزمن ، أحدهما فى شمال المقبرة المارة الذكر والآخر فى جنوبى سامراء على ضفة دجلة شمال صدر القائم يسمى « تل صوان » . وقد جاء اسم هذا الموضع فى الكتابات الآشورية بصورة « سرمارتا » Su-ur-mar-ta وكان لهذا الموطن فى ايام الفرس شأن كبير ولا سيما فى حروبهم مع الرومان ولقربه من القاطول الكسروى . ثم ازدهر هذا الموضع حين انتقل اليه المعتصم وأقام فيه مدينته .

راجع « سامراء » لدار الآثار العراقية ؛ وكتاب هرتسفلد :

Geschichte der Stadt Samarra- P. 1-3.

اما ما قاله ابن خلكان فى اسماء سامراء فهو : « وسر من راى فيها ست لغات ، حكاها الجوهرى فى كتاب الصحاح ، فى فصل راى ، وهى (سر من راى) بضم السين المهملة وفتحها و (سر من راء) بضم السين وفتحها وتقديم الالف على الهمزة فى اللفتين و (ساء من رأى) و (سامراء) . واستعمله البحترى ممدودا فى قوله (واصبحته علما لسامراء) » (وفيات الاعيان ١ : ١٠ بولاق ؛ فى ترجمة ابراهيم بن المهدى) (م) .

(١) هذا المبلغ يوافق ما ذكره اليعقوبى فى البلدان (ص ٢٥٨) . اما ياقوت (معجم البلدان ٣ : ١٦) فقال ان المعتصم دفع خمسة آلاف دينار . (م) .

ودواوين الدولة ودار العامة التى يجلس فيها الخليفة يوم الاثنين والخميس .

ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الاساس للبناء فى جانب سامراء ، عقد جسرا الى الجانب الغربى من دجلة . فأنشأ هناك البساتين والأُجنّة وحمل النخل اليها من البصرة وحُملت الغروس من الشام وخراسان وسائر الاقاليم . وكان يسقى الجانب الغربى أنهار تحمل من الاسحاقى ، وقد مر ذكره ، حفره اسحق بن ابراهيم صاحب شرطة المعتصم . فهذه كانت الارض المسماة بالطيرهان ، وفيها قال اليعقوبى ان سامراء صحراء من أرض الطيرهان . ولما توفى المعتصم فى سنة ٢٢٧ (٨٤٢) كانت سامراء قد أخذت تنافس بغداد فى فخامة قصورها وجمال مبانيها . واكمل ابناء الواثق والمتوكل اللذان تعاقبا على الخلافة من بعده ، ما بدأ به أبوهما . فقد بنى هرون الواثق القصر المعروف بالهارونى ، نسبة اليه ، على دجلة وجعل فيه مجالس فى دكة شرقية ودكة غربية . وحفر الواثق فرضة من النهر تصلح لدخول السفن التى تردها من بغداد . وخلفه أخوه جعفر المتوكل على الله فى سنة ٢٣٢ (٨٤٧) فنزل الهارونى أولاً ، الا انه فى سنة ٢٤٥ (٨٥٩) ابتدأ ببناء قصر جديد له على ثلاثة فراسخ شمال الكرخ ، ومدّ الشارع الاعظم ، وعرف قصره والمدينة الجديدة التى قامت حوله بالمتوكلية أو القصر الجعفرى ، وما زالت أطلال القصر الجعفرى فى الزاوية التى يؤلفها تفرّع النهروان هناك ، واندمجت به الماحوزة وهى المدينة القديمة .

وبنى المتوكل أيضا جامعا جديدا واسعا فى مكان الجامع الذى بناه أبوه ، اذ ضاق على أهل العاصمة الجديدة . وامتدت القصور والبساتين من المطيرة الى الدور واتصلت . وفى سنة ٢٤٧ (٨٦١) قتل المنتصر أباه المتوكل فى قصره المعروف بالجعفرى فى المتوكلية . وأقام الخلفاء الاربعة الذين أعقبوه فى ذلك العهد المضطرب ، فى قصر الجوسق فى غربى دجلة قبالة سامراء ، وهو من أبنية المعتصم . وقد أقام المعتمد بن المتوكل وآخر الخلفاء ، فى سامراء فى الجوسق أولاً ، ثم ابتنى لـه قصرا جديدا فى الجانب الشرقى وهو القصر المعروف بالمعشوق[1] .

---

(١) المعروف ان قصر « الجوسق » فى سر من راى فى جانبها الشرقى ولعله كان حيث بلدة

ومن هذا القصر انتقل مركز الدولة الى بغداد قبيل وفاة المعتمد في سنة ٢٧٩ (٨٩٢) . وقد نوهت مراجعنا باسماء كثير من القصور الأخرى . فذكر ابن سرابيون قصر الجص المشهور وهو من أبنية المعتصم على الاسحاقي[١] . وسرد ياقوت أسماء جملة كبيرة من القصور ، وزاد على غيره مبيناً ما أنفقه الخلفاء عليها من أموال خيالية . فكان مجموع تلك النفقات مئتي مليون وأربعة ملايين درهم أي ما يعادل نحواً من ثمانية ملايين باون استرليني .

وكان طبيعيا ان يزول عز سامراء ويضيع مجدها بعودة الخلفاء منها الى بغداد وان تؤول قصورها الكثيرة الى الخراب[٢] . ولقد أطنب ابن حوقل ، وهو من أهل المئة الرابعة (العاشرة) ، في وصف بساتينها الزاهرة العامرة لاسيما ما كان منها في الجانب الغربي . ولكن المقدسي قال ان الكرخ في الشمال أصبح في أيامه أعمر منها (أي من سامراء) وكان المسجد الجامع في سامراء ما زال قائما ، قال فيه المقدسي : « بها جامع كبير يختار على جامع دمشق قد لبست حيطانه بالمينا وجعلت فيه اساطين الرخام وفرش به ، وله منارة طويلة » . وقال ياقوت : انها منارة الجامع الاول الذي بناه المعتصم فقد « أمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤذنين فيها » . وكانت هذه المنارة تشاهد من مسافة فرسخ من كل جهة[٣] .

سامراء الحالية . اما المعشوق ويسمى اليوم قصر العاشق فهو في الجانب الغربي . راجع معجم البلدان (مادة المعشوق ٤ ٥٧٦) ولعل ما في اليعقوبي (ص ٢٦٨) من وهم الناسخ . وما زالت اطلال العاشق شاخصة (م) .

(١) اكتشفت دائرة الآثار العراقية موضعا من العصر العباسي قرب ضفة نهر الاسحاقي المندرس في غربي دجلة على ١٧ كيلومترا شمال محطة قطار سامراء يعرف اليوم بالحويصلات . وقد تبين من نتائج تنقيباتها فيه ومقارنتها بأقوال البلدانيين الاقدمين في قصر الجص ، ان موضع الحويصلات هو قصر الجص نفسه (م) .

(٢) اقام في سامراء بعد المعتصم سبعة خلفاء هم : الواثق ، المتوكل ، المنتصر ، المستعين ، المعتز ، المهتدي وآخرهم المعتمد الذي هجر سامراء وعاد الى بغداد سنة ٢٧٩ (٨٩٢) (م) .

(٣) ما زالت هذه المنارة ماثلة الى اليوم تعرف بـ « الملوية » . وهي على بعد قليل من شمال شرقي سامراء الحديثة ، على نحو ٢٥ مترا من الجدار الشمالي لجامعها القديم - وكانت « الملوية » قد نال الخراب من بعض اقسامها ولاسيما في قاعدتها وفي ملتوياتها الاولى ، حتى ان معالم قاعدتها خفيت عن الانظار بما تراكم عليها من الانقاض ، فظن كثيرون ان مرقاتها تبدأ من سطح الارض - الا ان مديرية الآثار العراقية عنيت بصيانة هذه المنارة فازاحت عنها تلك الانقاض واظهرت أسس القاعدة وأعادت بناءها وعمرت مرقاتها حتى القمة . وهذه المنارة مخروطية الشكل تقوم على قاعدة مربعة طول ضلعها ٣٢ مترا يصعد الى قمتها بمرقاة حلزونية تدور حولها من خارجها خمس مرات وعرضها ٢/٥٠ مترا . وتبدأ المرقاة من وسط الضلع الجنوبية للقاعدة المقابلة لباب المسجد الجامع وتنتهي في

والظاهر ان هذه المنارة القديمة ، وهي ما زالت شاخصة تعرف بـ « الملوية » كانت ذات مرقاة حلزونية تدور حولها من خارج يُصعد بها الى قمتها . والملوية الآن على نحو نصف ميل من شمال سامراء الحالية . وهذا ما رآه المستوفي في النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقد قال ان المنارة القائمة في المسجد الجامع يومذاك يبلغ طولها مئة وسبعين ذراعا ولها مرقاة من خارجها لا يرى مثلها في مكان آخر وزاد على ذلك ان قد بناها الخليفة المعتصم[1] .

اما ما هو أحدث من ذلك من مراجع ، فلم يزدنا علما بسامراء الا قليلا . ثم صار جل اهل سامراء من الشيعة ، اذ ان فيها ضريحي الامامين العاشر والحادي عشر : علي الهادي وابنه الحسن العسكري . وفي جامعها سرداب الغيبة يقولون ان الامام الثاني عشر غاب فيه في سنة ٢٦٤ (٨٧٨) وهو القائم المهدي المنتظر الذي سيعود في آخر الزمان[2] . ويقوم هذان الضريحان في الموضع المعروف بعسكر المعتصم . والى هذا الموضع نسب الامام العاشر فعرف بالعسكري . وفي اوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين كتب المستوفي ، وهو شيعي ، ذكر هذه المراقد بوجه خاص وقال ان في المسجد الجامع القريب من هذه المراقد ، فضلاً عن منارته العظيمة التي أشرنا اليها ، حوضاً مشهورا من حجر ، يعرف بقصعة فرعون[3] ، محيطها ثلاث وعشرون خطوة وارتفاعها سبع اذرع وثخنها نصف ذراع ، قائمة في صحن

القمة بعرفة صغيرة مستديرة علو سقفها ستة أمتار ، بابها من الجهة الجنوبية ويبلغ ارتفاع الملوية عن سطح الارض ٥٢ مترا . (راجع سامراء لدائرة الآثار العراقية ص ٤٣ — ٤٥) (م) .

(١) اشار ابو منصور الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ) الى المنارة الملوية في سر من راى في كتابه ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، فقال (ص ٤٢١) ان المتوكل « كان يصعد منارة سر من راى على حمار مريسي ، ودرج تلك المنارة من خارجها واساسها على جريب من الارض ، وطولها تسع وتسعون ذراعا . ومريس قرية بمصر » . (م) .

(٢) راجع في صفة هذا السرداب وما فيه من نقوش وزخارف وكتابات رسالة « باب الغيبة في سامراء » لدائرة الآثار القديمة ، وقد طبعت سنة ١٩٣٨ . (م) .

(٣) جاء في الحوادث الجامعة (ص ٣٠٦) : « وفيها (سنة ٦٥٣ هـ) : « حملت القصعة الحجر المعروفة بقصعة فرعون من سر من راى الى بغداد في كلك ، ووضعت تحت دار الخليفة ، وكانت عظيمة جدا ، فلم تزل الى سنة سبع وخمسين وستمئة ، ثم كسرت » وهذا يدل على ان المستوفي نقل خبرها وهو انها لم تكن في زمانه باقية (الدكتور مصطفى جواد) .

الجامع للوضوء ، وقد امر الخليفة المعتصم بعملها ، وزادالمستوفي على ذلك ان معظم سامراء في ايامه قد استولى الخراب عليه ولم يبق من المدينة الا قليل ، وايد هذا القول وصف ابن بطوطة لها ، وقد زار سامراء سنة ٧٣٠ (١٣٣٠)(١) .

وعلى ثلاثين ميلاً من شمال سامراء ، مدينة تكريت على ضفة دجلة الغربية ، وكانت تعد آخر مدينة في حد العراق ، وهي مشهورة بقلعتها الحصينة المطلة على دجلة ، وذكر ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) ان أكثر أهلها نصارى وان لهم ديرا هناك ، وكانت هذه المدينة ، على ما ذكر المقدسي ، معروفة بصنّاع الصوف وانها معدن السمسم ، وزاد المستوفي على ذلك ما يقال من ان البطيخ يزرع فيها ثلاث مرات في السنة بالرغم من برودة هوائها ، وذكرابن جبير حين مر في تكريت سنة ٥٨٠ (١١٨٤) انه يطيف بالبلد سور محيطه ستة آلاف خطوة وابراجه مكينة، وقد اطرى ابن بطوطة اسواقها وجوامعها الكثيرة (٢) .

والنهروان يحمل من دجلة ، وأوله أسفل الدور بشيء يسير على ما قد بينّا ، وكان يعرف في أعلاه بالقاطول الكسروي لأن الأكاسرة أول من أحدثه ، وكان يسقي الارضين التي في شرقي دجلة من فوق سامراء الى نحو مئة ميل جنوب بغداد ، وذكر ابن سرابيون عدداً كبيراً مما على ضفافه من مدن ، واشار الى الجسور والشاذروانات ، غير ان جلّها قد زال الآن ، وان كانت معالم النهر ما زالت ترى

---

(١) البلاذري ٢٩٧ و ٢٩٨ ؛ اليعقوبي ٢٥٥ – ٢٦٨ ؛ ابن خرداذبه ٩٤ ، ابن سرابيون ١٨ ، الاصطخري ٨٥ ؛ ابن حوقل ١٦٦ ؛ المقدسي ١٢٢ و ١٢٣ ؛ ابو الفداء ٢٨٩ ؛ ياقوت ٣ ، ١٤ – ٢٢ و ٨٢ و ٦٧٥ ، ٤ : ١١٠ ، ابن خلكان (رقم ٨ ص ١٥) ؛ المستوفي ١٣٩ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٣٢ .

عليا . بعد ان صنف المؤلف كتابه ، ظهرت جملة تآليف عن « سامراء » ، « وباب الغيبة » في سامراء ، ومقالات في مجلة سومر ، وكتاب ري سامراء للدكتور احمد سوسة ، وكتاب حفريات سامراء للبروفسور هرتسفلد Herzfeld, Ausgrabungen von Samarra وهو في ستة مجلدات الخمسة الأول لصف الحفريات ، والسادس في تاريخ سامراء وخططها وقد صدر أخيرا بعنوان Geschichte der Stadt Samarra ، ورحلة بيلي Beylie بالفرنسية ، وكتاب فيوله Viollet بالفرنسية فيحفريات سامراء ، وما كتبه البروفسور كرسويل عن عمارات سامراء في كتابه : Early Moslem Architecture (م) .

(٢) الاصطخري ٧٧ ، ابن حوقل ١٥٦ ؛ المقدسي ١٢٣ ؛ ابن جبير ٢٣٤ ؛ المستوفي ١٣٨ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٣٣ .

في الخارطة . وبعد ان يتجاوز النهروان الدور[١] التي سميت دور عربايا أو دور الحارث تمييزا لها عن غيرها من المدن الكثيرة التي عرفت بهذا الاسم ، يمر مماسا لقصر المتوكلية وغيره مما في ظاهر شمالي ســـامراء من احياء ، وعليه هناك قنطرة حجارة [٢] . ثم يمر الى الايتاخية وهي قرية وقطيعة منســوبة الى ايتاخ التركي ، وقد كان صاحب حرس الخليفة المعتصم ، وكانت أولاً تعرف بدير أبي صفرة ، وعليه هناك قنطرة كسروية . وانما ســمي الدير بهذا الاســم نسبة الى ابي صفرة وهم قــوم من الخوارج . ثــم يمر النهروان الى المحمدية وهي بلــدة صغيرة وعليه هناك جسر زواريق[٣] . والمحمدية هذه على ما قال ياقوت اسم حديث للايتاخية ، سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه محمد المنتصر وقد تولى الخلافة بعد مصرع أبيه . وعلى بعد قليل أسفل من هذه المواضع ، يلتقي بالنهروان القواطيل الثلاثة وهي : اليهودي فالمأموني فأبو الجند . وأوائلها كلها موضع واحد في جانب دجلة الايسر قرب المطيرة أسفل من سامراء ، وكانت تسقى البقاع الخصبة في جنوب المدينة . وأقيم في النهروان ، فوق مصاب هذه القواطيل فيه ، أول سد من السدود الكثيرة (الشاذروانات) ، ثم يمر الى المأمونية وهي قرية كبيرة عند مصب أول قاطول . وكان على قاطول اليهودي بين المطيرة والمأمونية قنطرة تعرف بقنطرة وصيف ، نسبة الى وصيف القائد التركي في أيام المعتصم . والقاطول الثاني وهو المأموني ، يصب في النهروان أسفل من قرية القناطر . والقاطول الثالث وهو أبو

---

(١) الدور جمع الدارة . والدارة : المحل والقبيلة وكل ارض واسعة بين جبال .

قلنا : ان دور عربايا في شمال كرخ سامراء حيث قطيعة اشناس وسوره ، بينها وبين المتوكلية ، وبالقرب منها القاطول الكسروي ، وهي غير مدينة الدور الحالية . التي يقال ان فيها ضريح الامام محمد الدوري (م) .

(٢) يريد المؤلف بها قنطرة الرصاص . ولا أثر لها الآن وان كان موضعها معروفا (م) .

(٣) يحسن بنا ان نشير الى ان لفظة « جسر » تطلق على جسر سفن أو زواريق . و « قنطرة » على ما بني بالحجارة . والشاذروان يطلق على قسم من نهر او فاع نهر قد رصفت في أرضه الحجارة وبنيت جوانبه بها لضبط الماء في النهر . وقد تطلق لفظة الجسر أيضا على القنطرة المشيدة بالحجارة كما هو الأمر في جسر الوليد المشهور وهو اسم القنطرة التي على نهر سرس بين اذنه والمصيصة Mopsuestia وقد بناها يسطنيان . وتطلق لفظة قنطرة على اي بناء ذي عقود كالأروقة التي تظلل بعض الدروب او القناطر التي يعبر فوقها - والقنطرة لفظ مأخوذ من البزنطيين وكانوا يستعملون كلمة Kentrom وفي اللاتينية Centrum وهي الطاق الأوسط من الجسر ثم صارت تطلق على البناء كله .

الجند ، وسمي أبا الجند لكثرة ما كان يسقي من الارضين وهي التي جعلت أرزاقا للجند . وكان أبو الجند أجلّ القواطيل وأعمرها شاطئا حفره هرون الرشيد وبنى له فيه قصرا يوم أقام هناك ابّان حفره . وكانت على جانبيه مدينة طفَر[1] وعليه هناك جسر زواريق .ووصف ياقوت طفر ، وقد زارها في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، انها « قاع موحش ليس به ماء ولا مرعى بين باعقوبا ودقوقا »[2] . وقد سلكه ياقوت مرة من بغداد الى اربل فلم ير فيه أثر ساكن ولا أثر طارق . وقال ان دليله كان يستقبل الجدي حتى أصبح وقد قطعه .

وعلى أربعة فراسخ أسفل من التقاء آخر هذه القواطيل الثلاثة والنهروان ، مدينة صولى (أو صلوى) وتسمى أيضا باب صلوى أو باصلوى . وأسفل منها مدينة باعقوبا ، على عشرة فراسخ شمال بغداد . وهي مدينة طسوج النهروان الاعلى . وعند باعقوبا يعرف القاطول الكبير بـ « تامرا » ويبقى بهذا الاسم حتى يصل الى باجسرا[3] ومنها الى البلدة المسماة جسر النهروان . وبالقرب من باجسرا (وهي الصيغة الارامية لبيت الجسر) ، وهي وسط طسوج عامر تحف به النخيل يحمل من يمين تامرا ، نهر يقال له نهر الخالص ويصب في دجلة عند البردان شمال بغداد . ويحمل من الخالص أنهار كثيرة تسقي بغداد الشرقية . أما جسر النهروان ، ويقطعه طريق خراسان الذاهب من بغداد ، فسيأتي الكلام عليه في سياق بحثنا هذا . ويحمل هنا من يمين النهروان نهر يقال له نهر بين يصب في دجلة عند كلواذى . ويتفرع من هذا النهر أنهار كثيرة تسقي المحلات السفلى في بغداد الشرقية . ويحمل من النهروان نهر يقال له نهر ديالى أوله اسفل الجسر بميل ، يمر بقرى وضياع ويصب في دجلة أسفل بغداد بثلاثة أميال »[4].

---

(١) لم يعثر في المراجع البلدانية على ما يشير الى ان طفر كانت مدينة ويؤخذ من وصف ياقوت لها انها اسم لأرض واسعة بين باعقوبا ودقوقا . (م) .

(٢) تعرف اليوم باسم داقوق وطاورق وهي مركز ناحية داقوق في لواء كركوك (م) .

(٣) اسمها اليوم ابو جسرا ، وهي من القرى العامرة في قضاء المقدادية (شهربان) ، وفيها محطة للقطار الذاهب من بغداد الى كركوك ، وهي فوق باعقوبا لا أسفل منها كما ذكر المؤلف (م) .

(٤) الصواب : ثلاثة فراسخ ، على ما في ابن سرابيون (ص ٢٠ من طبعة لسترنج) فالمسافة اليوم بين الباب الشرقي ببغداد ومصب ديالى في دجلة نحو عشرين كيلومترا (م) .

ومن جنوب مدينة جسر النهروان ، يعرف النهر باسم النهروان . ثم يمر الى الشاذروان الأعلى ، ثم يمر الى جسر بوران ، وانما سمي بذلك نسبة الى زوجة الخليفة المأمون . وأسفل من جسر بوران : برزاطية (لعلها برزاطية) ثم يمر الى مدينة عبرتا ، وقد ذكر ياقوت انها اسم أعجمي[1] وفيها سوق عامر ، ثم الى الشاذروان الاسفل ، ثم يمر الى اسكاف بني الجنيد ، وهي مدينة في جانبين والنهر يشقها . ويؤخذ مما ذكره ياقوت ، ان بني الجنيد كانوا رؤساء هذه الناحية وكان فيهم كرم ، وزاد على ذلك قوله « وهاتان الناحيتان الآن (المئة السابعة = الثالثة عشرة) خراب ، بخراب النهروان منذ أيام الملوك السلجوقية ، كان قد اسد نهر النهروان ، واشتغل الملوك عن اصلاحه وحفره باختلافهم ، وتطرقها عساكرهم ، فخربت الكورة بأجمعها » .

ويمر النهروان بعد اسكاف بني الجنيد ، بنحو ستين ميلا ، بين قرى متصلة وضياع مادة الى ان يصب في دجلة أسفل ماذرايا بشيء يسير . وماذرايا ، على ما قد بينّا ، في جنوب جبّل وفوق المبارك التي بازاء مدينة نهر سابس ، وكانت في زمن ياقوت خرابا ولم يبق لاسمها أثر في الخارطة الآن . على انها قد كانت أسفل كوت العمارة حيث يبتعد دجلة عن شط الحي على ما تقدم بيانه[2] .

وهذه الأقسام الثلاثة للنهروان (واعني بها القاطول وتامرا والنهروان) مع فروعه الثلاثة (الخالص ونهر بين وديالى) التي تعود مياهها الى دجلة بعد ان تسقي نواحي بغداد الشرقية ، توضح ما أورده ابن سرابيون عن الشبكة المائية المعقدة . فالأسماء التي أطلقها عليها لا توافق ما صارت اليه بعد زمنه . فان نظرة واحدة الى الخارطة الحديثة ترينا ان النهروان البالغ طوله مئتي ميل ، كانت تجتمع فيه مياه الجداول ومخارجها في الجبال الفارسية . ولولا ان النهروان قد حفر ، لطغت مياهها (في أيام الفيضان) على الجانب الايسر لدجلة . فقسم تامرا

---

(١) قلنا انه ارامي (م) .

(٢) لعل برزاطية هي رزطية أو زطرية الحالية وهي فوق عبرتا . اليعقوبي ٣٢١ ؛ ابن سرابيون ١٩ و ٢٠ ؛ البلاذري ٢٩٧ ؛ ابن رسته ٩٠ ؛ ابن خرداذبه ١٧٥ ؛ المسعودي : التنبيه ٥٣ ؛ ياقوت ١ : ٢٥٢ و ٤٥٤ ؛ ٣ : ٥٣٩ و ٦٠٤ ؛ ٤ : ١٦ و ٣٨١ و ٤٣٠ .

من النهروان كان فى مبدئه جدولا من هذه الجداول • فقد ذكر ياقوت انه « خيف ان ينزل من الأرض الصخرية الى الترابية فيحفرها ، ففرش سبعة فراسخ وسيق على ذلك الفرش سبعة أنهار كل نهر منها لكورة من كور بغداد » الشرقية • وكان الخالص وديالى ، على ما ذكر ، فرعين لتامرا (وعلى كل حال فان الخالص الذى ذكره البلدانيون العرب ليس بالنهر المعروف بالخالص اليوم ، اذ ان النهر الحالى يجرى على مقربة من شمال غربى باعقوبا) • والخالص فى أيام ياقوت اسم كورة فى شمال طريق خراسان ، وينتهى أحد أطرافها الى أسوار بغداد الشرقية • وفى المئة الثالثة (التاسعة) جعل ابن رسته وابن خرداذبه النهروان اسم نهر يأتى من الجبال ويصب فى القاطول عند صلوى • وذكر المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان النهروان كان اسما لنهر ديالى الذي يخرج من جبال كردستان ويتألف من اقتران نهرين هما شروان وبسمى فى أسفله تيمرا ونهر حلوان وهو يمر الى قصر شيرين وخانقين ويصيران فوق باعقوبا نهرا واحدا يصب فى النهروان[١] •

اما بلدة النهروان المعروفة أيضا بجسر النهروان ، فهي أول مرحلة فى طريق خراسان من بغداد • وكانت فى القديم موضعا جليل الشأن وقد حلّ محلها الآن دسكرة سفوة الصغيرة • وقد وصف ابن رسته فى المئة الثالثة (التاسعة) بلدة النهروان بأنها مدينة يشقها نهر النهروان بنصفين فى وسطها وقال : « فى الجانب الغربى أسواق ومسجد جامع ونواعير تسقي أراضيها • وفى الجانب الشرقى مسجد جامع وسوق وحول المسجد خانات ينزلها الحاج والمارة » • ونوه ابن حوقل فى المئة الآتية بكثرة غلاتها وخيراتها • وزاد المقدسى على ذلك ان الجانب الشرقى كان فى يومه أعمر وفيه المسجد الجامع ، ولما كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت بلدة النهروان خرابا لان طريق خراسان قد عدل عنها واتجه شمالا مارا بباعقوبا[٢] وظلت تلك البقعة الخصبة هناك حتى أيامه تعرف بطسوج

(١) راجع عن النهروان فليكس جونس وكتاب « رى سامراء » للدكتور احمد سوسة (م) •

(٢) قلنا : وما زال هذا الطريق مستعملا حتى اليوم وهو الماد من بغداد الى خانقين ومنها الى ايران (م) •

طريق خراسان وكانت باعقوبا[1] على ما ذكر المستوفى أولى مدنه ، وهى ذات بساتين ونخيل متصلة تؤتى أجود أنواع النارنج والأترج[2] .

وتعرف بلدة براز الروز الآن ببلدة الروز (أو بلد روز) وهى فى شمال شرقى بلدة النهروان . وذكرها ياقوت غير مرة . وكان الخليفة المعتضد قد بنى فيها قصرا[3] . وتمد من طسوج تامرا . وهى من شرقى طريق خراسان ، وقد أشار اليها المستوفى أيضا . والمرحلة التى تلى مدينة النهروان فى طريق خراسان دسكرة الملك وقد وصفها ابن رسته بقوله « هى مدينة كبيرة وبها قصر من بناء الأكاسرة حوله سور مشرف وليس داخله شيء من البناء له باب واحد مما يلى المغرب » . ويتبين من موضع هذه الدسكرة انه يطابق موضع دستجرد المشهورة حيث ابتنى خسرو برويز قصرا عظيما جاء فى التاريخ ان هرقل نهبه وأحرقه عن آخره فى سنة ٦٢٨ للميلاد . وهذا القصر ، وبقيت خرائبه على ما يظهر الى المئة الرابعة (العاشرة) ، يعرف بدستجرد كسروية ، قد رآه الرحالة ابن مهلهل (وقد نقل عنه ياقوت) فقال « فيها أبنية عجيبة من جواسق وايوانات ، كلها من الصخر المهندم ، لا يشك الناظر اليها انها من صخرة واحدة منقورة »[4] اما الدسكرة ،

---

(١) باعقوبا ، مدينة عامرة على نهر خريسان هى اليوم مركز لواء ديالى . تبعد عن شمال شرقى بغداد نحو ٦٠ كيلومترا . وتتصل بها بالقطارات والسيارات . ولعل اسمها الحالى من الارامية « باعاقوبا » (بيت عاقوبا) ومعناه موضع الفاحص أو المفتش او المنقب لانها على طريق القوافل الذاهبة شرقا الى ايران ولانها تتوسط انهارا للرى تتفرع من ديالى . وقد جرى الناس على كتابة اسمها اليوم بصورة « بعقوبة » و « بعقوبا » . وعلى الصورة الأخيرة مستعملة فى المئة السابعة للهجرة فقد وردت بها فى الحوادث الجامعة (ص ٢٢٨) ومعجم البلدان (مادة بعقوبا) (م) .

(٢) ابن رسته ٩٠ و ١٦٣ ؛ ابن خرداذبه ١٧٥ ؛ الاصطخرى ٨٦ ؛ ابن حوقل ١٦٧ ؛ المقدسى ١٢١ ؛ ياقوت ١ : ٨١٢ ؛ ٢ : ٣٩٠ و ٦٢٨ ؛ المستوفى ١٣٩ و ١٤٦ و ٢١٦ .

(٣) قال ياقوت (معجم البلدان مادة « براز الروز ») : كان للمعتضد به (أى بطسوج براز الروز) ابنية جليلة .

وبلد روز اليوم بلدة على نهر روز من الفروع اليسرى لنهر ديالى ، وهى مركز ناحية باسمها تابعة الى قضاء مندلى ، قيل اسمها مركب من « براز الروز » واصله الفارسى براز — روز (روز = نهر براز = خنزير) فيكون معناه النهر الخنزير . وقيل فى تفسير معناها أيضا انه « ضياء النهار » او « بهاء النهار » (راجع : القصد والاستطراد فى أصول معنى بغداد لتوفيق وهبى ص ٣٠ — ٣١ ؛ ولغة العرب ١ : ٣٧) (م) .

(٤) ظهر لنا من مراجعة ياقوت (٢ : ٥٧٣ مادة دستجرد) ان ابن المهلهل قال « تسير من قنطرة النعمان قرب نهاوند الى قرية تعرف بدستجرد كسروية فيها أبنية عجيبة من جواسق ..... الخ » على ما هو منقول فى متن الكتاب أعلاه . فهذا الوصف يعود الى دستجرد فى بلاد فارس وهى غير دستجرد التى كانت دسكرة الملك فى العراق . (م) .

البلدة العربية ، فان ابن حوقل ذكر فى المئة الرابعة (العاشرة) ان فى الدسكرة حصنا قويا بناه المسلمون[1] . وقال المقدسى فى هذه المدينة انها « مدينة صغيرة سوقها واحد طويل ، الجامع أسفله ، غام بآزاج » . وعلى مقربة من الدسكرة ، قرية شهربان ، ذكرها ياقوت والمستوفى وأشار الأخير الى ان من أعمال هذه البلدة ثمانين ضيعة انشأتها الأميرة گلبان من بنات الاكاسرة .

وكانت المرحلة التالية فى طريق خراسان ، مدينة جلولاء ، تحفّ بها الاشجار ولا سور لها . وعلى مقربة من هذه المدينة قنطرة من بناء الاكاسرة من حجر مرصصة ، وهناك قرية يقال لها الهارونية . وعلى ما فى ياقوت ، انها كانت فوق النهر الذى تسير فيه السفن من باعقوبا الى باجسرا . وبها كانت الوقعة المشهورة على الفرس للمسلمين سنة ١٦ (٦٣٧) فاستباحهم المسلمون وفرّ الملك يزدجرد . وسمى المستوفى هذا الموضع رباط جلولاء ، لان فيه رباطا بناه ملكشاه السلجوقى . وموضع جلولاء فى وقتنا هذا هو مرحلة قزلرباط[2] (أى الرباط الاحمر) الحديثة . وكان فى شرق جلولاء ، مدينة خانقين وقد أشار المقدسى الى انها مدينة « على جادة حلوان » . وذكرها ابن رسته فقال : « بها واد عظيم قد بنيت عليه قنطرة عظيمة بجص وآجر وطيقان » . وبالقرب من خانقين عين للنفط[3] عظيمة كثيرة الدخل . وقال ياقوت : « بها قنطرة عظيمة على واد تكون ٢٤ طاقا » فى أيامه أى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) عليها جادة خراسان . ولما كتب المستوفى فى القرن التالى ، ذكر ان خانقين قد آلت الى الخراب فلا تعدو قرية كبيرة الا ان ناحيتها لبثت وافرة الغلات[4] .

---

(١) ما فى ابن حوقل (١ : ٢٤٦ من الطبعة الثانية = ١٦٨ من الطبعة الاولى) « وبالدسكرة نخيل وزروع كثيرة وبخارجها حصن من طين داخله فارغ » (م) .

(٢) غيرت الحكومة العراقية اسم بلدة قزلرباط وجعلته « السعدية » نسبة الى القائد العربى المشهور « سعد بن ابى وقاص » . وهى اليوم مركز ناحية السعدية فى قضاء خانقين – لواء ديالى (م) .

(٣) وتسمى اليوم « نفطخانة » وبها آبار للنفط تستنبطه شركة نفط خانقين ويباع فى أسواق العراق . (م) .

(٤) اما خانقين اليوم فانها بلدة عامرة ، وهى مركز قضاء خانقين فى لواء ديالى . وبها تنتهى سكة الحديد الممتدة من بغداد ، ومنها يمر الطريق من بغداد الى ايران مارا بقصر شيرين الى كرمانشاه . (م) .

وعلى ستة فراسخ مما يلي خانقين ، في وسط الطريق الى حلوان ، وهي أول بلدة في اقليم الجبال ، تقوم قصر شيرين . وكانت شيرين معشوقة الملك كسرى ابرويز . وهناك قرية كبيرة ذات أسوار واطلال قصر ساساني ، وصفه ابن رسته في المئة الثالثة (التاسعة) بقوله : « فيه ايوان عظيم كبير مبني بالجص والآجر ، وحول الايوان حُجَر ينفذ بعضها الى بعض ومنها أبواب تؤدي الى الايوان والدكان بالبلاط والمرمر » . ولياقوت والمستوفي وصف طويل لقصر شيرين التي ما زالت أطلالها باقية . ومما ينّوه به ان حكاية فرهاد ، عشيق الملكة شيرين وبلهبذ المغني والعوّاد وشبديز فرس الملك ابرويز المشهور ، قد صارت من الحكايات المحلية في كثير من البقاع في تلك الارجاء[1] وتطلّ على قصر شيرين الجبال العظيمة التي عند بداية هضبة فارس . وحلوان ، المرحلة التالية في في طريق خراسان ، وهي وان كانت تعد من أعمال العراق في الغالب ، الا انها لوقوعها في المضيق الجبلي ، سنأتي على وصفها في فصل آخر .

وفي جنوب طريق خراسان عند حدود خوزستان ، مدينتان مهمتان تحسن الاشارة اليهما ، هما : البندنيجين وبيات . والبندنيجين اسم لم يبق له ذكر في الخارطة ، الا ان هذه المدينة كانت أهم مدن طسوجي بادرايا وباكسايا ، وما زالت قرية باكسايا قائمة ولابد ان يكون موضع البندنيجين على مقربة منها[2] . وهذان الطسوجان مما يلي شمال شرقي النهروان ، فيهما عدد كبير من القرى الخصبة . وكانت البندنيجين مركز هذين الطسوجين ، عرفت بالفارسية على ما رواه ياقوت وندنيكان . وذكر المستوفي ان الاسم في أيامه كان يلفظ بندنيكان وانها في ناحية لحف جبال كردستان ، وينحدر نهرها من أرّجان . والبندنيجين ، على ما ذكر ابن

---

(١) ابن رسته ١٦٤ ' الاصطخري ٨٧ ؛ ابن حوقل ١٦٨ ؛ المقدسي ١٢١ ؛ القزويني ٢ ٢٩٥ ؛ ياقوت ١ ٥٣٤ ؛ ٢ : ١٠٧ و ٣٩٣ و ٥٧٣ و ٥٧٥ و ٨١٣ ؛ ٤ ٠ ١١٢ ؛ المستوفي ١٣٧ و ١٣٨ و ١٣٦ و ١٩٣ .

(٢) قلنا : ان البندنيجين تعرف اليوم باسم « مندلي » . ومندلي على نحو ٩٣ كيلو مترا من شرقي باعقوبا ، قرب الحدود العراقية الايرانية . وهي اليوم مركز قضاء باسمها في لواء ديالى بالعراق . واسم هذه المدينة بالآشورية « اردليكا » او « اردريكا » . وفي الفارسية القديمة « وردنيكا » وذكرها هيرودتس باسم « اوردريكا » وقال ان فيها عيون نفط . والظاهر ان الاسم « مندلي » تطور من وردنيكا او اردنيكا او اوردريكا الى وندنيكان وبندنيكان فالى بندنيج والبندنيجين فمندليجين فمندليج فمندلي وهو الاسم الشائع اليوم « راجع سومر : ٨ (١٩٥٢) ص ٢٧٧ — ٢٧٨ » (م) .

خرداذبه ، كانت هي وبراز الروز في كورة واحدة . اما بيات ، وما زالت خرائبها ظاهرة ، فقد ذكرها المستوفي بقوله : ان مخرج نهرها جبال كردستان ويفنى في المفاوز فلا يصل دجلة ومع ان ماءه كان على شيء من الملوحة ، فان كثيرا من النواحي كانت تسقى منه . والظاهر ، ان بيات كانت حيث بلدة الطيب التي ذكرها ابن حوقل بقوله : « يتخذ بالطيب تكك تشبه الارمني »[1]. وكانت الطيب بلدة قليلة الشأن في أيام العباسيين . وتجاور خرائبها بقايا بلدة بيات الحادثة بعدها . وروى ياقوت ان أهل الطيب « نبط ولغتهم نبطية »[2] ، ويرجعون نسبهم الى شيث بن آدم[3] .

ولنصف الآن مدن العراق التي على الفرات وعلى الانهار الحاملة من الفرات الى دجلة . فقد بينّا قبلا ، ان الخط الذي يبدأ من دجلة عند تكريت ويتجه غربا الى الفرات ثم يعبره أسفل من عانة بشيء يسير عند انعطاف النهر جنوبا ، هو الحد الطبيعي بين اقليمي الجزيرة والعراق ، على ما قال المستوفي . ومن جنوب هذا الخط يبدأ السواد ، وهو أرض بلاد بابل الرسوبية . وفي شماله السهول الحجرية فيما بين النهرين الأعلى . وتعد « حديثة » الفرات وهي على خمسة وثلاثين ميلا أسفل من عانة ، أقصى مدينة في شمال هذا القسم . وعرفت بحديثة النورة تمييزا لها عن حديثة دجلة . وذكر ياقوت ان فيها قلعة حصينة في وسط الفرات ، والماء يحيط بها ، أنشئت في أيام عمر بعد الفتح العربي بوقت يسير . ووصفها المستوفي بانها مقابل تكريت موضعا وهواء . وبين الحديثة وهيت ، للمنحدر ، بلدتا آلوسة وناووسة وهما على الفرات بين الواحدة والأخرى ستة فراسخ . وآلوسة ، على ما ذكر ياقوت ، بلدة صغيرة وما زالت قائمة الى اليوم

---

(١) اشتهرت مدن ارمينية بعمل الملابس ونحوها من خالص الحرير تسمى « الارمني » وهي لينة جدا لا نظير لها في باقي البلدان بالحسن والجودة . نوه بالارمني كثير من الكتبة الاقدمين . انظر الاصطخري ٩٤ و ١٥٣ و ١٨٨ ؛ ابن حوقل ٧٩ و ١٧٦ و ٢١٤ و ٢٤٤ و ٢٤٦ ؛ معجم البلدان ١ : ٢٧٢ ؛ الأغاني ٥ : ١٧٣ برلاق ؛ والتبصر بالتجارة للجاحظ ٢١ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ ؛ ثمار القلوب للثعالبي ٤٢٨ ؛ ولطائف المعارف للثعالبي ١٢٨ (م) .

(٢) النبطية هي اللغة الارامية التي كان يتكلم بها في العراق حتى ايام الفتوح (م) .

(٣) ابن خرداذبه ٦ ؛ الاصطخري ٩٤ ؛ ابن حوقل ١٧٦ ؛ ياقوت ١ : ٢٣٠ و ٤٥٩ و ٤٧٧ و ٧٤٥ ؛ ٣ : ٥٦٦ ؛ ٤ : ٣٥٣ ؛ المستوفي ١٣٧ و ١٣٨ و ٢٢٠ . وبادرايا طسوج في البندنيجين فلا يختلطن امرها ببادوريا الطسوج الجنوبي في بغداد الغربية .

ويقترن ذكر هاتين البلدتين في أخبار الفتح الاسلامي • وكانت الناووسة تحسب من قرى هيت • وكانت هيت مدينة عليها سور ولها قلعة حصينة وفيها نخيل كثير وهي على جانب الفرات الغربي • وذكر ابن حوقل ان هيت مدينة عامرة • وقال المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان من أعمالها نيفا وثلاثين قرية ، منها قرية جبة (جبّى) وكانت تكثر فيها فاكهة البلاد الباردة والحارة كالجوز واللوز والتمر والنارنج ، غير ان المدينة نفسها لم تكن طيبة السكنى لما يخالط هواءها من روائح كريهة تنبعث من عيون القير المجاورة لها[١] •

وفي أيام الفتح الاسلامي ، كان خندق سابور (وهو الملك سابور الثاني) موجودا • وقد حفر هذا الخندق في المئة الرابعة للميلاد ، سابور ذو الاكتاف على ما أسماه العرب • يبدأ هذا الخندق من هت ويمتد جنوبا الى الأُبلّة (قرب البصرة الحديثة) حتى ينفذ الى البحر • وكان الماء يجري فيه أول أمره « وجعل عليه المناظر والمسالح ليكون مانعا لمن أراد السواد من أهل البادية » • وما زالت ترى بعض أقسامه الجافة • وعين التمر ، وهي في جنوب هيت في البادية ، قال فيها المقدسي انها بلدة حصينة ، ويخرج من عين التمر نهر يمرّ بارضها ويصب في الفرات أسفل من مدينة هيت • ومنها يحمل القسب والتمر الى سائر البلاد ومن موضع يقال له شفاثا بقربها • على ان موضع هذين

---

(١) بلدة « هيت » اليوم مركز ناحية باسمها في لواء الدليم • تكثر بقربها عيون القار وعيون معدنية شافية لبعض الامراض • وهي مدينة قديمة ، جاء اسمها في السومرية بصورة دلدل Dul-Dul-i اما اسمها « هيت » فمن البابلية • فالبابليون يسمون القار في لغتهم « ادو » • وكانوا يسمون هذه البلدة باسم « اد » (ID) و « ات » (IT) ومعناها (مدينة) القار • واشار هيرودتس في تاريخه الى بلدة « ار (IS) على مسيرة ثمانية أيام من بابل • وكان يمر من هذه البلدة نهر صغير يقال له « ار » أيضا كان يلتقي بالفرات وكانت مياهه تحمل قيرا مثل القير الذي أتخذ في تحصينات بابل • وذكر ايزيدور الكرخي(Isidore of Charax)منزلا في كلامه على « المنازل الفرثية » باسم « ازبوليس » (Ispolis) وجاء في جغرافية بطليموس بلدة « ادقارا » (Idikara) على يمين الفرات ، وهو اسم مركب من « اد » البابلية و « قارا » اللفظة النبطية العربية للقار •

وذكر اميانس مرشليس ان الجيش الروماني دخل في سنة ٣٦٣ م مدينة « دي اقيرا (Diacira) وكذلك ذكرها زوسيمس بهذه المناسبة باسم « داكيرا » (Dakira) وهي « دقيرا » بالسريانية و « ذو قير » بالعربية • وفي نصوص التلمود ـ وهو مكتوب بالارامية ذكر مدينة « اهي » أو « اهد قيرا » (Ihidacira) وفي النبطية عرفت هيت باسم « هيد » أو « هد » • وحرف « الهاء » يشير الى اداة التعريف في هذه اللغة • وهي كذلك في اللغة العبرية • وعليه ، فاسم هذه المدينة قد تطور من « اد » أو « ات » البابلية بمعنى القار الى « اهد قيرا » العبرية أو « هد » و « هيد » النبطية ثم صار « هيت » وهو الاسم الحالي لهذه البلدة ، وبه عرفها الكتبة العرب الأقدمون • (راجع سومر ٨ [١٩٥٢] ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠) (م) •

غير معروف[١] .

وكان على اثنى عشر فرسخا اسفل من هيت ، قرية الربّ حيث كان يحمل نهر دجيل القديم من يسار الفرات قبل المئة الرابعة (العاشرة) ويشـرّق فيسقى طسوجى مسكن وقطربل ثم يصل الى الارباض الشمالية لبغداد الغربية . وقد انطمر هذا القسم الغربى من دجيل على ما قد بينا . وحين كتب الاصطخرى فى سنة ٣٤٠ (٩٥١) كان دجيل يأخذ ماءه من دجلة بازاء القادسية ، وقد أوضحنا ذلك فى كلامنا على طسوج مسكن . أما الأنبار ، وهى على يسار الفرات ، فقد كانت من مدن العراق العظيمة أيام العباسيين . ويرتقى زمنها الى ما قبل الفتح الاسلامى . وقد سماها الفرس فيروز سابور (وباليونانية بيرسابور Perisabor) وكان أول من عمرها شابور[٢] وصار اسم فيروز سابور يطلق فى أيام العرب على الطسوج الذى يكتنفها . ويقال ان هذه المدينة انما سميت بالانبار « لانه كان يجمع بها أنابير الحنطة والشـعير والقتّ والتبن ، وكانت الاكاسرة ترزق أصحابها منها ثم جددها أبو العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس وبنى بها قصورا وأقام بها الى ان مات » . وأقام بها أيضا أخوه المنصور حيناً من الزمن ثم انتقل منها[٣] الى بغداد عاصمة بنى العباس الجديدة التى أخذ المنصور ببنائها . وحكى المستوفى ، ان اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر من بيت المقدس الى بابل كانوا قد حبسوا فى الانبار . وقال ان دور أسوارها كان فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) خمسة آلاف خطوة[٤] .

ومنزلة الانبار فى انها عند مخرج أول نهر كبير صالح لسير السفن يحمل

---

(١) ابن سرابيون ١٠ و١٣ ؛ ابن رسته ١٠٧ قدامة ٢١٧؛ البلاذرى ١٧٩؛ الاصطخرى ٧٧ ؛ ابن حوقل ١٥٥ ؛ المقدسى ١١٧ و ١٢٣ و ١٣٥ ؛ ياقوت ١ . ٣٥٢ ؛ ٢ : ٢٢٣ ؛ ٣ : ٧٥٩ ؛ ٤ : ٧٣٤ و٩٩٧ ؛ المستوفى ١٣٥ و ١٤١ .

(٢) اطلق العرب اسم سابور على الاسم الفارسى « شابور » او « شاهبور » . وكتبه اليونان سابور Sapor .

قلنا . وهو الملك الساسانى المعروف بسابور ذى الاكتاف .

(٣) الذى ذكرته التواريخ انه انتقل الى بغداد من هاشمية الكوفة . (م) .

(٤) تقوم اطلال الانبار على يسار الفرات فوق الفلوجة بخمسة كيلومترات ، بينها وبين ضفة الفرات اليوم مزار يعرف بالفياض . ولفظة الانبار جمع نبر مشتق من اللغة الايرانية (فى الفارسية القديمة هم ـ بارا . وفى الفارسية الحديثة : انبر) . وكان فى موضع مدينة الانبار مدينة قديمة لعلها هى مدينة « مسكينة » (بفتح الميم والسين) (سومر ٨ . [١٩٥٢] ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣) (م) .

من الفرات الى دجلة ويصب في الفرضة جنوبي المدينة المدوّرة في الجانب الغربي • وهذا النهر هو نهر عيسى ، وانما عرف بذلك نسبة الى عيسى الامير العباسي ، وهو اما ان يكون عيسى بن موسى ابن عم المنصور ، أو عيسى بن علي عم الخليفة (واليه ينسب النهر في الاغلب) • ومهما يكن الامر ، فان الامير عيسى اطلق اسمه على النهر اذ جدد حفره وجعله صالحا لسير السفن من الفرات حتى بغداد • وكان على هذا النهر بعد خروجه من الفرات أسفل الانبار بشيء قليل ، قنطرة مهولة يقال لها قنطرة دِممّا نسبة الى قرية دممّا[1] وكانت على ضفة الفرات عند الفلوجة • ثم يمر فيسقي قرى طسوج فيروز سابور وضياعه حتى ينتهي الى المحوّل على فرسخ واحد من أرباض الجانب الغربي من بغداد • فاذا صار الى المحول تفرع من يساره نهر الصراة وهو النهر الذي يؤلف الحد الفاصل بين طسوج قطربل في شمال بغداد الغربية وطسوج بادوريا في جنوبها • ونهر الصراة الذي كان يجري غالبا بموازاة نهر عيسى يصب في دجلة أسفل من باب البصرة أحد أبواب المدينة المدورة • وكانت تتفرع من هذين النهرين جميع أنهار بغداد الغربية الا ما تفرع من نهر دجيل وهو قليل •

أما المحوّل ، فقد سميت بذلك لان عندها يحوّل ما يكون في السفن الآتية من مدن الفرات الى بغداد الى سفن اصغر منها تعبر من تحت القناطر العديدة التي تعلو نهر عيسى فيما يلي المحوّل الى ربض الكرخ • وكانت المحول بليدة حسنة طيبة نزهة كثيرة البساتين والفواكه والاسواق والمياه ، وكان فيها حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قليل من البنايات الفخمة • ذكر المستوفي منها قصرا بناه الخليفة المعتصم فوق تل لا يقربه البعوض بفعل رقية • ولا يعرف الآن موضع المحول الصحيح ، بيد انه يجب ان يكون في شمال شرقي التل البابلي القديم المعروف بعقرقوف الذي ذكره البلدانيون العرب كثيرا[2] • وقد ربط المستوفي بين هذا

---

(١) قال هلال الصابيء (تحفة الامراء في تاريخ الوزراء ص ٢٥٧) : « وكان على نهر عيسى عند خروجه من الفرات قنطرة تسمى قنطرة دمما ، لها خمسة أبواب واحد كبير واربعة صغار » • وفي اواخر القرن الثالث للهجرة جعل عرض الباب الاكبر اثنين وعشرين ذراعا وعرض الابواب الصغيرة ثمانية اذرع وذلك بعد الاستيثاق من ان اكبر السفن تستطيع ان تمر منها (أنظر متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ٢ : ٣٤٥ ـ ٣٤٦ من الترجمة العربية) • وقد اختلف الاقدمون في ضبط اسم دمما • (م) •

(٢) تقع اطلال عقرقوف على نحو ٣٠ كيلو مترا من غربي بغداد ، فوق مزرعة ابي غريب

التل وأسطورة نمرود الجبار الذى ألقى بابراهيم فى نار تنّور حامية[١] •

وعلى ثلاثة فراسخ أسفل من قرية دمما يحمل من الفرات ، النهر الثانى الكبير الى دجلة ، وهو نهر صرصر ومصبه فوق المدائن بأربعة فراسخ • وكانت اسافل هذا النهر تسقى طسوج بادوريا فى جنوب بغداد الغربية • وذكر ابن سرابيون انه يُسقى منه بالدوالى والشواديف • وفوق مصب هذا النهر فى دجلة بشىء يسير عند زريران وحيث يمكن رؤية قصر الاكاسرة الابيض فى المدائن ، كانت مدينة صرصر العامرة وعليه فيها جسر من مراكب يعبر عليه طريق الكوفة • ومدينه صرصر على فرسخين من الكرخ ، الربض الجنوبى الكبير فى جانب بغداد الغربى • وكان نهر صرصر على ما ذكر ابن حوقل تجرى فيه السفن • ومدينة صرصر عامرة بالنخيل والزروع • وشبّهها المقدسى ببعض قرى فلسطين فى طراز بنائها • وظلت صرصر مدينة ذات شأن حتى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حينما استولى تيمور على بغداد وعسكر فى الارباض المجاورة لها •

اما النهر الثالث الذى يحمل من الفرات الى دجلة فكان نهر الملك • وأوله عند قرية الفلوجة[٢] أسفل من فوهة نهر صرصر بخمسة فراسخ ، ومصبه فى

الحكومية • وقد عرف هذا الموضع باسم « عقرقوف » منذ ازمان بعيدة • وذكره البلدانيون العرب به • وزاره كثير من السياح منذ منتصف القرن السادس عشر للميلاد • وظن بعضهم خطأ ان برجه ، اى زقورته ، هو برج بابل المذكور فى التوراة • الا انه فى منتصف القرن التاسع عشر ثبت انه موضع المدينة الكشية المعروفة بدور كوريكلزو • وقد اجرت مديرية الآثار العامة تحريات محدودة فيه سنة ١٩٤٢ ، ثم نقبت فيه ثلاث سنوات (١٩٤٣—١٩٤٥) • فاظهرت هذه التنقيبات معلومات ثمينة عن اسس الزقورة وهيئة قاعدتها وكشفت عن معابد المدينة وقصورها فى مكان يبعد نحو كيلو متر عن شمال البرج • فى تل يعرف بالتل الابيض •

وقد تبين من هذه الكشوف ، ان مدينة « دور كوريكلزو » قد اسسها الملك الكشى كوريكلزو الاول فى بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد واتخذها عاصمة له بعد انتقاله من مدينة بابل وظلت كذلك حتى سقوط الدولة الكشية فى سنة ١١٧٠ ق • م •

راجع سومر (١ : [١٩٤٥] ص ٣٦ — ٧٥) — (م) •

(١) ابن سرابيون ١٠ و ١٤ ؛ ابن خرداذبه ٧ و ٧٢ و ٧٤ • قدامة ٢١٧ ؛ الاصطخرى ٧٧ ؛ ابن حوقل ١٥٥ و ١٦٦ • المقدسى ١٢٣ و ١٣٤ ؛ ياقوت ١ : ٣٦٧ • ٢ : ٦٠٠ ؛ ٣ : ٦٦٧ • ٤ : ٤٣٢ ؛ المستوفى ١٣٦ و ١٣٨ و ١٤٠ و ١٤١ •

واسافل نهر عيسى ونهر الصراة تعد من ضمن خطط بغداد ، وقد اشبعناها وصفا فى مصنف لنا نشرناه سابقا ويبدو ان موضع الانبار هو الخرائب التى عند صفيرة (بالتصغير) ولعله الخرائب التى فى شمال هذه القرية وهى التى وضع المستر بيترز J. P. Peters مخططا لها فى كتابه « نفر » (Nippur 1, 177).

(٢) الفلوجة هى فلوجية Feluchia (Felugia Feluge) التى ذكرها سيزار فردريك وغيره من تجار عصر الملكة اليزابيث الذين ، بانحدارهم فى الفرات ، ابقوا سفنهم فيها وسافروا برا الى

دجلة أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ • وكان نهر الملك معروفا منذ الازمنة القديمة فقد ذكره اليونان باسم نهر ملخا(Malcha) • وعلى ما فى ياقوت « قبل ان أول من حفره سليمان بن داود (عم) ، وقيل انه حفره الاسكندر الكبير • وكانت على ضفافه مدينة يقال لها نهر الملك ، عليه فيها جسر من سفن يعبر عليه طريق الكوفة » وهى على سبعة أميال جنوبا من صرصر • ومدينة نهر الملك ، كانت على ما ذكر ابن حوقل « أكبر من صرصر ، عامرة بأهلها وهى أكثر نخلاً وزرعاً وثمراً وشجراً منها » • وزاد المستوفى على ذلك ان قد كان فى كورتها نيف وثلاثمئة قرية[1] •

والنهر الرابع الذى كان يحمل من الفرات الى دجلة هو نهر كوثى • أوله أسفل من نهر الملك بثلاثة فراسخ • ويصب فى دجلة أسفل المدائن بعشرة فراسخ • وكان هذا النهر يسقى طسوج كوثى من كورة اردشير بابكان (نسبة الى الملك الساسانى الاول) ويسقى فرع آخر منه طسوج نهر جوبر • وكانت مدينة كوثى ربّا ، وفيها جسر من سفن ، على هذا النهر ، ويقال انها تطابق كوثى الوارد ذكرها فى التوراة فى سفر الملك الثانى (١٧ : ٢٤) وكانت مدينة ذات شأن فى ناحية بابل • وكوثى ، على ما جاء فى الروايات الاسلامية ، « يزعمون انها نار النمرود بن كنعان التى طرح فيها ابراهيم واسمها من كوثى جد ابراهيم الخليل » • وقال ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) : « كوثى بلدان وناحيتان تعرف احداهما بكوثى الطريق والاخرى بكوثى ربّا • ويزعم قوم ان كوثى ربّا مدينة كانت أكبر من بابل • وبها تلال رماد عظيمة قالوا هى رماد نار نمرود » • وزاد المقدسى على ذلك « بقرب كوثى الطريق شبه منارة « قديمة » لهم فيها كلام » • وروت كتب الرحلات ان مدينة كوثى وموضعها على ما تشير اليه الخوارط هو تل

بغداد على ما جاء فى مجموعة هكلويت

Hakluyt, Principal Navigations (Glasgow, 1904) V. 367, 455, 466; VI 4.

قلنا : والفلوجة اليوم على يمين الفرات قرب خرائب الانبار • وهى مركز قضاء الفلوجة فى لواء الدليم ، وهى من المواضع المعمورة قديما • فقد جاء هذا الاسم فى اللغة الاكدية بصورة « بلوكاتو » Pallukatu وعرفها الاراميون باسم « بلوكثا » Pallugtha واسمها يعنى الانشطار والانفلاج اذ انها فى موضع تنفلج فيه ضفة الفرات (م) •

(١) وجاء فى ياقوت (٤ : ٨٤٦) وقد سبق المستوفى بنحو مئتى سنة « نهر الملك كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى يقال انه يشتمل على ثلاثمئة وستين قرية على عدد ايام السنة » (م) •

ابراهيم على ما يظهر ، وكانت على أربعة أميال جنوب مدينة نهر الملك[١] .

وعلى بضعة أميال من شمال كوثى ، قرية فراشا الكبيرة وهى مرحلة تتوسط بين بغداد والحلة فى طريق الحاج الذاهب الى الكوفة على ما كان عليه فى نهاية المئة السادسة (الثانية عشرة) . وصفها ابن جبير وكان فيها سنة ٥٨٠ (١١٨٤) فقال « قرية كثيرة العمارة يشقها الماء ... وفيها خان كبير يحدق به جدار عال له شرفات صغار » . وذكر المستوفى فراشا أيضا فى وصفه للمسالك فقال انها على سبعة فراسخ جنوب صرصر[٢] .

---

(١) ترى اطلال مدينة كوثى ، فى نحو منتصف الطريق بين المحاويل والصويرة ، وهى على ٢٦ كيلومترا من الاولى . وتعرف اليوم بتل ابراهيم وتل حبل ابراهيم ، لوجود مرقد عليه قبة فى أعلى التل ينسب الى ابراهيم . وهو اليوم فى أرض لا ماء فيها . وهذه الاطلال واسعة عالية وتبين من فحص مديرية الآثار العراقية لها ، انها من الازمنة الفرثية والاسلامية (م) .

(٢) ابن سرابيون ١٥ ؛ ابن رسته ١٨٢ ؛ الاصطخرى ٨٥ و ٨٦ ؛ ابن حوقل ١٦٦ و ١٦٨ ؛ المقدسى ١٢١ ؛ ابن جبير ٢١٧ ؛ ياقوت ١ : ٧٦٨ ، ٤ ٣١٧ و ٨٤٦ ، المراصد ٢ : ٣٦٣ ؛ على اليزدى ١ : ٦٣٣ ؛ المستوفى ١٤١ و ١٩٣ .

مجرى نهر عيسى هو مجرى الصقلاوية الحالى مع شىء من التفاوت . اما نهر صرصر فكان يماشى نهر (ابو غريب) ، ونهر الملك هو الرضوانية ، ونهر كوثى هو حبل ابراهيم الذى فى الخوارط الحديثة . وهذه التحقيقات تقريبية على كل حال اذ ان سطح ارض السواد قد تغير طبعا فى خلال الف سنة ونيف مضت عما كانت عليه فى العصر العباسى .

قلنا : ويحسن بالمتتبع لموضوع هذه الانهار وتاريخها ان يرجع الى تحقيقات موسيل فى كتابه « الفرات الاوسط » الصفحة ٢٥٨ — ٢٨٣ .

Musil (Alois), The Middle Euphrates (pp. 258-283; New York 1927).

الفصل الخامس

العراق «تتمة»

انشطار الفرات ـ نهر سورا ـ قصر ابن هبيرة ـ النيل ونهر النيل ـ نهر
النرس ـ نهر البداة وبمباديثا ـ نهر الكوفة ـ مدينة الكوفة ـ
القادسية ـ مشهد علي وكربلاء ـ استانات العراق
الاثنا عشر ـ التجارة والصناعة ـ طرق العراق

كان نهر الفرات في المئة الرابعة (العاشرة) « اذا جاوز نهر كوثى بستة فراسخ ،انقسم الى قسمين » : الغربي ، وهو النهر الايمن ، عمود الفرات . وكان يماس مدينة الكوفة وينتهي الى البطائح . والشرقي ، وهو النهر الايسر ، عمود الفرات الحالي . سماه ابن سرابيون وغيره من البلدانيين العرب نهر سورا أو سوران . ثم كان ينشعب الى انهار تصب في البطائح . وذكر ابن سرابيون ان نهر سورا (وهو الفرات الحالي) ، كان في ايامه نهرا عظيما أعظم من نهر الكوفة وأعرض منه . وكان نهر سورا الاعلى ، حيث ينقسم الفرات ، يسقي طسوج سورا وبربيسما وباروسما ، وكانت هذه الطساسيج قسما من استان بهقباذ الاوسط . ثم يمر بغرب مدينة يقال لها قصر ابن هبيرة وبينهما ميلان . وعندها ، على النهر ، جسر سورا وعليه يمر طريق الحج من قصر ابن هبيرة الى الكوفة .

ومدينة القصر ، وسميت بذلك اختصارا ، هي قصر ابن هبيرة ينسب الى مؤسسه ابن هبيرة[1] عامل العراق من قبل مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية .

(١) هو يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري الغطفاني (م) .

ولم يعش ابن هبيرة ليستتمه • وبعد زوال بني أمية ، نزله السفاح أول خلفاء بني العباس « واستتم تسقيف مقاصير فيه ، وزاد في بنائه وسماه الهاشمية » ، تخليدا لاسم جده هاشم • وظل الناس يسمون المدينة التي نشأت حول قصر الخليفة باسم العامل الاموي ، وبقي الامر كذلك حتى نزول المنصور في الهاشمية قبل بنائه بغداد ، فكانوا يسمونها قصر ابن هبيرة أو مدينة ابن هبيرة على العادة الاولى • وكان قصر ابن هبيرة في المئة الرابعة (العاشرة) أكبر مدينة بين بغداد والكوفة ، وهو على نهر يخرج من نهر سورا يقال له نهر ابي رحى ، أوله من فوق القصر ويصب الى سورا أسفل من القصر • وكانت المدينة ، على ما ذكر المقدسي ، « كبيرة جيدة الاسواق كثيرة اليهود ، والجامع في السوق » • على انه في مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) انحطت وقلّ شأنها على ما يظهر بارتفاع شأن الحلة حتى ان موضعها اليوم أصبح غير معروف وان اشارت اليها الخوارط باحدى الاخربة الكثيرة التي على بضعة أميال شمال الاطلال الواسعة لبابل القديمة •

اما مدينة الحلة ، وهي على بضعة أميال من اطلال بابل على الفرات أي نهر سورا على ما كان يسمى به في المئة الرابعة (العاشرة) ، فقد عرفت في هذا الزمن بالجامعين • وكان معظمها في أول أمرها في الجانب الشرقي ، وكانت موضعا عامرا كثير الخصب • ثم بنى سيف الدولة رئيس بني مزيد في نحو سنة ٤٩٥ (١١٠٢) الحلة بازائها ، أي في الجانب الايمن • وسرعان ما علا شأنها لوجود جسر عظيم فيها معقود على مراكب متصلة • وصار طريق الحج من بغداد الى الكوفة يعبر الفرات عليه لما بطل الطريق المار بقصر ابن هبيرة (وكان قد آل حينذاك الى الخراب) الذي كان يعبر جسر سورا • وما ان حلت المئة السادسة (الثانية عشرة) حتى صار نهر سورا عمودا للفرات شأنه اليوم وبطل مع الزمن استعمال اسم نهر سورا • وفي سنة ٥٨٠ (١١٨٤) عبر ابن جبير جسرا في الحلة على الفرات ، وكان هذا الجسر « عظيما معقودا على مراكب كبار تحف بها من جانبها سلاسل من حديد » • وكانت الحلة آنذاك مدينة كبيرة على جانب الفرات الغربي ممتدة مع الفرات • ولابن بطوطة ، وقد اقتفى خطوات سلفه في أوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وصف طويل لجسر السفن المشهور هذا

فى الحلة ، فقد كان على جانبى هذا الجسر سلاسل من حديد مربوطة فى كلا الشطين الى خشبة عظيمة مثبتة بالساحل . وقد اطرى أسواق المدينة . وما ذكره ابن بطوطة أورده معاصره المستوفى بكماله فقال ان الحلة أخذت تمتد فى جانب الفرات الشرقى على نحو ما هى عليه فى جانبه الغربى . وكان النخيل يكثر فى داخلها وخارجها فكان ذلك سببا لرطوبة هوائها . واضاف المستوفى الى ذلك ان أهل الحلة كلهم امامية اثنا عشرية ولهم بها مقام يسمونه مشهد صاحب الزمان المهدى المنتظر الذى اختفى فى سامراء سنة ٢٦٤ (٨٧٨) وسيخرج لهداية الناس الى الايمان (أنظر ص ٨٠ أعلاه)[٢] .

واذا ما عدنا ثانية الى وصف ابن سرابيون فى المئة الرابعة (العاشرة) لنهر سورا ، ألفيناه يقول ان هذا النهر كان على ما قد بينا ، يمر فى غرب اطلال بابل . وذكر المقدسى ان فى هذه الاطلال قرية قريبة من جسر . وللمستوفى حديث طويل عن الكهنة العظام الذين عاشوا فى بابل وعن الجب الذى فى قمة التل ، وقد حبس فيه الملاكان الساقطان هاروت وماروت الى يوم الدين[٣] .

وفوق بابل يأخذ من سورا ، آخر الانهار الكثيرة التى تحمل من الفرات الى دجلة . وهذا النهر ، ويعرف اليوم بشط النيل ، قد سماه ابن سرابيون فى قسمه الاعلى غرب مدينة النيل بـ « الصراة الكبيرة » . وشبه هذا الاسم اسم

---

(٢) ابن سرابيون ١٠ و ١٦ ؛ اليعقوبى ٣٠٩ ؛ الاصطخرى ٨٥ و ٨٦ ؛ ابن حوقل ١٦٦ و ١٦٨ ؛ المقدسى ١٢١ ؛ ياقوت ٢ : ٣٢٢ ؛ ٣ : ٨٦١ ؛ ٤ : ١٢٣ ؛ ابن جبير ٢١٤ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٩٧ ؛ المستوفى ١٣٨ .

(٣) تقع اطلال مدينة بابل على نحو تسعين كيلو مترا جنوب بغداد على نهر الفرات . وقد نقبت فيها بعثة المانية قبل الحرب العالمية الاولى وكشفت عن أهم بقاياها ، على ما يرى ذلك مفصلا فى الكتاب الذى وضعه كولدواى رئيس تلك البعثة وقد نقل الى الانكليزية وطبع بعنوان
Koldewey, Excavations at Babylon (London, 1914).
ومما اظهرته التنقيبات : بقايا معبد ايساكلا ، اكبر معابد بابل المخصص بعبادة الاله مردخ كبير الآلهة البابلية ، وزقورة المعبد أى برجه المدرج ، ومعابد اخرى منها المعبد المخصص بعبادة الالهة عشتار ، وباب عشتار الذى يمر منه شارع المواكب . وقصر نبوخذنصر وغيره من القصور ، والملهى الاغريقى ، وبعض دور السكنى .

ومع ان هناك ما يدل على استيطان موضع بابل فى عصور ما قبل التاريخ (نحو ٤٠٠٠ ق . م .) فان أقدم اشارة تاريخية الى المدينة باسمها المعروف قد جاءتنا من عصر السلالة الاكدية (فى حدود ٢٣٥٠ ق . م .) . وذكرت المدينة كذلك فى اخبار سلالة أور الثالثة .

ولما بناها البابليون القدماء ، سموها باب ايلو ، أى باب الاله . وقد صارت بابل عاصمة للدولة البابلية واشتهرت فى أيام حمورابى سادس ملوكها وكذلك فى أيام نبوخذ نصر ملك الكلدانيين . (م) .

نهر آخر اشهر منه فى بغداد الغربية (أنظر ص ٩٢) ونهر الصراة الكبيرة ، يجرى الى الشرق ابتداءا من مخرجه ويمر بقرى عامرة كثيرة ، وتتفرع منه أنهار صغيرة متعددة • وقبل ان يصل مدينة النيل بشىء يسير ، يتفرع من يساره نهر صراة جاماسب ثم يعود فيصب فيه أسفل المدينة • وكان الحجاج ، عامل بنى أمية المشهور على العراق ، قد اعاد حفر صراة جاماسب • ولكن اسمه ، على ما انتهى الينا ، بقى ينسب الى جاماسب ، كبير الموابذة الذى عاون الملك كشتاسب فى توطيد دين زرادشت فى بلاد فارس فى قديم الزمان • كما بنى الحجاج مدينة النيل وصارت أجل مدينة فى هذا الطسوج كله • واطلالها ما زال يشار اليها فى الخارطة باسم النيلية[4] • وقد سمى هذا النهر باسم نيل مصر على ما يقال • ويمر الصراة الكبيرة بمدينة النيل ، وعليه هناك قنطرة عظيمة يقال لها قنطرة الماسى • وما كان من النهر فى غربى المدينة ، وهو الذى سماه ابن سرابيون الصراة الكبيرة ، عرف فى أيام أبى الفداء بنهر النيل أيضا • اما ابن سرابيون فقد اطلق هذا الاسم على ما جاوز منه شرق مدينة النيل فقط •

ويمر هذا النهر بقرى ورساتيق على جانبيه فيسقيها حتى يصل هورا يقال له الهول قرب دجلة بازاء النعمانية (أنظر ص ٥٦) • ومنه يتفرع نهر يقال له الزاب الاعلى يحمل الى دجلة رأسا • اما نهر النيل نفسه فانه من الهول ينساب فى طريقه جنوبا فيسير بموازاة دجلة مسافة قليلة حتى يصير فى أسفل مدينة نهر سابس • ومدينة سابس على مسيرة يوم فوق واسط ، وعندها يصب النهر فى دجلة • وربما ينساب بعض مائه فى الزاب الاسفل الى دجلة • ومما يحسن

---

(٤) على نهر النيل المندرس وفى ما يعرف بالجزيرة بين المسحتية (قرب الفرات) والنعمانية (على دجلة) ، اطلال واسعة تعرف بتل النيل والنيليات والنيلية • فى موضع تطابق صفة موضع مدينة النيل التى بناها الحجاج • وقد مسحتها دائرة الآثار العراقية سنة ١٩٤٥ • وبامتداد جانبى هذا النهر القديم تلول اثرية وبقايا ابنية هى معالم القرى التى كانت تقوم على هذا النهر ، وهى اليوم أرض رملية • ولكن اكبر هذه التلول وأعلاها هو المسمى بالنيلية أو النيليات • ويشق النهر هذه المدينة ، وعرضه نحو ثلاثين مترا • وفيه بقايا دعائم من الآجر والنورة كانت تقوم عليها ولا شك « قنطرة الماسى » • وعند ضفته الجنوبية بناء فخم قد تداعى يتألف من بهو فيه بقايا اساطين من مدينة النيل كان مبنيا بالآجر • وتبين من فحص كسر الفخار التى على سطح التل انها من المئة السابعة للهجرة • كما عثر فيها على نقود نحاس من العصر الايلخانى • والمعروف ان مدينة النيل كانت دار ضرب فى العصر العباسى أيضا (م) •

بيانه أيضا ان ما كان من النيل أسفل الهول يقال له نهر سابس واليه نسبت المدينة التى على يمين دجلة ، على ما بينا فى (ص ٥٧) • ولقد تبدلت تسميات هذه الانهار فى أزمنة مختلفة : ففى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ذكر ياقوت ان مجرى النهر من مدينة النيل الى النعمانية كان يسمى نهر الزاب الاعلى ، بينما يظهر ان زابه الاسفل يطابق نهر سابس لدى ابن سرابيون • وعلى كل فان معظم أقسام هذين النهرين قد جفت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) وان بقى عامرا ما كان على جانبيهما من رساتيق •

فاذا عدنا الى اطلال بابل على الفرات ، وجدنا اسفل منها على نهر سورا قنطرة يقال لها قنطرة القامغان « والماء فيها منصب عظيم » ، على ما ذكر ابن سرابيون • وعلى ستة فراسخ اسفل من هذه القنطرة ، بالقرب من الجامعين ـ الحلة الحديثة ـ ، ينقسم نهر سورا الى قسمين : يتجه الايمن جنوبا فيمر بالجامعين ، والايسر ويقال له نهر النرس يجرى نحو الجنوب الشرقى فيسقى حمام عمر وغيرها من القرى وينتهى الى مدينة نفر • وقد سمى هذا النهر بذلك نسبة الى نرسى (نرسس) الملك الساسانى الذى اعتلى العرش فى سنة ٢٩٢ للميلاد وقد كان أمر بحفره • وبعد ان يجرى جنوبا بشىء يسير ، يصب نهر النرس ونهر سورا ماءهما فى نهر البداة الذى يخترق حافة البطائح الشمالية • ونهر البَداة أو البُداة هذا كان مفيضا يأخذ من يسار فرات الكوفة على مسيرة يوم شمال مدينة الكوفة وربما من قرب بلدة قنطرة الكوفة ويقال لها أيضا القناطير • ولعل الطريق العام كان يعبر نهر البداة عليها • ومدينة القناطير هذه على سبعة وعشرين ميلا جنوب جسر السفن العظيم الذى على سورا • وهذا الجسر على ثمانية وعشرين ميلا شمال الكوفة ولعل القناطير تجاور أو تطابق موضع فومبديثة (Pombedita) العبرية (وبالعربية فم البداة) وكانت ، على ما ذكر بنيامين التطيلى فى المئة السادسة (الثانية عشرة) ، مركزا علميا عظيما لليهود فى بلاد بابل • وبعد ان يجرى نهر البداة نيفا وخمسين ميلا ويستقبل فى يساره مياه نهر سورا الاسفل ونهر النرس ، يصب أخيرا فى البطائح قرب مدينة نفر(٥) •

---

(٥) ابن سرابيون ١٦ ؛ البلاذرى ٢٥٤ و ٢٩٠ ؛ ابن رسته ١٨٨ ؛ ابن حوقل ١٦٧ ؛ المقدسى،

وكان الطسوجان اللذان بين منقسم الفرات الاسفل ، ونهر سورا الى شرقهما وعمود الفرات الى غربهما ، يعرفان بطسوج الفلوجة العليا والسفلى ، وفي اسفلهما يمر النهر بمدينة القنطرة وبفم نهر البداة ثم ينتهي الى الكوفة في الجانب الغربي من الفرات تجاه الجسر . وفي جنوب الكوفة كانت مياه هذا النهر تنصب في البطائح من فروع صغيرة له . والنهر القديم سماه قدامة والمسعودي نهر العلقمي ، وهو على ما يظهر يطابق نهر الهندية الحالي الذي يشطر اليوم من الفرات في أسفل المسيب . وكان يمر بخرائب الكوفة القديمة ثم يلتقي بعمود الفرات الحالي بعد ان يجري بين أهوار البطائح التي كانت في العصر العباسي .

وأسس المسلمون مدينة الكوفة عقيب فتحهم بلاد العراق بعد ان بدأوا ببناء البصرة ، أي في نحو سنة ١٧ (٦٣٨) أيام الخليفة عمر . واختطت الكوفة لتكون معسكرا للجيش في الجانب العربي من الفرات أي جانب البادية . وقامت على بسيط واسع من الارض على ضفة النهر جوار الحيرة المدينة الفارسية القديمة[٦] . ثم تكاثر الناس في الكوفة . وحين قدم اليها علي (بن أبي طالب) في سنة ٣٦ (٦٥٧) وأقام فيها ، صارت مدى اربع سنين عاصمة المسلمين الذين والوا علياً وبايعوه بالخلافة . وقد أغتيل الامام علي سنة ٤٠ (٦٦١) في جامع الكوفة . ووصف الاصطخري مدينة الكوفة في المئة الرابعة (العاشرة) فقال « انها قريبة من البصرة في الكبر وهواؤها اصح وبناؤها مثل بناء البصرة » . وكانت أسواقها عامرة ، الا انها دون أسواق البصرة شأنا ، وكان المسجد الجامع[٧] الذي فيه أصيب الامام علي بضربة قاتلة ، في شرقي المدينة . وفيه

---

١٢١ ؛ ابو الفداء ٥٣ ؛ ياقوت ١ : ٧٧٠ ؛ ٢ : ٣١ و ٩٠٣ ؛ ٣ : ٤ و ٣٧٩ ؛ ٤ : ٧٧٣ و ٧٩٨ و ٨٤٠ و ٨٦١ ؛ المستوفي ١٣٦ ؛ رحلة بنيامين التطيلي (طبعة اشر) ١ : ١١٢ . انظر أيضا دي غوية في .ZDMG لسنة ١٨٨٥ ص ١٠ .

قلنا : نقل عزرا حداد « رحلة بنيامين التطيلي » من العبرية الى العربية وطبعها في بغداد سنة ١٩٤٥ (م) .

(٦) كانت الحيرة من المدن العربية قبل الاسلام ، قامت فيها دولة المناذرة العربية . (م) .

(٧) ترى خرائب الكوفة القديمة اليوم بين الكوفة الحديثة والنجف . وهي تتالف من آكام ومرتفعات واسعة . وقد نقبت مديرية الآثار العراقية في سنة ١٩٣٦ موضع « قصر الكوفة » وشطع « المسجد الجامع » الملاصقة له وتمكنت من وضع مخطط لبقايا القصر والمسجد الجامع المجاور له . وظهر لها ان القصر كان مربع الشكل تقريبا يتراوح طول اضلاعه بين ١٦٩ و ١٧٢ مترا . وثخن الجدران ٣٫٦٠ متر . وقد اصاب هذه البقايا تدمير وتخريب بسبب اقتلاع حجارته منذ عشرات او مئات السنين لاستعمالها

السواري من صم الحجارة المنحوتة التى نقلت من مدينة الحيرة المجاورة وكانت قد خلت عن الاهل بناء الكوفة . ومن محلات الكوفة الكبيرة : الكناسة ، فى طرف البادية وحولها بساتين النخيل وتمرها أجود التمور . ولما مرّ ابن جبير بالكوفة فى سنة ٥٨٠ (١١٨٤) كانت « لا سور لها فقد استولى الخراب على أكثرها ، والجامع العتيق آخرها » . وذكر ابن بطوطة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان سقف جامع الكوفة يقوم « على سوارى حجارة ضخمة منحوتة قد صنعت قطعا ووضع بعضها على بعض وأفرغت برصاص » . وبهذا المسجد محراب يعين موضع مقتل علي . وسرد المستوفى حديثا طويلا عن الكوفة فقال ان ذرع أسوارها ١٨٠٠٠ خطوة ، وقد بناها الخليفة المنصور . وكان قصب السكر فيها أجود ما فى سائر العراق ، ويكثر فيها القطن . وكان فى سارية من سوارى الجامع علامة كف علي وفيه أيضا « الموضع الذى فار منه التنور حين طوفان نوح »[٨] .

وعلى دون الفرسخ من جنوب الكوفة ، اطلال الحيرة . وكانت مدينة عظيمة فى أيام الساسانيين وبالقرب منها القصران المشهوران : الخورنق والسدير . وقد بنى النعمان ملك الحيرة قصر الخورنق ، على ما قيل ، للملك بهرام جور الصياد العظيم . وحين استولى المسلمون على الحيرة فى اثناء فتح العراق ، هالهم قصر الخورنق بما كان فيه من ابهاء فسيحة . واتخذه الخلفاء بعد ذلك موضعا ينزلون فيه اثناء خروجهم للصيد . ومع انه لم يبق من هذا القصر شيء الآن على ما يظهر ، الا ان بقايا قبابه الضخمة وبعض عمارته كان ما زال شاخصا حين مر به ابن بطوطة فى مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة)[٩]. وكانت القادسية مدينة على سيف البادية ، على خمسة فراسخ غرب الكوفة ، وهى أول مرحلة فى طريق

فى مبانى الكوفة الحديثة . راجع « مسجد الكوفة » وهو من منشورات دار الآثار العراقية . (م) .

(٨) للمستشرق الفرنسى لويس ماسنيون ، رسالة فى « خطط الكوفة » نقلها الى العربية تقى الدين المصعبى . ومما طبع عن الكوفة « تاريخ الكوفة » للبراقى ، و « مسجد الكوفة » لدار الآثار العراقية . (م) .

(٩) ترى اطلال الحيرة على نحو سبعة كيلومترات من جنوب الكوفة . وقد نقب فيها سنة ١٩٣١ الاثريان رايس Talbot Rice وريتلنكر Reitlinger وعثرا فيها على مبان وبيع وزخارف جدارية من الجص وغير ذلك من الآثار . وليوسف غنيمة كتاب « الحيرة » طبعه سنة ١٩٣٦ .
اما الخورنق فقد نقبت مديرية الآثار العراقية فى بعض اطلاله . راجع سومر ٢ [١٩٤٦] ص ٢٩ - ٣٢ (م).

الحج الى مكة • وكان حولها نخل وبساتين • وبالقرب منها احرز المسلمون سنة ١٤ (٦٣٥) نصرا عظيما فى أول وقعة كبيرة جرت لهم مع الفرس ، أسفر عن استيلائهم على العراق • ووصف المقدسى القادسة ـ وتسمى قادسية الكوفة تمييزا لها عن قادسية سامراء على دجلة (أنظر ص ٧٣) ـ بأنها « مدينة تعمر ايام الحج • ولها بابان وحصن طين • وقد شق لهم نهر من الفرات الى حوض على باب بغداد » • وعند باب البادية ، الجامع • وامامه كانت تقام السوق فى أيام الحج[١٠] • ولما اجتاز ابن بطوطة بالقادسية فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت قد اضحت قرية كبيرة • وذكر المستوفي ان معظمها فى أيامه خراب[١١] •

والنجف ، وفيها مشهد علي الذى يكرمه الشيعة ويقدسونه ، على نحو أربعة أميال من غرب خرائب الكوفة • وهي مدينة عامرة الى يومنا هذا • والمتواتر لدى الشيعة ، على ما ذكر المستوفى ، ان الامام علياً لما ضرب فى جامع الكوفة وحضرته الوفاة أوصى بان يوضع جثمانه على جمل ثم يطلق على رسله وحيثما يبرك تدفن جثته هناك ، فعُمل بهذه الوصية • ولكن فى أيام بنى أمية لم يشيد له قبر ، اذ كان الموضع قد أخفى • على انه فى سنة ١٧٥ (٧٩١) اهتدى الى موضعه الشريف ، الخليفة هرون الرشيد العباسى • فانه خرج راكبا ذات يوم الى ظاهر الكوفة يتصيد ، وطارد صيده الى كثيب فلما لحق به توقف فرسه عنده • فطلب من له علم بذلك فاخبره بعض شيوخ أهل الكوفة انه قبر علي ابن ابى طالب تلجأ اليه حتى وحوش البر فلا ينالها اذى • ثم ان الرشيد أمر بحفر الموضع واظهر قبر علي • وعلى ما ذكر المستوفى بنى عليه قبة • وأخذ الناس فى زيارته • وبدء تاريخ هذا المقام مبهم ، وما أوردناه انما هو ما اتفق عليه الشيعة • على ان هرون

---

(١٠) ما قاله المقدسي بصدد الجامع (ص ١١٧) ـ فى القادسية « ماء آخر يجرونه عند باب البادية أيام الحج • وهي سوق واحد الجامع فيه » • (م) •

(١١) ابن سرابيون ١٠ و ١٦ ؛ قدامة ٢٣٣ ؛ المسعودى : التنبيه ٥٢ ؛ الاصطخرى ٨٢ ؛ ابن حوقل ١٦٢ و ١٦٣ ؛ المقدسي ١١٦ و ١١٧ ؛ ياقوت ٢ : ٤٦٢ ؛ ٣ : ٥٩ ؛ ٤ : ٣٢٢ ؛ ابن جبير ٢١٣ ؛ ابن بطوطة ١ : ٤١٤ ؛ ٢ : ١ و ٦٤ ؛ المستوفى ١٣٣ و ١٣٨ و ١٤٠ •

لم تكن البحيرة الواسعة الضحلة ـ المعروفة ببحر النجف ـ الممتدة الآن غرب بقايا الكوفة القديمة ومشهد النجف ، فى العصور الوسطى • وكان طريق الحج من الكوفة الى مكة يجتاز ما قد صار قعرا لها الآن •

الرشيد وان قرّب اليه العلويين حقبة من عهده ، فان تواريخ العرب لم تذكر انه هو الذى وقع على قبر علي .

وأقـدم من أطال القـول فى مشـهد علي ، ابن حوقل ، فى منتصف المئـة الرابعة (العاشرة) . فقد أخبرنا ان الامير الحمدانى ابا الهيجاء – وكـان أمير الموصل فى سنة ٢٩٢ (٩٠٤) وتوفى فى سنة ٣١٧ (٩٢٩) – ابتنى على القبر قبة عظيمة مرتفعة الاركان من كل جانب لها أبواب وسترها بفاخر الستور وفرشها بثمين الحصر السامانى . وجعل عليها حصارا منيعا » . على ان الاصطخرى وابن حوقل ذكرا ان قبر علي فى ايامهما كان فى زاوية جامع الكوفة الكبير . وقد أيد ذلك كثير من الثقات وعززه غيرهم من المصنفين[١٢] . وزاد المستوفى على ذلك قوله : ان فى سنة ٣٦٦ (٩٧٧) شيّد عضد الدولة البويهى الضريح الذى ظل قائما حتى أيامه (أى فى أيام المستوفى) . واصبح الموضع حينذاك مدينة صغيرة محيطها ٢٥٠٠ خطوة . وجاء فى تاريخ ابن الاثير ، ان عضد الدولة دفن فيها عملا بوصيته . ودفن فيها أيضا ابناه شرف الدولة وبهاء الدولة . واقتفى أثره بعده كثير من أعيان القوم . وفى سنة ٤٤٣ (١٠٥١) أحرق أهل بغداد الضريح وأزالوا أثره[١٣] . وكانوا يشتدون فى اضطهاد الشيعة . على انه سرعان ما أعيد بناؤه فقد زاره ملكشاه ووزيره نظام الملك فى سنة ٤٧٩ (١٠٨٦) .

وحينما كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعـة عشرة) قال ان غازان الايلخانى ، كان استحدث فى مشهد علي دارا للسادة سميت بدار السيادة وأنشأ خانقاه (تكيه للصوفية) . وذكر ياقوت قبل المستوفى بقرن ان « النجف بظهر

---

(١٢) جاء فى الاصطخرى (ص ٨٢) :

« وقريب من الكوفة قبر علي (عم) وقد اختلف فى مكانه فقيل انه فى زاوية على باب جامع الكوفة ، اخفى من اهل بنى امية . ورأيت فى هذا الموضع دكان علاف . ومنهم من زعم انه من الكوفة على فرسخين وعليه قنطرة (وفى نسخة ثانية . منظرة) وآثار المقابر » .

وقال ابن حوقل (ص ١٦٣ دى غويه = ٢٤٠ كريمرز) :

« وبالكوفة قبر أمير المؤمنين على صلوات الله عليه ، ويقال انه بموضع فى زاوية جامعها واخفى من أجل بنى أمية خوفا عليه . وفى هذا الموضع دكان علاف . ويزعم أكثر ولده ان قبره بالمكان الذى ظهر فيه قبره على فرسخين من الكوفة » (م) .

(١٣) حادثة الاحراق جرت على قبر الامام موسى بن جعفر ، كما فى كامل ابن الاثير والمنتظم لابن الجوزى وكما ذكره المؤلف نفسه فى كتابه عن بغداد (الدكتور مصطفى جواد) .

الكوفة كالمسناة تمنع مسيل الماء أن يعلو الكوفة » . ولكنه لم يشر الى المشهد . وقدم الرحالة ابن بطوطة الى النجف في سنة ٧٢٦ (١٣٢٦) فقال في مشهد علي انه « مدينة حسنة » . ودخله من باب الحضرة الفضة المؤدى رأسا الى الضريح . واطنب في وصف أسواقها ومدارسها الجليلة كما أشاد بجامعها وفيه ضريح الامام علي وكانت حيطانه بالقاشاني . وذكر ان المقعدين كانوا يبرأون من عاهاتهم في الروضة . وسرد كشفا بكثير من قناديل الذهب والفضة التي نذرت لها ، وذكر أيضا انها مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه[١٤] . ووصف الضريح نفسه فقال : « في وسط القبة مصطبة مربعة مكسوة بالخشب عليها صفائح الذهب المنقوشة والمحكمة العمل مسمرة بمسامير الفضة » . ويفضى الى الضريح أربعة أبواب ، على كل باب ستار وعتبته من الفضة وعليه ستور من الحرير الملوّن . وختم ابن بطوطة حديثه بذكر الكرامات التي يضفيها الامام علي على المؤمنين الصادقين[١٥] .

اما كربلاء ، أي مشهد الحسين ، فعلى ثمانية فراسخ من شمال غربي الكوفة . وهي تعين موضع الوقعة التي استشهد فيها الحسين بن علي حفيد الرسول مع جميع آله وذويه تقريبا في سنة ٦١ (٦٨٠) . ويزور الشيعة اليوم مشهد الحسين أكثر مما يزورون مشهد علي . ولا علم لنا بأول من بنى هذا المشهد ، الا ان هناك ما يدل على وجود بناية فيه ، منذ المئة الثالثة (التاسعة) . فان الخليفة المتوكل ، وهو الذي يمقته الشيعة مقتا لم يضعف على مرور الزمن ، أمر في سنة ٢٣٦ (٨٥٠) بهدم قبر الحسين وبسقي موضع قبره ومنع الناس من

---

(١٤) في الروضة الحيدرية في النجف ، خزانة حافلة بكنوز ثمينة وذخائر نفيسة ، اجتمعت من النذور المهداة اليها تبركا وتقربا . وهي محفوظة في موضع حريز . وقد نظم لهذه الذخائر ثبت في صفحها ، وقفنا على نسخة منه (مكتوبة بالآلة الكاتبة) في دار الآثار العراقية . كما ان الاستاذ محمد اغا اوغلو ، زار النجف واطلع على ما في الحضرة من سجاجيد ومنسوجات ، وصفها في كتابه الموسوم :
Safawid Rugs and Textiles. The Collection of the Shrine of Imam Ali at al-Najaf, (New York, 1941). (م)

(١٥) الاصطخري ٨٢ ؛ ابن حوقل ١٦٣ ؛ المقدسي ١٣٠ ؛ ابن الاثير ٩ : ١٣ و ٤٢ و ١٦٩ و ١٩٤ ؛ ١٠ : ١٠٣ ؛ المستوفي ١٣٤ ؛ ياقوت ٤ : ٧٦٠ ؛ ابن بطوطة ١ : ٤١٤ – ٤١٦ .
قلنا : ومن التآليف الحديثة في النجف ، كتاب « ماضي النجف وحاضرها » للشيخ جعفر محبوبة (صيدا ١٩٣٤) . (م ج) .

اتباعه ، وتهدّدهم بالعقاب الشديد ان زاروه • وذكر المستوفى فى وصفه قصور سامراء ، ان هذه الاساءة التى أوقعها المتوكل قد جوزي عليها فلم ينجز بناء قصر واحد من قصوره التى ابتناها فى سامراء ، بل اصابها ما أصاب قبر الحسين على يده • ولا يعلم كم بقى هذا الموضع خرابا ، الا ان عضد الدولة البويهى بنى فيه سنة ٣٦٨ (٩٧٩) حضرة جليلة ، ولا ريب ان اتساع هذا البناء قد تنبه اليه الاصطخرى وابن حوقل ، البلدانيان اللذان كتبا قبل هذا التاريخ بمدة قصيرة •

وفى سنة ٤٠٧ (١٠١٦) احترقت قبة مشهد الحسين ، ولكنها جددت بعد فترة وجيزة على ما يظهر • فان ملكشاه ، زار مشهد الحسين فى سنة ٤٧٩ (١٠٨٦) حين خرج متصيدا فى تلك الانحاء • ومما يؤسف عليه ، أن ياقوتا الحموى لم يصف الضريحين فى كربلاء ، بل انه ذكر عرضا « الحائر » ، وهو السور الذى يحف بضريح الحسين • وتكلم المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) على مدينة صغيرة كانت قد نشأت حول الروضة • وقال ان محيطها نحو ٢٤٠٠ خطوة • ووصف معاصره ابن بطوطة المدرسة العظيمة التى زارها هنا وقال : « على باب الروضة الحجّاب والقوّمة ، لا يدخل احد الا عن اذنهم فيقبّل العتبة الشريفة ، وهى من الفضة • وعلى الضريح المقدس ، قناديل الذهب والفضة ، وعلى الابواب أستار الحرير » • وزاد ابن بطوطة على ذلك ان أهل هذه المدينة فى قتال ابدا ، ولاجل فتنهم تخرّبت هذه المدينة • على انها كانت تحف بها بساتين النخيل وتسقيها أنهار تأخذ من الفرات[١٦] •

ولما وصف ابن خرداذبه وقدامة اقليم العراق فى المئة الثالثة (التاسعة) ، قالا ان هذا الاقليم كان اثنتى عشرة كورة كل كورة استان ، وطساسيجه ستون طسوجا • وهذا التقسيم ، ولعل الاصل فيه كان لغايات مالية ، قد أعاد المقدسى

---

(١٦) الاصطخرى ٨٥ ؛ ابن حوقل ١٦٦ ؛ المقدسى ١٣٠ ؛ ياقوت ٢ : ١٨٦ ؛ المستوفى ١٣٤ و ١٣٩ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٩٩ ؛ ابن الاثير ٧ : ٣٦ ؛ ٨ : ٥١٨ ؛ ٩ : ٢٠٩ ؛ ١٠ : ١٠٣ •

قلنا : وقد عنى بعض المؤلفين العراقيين المحدثين بوضع تآليف عن كربلاء ، منها :

١ ـ كربلاء فى التاريخ ـ للسيد عبد الرزاق آل وهاب •

٢ ـ مدينة الحسين او مختصر تاريخ كربلاء ـ للسيد محمد حسن مصطفى آل كليدار (جزآن) •

٣ ـ تاريخ كربلاء وحائر الحسين عليه السلام : للدكتور عبد الجواد الكليدار (م) •

سرد شيء منه في القرن الذي يليه . وعليه يحسن بنا ان نذكر الاستانات الاثني عشر واشهر طساسيجها . بتألف ثبت الاستانات ، من ثلاث مجموعات ، بما يوافق الانهار التي تسقيها ومآخذ تلك المياه .

فالمجموعة الاولى ، تتألف من أربعة استانات ، وهي التي في جانب دجلة الشرقي . وسقيها من هذا النهر ومن تامرا وهي : (١) كورة استان شاد فيروز : وهي حلوان (ويقال لها أيضا شاذفيروز) وفيه طسوج تامرا وطسوج خانقين وثلاثة طساسيج أخرى[١٧] . فمجموعها خمسة طساسيج . و (٢) كورة استان شاذ هرمز حول بغداد ، وطساسيجه : طسوج نهر بوق وطسوج كلواذى ونهر بين وطسوج المدينة العتيقة (أي المدائن) وطسوج راذان الاعلى وطسوج راذان الاسفل وطسوجان آخران[١٨] وكلها سبعة طساسيج . و (٣) كورة استان شاذ قباذ وطساسيجه طسوج جلولاء وطسوج البندنيجين وطسوج براز الروز وطسوج الدسكرة وأربعة طساسيج أخرى[١٩] وكلها ثمانية طساسيج . وتسميات الاستانين الاخيرين أوردناها على ما جاءت في ابن خرداذبه وقد خالفه قدامة بابداله الاسمين ، فجعل استان شاذ قباذ : استان بغداد . واطلق اسم خسرو شاذ هرمز على طسوج جلولاء مع الطساسيج السبعة المجاورة له . وآخر الاستانات في شرقي دجلة كان (٤) كورة استان بازيجان خسرو ويقال له النهروان ، وقد سماه قدامة ارندين كرد ، وفيه خمسة طساسيج وهي : طسوج النهروان الاعلى وطسوج النهروان الاوسط وطسوج النهروان الاسفل (ومعه اسكاف بني جنيد وجرجرايا ونحوها) وطسوج بادرايا وأخيرا طسوج باكسايا .

والمجموعة الثانية ، استانان وكان سقيهما من دجلة ومن الفرات وهما (٥) كورة استان كسكر وهي شاذ سابور اربعة طساسيج حول واسط[٢٠] و (٦)

---

(١٧) هذه الطساسيج الثلاثة التي أغفل المؤلف ذكرها ، هي طسوج فيروز قباذ ، وطسوج الجبل ، وطسوج اربل (المسالك والممالك لابن خرداذبه ص ٦) . (م) .

(١٨) وهما طسوج بزرجسابور وطسوج جازر (ابن خرداذبه ص ٦) (م) .

(١٩) وهي طسوج رستقباذ وطسوج مهروذ وطسوج سلسل وطسوج الذيبين (ابن خرداذبه ص ٦) . (م) .

(٢٠) وهي طسوج الزندورد وطسوج الثرثور وطسوج الاستان وطسوج الجوازر (ابن خرداذبه ص ٧) . (م) .

كورة استان شاذ بهمن وهى كورة دجلة على دجلة الاسفل وفيها أربعة طساسيج هى طسوج ميسان وطسوج دستميسان وطسوجان آخران[٢١] ويقع دستميسان حول الابلة .

اما الاستانات الستة الباقية فكلها الى غربى دجلة وكان سقيها من نهر دجيل القديم ، وقد مر ذكره ، ومن الانهار الكبيرة الآخذة من الفرات والمادة شرقا الى دجلة . وأول هذه الاستانات كان (٧) كورة استان العالى وطساسيجه الاربعة بامتداد نهر عيسى وهى : طسوج فيروز سابور وهو الانبار وطسوج مسكن وطسوج قطربل وطسوج بادوريا . ويليه اسفله (٨) كورة استان اردشير بابكان وهى على امتداد نهر كوثى والنيل وفيها طسوج بهرسير وطسوج الرومقان بازاء المدائن وطسوج كوثى وطسوج نهر درقيط وطسوج نهر جوبر . والى شرق هذا الاستان كان (٩) كورة استان الزوابى وهى به ذيوماسفان وطساسيجه : طسوج الزاب الاعلى وطسوج الزاب الاوسط وطسوج الزاب الاسفل .

اما الاستانات الثلاثة الاخيرة فكانت بالتعاقب : استان بهقباذ الاعلى والاوسط والاسفل . وأول هذه الثلاثة (١٠) كورة استان بهقباذ الاعلى وهى ستة طساسيج : طسوج بابل (حول خرائب بابل) وطسوج الفلوجة العليا وطسوج الفلوجة السفلى وطسوجان آخران[٢٢] . وطسوج عين النمر على بعد يسير من غرب الفرات . و (١١) كورة استان بهقباذ الاوسط وفيه اربعة طساسيج هى طسوج نهر البداة وطسوج سورا وبربيسما وطسوج باروسما وطسوج نهر الملك . وأخيرا (١٢) كورة استان بهقباذ الاسفل وفيها خمسة طساسيج[٢٣] كانت على الفرات الاسفل حيث يدخل البطائح . ويتبين لنا من هذه الاسماء تقسيمات الاقليمالتى أخذها العرب عن الساسانيين . فقد كان اردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية وشاد فيروز أو شاذ فيروز معناها بالفارسية الطالع السعيد . وبهقباذ

---

(٢١) وهما طسوج بهمن اردشير وطسوج ابرقباذ (ابن خرداذبه ٧) . (م) .

(٢٢) هما طسوج خطرنية وطسوج السيبين (ابن خرداذبه ص ٨) . (م) .

(٢٣) هى طسوج فرات بادقلى وطسوج السيلحين وطسوج تستر وطسوج روذستان وطسوج هرمز جرد . ويقال ان روذستان وهرمزجرد ضياع متفرقة من طساسيج عدة . (ابن خرداذبه ص ٨) . (م) .

ومعناها أرض قباذ الطيبة ، وشاذ معناها مجد . فشاذ هرمز وشاذ قباذ وشاذ سابور وشاذ بهمن ينوّه كلها باسماء أربعة من أشهر ملوك الفرس(٢٤) .

وكانت تجارات العراق اكثرها مما يُحمل اليها من سائر البلدان وكانت عاصمة الاقليم تستهلك محصول غيره من الانحاء . ومع ذلك فقد سرد المقدسي ثبتا بالسلع والصناعات التي اشتهرت بها جملة من المدن ، وهذا الثبت ، وان لم يكن قد أوفى على الغاية ، الا انه حريّ بالنظر .

كانت اسواق بغداد حافلة مشهورة بغرائب السلع التي تحمل اليها من سائر البلدان وكان ينسج فيها ألوان ثياب الخز – النسيج العتّابي المشهور وجلّه من الحرير . وانما سمي بذلك نسبة الى احدى محلات بغداد(٢٥) – وببغداد أزر وستور وعمائم رفيعة وألوان المناديل السامانية الرفيعة . واشتهرت البصرة بالخز ، وأسواقها باعة اللآلىء والطرائف . والبصرة الى ذلك معدن الجواهر » وبها يصنع الراسخت والزنجفر والزنجار والمرداسنج(٢٦) . ومنها تحمل

---

(٢٤) ابن خرداذبه ٥ – ٨ ؛ قدامة ٢٣٥ و ٢٣٦ ؛ المقدسي ١٣٣ .

(٢٥) للفظة العتابي خبر طويل ذكره المؤلف في كتابه (بغداد في عهد الخلافة العباسية ص ١٢٢ – ١٢٣ من الترجمة العربية) قال بصدد كلامه على محلة العتابية ، وهي من محلات الجانب الغربي من بغداد » ذاعت شهرة الحرير العتابي في جميع أطراف العالم الاسلامي ، وقلدت صنعته مدن اخرى . فقد روى الادريسي في سنة ٥٤٨ (١١٥٣) ان المرية في جنوبي الاندلس كان فيها في ايامه ثمانمئة مغزل لنسج الحرير ، منها الثياب العتابية . واستعمل هذا الاسم في اللغة الاسبانية بلفظه Attabi ومنها انتقلت الى الايطالية والفرنسية بصورة Tabis .

واستعمل الانكليز لفظة Taby للدلالة على نوع جيد من المنسوجات الحرير ، ثم أصبحت اسما عاما في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولما استقبلت اليزابث ملكة انكلترة السفير البندقي في شباط سنة ١٦٠٣ كانت عليها حلة من الفضة وال Taby (الحرير) الابيض . وجاء في يوميات صموئيل بيبس . انه لبس في ١٣ تشرين الاول ١٦٦١ صدرية حرير Tabby وشريطا ذهبا . كما ان المس برني ، ظهرت في حلة جميلة من الـ Tabby البنفسجي بمناسبة حفلة ولادة اميرة في قصر وندسور . وورد لفظ Tabbi في معجم جونسون وامامه هذا التفسير : وشريطا ذهبا . كما ان المس برني ، ظهرت في حلة جميلة من الـTaby اذا كانت ذات عروق مخطط . ومن الغريب ان نعم لفظ Taby بهذا الوجه وهو في الاصل اسم صحابي كان عاملا على مكة في المئة السابعة للميلاد .

وانظر ما كتبه الاب انستاس الكرملي عن العتابي في مجلة غرفة تجارة بغداد (٤ : ٢٢ – ٢٤) . (م) .

(٢٦) الراسخت – الكحل .

الزنجفر – معدن متفتت بصاص يعمل منه الحبر الاحمر . تعريب شنجرف وقال عنه في البرهان القاطع » انه معدني وصناعي . فالمعدني يحصل في معادن النحاس والذهب والزئبق ، وهو نادر الوجود . والصناعي يستنبط من الزئبق والكبريت وهو سم قتال » (الالفاظ الفارسية المعربة لادّي شير . ص ٨٠) . وانظر تاج العروس ٣ : ٣٤٤ ؛ ومحيط المحيط لبطرس البستاني

التمور والحناء والخز والماورد والنفسج » • « وبالابلة تعمل ثياب الكتان الرفيعة على عمل القصب » • واشتهرت الكوفة بالمور والبنفسج وعمائم الخز • واشتهرت واسط بالسمك البني" وبسمك مقدد يقال له « شيم » وأخيرا كان يصنع في النعمانية اكسية وألوان ثياب الصوف[٢٧] •

وقد بيّنا في الفصل التمهيدى ، ان بغداد كانت في أيام الخلافة العباسية ، المركز الذى تخرج منه جميع الطرق • فمنها كان يخرج خمسة طرق كبيرة - الى البصرة والكوفة والانبار وتكريت وحلوان - تصلها بأقاصى الدولة • ولا مراء في ان ايسر الطرق من بغداد الى البصرة ، كان بالسفن المنحدرة في دجلة • وقد ذكر ابن رسته واليعقوبى ما في هذا الطريق من مدن على يمين النهر ويساره • فكانت السفن تنحدر في عمود دجلة حتى القَطْر ثم تدخل البطائح فتجتازها من أزقة تتخلل الهول (أنظر ص ٦٢) ثم يفضى نهر ابى الاسد الى رأس فيض دجلة ومنه الى البصرة في نهر معقل • فاذا ارادت السفن عبادان فخليج فارس ، عادت الى الفيض بنهر الابلة • اما الطريق البرى من بغداد الى واسط في شرقى دجلة المار بالمدائن ، فقد وصفه ابن رسته وصفا ساعدنا على تعيين المدن التى على النهر في الخارطة لانه ذكر ما بينها من مسافات بالفراسخ • ووصف قدامة هذا الطريق أيضا وصفا مطولا ، واستكملنا وصفه الطريق في موضع أو موضعين من ابى الفداء • وانتهى الينا من قدامة ، وصف الطريق البري" من واسط الى البصرة بامتداد الحافة الشمالية للبطائح • وهذا الطريق هو الذى سلكه ابن بطوطة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • ولابن رسته وقدامة وصف للطريق من واسط باتجاه الشرق الى الاهواز عاصمة خوزستان • وعند محطة باذبين ، وهى على مرحلة شرق واسط في هذا الطريق ، ينشطر منه فرع كان يذهب نحو الشمال الشرقى الى الطيب ومنها الى السوس (سوسا) في

---

١ : ٨٨٨ • الزنجار - هو المتولد في معادن النحاس (التاج ٣ ، ٢٤٤) •

المرداسنج - يعمل من الرصاص • ومنه ما يعمل من الفضة ومنه ما لونه احمر وهو صنعيل • ويقال له الذهبي وهو أجود اصنافه • وهو دواء يجفف كما تجفف جميع الادوية المعدنية والحجرية والارضية الا ان تجفيفه قليل جدا (المعرب للجواليقى ص ٣١٧ ح ٢ طبعة احمد محمد شاكر) • وانظر محيط المحيط (٢ : ١٩٦٤) - (م) •

(٢٧) المقدسى ١٢٨ •

خوزستان[٢٨] .

وطريق الحج من بغداد الى الكوفة ، يخرج من باب الكوفة في المدينة المدورة متجها نحو الجنوب ومجتازا محلة الكرخ الى صرصر ومنها الى قصر ابن هبيرة . فاذا جاوز هذه المدينة ، عبر نهر الفرات الشرقي (وهو عمود الفرات الآن) وكان يقال له في المئة الرابعة (العاشرة) نهر سورا ، على جسر السفن في سورا ، ومنها يتجه الى الكوفة . وبازائها يعبر نهر الفرات الغربي على جسر سفن يفضي الى الارباض الشرقية في الكوفة . ومن الكوفة يتجه طريق الحج نحو الجنوب الغربي الى القادسية . فاذا خرج من القادسية وقع في البادية . وقد أورد جميع البلدانيين القدماء وصف هذا الطريق . وكان أكثرهم تفصيلا له : ابن رسته . فقد ذكر لبعض اقسام الطريق من بغداد الى الكوفة مسالك أخرى مع ذكر المسافات بالاميال والفراسخ . وبعد مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) خربت مدينة قصر ابن هبيرة ، وهي مرحلة في نصف الطريق بين بغداد والكوفة ، وقامت مقامها الحلة (أنظر ص ٩٧) . فكان الطريق ينحدر اليها من صرصر مارا بفراشا . وكان الطريق يعبر نهر الفرات الشرقي في الحلة على جسر سفن عظيم على غرار الجسر الذي كان قبله في سورا . وهذا هو الطريق الذي سلكه ابن جبير ومن جاء بعده من الرحالين . وكان المعروف ان طول الطريق من الكوفة الى البصرة ، بمحاذاة حافة البطائح الجنوبية ، بين ثمانين وخمسة وثمانين فرسخا . وهذا الطريق الذي يتفرع الى اليسار عند المرحلة الثانية من مراحل البادية في جنوب القادسية ، قد وصفه ابن رسته وابن خرداذبه[٢٩] .

وقد مرّ بنا انه كان يقطع البادية العربية من العراق الى الحجاز طريقان

---

(٢٨) ابن رسته ١٨٤ و ١٨٦ - ١٨٨ ؛ اليعقوبي ٣٢٠ ؛ قدامة ١٩٣ و ٢٢٥ و ٢٢٦ ؛ المستوفي ١٩٥ ؛ ابو الفداء ٣٠٥ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٨ .

(٢٩) ابن رسته ١٧٤ و ١٧٥ و ١٨٠ و ١٨٢ ؛ اليعقوبي ٣٠٨ ؛ ابن خرداذبه ١٢٥ و ١٤٥ ؛ قدامة ١٨٥ ؛ ابو الفداء ٣٠٣ ؛ ابن جبير ٢١٤ - ٢١٩ ؛ المستوفي ١٩٣ .

قدر المستوفي (ص ٢٥٢) المسافة بين البصرة والكوفة بمحاذاة حافة البادية بعشر مراحل وهي اكثر من مئتين وخمسين ميلا على أقل تقدير . والمشهور في التاريخ ان بلال ابن أبي بردة قطع هذا الطريق من البصرة الى الكوفة في ليلة ويومها على حمازة - وهي الناقة السريعة - في أمر خطير مستعجل له مع خالد القسري عامل الكوفة في سنة ١٢٠ (٧٣٨) أيام الخليفة هشام الاموي (الطبري ٢ : ١٦٥٧) . وهذا يذكرنا بركوب دك تربن Dick Turpin من لندن الى يورك ، وبينهما نحو مئتي ميل بـ ١٨ ساعة وهي نحو سرعة بلال .

للحج : اولهما يبدأ من الكوفة والآخر من البصرة ويلتقيان عند مرحلة يقال لها « ذات عرق » • وكانت على مسيرة يومين من شمال شرقى مكة • وقد وصفت كتب المسالك فى المئة الثالثة (التاسعة) وكذلك المقدسى ، هذين الطريقين المشهورين مرحلة مرحلة مع ذكر المنازل التى فيهما المتعشّى ، بين مرحلة وأخرى ، وما بينها من المسافات بالاميال • كان الطريق من الكوفة يمر بفَيْد على بعد قليل جنوب الحائل ، اجل مدينة فى جبل شمر اليوم • اما طريق البصرة فيمر الى ضرية ، العاصمة القديمة للبلاد التى اصبحت فيما بعد دولة للوهابيين ، وما زالت خرائبها ظاهرة على بضعة أميال غرب الرياض أكبر مدن نجد الآن • وكان يتفرع من طريقى الحج الآخذين من الكوفة والبصرة طرق فرعية تخرج من يمينهما وتفضى رأسا الى المدينة[٣٠] •

---

(٣٠) جاء وصف طريق الكوفة الى مكة والمدينة فى ابن خرداذبه ١٢٥ ؛ قدامة ١٨٥ ؛ ابن رسته ١٧٥ ؛ اليعقوبى ٣١١ ؛ المقدسى ١٠٧ و ٢٥١ • وجاء وصف طريق البصرة فى ابن خرداذبه ١٤٦ ؛ قدامة ١٩٠ ؛ ابن رسته ١٨٠ و ١٨٢ ؛ المقدسى ١٠٩ و ٢٥١ •

ويحسن بنا ان نشير هنا الى ان أكبر مدينة قديمة فى نجد قد كتبها البلدانيون العرب بصورة ضرية • ولكن الحاج خليفة (جهان نما ٥٢٧) كان أول من أورد اسمها بالتهجئة الحديثة فقال ـ درعية وان كتب اسمها مرة أو مرتين فى رحلته (جهان نما ٥٢٧ و ٥٤٣) بصورة ضرية أو حصن ضرية • وقد عنى البروفسور وستنفلد بوصف جغرافية الحجاز وبلاد العرب عامة مما هو فى شمال الدهناء ، بالاستناد الى المراجع العربية فى سلسلة من المقالات نشرها فى
Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaft zu Göttingen.

وهذه البحوث التى زودها كيبرت Kiepert بخوارط ذات فهارس حسنة قد احتوت على ما يأتى بيانه من البحوث بعناوينها الكاملة • ويظهر ان الجغرافيين الانكليز ليسوا على وقوف تام عليها :

Die von Medina aus laufenden Hauptstrassen (Vol. XI, 1862).

Die Wohnsitze und Wanderungen der Arabischen Stämme (Vol. XIV, 1869).

Die Strasse von Basra nach Mekka mit der Landschaft Dharija (Vol. XVI, 1871).

Das Gebiet von Medina (Vol. XVIII, 1873).

وهو يبين طريق الحج بين الكوفة ومكة •

Bahrein und Jemama (Vol. XIX, 1874).

ثم Geschichte der Stadt Medina (Vol. IX, 1860) وقد طبع هذا البحث على انفراد وكذلك المجلد الرابع من : Chroniken der Stadt Mekka (Leipzig, 1861)
وقد كتبه بالالمانية ويحتوى على خلاصة لتاريخ مكة مع تعليق خططى • (انتهت حاشية المؤلف) •

قلنا : ومن كتب فى صفة هذه البلاد ، بعد أن ألف لسترنج كتابه ، جماعة من الباحثين والرحالين • نخص بالذكر منهم برتن Burton ودوتي Doughty وهوكارت Hogarth وموسيل Musil وجيسمان Cheesman وفلبى Philby وامين الريحاني وفؤاد حمزة (م) •

ويخرج من بغداد عند باب الكوفة في المدينة المدورة ، طريق ثان يتجه غربا ويذهب الى المحوّل أولا ثم يتابع ضفة نهر عيسى الى الانبار على الفرات ، ومنها يصعد مع النهر فيمر بالحديثة أعلى مدينة فى اقليم العراق ، ومنها يبلغ عانة فى اقليم الجزيرة . وهذا الطريق هو القسم الاول لاحد الطرق (المحاذية للفرات) الذاهبة من بغداد الى الشام ، وقد وصفها ابن خرداذبه وقدامة . اما الطريق الآخر الى الشام ، فيتجه شمالا بمحاذاة دجلة الى الموصل ، ويكون فى اقليم العراق حتى مدينة تكريت . وهذا الطريق ، وكان طريق البريد ، يخرج من باب البردان فى بغداد الشرقية ويساير يسار النهر مارا بعكبرا وسامراء حتى يبلغ تكريت . وعند هذه المدينة كان يلتقى هو وطريق القوافل البادىء من محلة الحربية فى بغداد الغربية والصاعد مع نهر دجيل الى حربى . ثم يمر بالقصر الذى بازاء سامراء[٣١] . ثم يساير نهر الاسحاقى الى تكريت . والطريق الاخير هذا ، هو الذى سلكه ابن جبير وابن بطوطة[٣٢] .

وأخيرا كان يشرع من باب خراسان فى بغداد الشرقية ، طريق خراسان . وكان يجتاز بلاد فارس ويتجه ، على ما قد بينا ، الى حدود الصين مخترقا بلاد ما وراء النهر . وقد اسهب ابن رسته فى وصف هذا الطريق مرحلة مرحلة ، بل ان اغلب البلدانيين الآخرين ، ان لم نقل كلهم ، قد ذكروا المسافات بين اقسام هذا الطريق المختلفة . فصار علمنا به يفوق ما سواه من الطرق[٣٣] .

---

(٣١) لعله يريد به قصر العاشق ، وقد مر ذكره . (م) .

(٣٢) ابن خرداذبه ٧٢ و ٩٣ ؛ قدامة ٢١٤ و ٢١٦ و ٢١٧ ، المقدسى ١٣٤ ؛ ابن جبير ٢٣٢ ، ابن بطوطة ٢ . ١٣٢ ؛ المستوفى ١٩٥ .

(٣٣) ابن رسته ١٦٣ ؛ اليعقوبى ٢٦٩ ؛ ابن خرداذبه ١٨ ؛ قدامة ١٩٧ ؛ المقدسى ١٣٥ ؛ المستوفى ١٩٣ .

الفصل السادس

الجزيرة

الديار الثلاث ـ ديار ربيعة ـ الموصل ولينوى والمدن المجاورة ـ الزاب الكبير
والحديثة واربل ـ الزاب الصغير والسن وداقوق ـ الخابور الصغير
والحسنية والعمادية ـ جزيرة ابن عمر وجبل الجودى ـ
نصيبين وراس العين ـ ماردين ودنيسر ـ الهرماس
والخابور ـ عربان والشرثار ـ سنجار
والحضر ـ بلد واذرمة .

كان العرب يسمون بلاد ما بين النهرين العليا بالجزيرة ، على ما قد بينّا ، لان أعالى دجلة والفرات كانت تكتنف سهولها . وكان هذا الاقليم ينقسم الى ديار ثلاث وهى : ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر ، نسبة الى القبائل العربية : ربيعة ومضر وبكر التى نزلت هذا الاقليم قبل الاسلام ، وكان يحكمه الساسانيون، فعرف كل من هذه الديار بقبيلته . وكانت الموصل على دجلة اجل مدن ديار ربيعة . والرقة على الفرات قاعدة ديار مضر . وآمد فى أعالى دجلة أكبر مدن ديار بكر . وديار بكر ، هى أقصى هذه الديار الثلاث شمالا . على ان المقدسى ، وصف اقليم الجزيرة تحت اسم « اقليم اقور » . واصل اقور غير واضح ، ولكن يخال لنا انه كان حينا من الزمن اسم السهل العظيم فى شمالى ما بين النهرين .

واذا رجعنا الى الخارطة ، تبين لنا ان دجلة والفرات فى بلاد ما بين النهرين العليا ، يستقبلان روافدهما كلها من يسارهما . فقد كانت هذه الروافد ، تنحدر اليهما من شمالهما الشرقى أو من الشمال . وقد شذّ عن هذه القاعدة فى القرون الوسطى ، انصراف ماء نهر الهرماس الآتى من نصيبين . والهرماس رافد الخابور

(الكبير) . فمياه الهرماس قد سُكرت فوق موضع اجتماعه بالخابور بسُكير العباس . فبينما كان قسم من مائه يجري فيلتقي هو والخابور الذي يصب في الفرات عند قرقيسياء ، كانت مياه نهر الهرماس نفسه تنصب في يمين دجلة عند تكريت بعد ان تجري في واد يقال له الثرثار[1] . والى ذلك فحدود هذه الديار الثلاث قد عينتها الفواصل المائية ، على ما سيتبين لنا . فقد كانت ديار بكر ، وهي سقي دجلة من منبعه الى منعطفه العظيم في الجنوب أسفل من تل فافان مع ما في شمالها من ارض ، تسقيها روافد دجلة الكثيرة التي تصب في يساره غرب تل فافان . وكانت ديار مضر ، الى الجنوب الغربي ، هي الاراضي المحاذية للفرات من سميساط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدرا الى عانة مع السهول التي يسقيها نهر البليخ رافد الفرات الآتي من حران . اما ديار ربيعة ، فقد كانت في شرق ديار مضر ، وتتألف من الاراضي التي في شرق الخابور (الكبير) المنحدر من رأس العين ومن الاراضي التي في شرق الهرماس وهو النهر المنساب في وادي الثرثار نحو الشرق الى دجلة ، على ما قد بينا . وكذلك مما على ضفتي دجلة من اراض تمتد بانحدار النهر من تل فافان الى تكريت ، أي الاراضي التي في غرب دجلة حتى نصيبين والتي في شرقه المشتملة على السهول التي يسقيها الزابان الاسفل والاعلى ونهر الخابور الصغير .

وكانت الموصل ، قاعدة ديار ربيعة ، على ضفة دجلة الغربية ، حيث تتصل عواقيل النهر فتؤلف مجرى كبيرا واحدا . ويقال ان الموصل انما جاء اسمها من هذا الاتصال . وكان يقوم في موضعها ايام الساسانيين مدينة يقال لها بوذ اردشير. وعلا شأن الموصل في أيام بني أمية . ونصب فيها على دجلة جسر سفن يربط المدينة التي في الجانب الغربي بخرائب نينوى في الجانب الشرقي . وصارت الموصل في عهد مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية ، قاعدة اقليم الجزيرة وبنى فيها ايضا الجامع الذي عرف بعدئذ بالجامع العتيق[2] . ووصف ابن حوقل ،

---

(١) وفي ابن سرابيون (ص ١٢) : « ويخرج من الهرماس ايضا نهر يقال له الثرثار ، اوله من عند سكير العباس ، يمر في وسط البرية ويصب في دجلة اسفل من تكريت بعد ان يمر بالحضر ويقطع جبل بارما » . (م) .

(٢) المقدسي ١٣٦ - ١٣٨ ؛ ابن خرداذبه ١٧ ؛ ياقوت ٤ : ٦٨٢ - ٦٨٤ ؛ المراصد ١ : ٨٤ . وجاء في ياقوت الاسم الفارسي للموصل بصورة بو اردشير أو نو اردشير ، ولا شك ان الصيغة

وقد كان فى الموصل سنة ٣٥٨ (٩٦٩) ، هذه المدينة بانها بلدة طيبة عامرة الأسواق ، نواحيها ورساتيقها كثيرة الخيرات . أشهرها الرستاق المحيط بنينوى حيث دفن النبي يونس . وكان جل أهلها في المئة الرابعة (العاشرة) من الاكراد[٣] . وقد عنى ابن حوقل بسرد ما حول الموصل من كور ورساتيق كثيرة تؤلف ديار ربيعة . واطرى المقدسى حسن فنادق الموصل الكثيرة . وكانت المدينة حسنة البنـاء ودورها بهيـة . والبلد نصف مستدير نحو ثلث البصرة[٤] كبرا وفيها حصن يسمى المربعة على نهر زبدة ، فى داخله سوق تعرف بسوق الاربعاء ، وكان يعرف الحصن باسم السوق أيضا . والجامع (جامع مروان الثانى) على رمية سهم من الشط على نشزة يصعد اليه بدرج كله آزاجات من الحجاره . ومداخله المؤدية من مصلى الجامع الى صحنه لا أبواب لها . وأكثر الاسواق مغطاة . وذكر المقدسى اسماء ثمانية من دروبها الكبيرة[٥] . وكانت دور المدينة تمتد بامتداد الشط مسافة كبيرة . وقال ان اسم الموصل كان خولان ، وان قصر الخليفة فى الجانب الآخر على نصف فرسخ من المدينة يشرف على نينوى القديمة . ولهذا القصر قديما حصون قوية تحميه ، أقلبه الريح ، ويشق خرائبها الآن نهر يقال له نهر الخوسر . وحين كتب المقدسى ، كانت تلك الخرائب مزارع[٦] .

الاخيرة تصحيف النساخ .

(٣) ما فى ابن حوقل (١ : ٢١٥) . « وللموصل بواد واحياء كثيرة تصيف فى مصايفها وتشتو فى مشاتيها من احياء العرب وقبائل ربيعة ومضر واليمن واحياء الاكراد كالهدبانية والحميدية واللارية . » . (م) .

(٤) جاء فى المقدسى بهذا الصدد ما يأتى « والبلد شبه طيلسان مثل البصرة ليس بالكبير فى ثلثه شبه حصن يسمى المربعة » . (م) .

(٥) اسماء هذه الدروب ، على ما فى المقدسى (ص ١٣٨) ، هى ـ درب الدير الاعلى ، ودرب باصلوت ، درب الجصاصين ، درب بنى ميدة ، درب الجصاصة ، درب رحى أمير المؤمنين ، درب الدباغين ، درب جميل . (م) .

(٦) ترى اطلال نينوى بازاء الموصل فى الجانب الشرقى من دجلة على نحو كيلومترين من ضفته . وقد كان هذا النهر يحاذى سورها الغربى فى أيام عمرانها . ويشق نهر الخوسر بقاياها ، فما كان فى يمينه سمي « تل قوينجق » . وما كان فى يساره « تل النبى يونس » .

كانت نينوى من عواصم الآشوريين . وفيها كان معبد الاله عشتار . وعظم شأنها فى زمن الملك الآشورى سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق . م) اذ وسعها وشيد فيها قصورا ومعابد وثكنات وحوطها بسور وخندق . وظلت عاصمة للآشوريين الى زوال ملكهم بيد الكلدانيين والماديين عام ٦١٢ ق . م .

وقد نقب فى تل قوينجق ، وهو من اقسام هذه المدينة ، منقبون انكليز منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وعثر فيه على بقايا قصورها ومعابدها وكثير من آثارها ، منها مكتبة آشور بانيبال التى

وفي سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤) زار ابن جبير مدينة الموصل ووصفها . وقبل هذا الزمن بيسير ، كان نور الدين المشهور ، وهو الذي تحت لوائه عمل صلاح الدين (الايوبي) في أول أمره ، قد بنى جامعا جديدا[٧] في وسط السوق ولكن الجامع العتيق الذي بناه مروان الثاني كان ما زال قائما على النهر[٨] بمنبره المزوّق الجميل وشبابيكه الجديدة . وفي أعلى البلد قلعة عظيمة ينتظمها سور مشيّد البروج وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع يمتد من أعلى البلد الى اسفله. ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور وابراجه في مائها[٩] وللبلدة ربض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والاسواق وفيها مارستان حفيل ، وسوق يقال له القيسارية[١٠] . وفي المدينة مدارس للعلم كثيرة . ويسرد القزويني اسماء الديارات المختلفة المجاورة للموصل ، وأشار بوجه خاص الى خندق الموصل

استخرج منها نحو ٢٠٠٠٠ رقيم طين نقلت الى المتحف البريطاني . وآخر حفر جرى في هذا التل كان سنة ١٩٣١ .

وقد عرفت نينوى بهذا الاسم لانها كانت موضع عبادة الالهة « نينا » منذ أقدم الازمنة . وكانت السمكة تعد من الحيوانات المقربة لهذه الالهة . ويحتمل ان للفظة (نون) التي كانت تسمى في الآشورية « سمكة » صلة بهذا الاسم على نحو ما في العربية واللغات السامية الاخرى . وقد اشتق من لفظة نون الاسم العلم باشكاله : يونان ويونس وذو النون . ولقصة يونان والحوت ، على ما يبدو ، جذور في العقيدة الخاصة بعبادة الالهة « نينا » التي صارت أيضا لدى الآشوريين الالهة عشتار وعبدت في غير نينوى من المدن الآشورية (م) .

(٧) وهو الجامع المعروف اليوم بالجامع الكبير أو الجامع النوري نسبة الى بانيه نور الدين محمود زنكي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣ م) . وعن الجامع النوري في الموصل راجع سومر (٥ [١٩٤٩] ص ٢٧٦ - ٢٩٠) . (م) .

(٨) سبق للمؤلف ان قال ان هذا الجامع كان على رمية سهم من دجلة وهو الصواب . فالجامع اليوم قد زال وقامت في أرضه دور موقوفة . وفي قسم صغير من أرضه شيد جامع صغير يعرف اليوم بجامع المصفي نسبة الى الحاج محمد مصفى الذهب ، كان قد جدد بناءه سنة ١٢٢٥ هـ وما زالت منارة الجامع الاموي القديمة شاخصة في صحن احدى الدور وهي المنارة المعروفة بالمقطوعة لان أعلاها قد سقط . وانظر عن الجامع الاموي في الموصل : سومر (٦ . [١٩٥٠] ص ٢١١) . (م) .

(٩) ما زالت قطعة من هذا السور ترى على النهر اليوم بين « قره سراى » (بقايا قصر بدر الدين لؤلؤ) وباشطابية وهو البرج الكبير المطل على النهر جنوب عين كبريت . (م)

(١٠) سمى العرب ، لاسيما من كان منهم في الانحاء الغربية (ويريد بلاد الشام وما في شمالها) ، الابنية الكبيرة لسوق ما المتخذة في الغالب خانات أو منازل : بالقيصرية أو القيسارية . ولا شك انهم التمسوا هذه التسمية من اليونان . وان كانت اللفظة اليونانية لم ترد على ما يظهر عند المؤرخين المزنطيين بمعنى السوق الملوكية في المدينة Caesarion وعلى كل حال يبعد ان يكون المسلمون قد اخذوا هذه الكلمة من اسم سيزاريون Caesarian المحلة المشهورة في الاسكندرية ، مع ان أكثرهم يؤولونه به .

العميق وقلعتها العالية . وكان حواليها بساتين كثيرة تسقيها النواعير على ما قال[١١] .

اما تلول نينوى فقد كان يقال لها منذ ايام المقدسي تل توبة وهو الموضع الذي خرج اليه النبي يونس لدعوة أهل نينوى الى التوبة[١٢] وفي هذا الموضع جامع حوله دور للزوار بناها ناصر الدولة الحمداني . وعلى نصف فرسخ منه ، عين يستشفى بمائها يقال لها عين يونس نسبة الى النبي يونس ، بجوارها جامع ويُرى هناك شجرة اليقطين التي غرسها هذا النبي[١٣] . وذكر ياقوت ان معظم دور الموصل كان مبنيا بالرخام وكلها آزاج . وفي المدينة قبر النبي جرجيس . ومرّ ابن بطوطة بالموصل في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقال : على البلد سوران اثنان وثيقان ابراجهما كثيرة عالية « مثل السور الذي على مدينة دهلي » . وكانت قلعتها تعرف بالحدباء . وكان في جامعها الحديث (جامع نور الدين) « خصة رخام مثمنة يخرج منها الماء بقوة وانزعاج فيرتفع مقدار القامة » وبها مسجد جامع ثالث على شط دجلة ، ولعل هذا الجامع هو الذي نوه به المستوفي وقال ان منبره من حجارة محفورة حفرا جميلا متقن الصنع كأنه حفر في الخشب . وكان دور الموصل في ايامه الف خطوة[١٤] . وأشار الى « مشهد يونس » ، في الجانب الآخر من دجلة ، المشيد فوق خرائب نينوى[١٥] .

وعلى بضعة أميال من شرقي الموصل ، بلدتان صغيرتان ، هما : برطلى وكرمليس وقد ذكرهما ياقوت والمستوفي . والى شمالهما بقليل باعشيقا . وهذه البلدان الثلاثة من أعمال الموصل . وذكر المقدسي باعشيقا بقوله « بها نبت من

---

(١١) الموصل اليوم من أجل مدن العراق واشهرها . وتلي بغداد سعة . كان لها فيما مضى سور مكين عال مبني بالحجر والجص ، محيطه نحو عشرة آلاف متر ، تتخلله عشرة ابواب . ولكن قسما كبيرا من ذلك السور وابوابه وابراجه قد هدم سنة ١٩١٥ . وفي سنة ١٩٣٤ هدم باقيه ، الا قطعة صغيرة منه في أعلى المدينة ، فانها ما زالت شاخصة تعرف بـ « باشطابية » . وكان يحدق بهذا السور خندق عريض . وبعد ان زالت معالم السور ردم الخندق فجعلت الارض التي كان فيها السور والخندق شوارع وحدائق (م) .

(١٢) ما يسمى بتل توبة ، هو جزء من التل المعروف بالنبي يونس ، وهو قسم صغير من مدينة نينوى الآشورية (م) .

(١٣) جاء في المقدسي (ص ١٤٦) : « تل توبة على رأسه مسجد ودور للمجاورين ، بنته جميلة ابنة ناصر الدولة (الحمداني) وأوقفت عليه اوقافا جليلة » (م) .

(١٤) ما في نزهة القلوب (ص ١٠٢ طبعة لسترنج) ان دورها ٨٠٠٠ قدم (م) .

(١٥) ابن حوقل ١٤٣ — ١٤٥ ؛ المقدسي ١٣٨ و ١٣٩ و ١٤٦ ؛ ابن جبير ٢٣٤ — ٢٣٨ ؛ ياقوت ٤ : ٦٨٤ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٣٥ ؛ القزويني ٢ : ٢٤٧ و ٣٠٩ ؛ المستوفي ١٦٥ و ١٦٧ .

قلعه وبه بواسير أو خنازير سقطت عنه » . وزاد ياقوت على ذلك ان باعشيقا « من قرى الموصل ... لها نهر جار يسقي بساتينها وتدار به عدة ارحاء ، والغالب على شجر بساتينها الزيتون والنخل والنارنج ، ولها سوق كبير ، وفيه حمامات وقيسارية ... وبها جامع كبير حسن له منارة ... وأكثر أهلها نصارى » في المئة السابعة (الثالثة عشرة) . وكانت برطلي على بضعة أميال جنوب باعشيقا ، وهي مثلها من أعمال نينوى . وقال ياقوت انها « قرية كالمدينة كثيرة الخيرات والاسواق والبيع والشراء والغالب على أهلها النصرانية . وبها جامع للمسلمين ، ولهم بقول وخس جيد يضرب به المثل » . وأطرى المستوفي جودة قطنها . والى الجنوب ببضعة أميال : كرمليس وكان بها سوق عامر على ما في ياقوت . وهي قرية شبيهة بالمدينة وبها تجار . وكان بالقرب من هذه الامكنة ايضا : مرجهينة أو مرج جهينة . بيد انها على ضفة دجلة وهي أول منزل لمن يريد بغداد من الموصل . وذكر المقدسي « انها كثيرة ابراج الحمام . والحصن من جص وحجر ، والجامع وسط البلد »[١٦] .

وبين الموصل وتكريت ، يستقبل دجلة في ضفته الشرقية مياه الزابين . ويصب احدهما على نحو مئة ميل فوق الآخر . وقد اطرى ابن حوقل المراعي والمزارع الخصبة الواسعة في ما بين هذين النهرين . ومبدأ الزاب الاعلى ، أي الكبير ، في الجبال بين ارمينية واذربيجان ، ومصبه في دجلة عند الحديثة . اما الزاب الاسفل أي الصغير ، ويسمى المجنون ايضا لحدة جريه ، فانه ينحدر من بلاد شهرزور وينصب في دجلة عند السن . وتعرف البلاد التي يمر بها الزاب الكبير على ما ذكر ياقوت ، باسم مشتكهر وبابغيش . ويكون ماؤه في أوله شديد الحمرة ، وكلما جرى صفا قليلا . اما الحديثة ، وهي على فرسخ فوق ملتقاه بدجلة (وتسمى حديثة الموصل تمييزا لها عن حديثة الفرات وقد مرّ ذكرها في الصفحة ٨٩) ، فقد اعادها الى العمارة مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية على

---

(١٦) ما زالت برطلي وباعشيقا وكرمليس ، من أعمر قرى شرقي الموصل . اما مرجهينة ، وهي في غربي دجلة ، جنوب الموصل قرب القيارة ، فقد حريت ، وتعرف بقاياها اليوم بهذا الاسم أيضا . وهي على يمين طريق السيارات القاصد بغداد ، وامامها « ساو » (أي شاطئ) واسع ينتهي بضفة دجلة وهو ما كان يقال له قديما مرج جهينة . (م) .

جرف يشرف على مناقع ، وهي كثيرة الصيود ذات بساتين واشجار ، وقد بنيت على شبه دائرة ويصعد اليها من دجلة بدرج . وجامعها مبني بالحجر قرب الشط . وكانت تعرف في أيام الساسانيين باسم نوكرد ومعنى ذلك بالفارسية (البلدة الحديثة) ايضا[١٧] . وقد كانت قصبة الكورة قبل قيام الموصل[١٨] .

وبلدة السن على ميــل تحت ملتقى الزاب الاســفل بدجلة ، على ما في المسعودي . ولكنها ، على ما في المقدسي ، فوقه ، والزاب الاصغر في شرقها . وكان معظم اهلها في العصور الوسطى نصارى . وفيها ، على ما ذكر ياقوت بيع لهم . وكان يقال لها سن بارمّا تمييزا لها عن غيرها من المدن المعروفة بالسن . وكان دجلة يقطع جبال بارما قرب السن . وجامع السن في الاسواق بناؤه بالحجارة . وللمدينة سور ، والى شرقها باربعة فراسخ ، على ضفة الزاب الاسفل : مدينة البوازيج (حسب تسمية ابن حوقل) والظاهر انها لا أثر لها اليوم في الخارطة . وكذلك الحال في السن والحديثة . وتعليل ذلك ان اسافل الزابين قد تبدلت كثيرا منذ المئة الرابعة (العاشرة) . وأشار ياقوت الى هــذه المدينــة باسم بوازيج الملك ، وظلت قائمة حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقد ذكر المستوفي انها كانت تؤدي الى بيت مال الايلخانيين ١٤٠٠٠ دينار .

ومن جنوب السن ، كان طريق البريد الى سامراء وبغداد ، يساير ضفة دجلة اليسرى مارا أولا ببارما وهي بلدة في لحف جبل بارما ، ويعرف أيضا بجبل حمرين . ومنها الى السودقانية ، وينتهي أخيرا الى جَبِيلتا أو جَبُلتا ، وقد كانت على ما يظهر دارا للضرب في سنة ٣٠٤ (٩١٦) ، وكانت على ضفة دجلة الشرقية شمالي تكريت بقليل ولا أثر لهذه البلدان الصغيرة الآن في الخارطة الا ان كتب المسالك قد ذكرت مواضعها بوجه دقيق .

وعلى نيف ومئــة ميل من شرق السن ، مدينــة دقوقاء أو دقوق ــ أورد علي اليزدي هــذا الاسم بصورة طاووق وطاوق وهي التســمية الشــائعة الآن ــ وقد

---

(١٧) لا أثر للحديثة اليوم . وقد سماها العرب « الحديثة » لما نزلوها بعد الاسلام واستحدثوها . وعرفها الارميون « حدتا » ومعناه الحديثة . وسماها اليونان « كيني (KAINAI) » وهي بالمعنى ذاته . (م) .

(١٨) الاصطخري ٧٥ ؛ ابن حوقل ١٤٧ و ١٥٥ ؛ المقدسي ١٣٩ و ١٤٦ ؛ ياقوت ١ : ٤٤٦ و ٤٧٢ و ٥٦٧ ؛ ٢ : ١٦٨ و ٢٢٢ و ٥٥٢ و ٦٠٢ ؛ ٤ : ٢٦٧ ؛ المستوفي ١٦٥ و ١٦٦ و ٢١٤ .

أكثر ياقوت ومن بعده من البلدانيين من ذكرها . وتكلم المستوفى على نهر دقوق (على ما ضبطه) ومخرجه في جبال كردستان قرب دربند خليفة ، ويفنى ماؤه اسفل مدينة دقوق فى الارض الرملية حيث ، على ما جاء فى المستوفى ، مواضع شديدة الخطر يسوخ فيها من يحاول اجتيازها . ويصل نهر دقوق الى دجلة فى موسم الفيضان على قوله ، ومجراه الاسفل هو ما يعرف اليوم بنهر العظيم[١٩] ولكن فى الازمنة القديمة ، حين كان النهروان حيا بأجمعه ، قد كانت مياه نهر داقوق فى فيضان الربيع تنصب فى النهروان . ووصف المستوفى مدينة داقوق بانها بلدة وسطة وهواؤها أصح من هواء بغداد وبالقرب منها عيون نفط . ومما تحسن الاشارة اليه ان البلدانيين العرب الاولين لم يذكروا هذا الموضع[٢٠] .

اما اربل ، وهى اربلا القديمة ، ففى فضاء من الارض واسع بسيط بين الزابين الكبير والصغير . وقد وصفها ياقوت بانها مدينة يقصدها التجار « وقلعتها على تل عال من التراب عظيم ولها خندق عميق ، وسور المدينة ينقطع فى نصفها وفيها سوق عظيمة . وبها مسجد يسمى مسجد الكف فيه حجر عليه كف انسان » . وفى المئة السابعة (الثالثة عشرة) قامت فى ربضها خارج السور مدينة

---

(١٩) ينصب فى العظيم ، الفائض من مياه نهر داقوق وغيره . وما زالت بقايا بعض انهار كانت تحمل هذه المياه الى العظيم وتقع فيه فوق البند (أى سد العظيم) نحو كيلومترين عند جبل حمرين . وكان يخرج من العظيم انهار تنساب الى الجنوب ، تسقى الاراضى المعروفة بالفرمة فى قضاء الخالص . ونهر يقال له البت ، كان ينساب الى الجنوب الغربى يسقى ما يعرف بالعيث . واراضى الفرمة والعيث اليوم جافة مقفرة لخراب سد العظيم وانقطاع الماء عن الانهار التى كانت تسقيها . (م) .

(٢٠) الاصطخرى ٧٥ ، ابن حوقل ١٥٣ ؛ المسعودى . التنبيه ٥٢ ؛ قدامة ٢١٤ ، المقدسى ١٣٣ ، ياقوت ١ : ٤٦٤ و ٧٥٠ ، ٢ ٥٨١ ، ٣ : ١٦٩ ، المستوفى ١٣٩ و ١٦٥ و ٢٢٠ . علي اليزدى ١ : ٦٦٠ .

لم يذكر ياقوت ومن سبقه من البلدانيين مدينة كركوك التى قال فيها علي اليزدى (١ : ٦٦١) انها قرب طاوق . ومما يلاحظ ان جبلتا (بفتح أوله وكسر ثانيه) أو جبلتا (بفتح أوله وضم ثانيه) وهى على دجلة بازاء تكريت كثيرا ما جاء اسمها خطأ بصورة حبلتا (على نحو ما جاء فى المقدسى ص ١٣٥ وهو من تصحيف النساخ أو الناشرين) . فالحرف الاول من هذا الاسم هو « الجيم » حتما اذ ان اسمها كثيرا ما ورد بالسريانية بصورة گبلتا . وفى خط هذه اللغة لا تتشابه صورة حرف الجيم وحرف الحاء . (انتهى كلام المؤلف) .

قلنا : كركوك اليوم من أجل مدن العراق ، وهى مركز لواء كركوك . وقد اشتهرت بغزارة نفطها الذى تستخرجه بكميات وافرة شركة النفط العراقية . ولهذه الشركة مقر كالبلدة قرب كركوك .

والمعروف ، ان التل الاثرى الذى تقوم عليه قلعة كركوك ، كان مدينة فى منتصف الالف الثانى قبل الميلاد ، تعرف باسم « أربخا » (Arrapkha) الذى حرف حديثا الى صورة « ارافا » واطلق على حى العمال الجديد فى شركة النفط في كركوك . (م) .

كبيرة عمرت فيها أسـواق وقساريات • واطرى المستوفى جودة غلتها لاسيما القطن[٢١] • والى شمال الموصل ، مدينة العمادية • وهى بالقـرب من منابع الزاب الاعلى • وعلى ما ذكر المستوفى ، نسبت العمادية الى مؤسسها عماد الدولة الامير الديلمى المتوفى سنة ٣٣٨ (٩٤٩) الا ان غيره من المؤلفين يعزون انشاء العمادية أو تجديدها فى سنة ٥٣٧ (١١٤٢) الى عماد الدين زنكى ابى امير الجزيرة المشهور نور الدين وكان صلاح الدين (الايوبى) من أشهر رجاله ، وروى ياقوت ان حصنا للاكراد كان هناك قبلها يعرف بآشب[٢٢] • ووصف المستوفى العمادية فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) بانها مدينة كبيرة[٢٣] •

وفى الجبال المجاورة للعمادية ، منابع نهر خابور الحسنية وهو ينصب فى دجلة شمال مدينـة فيسابور[٢٤] على نحو مئـة وخمسين ميـلا فوق الموصل • ومخرج هذا النهر (وهو غير خابور رأس العين) على ما جاء فى ياقوت ، من أرض الزوزان ، وكان عليه عند بلدة الحسنية قنطرة عظيمة وما زالت بقاياها

---

(٢١) ترقى مدينة اربل الى أقدم العهود الآشورية بل لعلها الموضع الآشورى الوحيد الذى ظل عامرا آهلا ومحتفظا باسمه حتى اليوم • واسم اربل الآشورى القديم هو « اربا – ايلو » ومعناه : اربعة آلهة • ولعل « اربا ايلو » من اسماء الالهة عشتار أيضا • فان مدينة اربل كانت موطنا لعبادة هذه الالهة • وقد ذكرها البلدانيون العرب باسم « اربل » على ما نوه به المؤلف أعلاه • وهى اليوم مدينة كبيرة عامرة تقوم احياؤها العتيقة على التل الاثرى العالى المعروف بقلعة أربيل وفى ارباضه امتدت احياؤها الحديثة • ويسميها الناس اليوم « اربيل واوربيل واولير وهولير » والصيغ الثلاث الاخيرة هى حسب نطق الاكراد لاسمها • ومدينة أربيل اليوم مركز لواء اربيل من الوية العراق الشمالية •

وفى سهل اربيل ، جرت الوقعة التاريخية الحاسمة بين الاسكندر الكبير ودارا ملك الفرس عام ٣٣١ ق • م • وهى الموقعة المعروفة باسم « كوكميلا » •

وكانت اربل فى العهد الفرثى عاصمة لمملكة حدياب الارامية التى امتد نفوذها فى وقت ما الى الفرات غربا ونصيبين شمالا • (م) •

(٢٢) العمادية اليوم بلدة فوق جبل منيع على ١٦٨ كيلومترا من شمال الموصل • وهى مركز قضاء باسمها فى لواء الموصل •

جاء فى الكتابات الآشورية اسم مدينة فى هذا الموضع أو بالقرب منه وهى « امات » Amat وأقدم ذكر لها انتهى الينا ، فى مسلة وجدت فى القصر الجنوبى العربى فى نمرود ، فيها اخبار شمسى أداد الخامس الملك الآشورى (٨٢٣ – ٨١٠ ق • م) وهو ابن شلمنصر الثالث • وذكرها الملك اداد نيرارى الثالث (٨٠٥ – ٧٨٢ ق • م) ابن شمسى اداد الخامس فى مسلة وجدت فى نمرود ايضا • وبقيت « أمات » مدينة معروفة حتى العصر البابلى الحديث (م) •

(٢٣) المقدسى ١٣٩ ؛ القزوينى ٢ : ١٩٢ ؛ ياقوت ١ . ١٨٦ ؛ ٢ ، ٣٨٤ ؛ ٣ : ٧١٧ و ٩٣١ ؛ المستوفى ١٦٥ و ١٦٦ •

(٢٤) وجاءت فى ياقوت بصورة فيشابور بالشين المعجمة • اما اليوم فتعرف باسم فيشخابور وهى الآن فى قضاء زاخو على الحدود العراقية التركية • (م) •

قرب قرية حسن اغا ، ولعل هذه القرية تمثل البلدة القديمة . وكان في الحسنية جامع . وقد وصفها المقدسي بانها موضع ذو شأن[٢٥] . وعلى مرحلة يوم من جنوبها في طريق الموصل ، بلدة معلثايا الصغيرة وفيها جامع على تل وهي كثيرة البساتين .

وفي شمال فيسابور ، الجزيرة وهي مدينة ذات شأن وتعرف بجزيرة ابن عمر نسبة الى الحسن بن عمر التغلبي بانيها . وكانت دجلة ، على ما ذكر ياقوت ، « تحيط بهذه الجزيرة الا من ناحية واحدة شبه الهلال ثم عمل هناك خندق أجري فيه الماء » . وفي المئة الرابعة (العاشرة) ، وصف ابن حوقل الجزيرة بقوله : « عليها سور وهي فرضة لأرمينية وكانت مشهورة بالجبن والعسل » وزاد المقدسي على ذلك ان بناءها من الحجارة « وهي رحلة في الشتاء » . وشاهدها ابن بطوطة وكان فيها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وقال : ان « أكثرها خراب . ولها سوق حسنة ومسجد عتيق مبني بالحجارة محكم العمل وسورها مبنى بالحجارة أيضا » . وذكر المستوفي انه كان من أعمالها مئة قرية ونيف . وكان قبالة جزيرة ابن عمر : بازبدى وهي قرية في كورة باقردى[٢٦] . وبازبدى تقوم مقام الحصن الروماني المشهور المسمى بزبدى (Bezabda) غير انه لم ينته الينا وصف لهذا الموضع .

ويرى من جزيرة ابن عمر ، من شرقيها ، جبل الجودي . وفي قمته مسجد نوح ، وتحت الجبل قرية الثمانين . وقد جاء في القرآن (السورة ١١ الآية ٤٣) ان فلك نوح « استوت على الجودي » . وهو الجبل الذي يتفق موضعه في الجزيرة وما عينته الروايات الاسلامية . ويقال ان ثمانين من رجال نوح بنوا قرية هناك سميت ثمانين بعددهم . وأشار المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) الى هذه القرية فقال هي مدينة على مرحلة شمال الحسنية . وسماها المستوفي بسوق

(٢٥) من رأى جرترود بل G. L. Bell ان زاخو هي الموضع المعروف لدى البلدانيين العرب بالحسنية نفسه . ولعل قرية حسنة القائمة بازائها في الجانب الآخر من الخابور قد حافظت على اسم الحسنية القديم . انظر كتابها Amurath to Amurath المطبوع في سنة ١٩١١ الصفحة ٢٨٧ الحاشية ٢ . (م) .

(٢٦) قلنا : بازبدى قرية سميت كورتها باسمها بها وهي في غربي دجلة . وباقردى كورة اخرى في شرقيه فهما كورتان متقابلتان (راجع معجم البلدان ١ ، ٤٦٦) فقرية بازبدى ليست من كورة باقردى (م) .

ثمانين ، وقال ان الخراب كان مستحوذا عليها في ايامه . وينصب في يسار دجلة ، قرب جزيرة ابن عمر ، روافد كثيرة سرد يافوت اسماءها وهي : يرني وباعيناثا (وهو باسانفا في ابن سرابيون) وعليه قرية كبيرة بهذا الاسم فوق الجزيرة . واسفل هذه المدينة في شمال خابور الحسنية ينحدر نهر البويار ودوشا من ارض الزوزان[٢٧] .

وفي جانب دجلة الغربي في سمت جزيرة ابن عمر ، كـورة طور عبـدين الجبلية ، وأهلها يعاقبة ،وفيها مخرج نهري الهرماس وخابور نصيبين . وكانت نصيبين وهي نسـيبيس (Nisibis) الرومانية وقد ذكر ياقوت انها مشهورة بوردها الابيض[٢٨] وببساتينها الاربعين الفا . تقوم في اعالي نهر الهرماس وقد سماه جغرافيـو اليـونان سـوكـورس (Saocoras) أو مكدونيس (Mygdonius) وما زالت نصيبين من أعظم مدن الجزيرة شأنا ، وصفها ابن حوقل ، وكان فيها سنة ٣٥٨ (٩٥٩) ، فقال : هي اجل بقاع الجزيرة واحسنها ، الى سعة غلات من الحبوب والقمح والشعير . ومخرج مائها عن شعب جبل يعرف بالوسا . وهي من أطيب المدن لولا الخوف من عقاربها . وعلى ما في المقدسي انها ارحب من الموصل . وأطرى . حماماتها الحسنة وقصورها المنيفة وسوقها من الباب الى الباب ، والجامع وسط البلد ، وبها حصن من حجر وكلس » . وقد زار ابن جبير نصيبين في سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وأطرى بساتينها . وذكر ان في جامعها صهريجين ، وعلى نهر الهرماس جسر معقود من صم الحجارة . وفيها مارستان ومدارس وغير ذلك من العمارات الحسنة . ووصف ابن بطوطة نصيبين ، وقد زارها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، فقال ان أكثرها قد خرب اما جامعها فكان قائما في ايامه وفيه صهريجاه الكبيران . وتحف بها البساتين الملتفة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب[٢٩] . وذكر المستوفي ان دور سورها نحو

---

(٢٧) الاصطخري ٧٨ ؛ ابن حوقل ١٥٢ و ١٥٣ و ١٥٧ ؛ المقدسي ١٣٩ ؛ ابن سرابيون ١٨ ؛ ابو الفداء ٥٥ و ٢٧٥ ، ياقوت ١ : ٤٦٦ و ٤٧٢ ؛ ٢ : ٧٩ و ١٤٤ و ٥٥٢ و ٩٥٧ ؛ ٤ : ١٠١٧ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٣٩ ؛ المستوفي ١٦٥ و ١٦٦ .

(٢٨) لم نجد في ياقوت ذكرا للورد الابيض في نصيبين . (م) .

(٢٩) هذا قوله فيها : « وتحف بها عن يمين وشمال بساتين ملتفة الاشجار يانعة الثمار ينساب بين يديها نهر قد انعطف عليها انعطاف السوار والحدائق تنتظم بحافتيه وتفيء ظلالها الوارفة عليه » . (م) .

٦٥٠٠ خطوة وأطرى كرومها الفاخرة وفواكهها الحسنة وخمورها الجيدة • ولكنه قال انها وخمة وبئة • وتكلم كذلك على جودة وردها وشر عقاربها المميتة وهى سامة مؤذية وكالبعوض كثرة[٣٠] •

وكانت رأس العين قرب منابع الخابور ، وهى رأس اينا (Ressaina) الرومانية على نهر خابوراس (Chaboras) مشهورة بكثرة عيونها البالغة ٣٦٠ عينا على ما يقال • وتجتمع هذه العيون تسقى بساتينها وتجعلها كأنها بستان واحد • وقيل ان عينا منها ، وهى عين الزاهرية ، لا يعرف لها قرار • والماء الماد منها يصب فى الخابور • وكانت الزواريق الصغار تدخل الى عين الزاهرية والناس يركبون فيها الى بساتينهم والى قرقيسياء على الفرات ان شاءوا • ووصف ابن حوقل رأس العين ، فقال انها مدينة ذات سور من حجارة وكان داخل السور بساتين وطواحين ، وكان لأهل المدينة نحو عشرين فرسخا قرى ومزارع مما يلى دورها • وذكر المقدسى ان « بها بحيرة صغيرة رأس الماء نحو من قامتين زلال ، يطرح الدرهم فلا يخفى فى اسفله » • والبنيان فى رأس العين حجارة وجص وقد مرَّ بها ابن جبير سنة ٥٨٠ (١١٨٤) وقال : لها جامعان ومدرسة وحمام على الخابور • ولم يكن للمدينة فى أيامه سور يحصنها وان كان فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قد عمر ثانية ، لان المستوفى ذكر ان محيطه نحو ٥٠٠٠ خطوة وقال انها كثيرة القطن والقمح والكروم •

وعلى نحو نصف المسافة بين رأس العين ونصيبين ، فى شمالهما ، القلعة الصخرية العظيمة : ماردين المشرفة على دنيسر التى هى تحتها فى السهل على نحو ثلاثة فراسخ جنوبها وكانت قلعة ماردين فى المئة الرابعة (العاشرة) يقال لها الباز • وهى معقل امراء بنى حمدان • وهذه القلعة على قنة جبل وفى جانبها الجنوبى نشأ ربض عظيم كان آهلا فى المئة السادسة (الثانية عشرة) • وقامت فيه « أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط • ودور اهلها كالدرج كل دار فوق

---

(٣٠) ابن حوقل ١٤٠ و ١٤٢ و ١٤٣ ؛ ابن سرابيون ١٢ ؛ المقدسى ١٤٠ ؛ ابن جبير ٢٤٠ ياقوت ٣ • ٥٥٩ ؛ ٤ : ٧٨٧ ؛ ابن بطوطة ٣ : ١٤٠ ؛ المستوفى ١٦٧ •

الأخرى وكل درب منهـا يشرف على ما تحته من الدور ليس دون سطوحهم مانع ، وجل شربهم من صهاريج معدة في دورهم » • ووصف ابن بطوطة ماردين وقد زارها في المائة الثامنة (الرابعة عشرة) بانها « مدينة عظيمة بهـا تصنع الثياب المنسوبة اليها من الصوف المعروف بالمرعز • ولها قلعة شماء تسمى الشهباء » • ويقال لها أيضا قلعة كوه « أي قلعة الجبل » • ووصف المستوفي ماردين فقال : يسقيها نهر صور الآتي من جبل باسمه في طور عبدين ويصب هذا النهر في الخابور ، وزاد على ذلك ان ناحيتها كثيرة الغلات والقطن والفواكه •

ودنيسر ، على بضعة فراسخ منها (تفاوت القول في ذلك ما بين فرسخين الى اربعة ويظهر ان موضعها الحقيقي غير معروف) • وكانت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) مدينة ذات أسواق عظيمة ويقال لها أيضا قوج حصار • وذكر ياقوت انه حين زارها في صباه في نهاية المئة السادسة (الثانية عشرة) رآها قرية ولكنها في سنة ٦٢٣ (١٢٢٥) « صارت مصرا لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق » • ووصفها ابن جبير ، حين مرّ بها في سنة ٥٨٠ (١١٨٤) ، بانها مدينة لا سور لها وهي مخطر للقوافل • وخارجها مدرسة جديدة وحمامات • ودارا ، على بضعة أميال شرقا • وكانت في أيام الرومان قلعة عظيمة • دكر ابن حوقل انها مدينة صغيرة[٣١] • ووصف المقدسي « قناة تعم البلد وتجرى فوق السطوح وتقر في الجامع ثم تنحدر الى واد • وبنيانهم حجارة سود وكلس » • وقال ياقوت انها بلدة في لحف جبل • ومن أعمالها يجلب المحلب الذي تتطيب به الاعراب • وهي ذات بساتين » • وحين مرّ ابن بطوطة بدارا في المئـة الثامنة (الرابعـة عشرة) كانت قلعتها خرابا لا عمارة بها • وكفرتوثا في جنوب غربي ماردين على نهرها الصغير • وذكر ابن حوقل انها صارت في المئة الرابعة (العاشرة) بلدة قليلة الشأن وكانت عند ملتقى الطريق المنحدر من آمد • وكانت حينذاك أوسع من دارا ، الا ان ياقوت الحموي أشار في المئة السابعة (الثالثة عشرة) الى انها

---

(٣١) لبيّن من مراجعة الاصول ان هذا القول للمقدسي لا لابن حوقل • (م) •

قرية كبيرة[٣٢] .

كان الخابور الكبير يستقبل فى يساره مياه نهر ماردين الآتى من رأس العين ، ويصب فيه أسفل من ذلك نهر الهرماس الآتى من نصيبين . على ان أكثر مياه هذا النهر كانت - على ما بينا - تنساب من سُكير العباس وكان على شيء يسير فوق ملتقى الهرماس بالخابور الى وادى الثرثار . فتجتمع من ذلك فى الخابور ميـــاه ثلاثــة أنهــار كبيرة ، هــذا الى ما ينصب فيــه من ميــاه ثلاثمئة جدول على ما ذكــر المستوفى . ثم ينحدر الخابور جنوبا الى قرقيسياء على الفرات وهى أكبر مدينة فى ديار مضر ، وسيجيء وصفها . وقبل ان يصل النهر الى هذه المدينة يمر بمدينتى عَرّبان وماكسين ، وهما فى أراضى الخابور من أعمال ديار ربيعة . وعربان أو عرابان ، وما زالت خرائبها موجودة ، كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة عليها سور منيع وتعمل فيهــا الثياب القطن ، وهى كثيرة الاقطــان التى تنمى فى جانبى الخابور . وتكلم المقدسى على عرابان وقال انها « تل رفيع حولها بساتين ، والى جنوبها فى نصف الطريق بينها وبين قرقيسياء : ماكسين (أو ميكسين) حيث كان جسر سفن يقطع الخابور . وكان القطن يكثر فيها أيضا . وعلى مقربة منها بحيرة صغيرة تسمى المنخرق ، استدارتها مساحة جريب أو أزيد وفيهــا ماء ازرق عذب كالزجاج المملوح ولا يعرف قعرها ولا يعلم كمية مائها » .

ويقال ان مخرج الهرماس من عين بينها وبين نصيبين ستة فراسخ (شمالا) مسدودة بالحجارة والرصاص . « ويقال ان الروم بنت هــذه الحجارة عليهــا لئلا تغرق هذه المدينة . وكان المتوكل لما دخل هذه المدينة سار اليها وأمر بفتحها ففتح منها شيء يسير ... فغلب عليه الماء غلبة شديدة حتى أمر باحكامه واعادته الى ما كــان عليــه بالحجارة والرصاص » . وعلى مئــة ميل أو يزيد جنوب نصيبين ، السكر المعروف بسكير العباس وكان هناك فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة كبيرة

---

(٣٢) البلاذرى ١٧٦ ؛ الاصطخرى ٧٣ و ٧٤ ؛ ابن حوقل ١٤٣ و ١٤٩ و ١٥٢ ؛ المقدسى ١٤٠ ؛ ابن جبير ٢٤٢ و ٢٤٤ ؛ القزوينى ٢ ، ١٧٢ ؛ ياقوت ٢ : ٥١٦ و ٦١٢ و ٧٣٣ و ٩١١ ؛ ٣ : ٤٣٥ ؛ ٤ : ٢٨٧ و ٣٩٠ ؛ المستوفى ١٦٦ و ٢٠٥ و ٢١٩ ؛ ابن بطوطة ٢ . ١٤٢ ؛ على اليزدى ١ : ٦٧٧ .

لها جامع /وأسواق • وسكير العباس[٣٣] فى رأس نهر الثرثار ، وقد كان يصب فى دجلة على ما بينا • اما اليوم فقد قل ماء الثرثار وانقطع جريه • وكان ماؤه منذ المئة السابعة (الثالثة عشرة) ضئيلا فحين كتب ياقوت معجمه ذكر انه « يمد اذا كثرت الامطار • فأما فى الصيف فلبس فيه الا منافع ومياه حامية وعيــون قليلة ملحة » • وقد ارتاد ياقوت مجراه غير مرة وزاد على ما تقدم : « يقال ان السفن كانت تجرى فيه (من الخابور الى دجلة) وكانت عليه قرى كثيرة وعمارة » • اما حين كتب ياقوت فلم تكن تلك البقاع غير برية مقفرة[٣٤] •

وفى برية سنجار ، كان نهر الثرثار يجرى بين مرتفعات يقال لها جبل حمرين ، وهو جبل بارما ، وكان الثرثار يستقبل من الشمال نهرا صغيرا ينحدر اليه من مدينة سنجار • وكان على سنجار فى المئة الرابعة (العاشرة) سور من حجر ، ونواحيها عامرة كثيرة الخيرات • واشار المقــدسى الى شــهرة اساكفتهــا وترنجها ونارنجها وقال « بها نخل كثير » والجامع فى وسط البلدة • وتقــول الروايات الاسلامية ان سفينة نوح نطحت فى جبل سنجار فى زمن الطوفان ، ثم استوت على جبل الجودى فى الجانب الشرقى من دجلة • وزاد ياقوت على ذلك ان فى مدينة سنجار ، على ما قيل ، ولد آخر سلاطين السلاجقة سنجار أو سـجر بن ملكشاه • وكانت سنجار ، على ما ذكر القزوينى فى المئة السابعــة (الثالثــة عشرة) ، مشهورة بحماماتها : فرشها فصوص وسقوفها جامات ملونة • ونوه ابن بطوطة ، وقد مرّ بهــا فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، بمسجدها الجامع الفخم • وكان دائر سورها على ما ذكر المستوفى ٣٢٠٠٠ خطوة وهو من حجارة ويصعد الى دورها بدرجات فى سفح الجبل • وتكثر فى بسـاتينها الكـروم والزيتون

(٣٣) ترى اليوم على الهرماس (نهر حقجغ ، ويسمى (Mygdonius Saocoras) بقايا سكر على شيء يسير من ملتقاه بالخابور ، كما يرى بقايا حصون رومانية على جانبى النهر • راجع : الخريطة ١٤٠ من اطلس كتاب •
A. Poidebard, La Trace de Rome dans la Désert de Syrie, (Paris, 1934).
وكذلك ص ١٢٩ ـ ١٤٣ من المتن • (م) •

(٣٤) الثرثار اليوم ما زال حاله على ما وصفه به ياقوت فى المئة السابعة للهجرة (الثالثة عشرة للميلاد) فالماء لا يجرى فيه الا فى موسم الامطار وترى فى جهات من الوادى عيون قليلة الماء تغلب عليه الملوحة • والبرية التى يشمها حالية قاحلة الا فى أيام الربيع فانها تتحول الى مراتع خضر ينتقل اليها الرعاة بأغنامهم من النواحى المجاورة • وترى فى جانبى الثرثار مقابل مدينة الحضر ، بقايا قنطرة من الحجارة • (م) •

والسماق[٣٥] . والحضر وهي حترا (Hatra) عند الرومان . ذكر ابن‌سرابيون ان الثرثار يمر بها عند نصف المسافة بين سنجار وملتقاه بدجلة قرب تكريت . وما زال يرى في الحضر بقـــايا قصر فرثي كبـــير[٣٦] . روى ياقوت ان بانيـه الساطرون شـيده من حجارة مربعـة ، وفيـه بيـوت كثـيرة بنيت سـقوفها وأبوابهـا بالحجارة المهندمة وذكر انه « يقال كان فيها ستون برجا كبارا وبين البرج والبرج تسعة أبراج صغار بازاء كل برج قصر »[٣٧] . وكان الطريق من الموصل الى نصـيبين في جانب دجلة الايمن . وهذا الطريق ينقسم عند بلد (الموضع المعروف اليوم باسكي موصل)[٣٨] وهي على اربعة فراسخ من الموصل

---

(٣٥) ما زالت سنجار من المدن العامرة في شمالي العراق وهي اليوم مركز قضاء سنجار في لواء الموصل . جاء في الكتابات المسمارية ما يدل على انها كانت منذ العصور الآشورية . واستولى عليها الرومان في القرون الاولى للميلاد . وذكرت كثيرا في أخبار الحروب بينهم وبين الفرس . وظلت على شيء من الاستقلال في عهدهم فان ملوكها ضربوا النقود باسمائهم ومن تلك النقود ما يرى في دور الآثار (م) .

(٣٦) ترى خرائب الحضر ، من قصور ومعابد وحصون وكلها مشيد بالحجارة المهندمة على اربعة كيلومترات من غرب وادي الثرثار وعلى نحو ٧٠ كيلومترا غرب الشرقاط وعلى ١٥٠ كيلو مترا جنوب غربي الموصل . وتاريخ هذه المدينة غامض غير معروف . فما زلنا نجهل زمن بنائها ومن بناها وسبب قيامها بمفردها في البرية الواسعة التي بين نهري دجلة والفرات . ولكننا نعرف انها وصلت الى أوج عزها في اواخر المائة الاولى للميلاد وثبتت أمام جيوش الرومان في المئة الثانية للميلاد . ولكنها لم تقو على الوقوف بوجه هجوم سابور الاول الساساني فقد فتحها بعد ان حاصرها واعمل السيف في أهلها ونهب قصورها ومعابدها في نحو منتصف المئة الثالثة للميلاد . ويظهر ان الحضر لم تنتعش بعد ذلك وهجرها من تبقى من أهلها .

وقد تسهت دار الآثار العراقية الى منزلة الحضر الاثرية فابتدأت في التنقيب فيها منذ عام ١٩٥١ وتوصلت في موسمين من التنقيبات الى نتائج عظيمة القيمة كشفت عن شيء مما غمض من احوال هذه المدينة وتاريخها . وعثرت في بعض المعابد على عدد من التماثيل الرخام وغيرها وعلى كتابات ارامية . وما زالت دار الآثار ماضية في الكشف عن خفايا هذه المدينة . راجع عن الحفريات في الحضر مجلة « سومر » (٧ : [١٩٥١] ص ١٧٠ — ١٨٤ ؛ ٨ : [١٩٥٢] ص ٣٧ — ٥٢ و ١٨٣ — ١٩٥) . (م) .

(٣٧) يكتب اسم البلدة سنجار بالف قبل الراء ، واسم السلطان سنجر من دونها . ابن سرابيون ١٢ و ١٨ ؛ الاصطخـــري ٧٣ و ٧٤ ابـن حـوقل ١٣٩ و ١٤٨ و ١٥٠ ؛ المقدسـي ١٤٠ و ١٤١ ؛ ياقوت ١ : ٤٦٤ و ٩٢١ ؛ ٢ : ٢٨١ ؛ ٣ : ١٠٩ و ١٥٨ ؛ ٤ : ٦٦٢ ؛ المستوفي ١٦٦ و ٢١٩ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٤١ ؛ القزويني ٢ : ٢٦٣ .

(٣٨) اسكي موصل قرية على نحو اربعين كيلومترا شمال غربي الموصل على ضفة دجلة اليمنى . تقوم عند الخرائب المعروفة اليوم بهذا الاسم . وهي بقايا مدينة « بلط » الآشورية التي ورد اسمها في كتابات سنحاريب الملك الآشوري (٧٠٥ — ٦٨١ ق . م) وقامت هناك مدينة في العصر الاسلامي ، سماها البلدانيون العرب باسم « بلد » و « بلط » . وقد عثر في بعض اطلالها على مسكوكات اتابكية احداها تعود الى قطب الدين مودود ، مما قد يؤول ان هذا القسم من الاطلال والسور الذي حولها فوق التل القديم من المنشئات الاتابكية . وعلى مقربة من اسكي موصل ،

الى طريقين : طريق يتجه الى اليسار ذاهبا الى سنجار مارا بتل اعفر . ذكر ياقوت انه كان في بلد مشهد علوى . وبلد في موضع المدينة الفارسية القديمة شهراباذ . وقال ان مدينة « بلد » ربما قيل لها بلط . واشار ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) الى بلد فقال هي مدينة كبيرة . وقال المقدسي في قصورها انها حسنة البنيان من جص وحجر فرجة الاسواق والجامع وسط البلدة وينمى في نواحيها قصب السكر وهي خصبة . وفوق تل « تل اعفر »(٣٩) المنفرد ، وهو على مرحلة واحدة من غربها ، قلعة حصينة تشرف على ربض كبير فيه نهر جار . وذكر ياقوت ان النخل كان ينمى في ناحية منها يقال لها المحلبية « نسبة الى المحلب وهو شيء من العطر » يعمل فيها(٤٠) .

اما الطريق الايمن ، فانه يبدأ من منقسمه ، مما يلي مدينة بلد ويذهب الى مدينة باعيناثا وقد وصفها المقدسي بقوله « نزهة طيبة وهي خمس وعشرون محلة ، يتخللها البساتين والمياه ، ليس مثلها بالعراق مع رفق ورخص » . وينبغي ان لا تخلط بينها وبين « قرية كبيرة كالمدينة » تعرف أيضا باعيناثا على النهر الذي يلتقي بدجلة شمال جزيرة ابن عمر ، على ما بيّنّا في الصفحة ١٢٤ وعلى طريق نصيبين مما يلي باعيناثا : برقعيد ، وهي بلدة يضرب المثل باهلها في اللصوصية . فكانت القوافل اذا نزلت بهم لقيت منهم الامَرّين . وكانت في المئة الثالثة (التاسعة) بلدة كبيرة عليها سور ولها ثلاثة أبواب وفيها مئتا حانوت وبها آبار كثيرة عذبة . وما حلت

قنطرة ذات طاق واحد تعرف بهذا الاسم أيضا . ارتفاعها ١٢ مترا في الوقت الحاضر وعرضها ٢٢٫٥٠ مترا مبنية بالحجارة الكبيرة المهندمة على بعضها حروف يحتمل انها يونانية . وفي وجه الطاق كتابة عربية منقورة في الحجر هذا نصها « عمل ... ٠٠٠ بن محمد الجزري رحمه الله » . ويرجع انها كتبت بعد انشاء القنطرة التي يبدو من طرازها انها رومانية . (م) .

(٣٩) تل أعفر ، بلدة في غربي الموصل ، على طريق سنجار ، وهي مركز قضاء تل اعفر ويقال في اسمها أيضا : تل يعفر وتليعفر وتل يعفور وتلعفر . وهذا الاخير هو الاسم الدارج اليوم . وقيل انما أصله « التل الأعفر » للونه فغير لكثرة الاستعمال وطلب الخفة . وكان اسمها عند الآشوريين نمت عشتار . (م) .

(٤٠) المحلبية (كشلبية) من قرى ناحية حميدات في لواء الموصل . قرب الحد الفاصل بين هذه الناحية وقضاء تلعفر . وهي اليوم قرية كبيرة كالبلدة فيها عين وافرة الماء تعرف بـ « سرب المحلبية » (سرب . وزان سبب) تعيش فيها اسماك وتسقى مياهها بساتين القرية التي تكثر فيها الاشجار المثمرة كالرمان والتين والعنب والخوخ وغيرها . وفي أطرافها بقايا بلدة اسلامية وتل عال يعرف بتل باليوز على سطحه كسر فخار من أدوار ما قبل التاريخ والدور الآشوري . ولعل أقدم من اشار اليها من البلدانيين العرب البشاري المقدسي فقد ذكرها مرتين في كتابه . (م) .

المئة السابعة (الثالثة عشرة) حتى تجنبتها أكثر القوافل لكثـرة أفاعيـل اهلها فاصبحت قرية صغيرة حقيرة .

وأذرمة في نحو نصف المسافة بين برقعيد ونصيبين ، وكانت مدينة مثل برقعيد كبرا وهي من كـورة تعرف بين النهرين . وانتهى الينـا من المئة الثالثـة (التاسعة) انه كان بها قصر حسن ونهر يشقها وعليه في وسط المدينة قنطرة معقودة بالصخر والجص . وفيها سوران احدهما دون الآخر ومن خارج السور خندق يحيط بالمدينة . وهذا ما انتهى الينا على كل حال مما وصفها به طبيب[٤١] الخليفة المعتضد ، وقد مرّ بها حين كان في خدمة الخليفة . وفي المئة الرابعة (العاشرة) وصف المقدسي اذرمة فقال « صغيرة في البرية ، شربهم من آبار وبنيانهم قباب »[٤٢] .

---

(٤١) في معجم البلدان (١ : ١٧٧) هو : احمد بن الطيب السرخسي الفيلسوف (م) .

(٤٢) قدامة ٢١٤ ؛ الاصطخري ٧٣ ؛ ابن حوقل ١٤٨ و ١٤٩ ، المقدسي ١٣٦ و ١٤٠ ؛ ياقوت ١ : ١٧٧ و ٤٧٢ و ٥٧١ و ٧١٥ و ٨٦٣ ، ٤ : ٤٢٨ ؛ القزويني ٢ : ٢٠٤ .

الفصل السابع

الجزيـــرة «تتمة»

ديار مضر ـ الرقة والرافقة ـ نهر البليخ وحران ـ اذسا وحصن مسلمة ـ قرقيسياء ـ نهر سـعيد والرحبـة والدالية ـ رصافة الشــام ـ عانة ـ بالس وجسر منبج وسميساط ـ سروج ـ ديار بكر ـ آمد وحاني ومنابع دجلة ـ ميافارقين وارزن ـ حصن كيفـا وتل فافـان ـ ســـــــعرت •

كانت ديار مضر ، على ما قد بينّا ، تحف بضفاف الفرات • واجل مدنها الرقة ، وهي فوق مصب نهر البليخ المنحدر من الشمال الى الفرات • وقامت فى موضع المدينة اليونانية القديمــة كلنيكس (Callinicus) وهى نقفــوريوم (Nicephorium) • وما اسم « الرقة » العربى الا نعت لها ، فالرقة كل ارض الى جنب واد ينبسط عليها الماء ، وقت الفيضان • ومن ثمة فالرقة توجد فى مواضع أخرى كتسمية لمكان • وهذه الرقة التى على الفرات عرفت بالرقة السوداء تمييزا لها عن غيرها •

وحين انتقلت الخلافة الى بنى العباس فى المئة الثانية (الثامنة) ، كانت الرقة من أهم مدن ما بين النهرين الاعلى ، وتسيطر على تخوم الشــام • فكان عليهــم الاحتفاظ بهــا فشرع الخليفة المنصور فى سنة ١٥٥ (٧٧٢) ببناء مدينة الرافقة على نحو ثلاثمئة ذراع من الرقة ورتب بها جندا من أهل خراسان الموالين للدولة الجديدة • ويقال ان الرافقة بنيت على غرار مدينة السلام • فكانت مدينة مدورة •

ثم ان الرشيد بنى قصورها وبنى له فيها قصرا سماه قصر السلام ، لانه كان يقيم فى الرقة أو الرافقة كلما اشتد الحر فى بغداد . وسرعان ما خربت الرقة القديمة وشيدت أبنية جديدة فى الارض الفضاء بين الرقة والرافقة ، وحول رقتها وكانت بحيرة ضحلة . وغلب اسم الرقة على الرافقة ، وقد كانت الاخيرة حينا من الزمن ربضا لها ، وبطل اسمها بمرور الايام . على ان ابن حوقل تكلم فى المئة الرابعة (العاشرة) على مدينتى الرقة والرافقة فقال هما « مدينتان كالمتلاصقتين وفى كل واحدة منهما مسجد جامع » . وكانتا كثيرتى الاشجار ، اما المقدسى فلم يصف الا الرقة وقال « الرقة قصبة ديار مضر ، بحصن عريض ولها بابان ، حسنة الاسواق كثيرة القرى والبساتين والخيرات ، ومعدن الصابون الجيد[1] والزيتون . وجامع الرقة فى البزازين وبها حمامات طيبة » . ثم قال : كان لكل بيت كبير فى الرقة دكة . وبالقرب منها خرائب مدينة قديمة يقال لها الرقة المحترقة . على ان المستوفى تكلم على الرافقة وقال هى ربض الرقة ، الجامع فى الصاغة فيه شجر عناب وبالقرب منها مسجد يطل على الفرات[2] .

وفى جانب الفرات الايمن ، بازاء الرقة فيما فوقها ، ارض صفّين المشهورة وفيها كان القتال بين اصحاب الخليفة علي ومعاوية وقبورُ من استشهد فى هذه الوقعة من اصحاب علي معروفة فيها . وروى ابن حوقل ، وقد تابعه فيه المستوفى ، ان من كان بعيدا عن القبور يرى عجبا ذلك انه يرى قبورا ويصعد الى المكان فلا يرى لذلك أثرا ولا يحسّ منه خبرا . ومقابل ارض وقعة صفين على ضفة الفرات الشمالية (اليسرى) قلعة يقال لها قلعة جعبر نسبة الى مالكها الاول وكان عربيا من بنى نمير وكانت هذه القلعة تعرف فى بدء امرها بدوسر وكثيرا ما تردد ذكرها فى آخر أدوار تاريخ الخلافة . وفى سنة ٤٩٧ (١١٠٤) استولى الفرنج

---

(١) اشار المقدسى (احسن التقاسيم ص ١٤٥) الى اشتهار الرقة بعمل الصابون . وللصابون الرقى وهو منسوب الى مدينة الرقة شهرة بعيدة ، وقد نوه به بعض الكتبة الاقدمين (انظر شرح اسماء العقار لموسى بن ميمون ص ٣٥ ، وعيون الانباء فى طبقات الاطباء ١ : ٢٦٤ ، ونخبة الدهر فى عجائب البر والبحر لشمس الدين الدمشقى ص ٢٠٠) . (م) .

(٢) عرفت الرقة باسم نقفوريوم . بناها الاسكندر الكبير فى زحفه على دجلة . وقد نالها الاذى اثناء الحروب الفارسية الرومانية والفارسية البزنطية لوقوعها على ممر الجيوش حتى كان الفتح العربى لها سنة ٦٣٨ م . (م) .

عليها من ادسا فى الحملة الصليبية الاولى • ويستقبل الفرات من يساره اسفل الرقة نهر البَليخ ، وقد عرفه اليونان باسم بليخا (Bilecha) ومنبعه من عين تسمى عين الذهبانية فى شمال حران • وورد اسم هذه العين ايضا فى المراجع التى بيدنا بصورة الدهمانية والذهبانة وكتبه المستوفى (بالفارسية) بصورة حشمة دهانة أى عين دهانة[٣] •

ويجرى البليخ نحو الجنوب ثم يلتقى بالفرات تحت الرقة ويمر بمدن جليلة كان سقيها من هذا النهر وروافده • فقرب منبعه حران (كرها Carrhae) وكانت مدينة الصابئين (وهم الصابئة الحرانية فينبغى الا يخلط بينهم وبين صابئة العراق اليوم) وهم على دين ابراهيم • ويقال ان حران كانت أول مدينة بنيت فى الارض بعد الطوفان • وقال المقدسى فى حران انها « مدينة نزيهة عليها حصن من حجارة على عمل ايلياء[٤] فى حسن البناء ، وفيها جامع • وذكر ابن جبير ، وقد مرّ بحرّان سنة ٥٨٠ (١١٨٤) ، ان لها سورا مبنيا بالحجارة ووصف الجامع فقال : له صحن كبير ذو تسعة عشر بابا وفيه قبة قد قامت على أسوار من الرخام • ولها اسواق مسقفة كلها بالخشب • ولهذه البلدة مدرسة ومارستان • وزاد المستوفى على ذلك ان محيط سور الصحن كان ١٣٥٠ خطوة • وعلى ثلاثة فراسخ من جنوبها ، مشهد ابراهيم ، وما حوله من اراضى تسقيه انهار لا عدّ لها[٥] •

اما ادسا وقد سماها العرب الرها (وهو تحريف للاسم اليونانى كلرهو Callirhoe) ، فهى عند منابع احد روافد البليخ • ولم يسهب البلدانيون

---

(٣) البلاذرى ١٧٩ و ٢٦٧ ؛ الاصطخرى ٧٥ و ٧٦ ؛ ابن حوقل ١٥٣ و ١٥٤ ؛ المقدسى ١٤١ ؛ ابن سرابيون ١٢ ، ابن رسته ٩٠ ؛ ابن خرداذبه ١٧٣ ؛ ياقوت ١ ، ٧٣٤ ؛ ٢ : ٦٢١ و ٧٣٤ ؛ ٤ ، ١١٢ و ١٦٤ ؛ المسعودى ١٦٦ و ٢١٩ ، ابن الاثير ١٠ : ٢٥٣ •

(٤) قال ياقوت (١ ، ٤٢٣) ايلياء : اسم مدينة بيت المقدس • (م) •

(٥) تقوم حران عند ملتقى الطرق التجارية فى شرق الفرات ولا سيما طريق الشام وطريق الجزيرة • وكانت حران منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، قاعدة اقليم كبير وظلت عامرة حتى المئة السابعة (الثالثة عشرة) • حكمها الآشوريون وحكمها اليونان والرومان والفرس قبل ان يأخذها العرب صلحا سنة ١٨ (٦٣٩) • ونزلها مروان الثانى آخر خلفاء بنى امية •

تبلغ مساحة اطلالها نحو ميل مربع يحيط بها سور خرب • وقد نقب الاثريون حديثا فى بقايا مسجدها الجامع وقلعتها • راجع عن الحفريات فى حران :

Anatolian Studies (Vol. I, 1951; pp. 77-III); Illustrated London News (Sep. 20, 1952 p. 466). – (م) •

المسلمون فى أخبار هذه المدينة ، لان أغلب سكانها اقاموا على نصرانيتهم • وأكثر ما اشتهرت به هذه المدينة كنائسها الكثيرة فقد ذكر ابن حوقل « بها زيادة على ثلاثمئة بيعة ودير ، وكان بها منديل لعيسى » ، أعطاه المسلمون للروم فى سنة ٣٣٢ (٩٤٤) انقاذا للرها من هجوم الروم عليها ونهبها • وقال المقدسى فى النصف الثانى من المئة الرابعة (العاشرة) بعد كلامه على جامعها ان « بها كنيسة عجيبة بآزاج ملبسة بالفسافساء هى احدى عجائب الدنيا » الاربع • وقال أيضا ان المسجد الاقصى فى بيت المقدس قد بني على غرارها •

وزاد على ذلك انها كانت مدينة محصنة • ولم تثبت الحامية العربية بوجه الحملة الصليبية الاولى فى سنة ٤٩٢ (١٠٩٨) • فاستولى بلدوين على ادسا وبقيت نصف قرن ولاية لاتينية • ولكن فى سنة ٥٤٠ (١١٤٥) استعادها زنكى[٦] من جوسلين الثانى (Jocelin II) • ومنذ هذا الزمن صارت الرها بايدى المسلمين • وكانت خرائب كثير من مبانيها الجميلة شاخصة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • ووصف المستوفى قبة عظيمة حسنة البناء بالحجارة تقوم وراء صحن سعته مئة ذراع ونيف فى مثلها • وذكر علي اليزدى مدينة الرها غير مرة فى حديثه عن حروب تيمور • وظلت الرها تعرف بهذا الاسم حتى مطلع المئة التاسعة (الخامسة عشرة) فانها بعد انتقالها الى ايدي الترك العثمانيين عرفت باسم « اورفا » وقيل ان هذا الاسم تحريف « الرها » العربى • وما زالت تسمى باورفا حتى اليوم[٧] •

---

(٦) هو عماد الدين زنكى وقد حكم سنة ٥٢١ – ٥٤١ هـ (م) •

(٧) الاصطخرى ٧٦ ؛ ابن حوقل ١٥٤ ؛ المقدسى ١٤١ و ١٤٧ ؛ ابن جبير ٢٤٦ ؛ ياقوت ٢ : ٢٣١ و ٥٩١ ؛ علي اليزدى ١ : ٦٦٢ ؛ المستوفى ١٦٦ • جهان نما ٤٤٣ •

اما منديل عيسى المشهور الذى كان فى ادسا وقتا ما ، فانه احد المناديل الكثيرة من نوعه (Veronica) ولا تتفق المصادر الوثيقة على ما اذا كان منديل ادسا هو ذاك المنديل المحفوظ فى رومة الآن ام انه المنديل الذى يشاهد فى جنوة • وهنالك مناديل أخرى غيرهما • وأقدم مرجع اسلامى ذكر هذا الموضوع هو كتاب المسعودى الذى الفه سنة تسليم المنديل المشهور الى امبراطور الروم قال فيه ان « ايشوع الناصرى حين خرج من ماء المعمودية تنشف به » • وذكر المسعودى ان فى سنة ٣٣٢ (٩٤٤) اعطى هذا المنديل للروم فجنحوا الى الهدنة وكان للروم عند تسلمهم هذا المنديل فرح عظيم • اما ابن حوقل ، وقد كتب فى تلك المئة نفسها ، فسماه « منديل عيسى بن مريم عليه السلام » • وقال ابن الاثير فى تاريخه فى اخبار سنة ٣٣١ (٩٤٣) ان « منديلا زعم ان المسيح مسح به وجهه

وفى جنوب حران على مقربة من شرق نهر البليخ ، مدينة باجدا الصغيرة على الطريق الى رأس العين • وكان فيها بساتين ، وهى قرب حصن مسلمة الذى هو أقرب الى البليخ منه الى باجدا وقد نسب هذا الحصن الى مسلمة بن عبد الملك الخليفة الاموى • وهو على تسعة فراسخ جنوب حران وعلى نحو ميل ونصف الميل عن ضفة النهر الحالية • « وشرب أهله من مصنع فيه طوله مئتا ذراع فى عرض مثله ، وعمقه نحو عشرين ذراعا معقود بالحجارة • وكان مسلمة قد اصلحه • والماء يجرى فيه من البليخ فى نهر مفرد فى كل سنة مرة حتى يملأ • فيكفى أهله بقية عام • ويسقى هذا النهر بساتين حصن مسلمة » •وكان الحصن « قد بني على قدر جريب من الارض (وهو ما يعادل ثلث ايكر) وارتفاعه فى الهواء أكثر من خمسين ذراعا » •وكان فى جنوب حصن مسلمة فى طريق الرقة على ثلاثة فراسخ منها : باجروان • وقد وصفها ابن حوقل فقال : « كانت منزلا خصبا نزها واسعا » • وقد عراها الاختلال فى المئة الرابعة (العاشرة) • اما ياقوت ، وقد قدمنا وصفه لحصن مسلمة ، فذكر ان باجروان قرية من ديار مضر[٨] •

وعلى نحو مثنى ميل اسفل من الرقة ، قرقيسياء وهى كركيسيوم (Circesium) القديمة على ضفة دجلة[٩] اليسرى حيث يصب الخابور فضلة مياهه فيه على ما قد بينّا فى الصفحة (١٢٧)• ووصف ابن حوقل قرقيسياء بانها « مدينة لها بساتين وأشجار كثيرة وهى فى نفسها نزهة » • اما ياقوت والمستوفى فقد ذكرا انها بلد أصغر من الرحبة المجاورة لها على ستة فراسخ منها فى الجانب الغربى من الفرات • والرحبة هذه سميت برحبة مالك بن طوق مؤسسها ، تمييزا

فصارت صورة وجهه فيه » • وتابع حديثه مبينا ان الخليفة المتقى وافق على تسليم هذا المنديل الى ملك الروم لكى يطلق كثيرا من اسرى المسلمين وبعد الروم عن الرها - اما الرواية النصرانية بشان منديل ادسا فهى على ما ذكر موسى الخوريني Moses of Chorene انه كان فى المنديل صورة المسيح مطبوعة باعجوبة وقد ارسلها المسيح الى ابجر ملك الرها - المسعودى ٢ : ٣٣١ ؛ ابن الاثير ٨ : ٣٠٢ •

(٨) ابن حوقل ١٥٦ ؛ قدامة ٢١٥ ؛ ياقوت ١ : ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٧٣٤ ؛ ٢ : ٢٧٨ •

(٩) لا شك ان ذلك من خطا الطبع فان المؤلف يريد الفرات ، فقد اثبتها على الفرات فى خوارطه • (م) •

لها عن غيرها من الرحاب . وقد عاش مالك في خلافة المأمون . وكان بالقرب منها : الدالية وهي بلدة صغيرة . والرحبة والدالية قرب نهر يقال له نهر سعيد ، كان يخرج من يمين الفرات على شيء قليل فوق قرقيسياء ويعود فيصب فيه فوق الدالية . وهي مثل الرحبة تعرف بدالية مالك ابن طوق تمييزاً لها عن غيرها . وكان قد أمر بحفر هذا النهر الامير سعيد ابن الخليفة عبد الملك الاموي ، وكان رجلا تقيا يلقب بسعيد الخير ، وقد تولى الموصل حينا من الزمن . وقد وصف المقدسي مدينة الرحبة فقال هي اجل مدن ناحية الفرات ، في الجزيرة ، وكانت دورها « من نحو البادية طيلسان » ولها حصن منيع وربض كبير . اما الدالية فكانت اصغر منها حسنة فوق شرف من الارض على شاطيء الفرات في غربيه .

وفي البادية ، بين الرحبة والرقة : الرصافة ـ وما زالت بقاياها على أربعة فراسخ جنوب الرقة وكانت تسمى رصافة الشام أو رصافة هشـام نسـبة الى بانيها[١٠] . فقد بنى الخليفة هشام احد ابناء عبد الملك هذا القصر له في البادية لما وقع الطاعون بالشام اتقاء شره . وكان يسكن في هذا الموضع ملوك غسان قبل الاسلام . وذكر ياقوت ان في الرصافة آبارا طول رشاء كل بئر مئة وعشرون ذراعا وأكثر . وذكرها ابن بطلان الطبيب في رسالة له كتبها سنة ٤٤٣ (١٠٥١) بقوله : فيها « بيعة عظيمة أنشأها قسطنطين الملك ، ظاهرها بالفص المذهب . وتحت البيعة صهريج في الارض على مثل بناء الكنيسة معقود على اسـاطين الرخام . وسكان هذا الحصن أكثرهم نصارى (في المئة الخامسة = الحادية عشرة) معاشهم تخفير القوافل وجلب المتاع والصعاليك مع اللصوص » فكانوا يرافقون القوافل في اجتيازها البادية الى حلب . وكان في شرقي الفرات ، بين الرقة وقرقيسياء ، على يومين فوق قرقيسياء ، الخانوقة . وهي على ما ذكر ابن حوقل مدينة « رزحـة الحال » . وزاد ياقوت عليـه ان بالقـرب منهـا أرض « المضيق » .

---

(١٠) تقوم اطلال رصافة الشام ، وتعرف برصافة هشام ، على نحو مئتي كيلو متر من شرق حلب . وقد ورد ذكرها في النصوص الآشورية . وفي سفر الملوك الرابع (١٩ : ١١ ـ ١٢) . ولم يبق من هذه المدينة الا اطلال في صحراء مقفرة (م) .

ولم يكن في اقليم الجزيرة اسفل من قرقيسياء ، مدينة ذات شأن غير عانة وهي اناتو Anatho القديمة وما زالت ترى في الخارطة العصرية[١١]. وقد ذكرها ابن سرابيون فقال ان الفرات يدور بها وتصير جزيرة فيها مدينة. اما ابن حوقل فقال ان عانة « في وسط الفرات ويطوف بها خليج من الفرات » . وزاد ياقوت على ذلك ان « بها قلعة حصينة مشرفة على الفرات » واليها التجأ القائم بأمر الله في سنة ٤٥٠ (١٠٥٨) حين استولى البساسيري الديلمي على بغداد[١٢] وأمر باقامة الخطبة في غيبته باسم خليفة مصر الفاطمي . وقال المستوفي ان عانة كانت حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) مدينة حسنة ذات نخيل وفرضتها تعرف بفرضة نُعم وهي الى غرب عانة على الفرات في وسط المسافة بين عانة وقرقيسياء ولعلها عند المنعطف الشرقي للفرات ولكنها لا ترى اليوم بالخارطة . وكانت هذه الفرضة محطة مهمة عند منقسم الطريق ، فيقطع ايسره البادية مارا بالرصافة ثم الى الرقة رأسا ويصعد الطريق الايمن مع النهر[١٣].

(١١) قلنا : ما زالت عانة بلدة عامرة على الفرات وهي مركز قضاء عانة في لواء الدليم على ٢١٢ كيلومترا شمال الرمادي . وقد ورد اسمها في الكتابات المسمارية بصورة (أناث) وفي المراجع الاغريقية بصورة « اناثا » وفي الكتابات التدمرية باسم « عانة » وسماها الاراميون « عانات » .

قال المستشرق موسيل في كتابه الفرات الاوسط Musil, The Middle Euphrates (ص ٣٤٥ - ٣٤٩) كانت عانة المعسكر السابع والعشرين في الطريق الذي أنشأه الملك الآشوري توكلتي نينورتا الثاني (٨٨٩ - ٨٨٤ ق . م) لقد كان معسكره قبالة جزيرة « عانات » في أرض سوخي وهي « عانة » الوقت الحاضر . وكانت عانة في الاصل تقوم في الجزر الخصبة ولم تكن في الازمنة السابقة على ما هي عليه من امتداد ولم يكن اهلها في مأمن من غزوات البدو فقط بل ان مركزها ساعدهم على اخضاع الجهات المجاورة . ولهذا كان الآشوريون عادة يولون سادة عانة حكاما على مقاطعة سوخي . وكان الملك توكلتي نينورتا الثاني قد تسلم الجزية من ابلو ابني رئيس سوخي الذي كان في بلدة « انات » في وسط الفرات .

ومر اسطول تراجان الروماني بجزيرة « آناثا » في عام ١١٤ م . وفي سنة ٣٦٣ م حاصرها الاسطول الروماني فاحرقها وهرب اهلها منها . وفي اليوم التالي غرقت عدة سفن من هذا الاسطول لصدمها سدودا في النهر . وفي أوائل سنة ٥٩١ م ارسل وراسس جيشا الى قرية عانة لصد كسرى من الرجوع الى بلاد فارس . وفي كتاب الخراج لابي يوسف (ص ١٨٥) مر خالد بن الوليد ببلاد عانات فخرج اليه « بطريقها » فطلب الصلح فصالحه وأعطاه ما اراده ... وقد ورد ذكر عانة في مؤلفات البلدانيين والمؤرخين العرب وغيرهم (م) .

(١٢) المعروف في التواريخ ان الخليفة نفي الى حديثة النورة ، وتعرف أيضا بحديثة عانة . راجع مثلا المنتظم ٨ : ٩٤ (الدكتور مصطفى جواد) .

(١٣) الاصطخري ٧٧ و ٧٨ ؛ ابن حوقل ١٥٥ و ١٥٦ ؛ المقدسي ١٤٢ ؛ البلاذري ١٧٩ و ١٨٠ و ٣٣٢ ؛ ابن سرابيون ١٠ و ١٤ ؛ ياقوت ٢ . ٣٤٩ و ٥٣٨ و ٧٦٤ و ٧٨٤ و ٩٥٥ ؛ ٣ : ٥٩٥ و ٨٧٦ ؛ ٤ . ٦٥ و ٥٦٠ و ٨٤٠ ؛ المستوفي ١٣٦ و ١٦٦ .

وكان على الفرات فوق الرقة ، ثلاث مدن وهى : بالس ، وجسر منبج وسُمَيساط . وقد كانت تحسب جميعا من أعمال الشام فى الغالب ، لوقوعها فى يمين الفرات ، أى فى جانبه الغربى . وان عدها أكثر المؤلفين من أعمال الجزيرة .
وكانت بالس فى غرب الرقة عند حد ارض صفين حيث يتجه الفرات شرقا بعد جريانه الى الجنوب . وهى بربلسس (Barbalissus) عند الرومان ، وكانت فرضة عظيمة لأهل الشام على الفرات ، ومن ثم كانت مركزا لكثير من طرق القوافل . وقد وصف ابن حوقل مدينة بالس فقال « عليها سور ازلي ولها بساتين فيما بينها وبين الفرات . وأكثر غلاتها القمح والشعير » . وهى وان كان الخراب قد امتد اليهـا ، فقـد قال المقدسى فى المئة الرابعـة (العاشرة) انها ما زالت عامرة . على ان ياقوت الحموى ذكر ان الفرات فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) « لم يزل يشرّق عنها قليلا قليلا حتى صارت بينهما فى أيامنا هذه أربعة أميال » . ولمّح ابو الفداء الى بالس فقال انها « بلدة كانت مسكونة » .

وجسر منبج ، على الفرات ومنه يصعد طريق يغرّب الى منبج « هيرابولس » (Hierapolis) من أعمال حلب وكانت موضعا ذا شأن فى القرون الوسطى . وعند الجسر « قلعة حصينة تحتها ربض عامر مطلة على الفرات » . ويقال لهذه القلعة قلعة النجم لأنها على جبل وكانت تسمى أيضا حصن منبج . ولما مرّ ابن جبير بقلعة النجم وهو آت من حران فى سنة ٥٨٠ (١١٨٤) قال « حولها ديار بادية وفيها سويقة » . وقال ابو الفداء ان بناء القلعة « صار يعرف بقلعة نجم وهو من بناء السلطان (نور الدين) محمود بن زنكى وكانت مسلحة تشدد النكير على ما فى يد الصليبيين من مدن » . وذكر القزوينى ، وقد كتب فى النصف الاخير من المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، حكاية طويلة عن « طائفة يتعانون أنواع القمار . فاذا رأوا غريبا أظهروا انهم مرمدين (كذا) ويلعبون دونا ليظن الغريب انهم فى طبقة نازلة يطمع فيهم ويخرجون المال اذا قمروا من غير اكتراث فتتوق نفس الغريب ان يلعب معهم فكلما جلس لا يتركونه يقوم ومعه شىء حتى سراويله . وربما استرهنوا نفسه ومنعـوه من الذهاب حتى يأتى أصحابـه ويؤدون عنـه ويخلصونه » .

وسميساط ، وهى سموساطا (Samosata) عند الرومان ، أعلى هذه المدن على الفرات فى ضفته اليمنى أى الشمالية . وعند هذه المدينة ينحرف النهر الى الغرب . وقد كانت قلعة حصينة مكينة . وذكر المسعودى ان سميساط كانت تعرف أيضا بقلعة الطين . وروى ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ان « شقا من قلعتها يسكنه الارمن » . ويحسن بنا أخيرا ان نذكر مدينة سروج استكمالا لما وصفنا من مدن ديار مضر . فقد كانت فى نحو نصف الطريق الضارب شمالا من الرقة ، قاطعا البرية الى سميساط . ويكون هذا الطريق وترا لنصف الدائرة العظيمة التى يؤلفها مجرى الفرات . وكانت سروج أيضا على طريق القوافل من حران والرها الى جسر منبج . وقد قال فيها ابن حوقل انها مدينة عامرة خصبة ، وأيده ياقوت فى ذلك دون ان يزيد شيئا[١٤] .

اما مدن ديار بكر ، وهى اصغر الديار الثلاث التى يتألف منها اقليم الجزيرة ، فان كلها على دجلة الاعلى أو فى شماليه . وكانت قصبة هذه الديار : آمد وتكتب أحيانا حامد وهى آمدا (Amida) عند الرومان . وتم اشتهرت بعد تلك الازمان باسم ديار بكر ، وهو ما تعرف به اليوم أيضا . وقيل لها أيضا قره آمد (أى آمد السوداء) لان حجارة بنائها سود .

ومدينة آمد ، فى غربى دجلة أى بمينه ، ويطلّ عليها جبل علوه مئة قامة[١٥] . قال ابن حوقل « عليها سور اسود من حجارة الارحية » . ووصف المقدسى آمد فقال « بلد حصين حسن عجيب البناء على عمل انطاكية ... له أبواب وعليه شرف بينه وبين الحصن فضاء » نشأت فيه أرباض بعد ذلك . وفى آمد عيون . وأشار المقدسى أيضا الى انها بنيت « بحجارة سود صلبة وكذلك أساسات الدور . وفى وسط البلد : الجامع . ولأسوارها خمسة أبواب : باب الماء وباب الجبل وباب الروم وباب التلّ وباب السر يحتاج اليه وقت الحرب » . وكان بعض

---

(١٤) الاصطخرى ٦٢ و ٧٦ و ٧٨ ؛ ابن حوقل ١١٩ و ١٢٠ و ١٥٤ و ١٥٧ ؛ المقدسى ١٥٥ ؛ المسعودى ١ : ٢١٥ ؛ ابن جبير ٢٥٠ ؛ ياقوت ١ : ٤٧٧ ؛ ٣ : ٨٥ و ١٥١ ؛ ٤ : ١٦٥ ؛ أبو الفداء ٢٣٣ و ٢٦٩ ؛ القزوينى ٢ : ١٦٠ .

(١٥) هذا ما فى طبعة ابن حوقل الاولى . وفى طبعته الثالثة (ص ٢٢٢) ان علوه نحو خمسين قامة (م) .

الحصن - على ما أشار المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) - على الجبل ثم قال « لا أعرف للمسلمين اليوم بلدا أحصن ولا ثغرا أجل منها » في تخوم المسلمين بوجه الروم .

وفي سنة ٤٣٨ (١٠٤٦) مرّ ناصر خسرو الحاج الفارسي بآمد ودوّن وصفا دقيقا للمدينة حسبما رآها بنفسه ، فكان طول المدينة ألفي خطوة وعرضها مثل ذلك . وسورها من الحجارة السود يحيط بالتل المشرف عليه . وعلو هذا السور عشرون ذراعا وثخنه عشر أذرع وأكثر حجارته ملتصق بعضه ببعض من غير طين أو جص ، اذ كل حجر منه على قول ناصر خسرو يزن ألف من[١٦] (ويعادل ذلك نحو ثلاثة أطنان) . وعلى بعد كل مئة ذراع من السور بني برج نصف دائري تنتهي قمته بشرفات من الحجارة السود أنفسها . وقد شيد في عدة أماكن داخل السور مراق من الحجر يصعد بها الى أعلى السور . وكان فيه أربعة أبواب حديد تقابل الجهات الاصلية ، يسمى الباب الشرقي باب دجلة ، والشمالي باب الارمن ، والغربي باب الروم ، والجنوبي باب التل . وخارج هذا السور سور آخر من الحجر نفسه علوه عشر أذرع . وفي الفصل بينهما ربض كالحلقة عرضه ١٥ ذراعا . وكان من فوق هذا السور شرفات ومرقاة للدفاع . وكان له أيضا أربعة أبواب حديد تناظر أبواب السور الداخل . وزاد ناصر خسرو على ذلك انه لم ير امنع من آمد .

وفي وسط المدينة عين يتفجر ماؤها من الحجر الاصم . وهذا الماء من الغزارة بحيث يكفي في ادارة خمس أرحاء ، وهو غاية في العذوبة . وتسقى البساتين المجاورة من هذا الماء . ومسجدها الجامع جميل البناء وهو من الحجر الاسود كسائر المدينة . وقد أقيم في وسطه أكثر من مئتي سارية من الحجر كل سارية قطعة واحدة . ويعلو هذه السواري عقود من الحجر نصبت فوقها سوار أقصر من تلك . وجميع سقوف المسجد من الخشب المحفور والمنقوش والمدهون . وفي صحن الجامع حوض مستدير من الحجر في وسطه أنبوب من النحاس ينفر منه ماء صاف . فيبقى الماء في الحوض على مستوى واحد في كل الاوقات . وبالقرب من الجامع كنيسة عظيمة مبني كلها من الحجر وقد فرشت أرضها

---

(١٦) وفي الترجمة العربية للخشاب (ص ٨) ان كل حجر منه يزن ما بين مئة وألف من (م) .

بالرخام ، وجدرانها غنية بالزخارف ، ورأى ناصر خسرو فيها بابا جميلا من الحديد المشبك يؤدى الى مذبحها لا نظير له .

وقد أيد المعلق المجهول على مخطوطة باريس من كتاب ابن حوقل ما ذكرناه عن روعة مدينة آمد وجلالها فى تعليقاته أيضا . فقد كان هذا المعلق فى آمد سنة ٥٣٤ (١١٤٠) وذكر ان أسواقها حسنة عامرة[١٧] . وفى المئة السابعة (الثالثة عشرة) أعاد ياقوت والقزوينى أكثر الوصف المتقدم . فقال القزوينى فى آمد ان دجلة فى ايامه « ... محيطة بها من جوانبها الا من جهة واحدة على شكل الهلال وانها كثيرة الاشجار والبساتين » وكتب المستوفى بعد ذلك بقرن فقال انها بلدة وسط وكان ما تؤديه لحكومة الايلخانيين ثلاثة آلاف دينار[١٨] . واستولى تيمور عليها فى ختام هذا القرن[١٩] .

وفى شمال آمد على مقربة من أحد السواعد الشرقية فى أعالى دجلة ، مدينة حانى . ذكر ياقوت ان « فيها معدن الحديد ومنها يجلب الى سائر البلاد » . وذكر المستوفى مدينة حانى أيضا . وعلى بعد قليل من غربها « اصل دجلة العراق فانها تخرج من تحت كهف الظلمات ماء أخضر » على حسب وصف المقدسى . وقال « أول مبداها ــ أى دجلة ــ لا تدير أكثر من رحى واحدة . أول ما يختلط بها نهر الذئب » وهو نهر الكلاب عند ياقوت على ما يظهر . وكان يخرج من الجبال قرب شمشاط شمالى حانى . وأول مخرج دجلة فيما قال ياقوت ، على مسيرة يومين ونصف من آمد ، من موضع يعرف بهلورس « وهو الموضع الذى استشهد فيه علي الارمنى » . وتكلم أيضا على الكهف المظلم الذى يخرج منه ماؤه . وذكر المقدسى وياقوت اسماء سواق ورواضع وانهار كثيرة ليس من الهين التوفيق بين اسمائها التى سردها المقدسى وسردها ياقوت فى كلاميهما عليها . ولعل هذه الاسماء تبدلت تبدلا كبيرا فيما بين المئة الرابعة والمئة السابعة (العاشرة والثالثة عشرة) .

---

(١٧) فى التعليق المذكور خلاف ذلك . ففى الصفحة ٢٢٣ من الطبعة الثانية لابن حوقل ما يأتى : « .... لم يبق باسواقها حانوت فضلا ان يقال مسكون » (م) .

(١٨) فى الاصل الفارسى لنزهة القلوب (ص ١٠٣ من طبعة لسترنج) « سى هزار دينار » ومعناها ثلاثون الف دينار (م) .

(١٩) الاصطخرى ٧٥ ؛ ابن حوقل ١٥٠ و ١٥١ ؛ المقدسى ١٤٠ ؛ ناصر خسرو ٨ ؛ ياقوت ١ : ٦٦ ؛ القزوينى ٣٣١ ؛ المستوفى ١٦٥ ؛ علي اليزدى ١ : ٦٨٢ .

وعلى شيء يسير اسفل من آمد ، يشرّق نهر دجلة فيكون على هيئة زاوية قائمة ثم ينصب فيه من شماله نهر يقال له نهر الرمس أو نهر الصلب . غير ان أعظم الانهار المنصبة فيه : النهر المنحدر من شمال ميافارقين ، ويتفرع منه نهر يسقى هذه المدينة وهو نهر ساتيدما أو ساتبدماد وكان أحد فروعه يسمى وادى الزور الآخذ من انحاء كلّك . اما نهر ساتيدما ، فأول مائه من درب الكلاب . وانما سمى بذلك ، على ما ذكر ياقوت ، لأن الروم قتلهم انوشروان « قتل الكلاب » وقد وقعت هذه الحادثة قبيل مولد النبى محمد . ونهر ساتيدما هذا الذى ذكره ابن سرابيون هو ما سماه المقدسى بنهر المسوليات وهو المعروف اليوم باسم بطمان صو وأحد روافده على ما بيّنّا ينحدر من ميافارقين[٢٠] .

والظاهر ان ميافارقين العربية تحريف لاسم ميفركت (Maypharkath) الارامى أو موفركن (Moufargin) الارمنى . وسماها اليونان مرتيروبولس (Martyropolis) . وقد ذكرها المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) فقال « بلد طيب حصين له شرف وفصيل بحجارة وخندق بها ربض فيه الجامع » . ولكن المقدسى لمح الى انها « قليلة البساتين » . وزار ناصر خسرو ميافارقين فى سنة ٤٣٨ (١٠٤٦) وتكلم على المدينة قائلا ان عليها سورا عظيما من الحجر الابيض الذى يزن الحجر منه خمسمئة منّ (نحو طن ونصف طن) . وبينما كانت آمد مبنية بالحجر الاسود ، على ما قد بيّنّا ، كانت مبانى ميافارقين كلها من الحجر الابيض . وكان سورها فى أيامه كأنه بني اليوم . وفى أعلاه شرفات . وعلى بعد كل خمسين ذراعا منه برج عظيم من الحجر الابيض نفسه . ولهذه المدينة باب من ناحية الغرب ركب فيه باب من حديد لا خشب فيه . وكان فيها على ما ذكر ناصر خسرو مسجد جامع حسن البناء ومسجد ثان فى الربض ظاهر المدينة يقوم فى وسط الاسواق ويليه بساتين كثيرة . وزاد على ذلك ان فى ناحية الشمال ، على شيء يسير من ميافارقين ، مدينة أخرى تسمى المحدثة ، بها مسجدها الجامع وحماماتها وأسواقها . وعلى اربعة فراسخ من ميافارقين مدينة النصرية بناها مرداسد

---

(٢٠) ابن سرابيون ١٧ و ١٨ ؛ المقدسى ١٤٤ ؛ ياقوت ٢ : ١٨٨ و ٥٥١ و ٥٥٢ و ٥٦٣ و ٩٥٦ ؛ ٣ : ٧ و ٤١٣ ؛ ٤ : ٣٠٠ و ٩٧٦ ؛ المستوفى ١٦٥ .

أمير نصر الملقب بشبل الدولة[٢١] .

وأسهب ياقوت والقزوينى فى حديثهما عما كان فى ميافارقين قديما من مختلف البيع وعن أبراجها الثلاثة وأبوابها الثمانية. وقال ياقوت ان اسمها عند الروم مدور صالا ومعناه بالعربية مدينة الشهداء . ويرجع تاريخ هذه المبانى الى ايام الملك ثيودسيوس . وكان بها من بقايا هذه البيع حتى المئة السابعة (الثالثة عشرة) بيعة « من عهد المسيح » . . « وفى برج فى الركن الغربى القبلى فى أعلاه صليب منقور كبير يقال انه مقابل البيت المقدس . وعلى بيعة القيامة فى البيت المقدس صليب مثل هذا مقابله ويقال ان صانعهما واحد » . والى ذلك فقد « كان فى المحلة المعروفة بزقاق اليهود فى ميافارقين قرب كنيسة اليهود جرن من رخام اسود فيه منطقة زجاج من دم يوشع بن نون وهو شفاء من كل داء ... جيء به من رومية الكبرى » . ولما انتقلت ميافارقين فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) الى يد المغول كانت ما زالت موضعا ذا شأن . وقد أطرى المستوفى طيب هوائها ووفرة فاكهتها[٢٢] .

وارزن ، على شيء يسير من ميافارقين ، على الضفة الغربية لنهر أو واد يقال له سربط . ولأرزن حصن عظيم منيع . وقد زارها ناصر خسرو فى سنة ٤٣٨ (١٠٤٦) فقال انها مدينة عامرة فيها أسواق حسنة وتحف بها بساتين يانعة كثيرة الماء . وذكر ياقوت مدينة أرزن (ولا يخلط بينها وبين ارزن الروم أو ارضروم التى سنصفها فى الفصل الآتى) بقوله : « بلغنى ان الخراب ظاهر فيها الآن » غير ان المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ــ وقد كتبها بصورة ارزنه ــ تكلم عليها بما يستدل منه على انها ما زالت بلدا مزدهرا عامرا .

وعلى ضفة الفرات الجنوبية ، بين مصبى النهرين الآتيين من شمال ميافارقين وارزن ، حصن يعرف بحصن كيفا . وسماه الروم كيفس (Kiphas) أو كيفي

---

(٢١) ما فى الترجمة العربية لسفرنامه ان الامير الذى بنى النصرية (وجاءت فى الترجمة : الناصرية) هو « الامير الاعظم عز الاسلام سعد الدين نصر الدولة وشرف الملة ابو نصر احمد » (م) .

(٢٢) ابن حوقل ١٥١ ؛ المقدسى ١٤٠ ؛ ناصر خسرو ٧ ؛ ياقوت ٤ : ٧٠٣ ــ ٧٠٧ ؛ القزوينى ٢ : ٣٧٩ ؛ المستوفى ١٦٧ .

(Cephe) . ووصف المقدسي حصن كيفا بانها « كثيرة الخير وبها قلعة حصينة وكنائس كثيرة » . وتكلم الملق المجهول على مخطوطة ابن حوقل الذى أشرنا اليه قبلا ، وقد كتب تعليقاته في المئة السادسة (الثانية عشرة) على قنطرة كانت « بين يديها على دجلة ، استحدثها الامير فخر الدين قرا ارسلان في سنة ٥١٠هـ (١١١٦) وتحتها ربض عامر فيه الاسواق والفنادق والمساكن الحسنة وبناؤهم بالحجر والجص . ولها رساتيق كثيرة وضياع عامرة وهي وخمة الهواء وبيئة لاسيما في الصيف » . وذكر ياقوت حصن كيفا وقد زارها فقال : « بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة وهي كانت ذات جانبين ، وعلى دجلة قنطرة لم أر في البلاد التي رأيتها أعظم منها » وهي طاق كبير فوقه طاقان صغيران ، وعلى ما يظن انهما كانا يقومان على دعامة في وسط النهر قسمت دجلة الى قسمين[٢٣] . ووصف المستوفي حصن كيفا بعد ذلك بقرن بانها مدينة عظيمة ولكن الخراب ظاهر فيها وان كانت آهلة بالناس حينذاك .

اما التل المعروف بتل فافان ، ففي أسفله مدينة بهذا الاسم على ضفة دجلة الشمالية أي اليسرى ، على نحو خمسين ميلا شرق حصن كيفا حيث ينعطف النهر انعطافا عظيما نحو الجنوب . وكان حول المدينة ، على ما ذكر المقدسي ، في المئة الرابعة (العاشرة) ، بساتين . وأسواقها عامرة وبناؤها وان كان من طين، الا ان اسواقها كانت مغطاة ، والنهر الذى يلتقي بدجلة عند تل فافان ينحدر من بدليس (بتلس) ومخرجه في جبال ارمينية جنوب غربي بحيرة وان . ويقترن بهذا النهر رافد عظيم ينبع من جنوب البحيرة سماه المقدسي وياقوت : وادى الرزم . ويصير دجلة اسفل اقترانهما في مجرى واحد صالحا لسير السفن . وعلى ضفاف نهر الرزم شمال تل فافان وفوق مصب نهر بدليس فيه ، مدينة سعرت أو سعرد أو اسعرت . وكانت تعد في الغالب من أعمال ارمينية . أشار اليها ياقوت غير مرة ولكنه لم يصفها . على ان المستوفي قال في سعرت انها مدينة

---

(٢٣) اما وصف ياقوت لهذه القنطرة (٢ : ٢٧٧) فهذا نصه « وهي طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران » (م) .

عظيمة مشهورة بآنيتها النحاس الفاخرة التي يصنعها الصفارون هناك ، وباقداح الشرب التي تجلب منها . وكان بقرب اسعرت ، على ما ذكر القزويني ، بلدة يقال لهـا حيزان « وبهـا الشـاه بلوط وليس الشـاه بلوط في شيء من بلاد الجزيرة ... والعراق الا بها »[٢٤] .

(٢٤) الاصطخري ٧٦ ؛ ابن حوقل ١٥٢ ؛ المقـدسي ١٤١ و ١٤٥ ، ناصر خسـرو ٧ ؛ ياقوت ١ : ٢٠٥ ؛ ٢ : ٢٧٧ و ٥٥٢ و ٧٧٦ ؛ ٣ : ٦٨ و ٨٥٤ ؛ القزويني ٢ : ٢٤١ ؛ المستوفي ١٦٥ و ١٦٦ .
جاء اسم نهر رزم بصور مختلفة في المخطوطات فقيل فيه : زرم و رزب او زرب ولا يعرف الوجه الصحيح في كهجئته .

الفصل الثامن

الفرات الأعلى

الفرات الشرقى اى ارسناس ـ ملاسكرد وموش ـ شمشاط وحصن زياد اى خربوط ـ الفرات الغربى ـ ارزن الروم اى ثاليقلا ـ ارزنجان وكمخ ـ قلعة ابريق اى تفريك (Tephrike) ـ ملطية وطرندة ـ زبطرة والحدث ـ حصن منصور وبهسنا وقنطرة سنجة ـ تجارات الجزيرة وغلاتها ـ المسالك .

كانت المدن والكور التى تحفّ بضفاف الفرات الاعلى ، الشرقى والغربى (فان لنهر الفرات منبعين) تعد بوجه عام تابعة لشمالى ما بين النهرين ، بل كانت فى الغالب تضاف الى اقليم الجزيرة . والفرات الشرقى هو أقصى الاثنين جنوبا ، ويرى بعض البلدانيين انه منبع الفرات الأعلى وقد ذكره تاسيتس (Tacitus) وبلنى (Pliny) باسم نهر ارسنياس فلومن (Arsanias Flumen) وسمى ابن سرابيون هذا النهر فى المئة الرابعة (العاشرة) بنهر ارسناس . وذكره ياقوت أيضا بهذا الاسم حتى لكأنه ظل مستعملا حتى المئة السابعة (الثالثة عشرة) وقال انه « يوصف ببرودة مائه » . ويعرف هذا النهر اليوم عند الترك باسم مراد صو وسمى بذلك ، على ما يقال ، اكراما للسلطان مراد الرابع الذى استولى على بغداد فى سنة ١٠٤٨ (١٦٣٨) .

ومخرج نهر ارسناس في بلاد طرون ، ويكتب الارمن هذا الاسم بصورة درون (Daron) وعرفها الروم باسم ترونيتس (Taronites) وفيها الجبال التى الى شمال بحيرة وان • وأول موضع ذى شأن على نهر ارسناس : مدينة ملازكرد ، وتعرف أيضا حسب لغات هذه الانحاء باسم منازجرد ومنزكرت وملاسكرد[1] • ووصف المقدسى ملازكرد في المئة الرابعة (العاشرة) بانها « حصينة ، الجامع على حافة السوق ، كثيرة البساتين » • وفي منزكرت ، على ما سماها به الروم ، وقعت سنة ٤٦٣ (١٠٧١) وقعة فاصلة بين الروم والمسلمين ، أسر فيها السلاجقة الملك رومانس الرابع (ديوجينس) ، وأدت هذه الوقعة الى فتحهم آسية الصغرى وقرارهم فيها • وأشار ياقوت غير مرة الى منازجرد أو منازكرد • وأطرى المستوفى ، وقد كتب اسمها بصورة ملازجرد ، حصنها المنيع وهواءها الطيب وأرضها الخصبة • وكانت مدينة موش في جنوب ارسناس في السهل العظيم غرب بحيرة وان ، وتحسب في الغالب من أعمال ارمينية • وقد ذكرها ياقوت ووصفها المستوفى فقال : فيها مراع غنية تسقيها انهار تجرى شمال الفرات الشرقى وجنوب دجلة ، وكانت المدينة في أيامه خرابا[2] •

ويصب في يمين نهر ارسناس رافدان ينحدران من الشمال من بلاد قاليقلا • وهذان الرافدان مهمان لأنهما يمكّناننا من تعيين الموضع التقريبى لشمشاط وهى مدينة ذات شأن قد اختفت من الخارطة • وكثيرا ما يلتبس أمرها بسميساط التى على الفرات وقد مرّ ذكرها (ص ١٤٠) وروى ابن سرابيون ان الرافد الاول كان نهر الذئب ومخرجه في قاليقلا ويصب في ارسناس فوق مدينة شمشاط بشىء يسير• والثانى نهر يقال له السَّلقيط • مخرجه من جبل مرور (أو مزور) ويصب في ارسناس اسفل مدينة شمشاط بميل • واذا رجعنا الى الخارطة رأينا ان هذين النهرين يعرف أحدهما الآن باسم كونك صو (Gunek Su) والثانى بري جاي

---

(١) سيذكر المؤلف في الفصل التاسع ، صورة خامسة لاسم هذه المدينة وهى « ملسجرد » (م) •

(٢) ابن سرابيون ١١ ؛ قدامة ٢٤٦ و ٢٥١ ؛ المقدسى ٣٧٦ ؛ ياقوت ١ : ٢٠٧ ؛ ٤ : ٦٤٨ و ٦٨٢ ؛ المستوفى ١٦٥ و ١٦٧ •

ويظهر ان الحاج خليفة مؤلف جهان نما ، وقد كتبه في سنة ١٠١٠ (١٦٠٠) ، هو أقدم مراجعنا التى سمت الفرات الشرقى مراد صو (ص ٤٢٦) • ولما كان قد كتب كتابه قبل عهد السلطان مراد الرابع ، فان ذلك يثبت ان النهر لم يسم باسم ذلك السلطان على ما هو الشائع •

(Peri Chay) وبلاد قاليقلا هي منطقة الجبال ، ما بين ارسناس والفرات الغربي ، والى غربها بلاد طرون .

وكانت شَمشاط (شِمشاط) اجل مدينة على ارسناس وهو النهر الذي سماه ابن سرابيون نهر شمشاط أيضا . ويبدو ان المدينة كانت على الضفة الجنوبية أي اليسرى للنهر . ولا ريب ان شمشاط هي ارسموساطا Arsamosata عند الروم . وذكر ياقوت — وقد نبّه بوجه خاص الى انها غير سميساط — ان شمشاط بين بالوية (پالو الحديثة) وحصن زياد (خربوط الحديثة) وكانت شمشاط في المئة السابعة (الثالثة عشرة) حين كتب ياقوت ، قد خربت . وما افادنا به ابن سرابيون وياقوت مكننا من حصر موضعها في أضيق نطاق . وكان حصن زياد ، وقد ذكر ابن خرداذبه انه على بعد غير كبير من شمشاط ، الاسم العربي لخرتبرت المدينة الارمنية على رأي ياقوت ، وتعرف اليوم باسم خربوط . وأورد المستوفي هذا الاسم بصورة خربرت ولم يزد على ذلك . واشارته لا تعدو كونها مدينة كبيرة طيبة الهواء . وذكر البلاذري وغيره من المصنفين الاوائل ان في هذه الارض جسر يغرا فوق نهر لعله من روافد ارسناس ، وهو من شمشاط على نحو من عشرة أميال . على ان موضع الجسر الحقيقي غير معروف . ثم ان ارسناس ، أي الفرات الشرقي ، يختلط بالفرات الغربي على نحو مئة ميل غرب شمشاط[٣] .

وكان الفرات الغربي يعدّ بوجه عام اصل هذا النهر العظيم ، ويعرف الآن عند الترك باسم قره‌صو « الماء الاسود » وهو نفسه نهر الفرات عند ابن سرابيون . ذكر ابن سرابيون ان أوله من جبل يقال له جبل أقْرَدَخْس (والظاهر ان هذا الاسم كتبه المسعودي بصورة افردخس كما وردت صور أخرى له) في بلاد قاليقلا شمال ارزروم . وارزروم مدينة جليلة سمّاها العرب ارزن الروم أو ارض الروم وقد عرفها الارمن باسم كرن Karin والروم باسم ثيود سيوبوليس (Theodosiopolis) وهي المدينة الاسلامية في بلاد قاليقلا وأكبر مدنها . والظاهر ان اصل اسم قاليقلا ، وهو ما أكثر البلدانيون العرب القدماء من ذكره .

---

(٣) ابن سرابيون ١٠ و ١٣ و ٣٠ ؛ ابن خرداذبه ١٢٢ ؛ البلاذري ١٨٩ ؛ ياقوت ٢ : ٢٧٦ و ٤١٧ ؛ ٣ : ٣١٩ ؛ المستوفي ٢٦٢ .

غير معروف ، الا انهم يجمعون على انها كانت البلاد التي يخرج منها الفرات الغربي ونهر الرس (Araxes) وروافد ارسناس ، ولم يأت البلدانيون العرب الأول بشيء من التفصيل عن مدينة ارزروم ما عدا قولهم انها كانت مدينة عظيمة ، وقال المستوفي ان فيها كثيرا من البيع الحسنة ، كان لاحداها بوجه خاص قبة قطر دائرتها خمسون ذراعا ، وكان بازاء هذه الكنيسة جامع شيّد على غرار الكعبة في مكة ، ووصفها ابن بطوطة ، وكان في ارز الروم (حسبما كتب الاسم) ، في سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) بأنها « مدينة كبيرة الساحة من بلاد ملك العراق ، خرب أكثرها ، وفي أكثر دورها بساتين ويسقيها ثلاثة انهار » ، وعلى ثمانية فراسخ شرق ارزن الروم : أونيك وهي قلعة عظيمة فوق قبة جبل بالقرب من أحد منابع نهر الرس ، وقال المستوفي ان المدينة التي في لحفه كانت تسمى ابسخور (أو ابشخور) وكانت من أعمال ارزن الروم ، وزاد ياقوت على ذلك ان كورتها كانت تسمى باسين ، وفي ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) استولى تيمور على اونيك بعد حصار مديد ، وقد كثر ذكرها في أخبار حروبه ،

وعلى نحو مثتي ميل غرب ارزن الروم ، في ضفة الفرات اليمنى ، أي الشمالية ، مدينة ارزنجان ، قال ياقوت انها غالبا ما تسمى ارزنكان ، وتكلم عليها قائلا « هي بلدة طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات وغالب أهلها أرمن ، وشرب الخمر بها ظاهر وفيها مسلمون » ، وزاد المستوفي عليه ان السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي قد جدد عمارة أسوارها في ختام[4] المئة السابعة (الثالثة عشرة) فبناها من حجارة مهندمة متلاحمة ، وارزنجان ذات هواء طيب ويكثر فيها القمح والقطن والعنب ، وأشار ابن بطوطة ، وقد مرّ بها في سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) ، الى ان « أكثر سكانها الارمن والمسلمون يتكلمون بها بالتركية ، وفيها معادن النحاس ويصنعون منه الاواني وغيرها ، ولها أسواق حسنة الترتيب ويصنع بها ثياب حسان تنسب اليها » ، وذكر ياقوت بابرت في شمال ارزنجان وقال انها مدينة حسنة أكثر أهلها أرمن ، وقد زاد المستوفي عليه ان شأنها ضؤل في أيامه ، وقلعة كَمْخ

---

(٤) هذا السلطان تولى سنة ٦١٦ وتوفي سنة ٦٣٤ ، فيجب ان يكون قد جدد الأسوار في أيام سلطنته ، فهو لم يبلغ منتصف القرن السابع فضلا عن ختامه (الدكتور مصطفى جواد) .

(كَمَخ) على الفرات الغربي على مسيرة يوم أسفل من ارزنجان في يسار النهر أي في ضفته الجنوبية . وقد أكثر ذكرها ابن سرابيون وغيره من البلدانيين العرب الاقدمين . وهي كمخا(Kamcha) عند الروم . وقال المستوفي انها قلعة عظيمة في اسفلها مدينة على ضفة النهر ، وكان من أعمالها كثير من القرى الخصبة[٥] .

وعلى ستين ميلاً أو أكثر غرب كمخ يزوّر الفرات جنوبا بعد ان كانت وجهة مجراه من ارزروم نحو الغرب ، ويصب في ضفته اليمنى هنا نهر سماه ابن سرابيون نهر ابريق نسبة الى قلعة ابريق القائمة في أعاليه . وهذا هو النهر المعروف الآن بنهر جلته ايرمق الآتي من دوريك أي دبوريكي . وجاء الاسم في المستوفي وابن بيبي بصورة دفريكي . وقد كتبه الروم بصورة تفريك (Tephrike) (وذكر الاسم أيضا في المخطوطات اليونانية بصورة افريك (Aphrike) وقد اختصر البلدانيون العرب القدماء هذا الاسم فجعلوه بصورة ابريق . واشتهر هذا الموضع في ختام المئة الثالثة (التاسعة) بكونه معقلاً عظيما للبيالقة (Paulicians) وهم فرقة غريبة من فرق نصارى الشرق ومذهبهم بين النصرانية والمجوسية ، فاضطهدهم بسبب ذلك ملوك القسطنطينية الارثودكس اضطهادا شديدا . وكانوا على المذهب الذي أحدثه بولس الشمشاطي . وعرفهم العرب بالبيالقة . وقد استولى البيالقة على تفريك وحصنوها . وكان الخلفاء يؤازرونهم ويعينونهم فتمكنوا من رد جنود القسطنطينية بضع سنين . وذكر قدامة والمسعودي وهما من زمن واحد تقريبا ، ان « البيلقاني صاحب مدينة ابريق » . وانتهى الينا من علي الهروي[٦] (وقد نقل منه ياقوت) وهو من كتبة المئة السابعة (الثالثة

---

(٥) ابن سرابيون ١٠ ؛ ابن رسته ٨٩ ، ابن خرداذبه ١٧٤ ؛ المسعودي ١ : ٢١٤ ؛ التنبيه ٥٢ ، ياقوت ١ : ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٤٠٨ و ٤٤٤ ؛ ٣ : ٨٦٠ ، ٤ : ١٩ و ٣٠٤ ، القزويني ٢ : ٣٧٠ ؛ المستوفي ١٦٢ و ١٦٣ ؛ علي اليزدي ١ : ٦٩١ ؛ ٢ : ٢٥٢ و ٤٠٣ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٩٣ و ٢٩٤ .

(٦) هو علي بن بكر بن علي ، الهروي الاصل . ولد في الموصل وطاف في انحاء الشرق الاسلامي وفي الهند وفي القسطنطينية والمغرب وصقلية وغيرها من جزائر البحر المتوسط . وقد عرف بالسائح الهروي . الف كتاب « الاشارات الى معرفة الزيارات » وقد طبع سنة ١٩٥٣ ، وله غير ذلك من التآليف البلدانية وقد فقدت . مات سنة ٦١١ للهجرة . وعنه نقل ياقوت في جملة مواطن من معجم البلدان . (م) .

عشرة) حديث غريب عن كهف عظيم وكنيسة قرب الابروق (بحسب تسمية ياقوت) فيه جثث جماعة من الشهداء ، وهم على زعمه اصحاب الكهف السبعة فى افسوس •

وعلى شيء يسير من جنوب جلته ايرمق وديوريك ، يلتقى نهر صاري جيجك هو والفرات ، وعليه قلعة عرب گير • والظاهر ان هذا الموضع لم يشر اليه أحد من البلدانيين العرب القدماء ، وان كان ابن بيبى قد ذكره غير مرة فى تاريخه عن السلاجقة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • ويرى الاسم أيضا فى التواريخ البزنطية بصورة (Arabraces) • وعلى كل حال فان عرب گير لا تمثل ابربق وتفريك كما نوهم فى ذلك بعضهم • والظاهر ان اقدم ذكر لاسم عرب گير أو عرب كير عند بلدانى مسلم ، فى جهان نما التركية للحاج خليفة ، فى مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) • وقد ذكر أيضا ديوريكى (على ما تسمى المدينة اليوم) • ومما يؤسف عليه انه لم ينته الينا وصف ما عن حصن اليالقة القديم[٧] •

وملطية ، وقد سماها الروم ملتين (Melitene) كانت فى الازمنة الخالية من اجلّ الثغور الاسلامية امام الروم • روى البلاذرى انه كان لها مسلحة تحمى الجسر الذى على ثلاثة أميال منها ، وهناك يقطع الطريق العام نهر القُباقب بالقرب من ملتقاه بالفرات • والقباقب هو النهر المعروف عند الروم باسم ملاس (Melas) ويسميه الترك اليوم طوخمه‌صو • ومنبعه فى غرب ملطية بعيدا عنها فى الجبل الذى منه يخرج نهر جيحان • وهو نهر بيرامس (Pyramus) القديم وينحدر نحو الجنوب الغربى (على ما سنبينه فى الفصل الآتى) الى البحر المتوسط فى خليج اسكندرونة • ونهر القباقب أهم روافد أعالى الفرات بعد ارسناس • ولنهر القباقب نفسه روافد كثيرة ذكر ابن سرابيون اسماءها • وقد أمر الخليفة المنصور فى سنة

---

(٧) ابن سرابيون ١١ و ٣١ ؛ قدامة ٢٥٤ ؛ المسعودى ٨ : ٧٤ ؛ التنبيه ١٥١ و ١٨٣ ؛ ياقوت ١ : ٨٧ ؛ ابن بيبى ٢١٠ و ٣١٨ ؛ المستوفى ١٦٢ ؛ جهان نما ٦٢٤ •

انظر ايضا JRAS لسنة ١٨٩٥ ص ٧٤٠ والتصحيحات فى JRAS لسنة ١٨٩٦ ص ٧٣٣ •

١٣٩ (٧٥٦) بتجديد بناء ملطية وبناء مسجد حسن فيها وبنى لها مسلحة اسكنها اربعة آلاف مقاتل . ووصفها الاصطخرى[٨] فى المئة الرابعة (العاشرة) بقوله : « مدينة كبيرة وتحتف بها جبال كثيرة بها مباح الجوز واللوز والكروم وسائر الثمار الشتوية والصيفية » . وقد تعاورتها غير مرة ايدى الروم والمسلمين . وعدّها ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) من بلاد الروم . وتكلم المستوفى بعده بقرن على ملطية فقال انها مدينة حسنة ذات حصن منيع . وكانت مراعيها مشهورة ويكثر فيها القمح والقطن والفواكه . وكان على قلة جبل قرب ملطية دير يسمى دير برصوما ، وصفه القزوينى فقال انه دير معتبر عند النصارى وفيه كثير من الرهبان .

وحصن طرنده ، درنده الحديثة – وجاء فى جهان نما بهذه الصورة – فى أعالى نهر القباقب على مسيرة ثلاث مراحل فوق ملطية . وكانت فيه مسلحة اسلامية لحماية الدرب منذ سنة ٨٣ (٧٠٢) ولكن المسلمين تخلوا عن هذا الحصن فى سنة ١٠٠ (٧١٩) بأمر الخليفة عمر الثانى (عمر بن عبد العزيز) وذكرت التواريخ البزنطية هذا الموضع غير مرة باسم ترنه (Taranta) وقد كان فى المئة الثالثة (التاسعة) من أقوى حصون البيالقة[٩] .

ولنهر قباقب رافد كبير هو نهر قراقيس ويصب فيه من جنوبه . وفى أعالي قراقيس حصن زبطرة العظيم ويقال له عند الروم سوزبطرة (Sozopetra) أو زبطرة (Zapetra) ولعل أطلاله هى ويران شهر على بضعة فراسخ جنوب ملطية على نهر سلطان صو وهو الاسم الحديث لقراقيس . وتكلم البلاذرى والاصطخرى على زبطرة فذكرا انها حصن عظيم « من أقرب الثغور الى بلد الروم » خربه الروم غير مرة ثم بناه الخليفة المنصور وبعده المأمون . وقد جمع

---

(٨) ما نسبه المؤلف للاصطخرى انما هو لابن حوقل ص ١٨١ من الطبعة الثانية . (م) .

(٩) ابن سرابيون ١٠ و ١٢ و ١٣ ؛ البلاذرى ١٨٥ و ١٨٧ ؛ الاصطخرى ٦٢ ؛ ابن حوقل ١٢٠ ؛ ياقوت ٤ : ٢٦ و ٦٣٣ ؛ المستوفى ١٦٣ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٦ ؛ جهان نما ٦٢٤ .

اما ملطية الحديثة فهى على فرسخين من جنوب الحصن الذى كان فى العصور الوسطى . واطلال المدينة القديمة فى اسكى شهر على فرسخ من الجسر القديم المسمى قرق كز ، وهو يعلو نهر طوخمه صو فوق ملتقاه بالفرات بقليل .

ياقوت وغيره من الثقات بين اسمي زبطرة وقلعة الحدث التي سنذكرها قريبا • واشتهرت زبطرة أو سوزبطرة في التواريخ العربية والبزنطية باستيلاء الملك ثيوفيلس (Theophilus) عليها واستعادة الخليفة المعتصم لها في حملته على عمورية ، على ما سيأتي ذكره في الفصل القادم • وظلت زبطرة وقتا طويلا موضعا ذا شأن • الا ان ابا الفداء حين زارها في سنة ٧١٥ (١٣١٥) قال « ان زبطرة اليوم خراب خالية من الزرع والسكان ولم يبق منها غير رسم سورها وليس بالكثير » • حتى ان ابا الفداء اصطاد « من ارض زبطرة بين شجر البلوط صيوداً كثيراً وهي أرانب كبار الى الغاية لا يوجد في الشام أرانب تقاربهن في القدر » • وقال « هي في الجنوب من ملطية على نحو مرحلتين وهي في جهة الغرب عن حصن منصور » الذي سنصفه فيما يأتي[١٠] •

وقلعة الحَدَث وهي اداتا (Adata) عند الروم ، قد استولى عليها المسلمون في أيام الخليفة عمر ولها ذكر كثير في الاخبار • ومعنى « الحدث » في العربية « الخبر » ولا سيما « الخبر المحزن » • وقال البلاذري ان الدرب ، وكان يقال له درب الحدث ، قد سمي بدرب السلامة بعد استيلاء المسلمين على هذا الحصن • وعلى كل فان اسم درب السلامة على ما سنبينه في الفصل الآتي يطلق في الغالب على طريق القسطنطينية الذي يجتاز الابواب القليقية • وكان في الحدث جامع • وقد جدد الخليفة المهدي عمارة الحدث في سنة ١٦٢ (٧٧٩) ثم أعاد هرون الرشيد عمارتها واسكنها الفي مقاتل من جنده • ونوه الاصطخري بكثرة خيراتها • وروى ان الروم والمسلمين قد تناوبوا الاستيلاء عليها غير مرة • وعلى ما ذكر ياقوت وغيره كان يقال للحدث : الحمراء ، لاحمرار تربتها وقلعتها على جبل يقال له الأحيدب • وفي سنة ٣٤٣ (٩٥٤) بعد ان تعاورتها أيدي المسلمين والروم ، استعادها سيف الدولة الحمداني نهائيا فجدد عمارتها ، ثم انتقلت الى يد مسعود بن قلج ارسلان السلجوقي في سنة ٥٤٥ (١١٥٠) •

---

(١٠) ابن سرابيون ١٣ ؛ البلاذري ١٦١ ؛ الاصطخري ٦٣ ياقوت ٢ : ٩١٤ ؛ أبو الفداء ٢٣٤ •
لقد بحث في تحقيق موقع زبطرة والحدث : المستر جي • جي • سي • اندرسن J.G.C. Anderson في مجلة Classical Review نيسان ١٨٧٦ في بحثه عن حملة باسيل الاول على البيالقة في سنة ٨٧٢ م •

وكان النهر الذى تقوم الحدث بالقرب منه يسمى جوريث أو حوريث ، وهو النهر الذى جعله ابن سرابيون وهماً رافداً من روافد القاقب (نهر ملطية) . ولكن ياقوتا الحموى وقد كتب اسمه بصورة حوريث اصاب فى قوله انه « يصب فى نهر جيحان » وهو برامس . وأفاد ابن سرابيون ان اول نهر الحدث عين يقال لها عين‌زنبثا ، يصب الى بحيرات ويمر بالقرب من مدينة الحدث . وقال أيضا « انه يصب الى حوريث نهر يقال له نهر العرجان أوله من جبل الرمش ومن العرجان قناة الحدث واليه تصب » . ونكمل هذا الكلام بقول ابى الفداء : « بين الحدث وبين مخايط العلوى على نهر جيحان اثنا عشر ميلا » .ولسنا على يقين من موضع الحدث ولعلها كانت تحمى الدرب من مرعش (جرمانيقية Jermanicia) الى البستان (عرسوس Arabissus) وهى على ضفاف آق صو الحالى قرب انكلى . وآق صو أحد منابع جيحان[11]

وكان كل من حصن منصور وقلعة بهسنا (وهى ما زالت) على نهر له . وهذان النهران من الروافد اليمنى للفرات ويصبان فيه أسفل سميساط . ويقال لحصن منصور اليوم فى الغالب أديمان وكان يسميه الروم برها(Perrhe)وقد نسب هذا الحصن الى بانيه منصور القيسى وكان تولى بناء عمارته ومرمته . وهو من قادة الجند فى خلافة مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية وقد قتل فى سنة ١٤١ (٧٥٨) .ثم ان هرون الرشيد بنى حصن منصور وأحكمه وشحنه بالرجال فى أيام ابيه المهدى . وقال فيه ابن حوقل انه « مدينة صغيرة حصنة فيها منبر ولها رستاق وقرى برسمها اعذاء »[12] . وذكر ابن حوقل انه قد اصاب هذه المدينة ما أصاب غيرها من الثغور من نهب وتخريب لتعاور ايدى الروم والمسلمين لها . وزاد يافوت على ذلك ان حصن منصور كان « مدينة عليها سور وخندق وثلاثة أبواب وفى وسطها حصن وقلعة عليها سوران » . وذكر ابو الفداء فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حصن منصور فقال « هو الآن خراب ولكن به مزدرع » .

---

(١١) البلاذرى ١٨٩ ـ ١٩١ ؛ ابن سرابيون ١٤ ؛ الاصطخرى ٦٢ ؛ ابن حوقل ١٢٠ ؛ ياقوت ٢ : ٢١٨ ؛ ٤ . ٨٣٨ ؛ ابو الفداء ٢٦٣ .

(١٢) العذى بالكسر وبفتح : الزرع الذى لا يسقيه الا المطر (تاج العروس ١٠ : ٢٣٨) . (م) .

وينحدر النهر الازرق الى شمال غربي حصن منصور وهذا الحصن « في مسنو من الارض » فوق الفرات والفرات يحاذي حده الجنوبي • اما قلعة بهسنا ، وجاء ذكرها في أخبار الحرب الصليبية باسم بهسدن (Behesdin) ، فهي في غرب حصن منصور ورستاقها هو رستاق كيسوم • وكانت بهسنا على سن جبل عال • وبالبلدة التي تحتها ، مسجد جامع ولها أسواق عامرة وما حولها ارض واسعة الخير والخصب • وتكلم ياقوت عليها فقال انها قلعة حصينة عجيبة • وعلى نهر سنجة القريب منها ، وهو ما اسماه الروم سنكز Singas كانت سنجة وهي مدينة صغيرة بقربها قنطرة مشهورة على هذا النهر متخذة بحجر مهندم وهي طاق واحد « ليس أعجب ولا أعظم منها ويضرب بها المثل ، هي احدى عجائب الدنيا » على قول ابن حوقل • وقد تكلم ياقوت على نهري سنجة وكيسوم وقال انهما من روافد الفرات ، وأورد وصفا لهذه القنطرة العظيمة جاء فيه انها « طاق واحد من الشط الى الشط والطاق يشتمل على مئتي خطوة وهو متخذ من حجر مهندم طول الحجر عشر أذرع في ارتفاع خمس أذرع » ولم يذكر ثخنها • وقال أيضا انه استعين في بنائها بطلسم[١٣] •

---

(١٣) البلاذري ١٩٢ ؛ الاصطخري ٦٢ ؛ ابن حوقل ١٢٠ ؛ ياقوت ١ : ٧٧٠ ؛ ٢ ، ٢٧٨ • ٣ : ١٦٢ و ٨٦٠ ؛ ابو الفداء ٢٦٥ و ٢٦٩ •

تذكر قنطرة سنجة دائما بانها احدى عجائب الدنيا الاربع • اما الثلاث الاخرى فهي كنيسة الرها ، وقد مر ذكرها ، ومنارة الاسكندرية ، ومسجد دمشق (ياقوت ٢ : ٥٩١) • ومن الغريب ان المقدسي قد وهم في موضعين في هذه القنطرة التي على سنجة وهو نهر من روافد الضفة اليمنى للفرات ويصب فيه قرب سميساط بحسب جميع الروايات فخلط بينها وبين قنطرة الحسنية ، وهي دونها شأنا وكائن على الخابور الصغير أحد روافد دجلة (المقدسي ١٣٩ و ١٤٧ وانظر الصفحة ١٢٢ من كتابنا) • ونهر سنجة يسمى الآن بلم [بضم أوله وفتح ثانيه] صو بعد ان يلتقي بكاخته جاي يصب في الفرات من الشمال على بعد قليل فوق سميساط وهو على ما يظهر نهر سنجة نفسه عند البلدانيين العرب • وقنطرته العظيمة التي تعد من عجائب الدنيا ما زالت قائمة ، بناها فسبسيان Vespasian وهي طاق واحد مداه (١١٢) قدما تعلو بلم صو فوق ملتقى كاخته جاي به • ووصفت بانها من أعجب ما بقي من مباني العهد الروماني وترى صورتها في المجلة الجغرافية Geographical Journal لشهر تشرين الاول ١٨٩٦ ص ٣٢٣ • وكذلك في بحث مستفيض كتبه هومان Humann وبخشتين Puchstein في كتابهما : رحلة في آسية الصغرى Reisen in Kleinasien راجع الالواح ٤١ و ٤٢ و ٤٣ فيه • (انتهت حاشية المؤلف) •

قلنا : اما الطلسم الذي أشار اليه ياقوت (٣ ، ١٦٢) فهذا قوله فيه « وحكيت عنه (أي عن الطاق) أعجوبة - والعهدة على راويها - ان عندهم طلسم على شيء كاللوح فاذا غاب من القنطرة

وفي اقليم الجزيرة أي اقليم ما بين النهرين الاعلى ، تجارات سرد المقدسي صنوفها وأكثرها من حاصلات ارضه . فقال : ترتفع من الموصل - وهي قاعدة الجزيرة - الحبوب والعسل والفحم والجبن والشحوم والسماق وحب الرمان والمن والنمكسود والطرّيخ الفائق وكذلك الحديد . ومن المصنوعات السكاكين والنشاب والسلاسل والاسطال . ومن سنجار اللوز وحب الرمان والسماق والقصب . ومن نصيبين الشاه بلوط . ومن الرقة الزيت والصابون والاقلام . ومن الرحبة السفرجل الفائق الرائق . ومن حران عسل النحل في أدْن والقبيط[١٤] . ومن جزيرة ابن عمر الجوز واللوز والسمن والخيل الجياد وتربى في مراعيها . ومن الحسنية ، وهي على الخابور الاصفر (في ضفة دجلة الشرقيه) ، الجبن والقبج وفراخ الدجاج والفواكه المقددة . ومن معلثايا المجاورة لها الفحم والاعناب والفواكه الرطبة والنمكسود وبزر القب ونسيج القنب . ومن آمد في ديار بكر ثياب الصوف والكتان[١٥] .

اما مسالك الجزيرة فانها تكملة وصلة لمسالك العراق . فطريق البريد من بغداد الى الموصل يصعد في شرقي دجلة نحو اقليم الجزيرة فيدخله عند تكريت ويظل في يسار النهر فيصل الى جبلتا رأساً ثم ينتهي الى الموصل عن طريق السن والحديثة . وقد جاء وصف هذا الطريق في مصنفات العرب القدماء وفي المستوفي[١٦] .

ومن الموصل يعبر طريق البريد الى يمين دجلة أي الى الجانب الغربي فيتجه صاعدا الى بلد ، وعندها ينقسم الى طريقين ينتهي ابسرهما الى قرقيسياء على الفرات ماراً بسنجار ويتجه الايمن صوب كفرتوثا ماراً بنصيبين وهناك ينقسم أيضا الى

موضع دلى ذلك اللوح على الموضع المعيب فيعزل عنه الماء حتى يصلح ويرفع اللوح فيعود الماء الى مجراه » . (م) .

(١٤) النمكسود ووردت أيضا بصورة المكسود - نوع من اللحم المملح وما زال مثل « كسد » مستعملا في بعض انحاء شمالي العراق بمعنى ملح اللحم وحفظه في برنية أو خابية في فصل الشتاء .
الطريخ (بكسر أوله وثانيه مع التشديد) - سمك صغار نمالح بالملح .
القبيط - نوع من الحلويات (م) .

(١٥) المقدسي ١٤٥ و ١٤٦ .

(١٦) ابن خرداذبه ٩٣ ؛ قدامة ٢١٤ ؛ المقدسي ١٣٥ و ١٤٨ و ١٤٩ ؛ المستوفي ١٩٥ .

طريقين ينتهي الايمن الى آمد والايسر الى الرقة على الفرات ماراً برأس العين ٠ وقد جاء وصف هذا الطريق اعني من الموصل الى آمد في ابن خرداذبه وقدامة ، ووصفه المقدسي أيضا مع ذكر المراحل ٠ وورد في هذه المصنفات نفسها ذكر الطرق التي تخرج منه الى الفرات ٠ وسرد المقدسي كذلك مراحل الطريق من الموصل الى جزيرة ابن عمر ماراً بالحسنية ٠ وذكر الطريق من آمد الى بدليس قرب بحيرة وان ماراً بأرزن[١٧] ٠

اما طريق البريد الصاعد بحذاء ضفة الفرات اليمنى ، أي الغربية ، فانه يبدأ من آلوسة ماراً بعانة الى الفرضة على النهر ٠ وعندها ينقسم الى طريقين : احدهما يحاذي الفرات صاعداً الى فاش بازاء قرقيسياء ثم يظل في الجانب الغربي من النهر حتى الرقة ٠ والطريق الايسر البادىء من الفرضة كان يتجه الى الرقة فيقطع البادية ويمر بالرصافة فكان بذلك يجانب تعاريج الفرات ٠ وكانت الرصافة محطة ذات شأن اذ يخرج منها طريقان الى الغرب يقطعان بادية الشام احدهما الى دمشق فحمص(Emessa) ٠ وكان ينتهي الى قرقيسياء والرقة ، على ما قد بينّا ، طرق : واحد يأتي من الموصل ماراً بسنجار ، وآخر من نصيبين ماراً برأس العين وباجروان وثالث من الرقة ماراً بباجروان وحران والرها (اذسّا) الى آمد ٠

وأخيرا كان يخرج طريق من الرقة فيمر بسَروج وينتهي الى سميساط مجانباً في سيره ازورار الفرات العظيم ٠ وورد في كتب المسالك ذكر المسافات من سميساط الى حصن منصور وملطية وكمخ وغيرها من الثغور ٠ على ان ما يؤسف عليه ان هذه المسافات لم تذكر بتدقيق يساعدنا على تعين مكاني الحدث وزبطرة ، اذ ما زال ذلك موضع النظر ، مع ان المقدسي أورد بعض الفوائد حتى المتعلقة منها بهذه الثغور البعيدة[١٨] ٠

---

(١٧) ابن خرداذبه ٩٥ و ٩٦ ؛ قدامة ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٦ ؛ المقدسي ١٤٩ و ١٥٠ ٠

(١٨) ابن خرداذبه ٩٦ و ٩٧ و ٩٨ ؛ قدامة ٢١٥ و ٢١٦ و ٢١٧ ؛ المقدسي ١٤٩ و ١٥٠ ٠

الفصل التاسع

بلادُ الرُّوم

اى آسية الصغرى

بلاد الروم ـ الثغور من ملطية الى طرسوس ـ الدربان الكبيران فى جبال طوروس ـ
طريق القسطنطينية المار بالأبواب القليقية ـ طرابزون ـ حصارات
القسطنطينية الثلاثة ـ غزوات المسلمين فى آسية الصغرى ـ
نهب عمورية بأمر المعتصم ـ فتح السلاجقة آسية
الصغرى ـ مملكة ارمينية الصغرى ـ
الصليبيون ـ اجل مدن السلاجقة
فى بلاد الروم •

كان المسلمون يسمون أقاليم الدولة البزنطية فى جملتها : بلاد الروم • ولفظة الرومى أى الرومانى فى العصور الاسلامية الاولى كانت ترادف عندهم « النصرانى » سواء أكان من اليونان أم اللاتين • وكانوا يعرفون البحر الموسط باسم بحر الروم أيضا ثم اختصر اسم « بلاد الروم » الى « الروم » فقط • وصارت لفظة « الروم » بمرور الايام اسما لاقرب الاقاليم النصرانية من بلاد الاسلام • ومن ثمة صار « الروم » اسما لآسية الصغرى عند العرب وهى البلاد العظيمة التى انتقلت نهائيا فى ختام المئة الخامسة (الحادية عشرة) الى ايدى المسلمين باستيلاء السلاجقة عليها •

ولقلة ما بأيدينا من مراجع عن ذلك الزمن لم يتوفر لدينا ـ يا أسفا ـ

من وثيق الأخبار ما يعتدّ به عن تاريخ آسية الصغرى وجغرافيتها التاريخية في القرون الوسطى ، سواء في عهدها النصراني أم في أيام المسلمين[١] . ولا غرابة في قلة ما عرفه البلدانيون العرب القدماء عن هذه البلاد : فقد كانت في أيامهم اقليما من أقاليم دولة الروم ، وبعد انتقال هذا الاقليم الى سلطان السلاجقة الترك لم يعن — يا للأسف — مصنفونا المسلمون بهذا الاقليم الاسلامي البعيد ، فلم يته الينا وصف دقيق له يشبه ما خلفوه عن غيره من الاقاليم . وأول وصف كامل لآسية الصغرى الاسلامية ، كتبه الحاج خليفة ، غير ان هذا لا يرقى الا الى مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) أي بعد أن مضى نحو مئتي سنة على دخول هذا الاقليم في جملة أجزاء الدولة العثمانية [٢] .

كانت الحدود بين بلاد المسلمين والروم في أيام بني أمية وبني العباس بل حتى قبل ان يقضي المغول القضاء المبرم على العباسيين بما ينيف على قرن ونصف قرن ، تتألف من سلسلتي جبال طوروس وطوروس الداخلة (انتي طوروس) Anti Taurus . وكان يعين هذه الحدود ويحميها خطّ طويل من القلاع (تعرف بالعربية بالثغور) يمتد من ملطية على الفرات الاعلى الى طرسوس بالقرب من ساحل البحر المتوسط . وكان الروم يحتلون هذه القلاع تارة والمسلمون تارة أخرى . فكان الفريقان فيها بين كرّ وفرّ . وينقسم خط القلاع هذا عادة الى مجموعتين : احداهما تحمي الجزيرة (وتسمى ثغور الجزيرة) وهي الشمالية الشرقية ، والثانية تحمي الشام (وتسمى ثغور الشام) وهي الجنوبية الغربية . وكان من ثغور الجزيرة : ملطية وزبطرة وحصن منصور وبهسنا والحدث ، وقد مرّ

---

(١) يحتوي كتاب الجغرافية التاريخية لآسية الصغرى Historical Geography of Asia Minor لمؤلفه البروفسور رمسي N. M. Ramsay (وسنشير اليه بحروف HGAM) على خلاصة رائعة لكل ما يعرف الآن عن هذا الموضوع . ولا غنى عنه البتة لمن يبتغي تفهم هذه المعضلة المعقدة فهما صحيحا . والفضل في كتابة هذا الفصل يعود الى هذا الكتاب أكثر من أي مرجع آخر مذكور في الحواشي . ويحسن الرجوع أيضا الى مقالات البروفسور رمسي المفيدة في المجلة الجغرافية (G.J.) لشهر ايلول ١٩٠٢ ص ٢٥٧ . وتشرين الاول ١٩٠٣ ص ٣٥٧ .

(٢) اما في القسم الشرقي من بحر الروم فقد أجاد العرب في معرفة جزيرتي قبرس ورودس . فان المسلمين غزوا الجزيرة الاولى منذ سنة ٢٨ (٦٤٨) بقيادة معاوية الذي صار خليفة فيما بعد . على انه لم ينته الينا وصف جغرافي لهاتين الجزيرتين . البلاذري ١٥٣ و ٢٣٦ ؛ ياقوت ٢ : ٨٣٢ ؛ ٤ : ٢٩ .

وصفها فى الفصل السابق • ثم مرعش والهارونية والكنيسة وعين زربى • ومن الثغور التى تحمى الشام ، وكانت بالقرب من الساحل الشمالى لخليج اسكندرية (اسكندرونة) : المصّيصة وأذنة وطرطوس •

اما مرعش ، وسماها الروم مراسيون (Marasion) فيقال انها قامت فى موضع جرمانيقية • وقد جدد بناءها الخليفة معاوية فى المئة الاولى (السابعة) • وفى عهد أواخر خلفاء بنى أمية حصنها المسلمون وانتقلوا اليها وبنوا لهم فيها مسجدا جامعا • ثم حصّنها هرون الرشيد • وكان لها سوران وخندق وفى وسطها حصن عليه سور يعرف بالمروانى ، على ما جاء في ياقوت • وانما سمي بذلك نسبة الى بانيه مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية • وفى سنة ٤٩٠ (١٠٩٧) استولى الصليبيون على مرعش بقيادة غودفرى دى بويون (Godfrey de Bouillon) ثم صارت مدينة ذات شأن من مدن مملكة ارمينية الصغرى (وسيأتى الكلام عليها) • ولبثت أغلب الوقت فى ايدى النصارى حتى سقوط هذه المملكة • وما زال ثغر عين زربى ، وعرفه الصليبيون باسم انازربس (Anazarbus)، قائما • وقد كان هرون الرشيد جدده وأحكم تحصينه فى سنة ١٨٠ (٧٩٦) • ووصف الاصطخرى عين زربى بقوله انها « بلد يشبه مدن الثغور • بها نخيل وهى خصبة واسعة الثمار والزروع والمراعى » • وكان لها سور مكين ، كثيرة الخيرات جليلة الشأن فى المئة الرابعة (العاشرة) • وفى نحو منتصف هذه المئة انفق سيف الدولة الحمدانى على ما يقال ثلاثة آلاف ألف درهم (نحو ١٢٠٠٠٠ باون) حتى أعاد عمارتها • ثم استولى الروم عليها غير مرة ، وفى ختام المئة التالية استولى الصليبيون عليها وخرّبوها • ثم صارت جزءا من دولة ملك ارمينية الصغرى • ووصف أبو الفداء هذه المدينة بقوله : بلد فى جبل ذات قلعة مستعلية عنها » • وهى على مسيرة يوم جنوب سيس • وزاد ابو الفداء على ذلك ان فى جنوبها نهر جيحان • وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) « غيّر الناس اسمها وسموها ناورزا » •

وموضعا الهارونية والكنيسة ، لا يعرفان على وجه الصحة ، الا انهما تقعان فى الجبال بين مرعش وعين زربى • والهارونية ، وهى على مرحلة غرب مرعش ، وحصونها نسبت الى هرون الرشيد ، بناها سنة ١٨٣ (٧٩٩) • وكان هذا الثغر غربى

جبل اللكام فى بعض شعابه . وجبل اللكام اسم اطلقه البلدانيون المسلمون على سلسلة جبال اتني طوروس . والظاهر ان ابن حوقل زار الهارونية فقد قال فيها انها « فى غاية العمارة ، وقلعتها حصينة وقد خربها الروم » ففى سنة ٣٤٨ (٩٥٩) سبوا من أهلها الفا وخمسمئة مسلم ما بين امرأة ورجل وصبى ، على ما ذكر ياقوت . ثم ان سيف الدولة الحمدانى جدد عمارة الهارونية ، واستعادها النصارى ثانية ، وظلت بعد ذلك فى يد ملك ارمينية الصغرى . اما الكنيسة ، ويقال لها الكنيسة السوداء ، فهى حصن منيع قديم . بناها الروم بحجارة سود على ما قال البلاذرى . وزاد على ذلك ان هرون الرشيد « أمر ببنائها واعادتها الى ما كانت عليه وتحصينها ، وندب اليها المقاتلة » . فيها منبر والظاهر انها كانت الى جنوب جيحان . فذكر الاصطخرى انها « ثغر فى معزل من شط البحر » . وقال ابو الفداء : « كان بينها وبين الهارونية اثنا عشر ميلا » . وكانت فى أيامه من جملة بلاد ارمينية الصغرى ، حالها حال الهارونية .

وأما الثغر الآخر فى هذه الجهات ، فهو المعروف عند العرب بالمثقّب ، وسمي بذلك على ما جاء فى ياقوت « لانه فى جبال كلها مثقبة . فيه كوىً كبـــار » . والظاهر ان موضعها الحقيقى غير معروف الا انها لا تبعد كثيرا عن الكنيسة فانها كانت عند لحف جبل اللكام على ساحل البحر قرب المصيصة . وأول من بنى حصن المثقّب هشام الخليفة الاموي . وقال ياقوت ان الذى استحدثه عمر الثانى « عمر بن عبد العزيز » وكان فيه على ما ذكر ابن حوقل مصحفه بخطه (أى بخط عمر بن عبد العزيز) أتقى خلفاء بنى أمية وأكثرهم ورعا . وروى البلاذرى الى ذلك انه لما ورد المهندسون لبنائها ، حفروا أولا الخندق فى حصن المثقب فوجد فى خندقه حين حفر ، عظم ساق مفرط الطول فبعث به الى هشام لطرافته[٣] .

اما المدن الثلاث : المصيصة (Mopsuestia) واذنة طرسوس ، وكلها من بناء الروم ، فما زالت قائمة . فالمصيصة على نهر جيحان (نهر بيرامس) فتحها عبدالله بن

---

(٣) الاصطخرى ٥٥ و ٦٣ ؛ ابن حوقل ١٠٨ و ١٢١ ؛ البلاذرى ١٦٦ و ١٧١ و ١٨٨ ؛ المسعودى ١ : ٣٦ ؛ ٨ : ٢٩٥ ؛ ياقوت ١ : ٩٢٧ ؛ ٣ : ٧٦١ ؛ ٤ : ٣١٤ و ٤٩٨ و ٦٤٥ . أبو الفداء ٢٣٥ و ٢٥١ .

الخليفة عبد الملك الاموي في المئة الاولى (السابعة) وبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند من أرباب البأس والنخوة • وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن • وكان في الحصن كنيسة جعلت هُريا • وبعد وقت قصير نشأ في الجانب الآخر من جيحان ربض أو مدينة ثانية سميت كفربيا ، بنى فيها الخليفة عمر الثاني مسجدا جامعا اتخذ فيه صهريجا • ثم ان مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية أنشأ ربضا ثالثا في شرقي جيحان يقال له الخصوص • وبنى عليه حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقاً • وفي زمن الخلفاء العباسيين ، بنى المنصور في المصيصة مسجداً جامعاً في موضع هيكل قديم كان بها وجعله مثل مسجد عمر (الثاني) ثلاث مرات• واستحدث هرون الرشيد كفربيا • وزاد المأمون في مسجدها • وكان بين كفربيا والمصيصة قنطرة على نهر جيحان • ثم لما استخلف المنصور ودخلت سنة ١٣٩ (٧٥٦) أمر بعمارة مدينة المصيصة وكان حائطها متشعثاً من الزلازل وسماها المعمورة • وبعد ذلك انتقلت المصيصة كسائر البلدان المجاورة لها الى ايدي ملوك ارمينية الصغرى •

ومدينة اذنة ، وهي قرب المصيصة ، تقع على نهر سيحان (نهر سارس Sarus) وكان في الطريق على شيء يسير من المصيصة قنطرة ترقى الى أيام يسطنياس (Justinian) رممت في سنة ١٢٥ (٧٤٣) وسميت بجسر الوليد نسبة الى الوليد الخليفة الاموي • ثم رمم المعتصم الخليفة العباسي هذا الجسر ثانية في سنة ٢٢٥ (٨٤٠) • وأعاد المنصور بناء قسم من اذنة في سنة ١٤١ (٧٥٨) • وصفها الاصطخري بقوله انها مدينة خصبة عامرة في غربي نهر سيحان حصينة وكان حصنها في ضفة النهر الشرقية بينه وبين المدينة « قنطرة معقودة عليه على طاق واحد » ، على ما جاء في ياقوت • ولأذنة ثمانية أبواب وسور يليه خندق •

واطلق المسلمون على نهري سارس وبيرامس اسم نهر سيحان ونهر جيحان • وكانا في صدر الاسلام حدا مائيا بين بلاد المسلمين وبلاد الروم • وقد سمى البلدانيون العرب نهري بيرامس وسارس باسم جيحان وسيحان ، على غرار تسميتهم نهري أوكسس (Oxus) وجكسارتس (Jaxartes) في آسية الوسطى

وهما أكثر شهرة ، باسم جيحون وسيحون ، على ما سنبسط القول فيه . ومنابع هذين النهرين في المرتفعات شمال ارمينية الصغرى . وكان نهر جيحان - وقد ذكر ابو الفداء انه « يقارب نهر الفرات في الكبر ، وتسميه العامة جهان » - بعد مروره بالمصيصة يصب في بحر الروم في خليج اياس الى شمال ميناء آملّون (ملس Mallus) ثم صار ملو (Malo) . اما نهر سيحان فاصغر منه ، ولم يكن على ضفافه مدن جليلة غير اذنة . وعلى هذا النهر كانت قنطرة الحجر وقد مرّ ذكرها . وجيحان وسيحان على ما روى المسعودى من انهار الجنة[٤] .

ومهما يكن من أمر ، فان أجل الثغور مدينة طرسوس . وكان مقاتلتها من الفرسان والمشاة . وهى تشرف على المدخل الجنوبى للدرب المشهور عبر طوروس المعروف بأبواب قليقية ذكر ابن حوقل ان على طرسوس سورين من حجارة وبها مئة الف فارس . ثم قال « وكان بينها وبين حد الروم جبال منيعة متشعبة من اللكام كالحاجز بين العملين » ويقصد بهما عالمي الاسلام والنصرانية . وقال ابن حوقل ان الحامية العظيمة التى أدركها وشاهدها فيها سنة ٣٦٧ (٩٧٨) « كانت من الغزاة الوافدين اليها من البلدان الاسلامية لقتال الروم » . وسبب ذلك - فيما ذكر - « ان ليس مدينة عظيمة من حد بلاد فارس والجزيرة والعراق والحجاز واليمن والشامات ومصر والمغرب الا وبها لأهلها دار ورباط فى طرسوس ينزله غزاة تلك البلدة ويرابطون بها اذا وردوها . وترد عليها الجرايات والصلات وتدرّ عليهم الانزال والحملان العظيمة الجسيمة الى ما كان السلاطين يتكلفونه وينفذونه متطوعين ويتحظّون عليه متبرعين » .

---

(٤) البلاذرى ١٦٥ و ١٦٦ و ١٦٨ ؛ الاصطخرى ٦٣ و ٦٤ ؛ ابن حوقل ١٢٢ ؛ المسعودى ٢ : ٣٥٨ ؛ ٨ : ٢٩٥ ؛ ياقوت ١ : ١٧٩ ؛ ٢ . ٨٢ ؛ ٤ : ٥٥٨ و ٥٧٩ . ابو الفداء ٥٠ .

جاء اسما هذين النهرين فى بعض الاوقات خطأ بصورة سيحون وجيحون ، على نحو ما يسمى به صنواهما نهرا آسية الوسطى . اما فيما يتصل بالفم القديم لنهر سارس ، فيحسن بنا أن نلاحظ ان ابن سرابيون (المخطوطة : الورقة ٤٤ آ) ذكر ان نهر سيحان (سارس) كان فى ايامه (اى فى بداية المئة الرابعة = العاشرة) يصب فى جيحان (بيراموس) على خمسة فراسخ فوق المصيصة ، وبهذا يشترك هو وجيحان فى مصب واحد فى البحر . أما اليوم ، فلنهر سيحان مصب فى الجهة الغربية قرب مرسينة . ومن الممكن تتبع معالم المجرى القديم . أنظر : المجلة الجغرافية . Geog. Jour. لشهر تشرين الاول ١٩٠٣ ص ٤١٠ .

وعني الخلفاء العباسيون الاولون ، ولا سيما المهدى وهرون الرشيد ، بتحصين طرسوس وشحنها فى أول الأمر بثمانية آلاف من المقاتلة . وكانت الندبات السنوية على النصارى تجتاز من باب الجهاد المشهور لمقاتلتهم . وفى الجهة اليسرى من جامع طرسوس ، دفن الخليفة المأمون ، فقد ادركته منيته وهو فى بذندون (بدندس (Podandos) القريبة منهـا . وكان يشق المدينة نهر البردان (نهر كودنس Cydnus) . وفى سورَي المدينة ستة أبواب وخندق عميق . ولبثت طرسوس ، على ما قال ياقوت ، ثغراً اسلامياً حتى كانت سنة ٣٥٤ (٩٦٥) فان نقفور ملك الروم Nicephorus Phocas استولى على الثغـور ونزل على طرسوس فسلمها اليـه من كان بها على الامان والصلح . فخرج منها من المسلمين من أراد بلاد الاسلام وأقام نفر يسير على الجزية . وخربت المساجد « وأحرق نقفور المصاحف وأخذ من خزائن السلاح ما لم يُسمع بمثله ، ولم تزل طرسوس بيد النصارى الى هذه الغاية أى سنة ٦٢٣ (١٢٢٦) » .

وكان نهر كودنس القديم يعرف على ما بيّنا ، بنهر البـردان أو بردى . وذكر ابن الفقيه انه كان يسمى ايضا نهر الغضبان . ومخرجه من أصل جبل فى شمال طرسوس يعرف بالاقرع ويصب فى بحر الروم غير بعيد عن المصب الحديث لنهر سيحان . وفى ناحية الغرب ، على مرحلة من طرسوس ، نهر كان يؤلف حدا مائيا فى الازمنة الاولى ، وهو نهر لموس Lamos سماه العرب نهـر اللامس . « وعليـه يكون الفداء اذا فودي بين المسلمين والروم » . ومما يلي هـذا النهر بلدة للروم تعرف بسلوقية أو سلوقية قليقية Seleucia of Cilicia وقد صار أسمها فى أيام الترك فى العهد الاخير سلفكة Selefkeh (٥).

ويقطع جبال طوروس دروب كثيرة سلك المسلمون اثنين منها بوجه خاص فى غزواتهم السنوية لبلاد الروم : اولهما درب الحدث وهو فى الشمال الشرقى وكان من مرعش فشمالا الى ابلستين وقد عرفت هذه المدينة فى الازمنة الاخيرة

(٥) ابن حوقل ١٢٢ ، ابن الفقيه ١١٦ ؛ البلاذرى ١٦٩ ؛ المسعـودى ١ : ٢٦٤ ؛ ٧ ، ٢ ، ٨ . ٧٢ ؛ ياقوت ١ ، ٥٥٣ و ٥٥٨ ، ٣ ، ٥٢٦ ، الطبرى ٣ ١٢٣٧ .

بالبستان (وهى أبلستا البزنطية Ablastha وعربسوس اليونانية Arabissus)
وكان يحمى هذا الدرب حصن الحدث Adata وقد مرّ ذكره فى الفصل السابق . وثانى الدروب ، وكثيرا ما كان يُسلك فى الأزمنة القديمة ، هو درب الابواب القليقية الضارب شمالا من طرسوس ، ومنه يأخذ الطريق العام الى القسطنطنية . كان هذا الطريق هو الذى يسلكه سعاة البريد ويمرّ منه وفود قيصر والخليفة ، كما انه الطريق الذى تتبعه ندبات الغزو العديدة من الاسلام والنصارى . وقد عني ابن خرداذبه فى سنة ٢٥٠ (٨٦٤) بوصف هذا الطريق ، وعنه نقل غير واحد من المصنفين بعده . كان هذا الدرب يعرف فى قسمه الجنوبى بدرب السلامة ويتصل بما يسمى پيلية قليقية Pylae Ciliciae وهى الأبواب القليقية المشهورة .

ودونك هذا الوصف ، على ان كثيرا من المواضع المذكورة فيه لا يمكن تعيينها فى يومنا ، وقد وضعنا بين قوسين ما تيسرت معرفته عن اسماء بعضها . قال ابن خرداذبه : « من طرسوس الى الـمُثَقَّب اثنا عشر ميلا ، ثم الى الرهوة (أى المكان المنخفض ولعلها مبسُكرينة Mopsukrene القديمة) ، ثم الى الجوزات اثنا عشر ميلا ، ثم الى الجردقوب سبعة أميال ، ثم الى البذندون (Podandos وهى بزنطى الحديثة) سبعة أميال وفيها عين تسمى عين رقة مات عندها المأمون[٦] . ثم الى مسكر الملك على حمة لؤلؤة (لولون Loulon) والصفصاف عشرة أميال (قرب فوستنوبولس Faustinopolis) وكذلك حصن الصقالبة عشرة أميال ، وتصير الى مسكر الملك وقد قطعت الدرب (النهاية الشمالية من درب الابواب القليقية) وأصحرت . ومن مسكر الملك (حيث نهاية الابواب القليقية) الى وادى الطرفاء اثنا عشر ميلا ، ثم الى منى عشرون ميلا ، ثم الى نهر هرقلة (وهرقلة هى اراكلية الحديثة وهركلية Heraclia عند الروم وهى المدينة التى استولى عليها هرون الرشيد عنوةً) اثنا عشر ميلا ، ثم الى مدينة اللبن ثمانية أميال ، ثم الى رأس الغابة خمسة عشر ميلا . ثم الى المسكنين ستة عشر ميلا ، ثم الى عين برغوث اثنا

(٦) انظر خبر ذلك فى مروج الذهب (٧ : ٩٩) وتاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٢٠٩ طبعة المنيرية . (م) .

عشر ميلا ، ثم الى نهر الاحساء (أى النهر الذى تحت الارض) ثمانية عشر ميلا ، ثم الى ربض قونية (ايكونيوم Iconium) ثمانية عشر ميلا ، ثم الى العلمين خمسة عشر ميلا ، ثم الى ابروسمانة عشرون ميلا ، ثم الى وادى الجوز اثنا عشر ميلا ، ثم الى عمورية (آموريون Amorion) اثنا عشر ميلا . وطريق آخر من العلمين الى عمورية يبدأ من العلمين الى قرى نصر الاقريطشى خمسة عشر ميلا ، ثم الى رأس بحيرة الباسليون (بحيرة الاربعين شهيدا) عشرة أميال ، ثم الى السند عشرة أميال ، ثم الى حصن سنادة (وهى حصن سنادس Synades) ثمانية عشر ميلا ، ثم الى مَنْزِل خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى غابة عمورية ثلاثون ميلا .

ومن عمورية الى قرى الحرّاب خمسة عشر ميلا ، ثم الى صاغري (وهو Sangarius) نهر عمورية ميلان ، ثم الى العلج اثنا عشر ميلاً ، ثم الى فلامى الغابة خمسة عشر ميلا ، ثم الى حصن اليهود اثنا عشر ميلا ، ثم الى سندابري (سنتابريس Santabaris) ثمانية عشر ميلا ، ثم الى مرج حُمُر الملك فى درَوْلية (دوريليوم Dorylaeum) خمسة وثلاثون ميلا ، ثم الى حصن غَرُوبُلي خمسة عشر ميلا ، ثم الى كنائس الملك Basilica of Anna Comnena ثلاثة أميال ، ثم الى النلول خمسة وعشرون ميلا ، ثم الى الاكوار خمسة عشر ميلا ، ثم الى ملاجنة Malagina خمسة عشر ميلا ، ثم الى اصطبل الملك خمسة أميال ، ثم الى حصن الغبراء (وهى كيبوتس Kibotos حيث معدية تصل الى Aigialos) ثلاثون ميلا ثم الى الخليج (وهو بوسفور القسطنطينية Bosporus) اربعة وعشرون ميلا ، ونيقية Nicaea بأزاء (أى جنوب) الغبراء . وبهذا يختتم ابن خرداذبه كلامه على طريق القسطنطينية[٧] .

---

(٧) ابن خرداذبه ١٠٠ – ١٠٢ و ١١٠ و ١١٣ وقد جاء فى ابن خرداذبه (ص ١٠٢ – ١٠٣) وصف طرق تختلف بعض الشىء عن هذا الطريق . وزاد الادريسى على ذلك ذكر المسافات (طبعة جوبرت Jaubert ٢ : ٣٠٨ و ٣٠٩) وقارن ذلك بما كتبه رمسى Ramsay فى HGAM (ص ٢٣٦ و ٤٤٥) . وقد عين البروفسور رمسى (أنظر المجلة الجغرافية GJ لشهر تشرين الاول ١٩٠٣ ص ٢٨٣) حصن الصقالبة المشهور بكونه خرائب الحصن البزنطى المبنى بالرخام الاسود المسمى الآن انشا قلعه سى الجاثمة فى أعالى الجبل المطل حتوبا على مدينة بزنطى (بدندون أى بوديدس) اما حصن لولون Loulon البزنطى ، وقد سماه العرب لؤلؤة ، فقد عينه أيضا (أنظر نفس

اما ماكان يعرفه المصنفون العرب القدماء عن جغرافية آسية الصغرى ، فليس الا لمحات خاطئة لا تمتّ الى الواقع بصلة الا وصفهم الطريق العام الى القسطنطينية. مصداق ذلك ما نراه من خلط عند ابن حوقل بين النهرين المختلفين : آلس وصاغره وهلس وسنكاريوس . ونجد أيضا فى التواريخ القديمة اسماء جملة من مدن الروم بصورتها المعربة ولكن معظم هذه الاسماء قد انتهى الينا على غير هذه الصور بعد الفتح التركى . على ان ما يؤسف له ، هو ان المصنفين العرب لم يخلفوا لنا وصفا لهذه المدن . ونذكر ههنا شيئا منها مما لا شبهة فى صحته : الطوانة (Tyana) دباسة (Thebasa) ملقوبية (Malacopia) هرقلة (Heraclia) لاذق (Laodicea) قيصرية (Caesarea Mazaka of Cappadocia) انطاكية (Antioch of Pisidia) قُطَيّة (Cotyaeum) انقرة (Angora) افسوس (Ephesus) أبدوس (Abydos) نقموذية (Nicomedia) وغيرها من المدن .

أما طرابزون (Trebizond) وكتب اسمها طرابزنده أو اطرابزندة ، فهى على ما جاء فى ابن حوقل أجل ميناء كانت تجلب اليها السلع من القسطنطينية فى صدر الدولة العباسية وتحمل منها الى بلاد الاسلام . فكان التجار العرب ووكلاؤهم ينقلون السلع منها عبر الجبال الى ملطية وغيرها من مدن الفرات الاعلى . وكانت هذه التجارة بيد الارمن على ما فى ابن حوقل . على ان كثيرا من التجار المسلمين ، حسبما ذكر ، كانوا يقيمون فى اطرابزندة . وأخص هذه السلع : ثياب الكتان اليونانى وثياب الصوف والديباج والاكسية الرومية وكلها كان يجلب بحرا من الخليج أى البوسفور . ومما يدل على شهرة طرابزون وعظم شأنها فى ذلك الزمن ، ان البحر الاسود كان يعرف باسم بحر طرابزندة . على ان اسمه الرسمى كان بحر بنطس أو بنطش . وهو بنتس Pontos

---

المصدر ص ٤٠١ و ٤٠٢ فمه صورة لهذا الموضع) واللؤلؤة تقوم فى الشمال فوق الصفصاف . وتدل الصفصاف على المستوطن الذى فى الوادى أسفلها حيث كانت المدينة اليونانية فوستينوبوليس Faustinopolis .

عند الروم الذى كان لتصحيف اسمه (من جرّاء اعجام الحروف العربية) قد كتب ولفظ منذ الأزمنة الاولى خطأً بصورة نيطس ونيطش ، وغالبـا ما اقتبس المصـنفون الفرس والترك الاسم بهذه الصورة المصحفة ، وانتقل هذا التصحيف الى المطبعة فلا سبيل الى رجعه الى سابق اسمه[٨] .

ومع ان ما دوّنه مصـنفو العرب عن طبغرافية مدن آسية الصغرى فيما قبل الفتح السلجوقى ، أى فى النصف الاخير من المئة الخامســة (الحادية عشرة) ، قليل غاية القلة ، فقد كان المسلمون يعرفون معظم هذه البلاد ، فانهم كانوا فى أيام بنى امية وصدر الدولة العباسية يقومون فى كل سنة تقريبا بل غالبا مرتين فى السنة ، فى الربيع والخريف بغزوات يجتازون فيها دروب جبل طوروس الى بلاد الروم . وكانت غاية الغايات عندهم الاستيلاء على القسطنطينية . وفى الواقع لقد ضرب المسلمون الحصار على القسطنطينية ثلاث مرات فى أيام بنى امية ولكن نهاية كل حصار كانت وخيمة على المهاجمين . وليس ذلك بمستغرب اذا ما علمنا ان البوسفور يبعد عن طرسوس قاعدة الهجوم العربى نيفا واربعمئة وخمسين ميلا فى خط مستقيم يقطع هضبة آسية الصغرى الجبلية .

واول هذه الحصارات الثلاثة المشهورة كان فى سنة ٣٢ (٦٥٢) فى ايام عثمان ، حين غزا معاوية ــ وقد تولى الخلافة فيما بعد ــ آسية الصغرى واجتازها يريد القسطنطينية . فهاجمها اولا ثم ضرب عليها الحصار ولكنه اضطر الى رفع الحصار عنهـا لمـا بلغـه مقتل الخليفة عثمان . واعقب ذلك أحداث انتهت بقيـــام الدولـة الاموية . وكان الحصار الثانى فى سنة ٤٩ (٦٦٩) حين بعث معاوية ــ وكان قد اصبح خليفة ــ ابنه وولى عهده يزيد لقتال الملك قسطنطين الرابع . بيد ان عجز قادة الجيش اوقع بالجيش الاسلامى هزيمة منكرة . فلما توفى ابوه صارت اليه الخلافة فعاد الى بلاده . أما الحصار الثالث وهو اشهر حصار وقع على القسطنطينية فقد دام سنين فى عهد الخليفة سليمان الذى بعث اخاه مسلمة فى سنة ٩٦ (٧١٥)

---

(٨) ابن حوقل ١٢٩ و ١٣٢ و ٢٤٥ و ٢٤٦ ؛ ابن خرداذبه ١٠٣ ؛ البلاذرى ١٦١ ؛ الطبرى ٣ : ٧٠٩ و ٧١٠ ؛ أبو الفداء ٣٤ ؛ ياقوت ١ : ٤٠١ و ٤٩٩ ؛ المسعودى ١ : ٢٦٠ .

وقد يسمى البحر الأسود بحر الخزر وهو اسم يطلق فى العادة على بحر قزوين (ابن خرداذبه ١٠٣) .

لقتال ليو الايزورى Leo the Isaurian وقد انتهى الينا عن هذه الحملة التى باءت ايضا بهزيمة المسلمين اخبار كاملة من التواريخ العربية والرومية • وفى هذه الحروب اشتهر عبدالله الملقب بالبطال الذى اعتبره الترك بعد زمن طويل بطلهم القومى والجندى المسلم الذى لا يقهر •

ولم تحل هذه الخسائر والهزائم دون مضي المسلمين فى غزواتهم سنة بعد أخرى ما خلا فترة قصيرة انصرف فيها العباسيون الى توطيد أركان دولتهم ، ثم حلّوا فى ذلك محل بنى أمية بعد قرن أو أكثر من قرن على توليهم الخلافة • والعباسيون وان صعب عليهم ضرب الحصار على القسطنطينية ، فانهم غزوا ارجاء آسية الصغرى مرة تلو أخرى وأعملوا فيها النهب والحرق • وأشهر هذه الغزوات : ندبة الخليفة المعتصم بن هرون الرشيد فى سنة ٢٢٣ (٨٣٨) على عمورية • وهى الموصوفة بانها اجل مدينة فى الشرق ، وامنع واحصن بلاد الروم وهى عين النصرانية ، فأمر الخليفة بنهبها وهدمها وحرقها وعاد الخليفة راضيا ومعه المغانم[٩] •

وقد عني ابن خرداذبه بوصف أعمال آسية الصغرى فى أيام ملوك الروم • ويفيدنا وصفه فى تصحيح التفاصيل المشوشة التى دوّنها قسطنطين بورفيروجينيتس

---

(٩) افاض المستر بروكس E. W. Brooks فى سرد غزوات المسلمين فى آسية الصغرى مستقيا ذلك من المراجع العربية مع التعليق عليها فى بحثه الموسوم « العرب فى آسية الصغرى من سنة ٦٤١ الى ٧٥٠ م » The Arabs in Asia Minor, 641 to 750 المنشور فى مجلة الدراسات الهلنية (Journal of Hellenic Studies) المجلد ١٨ سنة ١٨٩٨ • وفى بحثه الموسوم « البزنطيين والعرب فى صدر الدولة العباسية : ٧٥٠ – ٨١٣ م » Byzantines and Arabs in the time of early Abbasid, 750 to 813 المنشور فى المجلة الانكليزية التاريخية English Historical Review القسم الأول منه فى عدد تشرين الأول ١٩٠٠ وقسمه الثانى فى عدد كانون الثانى ١٩٠١ • وقد عالج موضوع حصار القسطنطينية العظيم فى ايام خلافة سليمان فى مقال نشره فى مجلة الدراسات الهلنية أيضا (المجلد ١٩ لسنة ١٨٩٩ بعنوان « حملة سنة ٧١٦ الى ٧١٨ بحسب المراجع العربية » (TheCampaign of 716 to 718 from Arabic Sources) وتناول هذا الموضوع من الجانب البزنطى البروفسور جى • بى • بورى J. B. Bury فى كتابه History of the Later Roman Empire المجلد الثانى ص ٤٠١ • ويسمى المسلمون Constantinople بالقسطنطينية • اما فيما يتصل باسمها البزنطى الذى يقال ان منه اشتق لفظ « استانبول » الاسم التركى الحديث فيحسن بنا ان نلاحظ ان المسعودى فى النصف الأول من المئة الرابعة (العاشرة) كتب (التنبيه ص ١٣٨) ان الروم فى أيامه كانوا يسمون عاصمتهم بولن Bulin (اى بولن Polin ومعناها : المدينة) • « واذا أرادوا عنها انها دار الملك لعظمها قالوا استن بولن ولا يدعونها القسطنطينية وانما العرب تعبر عنها بذلك » •

Constantine Porphyrogenitus ونحن على كل حال فى غنى عن بحث ذلك ها هنا اذ ان هذا الموضوع يدخل فى جغرافية بلاد الروم • اما عدا ما وصفنا من مدن ، فان المصنفين العرب حين تحدثوا عن الحملات الاسلامية على ما وراء الحدود ، أشاروا الى جملة مواضع يصعب تعيينها الآن اما لغموض ما ذكروه عنها واما للبس فى الاسم • وعليه فان مرج الاسقف ، وكثيرا ما ذكروه ، جاء عنه فى أحد مسالك ابن خرداذبه انه على شى يسير غرب بذندس (البذندون) • والمطمورة[١٠] أو المطامير (بصيغة الجمع) تردد ذكرها كذلك ، وعلينا ان نبحث عنها فى ما جاور ملقوبية• وذو الكلاع وتكتب أيضا ذو القلاع كانت قلعة مشهورة • قال البلاذرى ان اسمها عند الروم تفسيره « الحصن الذى مع الكواكب » • ويبدو انها تطابق سيديروبوليس Sideropolis فى بلاد القباذق Cappadocia .

ومدينة لؤلؤة وهى لولون عند البزنطيين سماها العرب بذلك ليضفوا على اسمها معنى ، وهى على ما ذكرنا فى النهاية الشمالية لدرب الابواب القليقية والى شمالها كانت تيانا (طوانة أو طُوانة) وقد كان هرون الرشيد شحنها بالمقاتلة وبنى فيها جامعا • وكانت مدينة أو حصن الصفصاف فى طريق القسطنطينية قرب لؤلؤة ولعلها موضع فوستينوبوليس على ما قد مرّ (ص ١٦٦) • وفى جنوب البذندون حصن الصقالبة وفيه عسكر ، على ما ذكر البلاذرى ، قوم من الصقالبة كانوا فرّوا من البزنطيين • وكان مروان الثانى آخر خلفاء بنى أمية قد جعلهم فيها لحراسة الدرب[١١] •

وبعد عام ٢٢٣ (٨٣٨) وهو تاريخ حملة الخليفة المعتصم المشهورة على عمورية ، قلّت الغزوات الاسلامية لبلاد الروم • فان تواتر الفتن فى بغداد صرف خلفاء بنى

---

(١٠) ان Mazmorra باللغة الاسبانيه تعنى الدبماس وهى Massamora بالاسكندرية (انظر The Antiquary العصل ٣٣ فى الحاشية) •

(١١) انظر عن اعمال بلاد الروم ، البحث الموسوم بـ « الاثبات العربية لاعمال بلاد الروم » Arabic Lists of the Byzantine Themes بقلم بروكس E. W. Brooks فى مجلة الدراسات الهلينية المجلد ٢١ لسنة ١٩٠١ • ابن خرداذبه ١٠٢ و ١٠٥ البلاذرى ١٥٠ و ١٧٠ الطبرى: ٣ : ٧١٠ و ١٢٣٧ ' ابن الاثير ٦ . ٣٤١ ' رمسى Ramsay فى HGAM ص ٣٤٠ و ٣٥٤ و ٣٥٦ •

العباس عن التفكير فى غزو بلاد الروم . ومع ذلك فانه منذ منتصف المئة الثالثة (التاسعة) حتى المئة الخامسة (الحادية عشرة) كان كثير من الجيوش الاسلامية المجنّدة من ممالك عدة تابعة للخليفة قد عبر الدروب . ولم تثبت الحدود على حال واحدة بل كانت فى تقدم وتراجع واقبال وادبار وفى وسعنا القول ان المسلمين لم يحتفظوا بجزء من الارض مما وراء طوروس احتفاظا مستداما .

ولكن بقيام الاتراك السلاجقة فى المئة الخامسة (الحادية عشرة) بعد [كذا . والصواب : قبل] الحروب الصليبية ، تغير وجه الامور فى آسية الصغرى كل التغير . ففى ربيع سنة ٤٦٣ (١٠٧١) أحرز الب ارسلان السلجوقى نصرا مبينا فى وقعة ملسجرد (منزكرت) فأباد جيش الروم على بكرة أبيه وأسر ملكهم رومانس ديوجينس (Romanus Diogenes) . والى ذلك ، كان الب ارسلان قد استولى سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) على آنى عاصمة ارمينية النصرانية ، فتقوضت بذلك مملكة بَقْرَ وَنْد الارمنية القديمة فكان من ذلك ان أسس روبن (Rupen) أحد اقاربهم مملكة ارمينية الصغرى فى طوروس . وعلى أثر وقعة ملسجرد انفذ الب ارسلان ابن عمه سليمان بن قتلمش الى آسية الصغرى . ثم ان السلاجقة بعد ما كانوا عليه من بداوة ، اقاموا فى الهضبة العالية التى تؤلف قلب هذا الاقليم وصارت مملكة الروم منذ ذلك الحين من ديار الاسلام .

وقد أوغل السلاجقة غربا وحالفهم النصر ، فامتدت غزواتهم حتى نيقية ، وبقيت فى أيديهم زمنا قصيرا متخذيها عاصمة لهم . ولكنهم ردّوا على أعقابهم فى الحملة الصليبية الاولى وتراجعوا الى الهضبة الوسطى واصبحت ايكونيوم (Iconium) وهى قونية التى فتحوها فى سنة ٤٧٧ (١٠٨٤) دار ملكهم ولبثت كذلك[١٢] .

---

(١٢) ابن الاثير ١٠ : ٢٥ و ٤٤ ؛ جهان نما ٦٢١ . وانظر تاريخ فن الحرب History of the Art of War بقلم اومان C. Oman ص ٢١٦ - ٢٢١ عن وقعة منزكرت .

وتاريخ السلاجقة فى بلاد الروم وخلفائهم الامراء التركمان العشرة المنتهى بقيام سلاطين آل عثمان ، اعمض دور فى جميع التواريخ الاسلامية يا للاسف . ولم تكن للمؤرخين الفارسيين ميرخواند وخواند مير ما يضيفانه الى الموجز الذى كتبه المستوفى عن سلاجقة الروم فى كتابه « تاريخ كزيده » . ولعل اكمل تاريخ لهذه الدولة ما فى كتاب « العبر » لابن خلدون (٥ : ١٦٢ - ١٧٥) غير ان ذلك

دامت سلالة سلاطين قونية السلجوقية أكثر من قرنين أي من سنة ٤٧٠ (١٠٧٧) حتى سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) غير ان سلطانهم الحقيقي كان قد انتهى بفتح المغول لقونية في سنة ٦٥٥ (١٢٥٧) وذلك قبل سقوط بغداد بسنة واحدة • واقترن قيام السلاجقة في هضبة آسية الصغرى بنشوء مملكة ارمينية الصغرى النصرانية في بلاد طوروس • وبعيد سنة ٤٧٣ (١٠٨٠) اتخذ روبن مؤسس الدولة الجديدة مدينة سيس ويقال لها أيضا سيسية قاعدة لملكه • وبعد ذلك بقرن أي في سنة ٥٩٤ (١١٩٨) لقب ليو بالملك • ولم ينته حكم ملوك ارمينية الصغرى الذين قاوموا الفتح المغولي الا في سنة ٧٤٣ (١٣٤٢) • وكانت هذه المملكة قد اتسعت رقعتها من سيس فشملت البلاد الجبلية التي يسقيها نهرا سيحان وجيحان • وامتدت جنوبا الى بحر الروم وضمت مدينة المصيصة واذنة وطرسوس ومعظم مدن الساحل الى غرب طرسوس • وكانت سيس (أي سيسية) وهي فلافيوبوليس Flaviopolis القديمة حصن عين زربى البعيد في صدر الدولة العباسية • وقد جدد أسواره الخليفة المتوكل حفيد هرون الرشيد • واستولى عليه الروم بعد ذلك • وحين كتب ابو الفداء في سنة ٧٢١ (١٣٢١) نوه بان ليو الثاني (ابن لاون) الملقب بالعظيم ملك ارمينية الصغرى قد احدثها ، وهي ذات قلعة بأسوار ثلاثة على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير من روافد جيحان • وذكر ياقوت « ان عامة أهلها يقولون سيس » في أيامه •

وفي غرب مملكة ارمينية الصغرى وشمالها تمتد بلاد سلاطين السلاجقة • ولم تمض مئة سنة على استيلائهم على هضبة آسية الصغرى حتى كانت جيوش الصليبيين قد اخترقت هذا الاقليم ثلاث مرات ، وقد انتهت الحرب الصليبية الاولى

لا يعدو في الحقيقة ان يكون ثبتا بالاسماء والتواريخ • اما تاريخ ابن بيبي ، وقد نشره أخيرا البروفسور هوتسما ، فانه رأسا لا يبدأ الا بعد ملج ارسلان الثاني في سنة ٥٥١ (١١٣٦) • اما السبعون سنة الاولى من حكم السلاجقة حين كانوا يفتحون آسية الصغرى ويوطدون حكمهم فيها ، فلا نعرف عنها شيئا قط • ولم ندوه الا بالنصر العظيم الذي اصابوه في وقعة منزكرت • اما المعارك التي أسفرت عن طرد الروم من هضاب آسية الصغرى فلم تدون عنها شيء كما لم يعثر الى معاهدة يفترض عقدها — بوجه رسمي او غير رسمي — بين الروم والسلاجقة بعد وقعة منزكرت • وللاطلاع على خلاصة ما يعرف عن أمراء التركمان الذين خلفوا سلاطين بلاد الروم ، انظر بحث البروفسور لين بول « أخلاف السلاجقة في آسية الصغرى » The Successors of the Saljuks in Asia Minor في مجلة JRAS لسنة ١٨٨٢ ص ٧٧٣ •

سنة ٤٩٠ (١٠٩٧) بهزيمة قلج ارسلان الأول (ابن وخليفة سليمان ، أول سلطان على بلاد الروم) من نيقية . ومرّت شرذمة من الصليبيين بقونية وعادت الى البحر عند طرسوس وركبت السفن الى فلسطين . وفى الحرب الصليبية الثانية تغلب لويس السابع ملك فرنسة على السلطان مسعود (ابن قلج ارسلان) عند ضفاف ماندر (Meander) سنة ٥٤٢ (١١٤٧) ولكن الفرنج فى فى مسيرهم الى ميناء أنطالية كابدوا خسرانا فادحا فى المنطقة الجبلية . وفى الحرب الصليبية الثالثة يقال ان الملك فردريك بربروسة انتزع فى سنة ٥٨٦ (١١٩٠) قونية عاصمة السلاجقة من قلج ارسلان الثانى (ابن مسعود) . ولكن بربروسة فى متابعته السير غرق فى نهر قرب سلوقية (سلوقية قليقية) لعله نهر لاموس أو نهر اللمس المار ذكره (ص ١٦٥) حيث كان يجرى فى أيام العباسيين الاوائل تبادل الاسرى بين المسلمين والنصارى أى فداؤهم .

ولا ريب فى ان رقعة البلاد التى حكمها سلاجقة الروم قد اختلفت باختلاف الازمنة والاحوال . فقد كان لتضاؤل شأن الروم أو ازدياد قوتهم ، ونشوء مملكة ارمينية الصغرى النصرانية ، وما كانت عليه حال الدويلات الاسلامية المجاورة التى اكتسح الصليبيون بعضها وحكم بعض الوقت امراء الفرنج رعايا من المسلمين ، أثره فى ذلك . وقد عرفنا أهم المدن التابعة لسلاجقة بلاد الروم على نحو ما كانت عليه فى سنة ٥٨٧ (١١٩١) من توزيع قلج ارسلان الثانى أملاكه فى تلك السنة بين أولاده الاحد عشر . فقد كانت قونية (ايكونيوم) ، على ما بيّنا ، عاصمة السلاجقة . وكانت قيصرية (Caesarea Mazaka) ثانى مدن سلطنتهم . وملطية (Melitene) أهم مدن الولاية الشرقية على حدود الفرات . وفى الشمال سيواس (Sebastia) ونكسار (أو نيكسار وهى نوسيزارية (Neo-Caesarea) القديمة) . وتوقات واماسية (Amasia) وقد اقطع كل منها أميرا سلجوقيا . ومثل ذلك انكورية (Angora) فى الشمال الغربى وبُرُغْلو فى الحد الغربى ولعلها ألو برلو الحديثة وهى غرب بحيرة اكردور . وعلى الحدود الجنوبية شرقى قونية المدن

المهمة : اراكلية Heraclia ونكيدة أو نكدة وابلستين التى عرفت بعدئذ بالبستان (Arabissus).

وقد مدّ السلطان علاء الدين ، الذى اعتلى العرش فى سنة ٦١٦ (١٢١٩) وهو حفيد قلج ارسلان الثانى ، سلطانه شمالا وجنوبا من سواحل البحر الاسود الى بحر الروم . فاستولى على سينوب (Sinope) على البحر الاسود وأنشأ على الساحل الجنوبى ميناء عظيما فى العلايا ــ وقد نسب اليه ــ وما زالت ترى فيه بقايا أخشاب لبناء السفن وغير ذلك من المنشئات الخاصة ببحرية السلاجقة العظيمة . ومدّ سلطانه فى الشمال الشرقى الى مدينة صارى بولى . وقد كان لكتابات جلال الدين الرومى الشاعر الصوفى العظيم الذى عاش ومات فى قونية أبلغ الاثر فى اشتهار عهده . وبعد ان مضت ثلاثون سنة على موت علاء الدين أى فى سنة ٦٣٤ (١٢٣٧) قوض الجيش المغولى سلطان السلاجقة ولم يكن السلاطين الاربعة الاخيرون فى الحقيقة غير ولاة خاضعين لايلخانيي فارس . وفى سنة ٧٠٠ (١٣٠٠) قسمت ولاية الروم بين الامراء التركمان العشرة وهم فى الاصل من اتباع السلاطين السلاجقة[١٣] .

---

(١٣) البلاذرى ١٧٠ ؛ ياقوت ٣ : ٢١٧ ؛ أبو الفداء ٢٣٧ ؛ ابن بيبى ٥ ؛ جهان نما ٦٢١ و ٦٢٢ .

وذكر الادريسى ، وقد كتب فى سنة ٥٤٨ (١١٥٣) ، انه زار عمورية (جوبرت ٢ : ٣٠٠) وراى سنة ٥١٠ (١١١٦) كهف اصحاب الكهف السبعة . وهو البلدانى المسلم الوحيد الذى وصف آسية الصغرى فى أيام السلاجقة . ومما يؤسف عليه ان كتابه وصل الينا مصحفا تصحيفا عظيما فقد ذكر عددا من المسالك التى تخترق آسية الصغرى فى كل جهة ولكن من الصعب جدا التحقق منها . فان اسماء المواضع التى تمر بها هذه المسالك لا يميز معظمها وإن كان لا يشك فى أسماء المراحل الختامية . الادريسى ٢ : ٣٠٥ ــ ٣١٨ .

وقد عين البروفسور رمسى(MGAM ص ٧٨ و ٣٨٢ و ٣٨٤) حدود مملكة السلاجقة بوضوح ويرى وصف للجوامع وغيرها من ابنية السلاجقة فى سلسلة مقالات كتبها هوار M. C. Haurt موسومة بـ « الكتابات العربية فى آسية الصغرى Epigraphie Arabe d'Asie Mineur فى مجلة الساميات Révue Sémitique سنة ١٨٩٤ ص ٦١ و ١٢٠ و ٢٣٥ و ٣٢٤ وسنة ١٨٩٥ ص ٧٣ و ١٧٥ و ٢١٤ و ٣٤٤ . وفى المجلة الآسيوية Journal Asiatique لسنة ١٩٠١ المجلد الاول ص ٣٤٣ وكذلك فى المقال الموسوم Monuments Seljoukides de Sivas etc. الآثار السلجوقية فى سيواس لكاتبه كرنار M.F. Grenard المنشور فى المجلة الآسيوية لسنة ١٩٠٠ العدد الثانى ص ٤٥١ وانظر أيضا بحث البروفسور رمسى مع ملاحظات فيه للسر سى . ولسن C. Wilson وغيره فى المجلة الجغرافية Geographical Journal لشهر ايلول ١٩٠٢ ص ٢٥٧ و

الفصل العاشر

بلادُ الرُّوم «تتمة»

الامارات التركمانية العشر – ابن بطوطة والمستوفى – قيسارية وسيواس – سلطان العراق – امير قرمان – قونية – امير تكة والعلايا وانطالية – امير حميد واكريدور – امير جرميان وكوتاهية وصورى حصار – امير منتشا وميلاس – امير آيدين وافسوس وازمير – امير صاروخان ومغنيسية – امير قراصى وبرغامس – الولاية العثمانية وبرصى – امير قزل احمد لى : صنوب (سينوب) ٠

تتفق حدود الامارات التركمانية العشر فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وحدود المقاطعات اليونانية القديمة فى آسية الصغرى ٠ وهذه الامارات هى : قرامان أو قرمان أكبرها وهى ليقونية القديمة (Lycaonia) ٠ وعلى ساحل بحر الروم : تكه وتشتمل على ليقية (Lycia) وبمفيلية (Pamphylia) ٠ وفى الداخل : حميد وتضم بسيدية (Pisidia) وايزورية (Isauria) معا ٠ وكرميان أو جرميان وتطابق فريجية (Phrygia) ٠ وعلى ساحل البحر الاسود : قزل احمد لى ويقال لها أيضا اسفنديار وكانت بفلغونية (Paphalagonia) ٠ وعلى السواحل الايجية : منتشا وهى كارية (Caria) القديمة ٠ وآيدين وصاروخان

مما تطابقان مملكة ليدية (Lydia) • وفراضي كانت ميسية (Mysia) وأخيرا الولاية العثمانية (وهي للعثمانيين الذين سيطروا بعدئذ على الامارات التسع الاخرى) وكانت فى أول أمرها مقاطعة فريجية ابيكتتس (Phrygia Epictetus) وفى ظهرها أراضى بثية (Bythia) العالية التى انتزعها العثمانيون أخيرا من يد الروم •

وقد انتهى الينا عن حال آسية الصغرى فى أيام الامراء التركمانيين أخبار غريبة جدا دوّنها ابن بطوطة المغربى فى رحلته ، وكان قد نزل فى العلايا فى منصرفه من الشام وزار فى سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) كثيرا من الامراء الصغار فى طريقه الى صنوب (Sinope) • ومنها قطع البحر الاسود الى القرم ، ويبدو ان قسما من وصفه قد ضاع يا للأسف • سافر ابن بطوطة من العلايا محاذيا ساحل البحر الى أنطالية ثم ضرب شمالا فاجتاز الجبال الى اكريدور فى حميد على بحيرة اكريدور ومنها توجه الى لاذق (Laodicea ad Lycum) فوصل ميلاس فى منتشا • ثم قطع آسية الصغرى بطريق منحرف الى قونية وقيسارية فسيواس وارزن الروم • ومن بعد ذلك يعتري حديث رحلته نقص : اذ ان المدينة التالية التى ذكرها كانت بِركي فى آيدين • ومنها زار اياسلوق (افسوس Ephesus) • وأخيرا اتجه ابن بطوطة صوب الشمال فالشرق فمرّ فى طريقه بمدينة برصى وغيرها من المدن حتى انتهى الى صنوب فى ساحل البحر الاسود • وقد زاد معاصره المستوفى ، فى ما كتبه عن جغرافية بلاد الروم ، بعض التفصيل على ما وصفه من مدن • على ان المستوفى ، وان كتب فى سنة ٧٤٠ (١٣٤٠) ، فقد اعتمد على مراجع قديمة • فكانت أخباره تصف حال بلاد الروم فى أواخر عهد السلاجقة أكثر مما تصف حال تلك البلاد حين وطد الامراء العشرة سلطانهم فيها •

وفى مطلع المئة التاسعة (الخامسة عشرة) كانت غارة تيمور على آسية الصغرى قد قلبت مجرى الامور رأسا على عقب الى أجل ما ، وردّت الدولة العثمانية الحديثة النشأة على أعقابها زهاء ربع قرن ، وما أورده علي اليزدى عن حروب تيمور وسّع علمنا بهذه البلاد • وهناك تفاصيل أخرى فى كتاب جهان نما

التركي . وهذا السفر وان دوّن فى مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) ، حيث كانت الدولة العثمانية قد وطدت أركانها فى آسية الصغرى منذ عهد بعيد ، فانه ذكر أهم ما خلّفه سلاطين آل سلجوق من آثار .

وقبل ان نصف الامارات العشر التركمانية ، وقد نوهنا باسمائها آنفا ، يحسن بنا ان نذكر شيئا عن المدن التى فى شرقي قرامان ، وهى التى قد يعينها المجرى الاسفل لنهر هلس (قزل ايرماق عند الترك) ويكملها خط يتجه جنوبا الى جيحان . كانت آسية الصغرى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) مما يلى شرق هذا الحد من مملكة الايلخانيين ، وهم الامراء المغول الذين تولوا حكم العراق وفارس . وكانوا يولون عمالهم على هذه البقاع لينشروا السلام بين قبائل التركمان البدوية الصغيرة التى حلت فى هذه البلاد بعد الفتح المغولى العظيم . وكانت أهم المدن فى شرق حدود قرامان : قيصرية (وتكتب أيضا قيسارية وهى Caesarea Mazaka فى القباذق) وقد كانت فى زمن بنى سلجوق ثانية مدن الروم ، وعدّها القزوينى قاعدة ملكهم . ويُرى فيها فيما يرى من المقامات : جامع (ابي محمد) البطّال ، بطل العهد الاموى . ووصف المستوفى قيصرية بان حولها سورا من حجر بناه السلطان علاء الدين السلجوقى . وكانت مدينة عظيمة محصنة عند لحف جبل ارجاست (Argaeus) . وذكر المستوفى ان ارجاست كان جبلا شامخا لا يفارق الثلج قمته . وينحدر منه أنهار كثيرة . وفى لحفه : دولو (Davlû) . وهو موضع سيأتى ذكره . وفوق قمة الجبل بيعة عظيمة . وفى قيصرية « موضع يقولون انه حبس محمد ابن الحنفية » من ابناء الامام علي . ولما زار ابن بطوطة قيسارية (وقد كتب اسمها بهذا الوجه) « كان بها عسكر اهل العراق » من عساكر السلطان المغولى . وكانت قيصرية فى مطلع المئة التاسعة (الخامسة عشرة) أولى المدن الكبرى التى استولى عليها جيش تيمور فى آسية الصغرى .

وابلستين (ارابيسوس Arabissus) فى شرق قيصرية . وهى من مدن الثغور فى أيام الروم . وقد ذكرت أيضا فى فتوح تيمور . قال المستوفى ان ابلستين مدينة لا كبيرة ولا صغيرة . وذكرها صاحب جهان نما بالتهجئة الحديثة

« البستان »، وكانت قير شهر (وهي جستيانوبوليس موكيسوس Justinianopolis Mokissus) الروميـــة على نحـــو ثمـــانين ميـــلاً غـــرب قيصريـــة ، وكـــانت ذات شأن ، وكثيرا ما ورد ذكرها في أخبار حروب تيمور • ووصف المستوفي قير شهر بانها مدينة كبيرة ذات مبان جميلة • وعدها صاحب جهان نما من مدن قراماں • وكانت اماصية أو اماسية (Amasia) في عهد السلاجقة من مراكز حكوماتهم • وروى المستوفي ان السلطان علاء الدين قد احدثها • ووصفها ابن بطوطة ، وقد مرّ بها ، بقوله انها « مدينة كبيرة حسنة وهي فسيحة الشوارع والاسواق ذات أنهار وبساتين وعلى أنهارها النواعير تسقي جناتها ودورها • ومُلكها لصاحب العراق. • وبقرب منها بلدة سونسى (كتبها جهان نما بصورة صونيسا) » وبها سكنى أولاد ولي الله تعالى ابي العباس احمد الرفاعي »• وفي شمال اماسية : لاذق (Laodicea Pontica) وهي موضع ذو شأن بيد السلاجقة • وكثيرا ما ذكرها ابن بيبى في تاريخه • ووصف المستوفي ميناء سمسون (أو صامصون وهي اميسوس Amysos عند الروم) بأنه مرفأ عظيم للسفن • وبحلول النصف الاخير من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) نمت ثروتها بانتقال تجارة سنوب (أو صنوب Sinope) اليها وهي المياء الذي كان قبلها[1] •

وكانت نيكسار (أو نكسار وهي Neo-Caesarea اليونانية) مدينة جليلة خاضعة للسلاجقة • وكثيرا ما ورد ذكـرها في ابن بيبى • وقد وصفهـا المستوفي بانها مدينة وسطة حولها بساتين تكثر فيها الفواكه • وكانت توقات (وتكتب أيضا دوقاط) في غرب نيكسار على طريق اماسية • وكانت من الحكومات العظيمة التابعة لبني سلجوق • ويليها في الغرب : زيلة وقد ذكرها ابن بيبى ومن جاء بعده من المصنفين • وأحدث الســلطان علاء الدين مدينـــة سـواس (Sebastia) على قزل ايرماق (هلس Halys) وقد شيّد أبنيتها الجديدة كلهـــا بالحجارة المهندمة • وروى المستوفي ان الموضع كان مشهورا بثياب الصوف التي تحمل

---

(١) القزويني ٢ : ٣٧١ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٨٧ و ٢٨٩ و ٢٩٢ ؛ ابن بيبى ٢٦ و ٣٠٨ ؛ المستوفي ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ٢٠٢ ؛ علي اليزدي ٢ : ٢٧٠ و ٤١٦ و ٤١٧ ؛ جهان نما ٥٩٩ و ٦١٥ و ٦٢٠ و ٦٢٢ و ٦٢٣ •

منهـا . وهى ذات هواء بارد يكثر فيها القطن والقمح . وتكلم ابن بطوطة على سيواس فقال هى « من بلاد ملك العراق وأعظم ما له بهذا الاقليم من البلاد ، وبها منزل أمرائه وعماله . مدينة حسنة العمارة واسعة الشوارع أسواقها غاصة بالناس وبها دار مثل المدرسة تسمى دار السيادة » .

ووصف المستوفى الطريق الضارب غربا[٢] من سيواس الى بلاد فارس وهو كما يأتى : مرحلتان الى زاره ، وهى مدينة قليلة الشأن . ثم مرحلتان الى آق شهر (المدينة البيضاء) وقد تردد ذكرها كثيرا فى أخبار السلاجقة . وفى شمال غربى آق شهر قره حصار (الحصن الاسود) وقد أكثر ابن بيبى من الاشارة اليه وسماه قره حصار دولة تمييزا لهذا الحصن ـ الذى أشار اليه أيضا المستوفى ـ عن حصن آخر بالاسم ذاته . وسماه جهان نما قره حصار شبين نسبة الى معدن الشب على مقربة منه . ومن آق شهر يتجه الطريق الى بلاد فارس فيبلغ ارزنجان فى ثلاث مراحل ، ومنها مثل ذلك الى ارزن الروم ، ثم يتجه جنوبا الى خنوس (خوناس كما كتبه ابن بيبى ، وخنس اسمها الحالى) وهو ثلاث مراحل . ومنها عشر مراحل الى ملاسجرد (منزكرت) وهذه على ثمانى مراحل من ارجيش القائمة على بحيرة وان[٣] .

كانت امارة قرمان أو قرامان ، أكبر الامارات العشر . وانما سميت بذلك نسبة الى القبيلة التركمانية التى حلت فى هذه الارجاء . وكانت قاعدتها لارندة وقيل لها قرمان أيضا نسبة الى الامارة . ويرقى زمن لارندة الى أيام الروم . وصفها ابن بطوطة ، وقد زارها فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وكتب اسمها بصورة اللارندة فقال « مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين » . وفى ختام هذا القرن استولت عليها جيوش تيمور ونهبتها ، الا انها استعادت بعد ذلك ازدهارها الاول . والى جنوب لارندة مدينة ارمناك ، وقد تكلم عليها المستوفى وقال انها كانت فيما مضى مدينة كبيرة ولكنها انحطت فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فصارت مدينة

---

(٢) الصواب « شرقا » على ما هو واضح (م) .

(٣) ابن بيبى ٢٦ و ٢٩٢ و ٣٠٨ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٨٩ ؛ المستوفى ١٦١ و ١٦٣ و ١٦٤ و ١٩٩ ؛ جهان نما ٤٢٤ و ٦٢٢ و ٦٢٣ .

اقليمية ، وتنوّه بها جهان نما حين ذكره سلفكة وكان العرب يسمونها قبلا سلوقية (Seleucia of Cilicia)، ودخلت هذه المدينة فى أيام العثمانيين ضمن الولاية المسماة ايج ايلي ومعناها بالتركية « الارض الداخلة » ، ولما كان هذا الوصف لا يتفق هو ووضع الولاية المبحوث عنها ، اذ انها تحاذى الساحل ، ظُنّ ان ايج ايلى ليس الا تصحيفا مفتعلا من الاسم اليونانى القديم قلقية Cilicia .

وكانت قونية (Iconium) على ما بيّنّا دار ملك السلاجقة ، ولكنها فى عهد امراء قرامان تضاءل شأنها فصارت مدينة فى المرتبة الثانية وروى المستوفى انه كان فيها ايوان عظيم فى القصر الذى بناه السلطان قلج ارسلان وهو بانى الحصن أيضا ، ثم بنى علاء الدين ، أو استحدث ، أسوار المدينة بالحجارة المقدودة وجعل علوها ثلاثين ذراعا واطاف بها خندقا عمقه عشرون ذراعا ، وكان محيط الاسوار عشرة آلاف خطوة وفيها اثنا عشر بابا جعل فوقها أبراجا عظيمة ، ومدّ الماء الوافر اليها من الجبل القريب منها ، واختزنه فى صهريج عظيم تعلوه قبة عند أحد أبواب المدينة ، ومنه كان يخرج ثلثمئة قناة ونيف توزع الماء بين سائر انحاء المدينة ، واشتهرت قونية بساتينها التى يكثر فيها المشمش الاصفر وينمو فى مزارعها القطن والقمح .

وذكر المستوفى ، الى ما تقدم ، ان الخراب كان غالبا على قونية فى أيامه وان بقي الربض الذى فى أسفل الحصن آهلا بالسكان ، وكان فى المدينة تربة الشاعر الصوفى العظيم جلال الدين الرومى ، وقد مرّ ذكره ، ويزورها كثيرون ، ورأى ابن بطوطة هذه التربة ، وأشاد بقونية فقال انها « مدينة عظيمة حسنة العمارة كثيرة المياه والانهار والبساتين والفواكه وبها المشمش المسمى بقمر الدين ويحمل منها أيضا الى الشام ، وشوارعها متسعة جدا وأسواقها بديعة الترتيب وأهل كل صناعة على حدة » ، وذكر ابن بيبى فى تاريخه عن السلاجقة اسماء ثلاثة من أبواب قونية ، هى : باب سوق الخيل (دروازه اسب بازار) وباب دار الفحص (دروازه جاشنى گير) وباب جسر احمد (دروازه پول احمد) .

وقلعة قره حصار التابعة لقونية ، لا تبعد كثيرا عن شرق قونية ، وقال

المستوفى ان بهرام شاه قد بناها ، ويليها هرقلة (Heraclea) وهو اسم تحرّف في الازمنة المتأخرة الى اراكلية ، وكثيرا ما تردد ذكرها في جهان نما ، وفي شمال قونيـــة : لاديق ســـوخته أى لاديق المحـــروقة (Laodicea Combusta وهي Katakekaumena اليونانية) وقد أطلق عليها ابن بيبى قرية لاديق تمييزا لهـا عن غـيرها من المدن التى تســمى Laodicea (Ad Lycum, Pontica) وأشار جهان نما الى لوديقية كمبوستة باسم يورغان لاديق وتسمى أيضا لاذقية قرمان[٤] .

وفي شمال ولاية قرمان : انكورة (Angora) (انقيرا Ancyra اليونانية) وقد كتبها البلدانيون العرب القدماء بصورة انقرة والمؤلفون الفـرس والتـرك المحدثون إنكورية[٥] . وصفها المستوفى بقوله انها مدينة ذات هواء بارد يكثر فيها القمح والقطن والفواكه ، وقد اشتهرت في التاريخ لان فيها تغلب تيمور سنة ٨٠٤ (١٤٠٢) على السلطان بايزيد العثماني وأسره بعد موقعة حامية . وقوشحصار أو كوج حصار على الحافة الشرقية للبحيرة الملحة الكبرى ، ذكرها المستوفى وقال انها مدينة وسطة ، وقد ورد ذكرها أيضا في جهان نما ، وعلى شيء يسير من شرق الطرف الجنوبي للبحيرة : آقسرا (القصر الابيض) ، بناها السلطان قلج ارسلان الثاني في سنة ٥٦٦ (١١٧١) ، وصفها المستوفى بانها مدينة في ارض كثـــيرة الخيرات ، وأقصرا (بحسب تسمية ابن بطوطة لها) « يشقها ثلاثة انهار ، وداخلها بساتين كثيرة وفيها الاشجار ودوالى العنب وتصنع فيها (في المئة الثامنة = الرابعة عشرة) البسط المنسوبة اليها من صوف الغنم لا مثل لها في بلد من البلاد ، ومنها تحمل الى الشام ومصر والعراق » ، وزاد ابن بطوطة على ذلك ، ان اقصرا في أيامه كانت « في طاعة ملك العراق » .

وعلى نحو خمسين ميلا شرق آقسرا : ملنقوبية (ملكوبية Malacopia)

---

(٤) ابن بطوطة ٢ : ٢٨١ و ٢٨٤ ؛ المستوفى ١٦٢ و ١٦٣ ؛ على اليزدى ٢ : ٤٥٨ ؛ جهان نما ٦١١ و ٦١٥ و ٦١٦ ؛ ابن بيبى ٨ و ٩٠ و ٢٨٧ و ٣٢٤ .

(٥) في معجم البلدان (مادة انقرة) انقرة : هو فيما يلفظى اسم للمدينة المسماة انكورية (م) .

ذكر المستوفى أنها موضع ذو شأن فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • والى شمال هذه المدينة : قرا حصار أخرى • وصفها المستوفى بانها من أعمال نيكدة • والى شرق هذه المدينة أيضا : دولو (وجاء أسمها فى جهان نما بصورة دوهلو) • وهى على ما بينّا تقوم عند لحف جبل ارجاست وقد ورد ذكرها غير مرة فى تاريخ ابن بيبى فى كلامه على قيصرية • ووصف المستوفى دولو بانها مدينة وسطة ، جدد السلطان علاء الدين السلجوقى بناء أسوارها • وفى جنوب ملقوبية : نيكدة (وكتبها ابن بيبى نكيدة) وقد قامت فى موضع طوانة القديمة (تيانة Tyanah) بناها السلطان علاء الدين • وصف المستوفى نيكدة بانها مدينة لا كبيرة ولا صغيرة • وقد مرّ ابن بطوطة بمدينة نكدة (على ما سماها به) وقال ان بعضها قد خرّب وانها من بلاد ملك العراق ويشقها النهر المعروف بالنهر الاسود وعليه ثلاث قناطر ، وعليه النواعير ومنها تسقى البساتين والفواكه بها كثيرة ، وفى جنوب نكدة : لؤلؤة (لولون Loulon) وكثيرا ما ذكرها ابن بيبى • وقد بينّا انها قلعة عظيمة فى الطرف الشمالى من درب أبواب قليقية • وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وصف المستوفى لؤلؤة فقال هى مدينة صغيرة حولها أرض خصبة وهواؤها بارد وفيها مواطن للصيد مشهورة[٦] •

والظاهر ان أهم المدن فى بلاد امير تكه : مدينتا العلايا وانطالية وهما ميناءان مشهوران • فالاولى ، على ما بينّا ، اسسها السلطان علاء الدين السلجوقى فوق كوراكسيوم (Coracesium) وقد نزلها ابن بطوطة حين جاء من الشام سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) فوصف العلايا بانها مدينة كبيرة على ساحل البحر ولها تجارة مع الاسكندرية ولها قلعة صعد اليها ابن بطوطة ووصفها بقوله « لها قلعة باعلاها عجيبة منيعة بناها السلطان المعظم علاء الدين » • وكانت العلايا فى أيامه على ما يظهر من بلاد سلطان قرمان •

أما أنطالية ، وهى الميناء الثانى ، فكانت على نحو مئة ميل من غرب العلايا عند رأس الخليج • وقد اشتهرت بان الصليبيين كانوا يبحرون منها الى فلسطين •

---

(٦) ابن بيبى ٥ و ٣٤ و ٤٤ و ٢٧٩ و ٣١٤ ؛ ابن بطوطه ٢ . ٢٨٥ و ٢٨٦ ؛ المستوفى ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ و ٢٠٢ ؛ ياقوت ٤ ٦٣٥ ، على اليزدى ٢ . ٤٢٩ ؛ جهان نما ٦١٧ و ٦٢٠ •

وهي بلد كبير عده ياقوت « من مشاهير بلاد الروم وهي حصن على شط البحر واسع الرستاق كثير الاهل » وفيها بنى السلطان قلج ارسلان السلجوقي قصرا له فوق نشز من الارض يطل على البحر . ووجد فيها ابن بطوطة أيضا ان « كل فرقة من سكانه منفردة بأنفسها عن الفرقة الاخرى : فتجار النصارى ساكنون منها بالموضع المعروف بالميناء وعليهم سور . واليهود فى موضع آخر وعليهم سور . وسائر الناس من المسلمين يسكنون المدينة العظمى وبها مسجد جامع ومدرسة » . وانطالية ، وهي التي ورد اسمها في أخبار الحروب الصليبية بصورة ستالية (Satalia) أو اتالية (Attaleia) ، قد جاء ذكرها مرارا فى حروب تيمور لنك باسم عدالية . وفي غربها ، على ما ذكر علي اليزدى ، استانوس . وهى مدينة ذكرت فى جهان نما بصورة استناز[٧] .

وفى شمال تكه كان لامير امارة حميد البلاد التى حول البحيرات الاربع : اكريدور وبردور وبقشهر وآقشهر . وكانت دار المملكة فى أيام السلاجقة ، على ما جاء فى ابن بيبى ، فى مدينة برغلو وهي تطابق الوبرلو الحديثة على ما يظهر (فى غرب اكريدور) وهى سوزوبوليس (Sozopolis) أو ابولونية (Apollonia) عند الروم . وانطاكية (Antioch of Pisidia) ، وكثيرا ما ذكرتها التواريخ الاسلامية القديمة ، قد اضحى اسمها فى العهد التركى يلاواج . وكانت فى البرية بين بحيرتى آكريدور وآقشهر . والظاهر ان أهم مدن هذه الولاية فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، على ما جاء فى المستوفى ، اكريدور وهى مدينة بروسته Prostanna القديمة) فى جنوب بحيرة اكريدور . ووصف ابن بطوطة مدينة اكريدور بقوله « مدينة عظيمة كثيرة العمارة حسنة الاسواق ذات أنهار وأشجار وبساتين (ثم قال :) ولها بحيرة عذبة الماء يسافر المركب فيها الى آقشهر وبقشهر وغيرهما من البلاد والقرى » التى على شطئان هاتين البحيرتين .

وكانت مدينة بقشهر أو بى شهر (وهى كرلية Karallia عند الروم)

---

(٧) ورد فى العهد الجديد من الكتاب المقدس ذكر اتالية فى سفر الاعمال ١٤ : ٢٥ . ياقوت ١ : ٣٨٨ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٥٧ و ٢٥٨ ؛ جهان نما ٦١١ و ٦٣٨ و ٦٣٩ ؛ علي اليزدى ٢ : ٤٤٧ و ٤٤٦ .

عند طرف بحيرتها وقد بناها السلطان علاء الدين السلجوقي على ما جاء في جهان نما • ولها سور من حجر فيه بابان وفيها مسجد جامع وحمامات حسنة وسوقها في موضع يسمى آلرغة • والى غرب اكريدور مدينة بردور على بحيرة بردور وهي بلدة صغيرة • قال ابن بطوطة انها كثيرة البساتين والانهار ولها قلعة في رأس جبل شاهق • وجاء في جهان نما ان اسبارطة وهي في جنوب اكريدور كانت قاعدة حميد في الازمنة المتأخرة • وكتب ابن بطوطة هذا الاسم بصورة سبرتا • وقال انها « بلدة حسنة العمارة كثيرة البساتين والانهار لها قلعة في جبل شامخ » • وتمثل هذه المدينة مدينة برس (Baris) البزنطية وتعرف اليوم باسم سبارتا[٨] •

أما بحيرة آقشهر فهي التي سماها ابن خرداذبه (أنظر الصفحة ١٦٧ أعلاه) الباسليون وقد عرفها الروم بحيرة الاربعين شهيدا • والى غربها الحصن العظيم قرا حصار • وكثيرا ما جاء اسمه مرتبطا بآقشهر في حروب تيمور لنك • وفي آقشهر ، على ما ذكر علي اليزدي ، كان السلطان بايزيد ايلدرم العثماني المنكود الحظ قد مات كمدا في سنة ٨٠٥ (١٤٠٣) وكان تيمور لنك قد قهره في انقرة • وذكر المستوفي هاتين المدينتين : آقشهر وقرا حصار في جملة ما عرف من أمكنة بهذين الاسمين • وقرا حصار هذه تعرف اليوم بافيون قره‌حصار لكثرة ما يزرع فيها من الافيون وهي تعين موضع مدينة بريمنسوس (Prymnessos) أو اكروينس (Akroenos) اليونانية • وتؤكد الروايات المحلية ان البطال ، وهو بطل عهد بني امية الاول ، في حروبهم مع الروم قد قتل في وقعة جرت بالقرب منها • على ان الطبري ، وهو أقدم مرجع لدينا ، روى في حوادث سنة ١٢٢ (٧٤٠) ان عبدالله البطال « قتل في أرض الروم » ولم يشر الى موضع مقتله[٩] •

---

(٨) سبرتا أو اسبارته هو تصحيف الاسم اليوناني (eis Bápioa) انظر الحاشية في ص ١٩٠ عن أرميد رازنيق (نيقوميدية ونيقية Nicaea , Nicomedia) •

(٩) ابن بيبي ٥ و ٢١٢ و ٢٥١ و ٢٨٣ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٦٥ و ٢٦٦ ؛ المستوفي ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٤ ؛ جهان نما ٦١٨ و ٦٣٩ و ٦٤٠ و ٦٤١ ؛ علي اليزدي ٢ : ٤٥٧ و ٤٥٨ و ٤٨٩ و ٤٩٢ رمسي HGAM ٨٧ و ١٣٩ و ٣٩٦ و ٤٠١ و ٤٠٦ ؛ الطبري ٢ : ١٧١٦ •

ورد في جهان نما (ص ٦٤٢) ان قبر البطال كان قائما في المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) في سيدي غازي على نيف وخمسين ميلا شمال قراحصار وشرق كوتاهية • اما اليوم فانه

وفى شمال امارة حميد وغربها ، البلاد التى كان يحكمها أمير كرميان أو جرميان وكانت دار حكومته كوتاهية (كوتيوم Cotyaeum) . وكتب المؤرخون العرب هذا الاسم ، على ما بيّنا ، قطيّة ولا مراء ان المدينة البزنطية قد خربت منذ زمن بعيد . وجاء فى جهان نما ان الذى بنى كوتاهية مدينة القرون الوسطى هو سلطان جرميان . وأشار ابن بطوطة الى ان فيها طائفة من قطاع الطرق . وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ذكر هذا الموضع كثيرا فى حروب تيمورلنك وكان قد جعله مقر قيادته بعض الوقت . وفى شرق كوتاهية بمئة ميل قرب روافد سنكاريوس (Sangarius) العليا حصن عظيم يقال له سوري حصار اتخذه تيمور أيضا مركزا لقيادته وقتا ما . ومعنى اسمه فى التركية « الحصن المدبب » ، (وكتبها القزوينى بصورة سبرى حصار) ، وكان فوق موضع بسينوس (Pessinus) الرومانى الذى سمى بعدئذ جستيانوبوليس پالبا (Justinianopolis Palia) . وروى القزوينى انه كان فيه فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) بيعة مشهورة تسمى بيعة كمناتوس . « وان الدابة اذا احتبس ماؤها يطاف بها حول هذه البيعة سبعا ينفتح ماؤها » .

والى جنوب سورى حصار : مدينة عمورية (Amorion وهى عند أستار قلعة الحديثة) وقد تكلمنا عليها قبلا (ص ١٧٠) . وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) أشار المستوفى اليها بقوله انها موضع ذو شأن وان عامة الناس كانوا يسمونها ، لسبب مبهم ، أنكورية أو انكوره (Angora). وكرّر جهان نما هذه التسمية الغريبة المغلوط فيها وقال ان انكورية هى التى يقال لها عمورية . وفى جنوب شرقى جرمبان ، مدينة لاذق (Laodicea ad Lycum) التى سمّاها الاتراك دنزلو (المياه الوافرة) لكثرة انهارها ويعرف هذا الموضع اليوم باسم اسكى حصار (القلعة القديمة) وقد وصفها ابن بطوطة فقال « هى من أبدع المدن واضخمها

يرى فى غير شهر . اما انطاكية بسيدية (Antioch of Pisidia) فيظهر ان التواريخ العربية القديمة تميل فى كل وقت الى خلطها بمواضع اخرى بالاسم ذاته ولا سيما بانطاكية الشام . وقد أشار اليعقوبى فى تاريخه (١ : ١٧٧) الى انطاكية المحترقة التى تفسر على ما يظهر معنى انطاكية بسيدية . وتكلم المؤلف نفسه (٢ . ٢٨٥) على غزوة وقعت فى سنة ٤٩ (٦٦٩) . ثم ذكر « انطاكية السوداء » ولعله أراد بهذا الاسم Antioch of Isuria انطاكية ايزورية .

فيها سبعة من المساجد لاقامة الجمعة وأسواقها حسان ، وتصنع بها ثياب قطن معلمة بالذهب لا مثل لها وأكثر الصناع بها نساء الروم » ، وقد ذكر جهان نما ان اسمها القديم : لاذقية[۱۰] .

وفى امارة أمير المنتشا ، زار ابن بطوطة المدن المتجاورة الثلاث : مغـلة وميلاس وبرجين وكان مقام الامير فى مغلة (مبلة Mobolla القديمة) وهى دار حكمه على ما جاء فى جهان نما ، وقد أشار ابن بطوطة الى انها مدينة حسنة ، وكانت ميلاس (Mylasa أو Melisos) أيضا مدينـة من أحسن بلاد الروم واضخمها ، كثيرة الفواكه والبساتين والمياه ، وكانت برجين (Bergylia ونعرف اليوم اسّارلك) على بضعة أميال من ميلاس « وهى جديدة على تل هنالك بها العمارات الحسنات والمساجد » ، وزار ابن بطوطة فى القسم الشرقى من المنتشا مدينة قل حصار وقد ذكرها المستوفى باسم « گل » وقال فيها انها مدينة وسطة ، وأشير اليها أيضا فى حروب تيمور ، ووصفها ابن بطوطة فقال « بها المياه من كل جانب قد نبت فيها القصب فلا طريق لها الا طريق كالجسر مهيأ ما بين القصب والمياه ، والمدينة على تل فى وسط الماء منعة لا يُقدر عليها » ، وكان فى شمال المنتشا حصن طواس ويسمى فى وقتنا هذا دوناس (Donas) وهو على مسيرة يوم ونصف من لاذق(Laodicea ad Lycum). وصف ابن بطوطة طواس بانه حصن كبير فى اسفله ربض ، ويقال ان صُهيبـا الصحابى من أهل هـذا الحصن[۱۱] .

والى شمال المنتشا بلاد امير آيدين وكانت قاعدتها تيرة (Teira) ، وحكى ابن بطوطة وقد زار امير آيدين فيها انها « مدينة حسنة ذات انهار وبساتين » ، وقد مرّ أيضا بمدينة بركى (برگيون Pyrgion) على مرحلة من شمال تيرة ، وقد أطرى أشجارها الباسقة ، وتقوم مدينـة آيدين أو گزل حصار فى موضع

---

(۱۰) القزوينى ۲ : ۳٥۹ ، ابن بطوطة ۲ : ۲۷۰ و ۲۷۱ و ٤٥۷ ، المستوفى ۱٦۲ ، على اليزدى ۲ ، ٤٤۸ و ٤٤۹ ؛ جهان نما ٦۳۱ و ٦۳۲ و ٦۳٤ و ٦٤۳ .

(۱۱) ابن بطوطة ۲ : ۲٦٦ و ۲۷۷ و ۲۷۸ و ۲۸۰ ؛ المستوفى ۱٦۳ ؛ جهان نما ٦۳۸ ؛ على اليزدى ۲ : ٤٤۸ .

ترليس (Tralleis) البزنطية وكانت مدينة قليلة الشأن. وكانت أفسس على الساحل، وقد عرفها البلدانيون العرب باسم افسوس أو أبسوس . واشتهرت لان فيها كهف اصحاب الكهف الذين جاء ذكرهم فى القرآن (السورة ١٨ ، الآية ٨) . وقد عرفت هذه المدينة بعد ذلك باسم ايا سلوق (وتكتب أيضا اياثلوخ أو اياسليغ) وهو تصحيف الاسم اليونانى (Agiou Theologou) وسميت بذلك لان فيها كنيسة كبيرة للقديس يوحنا اللاهوتى بناها الملك يسطنياس . وقد زار ابن بطوطة هذه الكنيسة حين كان هناك سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) ووصفها بقوله « مبنية بالحجارة الضخمة ويكون طول الحجر منها عشر أذرع فما دونها ، منحوتة ابدع نحت . والمسجد الجامع بهذه المدينة من أبدع مساجد الدنيا لا نظير له فى الحسن وكان كنيسة للروم . فلما فتحت هذه المدينة جعلها المسلمون مسجدا جامعا ، وحيطانه من الرخام الملون ، وفرشه الرخام الابيض ، وهو مسقف بالرصاص ، وفيه احدى عشرة قبة منوعة . وزاد ابن بطوطة على ما تقدم انه كان لأياسلوق فى أيامه خمسة عشر بابا ، ونهرها يشقها الى البحر . » وعن جانبي النهر الاشجار المختلفة الاجناس ودوالي العنب ومعرشات الياسمين » .

وكان فى آيدين ميناء عظيم آخر هو سمرنة (Smyrna) وسماه الترك أزمير أو يزمير وهى التى ظفر بها تيمور من الفرسان الاسبانية فى مطلع المئة التاسعة (الخامسة عشرة) . وصفها ابن بطوطة ، وكان فيها سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) ، فقال « معظمها خراب ولها قلعة متصلة بأعلاها » . وزاد على ذلك ان امير آيدين « كان كثير الجهاد ، له احفان غزوية[١٢] يضرب بها على مدن نصرانية فى سواحل البحر قرب ثغر آيدين يسبي ويغنم » . ومن هذه المدن : فوجة « أو فوچة وهى فوجيـة Phocia) على ساحل امارة صاروخان ، فقد ذكرت بعد ذلك فى أيام تيمور لنك بانها حصن اسلامى . وذكر ابن بطوطة فى رحلته انها كانت حينئذ فى ايدي الكفار ، والمراد بهم الجنويين (أهل جنوة) . وكانت قاعدة صاروخان مدينة مغنيسية (مغنيسيا وهى Magnesia) قال ابن بطوطة فيها « هى مدينة كبيرة حسنة فى سفح جبل وبسيطها كثير الانهار والعيون والبساتين والفواكه » .

---

(١٢) الاحفان ضرب من السفن (م) .

وفيها يقيم أمير صاروخان • وفى حروب تيمور اطلق على البلاد التى حول مغني سياه (بحسب تهجئة ذلك الزمن) اسم سروهان ايلى[١٣] •

وفى شمال صاروخان بلاد امير قراصى (أو قره سى) وله داران للحكم فى بلي كسري وبرغمة (برگامس Pergamus) • ووصف ابن بطوطة برغمة وقد زارها فى سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) بقوله انها « مدينة خربة لها قلعة عظيمة منيعة بأعلى جبل »• اما بلي كسري ، وقد زارها أيضا ، فكانت « مدينة حسنة كثير العمارة مليحة الاسواق ولا جامع لها يجمع فيه ، وان كان سلطان قراصى دمور (أو تيمور) خان يعيش فيها • وأبوه هو الذى بنى بلي كسري » • وكثر ذكر هذه المدينة فيما بعد أيام حروب تيمور •

ومن بلي كسري سار ابن بطوطة الى برصى وقد كانت فى أيامه قاعدة الدولة العثمانية حين أخذ نجمها يتألق وسطوتها تقوى وبدأت تبتلع الامارات التركمانية الأخرى • وكانت برصى أو بروســة (Prusa) فى ذلك الزمن « مدينة كبيرة عظيمة حسنة الاسواق فسيحة الشوارع تحفّها البساتين من جميع جهاتها والعيون الجارية • وبخارجها نهر ماء شديد الحرارة يصب فى بركة عظيمة وقد بني عليها بيتان احدهما للرجال والآخر للنساء • والمرضى يستشفون بهذه الحمة ويأتون اليها من أقاصى البلاد » • وقد زار ابن بطوطة سلطانها العثمانى اورخان (وهو جد بايزيد ايلدرم ، وقد مرت الاشارة الى تغلّب تيمور عليه فى مطلع القرن التالى) • وفى عاصمته من المبانى قبر ابيه السلطان عثمان بمسجدها • وكان مسجدها كنيسة للنصارى •

وكانت ميخاليج (ميلتوبوليس Miletopolis ، وقد سمّاها الروم Michaelitze) على نحو خمسين ميلا غرب برصى • وقد ورد ذكرها كثيرا فى حروب تيمور وفى جهان نما • على ان أهم بلاد العثمانيين سنة ٧٣٣ (١٣٣٣)

---

(١٢) ابن بطوطة ٢ : ٢٩٥ و ٣٠٧ و ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣١١ ؛ على اليزدى ٢ • ٤٦٦ و ٤٦٨ و ٤٧٠ و ٤٨٠ ؛ جهان نما ٦٣٤ و ٦٣٦ و ٦٣٧ ؛ رمسى HGAM ١١٠ و ٢٢٨ ؛ ياقوت ١ : ٩١ ؛ ٢ • ٨٠٦ •

لقد تكلمت على حكاية اصحاب الكهف فى افسوس فى كتابى Palestine under the Moslems ص ٢٧٤ •

هي نيقية التى أخذها السلطان اورخان من الروم وكان البلدانيون العرب الاولون يسمون Nicaea : نيقية ، وعرفها الترك باسم يزنيق أو ازنيق • ووصف ابن بطوطة بحيرة يزنيك فقال انها « تنبت القصب » • وفي طرفها الشرقي مدينة يزنيك « لا يستطاع دخولها الا على طريق واحد مثل الجسر لا يسلك عليها الا فارس واحد » • والمدينة على قوله « خاوية على عروشها لا يسكن بها الا اناس قليلون وبداخل المدينة البساتين • وعليها أسوار أربعة بين كل سورين خندق وفيه الماء ويدخل اليها على جسور خشب » • والى شمال نيقية : نيقوميدية (Nicomedia) وقد عرفها البلدانيون العرب الاولون باسم نقمودية ، وسماها الترك ازنكميد • وبهذه الصورة ورد اسمها في جهان نما ثم اختصر الى ازمد وهو ما تعرف به اليوم ولم يصف هذه المدينة ابن بطوطة ولا غيره من المصنفين[١٤] •

وكانت امارة قزل احمد لى تشرف على ساحل البحر الاسود مما يجاور البوسفور الى سبوب • وأول مدينة كبيرة بلغها ابن بطوطة في رحلته من يزنيق بعد عبوره نهر سنكاريوس الذى يسميه الترك سَقَرى كانت : مُطرنى أو مدرنى (مدرلو الحديثة وهى Modrene القديمة) وقد ذكر انها بلدة كبيرة • وجاء ذكرها في جهان نما أيضا • ووصف ابن بطوطة مدينة بولى (كلوديوبوليس Claudiopolis) وهى في شمال شرقى مطرنى فقال : « بالقرب منها واد ليس بالصغير • وكانت كردي بولي على مرحلة من شرقيها » وهى مدينة كبيرة في بسيط من الارض حسنة متسعة الشوارع والاسواق وهى محلات متفرقة كل محلة تسكنها طائفة لا يخالطهم غيرهم » • وكانت كردى بولى في سنة ٧٣٣ (١٣٣٣) مقام الامير ، والظاهر انها كانت حينذاك أولى مدن قزل احمد لى •

---

(١٤) ازنكميد تصحيف للاسم البزنطي eis Nikomedeian وازنيق تصحيف eis Nikaian ابن بطوطة ٢ : ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٧ و ٣٢٢ ؛ على اليزدى ٢ : ٤٦٦ ؛ جهان نما ٦٣١ و ٦٥٦ و ٦٦١ و ٦٦٢ ؛ رمسى HGAM ١٧٩ •

والصورة التى وصف بها ابن بطوطة السلطان اورخان مؤسس الفرقة المشهورة بالينيجرية غريبة جدا فقد قال ابن بطوطة « هذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلادا وعسكرا له من الحصون ما يقارب مئة حصن وهو فى أكثر اوقاته لا يزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها اياما • ويقال انه لم يقم قط شهرا كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم » •

وفي القسم الشـرقي من الولايـة : قسطمونيـة (أو قسطموني وأصلهـ قسطمون) وقد ذكر المستوفي انها مدينة وسطة ٠ وذكرها ابن بطوطة فقال انها « من أعظم المدن » التي زارها في آسية الصغرى ٠ « وهي كثيرة الخيرات رخيصة الاسعار » ٠ وفي شمال شرقها ميناء صنوب الكبير (سينوب وهو سينوب Sinope). ومنها ابحر الى القرم ٠ وقد علمنا من وصفه لصنوب انه « يحيط بها البحر من جميع جهاتها الا واحدة وهي جهـة الشرق ٠ ولهـا هنالك باب واحد ، وهي مدينة حافلة جمعت بين التحصين والتحسين ٠ والمسجد الجامع بمدينة صنوب من احسن المساجد فيه قبة تقلّهـا ارجل من الرخام ٠ وبهـا قبـر الولي الصالح بلال الحبشي » اول من أذن للصلاة في الاسلام ٠

وعلى خمسين ميلاً جنوب قسطموني : المدينة البزنطية كنگرة جرمانيكوبوليس (Gangra Germanicopolis) وقد سـمّاها التـرك كانقـرى ٠ وورد اسـمها في التواريخ العربية القديمة بصورة خنجرة ٠ وغزا المسـلمون في أيام الخليفـة هشام الاموي بلاد الروم وتوغلوا فيها حتى بلغوا مدينة خنجرة ٠ وقال القزويني ، وقد أورد الاسم بصورة غنجرة : « بهـا نهر يسمى المقلوب لانـه آخذ من الجنـوب الى الشمال بخلاف سائر الانهار » ٠ وزاد على ذلك ان في سنة ٤٤٢ (١٠٥٠) « وقعت زلزلة هائلة سقط منها أبنية كثيرة » ولم يبق لها أثر[١٥] ٠ وللاحاطة في ذكر مدن امارة قزل أحمد لي ، يحسن بنا ان نذكر ما سماه صاحب جهان نما بـ « كوج حصار » وهي في نحو نصف الطريق بين قسطموني وكانقرى ٠ ولعلها هي قوشحصار نفسها عند المستوفي ، وقد مرت الاشارة اليها (ص ١٨٢) ٠ ويعينها هناك المدينة التي بالاسم ذاته على البحيرة الملحة العظمى[١٦] ٠

فاذا استثنينا الطريق من طرسوس الى القسطنطينية (وجاء وصفه في ص ١٦٦) والطريق من شرق سيواس الى تبريز (ووصف في ص ١٨٠) ألفينـا ان ما

---

(١٥) مافي القزويني (ص ٣٦٨) : « سقط منها أبنية كثيرة وخسف هناك حصن وكنيسة حتى لم يبق لها أثر » ٠ (م) ٠

(١٦) المستوفي ١٦٣ و ١٦٤ ؛ ابن بطوطة ٢ ، ٣٢٥ و ٣٣٢ و ٣٣٦ و ٣٣٨ و ٣٤١ و ٣٤٨ ؛ جهان نما ٦٤٥ و ٦٤٦ و ٦٤٨ و ٦٤٩ و ٦٥١ و ٦٥٢ ؛ ياقوت ٢ ٠ ٤٧٥ ؛ القزويني ٢ : ٣٦٨ ؛ الطبري ٢ ، ١٢٣٦ ٠

دوّنه اصحاب كتب المسالك عما يخترق آسية الصغرى من طرق لا طائل تحته .
على ان جهان نما[١٧] ذكر عددا من المسالك التى تتفرع من سيواس وذكر اسماء ما عليها من قرى ومنازل .

وما زال كثير منها يرى فى الخارطة . ومما يؤسف عليه ان ما بينها من مسافات لم تذكر فى معظم الاحوال . ومن ثم فان ما يمكن استخلاصه من وصف هذه الطرق قليل الجدوى .

---

(١٧) جهان نما ٦٢٧ و ٦٢٨ .

الفصل الحادي عشر

أذربيجان

بحيرة ارمية – تبريز – سراو – المراغة وانهارها – بسوى واشنه – مدينة ارمية وسلماس وخوى ومرند – نخجوان – القناطر على نهر ارس Araxes – جبل سبلان – اردبيل وآهر – سفيدرود وروافده – الميانج – خلخال وفيروزاباد – نهر شال وولاية شاهرود .

كان اقليم اذربيجان الجبلى ، ويلفظ ازربيجان بالفارسية الحديثة[١] ، فى أيام الخلافة أقل شأنا مما صار اليه فى أواخر العصور الوسطى بعد الغزو المغولى ، وكان فى أقدم أدواره مبتعدا عن طريق خراسان الذى تسلكه القوافل قاطعا اقليم الجبال (ماذى) . ومما امعن فى انعزال اذربيجان أيضا ، ما ذكر المقدسى من انه

---

(١) انظر الخارطة ٣ (صفحة ١١٤) وصورة الاسم القديمة فى الفارسية اذرباذگان لصحفه اليونان الى اتروپاتنه (Atropatene) . وذكر المقدسى (ص ٣٧٣) ان اذربيجان والران وارمينية تؤلف اقليما كبيرا واحدا قد سماه اقليم الرحاب تمييزا له عن اقليم الجبال فى ماذى واقليم اقور (الارض المنبسطة) فى وادى ما بين النهرين . (انتهى) .

قلنا . وراجع ايضا فى أصل اسم اذربيجان ومعناه . القصد والاستطراد فى أصول معنى بغداد لوفيق وهبى (تابع الملحق ١ مقابل ص ٢٨ وكذلك الصفحة ٣٠) وقد نشر هذا البحث فى الجزء الاول من مجلة المجمع العلمى العراقى الصادر فى سنة ١٩٥٠ ص ٤٦ – ٩٤ . وممن تكلم على أصل هذا الاسم ايضا J. M. Kinneir فى كتابه A Geographical Memoir of the Persian Empire, p. 148 (London 1813) (م) .

« يقال ان به سبعين لسانا » يتكلم بها أهل جباله وهضابه • وليس بين مدنه مدينة عظيمة الكبر •

وبتعاقب الازمان ، علا شأن بعض مدنه فصارت الواحدة بعد الاخرى قصبة الاقليم • فقد كانت قاعدة الاقليم فى صدر العهد العباسى اردبيل أولا ، ثم تبوأت تبريز المقام الاول فى أواخر عهد الخلفاء • ولكن بعد الغزو المغـولى أخذت المراغـة مكانها ثم استعادت تبريز سابق عزها فى أيام الايلخانيين • ولكن نجمها افل فى أيام الملوك الصفويين الاولين بنهوض اردبيل ثانية • وبعد ذلك الزمن أى فى المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) حين اتخذ الشاه عباس اصفهان عاصمة لبلاد فارس جميعا وانحطت اردبيل ، استعادت تبريز مقامها السابق واضحت المدينة الاولى فى اذربيجان • وما زالت على ذلك الى يومنا هذا • فهى الآن أجل مدينة فى القسم الشمالى الغربى من بلاد فارس •

وابرز العوارض الطبيعية فى هذا الاقليم بحيرة ارمية • وهى أوسع رقعة دائمة الماء فى بلاد فارس • اذ يربو طولها على ثمانين ميلا من الشمال الى الجنوب ونحو ثلث ذلك فى أعرض اقسامها • وهى فى غرب تبريز • وقد سميت بذلك نسبة الى مدينة ارمية التى على ساحلها الغربى • وتطلق مراجعنا على هذه البحيرة اسماء مختلفة : ففى زند آفستا سميت چيچستا • واحتفظت الفارسية القديمة بهذا الاسم بصورة چيچست وهو الاسم الذى عرفت به فى الشاهنامة • وقد ظل شائعا حتى أيام المستوفى • وسماها المسعودى وابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) بحيرة كبوذان وهو اسم مشتق من الارمنية ومعناه « البحـيرة الزرقاء » (گـابويد معناه : ازرق فى تلك اللغة) • واطلق عليها الاصطخرى اسم بحـيرة ارمية (وتابعـه فى ذلك المقدسى) • وكذلك بحيرة الشراة ، والشراة فرقة من الخوارج كانت تقيم فى شطئانها • وقال ان هذه البحيرة مالحة الماء وزاد على ذلك ان فيها مراكب كثيرة تختلف بالتجارة بين ارمية والمراغة وحواليها كلها عمارة وقرى ورساتيق •

وفى وسط البحيرة جزيرة سماها ابن سرابيون جزيرة كبوذان ، فيها مدينة صغيرة يسكنها الملاحون ، وفى البحيرة سمك كثير على ما ذكر الاصطخرى • (وخالفه

فى ذلك ابن حوقل فقد قال « ليس فيها دابة ولا سمك ») . وفيها دابة غريبة تسمى كلب الماء . وفى الشتاء « يكون أمواج عظام » وتصير الملاحة محفوفة بالاخطار . وذكر ابو الفداء هذه البحيرة باسم بحيرة تلا — غير ان هذا الاسم لا يدل على شيء معروف . ووصف القزويني هذه البحيرة فقال « يخرج منها ملح يجلو » شبه التوتيا » ويحمل منها الى سائر الانحاء . اما المستوفى فقد بيّنا انه سماها بحيرة جيجست ووصفها أيضا بلفظة « دريا شور » (أى البحيرة الملحة) . وذكرها أيضا باسم بحيرة طروج أو طسوج نسبة الى مدينة ذات شأن على ساحلها الشمالى . وأشار المستوفى وحافظ ابرو الى جزيرة شاها أو شاهى التى « تصير شبه جزيرة حين يضحل الماء » . وفيها قلعة حصينة على جبل ، وبها مدافن هولاكو وغيره من أمراء المغول . وجاء ذكر حصن شاها فى المئة الثالثة (التاسعة) فان مسكويه حين سرد حوادث الخليفة المتوكل حفيد هرون الرشيد تكلم على شاها ويكدُر وهما قلعتان كانتا حينذاك بيد رؤساء الشراة فى تلك الانحاء . وفى المئة السابعة (الثالثة عشرة) جدّد هولاكو قلعة شاها — وقد سماها حافظ ابرو قلعة تلا فى بحيرة أرمية — وجعل فيها أمواله مما نهبه من بغداد وأقاليم الخلافة . ثم صارت هذه القلعة مدفنا له . وكانت تعرف بالفارسية باسم گور قلعة « قلعة القبر » . وحين دوّن حافظ ابرو تاريخه فى أيام تيمور كانت خالية خاوية[٢] .

ومدينة تبريز على نحو ثلاثين ميلا من شرق البحيرة على نهر يصب فيها قرب جزيرة أو شبه جزيرة شاها . ويبدو ان تبريز كانت قرية حتى نزلها فى المئة الثالثة (التاسعة) الرواد الازدى فى أيام المتوكل وبنى بها هو وأخوه وابنه

(٢) يلفظ اسم ارمية اليوم عادة اورميه وكذلك جاء فى ابن سرابيون (المخطوطة . الورقة ٢٥ أ) . الاصطخرى ١٨١ و ١٨٩ ؛ ابن حوقل ٢٣٩ و ٢٤٧ ؛ المقدسى ٢٧٥ و ٣٨٠ ؛ المسعودى ١ : ٩٧ ؛ ابو الفداء ٤٢ ؛ ياقوت ١ : ٥١٣ ؛ القزوينى ٢ : ١٩٤ ؛ المستوفى ٢٢٦ ؛ حافظ ابرو ٢٧ أ ؛ مسكوية ٥٣٩ .

وفى الشاهنامة (ترنرمكان . كلكتا ١٨٢٩) ص ١٨٦٠ السطر ٤ وص ١٩٢٧ السطر ٦ من الاسفل ينبغى قراءة جيجست بدلا من خنجست (وهو تصحيف) فالتصحيف حصل من الاعجام .

قصورا ، وحصّنها بسور فنزلها الناس معه • واشارت رواية متأخرة الى ان بانى تبريز : زبيدة زوجة هرون الرشيد ، غير ان التواريخ القديمة لا تؤيد هذا القول • هذا الى انه لم يرد ما يشير الى ان هذه الاميرة قد رأت اذربيجان • ووصف المقدسى مدينة تبريز فى المئة الرابعة (العاشرة) فقال « مدينة حسنة والجامع وسط البلد تجرى خلالها الانهار وتميد فى سوادها الاشجار » • وذكرها ياقوت ، وكان فيها سنة ٦١٠ (١٢١٣) ، فقال انها فى ايامه أشهر مدن اذربيجان • وزاد القزوينى على ذلك انه « تحمل منها الثياب العتّابى والسقلاطون(٣) والاطلس والنسيج الى الآفاق » • وافتدى الناس مدينتهم حال استيلاء المغول عليها فى سنة ٦١٨ (١٢٢١) فنجت بذلك مما أحاق بالمدن التى اكتسحها المغول من نهب وسلب • ثم اصبحت بعدهم فى أيام الدولة الايلخانية على ما بينّا أوسع مدن تلك الانحاء •

وقد اسهب المستوفى فى كلامه على تبريز فقال : ان الزلازل دمرتها مرتين ثم أعيد بناؤها بعد كل تدمير وكان ذلك فى سنة ٢٤٤ (٨٥٨) و ٤٣٤ (١٠٤٣) وهلك من سكانها فى هذه الزلازل اربعون الفا • وبعد أن بنيت حصّنت بسور محيطه ستة آلاف خطوة له عشرة أبواب • وظلت على ذلك حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين شرع غازان خان ببناء ارباض كبيرة فى ما يلى سورها القديم ، وحوّط هذه الارباض بسور جديد • ولهذا السور ستة أبواب وفى داخله جبل وَلِيَان• وكان محيط السور خمسة وعشرين ألف خطوة • وذكر المستوفى أسماء أبواب تبريز الداخلة والخارجة (والمخطوطات متضاربة فى هذه الاسماء) وقال ان غازان خان كان قد دفن فى سنة ٧٠٣ (١٣٠٣) فى ربض الشام العظيم الذى أنشأه هو • وزاد خلفاؤه على ابنيته كثيرا من المساجد الكبيرة وغيرها من الابنيـة فى داخل المدينة وفى الربض الرشيدى فى منحدرات جبل وليان • وكان يسقى بساتين تبريز نهر مهران رود ومخرجه فى جبل سَهَنْد فى جنوب المدينة• وكان حول تبريز سبع نواح سمى معظمها باسم النهـر الذى يشـقه • وسرد المسـتوفى أسـماء

(٣) السقلاطون أو السقلاطونى : ضرب من الثياب • والكلمة رومية من سقلاطون Sigillatun وكان فيه صور منقوشة عليه • وقد اشتهرت بغداد بصنعه • وانظر « مجلة غرفة تجارة بغداد » (٤ [١٩٤١] ٨٥٧ ـ ٨٦٠) اما العتابى ، فقد مر ذكره فى الصفحة ١٠٩ من هذا الكتاب (م) •

هذه النواحي وما جاورها من قرى الا ان قراءة كثير من تلك الاسماء غير موثوق بها . وتكلم ابن بطوطة ، وقد زار تبريز في سنة ٧٣٠ (١٣٣٠) ، فقال « نزلنا بخارجها في موضع يعرف بالشام » . وزاد ان فيه مدرسة حسنة من بناء قازان خان وزاوية . إلى أن قال«دخلت المدينة على باب يعرف بباب بغداد. ووصلنا إلى سوق عظيمة تعرف بسوق قازان .... واجتزت بسوق الجوهريين فحار بصرى مما رأيته من أنواع الجواهر ... ويعرضون الجواهر على الناس ... ودخلنا سوق العنبر والمسك ... ثم وصلنا الى المسجد الجامع الذى عمره الوزير علي شاه المعروف بجبلان ، وصحنه مفروش بالمرمر ، ويشقه نهر جار ، وحيطانه بالقاشاني ، وكان بخارجه عن يمين القبلة مدرسة وعن يساره زاوية »[٤] .

وفي تبريز نهران : اولهما مهران رود وهو يشق ارباض تبريز والثاني سرد رود (النهر البارد) ويجرى الى الجنوب الغربي وهو كصاحبه منبعه في جبل سهند جنوب تبريز ، ويلتقي النهران بنهر سراو على بعد قليل شمال المدينة . وسراو رود وكان يسمى أيضا نهر سرخاب ينبع في جبال سبلان كوه ، وهي على مثنى ميل شرقي تبريز وتشرف على اردبيل . وبعد ان يجرى نهر سراو متمعجاً مسافة طويلة مارا بمستنقعات ملحة يأخذ بعضها برقاب بعض ويستقبل كثيرا من الروافد ، يصب في بحيرة ارمية على نحو اربعين ميلا غرب مدينة تبريز . وقد اسهب المستوفي في وصف جبلي سهند وسبلان والنهرين اللذين ينحدران منهما وقال ان مدينة سراو أو سراب ، واليها ينسب النهر الذى بهذا الاسم ، على الطريق من تبريز الى اردبيل . وكان في ظاهرها اربع نواح ، وهي على ما جاء في المستوفي : ورزند[٥] ودرند وبراغوش وسقهير . وسمّاها البلدانيون العرب الاولون باسم سراه (عوض سراب) . ووصفها ابن حوقل بانها « مدينة طيبة كثيرة الخير والمير والبساتين والمياه والفواكه والزروع والطواحين ولها أسواق حسنة

---

(٤) المقدسي ٣٧٨ ؛ ياقوت ١ : ٨٢٢ ؛ القزويني ٢ : ٢٢٧ ؛ المستوفي ١٥٣ ـ ١٥٥ ؛ جهان نما ٢٨٠ ؛ ابن بطوطة ٢ : ١٢٩ .

(٥) في طبعة لسترنج لنزهة القلوب (ص ٨٦) : رولند . وقد ذكر سقهر عوضا عن سقهير . (م) .

وفنادق نظيفة » . وذكرها ياقوت باسم سراو أو سرو وقال خرّبها التتر فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) وقتلوا كل من وجدوه فيها . على انها استعادت سابق حالها حين كتب المستوفى بعد ذلك بقرن وقال ان بينها وبين تبريز ثلاثة أيام وبينها وبين اردبيل يومان .

وعلى رافد فى الجانب الايسر (الجنوبى) لنهر سراو : مدينة آوُجان أو أُجان وكانت على عشرة فراسخ من تبريز فى طريق ميّانه . وصف ياقوت أجان وكان فيها فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) بانها مدينة « عليها سور وبها سوق الا ان الخراب غالب عليها » من فعل المغول فيها . وقد أعاد غازان بناءها فى أيام المستوفى وأقام فيها زمنا ما . وأطلق عليها اسما جديدا هو شهر اسلام (أى مدينة الاسلام) ولها سور ذرعه ٣٠٠٠ خطوة من حجارة وجص . وكانت نواحيها وافرة الخيرات يكثر فيها القطن والقمح والفواكه . ويسمى نهرها آب أجان ، وينبع فى قمة جبل سهند الشرقية . والى جنوب غربى هذا الجبل ، على نحو ستين ميلا من تبريز واربعة فراسخ من شاطىء البحيرة ، القرية الكبيرة داخرّقان بحسب تسمية ابن حوقل والبلدانيين العرب لها . وقد كتبها الفرس ديه خوارقان . وأورد ياقوت اسما آخر لها وهو ده نخيرجان وتفسيره « ده : قرية ونخيرجان : صاحب بيت مال (كسرى ملك فارس) » ووصفها المستوفى بانها بلدة صغيرة حولها ضياع وثمانى قرى تكثر فيها الفاكهة والقمح[٦] .

ومدينة المراغة على سبعين ميلا جنوب تبريز على « نهر صافى » وهو ينحدر نحو الجنوب من جبل سهند اليها ثم ينحرف غربا حتى يصل البحيرة . واسم المراغة « من قرية المراغة (قرية المراعي) فحذف الناس القرية وقالوا مراغة » . وكان الفرس يسمونها افراز هروذ . وفى المئة الرابعة (العاشرة) وصف ابن حوقل المراغة بقوله « المراغة تلى اردبيل فى الكبر » . وقد كانت فى أيامه مدينة اقليم اذربيجان . وزاد على ما تقدم انها كانت فى قديم الايام المعسكر ودار الامارة وخزانة دواوين الناحية بها فنقلت الى اردبيل » . وكانت المراغة مدينة نزهة عليها

---

(٦) الاصطخرى ١٩٠ ؛ ابن حوقل ٢٤٨ و ٢٥٣ ؛ ياقوت ١ : ١٣١ و ١٩٨ ؛ ٢ : ٤٢٥ و ٦٣٦ ؛ ٣ : ٦٤ ؛ المستوفى ١٥٥ و ١٥٨ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢١٧ و ٢١٨ .

سور كثيرة البساتين والانهار والفواكه واشتهرت بضرب من البطيخ « مستطيل الخلق قبيح المنظر غاية فى الحلاوة وطيب الطعم » . وقال المقدسى : « لها حصن وبها قلعة ولها ربض » . وقال ياقوت ان هرون الرشيد امر ببناء سورها وتحصينها وقد رُمّ سورها فى أيام الخليفة المأمون .

واضحت المراغة فى أيام المغول الاولين ، على ما رأينا ، قصبة اذربيجان . وصفها المستوفى بانها مدينة عظيمة حولها نواح كثيرة الخيرات ذكر اسماء بعضها . وكانت تسقيها انهار كثيرة . وفى ظاهر المراغة الرصد العظيم الذى بناه الفلكى نصير الدين الطوسى بأمر هولاكو وفيه وضع كتابه « الزيج الايلخانى » المشهور . وهذا الرصد ، وما زالت اطلاله ترى هناك ، كان خرابا حين كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وذكر القزوينى القلعة المسماة روين دز فقال انها « على ثلاثة فراسخ من المراغة وهى بين رياض على يمينها نهر وعلى يسارها نهر وعلى القلعة بستان يسمى عميد اباذ ومصنع بئر الماء من تحتها » . وعلى فرسخ منها قرية جنبذق فيها فوارات يحكى عنها عجائب كثيرة .

ونهر صافى يصب فى البحيرة قرب المراغة ، وتختلط مياهه ايام الفيضان بمياه نهر جغتو ورافده تتتو . وذكر المستوفى ان كليهما ينبع فى جبال كردستان . وكان شاطىء البحيرة الجنوبى عند مصب هذه الانهار مستنقعا كبيرا . وفى هذا الموضع ليلان (أو نيلان) وهى مدينة صغيرة تلتف حولها الانهار وتحفّ بها البساتين المثمرة . وكانت آهلة بالمغول فى أيام المستوفى . وعلى شىء من جنوب ليلان بحسب المسافات الواردة فى كتب المسالك قرية برزة ، وفيها ينقسم الطريق الصاعد من سيسار (فى اقليم الجبال) . فالايمن يتجه نحو الشمال الشرقى الى المراغة والايسر الطريق الذاهب الى ارمية مصاقبا غرب البحيرة .

وعلى خمسين ميلا من شاطىء البحيرة الجنوبى بَسْوَى ، وينطق بها الفرس بَسَوَى . وقد زارها ياقوت فقال « رأيتها ، أكثر أهلها حرامية » . واطرى المستوفى بساتينها المثمرة . والى شمالها الغربى مدينة اُشْنُهْ وكان بها فى أيام ابن حوقل أكراد . وفى المئة الرابعة (العاشرة) كان « يجلب منها ومن سوادها الاغنام والدواب الى بلد الموصل ونواحى بلد الجزيرة » . وهى أيضا مدينة كثيرة الشجر

والخضر والخيرات » . ولمراعيهـا ينتجع اصحاب الاغنام . وقال ياقوت ، وقد زارها ، انها ذات بساتين . ووصفها المستوفي ، وأورد اسمها ، بصورة أشنويه فقال انها في المنطقة الجبلية التي سماها ده كباهان[٧].

ومدينة ارمية ، وبها عرفت البحيرة التي باسمها ، على شيء يسير من شاطئها الغربي . « وهي في ما يزعمون مدينة زرادشت » . وكانت هذه المدينة على ما ذكر ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) « تلي المراغة في الكبر . وهي مدينـة نزهة كثيرة الكروم وافرة الحظ من التجارات » . « والجامع في البزّازين »[٨]. وكانت ارمية « بقلعة عامرة ولها حصن وبها نهر » ينحدر الى البحيرة وهي على نحو فرسخ منها . وفي المئة الثامنة (الرابعة عشرة) اضحت مدينة كبيرة ذرع سورها عشرة آلاف خطوة . ومن أعمالها عشرون قرية . وعلى الطريق في شمال أرمية ، على بعد قليل من زاوية البحيرة الشمالية الغربية ، مدينة سلماس وقد وصفها المقدسي بانها بلدة طيبة ذات أسواق حسنة والمسجد الجامع مبنى بالحجارة « وقد أحاط بها الاكراد » في المئة الرابعة (العاشرة) وقال ياقوت ان معظم سلماس قد خرّب في المئة السابعة (الثالثة عشرة) . ولكن الوزير علي شاه ، على ما روى المستوفي ، كان في القرن التالي ، في حكم غازان خان المغولي ، قد جدد بناء أسوارها ، ومحيطها ٨٠٠٠ خطوة . فاستعادت المدينة شأنها الاول . وهي باردة الهواء ، ولها نهر ينبع في الجبال التي في غربها ويصب في البحيرة .

وعلى شاطيء البحيرة الشمالي مدينة يقال لها طروج أو طسوج ولعلها تُرسة الحديثة . والمستوفي ، على ما بيّنا ، كثيرا ما ذكر بحيرة طسوج أو طروج الملحة وعلى هذا فمدينة طسوج مثل ارمية قد انتقل اسمها الى هذه الرقعة من الماء . وفي المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت طسوج ، على ما يبدو ، موضعا ذا شأن ، وكانت أدفأ هواء من تبريز وأكثر رطوبة لشدة اقترابها من البحيرة . وحولها البساتين والكروم . والى شمال شرقي سلماس ، مدينة خَوي وتلفظ خُوَيّ على نهر يجري

---

(٧) الاصطخري ١٨١ ؛ ابن حوقل ٢٢٨ و ٢٣٩ ؛ المقدسي ٣٧٧ ؛ ياقوت ١ : ٢٨٤ و ٥٦٤ و ٦٢٦ ؛ ٤ : ٤٧٦ ؛ القزويني ٢ : ٢٥٠ و ٣٥٨ ؛ المستوفي ١٥٨ و ١٥٩ و ٢١٨ .

(٨) هذا القول للمقدسي (احسن التقاسيم ص ٣٧٧) . (م) .

شمالا فيصب في نهر ارس (Araxes) . وخوي ، على ما ذكر ياقوت والقزويني ، « ذات سور حصين ومياه وأشجار كثيرة الخيرات يعمل بها الديباج ، بها عين ينبع منها ماء كثير جدا بارد في الصيف حار في الشتاء » . وقال المستوفي ان دائر أسوار المدينة ٦٥٠٠ خطوة وان أهلها من قوم بيض الاجسام كأهل الخطا (وهم من الصين) ولها ثمانون قرية .

وفي المئة الرابعة (العاشرة) وصف المقدسي مدينة مرند وهي في شرق خوي على ضفاف نهر من روافد الجانب الايمن لنهر خوى بقوله : « مرند : حصينة لها ربض عامر والجامع في الاسواق تحدق بها البساتين » . وقال ياقوت فيها : « قد تشعث الآن وبدا فيها الخراب مذ نهبها الكرج[٩] وأخذوا جميع أهلها » . وكان نهرها على ما جاء في المستوفي سمى زولو (أو زكوير) ويقال ان قسما منه كان يجرى مدى أربعة فراسخ تحت الارض . وروى المستوفي ان مرند كانت في أيامه على نصف سعتها الاولى الا انها بقيت مشهورة بتربية دود القرمز وكان يستخرج منها صبغ أحمر . وحول المدينة ستون قرية كانت من أعمالها[١٠] .

وكانت نخجوان أو نقجوان الى شمال نهر أرس وتحسب عادة من أعمال اذربيجان . وهي نشوى لدى البلدانيين العرب . وذكرتها كتب المسالك كثيرا دون ان نتطرق الى وصفها . وقد علا شأن نخجوان في أيام المغول . ووصفها المستوفي بانها بلدة كبيرة بناؤها من الآجر وبالقرب منها في ناحية الشرق قلعة النَّنْجِق وفي شمالها جبل ضارب في الفضاء تغطيه الثلوج يقال له ماست كوه . وفي نخجوان القبة التى بناها ضياء الملك ابن نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي العظيم . ووصف علي اليزدي قنطرة ضياء الملك المشهورة (وما زالت بقاياها قائمة) فوق نهر ارس عند قلعة كَرْكَر على طريق مرند على نحو ١٥ ميلا من نخجوان .

وعلى نهر ارس ، اسفل منها بشيء يسير ، مدينة جُلْفا وقد تكتب جولاها . دمرها الشاه عباس ملك فارس في سنة ١٠١٤ (١٦٠٥) حين نقل أهلها الارمن

---

(٩) هذا نص ياقوت (٤ : ٥٠٣) . اما المؤلف فقد ذكر الكرد بدلا من « الكرج » . (م) .

(١٠) الاصطخري ١٨١ ؛ ابن حوقل ٢٣٩ ؛ المقدسي ٣٧٧ ؛ القزويني ١ : ١٨٠ ؛ ٢ : ٣٥٤ ؛ ياقوت ١ : ٢١٨ ؛ ٢ ، ٥٠٢ ؛ ٣ : ١٢٠ ؛ ٤ : ٥٠٣ المستوفي ١٥٦ — ١٥٩ و ٢١٨ .

الى ربض جديد ابتناه فى جنوب اصفهان وسماه جلفا نسبة الى جلفا القديمة التى على نهر ارس • ومما ذكره المستوفى من مدن نهر ارس : اردوباد (وما زالت قائمة) وهى قرب ملتقى نهر بارس من الجنوب • تقوم على ضفافه قلعة دزمار وقد ذكرها ياقوت أيضا • وأسفل منها على نهر ارس أيضا مدينة زنگيان فى كورة مردان نعيم • وهناك قنطرة ثانية ما زالت قائمة على نهر ارس يقال لها بالفارسية پل خدا آفرين (جسر خلقة الله) وقد بناها على ما ذكر المستوفى أحد الصحابة فى سنة ١٥ (٦٣٦) وتشتمل ارض مردان (أو مراد) نعيم على نيف وثلاثين قرية[11] •

ومدينة اردبيل فى أعالى نهر سماه المستوفى اندراب ، واسفل منها يقع نهر آهَر فى يسار نهر اردبيل وهذا يصب فى نهر ارس على شيء يسير أسفل من قنطرة خدا آفرين • ومخرج نهرى اردبيل واهر من منحدرات سبلان كوه الشرقية والغربية (على التوالى) وهو الجبل العظيم المطلّ على اردبيل • ومن منحدراته الجنوبية يخرج نهر سراو ، على ما قد بيّنا ، فيجرى غربا الى بحيرة ارمية • وذكر ابن حوقل جبل سبلان فى المئة الرابعة (العاشرة) ولكنه أخطأ فى قوله انه اعظم من دماوند[12] وهو على بضعة أميال من شمال طهران ، وتكسو الاشجار سفوحه وعليه قرى ومدن كثيرة أحصاها المستوفى • وقال ان الجبل كان يرى من بعد خمسين فرسخا ولا يفارقه الثلج شتاء ولا صيفا • وبالقرب من قمته عين كان سطحها دائم الجمود • وعلى مقربة من جبل سبلان ، قمتان أخريان هما كوه سرا هند شمال أهر وسياه كوه (الجبل الاسود) وهو يطل على كلنتر وهى مدينة صغيرة فيها قلعة تحفّ بها الاشجار ويسقى مزارعها نهر •

وكانت اردبيل ، على ما بيّنا ، قصبة اذربيجان فى المئة الرابعة (العاشرة) • قال فيها الاصطخرى « عليها سور وهى مدينة تكون ثلثى فرسخ فى مثلها • والغالب على ابنيتها الطين والآجر وبها المعسكر • وبها رساتيق وكور جليلة وهى خصبة

---

(١١) ياقوت ٤ . ٢٦٢ و ٧٦٧ و ٧٨٤ ' المستوفى ١٥٧ و ١٥٩ و ٢٠٦ ' على اليزدى ١ : ٣٩٨ و ٣٩٩ ؛ ٢ . ٥٧٣ •

(١٢) ما فى ابن حوقل (ص ٣٧٢) : دنباوند (م) •

واسعارها رخيصة » • وعسل اردبيل مشهور • وتكلم المقدسي على الحصن وقال ان أسواق اردبيل « مصلبة الى اربعة دروب والجامع وسط الصليب وخلف الحصن ربض عامر » • وفي سنة ٦١٧ (١٢٢٠) نهب المغول اردبيل وتركوها قاعا صفصفا ولكنها قبل ذلك كانت آهلة بالسكان حين زارها ياقوت • وكانت اردبيل معروفة لدى الفرس قديما باسم باذان فيروز وهي حين كتب المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وان لم تعد أولى مدن اذربيجان الا انها استعادت كثيرا من سالف عزها • وفي المئة العاشرة (السادسة عشرة) اضحت ، على ما قد بينّا ، عاصمة بلاد الفرس كلها في أيام الدولة الصفوية الجديدة قبل ان ينقلوا قاعدة ملكهم الى تبريز أولا ثم الى اصفهان •

وأهر ، وهي على مئة وخمسين ميلا غرب اردبيل ، على نهر اهر • وقد ذكرها البلدانيون العرب القدماء • وصفها ياقوت بانها « مدينة عامرة كثيرة الخيرات » • والى شمالها جبل سراهند وحولها كثير من البلدان الصغيرة القائمة على سفوح الجبل • وقد ذكر ياقوت والمستوفي اسماءها الا انه يصعب الآن تمييز تلك الاسماء أو تعيين مواضعها • وكانت الناحية المحيطة بها تعرف باسم بيشكين (وهي مشكين في الوقت الحاضر) نسبة الى اسرة أميرها التي حكمت فيها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • ومدينة بيشكين على مرحلة من اهر وكانت تعرف في الاصل باسم وراوي وكان على نهر اندراب ، فوق ملتقى نهر اهر به على ما ذكر المستوفي ، قنطرة حسنة بناها علي شاه وزير غازان خان المغولي(١٣) •

ونهر سفيدرود ، أي النهر الابيض ، وروافده الكثيرة تسقي نواحي اذربيجان الجنوبية الشرقية • ويؤلف معظم مجرى هذا النهر الحدود الفاصلة بين اذربيجان واقليم الجبال ويصب هذا النهر أخيرا في بحيرة قزوين بعد مروره باقليم كيلان • وسماه الاصطخري وغيره من المصنفين العرب باسم سبيذرود • وقال المستوفي ان المغول كانوا يطلقون عليه اسم هولان مولان (والاصح : ألان موران) وتعني بالمغولية « النهر الاحمر » • ويعرف اليوم قسم من سفيذروذ باسم قزل اوزن

---

(١٣) الاصطخري ١٨١ ؛ ابن حوقل ٢٣٧ و ٢٣٨ و ٢٤٠ و ٢٦٦ ؛ المقدسي ٣٧٤ و ٣٧٧ ؛ ياقوت ١ : ١٩٧ و ٣٩٧ و ٤٠٩ و ٤٦١ ، ٤ : ٩١٨ ؛ المستوفي ١٥٦ و ١٥٧ و ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢١٧ •

وهى بالتركية « النهر الاحمر » أيضا . وكتب المستوفى ان مخرج سفيدرود من جبال كردستان فى جبل يسمى بالفارسية پنج انگشت وبالتركية بش برماق ومعنى التسميتين « الاصابع الخمس » . وفى انحدار سفيدرود شمالا يستقبل اولا نهر زنجان فى ضفته اليمنى وهو النهر الآتى من مدينة زنجان التى سنصفها فى فصل قادم . ثم يصب فى ضفته اليسرى نهر ميانج الذى يتألف من اجتماع عدة انهار تنحدر من الغرب . وشمال ميانج ينعطف سفيدرود غربا ويستقبل فى ضفته اليسرى النهرين المتحدين سنجيده وكَندِيْو المنحدرين من خلخال الى جنوب أردبيل . ويلى ذلك نهر شال من ناحية شاهرود التابعة لخلخال . وأسفل ذلك ، على ضفته اليمنى ، يلتقى نهر طارم الآتى من اقليم الجبال (على ما سنبينه فى الفصل الخامس عشر) بنهر سفيدرود ثم يلتقى به نهر شاهرود (ويجب ان لا يلتبس بناحية شاهرود المارة الذكر) الآتى من بلاد الحشيشيين (الحشاشين) . وأخير فان سفيدرود بعد ان يخترق الحاجز الجبلى يصل الى بحر قزوين عند كَوْتَم فى اقليم كيلان .

وكان نهر ميانج كما بيّنا أهم الروافد اليسرى لسفدرود . وهو يأتى من الغرب وينبع من البلاد التى فى جنوب أوجان (أنظر ص ١٩٨) . ويستقبل فى ولاية كرمرود فى ضفته اليسرى مياه نهر كرمرود (النهر الحار) وهو نهر ينبع فى الجبال التى فى جنوب سراو . وأسفل مدينة ميانج يستقبل النهر الاصلى فى يمناه مياه هشترود (الانهار الثمانية) ومخرجها فى الجبال شرق المراغة . وكان فى أيام المستوفى عند ملتقى هشترود بنهر ميانج قنطرة حجر عظيمة ذات اثنين وثلاثين طاقا .

وكانت ميانج أو ميانه « الموضع الوسط » التى تقوم عند ملتقى كل هذه الانهار مدينة ذات مركز خطير منذ الازمنة القديمة . ذكر ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) انها منعمة بالخيرات كثيرة الثمار ومثلها كورتها التى عرفت فى الأزمنة المتأخرة باسم كرمرود . والمقدسى ، وقد أورد اسمها بصورته الحديثة اعني ميانه ، قال انها كثيرة الخير . ونوّه بها ياقوت وقد زارها فى المئة السادسة (الثانية عشرة) . وفى القرن التالى ذكر المستوفى انهـا قد ضؤلت وأمست قرية

كبيرة الا انها بقيت من المراحل المهمة فى شبكة الطرق التى انشأها المنول • وهى حارة الهواء كثيرة الحشرات (وبعوض ميانه مؤذ للمسافرين اليوم) • وكان فى ولاية كرمرود نيف ومئة قرية خصبة يكثر فيها القمح •

والانهار الثلاثة المسماة سنجيده وكـديو (أو كـدپو فى جهـان نما) وشـال تلتقى بنهـر سفيدرود من الشمال منحدرة اليـه من ناحيـة خلخال • وكانت خلخال أيضا أولى مدن هذه الناحية وقد وصفت كتب المسالك موضعها بانه على اثنى عشر فرسخا جنوب اردبيل • وكانت فيروز اباد فوق قمة الدرب حيث هنالك حمة يغلي ماؤها ويفور فى وسط القمم المغطاة بالثلوج • وعلى ما فى المستوفى قد كانت فى الازمنة السابقة دار الملك • ولما آلت الى الخراب حلت محلها مدينة خلخال • ولا يمكن الآن معرفة الموضع الصحيح لفيروز اباد • وكانت البلدتان كَنْذُور وشال ، وما زالت الخوارط تذكرهما ، من أعمال شاهرود وتقومان على نهر شال • يسمى الآن شاهرود الصغير • ومخرجه فى جبل شال • وذكر المستوفى جملة مواضع أخرى فى خلخال غير انه لا يمكن تعيينها فى الوقت الحاضر[١٤] •

اما غلات اذربيجان فقليلة وسنأتى على ذكرها فى آخر الفصل القادم • وفى ختام الفصل الخامس عشر لخصنا القول فى مسالك هذا الاقليم بعد ان وصفنا اقليم الجبال لان كل هذه المسالك تخرج من مواضع عديدة فى طريق خراسان الذى يخترق اقليم الجبال •

---

(١٤) الاصطخرى ١٨٩ ؛ ابن حوقل ٢٤٦ و ٢٥٣ ؛ المقدسى ٣٧٨ ؛ ياقوت ١ : ٢٣٩ ؛ ٤ : ٧١٠ ؛ المستوفى ١٥٦ و ١٥٨ و ١٩٨ و ٢١٥ و ٢١٨ ؛ جهان نما ٣٨٤ و ٣٨٨ •

الفصل الثاني عشر



والأقاليم الشمالية الغربية

الجيلانات ـ اقليما الديلم وطالش ـ بروان ودولاب وخشم ـ لاهجان ورشت وغيرهما من مدن كيلان ـ
اقليم موقان ـ باجروان وبرزند ـ محمود اباد ـ ورثان ـ اقليم الران ـ برذعة ـ البيلقان ـ
كنجه وشمكور ـ نهر الكر ونهر الرس ـ اقليم شروان ـ شماخي ـ باكويه
وباب الابواب ـ اقليم كرجستان او جورجيا ـ تفليس وقرص
ـ اقليم ارمينية ـ دبيل او دوين ـ بحيرة وان ـ
اخلاط وارجيش ووان وبتليس ـ حاصلات
وتجارات الاقاليم الشمالية ٠

اوضحنا في الفصل السابق ان نهر سفيدرود بعد ان يخترق مجراه المتعرج جبال ألبرز ، يصب في بحر قزوين في النهاية الغربية من ساحله الجنوبي ٠ وتتكون في هذا الموضع « دلتا » ومناقع على شيء من السعة ووراءها الجبال ٠ ودلتا سفيدرود هذه التي تحفّ بها من الجنوب والغرب سفوح الجبال المتدرجة المكسوة بالغابات ، هي اقليم كيلان الصغير الذي سماه العرب الجيل أو جيلان ، وفيه ثلاث نواح[1] ٠

واراضي الدلتا الرسوبية هي التي اطلق عليها البلدانيون العرب اسم الجيل أو جيلان بوجه خاص ٠ وهم اذا أرادوا الاشارة الى الاقليم باجمعه ، أطلقوا عليه

(۱) انظر كيلان في الخارطة رقم ٥ في أول الفصل القادم ٠

اسما بصيغة الجمع فقالوا جيلانات « كيلانات » • وقد يشمل هذا الاسم أيضا الاصقاع الجبلية • وفي جنوب هذا الاقليم وغربه ، مما يحاذي جبال ناحيتي الطالقان وتارم من اقليم الجبال ، كانت بلاد الديلم ، وقد جاء اسمها بصيغة الجمع فقيل الديلمان • واشتهرت هذه البلاد في التاريخ بكونها موطن بني بويه أي الديالمة • فقد كان رؤساؤهم في المئة الرابعة (العاشرة) سادة بغداد وذوى النفوذ على الخلافة في أكثر تلك الحقبة • اما الشقة الساحلية الضيقة والمنحدرات الجبلية الممتدة شمالا من جنوب غربي بحر قزوين والمواجهة من شرقيها ذلك البحر فهي بلاد طالش وقد ذكر ياقوت هذا الاسم بصيغة الجمع فقال طالشان أو طلشان • والى الشرق ، على حدود طبرستان ، جبال رويتج ، ويليها الناحية الجبلية العائدة الى اسرة قارن المظيمة وكان رؤساؤها منذ أزمنة غير معروفة سادة هذه البقاع الفسيحة على ما سنبينه أيضا في الفصل السادس والعشرين •

وحين كتب المقدسي كتابه في المئة الرابعة (العاشرة) ، وهو الوقت الذي بلغت فيه سيادة البويهيين ذروتها ، كانت جميع جيلان وأقاليم الجبل التي في شرقيها المحاذية لبحر قزوين ، وهي طبرستان وجرجان وقومس ، في ضمن اقليم الديلم • ثم صار ينظر الى هذه الاقاليم الشرقية في الازمنة المتأخرة كأنها مستقلة عنه • وبعد ذلك بطل استعمال اسم الديلم نفسه في الغالب • وانتقل اسم المناقع في دلتا سفيدرود الى جميع الجهات المجاورة فعرفت باقليم جيلان • على ان جيلان، بوجه اصح ، لم تكن غير البقاع الساحلية بينما الديلم كان الصقع الجبلي المطل عليها • وجرى اطلاق احد هذين الاسمين في بعض الاحيان على جميع الاقليم الذي يكتنف جنوب غربي بحر قزوين[٢] •

وكانت قصبة بلاد الديلم تسمى ، على ما يقال ، روذبار • الا ان موضعها غير معروف • اما المقدسي فقد قال ان « قصبة الديلم : بروان » • ومما يؤسف له ان لا أثر لها اليوم ، ولم تذكر كتب المسالك موضعها الحقيقي • وزاد المقدسي

---

(٢) الاصطخري ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ ؛ ابن حوقل ٢٦٧ و ٢٦٨ ؛ المقدسي ٣٥٣ ياقوت ١ : ١٧٤ و ٨١٢ ؛ ٢ : ١٧٩ و ٧١١ ؛ ٣ : ٥٧١ ؛ المستوفي ١٤٧ و ١٩١ ؛ ابو الفداء ٤٣٦ •

اسم طالش يكتب اما بالتاء او بالطاء • وبالجمع تالشان أو طالشان • وذكره المستوفي أيضا طوالش •

على ذلك قوله انه لم يكن فى بروان « منازل رشيقة انيقة ولا أسواقها بالواسعة عطيفة ولا جوامع ... وحيث مستقر السلطان يسمى شهرستان » . وقد كان فيهـا تجـار من أهل الثراء فكثـر خيرها . وذكـر المقـدسى ان « دولاب : قصبة الجيل » وقال فيها : « بلد طيب ، بناؤهم من جص وحجـر ، وسـوق حسن ، والجامع وسط السوق . وعلى ما فى ابى الفداء ان « دولاب تسمى كسكر » . ولم ينته الينا شيء عن مسالك هذه البلاد غير ما ذكره المقدسى من ان دولاب على اربع مراحل من بيلمان ، وهى قرية على ما جاء فى ابى الفداء . والظاهر انها كانت من أهم المواضع فى بلاد طالش . وعلى مرحلتين من سفيدرود واربع مراحل من بيلمان ، مدينة خشم وهى مدينة الداعى (العلوى) فى النصف الاخير من المئـة الثالثة (التاسعة) وكان يحكم هذه الانحاء حكم السلطان المستقل وخلع الطاعة للخليفة . ووصف المقدسى خشم فقال « لها سوق عامر وعلى طرف الاسواق جامع ثم دار الامير . والنهر منها على جانب عليه جسر هائل » . ويحسن ان تبين ان مواضع هذه المدن القديمة غير متحقق منها[٣] .

وكانت أكبر مدن كيلان فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) على ما فى المستوفى : لاهجان وفومن . وذكـر ابو الفداء لاهجان أيضـا وقال انهـا فى شرق مصب سفيدرود . وكانت حينذاك مدينة وسطة يجلب الحرير منهـا وينمـو فى ناحيتهـا الرز والقمح والنارنج والاترنج وغير ذلك من فواكه المنطقة الحارة . وكَوتم أو كُوتم وهى أقرب الى فم سفيدرود ، كانت ميناء تقصدها السفن من سائر انحاء بحر قزوين . ذكرها ياقوت وابو الفداء . وكانت مدينة تجارية كبيرة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وقال ابو الفداء « انها ناقلة عن البحر (بحر قزوين) مسيرة يوم » . وفومن ، وناحيتها داخلية أكثر من كوتم ، فى غرب نهر سفيدرود . وكانت أكبر مدن القسم الجبلى فى بلاد الديلم . وذكر المستوفى انها مدينة كبيرة فى بقعة خصبة يكثر فيها القمح والرز والحرير وهو ينسج فيها أيضا .

---

(٣) الاصطخرى ٢٠٤ و ٢٠٥ ؛ المقدسى ٣٥٥ و ٣٦٠ و ٣٧٣ ؛ ابو الفداء ٤٢٩ (طبع فيه خطا اسم بيلمان بصورة بيمان) ؛ ياقوت ٢ : ٨٣١ . وللوقوف على اسرة الداعى العلوى (الحسنية) انظر : G. Melgunof, Das sudliche Ufer des Caspischen Meeres, P. 53.

والمستوفى من أقدم مراجعنا التى وصفت رشت ، وهى الآن قصبة كيلان والظاهر ان بلدانيى العرب لم يتكلموا عليها بل لم يذكروا اسمها . فلقد أشار المستوفى الى ان هواءها شديد الحر عفن . ويكثر فيها القطن والحرير ومنها يحملان الى سائر الانحاء . وكانت هذه المدينة فى أيامه موضعا على شىء من السعة والشأن . وفى غربى رشت اليوم كورة تولم . ووردت تولم فى المستوفى اسما لمدينة ذات شأن فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وعلى ما فى ابى الفداء ، كانت تولم اولى مدن القسم السهلى فى جيلان . ونواحيها ذات خيرات فيها القمح والقطن والرز والنارنج والاترنج والليمون. وشفت ، أو شفته ، ذكرها المستوفى اسما لمدينة ولم يبق اليوم من هاتين التسميتين غير ناحية تعرف بشفت وهى فى جنوب رشت . وأخيرا ذكر المستوفى من مدن كيلان : اصفهبد وهى مدينة صغيرة كتبها ياقوت اصبهبذان . وزاد على ذلك فقال « بينها وبين البحر (قزوين) ميلان » . ولم يشر الى موضعها . وفيها القمح والرز وبعض الفاكهة . وفى ناحيتها نحو مئة قرية[٤] . وقد اشتق اسم المدينة ، من الاصبهبذان وكانوا ملوكا لهذه البلاد خاضعين للساسانيين اعتنقوا الاسلام ظاهرا وظلوا امراء فى طبرستان فى صدر الخلافة[٥] .

موغان

موغان ومغكان أو موقان[٦] اسم يطلق على سهل عظيم فيه مناقع يمتد من جبل سبلان حتى ساحل بحر قزوين الشرقى . وهذه البلاد فى جنوب مصب نهر ارس وشمال جبال طالش . وكانت تعد أحيانا من اقليم اذربيجان ولكنها فى الغالب كانت تؤلف اقليما بنفسه .

وقصبة موغان فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة موغان ، ويصعب تعيين موضعها . ذكر المقدسى مدينة موغان فقال انها « مدينة قد احاط بها نهران وحولها حدائق حسان كأنها فى رحبها جنان هى مع تبريز روضتان » . ومن وصفه

---

(٤) الكلام على هذه الثلاث منقول من المستوفى (ص ١٦٢) (م ع) .

(٥) ياقوت ١ : ٢٩٨ ؛ ٤ : ٣١٦ ؛ ابو الفداء ٤٢٦ و ٤٢٩ ؛ المستوفى ١٩١ و ١٩٢ ؛ جهان نما ٣٤٣ و ٣٤٤ .

(٦) لمعرفة موغان واقليم التخوم الشمالية الغربية أنظر الخارطة رقم ٣ ص ١١٤ .

لا يستبعد ان تكون مدينة موغان هذه مطابقة لباجروان التى عدّها المستوفى قصبة الاقليم فى القديم وكانت فى أيامه قد آلت الى الخراب • وفى وصفه للمسالك عيّن موضع باجروان على اربعة فراسخ شمال برزند ، وهذا الاسم ما زال يرى فى الخارطة • وفى الروايات الاسلامية ان عند باجروان « عين الحياة التى وجدها الخضر عليه السلام » وهو النبى الياس • والى جنوب باجروان ، على ما بيّنا ، برزند وقد وصفها ابن حوقل بانها مدينة كبيرة • وأشاد المقدسى بأسواقها التى تأتى اليها السلع من الانحاء المجاورة لها وتحمل الى سائر الانحاء ، فهى موئل التجارة فى هذه البلاد • وأشار المستوفى الى ان كلاً من باجروان وبرزند كان قرية فى أيامه • وهواء نواحيها حار ويكثر فيها القمح[٧] •

وذكر المستوفى ثلاث مدن فى سهل موغان ، هى : بيلسوار ومحمود اباد وهمشرة • وبيلسوار كانت على نهر يتحدر من باجروان على مسافة ثمانية فراسخ من باجروان ويقال انها سميت بذلك نسبة الى الامير پيله سوار الذى ولّاه بنو بويه عليها ومعنى اسمه « الفارس أو الجندى الصنديد » • ومحمود اباد فى مفازة كاوبارى قرب بحر قزوين وكانت على اثنى عشر فرسخا مما يلى بيلسوار • ذكر المستوفى ان بانيها غازان خان المغولى وكانت همشرة المجاورة لها على فرسخين من الساحل وتعرف فى الاصل باسم ابرشهر أو بوشهرة وقد أسسها ، على ما فى المستوفى ، فرهاد بن كودرز « ويزعمون انه نبوخذ نصر » • وكان فى الازمنة القديمة فى شمال باجروان : بلدة بلخاب قيل انها « قرية آهلة فيها رباطات وفنادق للسبيل تنزلها السيارة » • ووراء هذه المرحلة فى الطريق الشمالى على ضفة نهر الرس الجنوبية مدينة ورثان • وهى عند المعبر المؤدى الى بلاد الران • وكانت ورثان فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة عليها سور وبها أسواق عامرة ولها ربض خارج السور • وكانت آهلة وهى فى سهلة عامرة على فرسخين من ضفة النهر ومسجدها الجامع فى الربض • ويقال ان ورثان بنيت بأمر زبيدة زوجة هرون الرشيد[٨] •

---

(٧) ابن حوقل ٢٥١ ؛ المقدسى ٣٧٦ و ٣٧٨ ؛ ياقوت ١ : ٤٥٤ و ٥٦٢ ؛ ٤ : ٦٨٦ ؛ المستوفى ١٥٦ و ١٦٠ و ١٦٨ ؛ جهان نما ٣٩٢ •

(٨) ابن حوقل ٢٥١ ؛ المقدسى ٣٧٦ ؛ ياقوت ٤ ٩١٩ : المستوفى ٢٦٠ و ٢٩٨ ؛ جهان نما ٣٩٣ •

أرّان (الران)[٩]

أما اقليم الران وشروان وجورجيا[١٠] وارمينية ، وهى فى جملتها شمال نهر ارس ، فقد كان يصعب عدها من ديار الاسلام . ولهذا لم يتبسط البلدانيون العرب فى وصفها . لقد أقام المسلمون فيها منذ صدر الاسلام وولى الخلفاء عليها عمالهم فى أوقات مختلفة ، غير ان اغلب أهلها بقوا على نصرانيتهم حتى اوشكت العصور الوسطى ان تنتهى ، وما زالت هذه البلاد على ذلك حتى حلّ فيها المسلمون ثانية عقب الفتح المغولى ، ولاسيما بعد الحروب الكثيرة التى شنها تيمور على حورجيا فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، اذ استقرّ فيها الترك فصار الاسلام الدين السائد فيها .

واقليم الران فى المثلث المظلم غرب اقتران سيرس واراكسس ـ وهما نهرا الكر والرس ـ فهو اقليم « بين النهرين » على ما سماه به المستوفى . وكتب البلدانيون العرب القدماء هذا الاسم بصورة الران (ونطقوا به أرّان) وما ذلك الا ليجعلوا منه اسما عربيا . وكانت قصبة هذا الاقليم فى المئة الرابعة (العاشرة) برذعة ـ وما زالت خرائبها باقية . ووصف ابن حوقل مدينة برذعة ـ وكتبت بعدئذ بصورة بردعة ـ فى المئة الرابعة (العاشرة) بانها نحو فرسخ طولا فى أقل منه عرضا وكانت أكبر مدن هذه الديار مربعة الشكل لها قلعة وهى من نهر الكر على نحو ثلاثة فراسخ على ضفة احد روافده المعروف بالثرثور . وقربها فى نهر الكر السمك المعروف بالسرماهى (وشورماهى بالفارسية تعنى السمك المملّح) ويحمل منها الى سائر البلاد ويكون من هذا السمك أيضا فى نهر الرس بورثان . « وكان من برذعة على أقل من فرسخ ، ناحية بموضع يدعى الاندراب ، وأقطاره أكثر من مسيرة يوم فى مثله ، مشتبكة البساتين والعمارات ، طيبة المتنزهات

---

(٩) فى المراجع المختلفة تسميتان متشابهتان وهما « الران » و « اران » . ويلاحظ ان بعض البلدانيين كابن حوقل والمقدسى وابى الفداء استعملوا تسمية « الران » فى كلامهم على هذا الاقليم . اما ياقوت فقد أشار اليهما (٢ : ٧٣٩) قائلا « والذى عندى ان الران وأران واحد ، وهى ولاية واسعة من نواحى ارمينية » .
اما المستوفى فقد ذكر هذا الاقليم بصورة « أران » (م) .

(١٠) سماها العرب بلاد الكرج . (م) .

والباغات ، ولها فواكه كثيرة ، وتشتمل اجنتها على البندق والشاه بلوط وبها تين ، ويربّى فيها دود القز » .

وفي ظاهر برذعة عند باب الاكراد ، سوق يجتمع فيها الناس كل يوم أحد ، مقـدارها فرسخ ، تعـرف بسوق الكركى (من قرياقوس (Kuriakos) اليونانى وتعنى « يوم الرب ») . ويسمون يوم الاحد هناك يوم الكركى . وفي برذعة مسجد جامع حسن فسيح يرتفع سقفه على اساطين خشب وحيطانه من الآجرّ مكسوة بزخارف الجص . وفيها حمامات كثيرة . وكان بيت مال الاقليم فى أيام بنى أمية فى برذعة . وفى المئة السابعة (الثالثة عشرة) كانت برذعة حين كتب ياقوت قد استولى الخراب عليها اما المستوفى فقد ذكر فى القرن التالى انها مدينة كبيرة على نهر الترثور . وعند المعبر الذى على نهر الكر ، ولعله اسفل من اقتران الترثور به على ثمانية عشر فرسخا أي مسيرة يوم واحد فى الطريق من برذعة الى شماخي في شروان ، مدينة برزنج ، ويقصدها التجار وتحمل السلع الكثيرة اليها ومنهـا[11] .

واضحت مدينة البيلقان وتعرف بالارمنية باسم فيداكران (Phaidagaran) قصبة الران بعد خراب برذعة . ومعالم هـذه المدنـة ، وان زالت الآن على ما يبدو ، الا ان كتب المسالك العربية قد عرّفتنا بموضعها تقريبا . والبيلقان على أربعة عشر فرسخا من جنوب برذعة ، وعلى سبعة أو تسعة فراسخ من شمال الرس فى الطريق الصاعد من برزند . وقد كانت موضعا عظيما حتى المئة التاسعة (الخامسة عشرة) . وصفها ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) بانها « مدينة طيبة كثيرة المياه والاجنة والاشجار والطواحين الواسعة على انهارها » . . « وبها ناطف[12] موصوف » . وفى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) « قصدها التتر ورأوا حصانة سورها ، أرادوا خرابه بالمنجنيق، فما وجدوا حجرا برمى به الحائط ورأوا أشجارا من الدلب عظاما قطعوها بالمناشير ونركها قطّاعها فى المنجنيق ورموا بها السور حتى خربوا سورها ونهبوا ... ثم احرقوها . فلما انفصلوا عنها تراجع اليها قوم كانوا هربوا

(١١) الاصطخرى ١٨٢ و ١٨٣ و ١٨٧ و ١٨٨ ؛ ابن حوقل ٢٤٠ و ٢٤١ و ٢٤٤ و ٢٥١ ؛ المقدسى ٣٧٤ و ٣٧٥ ؛ ياقوت ١ : ٥٥٨ و ٥٦٢ ؛ المستوفى ١٦٠ ؛ القزوينى ٢ : ٣٤٤ .

(١٢) الناطف : ضرب من الحلواء . (م) .

عنها وهي الآن متماسكة ... وعادت الى عمارتها » . وفي ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، حاصرها تيمور واستولى عليها . ثم أمر باعادة بنائها وحفْر نهر يُحمل اليه الماء من نهر ارس كان طوله ستة فراسخ وعرضه خمس عشرة ذراعا ومنه كان ماء المدينة الجديدة . وكان يقال لهذا النهر برلاسى نسبة الى برلاس قبيلة تيمور .

وجاء ذكر مدينتين أخريين في الران الى شمال غربي برذعة في طريق تفليس. أولاهما مدينة كنجة (والاشهر في تسميتها اليوم اليزابيت بول Elizabetpol) وقد كتبها البلدانيون العرب بصورة جنزة وسمى القزويني نهرها باسم قردقاس . والى شمالها الغربي شمكور وخرائبها ما زالت موجودة . وكانت هذه المدينة تعرف في المئة الثالثة (التاسعة) بالمتوكلية لان الخليفة المتوكل احدثها في سنة ٢٤٠ (٨٥٤)[١٣] .

والنهران اللذان يحدان اقليم الران المعروفان لدى اليونان باسم اراكسس وسيرس ، سماهما العرب بنهر الرس (أو ارس) ونهر الكر (أو كر) . وينبع نهر ارس في بلاد فاليقلا في غربي ارمينية . وبعد ان يجري بمحاذاة حدود اذربيجان الشمالية يلتقي بنهر كر (على ما ذكر المستوفي) في بلاد قراباغ في شرقي الران . ومخرج نهر الكرّ في الجبال غرب تفليس ببلاد جورجيا ، أي في بلاد الخزر التي تتألف من ولايتي أبخاز واللان . وبعد أن يمرّ نهر الكر بتفليس ينحدر الى شمكور وفيها ، على ما ذكر المستوفي ، يتفرع منه نهر يصب في بحيرة شمكور العظيمة وبعد ان يلتقي الكر بنهر ارس على بعد قليل أسفل من برذعة يصب في بحر قزوين بولاية كشتاسفي[١٤] .

(١٣) ليس في الخارطة العسكرية الروسية أثر لخرائب البيلقان .
ابن خرداذبه ١٢٢ ؛ قدامة ٢١٣ ؛ الاصطخري ١٨٧ و ١٨٩ ؛ ابن حوقل ٢٤٤ و ٢٥١ ؛ المقدسي ٣٧٦ ؛ ياقوت ١ : ٧٩٧ ؛ ٣ : ٣٢٢ ؛ القزويني ٢ : ٣٤٥ و ٣٥١ ؛ علي اليزدي ٢ : ٥٤٣ و ٥٤٥ . المستوفي ١٦٠ .

(١٤) جاء في جهان نما (٣٩٦ و ٣٩٧) وصف طويل لنهر ارس والكر مع روافدهما المختلفة . ويفيد هذا الوصف في تصحيح المستوفي وفي توضيح حروب تيمور في جورجيا ، وان كانت مواضع كثير من هذه المدن غير معروفة .
الاصطخري ١٨٩ ؛ ابن حوقل ٢٤٦ ؛ المقدسي ٣٧٩ ؛ القزويني ١ : ١٨٤ و ٢ ٣٣١ ؛ المستوفي ٢١٣ و ٢١٥ .

شروان

وفى ما يلى نهر الكر على بحر قزوين ، حيث تفنى جبال القفقاس فيه ، اقليم شروان وقصبته الشماخية وهى اليوم شماخي أو شماخى . وفى المئة الرابعة (العاشرة) وصف المقدسى هذه المدينة بقوله « الشماخية على أسفل جبل ، بنيانهم حجارة وجص ولها ماء جار وبساتين ونُزَه . وكان ولاتها ، وهم خواقين الولاية ، يلقبون بشروان شاه . ويكثر فيها القمح » . وبالقرب منها ، بحسب الروايات الاسلامية ، على ما قال المستوفى ، صخرة موسى (وقد أشار اليها القرآن فى السورة ١٨ الآية ٦٢) وعين الحياة على ما قد بينّا في باجروان . وذكر المقدسى وغيره من المؤلفين مدينتين أخريين فى اقليم شروان لم يعين موضعهما ، هما شابران و « النلبة فيها للنصارى » وهى على ما يقال على عشرين فرسخا من دربند، وشروان وهى « فى سهلة والجامع فى الاسواق » على مسيرة ثلاثة أيام من شماخي قصبة الاقليم فى طريق دربند .

وكان فى اقصى شمالى بلاد شروان ، باب الابواب وهى تسمية العرب لدربند أجل موانيء بحر قزوين . وفى ابن حوقل ان المدينة كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) أكبر من اردبيل التى كانت قصبة اذربيجان « فى وسطها مرسى للسفن . وفى هذا المرسى الخارج من البحر اليها بناء قد بني كالسد بين جبلين مطلّين على هذا المرسى الخارج ماؤه من بحر الخزر . وفى هذا السد باب مغلق على الماء قد استحكم من وصيده بعقد قد عقد على الماء نفسه والماء من تحته ... وعلى فم المدخل الذى تدخل فيه السفن ، سلسلة ممدودة وعليها قفل لمن ينظر فى أمر البحر فلا يخرج المركب ولا يدخل الا بامر صاحب القفل . والسد من صخر ورصاص ... وهذه المدينة عليها سور منيع من حجارة »[١٥] . وفيه بابان : الباب الكبير والباب الصغير غير الباب الثالث المارّ الذكر وهو نحو البحر . وعلى الاسوار أبرجة[١٦]. وتصنع فى دربند ثياب الكتان تجلب منها الى سائر البلاد . وبها زعفران كثير .

---

(١٥) هذا النص من ابن حوقل (٢ : ٣٣٩) . (م) .

(١٦) هذا القول للمقدسى (ص ٢٧٦) . (م) .

وفي سوق باب الابواب مسجد جامع . فقد كانت ثغرا من ثغور الاسلام لان أهل الكفر كانوا يحيطون بها من كل جانب في أول العهد . واسهب ياقوت في ذكر الامم التي في أعلى جبال القفقاس وهضابها في ناحية الغرب فان فيها على ما قال « نيفا وسبعين أمة ، لكل أمة لغة لا يعرفها مجاورهم » . وأول تلك الامم الخزر واليهم نسب بحر قزوين فعرف ببحر الخزر . ووصف ياقوت السور العظيم الذي على المدينة وكان يمتد من دربند حتى الغرب ليصد عنها شر الاعداء ويقال انه من بناء انوشروان ملك فارس في المئة السادسة للميلاد . ونهر السمور[١٧] وهو يصب في بحر قزوين على شيء يسير من جنوب دربند قد ذكره المقدسي باسم نهر الملك ، وكان على نهر السمور جسر ، بينه وبين الدربند عشرون فرسخا ، وكان على الطريق الماد من شماخي .

وميناء باكوه أو باكويه (باكو الحالية) في جنوب دربند وقد اشار الاصطخري الى نفطها . وتبسّط ياقوت وغيره في الكلام على هذا النفط . قال ياقوت : فيها « عين نفط عظيمة تبلغ قبالتها في كل يوم الف درهم (٤٠ باونا) . والى جانبها عين أخرى تسيل بنفط ابيض لا تنقطع ليلا ولا نهارا ... وهناك ارض لا تزال تضطرم نارا » . وتكلم المستوفي على قلعة باكوية التي كانت تطل على المدينة فتنشر عليها ظلها في وسط النهار . والى جنوب باكو ولاية كشتاسفي قرب فم نهر الكر وسقيها من نهر يحمل منه . ويكثر فيها القمح والقطن . وأخيرا كان في الجبال القريبة من دربند قلعة يقال لها قَبَلَة وجامعها « ناء على تل » على ما في المقدسي . وقد ورد ذكر قبلة غير مرة في حروب تيمور . وزاد المستوفي انه يكثر فيها الحرير والقمح[١٨] .

---

(١٧) ورد ذكره بهذا الاسم في البلاذري (ص ٢٠٦ و ٢٠٨) . (م) .

(١٨) الاصطخري ١٨٤ و ١٩٠ ؛ ابن حوقل ٢٤١ و ٢٥١ ؛ المقدسي ٣٧٦ و ٣٧٩ و ٣٨١ ؛ ياقوت ١ . ٤٣٧ و ٤٧٧ ؛ ٣ : ٢٢٥ و ٢٨٢ و ٣١٧ ؛ ٤ : ٣٢ ؛ المستوفي ١٥٩ ـ ١٦١ ؛ القزويني ٢ . ٣٨٩ ؛ علي اليزدي ١ : ٤٠٦ .

كرجستان

وكرجستان ، هي التي نسميها جورجيا الآن ، وابخاز ويقال لها ابخازية ، لم تدخلا في عداد الولايات الاسلامية الا بعد ان فتح تيمور هذه النواحي في ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وتفليس قصبة كرجستان وهي في أعالي نهر الكر وقد عرفها البلدانيون مع ذلك في المئة الرابعة (العاشرة) فوصفها ابن حوقل بقوله : « عليها سوران وهي حصينة لها ثلاثة أبواب ، وبها حمامات ماؤها سخين من غير نار ، وهي خصبة كثيرة الخيرات » . ويخرق المدينة نهر الكر ، وهي جانبان بجسر على ما في المقدسي .

اما اقليم ابخاس أو ابخاز المجاور لها فكان ، على ما في المقدسي ، يعدّ من جبل القبق أي القوقاس . وفيه قرية يونس وبها مسلمون وحولها قبائل من الكرج (أهل جورجيا) واللان وغيرهم . وتنحدر من جبل ألبرز انهار كثيرة على ما ذكر المستوفي الذي زاد على ذلك ان قرص من المدن الكبيرة بجورجيا[١٩] .

أرمينية

كانت ارمينية الكبرى تقسم الى ارمينية الداخلة وارمينية الخارجة وهي وان كان اكثر اهلها نصارى ، الا ان خضوعها لحكم المسلمين كان منذ زمن بعيد . وفي هذه البلاد جبال عظيمة تمتد بين بحيرة وان وبحيرة گوگجة . ومن هذه الجبال مخرج نهر ارس ورافدي الفرات . وكانت قصبة ارمينية الاسلامية في الازمنة الاولى دبيل ، وتسمى ايضا دوين أو توين ، وتدل عليها الآن قرية صغيرة في جنوب اريفان أو اريوان قرب نهر ارس . وكانت دبيل في المئة الرابعة (العاشرة) أكبر من اردبيل وهي اجل ناحية وبلدة بارمينية الداخلة ، وعليها

---

(١٩) الاصطخري ١٨٥ ؛ ابن حوقل ٢٤٢ ؛ المقدسي ٣٧٥ ـ ٣٧٧ ؛ المستوفي ١٦١ و ٢٠٢ ؛ ياقوت ١ . ٧٨ و ٣٥٠ و ٨٥٧ .

كتب المستوفي جبال البرز بصيغة الجمع وأراد بذلك سلسلة الجبال . على انه اطلق هذه اللفظة دون تدقيق ، اذ ان قسما من هذه السلسلة هو جبل القوقاس . ويلفظ اليوم البرز بصورة البرز أو البروز [بكسر الهمزة في كليهما] وهو اسم أعلى قمة في القوقاس . وفي فارس يطلق اسم البرز اليوم على سلسلة جبال كبيرة (وأعلى قمة فيها دماوند) في شمال طهران .

سور له ثلاثة أبواب[٢٠] ، وجامعها الى جنب البيعة ، ويطلّ جبل اراراط بقمتيه على دبيل وهي في جنوبه وراء نهر الرس. وقد اشرنا (ص ١٢٣) الى ان الروايات الاسلامية تقول ان جبل الجودى في الجزيرة هو الجبل الذى استوت عليه سفينة نوح . ويقال لأرارط في ارمينية جبل الحارث (اما ان يكون الاسم مشتقا من الحرث واما ان الحارث كان علما لرجل فيما قبل الاسلام حلّ في هذه الديار) . وكانت قمة ارارط الصغرى تسمى الحويرث (تصغير الحارث) ، وقال الاصطخرى ان الثلوج على هذين الجبلين دائمة ولا يُرتقى الى اعلاهما من الارتفاع وصعوبة المسلك . ومحطب اهل دبيل ومتصيدهم في هذه الجبال . وزاد المقدسى على ذلك انه كان بين شعاب هذه الجبال « ألف مدينة » . « ويرتفع (في دبيل) ثياب مرعزي وصوف مصبوغ بالقرمز وهو صبغ احمر اصله من دود كدود القز ».
ووصف المقدسى في المئة الرابعة (العاشرة) بلد دبيل فقال : « الاكراد به الا ان الغالب عليه النصارى . ذات ربض عتيق قد حفّ به البساتين » . وآني ، وهي قصبة ارمينية النصرانية قديما ، وقد استولى عليها الب ارسلان السجلوقي وأمر بنهبها سنة ٤٥٦ (١٠٦٤) قد قال فيها المستوفى ، انها بلد في الجبال تكثر فيه الفواكه . وعلى بعد يسير من شمال شرقى دبيل بحيرة عذبة المياه سماها علي اليزدى كوكجة تنكيز (البحيرة الزرقاء) . ويبدو انه لم يطلق عليها هذا الاسم من المصنفين المسلمين الاوائل غير المستوفى[٢١] .

وبحيرة وان أو ارجيش ، على ما سماها به المصنفون الاولون ، كانت ولا مراء اشهر بحيرات ارمينية . فقد كان على شطئانها مدينة اخلاط وارجيش ووان ووسطان وقد وصفها الاصطخرى ، وطولها عشرون فرسخا يخرج منها سمك صغار يعرف بالطرّيخ (وهو ضرب من الشبوط ما زال يصاد فيها بوفرة) فيملح ويحمل الى كثير من الاقطار كالموصل ونواحى الجزيرة بل الى اقصى بلاد خراسان . فقد ذكر ياقوت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) انه ابتاع في بلخ شيئا

---

(٢٠) في المقدسى (ص : ٣٧٧) ان للسور أبوابا عدة ذكر منها ثلاثة فقط . (م) .

(٢١) الاصطخرى ١٨٨ و ١٨٩ ؛ ابن حوقل ٢٤٤ ؛ المقدسى ٣٧٤ و ٣٧٧ و ٣٨٠ ؛ ياقوت ٢ : ١٨٣ و ٥٤٩ ؛ المستوفى ١٢٦ و ١٦١ و ١٦٤ ؛ على اليزدى ١ : ٤١٤ و ٤١٥ ؛ ٢ : ٣٧٨ ؛ ابن الاثير ١٠ : ٢٥ .

من هذا السمك المملح • وماء البحيرة ملح مر • وكانت اخلاط أو خلاط وهى فى طرف البحيرة الغربى من اجل مدن ارمينية ، وصفها المستوفى[٢٢] بانها مدينة فى سهلة تحف بها البساتين وعليها حصن ، والجامع فى الاسواق ، والبرد فيها قارس فى الشتاء ، وهى آهلة جدا • والنهر يخرقها ويصل جانبيهـا جسر • ونـوه المستوفى بالبساتين المجاورة لها • ويطل على اخلاط الجبل العظيم المسمى كوه سيبان وكان على ما فى المستوفى يرى من بعد خمسين فرسخا ولا تفارق الثلوج قمته •

وارجيش ، وهى على الساحل الشمالى للبحيرة ، وكثيرا ما عرفت البحيرة باسمها ، كانت على ما ذكر المستوفى قد احكم تحصينها الوزير علي شاه بامر غازان خان فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • ويكثر القمح فى نواحيها ، وتبعد عنها من شرقيها مدينـة بارگيري أو بهرگري قرب بنـدماهى (سـد السمك) وهى على الطريق من ارجيش الى خوي فى اذربيجان • ذكر المستوفى ان فيها قلعة حصينة فى رأس الجبـل • وكان نهرها ينحـدر من مروج ألاطاق حيث ابتنى ارغون الايلخانى قصرا عظيما يصطاف فيه فى وسط حير للصيد عليه سور • ومدينة وان وقد عرفت البحيرة بها اليوم ، قرب شاطئها الشرقى ، ولم ينته البنا وصف لها • وكانت قلعة وسطام أو وسطان فى ساحل البحيرة الجنوبى وقد تكلم عليها المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وقال ان بالقرب منها مدينة كبيرة • وأخيرا كان فى جنوب غربى بحيرة وان مدينة بدليس (بتلس) • وصفها المقدسى بانها « فى واد عميق يجرى فيه نهران فى المدينة يجتمعان وهى جانبان فيها قلعة من حجارة » • وعلى ما جاء فى ياقوت ان « تفاحها يضرب به المثل فى الجودة والكثرة والرخص ويحمل الى بلدان كثيرة »[٢٣] •

وكانت حاصلات وتجارات هذه الاقاليم الشمالية قليلة • فكان يصنع فيها اصناف من الثياب المصبوغة بالقرمز واصله من دود يربى على شجر البلوط الذى يكثر فى انحاء اذربيجان • والى القرمز ينسب الحرير القرمزى (Cramoisie)

---

(٢٢) هذا الوصف فى الاصل للمقدسى (ص ٣٧٧) وعنه نقل المستوفى • (م) •

(٢٣) الاصطخرى ١٨٨ و ١٩٠ ؛ ابن حوقل ٢٤٥ و ٢٤٨ ؛ المقدسى ٣٧٧ ؛ ياقوت ١ • ٥٢٦ ؛ ٢ : ٤٥٧ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٢ ؛ المستوفى ١٦٤ و ١٦٥ و ٢٠٥ و ٢٢٦ ؛ جهان نما ٤١١ و ٤١٢ ؛ على اليزدى ١. ٦٨٥ و ٦٨٨ •

ومنه جاءت اللفظتان (Crimson) و (Carmine) [٢٤] ، ووصف ابن حوقل والمقدسي القرمز فقال الاول : « اصله من دود ينسج على نفسه كدودة القز اذا نسجت على نفسها القز » ، وقال المقدسي ان القرمز « دودة تظهر في الارض وتخرج اليها النسوان يتقرنها بنحاسة معهن ثم يجعلنها في فرن » ، ويصبغ به المرعزي والحرير والصوف وكان هذا الصبغ معروفا في كل مكان ، ومما اشتهرت بهارمينية ايضا : « الأنماط والتكك الرقيعة والبسط والمحفوريات والوسائد والستور ، وكذلك التين والشاه بلوط وسمك يقال له الطريخ من بحيرة وان — على ما اشرنا اليه — وكل ما يعرف من عملهم هذا لا نظير لـه في شيء من الارض » ، وكانت تجلب منها هذه السلع وتحمل كلها من دبيل ، وكان يحمل الابريسم من برذعة ومن سائر النواحي المجاورة ، ومن باب الابواب تحمل البغال الجياد ، وأخيرا يقع الى هذا الميناء الذي يقال له الدربند رقيق كثير من سائر البلدان الشمالية المصاقبة له[٢٥].

---

(٢٤) جاء في تاج العروس (٤ : ٦٩) :

« القرمز بالكسر هو صبغ ارمني احمر يقال انه يكون من عصارة دود يكون في اجامهم — فارسي معرب ... وقيل هو احمر كالعدس محبب يقع على نوع من البلوط في شهر آذار فان غفل عنه ولم يجمع صار طائرا وطار . وهذا الحب منه شيء يسمى القرمز من خاصيته صبغ ما كان حيوانيا كالصوف والقز دون القطن » . (م) .

(٢٥) ابن حوقل ٢٤٤ ؛ المقدسي ٣٨٠ و ٣٨١ .

الفصل الثالث عشر



اقليم الجبال اى عراق العجم ، ونواحيه الاربع ـ قرميسين اى كرمان شاهان ـ بهستون
ومنحوتاتها ـ كنكور ـ الدينور ـ شهرزور ـ حلوان ـ طريق خراسان العظيم ـ
كرند ـ كردستان فى عهد السلاجقة ـ بهار ـ جمجمال ـ الاتى
واليشتر ـ همذان ورساتيقها ـ دركزين ـ خرقانين
وآوه الشمالية ـ نهاوند ـ كرج روذراور
وكرج ابى دلف ـ فراهان .

ان البلاد الجبلية الواسعة التى سماها اليونان ميدية (ماذي Media) الممتدة من سهول العراق والجزيرة فى الغرب الى مفازة فارس الملحية الكبرى فى الشرق، قد سماها البلدانيون العرب اقليم الجبال . ثم بطل استعمال هذا الاسم ، وصار الاقليم ايام ملوك السلجوقية فى المئة السادسة (الثانية عشرة) يعرف غلطا بعراق العجم . وقد سمي بذلك تمييزا له عن عراق العرب ، وهو ما يعرف به القسم الاسفل من ما بين النهرين[1] .

وقد حصل هذا التغير فى اسم هذا الاقليم على الوجه الآتى حسبما يظهر :

(١) اطلق العرب بالاصل اسم « عجم » و « اعجمى » على الاجنبى ، اى من لم يكن عربيا كاستعمال اليونان للفظه بربرى . ولما ان الفرس كانوا اول اجانب صارت للعرب علاقة بهم ، اصبحت عجم واعجمى مختصة بالاجانب من الفرس ، وهى تقابل الآن فى الاستعمال لفظه فارسى . وجبال بالعربية جمع جبل . وقد استعمل ابو الفداء (ص ٤٠٨) « بلاد الجبل » فقال « ذكر بلاد الجبل وهى عراق العجم » .

فالعراق ، على ما قد بينّا (الفصل الثاني ص ٤٢ الحاشية ١) ، اسم اطلقه المسلمون على النصف الاسفل لما بين النهرين ، كما اطلق العرب هذا الاسم بصيغة المثنى على المدينتين الكبيرتين : الكوفة والبصرة فقالوا « العراقين » أي « عاصمتي العراق » . وكانت هذه التسمية هي التسمية القديمة الوارد ذكرها في الادب العربي . غير ان السلاجقة ، وقد تولّوا حكم بلاد فارس الغربية في النصف الثاني من المئة الخامسة (الحادية عشرة) ، جعلوا دار حكومتهم في همذان ، وبسطوا نفوذهم أيضا على ما بين النهرين حيث مقام الخليفة العباسي . واحرز السلاجقة من الخليفة لقب سلطان العراقين ، فكان اسم عراق العجم يتفق هو ووضعهم هذا على ما يظهر . وسرعان ما اصبح ثاني هذين العراقين يراد به اقليم الجبال حيث كان السلطان السلجوقي يمضي أكثر وقته . وهكذا صار يعرف لدى العامة بعراق العجم تمييزا له عن الآخر . ولياقوت رأي بصدد هذه التسمية . فقد أشار الى ان تسمية العجم لهذا الاقليم بالعراق في ايامه غلط ، وهو اصطلاح محدث . وقد استعمل ياقوت نفسه الاسم القديم فقال الجبال . ولكن القزويني معاصره ، وقد كتب بالعربية أيضا ، اطلق على هذا الاقليم ما يرادفه بالفارسية فسماه قوهستان (أي اقليم الجبل) . ومهما يكن من أمر فان لفظ « الجبال » ، بطل استعماله على ما يظهر بعد الفتح المغولي . ولم يستعمله المستوفي البتة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وينقسم اقليم الجبال القديم الى قسمين : الصغير ، وهو كردستان في الغرب ، والكبير وهو عراق العجم في الشرق . وما زال اسم « العراق » يطلق عليه حتى اليوم . وما زال ذلك القسم من البلاد الذي كان اقليم الجبال قديما في جنوب غربي طهران، يعرفه أهله اليوم باسم «ولاية عراق»[٢].

وكانت المدن الاربع القديمة ــ قرميسين (كرمانشاه الحديثة) وهمذان والري واصفهان ــ أجلّ مدن النواحي الاربع لهذا الاقليم منذ القدم . ففي أيام بني بويه ،أي في المئة الرابعة (العاشرة) ، كانت دواوين الدولة في الري ، على ما في ابن حوقل ، ثم اصبحت همذان في ختام القرن التالي قاعدة سلاجقة بلاد فارس . ولكن اصفهان كانت في جميع الاوقات على ما يظهر اوسع بلاد الجبال

(٢) ياقوت ٢ : ١٥ ؛ القزويني ٢ : ٢٢٨ ؛ المستوفي ١٤١ .

واخصبها وأكثرها مالا . وفي بحثنا هذا يحسن ان نصف الاقليم بحسب ولايات مدنه العظيمة الاربع . ونبدأ بالولاية الغربية التي تتبع كرمانشاه فقد كانت منذ أيام السلاجقة تعرف عادة بكردستان ويراد بذلك بلاد الكرد .

وقصبة كرمان شاهان ، ويختصر اسمها عادة الى كرمانشاه ، قد عرفها العرب قديما باسم قرميسين (وتكتب أيضا قرماسين وقرماشين) . وصفها ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) فقال : « مدينة لطيفة فيها مياه جارية وشجر وثمر ورخص وعيون متدفقة وخيرات وتجارات » . وكان المقدسي أول من ذكرها باسمها الفارسي كرمان شاهان وقال ان « الجامع في الاسواق ، وقد بنى عضد الدولة (البويهي) ثم دارا حسنة ، وهي على الجادة » . وتكلم القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة) على قرميسين وقال انها « بقرب كرمنشاهان فكأنهما بلدة واحدة » . واما ياقوت فقد ذكر الاسمين ، ولم يطل في الكلام على المدينة بل قصر وصفه على الصور المنحوتة والخرائب وما في جبل بهستان المجاور من آثار . وكان من أثر الفتح المغولي في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ان خربت كرمانشاه ، فقال المستوفي في المئة التالية ان هذه المدينة ضؤلت في أيامه وصارت كالقرية وقال ان اسمها في الكتب ما زال يكتب قرماسين (وقد بطل منذ أيامه) . وهو الآخر قد قصر وصفه على منحوتات بهستان أو بيستون .

وهذه الصور كانت منحوتة في سفح الجبل المظلم وقاعدته ، على حجر اسود . وهي على مسيرة يوم من شرق كرمانشاه قرب طريق خراسان . وتحتوي هذه الصور على بقايا يرقى تاريخها الى الملوك الاخمينيين (المئة الخامسة قبل الميلاد) والساسانيين (السابعة للميلاد) وقد وصفها الاصطخري وابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) فذكرا ان اسم الجبل بهستون وبيستون ، وقالا انه كانت هناك قرية تدعى ساسانيان[٣] . ولا ريب في انها هي القرية التي سماها المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وسطام أو بسطام وتعرف اليوم باسم طاق بستان . فيها صورة دارا المشهور يستقبل الملوك التابعين له . وفيها كتابة مسمارية بثلاث لغات.

---

(٣) في المطبوع من ابن حوقل (ص ٣٥٩) : « ساپسانان » ولعله من اوهام النسخ والطبع (م) .

أشار اليها ابن حوقل وقد وصفها بقوله ان فيه « صورة مكتب ومعلم صبيان من حجارة ، وبيد معلمهم كالسير يومي به لضرب الصبيان ، وان هناك قدورا منصوبة على اثاف ، كل ذلك من حجارة » . واما المنحوتات الساسانية التى اضيفت الى الاولى بعد ما يربو على الف سنة فقد كانت « فى مكان يشبه الغار فيه عين ماء تجرى » . وفيه على ما جاء فى ابن حوقل وتناقله من جاء بعده من مؤلفى الفرس « صورة دابة كسرى المسمى شبداز (شبديز) وعليه صورة كسرى من حجر وصورة امرأته شيرين فى سقف هذا الغار » . وهذه الصور وان نالها بعض التشويه ، ما زالت ترى الى يومنا هذا ، وقد صورت ووصفت غير مرة . وروى ياقوت ، نقلا عن رحلة ابن مهلهل فى المئة الرابعة (العاشرة) ، والمستوفى كثيرا مما كان يحكى فى زمنهما بشأن هذه الصور . فقصة خسرو وشيرين وعشيقها النحات فرهاد الذى انتحر يأسا ، تسمع محوّرة تحويرا محليا فى كثير من الامكنة المجاورة . وحوادث القصة معروفة جيدا من الشاهنامة للفردوسى ومن شعر نظامى الشاعر العظيم (وعنه نقل المستوفى) بعنوان « عشق خسرو وشيرين »[٤].

ويطل على كرمانشاه من ناحية الشمال ، فى يسار الذاهب بطريق خراسان ، الجبل الفرد المسمى سن سميرة ومنه يبدأ الطريق الشمالى الى الدينور واقليم اذربيجان . وانما سمى هذا الجبل بسن سميرة نسبة الى امرأة عربية بهذا الاسم كانت لها سن مشرفة على اسنانها فسمى المسلمون الجبل بسنها حين مرت جيوشهم به تريد نهاوند . ومما يلى بيستون فى الناحية الشرقية على طريق خراسان العظيم قرية صُحنة وقد ذكرها الاصطخرى ، وما زالت قائمة فلا يلتبس أمرها بمدينة سحنة الحديثة التى سيأتى الكلام عليها . ويلى قرية صحنة مدينة كنكوار وقد سماها العرب بقصر اللصوص لأن أهلها سرقوا دواب المسلمين لما سار جيشهم الى نهاوند فى أول الفتح الاسلامى . وكان فى هذه المدينة على ما فى ابن رسته

---

(٤) ابن رسته ١٦٦ ؛ اليعقوبى ٢٧٠ ؛ الاصطخرى ١٩٥ و ٢٠٣ ؛ ابن حوقل ٢٥٦ و ٢٦٥ و ٢٦٦ ، المقدسى ٢٨٤ و ٣٩٣ ؛ القزوينى ٢ : ٢٩٠ ؛ ياقوت ٣ : ٢٥٠ ؛ ٤ ٦٩ ؛ المستوفى ١٦٨ و ٢٠٣ ؛ جهان نما ٤٥١ . بهستان هى الصورة القديمة للاسم . وبيستون ومعناها بالفارسية « بدون عمد » أى غير المسندة . ولعل هذا الاسم جاء من تسمية الناس لحال هذه الصور .

وغيره ، ايوان على دكة من حجر وهو لكسرى ابرويز ، مبني بالجص والحجارة على اساطين • وكانت مدينة كنكوار جليلة القدر وفيها منبر ، استحدثها مؤنس المظفر حاجب الخليفة المقتدر • وقال ياقوت ان الدكة التى عليها القصور الساسانية ، ارتفاعها عن وجه الارض نحو عشرين ذراعا • وزاد المستوفى على ذلك قوله ان الحجارة المظيمة التى بنيت بها القصور جيء بها من جبل بيستون[٥].

وعلى نحو خمسة وعشرين ميلا من غربى كنكوار ، اطلال الدينور وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) قصبة للامارة المستقلة الصغيرة المنسوبة الى حسنويه أو حسنوية رئيس القبيلة الكردية الغالبة على هذه الانحاء • وفى أيام الفتح الاسلامى لبلاد فارس ، سميت الدينور ماه الكوفة لأن (على ما فى اليعقوبى) « مالها كان يحمل فى اعطيات أهل الكوفة » • وسميت المدينة وما جاورها ماه الكوفة زمنا ما • ووصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) الدينور فقال هى « كثلثى همذان وتزيد على همذان من جهة آداب أهلها وتصرفهم فى العلم » • وزاد المقدسى على ذلك انها « حسنة الاسواق وقد احدق بها بساتين » • وكان الجامع ، وهو من بناء حسنويه فى السوق[٦] « على المنبر قبة حسنة ومقصورة ما رأيت أحسن منها » • وكانت الدينور مدينة آهلة حين كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، طيبة الهواء وافرة المياه يكثر فيها القمح والاعناب • ولعل ما يرى فى هذا الموضع من خراب الآن ، قد حل به بعد فتح تيمور ، فقد ذكر علي اليزدى ان تيمور ابقى بعض جنده فى حامية هناك •

ولعله كانت فى جوار الدينور قلعة سرماج العظيمة ، ولا يعرف حتى الآن موضعها على ما يظهر • وصفها ياقوت بأنها حصينة من أحصن القلاع وأشدها امتناعاً • بناها حسنويه بالصخور المهندمة وتوفى فيها سنة ٣٦٩ (٩٧٩) بعد ان حكم حكما حافلا ، على ما فى ابن الاثير ، زهاء خمسين سنة • وفى المئة التالية استولى طغرل بك

---

(٥) الاصطخرى ١٩٦ ؛ ابن حوقل ٢٥٦ ؛ ابن رسته ١٦٧ ؛ المقدسى ٣٩٣ ؛ ياقوت ٣ : ٥٠ و ١٦٩ ؛ ٤ : ١٢٠ و ٣٨١ •
وكتب اسم القرية صحنة وسحنة (المستوفى ١٦٨) •

(٦) فى المقدسى (ص ٣٩٤) : « والجامع ناء عن الاسواق » (م) •

السلجوقي على سرماج في سنة ٤٤١ (١٠٤٩) بعد ان ضرب الحصار عليها اربع سنين[٧] ولم يستول على هذه القلعة الا بعد ان انفذ جيشا من مئة الف رجل واستنزل (ينال) من هذه القلعة العظيمة مقهورا[٨] .

وعلى ستين ميلا شمال خرائب الدينور تقوم اليوم مدينة سحنة الجليلة ، وهي القاعدة الحديثة لاقليم كردستان الفارسي ، وان لم يذكرها بهذا الاسم بلدانيو القرون الوسطى من عرب وفرس . وكان في موضع سحنة الحديثة في القرون الوسطى ، على ما جاء في كتابي المسالك لابن خرداذبه وقدامة ، مدينة سِيسَر ومعنى الاسم بالفارسية «ثلاثون رأسا» بحسب تفسير ياقوت الصحيح له. وفي سيسر عيون كثيرة لا تحصى وكانت تدعى صد خانية (أي البيوت المئة) أو منابع المياه لكثرة عيونها ومنابعها . وقد بنى الخليفة الامين حصنها ونزله المأمون بعسكره ، بينهم جند من القبائل الكردية التي كانت في المراعي المجاورة وقد استخدمهم في محاربة أخيه وخلعه من الخلافة . وكانت سيسر رستاقا من الرساتيق الاربعة والعشرين التابعة لهمذان . ولعل اسم سحنة الحديث تصحيف صد خانية اختصرت الى سيخانة (أي ثلاثين بيتا) الا انه لا دليل على ذلك .

وعلى مسيرة اربع مراحل شمال غربي الدينور ، مدينة شهر زور في كورة شهر روز . وقد ذكر ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) شهر زور بأنها مدينة حصينة عليها سور يسكنها الاكراد ، وقد سرد اسماء قبائلهم المنبثة في تلك الارجاء . وكانت « من رغد العيش وكثرة الرخص وخصب الناحية بحالة واسعة وصورة رائعة » . ووصفها الرحالة ابن مهلهل في المئة الرابعة (العاشرة) ، على ما اقتبسه منه ياقوت بقوله « شهرزور مدينات وقرى ، فيها مدينة كبيرة وهي قصبتها في

---

(٧) في الكامل لابن الاثير (حوادث سنة ٤٤١ هـ) « وتحصن ابراهيم ينال بقلعة سرماج وامتنع على أخيه فحصره طغرل بك فيها وكانت عساكره قد بلغت مئة الف من أنواع العسكر وقاتله فملكها في اربعة أيام » . (م) .

(٨) اليعقوبي ٢٧١ ؛ ابن حوقل ٢٦٠ ؛ المقدسي ٣٩٤ ؛ المستوفي ١٧٦ ؛ ياقوت ٣ : ٨٢ . على اليزدي ٢ : ٥٣٠ ؛ ابن الاثير ٨ : ٥١٨ و ٥١٦ ؛ ٩ : ٣٨٠ . وعلى ما في ياقوت (٤ : ٥-٤) الكلمة الفارسية « ماه » معناها « قصبة البلد » بالعربية . ولفظة « ماه » التي ترى في الاسمين القديمين لدينور ونهاوند هي (مادا) بالفارسية القديمة . وقد انتهت الينا الكلمة نفسها عن طريق اليونان بصورة ميدية والميديين لانها اسم مكان . وقد زار اطلال دينور أخيرا دي مورگن De Morgan ووصفها في كتابه Mission en Perse (٢ : ٩٥ و ٩٦) .

وقتنا هذا » . يقال لها نيم راه[٩] عند الفرس . (ومعناه منزل نصف الطريق) لانها تقوم في نصف الطريق بين المدائن (طيسفون)والشيز، وفيهما بيتا النار العظيمان في أيام الساسانيين . وبقرب من هذه المدينة جبل يعرف بشعران وآخر يعرف بالزَّلَمّ ، على ما ذكر القزويني « ينبت حب الزلم الذي يصلح لأدوية الباه » وكان أكراد هذه الكورة حين زارها ابن مهلهل تنشيء ستين الف بيت . وحين كتب المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت شهرزور مدينة زاهرة وأهلها أكراد[١٠] .

كان طريق خراسان، وقد مرّ وصفه في الفصل الاول، يأخذ من بغداد فيشرّق الى اقصى حدود بلاد الاسلام . فبعد ان يخترق سهل ما بين النهرين ، يدخل في منطقة جبال فارس عند حلوان وهي من مدن اقليم الجبال . وقد عدّها بعضهم في ضمن العراق العربي . وقال ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) ان « حلوان نحو نصف الدينور وبناؤها من طين وحجارة . وهي وان كانت مدينة حارة فيها نخيل ورمان وشجر تين كثير موصوف ، فان الثلج يكون منها على فرسخين في الصيف غير منقطع ابدا » . وقال المقدسي ان لها حصنا عتيقا فيه الجامع ولسورها ثمانية أبواب سرد اسماءها وقال « ثم كنيسة اليهود يعظمونها خارج البلد » من الجص والحجارة المربعة المتلاحكة . وكانت حلوان حين كتب القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة) خرابا . « وفي حواليها عدة عيون كبريتية ينتفع بها من عدة ادواء » . وفي المئة التالية نوه المستوفي بقمحها ، ولكنه قال ان المدينة كانت خالية خاوية ما خلا مزارات الاولياء وكان في ناحيتها ثلاثون قرية .

وعلى طريق خراسان ، على اربعة فراسخ فوق حلوان من ناحية كرند ، مدينة ماذرستان على ماقي ياقوت، كان فيها « ايوان عظيم وبين يديه دكة عظيمة وأثر بستان خراب بناه بهرام جور » الملك الساساني وقد آل في أيام ياقوت الى الخراب .

---

(٩) في ياقوت (٣ : ٣٤٠) ان « شهرزور يقال له نيم از راى » (م) .

(١٠) ابن خرداذبه ١٢٠ ؛ قدامه ٢١٢ ؛ ابن حوقل ٢٦٣ و ٢٦٥ ؛ ياقوت ٣ . ٢١٦ و ٣٤٠ ، ٤ : ٩٨٨ ؛ القزويني ٢ . ٢٦٦ ؛ المستوفي ١٦٧ .

ان كورة شهرزور ما زالت محتفظة باسمها . اما المدينة القديمة فهي حيث الخرائب المسماة الآن ياسين تپه .

قلنا : ولا يمكن الجزم بهذا الرأي ، اذ يرى بعضهم ان مدينة شهرزور قد يمثلها تل بكرآوه (قرب حلبجه) ، أو الخرائب العربية من خورمال . اما كورة شهرزور فهي اليوم جزء من لواء السليمانية . (م) .

وعلى ستة فراسخ مما يلي ماذرستان ، مدينة كرند ويبدو ان أول من ذكرها المستوفى في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وقد جمع اسم كرند الى قرية مجاورة لها يقال لها خوشان ولا أثر لها اليوم. مع ان المستوفى قال انها في أيامه آهلة أكثر من كرند. وهذان الموضعان عند رأس درب حلوان في سهل خصب ويتفق موضعهما ـ اذ كما بيّنّا لم يذكر البلدانيون العرب القدماء موضع كليهما ـ مع المرج المعروف بمرج القلعة . ووصفها ابن حوقل فقال انها مدينة عليها سور لطيف وحولها رساتيق آهلة كثيرة الخيرات . وروى اليعقوبي ان « بهذا الموضع دواب الخلفاء في المروج » . وعلى أربعة فراسخ مما يلي هذه المروج يمر الطريق بطَزَر ، فيها على ما في المقدسي بقايا ايوان للاكاسرة ، بناه خسرو جرد بن شاهان على ما ذكر ياقوت . وفي طزر أسواق حسنة . ولعلها قصر يزيد الذي ذكره غير ياقوت من المصنفين . وعلى ستة فراسخ مما يلي طزر أيضا ، الزبيدية . وهي « منزل صالح » على ما في ابن حوقل. ويستدل من وجودها على الطريق العام انها قد تكون في موضع قرية هرون اباد الحديثة . وينعطف طريق خراسان هنا نحو الشرق فيخترق سهل مايدشت (او ماهدشت) قاصدا كرمانشاه . وذكر المستوفى ان في سهل مايدشت في أيامه خمسين قرية ذات مروج خضر يانعة كثيرة المياه المنحدرة اليها من الجبال المجاورة لها . وفي هذه الارجاء قلعة هرسين وعند قاعدتها مدينة صغيرة ما زالت قائمة على نحو عشرين ميلا جنوب شرقي كرمانشاه[11] .

اما ما يقال في أصل اقليم كردستان ، فيروى انه في نحو منتصف المئة السادسة (الثانية عشرة) اقتطع السلطان سنجر السلجوقي القسم الغربي من اقليم الجبال ، أي ما كان منه من اعمال كرمانشاه وسماه كردستان وولى عليه ابن أخيه سليمان شاه الملقب أبوه (أو آبوه) وهو الذي صار فيما بعد ـ أي من سنة ٥٥٤ـ٥٥٦ (١١٥٩ ـ

---

(١١) ابن حوقل ١٦٨ و ٢٥٦ و ٣٦٢ ؛ ابن رسته ١٦٥ ؛ اليعقوبي ٢٧٠ ؛ المقدسي ١٢٣ و ١٣٥ و ٣٩٣ ؛ القزويني ٢ : ٢٣٩ و ٣٠٢ ؛ المستوفي ١٣٨ و ١٦٨ ، ياقوت ٣ : ٥٣٧ ؛ ٤ : ٣٨٢ ؛ جهان نما ٤٥٠ .

ما زالت خرائب حلوان ترى عند القرية المسماة الآن سربل (رأس الجسر) وعلى النهر هناك قنطرة .

١١٦١) ـ خلفا لعمه فى رئاسة البيت السلجوقى وسلطنة العراقين • وهذه هى رواية المستوفى الذى قال ان كردستان فى أيام سليمان شاه ازدهر ازدهارا عظيما وبلغ ارتفاعه مليونى دينار ذهبا (ما يعادل نحو مليون استرلينى) • وهو عشرة أضعاف ما كان يدّره هذا الاقليم فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) أيام الحكم المغولى حين كان المستوفى نفسه مستوفيا أموال الدولة • واتخذ سليمان شاه بهار ـ وهى مدينة ما زالت قائمة على نحو ثمانية أميال شمال همذان ـ قاعدة له • وكان فيها قلعة منيعة • وفى أيام المغول بنى السلطان ألجايتو عاصمة ثانية فى سلطان آباد جمجمال (چمچمال) قرب حافة جبل بيستون • وقد وصف المستوفى هذه المدينة فقال هى وسط صقع وافر الخيرات كثير القمح • وأشار فى وصف المسالك الى موضع جمجمال أو چمچمال ـ وهى على اربعة فراسخ من قرية سحنة وستة من كرما نشاه ـ وما زالت أطلالها قائمة معينة فى الخارطة فى الموضع المنوه به • وقد ذكر علي اليزدى هذه المدينة غير مرة حين وصفه زحف تيمور الى كردستان •

ومن المدن التى يقع ذكرها فى أخبار حروب تيمور ، وأشار اليها المستوفى ، مدينة دربند تاج خاتون « مدينة متوسطة السعة أكثرها قد استولى عليه الخراب الآن » • ودربند زنكى وهى دونها • وكانت فيها مراتع حسنة وهواؤها طيب معتدل ، والظاهر انه لم يبق لهاتين المدينتين أثر فى الخارطة • وبما ان دربند تعني الدرب الجبلى ، وان علي اليزدى ذكر اسم الاولى بصورة دربند تاشى خاتون ، فان هاتين المدينتين المشتركتين باسم دربند كانتا فى الحدود الغربية لبلاد كردستان على ما يظهر ، (بين شهرزور وحلوان) فى الجبال التى تهيمن على سهول ما بين النهرين •

وذكر المستوفى أيضا اربع مدن أخرى فى كردستان هى : ألانى واليشتر وخُفتيان ودربيل • وقال ان هذه المدن كانت فى أيامه جليلة ، اما اليوم فليس من اليسير تعين مواضعها • وكانت ألانى ، وقد ورد ذكرها فى بعض المخطوطات بصورة ألابى ، فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قصبة الاقليم المعتبرة على ما يظهر وان لم يذكرها غير المستوفى على ما نعلم • ويكثر فيها القمح وهواؤها طيب ومروجها وافرة المياه ويكثر الصيد فى انحائها • وفى اليشتر أيضا بيت للنار قديم

يسمى اردحش (اروخش أو ارخش) بيد ان كتب المسالك لم تعين موضعها • الا ان سهل اليشتر ما زال معروفا ولعل من مواضعه القديمة المدينة التى ذكرها المستوفى وهى بلا ريب مطابقة لمدينة ليشتر أو لاشتر التى ذكر ابن حوقل وغيره بانها على عشرة فراسخ جنوب غربى نهاوند واثنى عشر فرسخا شمال شابرخاست[١٢] • ويحسن بنا ان نبين من الجهة الثانية انه يشك كل الشك فى قراءة اسم اليشتر ، فان كثيرا من اوثق المخطوطات واصحها وكذلك جهان نما التركية ، أوردته بصورة الشر كما وقعت فيها صور أخرى مختلفة لهذا الاسم • ولا يعلم شيء عن خفتيان[١٣] (وأوردها جهان نما حقشبان ، والمخطوطات بصور أخرى) سوى انها كانت قلعة محكمة البناء حولها الفرى على ضفاف نهر الزاب • وغير واضح ما اذا كان هذا الزاب هو الزاب الاعلى أم الاسفل • فموضعها غير معلوم والامر كذلك فى دربيل (أو دزبيل) وهى « مدينة وسطة ذات هواء طيب » • ولم يشر المستوفى الى موضعها ولو بوجه التقريب • وبهذا يختتم المستوفى كلامه فى اقليم كردستان[١٤] •

وهمدان (وقد كتبها العرب بصورة همذان)[١٥] وهى اكبتانا القديمة قاعدة اقليم ماذي • وصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) همذان بأنها « مدينة كبيرة حسنة مقدارها فرسخ فى مثله ، محدثة ، اسلامية • ولها سور وربض • وللمدينة أربعة أبواب ، كثيرة التجارات والمبر ، ولها مياه وبساتين كثيرة وزروع خصبة » وغلات وافرة ولاسيما الزعفران • وقال المقدسى ان اسواق المدينة ثلاثة صفوف ، والجامع فى السوق وبنيانه عتيق • وقال ياقوت ، وله فى همذان فوائد كتبها قبيل ان يقوضها الفتح المغولى ويحيلها أرضا يبابا فى سنة ٦١٧

---

(١٢) هذه تسمية ابن حوقل لها (ص ٣٦٠) • وفى المستوفى « شابور خواست » (ص ١٧٢) • (م) •

(١٣) ذكرها ابن خلكان فى وفيات الاعيان (١ : ٥٦٩ و ٥٧٠) (م) •

(١٤) ابن حوقل ٢٥٩ و ٢٦٤ ؛ ياقوت ١ : ٢٧٦ ؛ ٣ . ٥ ؛ المستوفى ١٦٧ و ١٩٢ ؛ على اليزدى ١ : ٥٨٤ و ٥٨٥ و ٥٩٩ و ٦٤٠ ؛ جهان نما ٤٥٠ •

ولم يذكر البلدانيون العرب القدماء بلدة بهار والاى وخفتيان ودربيل ولا المدينتين المعروفتين بالدربند •

(١٥) همدان هى هكمتانا فى الكتابات الاخمينية وقد كتبها اليونان بصورة اكبتانا (Ecbatana)

(١٢٢٠) ، انها اربعة وعشرون رستاقا لكل رستاق قصبة ، وقد سرد اسماءها . ثم أورد المستوفى هذه الاسماء فى المئة التالية وقد زاد عليها اسماء القرى التى فى كل رستاق . على ان أكثرها لا يمكن تعيين موضعه الآن . ووصف المستوفى هذه المدينة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) بانها فرسخان فى مثلهما وفى وسطها تقوم القلعة العتيقة وقد بنيت بالطين ، يقال لها شهرستان . وقلعة همذان العتيقة هذه كنظيرتها التى فى اصفهان . وسيأتى ذكرها ـ سماها ابن الفقيه ساروقا[١٦] ولكنه لم يفسر معنى الاسم . وكان سوق الصاغة فى همذان مشهورا ، أنشى فى موضع قرية قديمة يقال لها زمين‌ديه . وكان محيط أسوار المدينة ١٢٠٠٠ خطوة . وقوام همذان فى أول ايامها ، على ما ذكر المستوفى ، خمس مدن وهى : قلعة كبريت وقلعة ماكين[١٧] وكرد لاخ وخورشيد وكورشت . وزاد على ذلك « ان الاخيرة وهى مدينة كانت واسعة فى القديم قد آلت الى الخراب » . ومن أعمال همذان أيضا النواحى الخمس العظيمة الآتية مع قراها وهى : فريوار قرب المدينـــة ثم ازمـدين وشـرامين وأعلـم . وأخـيرا يلحق بها كورة ســردرود وبرهندرود . ويحسن بنا ان نقول انه لا يركن الى قراءة هـذه الاســماء ، فان مخطوطات الكتاب المختلفة متباينة فى ذلك كثيرا[١٨] .

وعلى ثلاثة فراسخ من همذان ، قرية يقال لها جوهستة (ولم تذكر المراجع فى أية جهة من همذان هى ، كما لم تذكر الخوارط اسمها) فيها اطلال قصر الملك بهرام جور . وصفه ابن الفقيه فقال ان القصر كله حجر واحد منقور فيه الحجر والدروب والغرف . وفى كل ركن من اركانه صورة جارية وفيه كتابة بالفارسية من أوله الى آخره ، تشيد بفتوحات الاكاسرة . وعلى مقدار نصف فرسخ من هذا القصر ، تل مشرف عليه « ناووس الظبيـة » . وروى ابن الفقيه حكاية الملك بهرام جور وجاريته المحبوبة . جاء فيها خبر صيده كثيرا من الظباء فى البرية القريبة

---

(١٦) فى هامش ابن الفقيه (ص ٢١٩) : الشاروق (م) .

(١٧) فى حاشية المطبوع من المستوفى (ص ٧١) : قلعة ماكير او مالكرة . (م) .

(١٨) ابن حوقل ٢٥٦ و ٢٦٠ ؛ المقدسى ٣٩٢ ؛ ابن الفقيه ٢١٩ ؛ ياقوت ٤ : ٩٨٨ ؛ المستوفى ١٥١ و ١٥٢ .

وقد كرر جهان نما التركية (ص ٣٠٠) ما فى المستوفى من اسماء الرساتيق والقرى .

من ذلك الموضع ، ثم قتله جاريته جزاء أقوالها المهينة التى انتقصت فيها من مقدرته على الصيد •

والى جنوب غربى همذان يشمخ جبل ألوند العظيم أو أروند ، على ما كتبه ياقوت • وهذا الاسم يرى فى دراهم الفضة التى ضربها فيها أبو سعيد الايلخانى فى سنة ٧٢٩ (١٣٢٩)[١٩]• وسرد المستوفى حديثا طويلا عن كوه الوند فقال فيه ان محيطه ثلاثون فرسخا وقمته لا تفارقها الثلوج شتاء وصيفا • وكان فى ذروة الجبل عين يخرج ماؤها من شق فى صخرة • وزاد على ذلك انه ينبع من ذراه أيضا اثنان واربعون نهرا • فاذا سرنا غربا من همذان وعبرنا درب الوند فى الطريق الى كنكوار الفينا اسدآباد ، وقد وصفها ابن حوقل بانها مدينة آهلة • وذكر المقدسى ان على مقدار فرسخ منها ايوانا فى بناء سماه ياقوت مطابخ كسرى • وكان فى اسداباد جامع وأسواق عامرة وهى كثيرة الخير والعسل • وقال المستوفى انه كان من أعمالها خمس وثلاثون ضيعة[٢٠] •

والسهل الذى تقوم فيه همذان تتصرف مياهه الى الشمال والشرق ، فتحد مجاريه العديدة لتؤلف أوائل نهر كاوماها (كاوماسا) وسنذكره فى كلامنا على نهر قم • والى شمال همذان ناحية دركزين وفى شمالها أيضا ناحية خرّقان • وقد كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) عن دركزين وقال انها مدينة جليلة كانت قبلا قرية وهى قصبة ناحية أعلم وقد مرّ بنا فى الصفحة السابقة انها واحدة من خمس نواح من أعمال همذان • وقال ان ناحية أعلم – وذكرها ياقوت قبله أيضا – سماها الفرس خطأ باسم آلَمَر ، وكانت هضبة عالية بين همذان وزنجان • وتكثر فيها الاعناب والقطن والقمح • أما خرقان وتسمى فى الغالب خرقانين فهى الى شمال أعلم وفيها كثير من القرى سرد المستوفى اسماءها (ولكن قراءتها فى مخطوطات كتابه لا يوثق بها) • وقصبتها : آوه أو آبه همذان وما زالت قائمة • وانما سميت بذلك تمييزا لها عن آوه ساوه وسيأتى ذكرها • وقد تكتب آوه

---

(١٩) هو ابو سعيد بهادر خان تاسع الايلخانيين • وفى المتحف العراقى عدد من هذه النقود بينها نقد باسمه ضرب فى اروند سنة ٣٣ ايلخانية وتعادل سنة ٧٣٥ للهجرة • (م) •

(٢٠) ابن حوقل ٢٥٦ • ابن الفقيه ٢٥٥ ؛ المقدسى ٣٩٣ ؛ ياقوت ١ : ٢٢٥ و ٢٤٥ ؛ ٤ : ١١٠ و ٧٣٣ ؛ القزوينى ٢ : ٢٣٦ و ٣١١ ؛ المستوفى ١٥٢ و ٢٠٢ •

الشمالية هذه احيانا بصورة آوا على ما ذكر ياقوت ٠ وجاء ذكرها منذ المئة الرابعة (العاشرة) فقد نوه بها المقدسي ٠ وكان نهر خرّقان ، على ما في المستوفى ، يفيض في الربيع ويسيل ماؤه في نهر كوشك رود ثم يفنى في المفاوز الكبيرة في نواحي الري ٠ ولا يتجاوز ماء نهر خرقان في الصيف حدود هذه الناحية فان السقي يستنفد مياهه[٢١] ٠

ومدينة نهاوند على نحو اربعين ميلا جنوب همذان وكانت مدينة جليلة منذ ايام الساسانيين ٠ وبعد ان فتحها المسلمون بجيش من أهل البصرة صارت تعرف المدينة وناحيتها باسم ماه البصرة لان خراجها كان يحمل في اعطيات أهل البصرة مثل خراج الدينور الذي كان يحمل في اعطيات أهل الكوفة (راجع الصفحة ٢٢٤) ٠ وتكلم ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) فقال هي مدينة جليلة كثيرة التجارة والرساتيق ٠ ويرتفع اليها زعفران الروذراور ، وبها جامعان احدهما عتيق والآخر محدث ٠ وذكر ياقوت : يروى ان كثيرا من عرب البصرة سكنوها منذ أيام الفتح الاولى ٠ واشتهرت نهاوند بصنف من العطور ٠ وروى المستوفى في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان جل أهلها في أيامه من الاكراد ٠ ويكثر في رساتيقها قطن لاسيما في ثلاثة رساتيق ذكر اسماءها وهي : ملاير واسفيذان وجُهُوق ٠ وعلى نحو نصف الطريق بين همذان ونهاوند رستاق روذراور « وهو رستاق كبير عظيم يزرع فيه الزعفران ، والمنبر منه بموضع يعرف بكرج الروذراور » وروذراور على ما في ياقوت « مسيرة ثلاثة فراسخ فيها ثلاث وتسعون قرية » ٠ وجاء اسمها في المستوفى بصورة رودارود وغير ذلك ٠ وذكر من مدنها سركان وتُوي وكلتاهما ما زالت ترى ٠ ويطلق على ناحيتها الآن اسم توي[٢٢] ٠

وفي شرقي نهاوند كورة الايغارَين وقصبتها يقال لها كرج ، واشتهرت باسم

---

(٢١) المقدسي ٢٥ و ٥١ و ٣٨٦ ؛ اليعقوبي ١ : ٣١٦ و ٤٠٨ ؛ المستوفى ١٥٢ و ٢١٧ ؛ جهان نما ٣٠١ و ٣٠٥ ٠

(٢٢) ابن رسته ١٦٦ ؛ ابن حوقل ٢٥٨ و ٢٥٩ و ٢٦٢ ؛ المقدسي ٣٩٣ ؛ ياقوت ٢ : ٨٣٢ ؛ ٤ : ٢٥١ و ٨٢٧ ؛ المستوفى ١٥٢ و ١٥٣ ٠

لا ريب ان اطلال كرج روذراور هي التي وصفها دي موركن De Morgan في كتابه « بعثة الى فارس » Mission en Perse (٢ : ١٣٦) واطلق عليها اسم رودلاور ٠

كرج ابى دُلَف . ولا يعرف الآن الموضع الحقيقى لكرج هذه . ولكن مع التدقيق فى المسافات التى ذكرت فى وصف المسالك ومما قاله المستوفى فى ان المدينة كانت وراء جبال راسمند (وهى الجبال المعروفة اليوم باسم راسبند) ينبغى أن يبحث عن موضعها بالقرب من منابع النهر المارّ بساروق والملتقى بنهر قراصو الحالى . وتكلم ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) على كرج فقال انها اصغر من بروجرد ولكنها كانت مدينة ذات شأن « بنيانها عال وكانت مدينة طويلة نحو فرسخين ولها سوقان احدهما على باب مسجد الجامع وسوق آخر وبينهما صحراء كبيرة . وتصافيهما المنازل والمساكن والحمامات . وبناؤهم من طين وليس بها كثير بساتين ومتنزهات » وتحف بها أراض قليلة وافرة الخصب . اما ابو دلف ، وهو الذى نسب اليه هذا الموضع ، فقد كان قائدا شهيرا وشاعرا فى قصر هرون الرشيد وابنه المأمون . وقد أقام ابو دلف وآله فى هذه الكورة وفى ما حول الىرج[٢٣] وهو على اثنى عشر فرسخا أمام اصفهان . وقد اوغرت لهم ايغارا أى انها معفاة من الخراج ما خلا ما يدفع سنويا من المال الى الخليفة[٢٤]. وروى ياقوت ان « كرج » فارسة وأهلها يسمونها كره . وكانت فرزين « قلعة على باب كرج » . وقد اشار المستوفى الى نهرها باسم كره – كره رود – وقال ان جبل راسمند كان يطل على السهل فى شمالها . وعند حافة الجبل عين ماء غزيرة يقال لها عين الملك كيخسرو تسقى المراتع المجاورة طولها ستة فراسخ فى عرض ثلاثة وكانت تعرف باسم مرغزار كيتو وتحميها قلعة فرزين . وجبل راسمند ، على

---

(٢٣) ابو دلف هو القاسم بن عيسى بن ادريس بن معقل بن عمير وينتهى نسبه الى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان العجلى (ابن خلكان) . وكان أبوه قد شرع فى عمارة مدينة الكرج واتمها هو . وكان بها أهله وعشيرته وأولاده . وقد بنى ابو دلف ايضا الحاجر وهى منزل خصيب كبير على طريق الحج بين الكوفة ونجد وماؤها من البرك والآبار (ابن رسته ١٧٦) . واشتهر بالشجاعة والكرم ، وألف جملة كتب وكان من رجال المأمون ثم المعتصم وحبسه الافشين فى أيام المعتصم بسبب ما كان بين الترك والعرب من نزاع . ثم سعى ابن ابى دواد فاطلقه وكانت وفاته فى بغداد سنة ٢٢٥ وقيل ٢٢٦ هـ (تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١٢ : ٤١٦ – ٤٢٣) . ومدحه كثير من الشعراء كابى تمام وبكر بن النطاح وعلى بن جبلة العكوك (راجع . سومر ٣ [١٩٤٧] ص ٧٦) . وفى سامراء بقايا جامع كبير من بناء المتوكل يعرف اليوم بجامع ابى دلف (م) .

(٢٤) جاء فى ياقوت (١ : ٤٢٠) فى مادة « الايغارين » تفسير لمعنى « الايغار » قال . « الايغار اسم لكل ما حمى نفسه من الضياع وغيرها ويمنع منه ... ولا يسمى الايغار ايغارا حتى يأمر السلطان بحمايته فلا تدخله العمال لمساحة خراج ولا مقاسمة غلة فيكون الايغار لعقبه من بعده على ممر السنين خلا الصدقات فانها خارجة عنها يحصيها المصدق ويأخذ الواجب عنها » . (م) .

ما قيل ، صخرة سوداء تشمخ مثل جبل بيستون . وتشق سفوحه وديان صغيرة ومحيطه عشرة فراسخ اما موضع البرج وهي مدينة الايغارين الثانية فلم يُتوصل الى تعيينها ولكن موضعها معروف بوجه التقريب فقد قال ابن حوقل انها مدينة حسنة الحال في الطريق الذاهب الى اصبهان على اثنى عشر فرسخا من الكرج[٢٥].

وأسفل منها بانحدار نهر الكرج وفي شمال كرج أبي دلف، مدينة ساروق في رستاق فراهان وقد أشار اليها ياقوت والمستوفي وعدّاها من أعمال همذان . ودولة آباد ، وهي ما زالت قائمة في تلك الانحاء ، ذكرت في جملة المواضع الجليلة ، وكان بالقرب منها ملاّحة وهي بحيرة تكون اربعة فراسخ في مثلها فاذا كانت ايام الصيف وجفت البحيرة صارت ملحا جيدا يأخذه الناس ويحملونه الى البلدان فيباع . وقد سمي المنول هذه البحيرة ، على ما في المستوفي ، جغان ناوور ومعناها « البحيرة الملحة » وهي بلا ريب بحيرة تُوالة الحالية . وأخيرا فان في جنوب شرقي همذان ، في نحو نصف الطريق بين هذه المدينة ونهاوند ، بلدة رامن الصغيرة وقد ذكرها ياقوت في جملة مدن هذه الناحية الا ان غيره من المصنفين لم يتعرض لوصفها[٢٦] .

---

(٢٥) ابن حوقل ٢٥٨ و ٢٦٢ ؛ المقدسي ٣٩٤ ؛ ياقوت ١ : ٤٢٠ و ٥٤٨ ؛ ٣ : ٨٧٣ . ٤ : ٢٥٠ و ٢٧٠ ؛ المستوفي ١٥١ و ٢٠٤ .

(٢٦) ياقوت ٣ : ٨٧٦ و ٨٨٧ ؛ ٤ : ٦٨٣ [قلنا : هذه الاشارة خطأ فهي تعود الى بلدة باسم رامين من أعمال الموصل . اما رامن فقد وردت في ياقوت ٢ : ٧٣٧ (م)] ؛ المستوفي ١٥١ .

واجل مدن هذه الناحية اليوم المشهورة بصنع السجاد ، هي سلطان آباد وقد أسسها فتح على شاه في مطلع القرن التاسع عشر . وتعرف عادة باسم شهر ناو (المدينة الجديدة) . (١ . ه .)

قلنا : لم نجد وصف ياقوت ٢ . ٧٣٧ لبلدة رامن ذكر بعدها عن همذان وبروجرد وما بينهما . ولكن ابن حوقل قد سبق ياقوت الى مثل هذا القول ووصفها بانها « مدينة صالحة الحال » . (م) .

الفصل الرابع عشر

الجبال «تابع»

اللر الصغرى — بروجرد — خرماباذ — شابرخواست — سيروان والصيمرة — اصفهان وكورها — فيروزان وفارفان ونهر زلده رود — اردستان — قاشان — قم وكليبكان ونهر قم — آوه وساوه — نهر كاوماها .

في جنوب همذان ، لورستان (لُرستان) أي بلاد اللر ، واللر جبل من الاكراد . وانهار هذه البلاد الجبلية تقسمها الى قسمين : اللر الكبرى في الجنوب واللر الصغرى في الشمال ، ويفصل بين اللر الصغرى واللر الكبرى نهر كارون الاعلى . وقد آثرنا بسط القول في مدن اللر الكبرى في فصلنا عن خوزستان ، وان عدّ بعض المؤلفين كورة اللر الكبرى جزءا من عراق العجم أيضا .

وكانت أهم مدن اللر الصغرى ، حسبما جاءت في المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) : بروجرد وخرّماباد وشابورخواست . وقد وصف ابن حوقل في المئة الرابعة (العاشرة) بروجرد فقال هي مدينة حسنة طولها أكثر من عرضها وطولها نحو نصف فرسخ . وفواكه الكرج منها ، وبها زعفران كثير . واستحدث حمويه[1] فيها منبرا . وكان حمويه وزير آل ابي دلف وقد مرّ ذكرهم . وحين

---

(۱) هكذا ضبط ابن حوقل هذا الاسم . اما المؤلف فقد ذكره بصورة « حمولة » . (م) .

كتب المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كان فيها جامعان : عتيق ومحدث . اما المدينة فكان الخراب قد استولى عليها في ايامه حسب قوله . وأشار اليها علي اليزدي غير مرة في سياق وصفه حروب تيمور ، الا انه سماها وروجرد حيثما ذكرها وقال ان القلعة المسماة أرمبان قد جددت بأمر تيمور[٢].

وخرّماباذ وقد كانت منذ ايام تيمور اجل موضع في اللر الصغرى بعد بروجرد ، لم يذكرها أحد من بلدانيي العرب في القرون الوسطى بهذا الاسم . ولعل خرّماباذ هي مدينة شابر خواست على رأي بعضهم ، فقد كثر ذكرها قبل ذلك . على ان ما يثبت خطل هذا الرأي ذكر المستوفي لهما كلا على انفراد ، هذا الى كونه أشار الى موضع شابور خواست . وكانت خرماباذ حين كتب المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) مدينة حسنة وان دبّ الخراب في بعضها . وكان يكثر فيها النخيل . وقال ان هذه المدينة هي الموضع الوحيد الذي ينمو فيه النخيل في بلاد الجبال ما خلا الصيمرة . على ان هذا القول لا يمكن الاخذ به على علاته .

أما شابور خواست وقد كتبها البلدانيون العرب بصورة سابور خواست فقد اشتهرت بتمورها أيضا منذ أيام ابن حوقل . وفي المئة الرابعة (العاشرة) خضعت سابور خواست وبروجرد ونهاوند لحسنويه الزعيم الكردي الذي أقام دولته في الدينور (أنظر الصفحة ٢٢٤ أعلاه) . وفي دزبز ، قلعة سابور خواست وهي تضاهي سرماج مناعة ، خبأ بدر بن حسنويه أمواله التي وقعت في سنة ٤١٤ (١٠٢٣) بأيدي البويهيين . وفي المئة الخامسة (الحادية عشرة) ورد ذكر سابور خواست غير مرة في أخبار السلاجقة . وفي سنة ٤٩٩ (١١٠٦) استولى عليها الاتابك منكوبرس كما استولى على نهاوند وليشتر (اليشتر) . وحين كتب المستوفي تاريخ گزيدة في النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كان في اللر الصغرى في أيامه مدن آهلة هي : بروجرد وخرماباذ وشابور خواست (على ما كتبها بالفارسية) وذكر ان هذه الاخيرة وان كانت في ما مضى مدينة عظيمة آهلة

---

(٢) ابن حوقل ٢٥٨ و ٢٦٢ ؛ ياقوت ١ : ٥٩٦ ؛ ٢ : ٧٣٧ ؛ المستوفي ١٥١ ؛ علي اليزدي ١ . ٥٨٧ ؛ ٢ : ٥١٥ .

فيها اخلاط من الشعوب وعاصمة المملكة ، فان شأنها قد تضاءل وتحولت الى مدينة اقليم ليس الا . وقال ان موضعها مما يلي بروجرد في الجنوب . « فالطريق من نهاوند الى اصفهان يتشعب يمينا الى شابور خواست » ويسارا (أي الى الشرق) يبقى الطريق الاصلي على اتجاهه الى كرج ابي دلف . وهذا يتفق وما أورده ابن حوقل والمقدسي ، فقد قال الاول ان من نهاوند الى لاشتر عشرة فراسخ (جنوبا) ومن لاشتر الى الشابرخاست اثنا عشر فرسخا . ومن الشابر خاست الى اللور (الكبرى) ثلاثون فرسخا ـ أي الى المفاوز التي في شمال دزفل ، على ما سيأتي بيانه في الفصل السادس عشر . وزاد المقدسي على ذلك ان من سابور خواست الى كرج ابي دلف أربع مراحل على مثل ما كان من سابور خواست الى اللر[٣] .

وفي غرب اللر الصغرى على حد العراق الغربي : كورتا ماسبذان ومهرجان قَذَق . واهم مدنهما : السيروان والصيمرة . وما زالت ترى اطلال هاتين المدينتين . وماسبذان اسم يطلق الآن على البقعة التي في جنوب سهل ماي دشت . وكانت سيروان (أو السيروان) على ما في ابن حوقل « مدينة صغيرة غير ان الغالب على بنائها الجص والحجر كمدينة الموصل في أبنيتها . وفيها الثمر الكثير والجوز والدستنبويه[٤] وما يكون في بلاد الصرود والجروم »[٥] . وكان فيها أيضا النخيل على ما قلنا . وأشار القزويني الى ما في كورة ماسبذان من الكباريت والزاجات والبوارق (جمع البورق) والاملاح . وعلى نحو خمسين ميلا من شرقها : الصيمرة وهي كالسيروان وبقيت زمنا مدينة آهلة بعد زوال المدينة الاخيرة وكانت اصلح موضعا منها . واشتهرت كورة مهرجان قذق ، وهي التي تحيط بالصيمرة ،

---

(٣) ابن حوقل ٢٠٩ و ٢٦٤ ؛ المقدسي ٤٠١ ؛ ياقوت ٢ : ٥٧٢ ؛ ٣ : ٤ و ٨٢ و ٢٢٥ ؛ ابن الاثير ٩ : ١٧٤ ؛ ١٠ : ٢٧٤ ؛ المستوفي ١٥١ و ١٩٥ ؛ تاريخ كزيده لناشره كانتان Gantin ١ : ٦٢٢ وفي الورقة ١٥٩ ب من مخطوطته نبذة عن اللر الصغرى في نهاية القسم الحادي عشر من الفصل الرابع - وهي تتقدم القسم الذي يبحث في المغول .

ووردت كتابة الاسم بصور مختلفة . سابور خواست وشابر خاست وشابور خواست ولا يعرف موضع خرائبها .

(٤) في الالفاظ الفارسيه المعربة لأدي شير (ص ٦٣) : الدستنبويه نوع البطيخ الاصفر معرب عن دستنبوى اي الشمامة وهو مركب من « دست » اي يد ومن « بوى » أي الرائحة . وفي مجلة الزراعة العراقية (٧ [١٩٥٢] ص ٤٥٠) مقال للدكتور مصطفى جواد ذكر فيه نصوصا يدل ظاهرها على ان الدستنبوية هو الليمون المعروف بالمسكي عند العراقيين . (م) .

(٥) في المعاجم : الصرود الاراضي الباردة وهي خلاف الجروم أي الاراضي الحارة . (م) .

بكثرة خيراتها فى المئة الرابعة (العاشرة) . وأشار المقدسى الى انها كبيرة عامرة . ووصف ياقوت الصيمرة فقال « بها نخل وزيتون وجوز وثلج » . وفى الطريق بين الصيمرة والطَّرْحان وهى ضيعة مجاورة لها «قنطرة عجيبة بديعة تكون ضعف قنطرة خانقين » وهى بين حلوان وخانقين . وحين كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت الصيمرة مدينة حسنة وان أخذ الخراب يدب فيها . وكانت نواحيها مشهورة بنخيلها[٦] .

وفى الطرف الجنوبى الشرقى من اقليم الجبال ، ليس ببعيد عن شفير المفازة الكبرى ، مدينة اصفهان (وكتب العرب هذا الاسم « اصبهان » والفرس « اسپاهان ») وكانت منذ اقدم الازمنة موضعا جليل القدر لعظم خيرات اراضيها ووفرة مياهها الآتية من زاينده رود[٧] . وتقوم اليوم اصفهان وارباضها على ضفاف هذا النهر اما فى القرون الوسطى فكانت احياؤها الآهلة على ضفة زاينده رود الشمالية أى اليسرى فقط . وقد كان فى هذا الموضع مدينتان متقاربتان هما : فى الشرق جى ويقال لها أيضا شهرستانه[٨] يحف بها سور ذو مئة برج ، وعلى ميلين من جنوبها : اليهودية وهى ضعف جى . وقد نسبت هذه المدينة على ما اجمعت عليه الروايات الى اليهود الذين اسكنهم بوخذ نصر فيها .

ووصف ابن رسته فى ختام المئة الثالثة (التاسعة) مدينة جى فقال طولها نصف فرسخ وسعتها نحو ٢٠٠٠ جريب (أى نحو ٦٠٠ أكر) . ولها أربعة أبواب : الاول باب خور ويقال له أيضا باب زرين روذ وهو الاسم القديم للنهر . والثانى باب اسفيج والثالث باب طيرة والرابع باب اليهودية . وذكر ابن رسته عدد أبراج السور بين باب وباب وأورد المسافات بينها بالذراع . وبمدينة جى بناء عتيق يقال له الساروق على مثال الحصون . وهذا الاسم يشبه اسم قلعة همذان على ما قد بينّا . وقال ابن رسته : « لا يعرف بانيه لقدمه فقد بنى قبل الطوفان » . ووصف ابن حوقل والمقدسى فى المئة التالية جى واليهودية فقالا : فى كل واحدة

---

(٦) ابن حوقل ٢٦٣ و ٢٦٤ ؛ المقدسى ٣٩٤ ؛ اليعقوبى ٢٦٩ ؛ القزوينى ٢ : ١٧٢ ؛ ياقوت ٣ : ٤٤٣ و ٥٢٥ ؛ المستوفى ١٥١ .

(٧) سيذكر المؤلف هذا النهر بصورة : زندرود فى أوائل الفصل السادس عشر (م) .

(٨) تعنى شهرستان او شهرستانه بالفارسية : المدينة وهى تطلق على العاصمة من المدن . (م) .

منهما منبر واليهودية وحدها تضارع همذان سعة بل هى أكبر مدينة فى اقليم الجبال • وقد تستثنى الرى من ذلك • وكانت اصفهان مركزا تجاريا فى اقليم الجبال « يرتفع منها العتابى وسائر ثياب القطن ويجود • تجلب منها الى سائر النواحى • وبها زعفران وفواكه وهى أخصب مدن الجبال واوسعها عرصة وأكثرها ماء وتجارة » • وعلى ما فى المقدسى « يقال ان بختنصر لما جلى بنى اسرائيل من الارض المقدسة لم يروا بلدا تشاكله ارضهم غيرها فسكنوها » • وقال ان للمدينة اثنى عشر دربا • وبناؤهم طين وأسواقها بعض مغطاة وبعض مكشوفة • والجامع فى الاسواق حسن على اساطين مدورة وله منارة فى قبلته طول سبعين ذراعا • وكانت مدينة جى المجاورة لليهودية على ميلين من شرقيها • ويقال لها المدينة على ما فى المقدسى وهى ترادف لفظة شهرستانة • وكان على النهر أسفل قلعتها القديمة جسر سفن فى المئة الرابعة (العاشرة) •

وفى سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) زار الرحالة الفارسى ناصر خسرو اصفهان وقال انها أكبر مدينة رآها فى جميع البلاد الناطقة بالفارسية • وكان فيها مئتا صراف وخمسون رباطا ويقال ان طول سورها ثلاثة فراسخ ونصف وله شرفات ومراق يصعد بها الى أعلاه • وكان مسجدها الجامع بناء فخماء وسوق الصرافين مما تحسن رؤيته • ولكل سوق من أسواقها الكثيرة باب يغلق عليها • وحين كتب ياقوت فى مطلع المئة السابعة (الثالثة عشرة) كان الخراب قد دب فى اليهودية وجى وبقيت ثانيتهما أكثر سكانا • ونكلم أيضا على جامع جى الذى بناه الخليفة الراشد بالله ابو جعفر المنصور الذى خلعه عمه[9] محمد المقتفى فى سنة ٥٣٠ (١١٣٦) ثم انه قتل فى حرب بينهما[10] ودفن فى ظاهر باب الصحن الا ان اليهودية استعادت شيئا من منزلتها السابقة بعد الفتح المغولى • وحين كتب أبو الفداء فى سنة ٧٢١ (١٣٢١) كانت اليهودية عامرة بينها وبين شهرستان ميل من شرقيها تقوم على قسم من موضع جى القديمة •

---

(٩) الذى فى التواريخ ، وهو القول المقبول ، ان جماعة من القضاة خلعوه بتحريض السلطان مسعود السلجوقى (الدكتور مصطفى جواد) •

(١٠) ذكر المؤرخون ، ان الباطنية اغتالوه فقتلوه ولم تكن حرب بينه وبين عمه قط (الدكتور مصطفى جواد) •

وسرد معاصره المستوفى حديثا طويلا عن اصفهان وكورها ذاكرا اسماء كثير من مواضعها التى ما زالت موجودة • ويثبت وصفه لها ان يهودية القرون الوسطى هى مدينة اصفهان التى وصفها شاردان Chardin فى ختام القرن السابع عشر حين اضحت عاصمة بلاد فارس فى عهد الشاه عباس • وما زالت معالم مجدها التالد ظاهرة للعيان اليوم • وعلى ما فى المستوفى كان طول أسوار المدينة ٢١٠٠٠ خطوة • ويرقى زمنها الى المئة الرابعة (العاشرة) اذ بناها عضد الدولة البويهى • وكان فى بقعة اصفهان قبلا اربعة قرى اتسبت اليها محال المدينـة وهى كـران (وذكر شاردان ان باب كران كان فى جبهتها الشرقية) وكوشك وجوبارة (وكانت هى المحلة الشرقية حين كتب شاردان • وكان باب جوبارة فى الشمال الشرقى) ودردشت (والباب الذى بهذا الاسم فى الشمال • ومحلة دردشت فى الشمال الغربى) • وعلى ما ذكر المستوفى ان أكثر المحلات سكانا فى أيام السلاجقة كانت المحلة التى يقال لها جلبارة (وهى محلة كلبار عند شاردان وكانت حول ميدان كهنه الحالى « أى الميدان القديم ») حيث كانت مدرسة السلطان محمد السلجوقى وقبره • وفيها قطعة حجر تزن عشرة آلاف منّ (ولعل ذلك يعادل ما يقرب من ٣٢ طنا) وهى صنم (بُد) عظيم حمله السلطان من الهند ونصبه أمام باب المدرسة[١١] •

ولما استولى تيمور على اصفهان فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ورد اسم القلعة التى فتحها بصورة قلعة طبرك (وهى تعنى الرابية بالفارسـية) • وقد وصـف شاردان اطلال هذه القلعة وهى ما زالت شاخصة بانها فى ظاهر باب دردشت والى ذلك فقد علمنا ان ملكشاه السلجوقى أقام قلعة حصينة أخرى – شاه دز « القلعة الملكية » – فوق قمة جبل عند اصفهان فى سنة ٥٠٠ (١١٠٧) • واورد القزوينى حكاية طويلة تدور على الاحوال التى لابست تأسيسها • وفى مطلع المئة العاشرة (السادسة عشرة) خضعت فارس للشاه اسماعيل الصفوى وفى

---

(١١) على ان التاريخ لم يدون ان السلطان محمدا – وقد حكم من سنة ٤٩٨ الى ٥١١ (١١٠٤ – ١١١٧) وهو ابن ملكشاه – قد قام بفتوحاته فى الهند ولعل الاسم اشبه على المستوفى فذكره وهو يريد به محمودا الغزنوى • (م) •

ختامها نقل الشاه عباس الكبير قاعدة ملكه من اردبيل الى اصفهان • ونقل ايضا جميع الارمن من جلفا ، وهي على نهر ارس ، واسكنهم في حي جديد بالمدينة انشأه على ضفة نهر زاينده رود الجنوبية أي اليمنى • واضاف الشاه عباس أيضا الى اصفهان احياء وارباضا جديدة في شمال النهر • وقد وصف ذلك كله شاردان وصفا وافيا فقد عاش في اصفهان سنين كثيرة في خلال النصف الاخير من القرن السابع عشر للميلاد[١٢] •

والنواحي الثمان حول اصفهان ، وقد عني المستوفي بذكر اسمائها واسماء قراها ، ما زالت موجودة • ووردت هذه الاسماء نفسها في اليعقوبي وفي غيره من مصنفي المئتين الثالثة والرابعة (التاسعة والعاشرة) • وكان اربع من هذه النواحي في شمال النهر • اما الاربع الاخرى ففي يمينه في الجنوب • فاذا ابتدأنا من الضفة الشمالية رأينا ناحية المدينة ، وكان يقال لها جي ، وهو اسم المدينة العتيقة التي هي شرقيها • وكانت ناحية ماربين في غرب اصفهان وفيها بيت نار قديم بناه الملك الاسطوري طهمورث الملقب بـ « ديوبند » أي « مكتّف الشياطين » • والى الشمال الغربي على شيء يسير من أبواب المدينة ناحية برخوار • وكانت جَزّ (كَز الحديثة) أوسع قراها • والى الشمال الشرقي ناحية قهاب وهي رابعة النواحي التي في شمال النهر • وفي جنوب زاينده رود ، والى جنوب شرقي مدينة شهرستانه القديمة ، ناحية بَرْآن • ويليها في منحدر النهر ناحية رودشت • وقصبتها فارفان وكانت مدينة واسعة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ولكنها الآن قرية قرب سبخة گاوخاني الكبيرة • وكانت ناحية كرارج في جنوب برآن • والى غربها في أعلى الضفة اليمنى لنهر زاينده رود ، ناحية خان لنجان الكبيرة وهي آخر النواحي الاربع التي في جنوب النهر • وكانت أهم مدينة فيها فيروزان • ولم

---

(١٢) ابن رسته ١٦٠ و ١٦٢ ؛ ابن حوقل ١٦١ ؛ المقدسي ٣٨٦ و ٣٨٧ و ٣٨٨ و ٣٨٩ ؛ ناصر خسرو ٩٣ ؛ ياقوت ١ : ٢٩٥ ؛ ٢ . ١٨١ ؛ ٣ : ٢٤٦ ؛ ٤ : ٤٥٢ و ١٠٤٥ ابو الفداء ٤١١ • المستوفي ١٤٢ ؛ علي اليزدي ١ • ٤٣١ ؛ القزويني ٢ : ٢٦٥ • وبملا وصف اصفهان المجلد الثامن (انظر بوجه خاص ص ١٢٢ و ١٢٦ و ١٤٧ و ١٥٣ و ٢١٢ و ٢٢٧ و ٢٢٩ ففيها نبذ خاصة بها) من رحلات الشفاليه شاردان في فارس Voyage du Chevalier Chardin en Perse (امستردام ١٧١١) انظر عن اصفهان الحالية هتم شندلر Houtum-Schindler في كتابه العراق العجمي الشرقي Eastern Persian Iraq (١٨٩٧ ص ١٨ و ١٩ و ١٢٠ و ١٢٢) •

تبق معالم ما لبقايا هذه المدينة على ما يظهر مع انها كانت مدينة كبيرة ذات جانبين في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وبين يديها نهر زابنده رود • قال ابن بطوطة ، وقد مرّ بها ، انها تبعد ستة فراسخ من اصفهان • وفي المئة الرابعة (العاشرة) كانت ناحية خان لنجان مشهورة بفواكهها الوافرة وبخصوبة ارضها • ويكتب اسمها غالبا خالنجان أو خولنجان كما عرفت باسم خان الابرار • واسم خان لنجان اذا أريد به المدينة فانها تنطبق ولا ريب على فيروزان المارة الذكر وهي التي تذكر كتب المسالك انها أول مرحلة باتجاه الجنوب في الطريق الغربي من اصفهان الى شيراز • وفي المئة الخامسة (الحادية عشرة) مرّ ناصر خسرو بخان لنجان في طريقه الى اصفهان ورأى على باب المدينة كتابة فيها اسم طغرل بك السلجوقي[١٣] •

ونهر اصفهان يعرف اليوم بنهر زندرود وسماه مصنفونا على اختلافهم باسم زابنده رود أو زرنروذ • ويطلق اسم زرين رود اليوم على أحد فروع هذا النهر • وكان المجرى الاصلي يسمى في أعاليه جوي سرد (النهر البارد) ومخرجه في زرده كوه (الجبل الاصفر) وما زال هذا الجبل يعرف بهذا الاسم لأن صخوره من الحجر الكلسي الاصفر ، وهو على ثلاثين فرسخا غرب اصفهان ولا يبعد كثيرا من منابع نهر دجيل أو كارون في خوزستان • وفي تلك الانحاء أيضا ، على ما في المستوفي ، جبل اشكهران وهو الذي يعيّن حد اللر الكبرى • وفي أسفل مدينة فيروزان في خان لنجان يستقبل نهر زنده رود رافدا يضارع المجرى الاصلي سعة يتحدر من جوار كلپيكان (جرباذقان) وبعد ان يمر باصفهان ويسقي نواحيها الثمان ينحرف زنده رود شيئا يسيرا الى شرق رودشت ويغور أخيرا في كاوخاني على شفير المفازة الكبرى • ويقال ، على ما ذكر ابن خرداذبه في المئة الثالثة (التاسعة) ، ان هذا النهر « يغور في رمل في آخرها ثم يخرج بكرمان

---

(١٣) ابن خرداذبه ٢٠ و ٥٨ ؛ ابن رسته ١٥٢ ؛ قدامة ١٩٧ ؛ ابن حوقل ٢٠١ ؛ اليعقوبي ٢٧٥ ؛ المقدسي ٣٨٩ و ٤٥٨ • ياقوت ١ : ٢٩٤ ؛ ٢ : ٣٩٤ ؛ ٣ : ٨٣٩ • المستوفي ١٤٣ وأكثر ما فيه عنها اقتبسه صاحب جهان نما : ٢٩١ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٤٢ ؛ ناصر خسرو ٩٢ • وتشتهر خان لنجان أيضا بانها الموضع الذي التجأ اليه الفردوسي حين فر من غضب السلطان محمود الغزنوي • وورد وصف استقبال والي خان لنجان له في نسخة من الشاهنامة مخطوطة في المتحف البريطاني (Or. 1403, Fol. 518 a) وقد نشر نصه وترجمته مسيو شفر C. Schéfer في طبعته لناصر خسرو (الملحق ٤ ص ٢٩٨) •

على ستين فرسخا[١٤] من الموضع الذى غار فيه ثم يصب فى البحر » • ولكن المستوفى لا يؤيد هذا القول بطبيعة الحال لأن بين اصفهان وكرمان جبالا عالية وان روى هو الزعم القائل ان كسر القصب التى ترمى فى سبخة كاوخانى تخرج فى كرمان وعقب ذلك « ولكن هذه الحكاية لا تصدق »[١٥] •

وكانت نائين ، وهى فى شمال كاوخانى عند حافة المفازة الكبرى وكذلك المدن التى فى جنوب شرقيها باتجاه يزد ، تعد من أعمال اقليم فارس فى القرون الوسطى على ما سنبينه فى الفصل الثامن عشر • الا ان اردستان وهى على بضعة أميال شمال غربى نائين كانت من أعمال اقليم الجبال • وقد وصف الاصطخرى اردستان فى المئة الرابعة (العاشرة) بانها مدينة حصينة عليها سور ذو خمسة أبواب • وهى ميل فى مثله ، والمسجد الجامع فى وسط المدينة • وكان يعمل فيها ثياب الحرير وتحمل الى الآفاق • وفى زوارة وهى فى شمال شرقى اردستان أبنية من بناء الملك انوشروان العادل • وذكر المقدسى ان اردستان « أرض على بياض الدقيق ومنه اشتُق اسمها » فبالفارسية ، ارد : الدقيق • فمعنى اردستان موضع كالدقيق • والاطلال التى أشار اليها ياقوت باسم أزوارة ، قال ان « بناءها آزاج ، وفى وسط حصن منها بيت نار » يقال ان انو شروان ولد فيه • غير ان المستوفى وقد كتب الاسم بصورة زوارة نسب كل هذه الاطلال بما فيها بيت النار الى الملك بهمن بن اسفنديار • وقال ان المدينة التى تقوم فى حافة المفازة كان حولها ٣٠ قرية وذكر أنها من بناء دستان أخى البطل رستم على ما يقال •

وعلى شفير المفازة بين اردستان وقاشان كركس كوه « جبل النسر » • وصفه المقدسى بانه أعلى جبال مفازة فارس وامنعها ويليه سياه كوه « الجبل الاسود » وهو دونه فى الكبر غير انه منيع • وهذان الجبلان عاليان وعرا المسلك الى ذراهما • وجبل سياه كوه « جبل أسود قبيح المنظر والمخبر » وكلا الجبلين ، على ما قال الاصطخرى ، مأوى للصوص يعتصمون به • وفى هذا الجبل ماء يسمى آب بنده « اذا صرت عنده كنت كأنك فى حظيرة والجبل محيط بك » • وفى نحو

---

(١٤) وهم المؤلف فى نقله هذا الرقم فقال تسعين فرسخا • (م) •

(١٥) ابن رسته ١٥٢ ؛ ابن خرداذبه ٢٠ و ١٧٦ ؛ المستوفى ٢٠١ و ٢٠٢ و ٢١٤ •

نصف الطريق في المفازة بين كركس كوه وسياه كوه ، رباط حصين يقال له دير الجص من جص وآجر ، عليه أبواب حديد . وهذا الرباط على ما ذكر الاصطخرى يسكنه بذرقة السلطان(١٦) وفيه حياض الماء يجتمع فيها ماء المطر . وقال المقدسى انه رآه شعثا وعلى باب الرباط بقال مقيم . ووصف المستوفى كركس كوه بانه جبل منقطع عن الجبال ومحيطه نحو عشرة فراسخ(١٧) . وكانت النسور تعشش في صخور ذراه . وتكثر فيه الوعول التى تحتمل العطش اياما طويلة . والى غرب اردستان مدينة نطنز أو نطنزة ولم يذكرها احد من بلدانيي العرب قبل ياقوت(١٨) . وروى المستوفى ان قلعتها كانت تسمى وشاق نسبة الى وال كان على نطنز . وقد عرفت هذه القلعة قديما باسم كَسْمَرْت . وفي جوار نطنز أيضا قرية كبيرة يقال لها طَرْق ، هى « شبه بلدة » على قول ياقوت . ولأهلها على ما ذكر القزوينى « يد باسطة في الآلات المستظرفة من العاج والآبنوس يحمل منها الى سائر البلاد »(١٩).

وقد وصف الاصطخرى مدينة قاشان بانها « مدينة صغيرة ، بناؤها وبناء قم الغالب عليه الطين » . وكتب بلدانيو العرب القدماء اسمها بصورة قاشان لا كاشان . واشتهرت قاشان في ديار الشرق بقرميدها الذى يقال لـه القاشى (والقاشانى) واصبحت هذه التسمية تطلق على القرميد الازرق والاخضر المتخذ في تزويق المساجد حتى يومنا هذا . وعلى ما في المقدسى كان بقاشان « عقارب عجيبة » وقد أشار ياقوت الى « ما يجلب منها من الغضائر القاشانى » وقال ان « أهلها كلهم شيعة امامية » . وذهب المستوفى الى ان اول من بنى قاشان زبيدة زوجة هرون الرشيد ، ونوه بقصر فين وهو بقرب قاشان وقال فيه حياض وكهاريز

---

(١٦) البذرقة بالدال المهملة وقد تعجم : الخفارة . يقال بعث السلطان بذرقة مع القافلة أى من يخفرها . وهى فارسية معربة . (م) .

(١٧) في الاصطخرى (ص ٢٢٨) وابن حوقل (ص ٤٠٢) ان دورد (بفتح الدال) اسفله نحو فرسخين . (م) .

(١٨) بل سبقه ابو سعد السمعانى الى ذكر هذه البلدة (انظر الانساب ، وجه الورقة ٥٦٤) (م) .

(١٩) الاصطخرى ٢٠٢ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٣١ ؛ ابن حوقل ٢٨٨ - ٢٩١ ؛ المقدسى ٣٩٠ و ٤٩٠ و ٤٩١ ؛ ياقوت ١ : ١٩٨ ؛ ٣ : ٥٣١ ؛ ٤ : ٧٩٣ ؛ [القزوينى ٢ : ٢٧٣ (م)] . المستوفى ١٥٠ و ١٥١ و ٢٠٦ ؛ جهان نما ٢٩٩ .

تستمد الماء من نهر يأتي من قهرود . وكان نهر قاشان يجف صيفا قبل ان يصل ظاهر المدينة ، اما في الربيع فغالبا ما يطغى فيضانه على المدينة . وبعد ان يجتازها كان يفنى في المفازة المجاورة لها .

ومدينة قم ، وهي الى شمال قاشان ، مشهورة الآن عند الشيعة بمشهدها ، وهو مشهد فاطمة أخت علي الرضا الامام السادس ، وقد عاش في أيام هرون الرشيد . والمعروف انها توفيت مسمومة في طريقها الى اخيها في خراسان . وصف ابن حوقل مدينة قم في المئة الرابعة (العاشرة) فقال ان جميع أهلها شيعة ، وكانت حينذاك مدينة عليها سور ، خصبة وبها بساتين وأشجار فستق وبندق . وكان اسم قم القديم على ما في ياقوت : "كُمُندان" فاسقط العرب بعض حروفها فسميت بتعريبهم قما » . وقال أيضا[٢٠] « داخل المدينة حصن قديم للعجم ، ما زال يرى . » ولها واد يجري فيه الماء بين المدينتين (أي بين الحصن القديم والمدينة الاسلامية) عليه قناطر معقودة بحجارة » . وذكر المستوفي ان دائر أسوار قم كان عشرة آلاف خطوة ، وقد اشتهرت قم اشتهار آوه بكثرة مخابيء الثلج التي تحفر في الارض . ويكثر فيها السرو وتُعصر الخمر من عنبها الاحمر الفاخر . وحين كتب المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كان الخراب قد دبّ في معظم مدينة قم . ومما يحسن ذكره انه لا المستوفي ولا غيره من المصنفين القدماء لمح الى قبر فاطمة وان كانت المدينة معروفة بانها مركز للشيعة[٢١] .

ومخرج نهر قم في ناحية كلبيكان قرب جبل خانسار على ما جاء هذا الاسم في المستوفي . وهذا الجبل يرتفع بين نهر قم والرافد الايسر لنهر اصفهان المار الذكر . وجرباذقان هو الاسم العربي لكلبيكان . وصورة الاسم القديمة كانت كرپائيكان وقد فسره المستوفي بـ « موضع الورود » وكتب اسمه بصورة كلبادكان . ونوه بخصب ناحية كلبيكان ، وذكر ان من أعمالها خمسين قرية . وأشار المقدسي الى جرباذقان فقال هي في نصف الطريق بين كرج ابي دلف

---

(٢٠) لم يرد هذا القول في ياقوت ، وقد وجدناه في البلدان لليعقوبي (ص ٢٧٣) (م) .

(٢١) [اليعقوبي ٢٧٣ (م)] ؛ الاصطخري ٢٠١ ؛ ابن حوقل ٢٦٤ ؛ المقدسي ٣٩٠ ؛ ياقوت ٤ . ١٥ و ١٧٥ ؛ المستوفي ١٥٠ و ٢١٧ ؛ جهان نما ٣٠٥ .

واصفهان وان قرية خانسار ، وقد عرفت الناحية باسمها ، كانت مجاورة لها على ما فى ياقوت • وكانت مدينة دَليجان اسفل منها على نهر قم • وذكرها ياقوت بصورة دُلَيجان أو دُليكان • وقد كانت فى ما مضى عامرة الا انها آلت الى الخراب حين كتب المستوفى • وبعد ان يجتاز نهر قم مدينة قم ، يلتقى بالنهر الكبير الآتى من همذان وهو نهر كاوماها أو كاوماسا • ويستقبل فى يمينه على بعد قليل فوق قم نهر آوه وفى يساره النهر المار بساوه وهذه الانهار بشعب كلها الى جداول كثيرة بوصل فيما بينها سواق ثم تفنى أخيرا فى المفازة الكبرى شمال شرقى قم •

ومدينة آوه (وتسمى آوه ساوه تمييزا لها عن آوه القريبة من همذان • أنظر ص ٢٣١) على شيء يسير غرب قم • وينبع نهر آوه فى تَفْرِش وهى ، على وصف المستوفى لها ، ولاية لا يكون الوصول الى أى طرف منها الا بدروب • وهى وافرة الخيرات كثيرة الضياع • وقد ذكرها المقدسى باسم آوه الرى • اما ياقوت فقال انها قرية أو بليدة • وكتب اسمها بصورة آبه وقال ان اهلها شيعة • وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وصف المستوفى آوه وقال عليها سور محيطه الف خطوة وفيها مخابيء محفورة لاختزان الثلج لان الحاجة تمس الى الثلج فى اشتداد القيظ • وخبزها رديء • وذكر ان بين آوه وقم جبل منقطع يقال لـه كوه نَمَك (جبل الملح) لان تربته يخالطها الملح • وبلوغ قمة هذا الجبل ممتنع لان ارضه هشة ولا يستقيم الثلج على سفوحه • وملحه لا يستعمله الناس لشدة مرارته • ودَور هذا الجبل ثلاثة فراسخ وهو شاهق جدا فيرى من عشرة فراسخ[٢٢] •

ومدينة ساوه فى منتصف المسافة بين همذان والرى على طريق القوافل التى تقطع بلاد فارس (أى طريق خراسان) • وكانت ذات شأن فى المئة الرابعة (العاشرة) • وصفها ابن حوقل بانها « كثيرة الجمال وأكثر الحجاج يحجون على جمالهم لانهم مع قنيتهم الجمال جمّالون » • وقال المقدسى ان المدينة « عليها حصن وبها حمامات ظريفة والجامع بعيد عن السوق وهى على الجادة » • وذكر

(٢٢) الاصطخرى ١٩٥ و ١٩٨ ؛ المقدسى ٢٥ و ٥١ و ٢٥٧ و ٣٨٦ و ٤٠٢ ؛ ياقوت ١ : ٥٧ ؛ ٢ : ٤٦ و ٣٩٢ و ٥٨٤ ؛ المستوفى ١٤٧ و ١٥٠ و ٢٠٦ و ٢١٦ •

باسم قراصو (الماء الاسود) . ومنابعه على ما مرّ بيانه في مفازة همذان حيث تنحدر جداول متشعبة من اسداباد وجبل الوند وكورة فريوار فيجرى أولا الى ناحية الشمال ثم ينعطف انعطافا حادا الى الشرق فيستقبل من الجنوب رافدا عظيما هو النهر الذى ينبع بالقرب من كرج ابى دلف ويستقبل مما يلى ساوه وآوه رافدين آخرين قد مرّ ذكرهما . وأنشىء فى هذا النهر سد عظيم يختزن الماء للسقى فى موسم الصيهود . ويختلط مجرى كاوماها بنهر قم الآتى من كلبيكان . وذكر المستوفى ان مياه هذين النهرين الفائضة بعد ان تجتاز موضعا يقال له هفتاد بولان أى « القناطر الثمانين » يفنى ما يتبقى منها فى المفازة الكبرى . وقال المستوفى ان مثل نهر كاوماها فى ناحيته مثل نهر زنده رود فى اصفهان . فقد كان كلاهما مصدر الخير والبركة لهاتين المدينتين . ومما تحسن الاشارة اليه ان أحدا من البلدانيين العرب القدماء لم يذكر هذا النهر[٢٣] .

---

(٢٣) ابن حوقل ٢٥٨ ؛ المقدسى ٣٩٢ ؛ ياقوت ٣ : ٢٤٠ ؛ ٤ : ٥٢٠ ؛ القزوينى ٢ ٠ ٢٥٨ . المستوفى ١٤٨ و ١٤٩ و ١٥٢ و ٢١٧ .

بنى السد الذى فى كاوماها شمس الدين صاحب ديوان السلطان احمد بن هولاكو ثالث ايلخانيى بلاد فارس .

قلنا : هو شمس الدين محمد بن محمد الجوينى صاحب دواوين الدولة الايلخانية (م) .

الفصل الخامس عشر

الجبال «تتمة»

الرى ـ ورامين وطهران ـ قزوين وقلعة الموت ـ زنجان ـ السلطانية ـ شيز او ستوريق ـ خونج ـ ناحيتا الطالقان وطارم ـ قلعة شميران ـ تجارات اقليم الجبال وغلاته ـ مسالك اقليم الجبال واذربيجان واقاليم الحدود الشمالية الغربية •

فى الطرف الشمالى الشرقى من اقليم الجبال ، مدينة الري • وكتبها بلدانيو العرب مقترنة دائما بال التعريف • وهى مدينة ريجس Rhages عند اليونان • وقد كانت الري فى المئة الرابعة (العاشرة) على ما يظهر أكبر القصبات الاربع لاقليم الجبال • قال ابن حوقل « ليس بعد بغداد فى المشرق مدينة أعمر من الري الا ان نيسابور أكبر منها عرصة وافسح رقعة ، ومقدارها فرسخ ونصف فى مثله » • وكانت الرى فى أيام الخلافة العباسية يقال لها المحمدية ، وانما سميت بهذا الاسم لان محمدا ، وهو المهدى الخليفة العباسى ، نزلها فى خلافة ابيه المنصور وبنى أكثر مدينة الرى • وبها ولد ابنه هرون الرشيد • وصارت مدينة المحمدية هذه أكبر دار للضرب فى هذا الاقليم • وقد وجد اسمها هذا على كثير من النقود العباسية •

« وبناء الرى من طين ويستعمل فيها الآجر والجص » • وعلى ما فى ابن

حوقل كان للرى حصن حسن مشهور له خمسة أبواب : باب باطاق (فى الجنوب الغربى) ويخرج منه طريق بغداد ، وباب بليسان (فى الشمال الغربى) ويفضى الى قزوين ، وباب كوهك (فى الشمال الشرقى) ويفضى الى طبرستان ، وباب هشام (فى الشرق) ويخرج منه طريق خراسان ، وباب سين (فى الجنوب) ويفضى الى قم ، وكانت أسواق المدينة عند هذه الابواب وخارجها ، وأعظمها تجارة ربض ساربانان وروذه ، وبها معظم التجارات والخانات ، وهو شارع عريض مشتبك الابنية والعقارات والمساكن ، وفى المدينة على قول ابن حوقل : « نهران للشرب ، يسمى أحدهما سور قنى ويجرى على روذه ، والآخر الجيلانى يجرى على ساربانان » ، وذكر ياقوت أيضا نهر موسى الآتى من جبل الديلم ، فقد يكون هذا النهر هو الجيلانى أو نهر كيلان المار الذكر ، وأشار المقدسى الى بنائين جليلين فى الرى أحدهما دار البطيخ وهو اسم يطلق عادة على سوق الفاكهة ، والثانى دار الكتب بأسفل الروذه فى خان ، ولم تكن كثيرة الكتب على قول المقدسى ،

وفى المئة الرابعة (العاشرة) قال ابن حوقل والمقدسى ان الرى قد خرب أكثرها وتحولت تجارتها الى ارباض المدينة القديمة ، وكان يطل على المسجد الجامع الذى بناه الخليفة المهدى وفرغ من عمارته فى سنة ١٥٨ (٧٧٥) ، على ما روى ياقوت ، الحصن وهو على قلة جبل صعب المرتقى « فاذا صعدت الى تلك القلعة اطلعت على سطوح الرى كلها » على وصف ابن رسته ، اما ما رواه ياقوت عن الرى فغير واضح كثيرا الا انه اقتبس فى شطر مما روى وصفا خططا قديما للمدينة جاء فيه ان المدينة الداخلة فيها المسجد الجامع ودار الامارة وحولها خندق ، وأهل الرى يدعونها « المدينة » ، والمدينة الخارجة كان غالبها يعرف بالمحمدية وقد كانت فى أول أمرها ربضا محصنا ، وكان على قلة جبل يطل على المدينة التحتانية (الداخلة) وعلى ما نقله ياقوت كان هذا الحصن يعرف بالزبيدية (وقد ورد اسمه فى بعض المخطوطات بصورة الزيندي)[1] ، وقد كان المهدى

---

(١) قلنا : سمى ياقوت هذا الحصن بالزينبدى بتقديم النون على الباء (٢ : ٨٩٥) ، على اننا لم نعثر فى مادتى « الرى » و « الزبيدية » من معجم البلدان على ما يدل على ان الحصن كان يسمى بالزبيدية أيضا (م) .

تزله أيام مقامه بالرى • ثم جعل بعد ذلك سجنا ثم خرب وعمر فى سنة ٢٨٧ (٨٩١) •وكان فى الرى قلعة أخرى يقـال لها قلعة القَرْخان وعرفت أيضا بالجوسق • وفى المئة الرابعة (العاشرة) كره فخر الدولة البويهى القصر القديم القائم فوق قلة الجبل فابتنى له أبنية مشرفة على البساتين سماها فخر آباذ[٢] •

وأشهر رساتيق الرى فى الازمنة الاولى وأكثرها خصوبة : رستاق روذه (أو الروذه) وفيه قرية كبيرة بهذا الاسم فى ما يلى ربض المدينة • وورامين وقد أخذت مكان الرى بعدئذ وصارت اولى مدن ذلك القسم من اقليم الجبال • وبشاويه وما زالت قائمة تعرف باسم فشاويه • وأخيرا قُوسين وديزه والقصران الخارج والداخل • وديزه اسم قريتين كبيرتين أو مدينتين على مسيرة يوم من الرى وهما ديزه القصرين وديزه ورامين • وكل هذه الرساتيق وغيرها مما ذكره ابن حوقل كانت اشبه بمدن صغيرة « يزيد ما فى احدها من أهلها على عشرة آلاف رجل » • وفى سنة ٦١٧ (١٢٢٠)استولت جحافل المغول على الرى ونهبتها واحرقتها ولم تقم لها قائمة منذ نزول هذه الكارثة بها • وحين مرّ بها ياقوت فى ذلك الزمان قال « رأيت حيطان خرابها قائما وقد خربت دورها • وكثير منها مبني بالآجر المنمق المحكم الملمع بالزرقة مدهون كما تدهن الغضائر » • ولم ينج من أذى المغول غير ربض الشافعية وهو أصغر أحياء المدينة • اما احياء الحنفية والشيعة فقد خربت ولم يبق لها أثر[٣] •

وقد حاول غازان خان المغولى تعمير الرى وانقاذها من الخراب المسحوق عليها فأمر باعادة بناء المدينة والسكنى فيها • ولكنه خاب فى ذلك لان سكانها كانوا قد انتقلوا عنها الى مدينتي ورامين وطهران المجاورتين لها لاسيما الى الاولى اذ كانت أطيب هواء من الرى القديمة • واضحت فى مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) أكثر مدن هذه الناحية ازدهارا • وخرائب ورامين على شيء يسير من

---

(٢) اليعقوبى ٢٧٥ ؛ ابن رسته ١٦٨ ؛ ابن حوقل ٢٦٥ و ٢٦٩ و ٢٧٠ ' المقدسى ٣٩٠ و ٣٩١ ؛ ياقوت ٢ : ١٥٣ و ٨٩٤ و ٨٩٥ ؛ ٣ ٨٥٥ ' ٤ : ٤٣١ •

ولم يتبين ما اذاكانت قلعة الرى التى سماها المهدى واطلق عليها الزبيدية (ان صحت قراءة الاسم) قد نسبت الى زبيدة زوجة هرون الرشيد أم الى امرأة غيرها بهذا الاسم •

(٣) ابن حوقل ٢٧٠ و ٢٨٩ ' ياقوت ٢ ٥٧٢ و ٨٣٣ و ٨٦٣ و ٨٦٤ •

جنوب الرى ، والى شمالها ، على ما ذكر المستوفى ، جبل طَبَرك — وهو على ما يظن غير الجبل الذى بنى عليه (الخليفة) المهدى قلعته المارة الذكر — ، وكان فيه معدن الفضة ويأتى منه ربح كثير ، وقلعة طبرك هذه ، على ما فى تاريخ ظهير الدين ، قد بناها منوجهر الزيارى فى مطلع المئة الخامسة (الحادية عشرة) ، وروى ياقوت ان طغرل الثانى[٤] آخر سلاطين سلاجقة العراق خربها فى سنة ٥٨٨ه (١١٩٢) ، وتحدث طويلا عن حصار هذا الحصن المنيع المشهور وقال ان جبيل طبرك على يمين القاصد خراسان وعن يساره جبل الرى الاعظم (ويظن انه موضع القلعة التى بناها المهدى) ، وهو متصل بخراب الرى ، ووصف المستوفى ضريح امام زاده عبد العظيم بانه على مقربة من الرى وما زال هذا المشهد من المزارات المكرمة فى طهران اليوم ، وفيه ضريح الحسين بن علي الرضا الامام الثامن ،

ومن الولايات المشهورة قرب الرى : ولاية شهريار ، وذكر المستوفى عرضا قلعة بهذا الاسم تقوم فى شمالى المدينة ، وقد اصبحت هذه القلعة بعد ذلك ذات شأن لان شهريار أو رى شهريار هو الاسم الذى أطلقه علي اليزدى على الرى حين وصف حروب تيمور ، اما ورامين فكانت ، على ما بيّنا ، أول المراكز الآهلة الا ان الخراب قد نال من هذه المدينة فى مطلع المئة التاسعة (الخامسة عشرة) وبعد زمن قام فى موضعها مدينة طهران التى لم تكن فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) غير قرية من أكبر قرى الرى ، وفى طهران القديمة (وتلفظ تهران أيضا) كان لاهلها تحت الارض بيوت « كنافقاء اليربوع » على ما فى القزوينى « وفيها اثنتا عشرة محلة كل محلة تحارب الاخرى » ، ووصف المستوفى طهران فى القرن التالى فقال هى مدينة وسطة ، ولكن فى ختام المئة الثانية عشرة (الثامنة عشرة) اتخذها اقا محمد شاه مؤسس الدولة القاجارية عاصمة لبلاد فارس[٥] .

---

(٤) الصحيح : الثالث . الاول طغرلبك الفاتح ، والثانى طغرل بن السلطان محمد بن ملكشاه ، والثالث طغرل الثالث بن ارسلان بن طغرل الثانى ، (الدكتور مصطفى جواد) .

(٥) القزوينى ٢ ٢٢٨ و ٢٥٠ ، المستوفى ١٤٣ و ١٤٤ و ٢٠٥ : ياقوت ٣ : ٥٠٧ و ٥٦٤ علي اليزدى ١ ، ٥٨٣ و ٥٨٦ و ٥٩٧ ،

وروى ظهير الدين (Dorn فى : Muhammadanische Quellen ١ ، ١٥ من النص الفارسى) ان طبرك تعنى « الجبيل » فهى تصغير طبر ومعناها « جبل » فى اللهجة الطبرية وقد أشرنا الى طبرك اصفهان فى ص ٢٤٠ .

والانهار التى تسقى سهل الرى وورامين وطهران تنساب من هذا السهل الى حدود المفازة الكبرى فتفنى فيها • وكان من أهم هذه الانهار : نهر موسى ، وقد مر ذكره ، وعليه قرى كثيرة • وتكلم المستوفى أيضا على نهر كرج وكانت عليه قنطرة ذات طاق واحد يقال لها پل خاتون (قنطرة الخاتون) ويقال انها انما سميت بذلك نسبة الى السيدة زبيدة زوجة هرون الرشيد • وما زالت بقايا هذه القنطرة ترى قرب طهران • وذكر القزوينى ان أهل الرى من الشيعة يكرهون نهر سورين ويتطيرون منه لان جثة القتيل يحيى حفيد علي زين العابدين الامام الرابع غسلت فيه فلا يقربونه[٦] • على ان المستوفى ذكر ان أهم انهار الرى نهر جاجرود ومخرجه فى جبل جابج تحت دماوند ويتشعب الى اربعين نهرا عند وصوله سهل الرى •

وعند الحد الغربى لهذا السهل ناحية ساوج بلاغ – ومعناها بالتركية « العيون الباردة » – وهى على ما وصفها المستوفى بقعة كانت ذات شأن فى أيام السلاجقة • وقد بلغ خراجها فى أيام المغول اثنى عشر الف دينار • وكان من أهم قراها العديدة سنقرآباد (وما زالت قائمة) وهى مرحلة جليلة فى المسالك التى وصفها المستوفى • وكان يسقى ناحية ساوج بلاغ كرمرود ومخرجه فى الجبال شرق قزوين وهو يسقى نواحى الرى وشهريار وتلتقى به هناك انهار كثيرة تنحدر من الجبال فى الشمال قبل ان تفنى مياهه الباقية من السقى فى المفازة الكبرى[٧] •

وقزوين على نحو مئة ميل شمال غربى طهران وهى فى أسفل الجبال العظيمة • وقد كانت منذ أقدم الازمنة موضعا جليلا تحرس الدروب المخترقة اقليم طبرستان وتؤدى الى شطئان بحر قزوين • وكانت البقاع الحليلة فى الشمال

---

(٦) وجدنا ان القزوينى (١ : ١٨١) وياقوت (معجم البلدان ٣ : ١٨٦) قد نقلا ما ذكراه عن نهر سورين من مسعر بن مهلهل • وقد اتفقا فى ما نقلاه وهذا نصه :

« نهر سورين : بالرى • قال مسعر بن مهلهل رأيت أهل الرى يكرهونه ويتطيرون منه ولا يقربونه فسألت شيخا من أهل الرى عن سببه فقال لان السيف الذى قتل به يحيى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب رضى الله عنه غسل فيه » • (م) •

(٧) القزوينى ١ : ١٨١ ؛ المستوفى ١٤٤ و١٤٨ و ١٩٦ و ٢١٦ وانظر مخطوطة المتحف البريطانى Add. 543, 23 الورقة ١٧٩ ب ؛ جيهان نما ٢٩٢ و ٣٠٤ •

الغربى تؤلف منذ القدم قسما من بلاد الديلم (وقد مرّ وصفها فى الفصل الثانى عشر) وكانت وقتا ما مستقلة استقلالا داخليا فلم تخضع لحكم العباسيين . وكانت قزوين فى هذا العصر أهم ثغر يقف بوجه اولئك الكفار الاشداء . وكانت مشحونة بقوة كبيرة من مقاتلة المسلمين . وفى أيام بنى أمية كان محمد بن الحجاج - والحجاج عامل بنى أمية المشهور على العراق - قد بعثه أبوه على رأس جيش لمحاربة الكفار فى جبال الديلم . « فنزل محمد قزوين وبنى بها مسجدا » وصفه ياقوت بأنه « المسجد الذى على باب دار بنى جنيد ويسمى مسجد الثور ، فلم يزل قائما حتى بنى الرشيد المسجد الجامع » . ووصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) قزوين فقال « مدينة عليها حصن وداخلها مدينة صغيرة عليها حصن » - وفى المدينة الداخلة مسجدان . وأراضيها خصبة ويكون مقدارها ميلا فى مثله . وأهلها أشداء مقاتلة فكان خلفاء بنى العباس يرسلون من هذه المدينة حملاتهم لمعاقبة أهل الطالقان والديلم .

ولقزوين على ما ذكر اليعقوبى واديان ، يقال لاحدهما الوادى الكبير وللآخر وادى سيرم . وكان بالقرب منها آثار لبيوت النار . ونوه المقدسى بكثرة كرومها . وكان اسم احدى المدينتين : مدينة موسى والاخرى مدينة مبارك ويقال لها المباركية أيضا . وانما سميت الاولى بذلك لان الخليفة موسى الهادى (الاخ الاكبر لهرون الرشيد) قد ابتناها فنسبت اليه . وكان بناؤه لها فى خلافة أبيه المهدى . ولما نزل هرون الرشيد بعد ذلك (وقد خلف الهادى) قزوين فى طريقه الى خراسان أنشأ الجامع الجديد وبنى أسوار المدينة . وكان مبارك التركى من موالى المأمون أو المعتصم قد بنى قلعة المباركية فى مبارك أباد ويقال لها أيضا مدينة مبارك .

وظلت قزوين فى القرون الوسطى مدينة زاهرة غير ان المغول فى مطلع المئة السابعة (الثالثة عشرة) خربوها . وبعد ذلك بمئة سنة أفاض المستوفى وكان من أهل قزوين فى الحديث عن قزوين . اقتبس بعضه مما يتناقله الناس فيها . فروى انه كان فى موضع قزوين الحديثة مدينة فارسية قديمة بناها الملك شابور يقال لها شاد شابور « فرح سابور » . وقرب خرائبها كانت المدينتان الاسلاميتان مدينة

موسى ومبارك اباد (وكان مبارك على قول المستوفى من موالى الخليفة الهادى) ٠ ثم ان هرون الرشيد حوّط هذه المدن الثلاث بسور حصين ولم يكمل الا فى سنة ٢٥٤ (٨٦٨) اذ أكمله القائد التركى موسى بن بغا فى عهد الخليفة المعتز ٠ ثم ان صدر الدين وزير السلطان السلجوقى ارسلان الثانى حدد بناءه بالآجر فى سنة ٥٧٢ (١١٧٦) واستطرد المستوفى فقال كان من أعمال قزوين ثلاثمئة قرية أجملها فارسجين وسكزاباد وورد اسماهما فى سياق وصفه للمسالك ٠ وذكر أيضا اسماء جملة أنهار كانت تسقى ناحية قزوين وهى : خرود ، وكذلك بوه رود وكردان رود ، وكانا يأتيان من الطالقان ٠ وتركان رود ويأتى من ناحية خرّقان (أنظر ص ٢٣١) ٠ وعلى ما جاء فى القزوينى ، كانت الانهار التى تسقى بساتين المدينة : وادى درج فى الشرق ووادى أترك فى الغرب ٠ وسرد هذا المؤلف أيضا اسماء جملة مدن وقرى كانت فى سهل قزوين وفى البقاع الجبلية المطلة عليها[8] ٠

وكانت دستوا (أو دستبى) فى أيام بنى أمية دار ضرب للنقود ٠ ويطلق هذا الاسم على كورة كبيرة أجلّ قراها يزد اباد ٠ وكانت دستوا فى أيام الامويين مقسومة بين الرى وهمذان ٠ والذى انتهى الينا ان طريق الرى الذاهب من الرى الى اقليم اذربيجان رأسا كان يخترقها عادلا عن قزوين ٠ ولم يبق لاسم دستوا أثر فى الخارطة ، الا ان موضعها ينبغى ان يكون جنوب قزوين ، وقد صارت تعد فى أيام بنى العباس من أعمالها ٠

والى شمال غربى قزوين ، على قنن الجبال الفاصلة بين هذه الكورة وورود بار التى على نهر شاهرود فى طبرستان ، قلاع الاسماعيلية المشهورة (الحشيشية

---

(٨) ابن حوقل ٢٥٦ و ٢٦٣ و ٢٧١ ؛ اليعقوبى ٢٧١ ؛ ابن خرداذبه ٥٧ ؛ المقدسى ٣٩١ ؛ ياقوت ٤ . ٨٨ و ٨٩ و ٤٥٤ و ٤٥٥ ؛ القزوينى ٢ : ١٩٠ و ١٩٣ و ١٩٤ و ١٩٦ و ٢٤٤ و ٢٧٤ و ٢٧٥ و ٢٩٠ ؛ المستوفى ١٤٥ و ١٤٦ و ١٩٦ و ٢١٧ ٠

وكان القزوينى على ما يدل عليه اسمه ، من أهل قزوين (كالمستوفى) ٠ وقد أورد المستوفى فى تاريخه (گزيده) حديثا مستفيضا عن بلده ، ترجمه المسيو باربيه دى مينار (Barbier de Meynard) فى المجلة الآسيوية Journal Asiatique لسنة ١٨٥٧ المجلد الثانى ص ٢٥٧ ٠ ووضع القزوينى (٢ : ٢٩١) مخططا ارضيا تقريبيا للمدينة رسم المدينة فيه داخل دوائر من اسوار مشتركة المركز فالدائرة الداخلة مدينة شهرستان كانت تحيط بها المدينة العظمى وحول هذه البساتين وتحف بها المزارع ويخترق نهراها المزارع ٠

= الحشاشين) وكانت خمسين قلعة عداً على ما فى المستوفى منها آ ألموت وكانت كرسى ملكهم ، وميمون دز أمنع حصونهم • ويقال ان معنى ألموت « عش العقاب » أو « ما وجده العقاب »[٩] بلسان أهل طبرستان • وقيل ان أول من اتخذ له قلعة فى هذه البقاع بعض ملوك الديلم فقد ارسل عقابا للصيد فتبعه فرآه وقع على هذا الموضع فوجده موضعا حصينا • وكان القزوينى ، وهو ولا مراء ممن يجيد معرفة الموضع ، قد وصف القلعة بقوله انها « على قلة جبل وحولها وهاد لا يمكن نصب المنجنيق عليها ولا النشاب يبلغها » • وقلعة ألموت على ستة فراسخ من قزوين وقد بنى آخر حصونها الحسن الداعى العلوى الملقب بالداعى الى الحق فى سنة ٢٤٦ (٨٦٠) وفى سنة ٤٨٣ (١٠٩٠) أو ٤٤٦ (١٠٥٤) على ما فى القزوينى ـ صارت ألموت فى حوزة حسن الصباح الملقب بشيخ الجبل ولبثت مئة واحدى وسبعين سنة أمنع حصون الاسماعيلية • ثم استولى هولاكو خان المغولى عليها وأمر بتجريدها من آلاتها الحربية فى سنة ٦٥٤ (١٢٥٦) • وبعد سقوطها سرعان ما انهارت مقاومة قلاع الحشيشية الواحدة تلو الاخرى فوقعت بيده كلها فجعلها قاعا صفصفا • وقد زار كثير من الرحالة ما يظن انه موضعها • وما زالت آثار كثير من قلاع الاسماعيلية الاخرى على ما يقال ظاهرة فى الجبال شمال قزوين[١٠] •

وأبهر وزنجان ، وهما مدينتان يقترن ذكرهما معا فى الغالب ، على الطريق غرب قزوين ، وقد اشتهرتا منذ قديم الزمان • ذكر ابن حوقل فى المئة الرابعة

---

(٩) فى القزوينى (٢ : ٢٠٠) ان اسمها بلسان الديلم « آله أموت » أى « تعليم العقاب » وفى « تاريخ العراق بين احتلالين لعباس العزاوى (١ : ١٥٢ ح ٢) نقلا عن جامع التواريخ لرشيد الدين ، ان اسم ألموت هو تاريخ حكومتهم وظهورهم ، وحروفه تساوى ٤٧٧ • (م) •

(١٠) القزوينى ٢ . ٢٠٠ ؛ المستوفى ١٤٧ •

أورد المستوفى فى تاريخ كزيده (الفصل الرابع ـ القسم التاسع ـ الجزء الثانى) تاريخ الاسماعيلية أى الحشيشية (الحشاشين) فى فارس • وقد ترجم هذا القسم وعلق عليه ديفريمرى (Defrémery) فى المجلة الآسيوية (لسنة ١٨٤٩ ؛ ١ : ٢٦) وسرد فيها (ص ٤٨) اسماء قلاع الاسماعيلية التى استولى عليها هولاكو وأمر بتقويضها • غير ان مواضع معظمها غير معروفة • وكانت كرد كوه ولمسر آخر ما سقط من قلاعهم • ويظهر ان هولاكو لم يخرب ألموت تخريبا تاما ، أو لعلها بنيت ثانية بعد ذلك ، اذ ان الشاه سليمان الصفوى اتخذها سجنا على ما ذكره شاردان فى رحلته فى فارس (١٠ : ٢٠) • وفى القرن الماضى زار الكولونيل مونتيث Monteith اطلالها ووصفها فى JRGS لسنة ١٨٣٣ (ص ١٥) •

(العاشرة) ان ابهر مأهولة بالأكراد كثيرة المياه والاشجار ويكثر فيها القمح ولها حصن منيع شيد على دكة • وأشار القزويني الى ان المدينة كلها مشتملة على طواحين تدور على الماء[١١] • وبها نوع من الكمثرى مدوّر بحجم النارنج يقال له العاصي لذيذ جدا ما في البلاد شيء مثله • وقال ياقوت : العجم يسمونها أوهر • وذكر المستوفي ان الاتابك بهاء الدين حيدر قد جدد بناء القلعة في أيام السلاجقة فعرفت بالحيدرية • وكان محيط أسوار المدينة ٥٥٠٠ خطوة • ونهر أبهر بعد ان يسقي نواحيها يجري نحو مدينة قزوين ثم يفنى في المفازة • ومدينة زنجان على نحو خمسين ميلا الى شمال غربي أبهر على نهر زنجان وهو يجري غرب سفيدرود • وقال ابن حوقل ان زنجان أكبر من أبهر وانها على طريق اذربيجان • وذكر ياقوت ان العجم يقولون زنكان • وروى المستوفي ان مؤسسها هو الملك اردشير بابكان وكان اسمها أولا شاهين • وقد خربت زنجان في خلال الفتح المغولي • وطول أسوارها التي بقيت الى زمنه عشرة الآف خطوة ، وكانت ناحيتها كثيرة الخيرات • بلغ خراجها عشرين ألف دينار • وقال المستوفي ان اللغة السائدة فيها في مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت ما تزال لغة بهلوية صرفة ، يستشفّ من خلالها بلا ريب انها لهجة محلية فارسية[١٢] •

وفي نحو نصف الطريق بين ابهر وزنجان ، وسط السهل العظيم الذي يؤلف منقسم الماء بين الانهار الفائضة غرب سفيدرود وشرق المفازة الكبرى ، أطلال السلطانية ، المدينة المغولية التي أنشأها ارغون خان واتمها السلطان ألجايتو في سنة ٧٠٤ (١٣٠٥) وجعلها قاعدة الدولة الايلخانية • قال ابو الفداء ان اسمها المغولي كان قنغرلان • وذكر المستوفي ان من أعمالها تسع مدن • ومحيط أسوارها ٣٠٠٠٠ خطوة • وفي وسط حصنها قبر ألجايتو وعليه نقوش منحوتة في الحجر • وما زالت أطلال هذا القبر المقبب (أو المسجد) قائمة ولكن لا أثر للمدينة اليوم •

---

(١١) وقد جاء في ياقوت (١ : ١٠٤) ان معنى ابهر مركب من « آب » وهو الماء و « هر » وهو الرحى • (م) •

(١٢) ابن حوقل ٢٥٨ و ٢٧١ و ٢٧٤ ؛ المقدسي ٣٧٨ و ٣٩٢ ؛ القزويني ٢ : ١٩١ ؛ ياقوت ١ : ١٠٤ ؛ ٢ : ٥٧٣ ، ٥٧٤ و ٩٤٨ ؛ ٤ : ١٠١٧ ؛ المستوفي ١٤٦ و ١٤٧ و ٢١٧ •

على ان المستوفى قال ان السلطانية كانت تشتمل فى أيامه على مبان أفخم مما فى أية مدينة فارسية أخرى ما خلا تبريز • وفى طريق أبهر على خمسة فراسخ شرق السلطانية قرية «قهود» ويسميها المغول صاين قلعة » على ما ذكر المستوفى • وما زال هذا الموضع موجودا باسمه الاخير صاين • ويقال له أيضا باتوخان ، وباتوخان حفيد جنكيز خان • وقلعة سرجهان المنيعة فوق قلة الجبل فى نصف الطريق بين صاين قلعة والسلطانية • وكانت تبعد عن الاخيرة خمسة فراسخ • وتتوج قمة جبل وتشرف على السهول الواسعة الممتدة من هناك شرقا الى ابهر وقزوين • ووصف ياقوت سرجهان وكانت من كورة طارم بأنها من احصن القلاع وأحكمها وقد رآها • وحين كتب المستوفى كان الخراب قد استولى عليها بسبب الفتح المغولى فنقل سلاحها وحاميتها الى صاين قلعة •

والى غرب السلطانية : سهرورد وسُجاس ، وهما بليدتان متقاربتان بقيتا حتى زمن المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) على شىء من حسن الحال ، أما اليوم فقد آلتا الى الخراب• وكتب ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ان سهرورد قد غلب عليها الاكراد وهى كشهرزور فى مساحتها ورقعتها• وهى حصينة فى جنوب زنجان فى طريق همذان• أما سجاس أو سجاس فانها قرب سهرورد• ووصف المستوفى هاتين البلدتين بانهما خربتا فى خلال الفتح المغولى فلم تكونا فى أيامه غير قريتين كبيرتين آهلتين• وكانت الكورتان القريبتان منها يقال لهما جرود وأنجرود (وتعرفان اليوم باسم أيجرود وانكوران) وكانت سجاس على خمسة فراسخ غرب السلطانية • يحف بها نيف ومئة قرية يسكنها المغول • وكان فى الجبل المجاور لها قبر ارغون خان فجعل « كروغا » (وهو المعبد الطاهر) على عادة المغول ، وابتنت ابنته اُلجاي خاتون خانقاها للدراويش هناك[١٣] •

وفى الحد الغربى لاقليم الجبال قرب منبع من منابع سفيدرود، الآثار المشهورة

---

(١٣) ابن حوقل ٢٥٨ و ٢٦٣ ؛ القزوينى ٢ : ٢٦١ ؛ ياقوت ٣ : ٤٠ و ٧٠ و ٢٠٣ ؛ ابو الفدا ٤٠٧ ؛ المستوفى ١٤٤ و ١٤٥ و ١٤٨ و ١٤٦ و ١٩٦ •

والظاهر ان سجاس وسهرورد لا ذكر لهما فى الخارطة اليوم وان كتب السر رولنسون H. Rawlinson (JRGS ١٨٤٠ ص ٦٦) ان سجاس كانت فى زمنه قرية صغيرة • على نحو ٢٤ ميلا جنوب شرقى زنجان • وقال ان سهرورد « قد ضاعت اليوم » •

المسماة اليوم «تخت سليمان» وفيها بركة صغيرة ينبجس الماء منها ولا يشحّ مهما حمل منه • وهذه الآثار قد عدّها بعضهم من بقايا مدينة شيز التى أشار اليها البلدانيون العرب القدماء • وذكرها المستوفى أيضا باسم ستوريق • ووصف ابن خرداذبه فى المئة الثالثة (التاسعة) بيت النار فى الشيز فقال هو عظيم القدر عند المجوس ويقال له اذرجشنس ، كان اذا ملك منهم الملك زاره من المدائن (طيسفون) ماشيا فيسريح فى شهرزور وهى نصف الطريق (وقد مرّ ذكرها فى ص ٢٢٥) ثم يتابع سيره الى شيز • فقد ذكرت الاخبار ان فى شيز ولد زرادشت • وقال ياقوت ان اسمها الفارسى كان جيس وتسمى أيضا كزن ، وشيز تصحيف عربى لهذا الاسم • واقتبس ياقوت حديثا مستفيضا عن ابن مهلهل الذى كتب فى سنة ٣٣١ (٩٤٣) يصف شيز وكان قد زارها باحثا عن معادن الذهب التى فى بطن جبالها على ما يقال فقال ان « هذه المدينة يحيط بها سور وبها بحير فى وسطها لا يدرك قراره واستدارته نحو جريب (ثلث اكر) ، ويخرج منه سبعة أنهار • ومتى بُلّ بمائه تراب صار فى الوقت حجرا صلدا » • ووصف ابن مهلهل ايضا بيت نار عظيم الشأن فى شيز « منه تذكى نيران المجوس من المشرق الى المغرب وانهم كانوا يوقدون فيه منذ سبعمئة سنة ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمان » • ووصف المستوفى مدينة شيز فقال انها اولى مدن ولاية انجرود سماها المغول ستوريق • ووصف قصرا عظيما فيها بناه الملك كيخسرو على ما يقال ، كان فى صحنه بركة أو بحيرة صغيرة لا يدرك قرارها ولا يقل ماؤها وان كان هناك نهر يأخذ منها على الدوام ، فاذا قطع الماء عن هذا النهر لا يفيض ماؤها • وذكر المستوفى ان اباقاخان المغولى ابتنى له فيها قصرا اذ كانت تحيط بها مروج نضرة[١٤] •

وفى الطرف الشمالى الغربى من اقليم الجبال على الطريق من زنجان الى اردبيل مدينة خونج التجارية الجليلة • جاء فى ابن حوقل ان هذه المدينة كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) مشهورة بالخيل الجياد والاغنام والبقر • واورد

---

(١٤) ابن خرداذبه ١١٩ ؛ ابن الفقيه ٢٨٦ ؛ القزوينى ٢ : ٢٦٧ ؛ ياقوت ٣ : ٣٥٣ ؛ المستوفى ١٤٨ •

وقد عد السر هنرى رولنسون (JRGS لسنة ١٨٤٠ ص ٦٥) تخت سليمان او شيز انها اكبتانا Ecbatana الشمالية لدى الكتبة اليونان •

ياقوت ، وقد زار المدينة ، اسمها بصورة خونا ولكنه قال انها تسمى فى أيامه كاغد كنان أى « صناع الكاغد » . « وأهلها يكرهون تسميها بخونا لقرينة قبيحة تقرن بهذا الاسم » فى معناه الفارسى . والمستوفى وقد ذكر فى مسالكه ان كاغد كنان على ستة فراسخ جنوب سفيد رود وأربعة عشر فرسخا شمال زنجان فى الطريق الى اردبيل قال انها قد تخربت فى اثناء الفتح المغولى وانها حين صنف كتابه صارت كالقرية . وكان يسقى اراضيها فرع من فروع سفيدرود . وكان الكاغد الفاخر يصنع فيها فى أيامه . وأطلق عليها المغول الذين سكنوها اسم « المغولية » ، ولم يتسن حتى الآن على ما يظهر تعيين موقع خونج الحقيقى .

وبمحاذاة السفح الجنوبى للجبال التى تفصل اقليم الجبال عن بلاد الديلم وطبرستان فى الشمال الكور الثلاث : يشكل ّدرّة والطالقان وطارم . وكثيرا ما كان يستعمل الاسمان الاخيران بدون تدقيق احدهما فى موضع الآخر . وكانت كل كورة من هذه الكور تنقسم الى قسمين : أعلى وأسفل . فالاعلى ما كان فى الجبال فهو بذلك يعد تابعا لاقليم الديلم . وكانت بشكل درّة ، على ما فى المستوفى ، الى غرب قزوين وجنوب الطالقان وفيها اربعون قرية كان ريعها قبلا وقفا على جامع قزوين ، وقد زالت من الخارطة . والطالقان وهى بين سهل السلطانية وسلسلة الجبال الشمالية ، وقد اختفى اسمها من الخارطة ، كثيرا ما ذكرها بلدانيو العرب القدماء . فقد أشار المقدسى الى انها « كبيرة عامرة نبيلة ليس فى الكورة مثلها . وقد كان يجب ان تكون حضرة السلطان (أى سلطان الديلم) وعندي انهم كرهوا ذلك لتطرفها » . وأشار القزوينى الى ما فى الطالقان من زيتون ورمان . وسرد ياقوت أسماء عدد من قراها . وأورد المستوفى ثبتاً طويلا باسماء هذه القرى . على ان أغلبها اليوم لا يمكن رؤيته فى الخارطة الحديثة . وكان من رأيه ان معظم الطالقان يعود الى كيلان دون غيرها .

والى شمال زنجان بامتداد أسفل المرتفعات الجبلية أيضا ، كورة طارم . عرفها البلداتيونالعرب بالطارمين، مثنىالطارم، ويريدون بذلك طارم السفلىوطارم العليا . وطارم العليا تدخل كلها فى بلاد الديلم ، ونهر طارم على ما ذكرنا من فروع سفيدرود اليمنى وكانت فروعه الكثيرة تسقى هذه الكورة الخصبة . قال

ياقوت وقد كتب الاسم بصورة تارم أو ترم انه ليس فيها مدينة مشهورة . غير ان هذه البلاد اشتهرت في التاريخ بأسرة وهسوذان . وكان ركن الدولة البويهي قد خلع آخر امرائها . وذكر المستوفي ان فيروزاباد كانت قصبة طارم السفلى . واندر (أو ايدى) أهم مدينة في طارم العليا . ويقال لحصنها قلعة تاج . وسرد اسماء خمسة من أعمالها في كل عمل منها قرى كثيرة .

وذكر المستوفي في طارم السفلى قلعة شميران العظيمة وموضعها غير معروف وهي سميران بحسب تهجئة ياقوت لها وقد زار خرائبها . ونقل ياقوت حديثا مستفيضا عن ابن مهلهل الذي رأى سميران في نحو سنة ٣٣١ (٩٤٣) وكانت يومذاك من أمنع قلاع ملوك الديالمة فقال ان فيها « الفين وثمانمئة ونيفا وخمسين دارا كبارا وصغارا » . وكان فخر الدولة البويهي قد ملك هذه القلعة في سنة ٣٧٩ (٩٨٩) وخلع آخر أمراء أسرة وهسوذان ، وكان طفلا قد تزوج هذا الزعيم البويهي أمّه . وفي نحو هذا الزمن وصف المقدسي هذه القلعة وقد سمّاها باسم سميروم بانها من أعمال سلاروند وهي قلعة عليها « سباع ذهب وشمس وقمر » وبيوتهم لبن . وفي أواسط القرن التالي كان الرحالة الفارسي ناصر خسرو قد زارشميران في طريقه الى مكة سنة ٤٣٨ (١٠٤٦) وقال انها قصبة ولاية طارم في بلاد الديلم وهي على ثلاثة فراسخ غرب ملتقى شاهرود بسفيدرود في طريق سراو باذربيجان . وفي حافة المدينة قلعة عالية مشيدة على صخر صلد محاطة بثلاثة أسوار يقيم بها الف رجل ويحمل الماء الى القلعة بقناة . وكان ياقوت قد زار سميران في أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) فوجدها مخربة « خربها شيخ الحشيشية صاحب ألموت » « وبها آثار حسنة تدل على انها كانت من أمهات القلاع » . وهي على نهر كبير يأتي من جبال طارم . ويظهر ان موضعها لم يعينه أحد من الرحالين المحدثين . وذكر ياقوت أيضا قلعة أخرى في هذه الكورة يقال لها قلاط كانت في جبال تارم من جبال الديلم وهي بين قزوين وخلخال على قلة جبل ولها ربض في السهل فيه سوق وتحتها نهر عليه قنطرة حجر كثيرة العقود[١٥] وذكر ياقوت ان هذه القلعة كانت من قلاع شيخ الحشيشية صاحب

(١٥) عبارة ياقوت في صفة القنطرة . « عليه قنطرة الواح ترفع وتوضع » . (م) .

ألموت وهي مثل سميران لا يعرف موضعها[١٦] .

وحدثنا المقدسي بما قلّ ودل عن تجارات وغلات جملة مدن في اقليم الجبال، فقال : يحمل من الرى أصناف من النسيج منها صنف يقال له المنيّرات . والقطن ويغزل فيها ويصبغ بالنيل . وكانت برود الرى المقلمة مشهورة . وتصنع فيها المسالّ والامشاط والقصاع . وكانت الامشاط والقصاع على ما ذكر القزويني تعمل من خشب صلب مخروط يعرف بالخَلَنْج وكان يؤتى به من غابات طبرستان . وكانت الرى مشهورة أيضا ببطيخها وخوخها ويجلب منها طين يغسل به الرأس، في غاية النعومة .

ومن قزوين : تحمل الاكسية وجوارب الادم للاسفار والقسى والنعناع . ومن قم : الكراسى واللجم والركب وبز وزعفران كثير . ومن قاشان : يحمل القماقم (يابس البسر) والطلخون (نبات) . وتشتهر اصفهان بحللها ونمكسودها وأقفالها . ومن همذان ونواحيها تحمل الاجبان والزعفران وجلود الثعالب والسمّور[١٧] وبالقرب منها معدن القصدير . وكان يصنع في المدينة البز والخفاف . وأخيرا يحمل من الدينور جبن مشهور[١٨] .

وأهم ما كان يخترق اقليم الجبال من طرق : طريق القوافل الكبير المعروف بطريق خراسان ، وهو الذى مرّ وصفه في الفصل التمهيدى . يبدأ هذا الطريق من بغداد ويصل الى ما وراء النهر وأقاصى الشرق . فكان يدخل اقليم الجبال عند حلوان ويقطعه من أوله الى آخره ، فيمر بقرميسين (أو كرمانشاه) أولا ، ومنها الى همذان ثم الى ساوه ثم يتجه شمالا الى الرى ثم يشرّق من اقليم الجبال الى قومس ومنها الى خراسان . واكمل وصف قديم انتهى الينا لطريق خراسان ، وصف ابن رسته في ختام المئة الثالثة (مطلع العاشرة) ، على ما بيّنا . فقد وصفه

---

(١٦) ابن حوقل ٢٥٣ ؛ المقدسي ٣٦٠ ياقوت ١ : ٦٣ و ٨١١ ؛ ٢ ، ٤٩٩ و ٥٠٠ ؛ ٣ ، ١٤٨ و ٤٦٢ و ٥٢٣ ، ٤ : ١٥٦ ؛ القزويني ٢ . ٢٦٨ ؛ المستوفى ١٤٩ و ١٥٠ و ١٩٨ و ٢١٧ ؛ جهان نما ٢٩٧ ، ناصر خسرو ٥ [ص ٤ ــ ٥ من الترجمة العربية] .

(١٧) السمور . حيوان برى لونه أحمر مائل الى السواد ومنه ما يكون أسود لامعا واشقر . يتخذ من جلده فراء ثمينة . ويعرف في العراق بالسنسار ويعيش فيه . (م) .

(١٨) المقدسي ٣٩٥ و ٣٩٦ ؛ القزويني ٢ : ٢٥٠ .

مرحلة مرحلة ذاكرا الانهار والقناطر التى يعبرها مبينا نزوله وصعوده والتفافه ودورانه ، مسميا ما يمر به من قرى ومدن . وانتهى الينا الى ذلك اربعة اوصاف قديمة اخرى لهذا الطريق آخرها وصف المقدسى وفيه أورد المسافات بالمراحل .

وبعد الفتح المغولى وقيام الدولة الايلخانية فى فارس اضحت السلطانية عاصمة هذه الدولة ومن ثمة صارت مركزا لهذه الشبكة من الطرق . وعليه فان المستوفى في وصفه المسالك بدلا من ان يبدأ من بغداد ويشرّق منها وصف الطرق مبتدئا بها من السلطانية باتجاهها الى بغداد . فاتبع بذلك اتجاها معاكسا للاول . على ان المراحل من حلوان الى همذان (وهى معكوسة بالنسبة الى الطريق القديم) شىء واحد فى الواقع فى كلا الوصفين . ولكن الطريق بدلا من ان يذهب من همذان الى الرى بطريق ساوه ، جعله المغول يتجه شمالا الى السلطانية مخترقا ناحيتي دركزين وخرّقان فلا يمر بمدينة كبيرة ، وليس ما ذكره المستوفى من مراحل هذا الطريق الا اسماء قرى لا يعرف شىء عن جميعها[١٩] .

ومن قرب كرمانشاه، عند جبل سن سميرة (أنظر الصفحة ٢٢٣) كان الطريق الذاهب الى مراغة فى اذربيجان والى الشمال يأخذ من طريق خراسان فيتجه أولا الى الدينور ثم الى سيسر (لعلها تطابق سحنة الحالية . أنظر ص ٢٣٣) فالى حدود اقليم الجبال . وهذا الطريق الذى تصف الآن تتمته المارة باذربيجان ، قد وصفه قدامة وابن خرداذبه ، ويرى وصف اجزائه الاولى فى ابن حوقل . فمن كرمانشاه (قرميسين) ومن كنكوار ومن همذان تتفرع طرق من يمينه تذهب نحو الجنوب الشرقى الى نهاوند ومنها ومن همذان كان الطريق يذهب الى كرج ابى دلف مارا ببروجرد ومن كرج ابى دلف الى اصفهان . وأورد المستوفى مراحل الطريق من كنكوار الى نهاوند . ثم يتفرع الطريق عندها باتجاه اصفهان بينما ذكر المقدسى ان الطريق من كرج يتجه الى الرى مارا بآوه وورامين[٢٠] .

---

(١٩) ابن رسته ١٦٥ ـ ١٦٩ ؛ ابن خرداذبه ١٩ ـ ٢٢ ؛ قدامة ١٩٨ ـ ٢٠٠ ؛ ابن حوقل ٢٥٦ ـ ٢٥٨ ؛ المقدسى ٤٠٠ ـ ٤٠٢ ؛ المستوفى ١٩٢ .

(٢٠) ابن خرداذبه ١١٩ و ١٢٠ ؛ قدامة ١٩٩ و ٢٠٠ و ٢١٢ ؛ ابن حوقل ٢٥٦ و ٢٥٧ و ٢٥٨ ؛ المقدسى ٤٠١ و ٤٠٢ ؛ المستوفى ١٩٥

والطريق الحالى من أصفهان الى طهران (مارا بالرى) يأخذ فى الصعود فيمر بقاشان وقم • اما طريق القوافل فى أوائل العصور الوسطى فكان اتجاهه الى الشرق أكثر والى حافة المفازة أقرب • وكان يتفرع من يساره نحو الغرب فروع تذهب الى قاشان وقم • على أن المقدسى فى ختام المئة الرابعة (العاشرة) قال ان هذا الطريق كان يذهب رأسا الى قاشان وقم ، أى على ما هو عليه اليوم • والذى فى المستوفى ان هذا الطريق بعد أن يجتاز بهاتين المدينتين ينعطف يسرة فيمر بآوه فساوه ثم الى السلطانية • وعند مرحلة سومغان يلتقى به الطريق الماد من هـذه العاصمة الجديدة الى الرى ، على ما سنصفه فى الفقرة التالية[٢١] •

وذكر ابن حوقل وغيره عدد مراحل الطريق فيما بين المدن التى فى غرب الرى حتى اذربيجان ، وكذلك مراحل الطريق من زنجان شمالا الى اردبيل • وقد أفاض المستوفى فى بيان مراحل هذا الطريق • فبين السلطانية والرى يمر الطـريق بأبهر الى فارسجين تاركا قزوين فى شماله • ومنها يبلغ مرحلة يقال لها سومغان (قراءة هذا الاسم غير ثابتة) وفيها ينقسم الطريق • فكان طريق خراسان يستقبل الرى مارا بمقام عبد العظيم ومنها الى ورامين • اما الفرع الآخر وهو الايمن فيتجه جنوبا • فيذهب طريق اصفهان أولا الى سكزاباد فساوه على ما مرّ وصفه[٢٢] •

ومن الطرق التى كانت تجتاز اذربيجان ، فى اوائل عهد الخلافة على ما سبقت الاشارة اليه ، الطريق الشمالى المتفرع من طريق خراسان عنـد همـذان الذاهب الى سيسر ومنها الى بَرزة فى اذربيجان ، وهى على ستين ميلا جنوب بحيرة ارمية حيث يتشعب هناك[٢٣] • فالى اليمين يمر الطريق بمراغة فى شرق البحيرة الى تبريز ثم يشرّق الى اردبيل مارا بسراو • والفرع الايسر المتفرع عند برزة يلازم غرب البحيرة فيمر بمدينة ارمية ثم الى خوى ومنها يمر بنخجوان (نشوى) فيصل دبيل قاعدة ارمينية • ومن تبريز كان يأخذ طريق فيمر بمرند الى خوى ومنها يمر بارجيش الى خلاط وهى فى الطرف الغربى لبحيرة وان • ولم يصف

(٢١) ابن رسته ١٩٠ و ١٩١ ؛ ابن خرداذبه ٥٨ و ٥٩ ؛ ابن حوقل ٢٨٩ و ٢٩٠ ؛ المقدسى ٤٩١ ؛ المستوفى ١٩٩ •

(٢٢) ابن حوقل ٢٥٢ و ٢٥٨ ؛ المقدسى ٣٨٣ ؛ المستوفى ١٩٦ و ١٩٨ •

(٢٣) أنظر الخارطة ٣ ص (١١٤) •

هذا القسم الاخير من الطريق غير الاصطخرى والمقدسى[٢٤] .

ومن اردبيل يجتاز الطريق كورة موغان فى الشمال فيبلغ ورثان . وهناك يعبر نهر ارس ومنهـا الى برذعة مارا بالبيلقان . ومن برذعة يتجه طريق يمر بشمكور فيتجه نحو الشمال الغربى ويصل الى نهر الكر ووجهته تفليس بجورجيا . أما فى اليمين فيأخذ طريق آخر يمرّ ببرزنج عند معبر نهر الكر وينتهى الى شماخى قاعدة ولاية شروان ومنها الى باب الابواب ويقال لها دربند . وذكر المقدسى وغيره طريقا من اردبيل قاعدة ارمينية الى برذعة ولكن ليس من اليسير التحقق من طوله[٢٥] .

وفى أيام المغول ، كان نظام الطرق القاطعة اذربيجان الى الحدود الشمالية الغربية على ما وصفه المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، يبدأ من السلطانية، العاصمة الجديدة ، ويتفرع عند زنجان . فالفرع الايمن وهو الشمالى كان يمر بالخونج أو كاغد كنان ويعبر سفيد رود ثم يمر بمدينة خلخال قاصدا اردبيل ومنها الى باجروان قاعده موغان . ومن زنجان يعبر الطريق سفيد رود على قنطرة حجر (يقال لها قنطرة سيد روذ) وبعض هذا الطريق ذكره أيضا الاصطخرى وابن حوقل مع ذكر طريق من الميانج . وبمتابعة وصف المستوفى للطريق من باجروان نرى انه أشار أولا الى الطريق الفرعى فى الشرق الى محمود آباد . ثم ذكر مراحل الجادة الكبرى الذاهبة من باجروان الى تفليس مارة ببرذعة وشمكور .

وان عدنا الى موضع تفرع الطريق فى زنجان ، رأينا ان الفرع الايسر ، وقد وصفه المستوفى ، يذهب الى الميانج فى اذربيجان ومنها الى تبريز مارا بأوجان متابعا الخط الذى وصفه بلدانيو العرب القدماء (باتجاه معاكس) . وذكر المستوفى أيضا الطريق من تبريز الى ارجيش على بحيرة وان ، ومنها يعدل عن الطريق الايسر المحاذى لشاطىء البحيرة الى خلاط . وذكر المسافات فى الطريق المتجه نحو الشمال الغربى الى ملاسجرد . ثم يمر بارزن الروم (ارضروم) مجتازا ارزنجان الى

---

(٢٤) ابن خرداذبه ١١٩ ـ ١٢١ ' قدامة ٢١٢ و ٢١٣ ' الاصطخرى ١٩٤ ' ابن حوقل ٢٥٢ ـ ٢٥٤ ؛ المقدسى ٣٨٢ و ٣٨٣ .

(٢٥) ابن خرداذبه ١٢١ و ١٢٢ ؛ قدامة ٢١٣ ' الاصطخرى ١٩٢ و ١٩٣ ' ابن حوقل ٢٥١ ؛ المقدسى ٣١٨ .

سيواس قاعدة اقليم الروم السلجوقي • وأخيرا ذكر المستوفي الطريق من تبريز باتجاه الشمال الشرقي الى باجروان وهو يمر بأهر ويجتـاز دربين من دروب الجبل • وروى المستوفي ان الوزير علي شاه بنى حديثا على هـذا الطـريق جملة ربط[٣٦] •

---

(٣٦) المستوفي ١٩٨ و ١٩٩ ؛ الاصطخري ١٦٤ ؛ ابن حوقل ٢٥٢ -

الفصل السادس عشر

خُوزستان

نهر دجيل اى كارون ـ خوزستان والاهواز ـ تستر او شوستر ـ الشاذروان العظيم ـ نهر المسرقان ـ عسكر مكرم ـ جنديسابور ـ دزفول ـ السوس ونهر كرخه ـ بصنا ومتوث ـ قرقوب ودور الراسبي ـ الحويزة ونهر تيرى ـ الدورق وكورة سرق ـ حصن مهدى ـ فيض دجيل ـ رامهرمز وكورة الزط ـ بلاد اللر الكبرى ـ ايذج او مال امير ـ سوسن ـ لردكان ـ تجارات خوزستان وغلاته ـ مسالكه .

يتألف اقليم خوزستان من الارض الرسوبية التى كوّنها نهر كارون وروافده الكثيرة . وقد عرف العرب نهر كارون باسم دجيل الاهواز[١] . وانما سموه بدجيل (تصغير دجلة) الاهواز لانه يمر بمدينة الاهواز فميزوه بذلك عن دجيل دجلة فى أعلى بغداد . ومعنى خوزستان « بلاد الخوز » ويكتب هذا الاسم أيضا بصورة حوز أو هوز . وجمع الهوز بالعربية الاهواز . وكانت الاهواز قاعدة الاقليم واسمها مختصر من « سوق الاهواز » . وتسمية هذا الاقليم بخوزستان اليوم قد بطلت ، وصارت هذه الولاية التابعة لبلاد فارس تسمى عربستان « أى اقليم العرب »[٢] . وكذلك تغيّر اسم نهر دجيل وصار يعرف الآن بنهر

(١) انظر عن خوزستان الخارطه ٢ ص ٤٠ .

(٢) عاد الفرس الى تسميتها بخوزستان منذ أيام البهلوى رضا شاه (م) .

كارون وهو اسم مصحف على ما يقال من كوه رنك « الجبل الملوّن » وهو الجبل الذي ينحدر منه هذا النهر فالاسم « كارون » على ما يظهر لم يعرفه بلدانيو القرون الوسطى من عرب وفرس .

وأعالي نهر دجيل ، أي كارون ، تتخلل الشعاب الجبلية في بلاد اللر الكبرى . اما روافده فتنحدر من بلاد اللر الصغرى وجبال كردستان . ومخرج دجيل في كوه زرد « الجبل الاصفر » (أنظر ص ٢٤٢) . ومن الجانب الثاني لهذه الجبال ينحدر نهر زندرود الذاهب الى اصفهان . وبعد ان يشق مجرى دجيل المتعرج وكثير من روافده الصغيرة سلسلة الجبال يصل الى مدينة تُستَّر وهي التي عدها المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قاعدة اقليم خوزستان . ولذلك سمي هذا النهر بدجيل تستر . ويخرج من النهر عند تستر فرع يعود ثانية اليه عند عسكر مكرم ومنها يمر بالاهواز حيث يلتقي هو ونهر جنديسابور أي نهر دزفول . ويأخذ نهر دزفول ماءه من بروجرد في اللر الصغرى (أنظر ص٢٣٥) . وكانت أعاليه تعرف باسم قرعة (أو توعة) وبعد ان يلتقي به نهر آخر يقال له كُزكي يجتاز النهر مدينة دزفول فيلتقي بدجيل على ما مرّ بنا . ولدجيل رافد كبير آخر أكثر اتجاها الى الغرب هو نهر السوس ويعرف أيضا بنهر كرخه . ومخرجه في جبال اللر الصغرى . وكان يلتقي به نهر كُوَنْكُو ونهر خُرّماباد . وبعد أن تجري هذه الانهار المتحدة مسافة طويلة وتجاوز مدينة السوس تأتي الى أراضي الحويزة في غرب الاهواز ثم تلتقي بدجيل . وعلى شيء يسير اسفل من ملتقى هذه الروافد ، يصير نهر دجيل فيضا عظيما يحمل مياه انهار خوزستان مجتمعة ويجري شرق فيض دجلة (على ما مر وصفه في الفصل الثاني) الى ان يصب في خليج فارس[٣] .

وكانت الاهواز ، وهي قاعدة الاقليم ، تعرف قديما باسم هرمز شهر (وجاءت في المخطوطات بصورة هرمز أوشير وهرمز اردشير) وهو اسمها الفارسي . ووصف المقدسي هذه المدينة بانها عانت كثيرا من اذى الزنج ابان ثورتهم في المئة

(٣)ابن سرابيون ٣٢ ؛ ابن رسته ٩٠ و ٩١ ؛ ياقوت ٢ : ٤٩٦ و ٥٥٥ ؛ المستوفي ٢٠٤ و ٢١٤ و ٢١٥ و ٢١٦ ؛ جهان نما ٢٨٦ .

الثالثة (التاسعة) واتخذها زعيمهم وقتا ما مقرا له • وفى المئة التالية أعاد الامير عضد الدولة البويهى بناء قسم منها • وأشار المقدسى الى ان البضائع والاموال كانت تحمل الى الاهواز من الاطراف فكانت « خزانة البصرة » •

وكانت الاهواز حين بنيت ، جانبين : الشرقى وهو الكبير ، وفيه الجامع ومعظم الاسواق ، وبينه وبين جزيرة فى نهر دجيل قنطرة • وفى الجزيرة جانب المدينة الغربى • والقنطرة من الآجر • ويقال لها قنطرة هندوان كان عضد الدولة هدمها وبناها وكان عليها مسجد يشرف على النهر • وعلى هذا النهر دواليب عدة يديرها الماء تسمى النواعير • وكان مجرى نهر دجيل نفسه يمر بحذاء جانب الجزيرة الأقصى وهو جانبها الغربى • وعلى شيء يسير أسفل الاهواز ، شاذروان عظيم قد بني من الصخر بتحجر الماء عنده • والشاذروان يرد الماء ويفرقه ثلاثة أنهار تمتد الى ضياعهم وتسقى مزارعهم التى فى يسار النهر فوق الشاذروان • وفى الشاذروان أبواب تفتح اذا كثر الماء لولاها لغرقت الاهواز • وهواء الاهواز على ما فى المقدسى منتن ذميم « وفى النهار حر السموم وفى الليل بق وبراغيث كالذئاب » على حد قوله • وذكر المقدسى انك تسمع للماء المنحدر من الشاذروان صوتا يمنع من النوم أكثر السنة • وفى المدينة عقارب وحيات وماء حميم وتراب سبخ ويقتات أهلها خبز الرز وهو عسر الهضم[٤] •

وعلى نقيض سمعة الاهواز السيئة ، كانت شهرة قاعدة خوزستان الثانية التى سماها العرب تستر والفرس شوستر أو شوشتر • وكانت هذه المدينة على ستين ميلا شمال الاهواز بخط مستقيم • وهى على ضعف هذه المسافة بطريق الماء لكثرة منعرجات دجيل • وقد ذكر المقدسى ان بساتين الاترج والعنب والنخل كانت تحف بمدينة تستر • وعلى ما روى ، ليس بالاقليم أطيب ولا أحسن ولا أجل من هذه المدينة • والحر عندهم شديد ، وكانت أسواقها عامرة « معدن كل حاذق فى عمل الديباج والقطن » ، وديباجها مشهور فى كل مكان • وكان الجامع وسط

(٤) الاصطخرى ٨٨ ؛ ابن حوقل ١٧١ ؛ المقدسى ٤٠٦ و ٤١٠ ؛ ياقوت ١ : ٤١٠ — ٤١٣ ؛ ٤ : ٩٦٩ ؛ المستوفى ١٦٩ •

الاسواق فى البزّازين ، وعند الجسر أسفل المدينة موضع نزه به القصّارون .

وفى سنة ٢٦٠ للميلاد وقع فاليريان Valerian قيصر الروم أسيرا بيد الملك شابور (سابور الاول) ثانى ملوك الدولة الساسانية . وفى السنوات السبع من اسره اشتغل ، على ما ذكر المؤرخون الفرس ، فى بناء الشاذروان العظيم الذى يقطع دجيل تحت تستر . وكان العرب يعدّون هذا الشاذروان من عجائب الابنية وما زالت آثاره باقية حتى اليوم : فلقد رصّ قاع النهر بالحجارة ورصف كله فى غرب تستر حتى تراجع الماء فيه وارتفع الى المدينة وانساب ماؤه فى قناة باتجاه الشرق كانت تعيد الماء الى النهر أسفل المدينة بأميال بعد ان تسقى تلك النواحى. وذكرت المراجع القديمة ان شاذروان تستر كان طوله نحوا من ميل . وعلى ما جاء فى المقدسى كان عليه جسر يعبره الطريق الضارب غربا من تستر الى العراق . ويعلو النهر قنطرة عتيقة ذات عقود صغيرة يربو طولها على ربع ميل وكانت فوق الشاذروان ، ومنها يعبر الطريق . وليس هناك ما يدل على وجود هذه القنطرة فى أوائل القرون الوسطى . ووصف المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) مدينة شوستر فقال : لها اربعة أبواب وفيها قلعة حصينة . وسمى معاصره ابن بطوطة نهر دجيل (أى كارون) النهر الازرق . وذكر جسرها فقال انه « كجسر بغداد والحلة » كان على النهر فى غرب المدينة عند باب دسبول[٥] . وتبسّط فى ذكر الترب المختلفة فيها وكانت المدينة حين زارها كثيرة الخيرات[٦] .

والشاذروان الكبير فى تستر قد بني ، على ما بيّنا ، ليرفع ماء النهر الى المدينة وليتسنى لمائه الدخول فى قناة تأخذ من دجيل فوق المدينة فيسقى ناحيتها الشرقية . ويقال لهذه القناة اليوم آب‌كركر . وكانت تعرف فى القرون الوسطى باسم المَسْرُقان أو المشرقان . وعلى رواية ابن مهلهل ـ وهو رحالة من أهل المئة

---

(٥) سيذكر المؤلف لها تسمية اخرى بصورة دزفول (م) .

(٦) الاصطخرى ٨٩ و ٩٣ ؛ ابن حوقل ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٥ ؛ المقدسى ٤٠٥ و ٤٠٩ ؛ ياقوت ١ : ٨٤٧ ؛ المستوفى ١٦٨ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٤ .

وقد روى الطبرى (١ : ٨٢٧) قصة فاليران وبناء سابور الاول للشاذروان . ودقق فى ذكر اسم قيصر الروم هذا بصورة الريانوس (وهو قريب جدا من اسمه الرومانى) . وسرد المسعودى أخبار هذه الحوادث فى أيام سابور الثانى خطأ (٢ : ١٨٤) .

الرابعة (العاشرة) نقل عنه ياقوت ــ ان ماء المسرقان أبيض وماء نهر دجيل نفسه أحمر • وكان يجتمع ثانية بنهر دجيل (وما كان من هذا النهر اسفل شوستر يسمى اليوم الشطيط) نهر المسرقان على نحو ٢٥ ميلا جنوب شوستر عند موضع يقرب من اطلال بندقير • وتشير هذه الاطلال الى موضع مدينة يقال لها عسكر مكرم وقد كانت فى القرون الوسطى اجل مدينة على المسرقان • وكان هذا النهر يشقها ويسقى اراضيها • وكان يكثر فيها قصب السكر ، وهو أجود ما يزرع منه فى خوزستان كلها على ما يقال •

وفى النصف الاول من المئة التاسعة (الخامسة عشرة) أشار حافظ ابرو وعلي اليزدى ، وقد كتبا بعد زمن تيمور ، الى هذه الانهار بالأسماء الآتية : فضلة مياه نهر دجيل نفسه المنسابة الى الشرق فوق شوستر (أى مياه المسرقان أو آب كركر) كان يقال لها حينذاك دودانكه أى السدسان «مثنى السدس» بينما كانت معظم مياه دجيل الجارية فوق الشاذروان غربى المدينة تسمى جهار دانكه أى « أربعة أسداس » • اما اليوم فيتفرع من دجيل نهر يتجه صوب الجنوب الشرقى يقال له مِينَو يجرى فى سَرَب منقور فى الصخور التى تقوم فوقها قلعة شوستر • وكان يسقى الاراضى العالية التى فى جنوب المدينة • وهذا النهر هو الذى ذكره المستوفى باسم نهر دشتاباد • وأشار اليه حافظ ابرو بقوله ان جهار دانكه كان يتشطر قرب المدينة شطرين احدهما كان يتحد ثانية اسفلها بدودانكه (أو المسرقان) • وعلى ما يقال ان اول من حفر نهر المسرقان اردشير بابكان مؤسس الدولة الساسانية • وذكر المستوفى مدينة المسرقان فقال انها تقوم على ضفة النهر • وجنوب هذه المدينة ، على ما بيّنا ، فى نحو نصف المسافة بين تستر والاهواز ، يعود نهر المسرقان فيصب فى دجيل قرب مدينة عسكر مكرم •

وكانت كورة المسرقان مشهورة بصنف فاخر من التمور وبقصب السكر الذى نوهنا به •

واما عسكر مكرم فقد سميت بذلك لان مكرما ، وهو قائد عربى كان الحجاج عامل بنى أمية المشهور على العراق قد بعثه الى خوزستان لاخماد فتنة نشبت هناك ،

قد عسكر قرب اطلال مدينة فارسية يقال لها رستم كواذ ، وصحّف العرب هذا الاسم وقالوا رستقباذ ، فعرفت بعسكر مكرم • ونشأت فى موضع المعسكر العربى مدينة جديدة بهذا الاسم • وقد زال اسم عسكر مكرم من الخارطة ولكن موضعها تشير اليه الخرائب المعروفة باسم بندقير أى (سد القير) حيث يلتقى آب كركر (المسرقان) بنهر كارون • وفى المئة الرابعة (العاشرة) كانت عسكر مكرم مدينة ذات جانبين يشقها نهر المسرقان أعمرهما الجانب الغربى ، وبين الجانبين جسران من سفن • والمدينة بهية الاسواق كثيرة الخير وأسواقها وجامعها فى الجانب الغربى • ومن عيوب عسكر مكرم عقارب سامة لا يسلم من لسعها أحد • وعلى ما فى المستوفى كان يقال للمدينة الفارسية القديمة برج شابور • وانما سميت بذلك لان الملك سابور الثانى جدد عمارتها ووسعها • وذكر المستوفى انها كانت تسمى فى أيامه لشكر ومعنى ذلك بالفارسية « العسكر » وكانت حين كتب فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) اصح مدينة فى خوزستان كلها •

ونهر المسرقان ، على ما جاء فى ابن سرابيون وغيره من المصنفين الاولين فى المئة الرابعة (العاشرة) ، لا يرجع الى دجيل فيصب فيه عند عسكر مكرم بل يواصل جريه وحده بموازاة نهر دجيل فينتهى آخره الى الفيض • وقد وصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ركوبه نهر المسرقان وقت نزول الماء فيه من عسكر مكرم الى الاهواز وقال « سرنا فى الماء ستة فراسخ ثم خرجنا وسرنا فى وسط النهر وكان الباقى من هذا النهر (أربعة فراسخ) طريقا يابسا الى الاهواز » • ولا يمكن الآن تعقب معالم القسم الاسفل من مجرى المسرقان القديم لأن مضي الف من السنين على هذه الارض الرسوبية قد غير وجه الارض كل التغير • وأسفل من الاهواز كان يبدأ فى المئة الثالثة (التاسعة) القسم العريض الاخير من دجيل المعروف بنهر السدرة وبعد ان يستقبل كثيرا من الروافد ينتهى الى حصن مهدى قرب رأس فيض كارون[٧] •

---

(٧) ابن سرابيون ٣٢ ؛ الاصطخرى ٩٠ و ٩٢ ؛ ابن حوقل ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٥ ؛ المقدسى ٤٠٩ و ٤١١ ؛ على اليزدى ٥٨٨ و ٥٩١ و ٥٩٩ ؛ حافظ ابرو ٨٢ أ ؛ المستوفى ١٦٩ و ١٧٠ ؛ ياقوت ١ : ٤١١ و ٤١٢ ؛ ٢ : ٦٧٦ ؛ حمزة الاصفهانى ٤٧ •

وعلى ثمانية فراسخ شمال غربي تستر ، في الطريق الى دزفول ، الاطلال التي يقال لها اليوم شاه آباد . وهي تعين موضع مدينة جند يسابور أو جند يشابور . وقد كانت جنديسابور في أيام الساسانيين قاعدة خوزستان، وبقيت حتى أيام الخليفة المنصور مشهورة بمدرستها الطبية المطبمة التي أسسها الطبيب النصراني بختيشوع ومن بعده ابناؤه وأحفاده وكانوا من ذوى الحظوة لدى غير واحد من خلفاء بنى العباس . وكان يكثر في نواحيها قصب السكر ويحمل الى خراسان وأقاصى الشرق . على ان المقدسي ذكر في المئة الرابعة (العاشرة) ان جند يسابور « قد اختلّت وغلب عليها الاكراد » . « ولهم طُرُز كثير ومزارع الارزاز » . وفي المدينة قبر يعقوب بن الليث الصفار . وكان قد اتخذ هذه المدينة قاعدة له ومات فيها سنة ٢٦٥ (٨٧٨) . وقال المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان جندى شابور آهلة ، فيها قصب السكر . اما اليوم فليس منها الا آثار .

ودزفول أي « قنطرة دز » أو « قنطرة القلعة » ، على نهر دز جنوب جند يسابور . وانما سميت بذلك لانها عند قنطرة مشهورة يقال ان سابور الثاني بناها . وقد سماها الاصطخري قنطرة اندامش ، وما زالت آثارها شاخصة . وكان يقال للمدينة أيضا في المئة الرابعة (العاشرة) قصر روناش . على ان المقدسي أشار اليها أحيانا باسم مدينة القنطرة فقط . ولهذه المدينة وقنطرتها المشهورة اسماء أخرى . فابن سرابيون سماها قنطرة الروم . واسم دز اطلقه على نهر جند يسابور . اما ابن رسته فذكرها باسم قنطرة الروذ « أي قنطرة النهر » . وابن خرداذبه باسم قنطرة الزاب، فان الزاب اسم نهر دز على رأيه. ووصف المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) القنطرة فقال انها ٤٢ عقدا وطولها ٣٢٠ خطوة وعرض الطريق الذى فوقها ١٥ خطوة . وكانت تسمى على قوله قنطرة انديمشك (أو اندامش) .

وكانت مدينة دزفول على جانبي النهر وفوق جانبها الشرقي قناة منقورة في الصخر عليها ناعور عظيم يرفع الماء الى علو خمسين ذراعا فيسقى بيوت المدينة . وحول دزفول مراتع مشهورة يكثر فيها النرجس . وذكر علي اليزدى هذا

النهر باسم « زال » . ووصف القنطرة فى دزفول (وقد كتب الاسم بصورة دزيل على الطريقة الفارسية) بانها ذات ٢٨ عقدا كبيرا و ٢٧ عقدا صغيرا تتخلل العقود الكبار ، فكلها ٥٥ عقدا . وان رجعنا الى الخارطة الحديثة وجدنا ان نهر دزيل اليوم يلتقى بكارون بازاء بندقير (عسكر مكرم) . الا انه كان قديما يصب فى دجيل اسفل من ذلك بقليل . ولعل مجراه الاعلى كان أقرب الى جند يسابور مما هو عليه الآن . وكان عند ملتقاه بدجيل فى القرون الوسطى ، ولعل ذلك فى شمال الاهواز ، كورتان خصبتان فيهما مدن كبيرة يقال لهما مناذر الكبرى ومناذر الصغرى . وذكر ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ان هاتين الكورتين « عامرتان بالنخيل والزروع »[٨] .

والارض التى فى شمال دزفول وتستر وشرقهما كانت تعرف فى أوائل القرون الوسطى بصحراء اللر . وأهلها من قبائل اللر . وقد هاجرت منها بعد هذا العهد الى الكورتين الجبليتين : اللر الصغرى واللر الكبرى . وهما من اقليم الجبال على ما بيّنا فى الفصل الرابع عشر . وحين كتب ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) كان اللر قد بدأوا بهجرتهم فقد ذكر هذا المصنف ان الغالب على هذه الانحاء الاكراد . وقال ان بلد اللر « خصب عليه هواء الجبال »[٩] .

والى جنوب غربى دزفول اطلال السوس وهى سوسة القديمة قرب نهر كرخة . وقد كانت فى القرون الوسطى مدينة آهلة وقصبة كورة يتبعها مدن كثيرة . ويكثر فيها القز والنارنج وقصب السكر . وكان فيها قلعة محكمة قديمة وبها أسواق بهية وجامع سوي على أساطين مدورة . ويروى ان قبر النبي دانيال قد بني فى عقيق نهر كرخة المار فى الجانب الابعد من مدينة السوس . وعلى

---

(٨) ابن رسته ٩٠ ؛ ابن خرداذبه ١٧٦ ؛ ابن سرابيون ٣٢ ؛ الاصطخرى ٩٣ و ٩٥ و ١٩٧ ؛ ابن حوقل ١٧٦ و ١٧٧ و ٢٥٩ ؛ المقدسى ٣٨٤ و ٤٠٥ و ٤٠٨ ؛ اليعقوبى ٣٦١ ؛ ياقوت ٢ : ١٣٠ ؛ ٤ : ١١١ ؛ المستوفى ١٦٩ ؛ على اليزدى ١ : ٥٨٨ و ٥٩١ .

اما الاطباء المعروفون باسم بختيشوع فكانوا نصارى فى خدمة الخلفاء العباسيين منذ أيام المنصور حتى هرون الرشيد ، فقد كانوا اطباء دار الخلافة . راجع عنهم ابن ابى اصيبعة ١ : ١٢٥ — ١٤٣ و ٢٠٢ طبعة أ . ملر .

(٩) الاصطخرى ٨٨ و ٩٤ ؛ ابن حوقل ١٧١ و ١٧٦ ؛ المقدسى ٤٠٩ .

حافة النهر فى أقرب موضع من القبر المزعوم ، مسجد حسن يشير الى مكان هذا القبر . ووصف المستوفى هذه المدينة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقال انها موضع زاهر وذكر قبر النبي دانيال فى غربيها (والظاهر انه كان حينذاك فى ارض يابسة) وقال انهم يحرمون صيد السمك فى هذا النهر تكريما لدانيال . ومدينة كرخا (أو كرخة) وهى درب السوس ، وبها يعرف الآن نهر كرخة المار بتلول السوس ، على شيء يسير فوق هذه الاطلال وهى فى يمين النهر أى فى جانبه الغربى . وصفها المقدسى فقال : « صغيرة عامرة طيبة ، سوقها يوم الاحد ، وعليها حصن ، ولها البساتين »[١٠] .

وذكر البلدانيون القدماء جملة مواضع على نهر كرخة أو بالقرب منه ، منها ما كان فى الغرب ومنها ما كان أسفل السوس ، قد كانت مدنا جليلة فى القرون الوسطى ولكن لا أثر لها اليوم فى الخارطة الحديثة ومع ذلك فقد لمحت كتب المسالك عن مواضعها بوجه تقريبى . وكان من أهم هذه المدن : بَصِنّا وهى على أقل من مرحلة جنوب السوس على نهر (أو لعله رافد صغير من روافد نهر كرخة) كان يقال له دجيل بصنّا وكانت مركزا تجاريا عظيما . وفى بصنا تعمل الستور التى تحمل الى الآفاق، المكتوب عليها « عمل بصنا » وينسجون فيها الأنماط[١١] ويغزلون الصوف « وعليها حصنان محكمان . والجامع حسن على باب المدينة من نحو النهر والنهر منها على رمية سهم » . وفى دجيل نهرها « سبعة ارحية فى السفن » على ما فى المقدسى . وقرب بصنا مدينة بيروت أو بيروذ وهى على مرحلة أيضا من السوس ولعلها الى غرب نهر كرخا . زارها ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) . وقال المقدسى انها كبيرة بها نخل كثير يسمونها « البصرة الصغرى » لرواج تجارتها .

ومتّوث أو متّوث فيها قلعة حصينة وهى من مدن هذه الانحاء على تسعة فراسخ من جنوب السوس بين الاهواز وقرقوب . وقُرقُوب - وبها يعمل النسيج

---

(١٠) الاصطخرى ٨٨ و ٩٢ و ٩٣ ؛ ابن حوقل ١٧٤ ؛ المقدسى ٤٠٥ و ٤٠٧ و ٤٠٨ ؛ المستوفى ٢٩٠ ؛ ابو الفداء ٣١١ ؛ ياقوت ٤ : ٢٥٢ (وطبع فيه اسم كرخا بصورة كرجا خطأ) .

(١١) الانماط : واحدها النمط . وهو ضرب من البسط . أنظر : تاج العروس ٥ : ٢٣١ (م)

المطرّز المعروف بالسوسنجرد ـ مدينة ذات شأن في نصف الطريق بين السوس والطيّب التي في العراق • وكانت على مرحلة من السوس ومرحلتين من بصنا • وفي هذه الكورة مدينة أخرى لا يعرف موضعها ولعلها في شمال قرقوب ، هي دور الراسبي • وصفها ياقوت بانها بين الطيب وجند يسابور وفي هذه الدور ولد وعاش الراسبي[١٢] • وقد مات في سنة ٣٠١ (٩١٣) وتقلد الولاية سنين كثيرة من حد واسط الى حد شهر زور في أيام الخليفة المقتدر • واشتهر الراسبي بثرائه العظيم ، فقد خلف مالا عظيما أورد ياقوت كشفا غريبا به[١٣] •

وكان يتصل بنهر كرخة في نحو سمت الاهواز أنهار تنحدر من الحُوَيزَة (أو الحويزة وهي تصغير حوز أو هوز على ما مر بيانه ، وهم أهل هذا الاقليم) • وقد وصفها المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقال هي من ازهر مدن خوزستان يكثر فيها القمح والقطن وقصب السكر • وكان يسكن المدينة في ذلك الزمن الصابئة[١٤] • وكانت مدينة نهر تيرا أو نهر تيرين على نهر أو ترعة بهذا الاسم يظهر انه كان من الروافد اليمنى في أسفل نهر كرخة بارض الحويزة • وكانت على مرحلة غرب الاهواز في طريق واسط « وبها ثياب تشبه ثياب بغداد وتحمل اليها فتدلّس بها » •

ويأتي نهر كرخة من الغرب فيصب في دجيل تحت الاهواز وربما في أسفل مجراه العريض ، على ما أشرنا اليه ، وهو المعروف بنهر السدرة • وفي الشرق أسفل من ذلك ملتقى نهر الدورق به ، وعليه مدينة باسمه وهي قصبة كورة سُرَّق يقال لها دَوْرَق الفرس « وهي ذات رستاق واسع وسوق كبير وخصائص

---

(١٢) هو ابو الحسين علي بن احمد الراسبي وكان من عظماء العمال وافراد الرجال (معجم البلدان ٢ : ٦١٧) (م) •

(١٣) الاصطخري ١٧١ و ١٧٥ ؛ ابن حوقل ٩٣ ؛ المقدسي ٤٠٥ و ٤٠٨ ؛ ياقوت ١ : ٦٥٦ و ٧٨٦ ؛ ٢ : ٦١٦ ؛ ٤ : ٦٥ و ٤١٢ ؛ حافظ ابرو ٨٢ ب ؛ ابو الفداء ٣١٣ •

(١٤) ما زال الصابئة يسكنون في تلك الانحاء وعلى ضفاف دجلة الجنوبي في العراق • راجع عنهم ما كتبه الاب انستاس الكرملي في المشرق (السنوات ١٩٠٠ ـ ١٩٠٢) وعبد الحميد عبادة في كتابه مندائي ، ولا سيما كتاب الليدي دراور E. S. Drower : The Mandaeans وكتابنا « العراق في القرن السابع عشر كما رآه الرحالة تافرنيه » (ص ١٠٠ ـ ١١٥) وفيه تعليقات وبحث نافعة عن الصابئة للدكتور عبد الجبار عبدالله ، وهو منهم (م) •

وخيرات وسوقها متشعب واليها يقصد حجاج فارس وكرمان ، فى طريقهم الى مكة . وكانت الدورق مشهورة بستورها ، والجامع على طرف السوق . وعلى نهرها قرى كثيرة وبها الكبريت الاصفر قرب عيون الكبريت الحارة ، يقصد حماماتها اصحاب العاهات ، فمن نزل فيها يسيراً يسيراً انتفع بمائها ، وهى تنبع فى جبل ويجتمع ماؤها فى حوضين[١٥] . وفى المئة الرابعة (العاشرة) كان فى الدورق أبنية ساسانية عجيبة وبها بيت نار أيضا على ما ذكر ابن مهلهل .

وفى هذه الكورة قرب الدورق مدينتان ، هما ميراقيان وميراثيان وقد وصفهما المقدسى الاولى على « نهر يصل اليه المد والجزر ، وبرستاقها قرى كثيرة وأعمال نفيسة » . وميراثيان ، ذات جانبين فى كل جانب جامع ولها أسواق عامرة . ومياه الاهوار التى فى جنوبى اقليم خوزستان كانت تنصرف فى المئة الرابعة (العاشرة) الى خليج فارس فى انهار تنحدر جنوبا من الدورق وتصب فى البحر عند باسيان . وكان قرب باسيان جزيرة دورقستان وقد ذكرها ياقوت والقزوينى وقالا « برفأ اليها مراكب البحر التى تقدم من ناحية الهند ، وفى وسطها قلعة كان فى أيام الخلفاء يحمل اليها المنفيون من بغداد » . وكانت السفن حتى المئة السابعة (الثالثة عشرة) تصعد فيها شمالا فتسلك انهارا وترعا تجرى الى عسكر مكرم فى الناحية الشرقية من دجيل[١٦] .

ونهر دجيل أسفل الاهواز يزداد عرضا فيصبح فيضا يصل اليه المد والجزر وهو القسم الأسفل من نهر السدرة . وعلى هذا الفيض سوق بحر ، وهو موضع كان حتى أيام الخليفة المقتدر فى منتصف المئة الرابعة (العاشرة)[١٧] تجبى فيه مكوس باهظة . ومدينة سوق الاربعاء ، بالقرب منه ، وهى فى شرق دجيل على نهر يشق المدينة الى جانبين بينهما قنطرة من خشب تحتها السفن . والجانب الشرقى

---

(١٥) قال القزوينى (٢ . ٢٤٦) ان الماء يجتمع فى حوضين احدهما للرجال والآخر للنساء (م) .

(١٦) الاصطخرى ٩٣ ؛ ابن حوقل ١٧٦ ؛ المقدسى ٤٠٧ و ٤١٢ ؛ ياقوت ١ : ٤١١ ، ٢ : ٣٧١ و ٦١٨ و ٦٢٠ ؛ المسعودى ١٦٩ ؛ القزوينى ٢ . ١٣٠ و ٢٤٦ . ويظهر ان كلا من مدينتى نهر تيرا ومناذر كان موضعا جليلا فى ايام بنى امية فقد كانتا بين سنتى ٩٠ و ٩٧ (٧٠٩ ـ ٧١٦) دارا لضرب النقـــود .

(١٧) قتـل المقتدر سنة ٣٢٠ فهو لم يبلغ نهاية الثلث الأول من المئة الرابعة فضلا عن منتصفها (م) .

من سوق الاربعاء أعمر وفيه الجامع ، ومدينة جُبّا بقربها ، وفيها يكثر قصب السكر ، وهي ذات قرى عامرة .

وفي رأس فيض دجيل العريض حصن يقال له حصن مهدى ، به جامع ورباطات . وقد بنى الحصن على ما يقال الخليفة المهدى أبو هرون الرشيد . وحصن مهدى على بضعة أميال فوق متفرّع النهر العضدى الجارى غربا والموصل رأس فيض دجيل بدجلة الأعمى عند بيان . ويحف بهذا النهر سباخ وأهوار (أنظر الفصل الثالث ص ٦٩) . اما فيض دجيل فينصب في خليج فارس عند سليمانان . وهي مجاز خطر للمراكب التي كانت على ما يظهر تصل الى الاهواز بصورة أسلم اذا ما جازت في الانهار والجداول المختلفة مارة بباسيان في صعودها الى الدورق ومنها تتابع طريقها في نهر السدرة . أما حصن مهدى ، ولا يعرف موضعه الصحيح ، فيقال انه كان يقوم عند ملتقى طرق كثيرة ويسيطر على أعالى فيض دجيل حيث كان يبلغ عرضه هناك نحو فرسخ . وذلك اسفل مصاب انهار كثيرة تأتى من أرض الحويزة من الشمال الغربي ومصب نهر الدورق الآتي من الشرق . ومن فوق هذا الموضع بدء نهر السدرة الصاعد الى الاهواز والاهواز تبعد عشرين فرسخا عن حصن مهدى(١٨) .

وعلى مسيرة ثلاثة أيام من شرق الاهواز مدينة رامهرمز وما زالت تعرف بهذا الاسم . وانما سميت بذلك نسبة الى الملك هرمز حفيد اردشير بابكان . وفي المئة الرابعة (العاشرة) اشتهرت هذه المدينة بدود القز وبالابريسم الذي يحمل منها الى سائر الآفاق . وكان في رامهرمز جامع بهى وأسواق عامرة بناها عضد الدولة البويهى . وروى المقدسي انه « جعل على أسواقها دروب تغلق في كل ليلة يسكنها البزازون والعطارون والحصارون » . وكان بها على ما قال دار كتب مشهورة يدرس فيها ، أنشأها ابن سوّار كدار الكتب التي في البصرة . وشرب أهل رامهرمز من نهر يأخذ من نهر طاب . وكان هذا النهر يجف غالبا في أيام

---

(١٨) ابن سرابيون ٣٠ ؛ قدامة ١٩٤ ؛ الاصطخرى ٩٣ و ٩٥ ؛ ابن حوقل ١٧٢ و ١٧٦ ؛ المقدسي ٤١٣ و ٤١٩ ؛ ياقوت ١ : ١٨٥ ؛ ٢ : ١٢ ؛ ٣ : ١٩٣ .

الصيف • وكان الناس فيها « يحتاجون في ليالي الصيف الى الكلل مع كثرة البق » على قول المقدسي • وذكر المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ان اسم رامهرمز كان يختصر حينذاك الى رامز وظلت حتى أيامه مدينة زاهرة يكثر في ارجائها القمح والقطن وقصب السكر •

وعلى ستة فراسخ من جنوب شرقي رامهرمز ، في طريق ارّجان ، غير بعيد عن نهر طاب وهو نهر بين حدود اقليم فارس : الحومة أو ديار الزطّ ويقال لهم أيضا الجات • وهم قبائل جاءت من الهند (وهم التَّوَرّ على ما يقال) • ويسقى هذه الكورة نهر طاب • وفيها قريتان عامرتان هما الزط والخابران • ووراءهما ، قبل أرّجان بمرحلتين عند حدود فارس في الطريق بين ارّجان والدورق : آسَك وهي بلدة صغيرة وبناحيتها على ما في الاصطخري بركان صغير[١٩] • وآسك بلدة ذات نخيل وبها يعمل الدوشاب ـ وهو دبس الزبيب ـ الذي يحمل منها الى الآفاق • وبالقرب من آسك آثار ساسانية هي ايوان عال بازاء قبة منفة بنيف سمكها على مئة ذراع بناها الملك قباذ على عين غزيرة • والى شرق آسك ، على بضعة أميال من أرّجان غرب القناطر التي على نهر طاب ، مدينة سنبيل الجارية في وسط كورة باسمها • وكانت متاخمة لحدود فارس[٢٠] •

وديار اللر في شرق تستر وشمالها بامتداد نهر دجيل الاعلى (نهر كارون) وروافده الكثيرة • اما البلاد التي في شرق كارون الاعلى وجنوبه (ونهر كارون يؤلف هنا عدوة كبيرة وينثني راجعا وذلك بين منبعه في الجبال التي هي غرب اصفهان وموضع في شمال تستر ومنها ينحاز أخيرا نحو الجنوب فنحدر الى خليج فارس) فقد سماها المستوفي اللر الكبرى وهي تتاخم ولاية شولستان عبر الحدود

---

(١٩) في الاصطخري (ص ٩٢) . « ولهم بناحية آسك مناخما لارض فارس جبل يتقد منه نار ابدا لا يطفى • ويرى منها الضوء بالليل والدخان بالنهار وهو في حد خوزستان • ويشبه مما اظن انه عين نفط او زفت أو غيره مما تتصل فيه النار ، فوقع فيه على قديم الايام نار ، فعلى قدر ما تخرج تحترق ابدا فيما أحسبه من غير ان رأيت علامة لذلك ولا سمعت به وأنا اقوله ظنا » • (م) •

(٢٠) الاصطخري ٩٢ و ٩٣ و ٩٤ ؛ ابن حوقل ١٧٥ و ١٧٦ ؛ المقدسي ٤٠٧ و ٤١٣ ؛ ياقوت ١ : ٦١ ؛ المستوفي ١٦٩ •

والغريب ان ياقوتا ذكر (٢ : ٧٦١) قرية الزط خطا فوضعها بصورة الرط مع انه يعرف الزط حق المعرفة وقد ذكر في مادة « الزط » (٢ : ٩٣٠) انه نهر باسمهم •

في فارس . وكانت أولى مدن اللر الكبرى : ايذج ويقال لها أيضا مال الامير . وصفها المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) بانها من اجل مدن خوزستان وهي قرب الجبال . وقصر السلطان في موضع يقال له أسد أباد ويقع بها في الشتاء ثلج كثير يخزن ويحمل الى الاهواز والنواحي الاخرى لبيعه فيها صيفا . ومزارعهم على الامطار وفيها أجود أنواع الفستق . وقال ابن بطوطة ، وقد زارها في مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، ان الغالب على تسمية ايذج في زمنه مال الامير . وهي ما زالت حتى اليوم تعرف بهذا الاسم ولا يقال لها ايذج .

وكانت ايذج الى ذلك مشهورة بقنطرتها العظيمة على دجيل ، وقد وصفها ياقوت فقال هي من عجائب الدنيا المذكورة . كانت هذه القنطرة وما زالت آثارها باقية تعرف بقنطرة خرّه زاد ، وانما سميت بذلك نسبة الى أم الملك اردشير . والقنطرة مبنية على واد ، وهي طاق واحد تعلو مئة وخمسين ذراعا عن الوادي « ودونها بفرسخين سَور من الماء[٢١] يعرف بفم البواب وكان هذا الصور خطرا » . وقد جدد هذه القنطرة في المئة الرابعة (العاشرة) وزير ركن الدولة البويهي[٢٢]. واستغرق العمل في ذلك سنتين . وكانت حجارتها تلتحم بالرصاص والحديد . وقيل انه انفق على هذا العمل مئة وخمسين الف دينار[٢٣] (٧٥ الف باون) وروى ياقوت ان ايذج كثيرة الزلازل وبها معادن كثيرة وبها ضرب من القاقلي تنفع عصارته النقرس . وزاد على ذلك ان بها بيت نار عتيق كان يوقد الى أيام الرشيد .

وعلى ضفتي النهر ، على أربعة فراسخ شمال غربي ايذج ، مدينة صغيرة يقال لها سوسن وتعرف أيضا باسم عَرُوج (أو عروح) . وحول هذا الموضع بساتين يكثر فيها العنب والنارنج والاترج والليمون . وقال المستوفي ان الجبال ، التي لا يفارقها الثلج صيفا ، تبعد عنها نحو اربعة فراسخ . وكان يقال لعروج أو سوسن : جابلَق أيضا . ويرى بعض المصنفين انها « شوشن القصر » المذكورة

---

(٢١) هو مجمع النهار . وكل ماء دائر يسمى سورا (م) .

(٢٢) اسم هذا الوزير « ابو عبدالله محمد بن احمد القمي » (آثار البلاد ص ٢٠١ ـ ٢٠٢) (م).

(٢٣) في القزويني (٢ : ٢٠٢) : « لم يمكنهم عقد الطابق الا بعد سنين فانه انفق على ذلك سوى أجرة الفعلة ... ثلاثمئة الف وخمسين الف دينار » (م) .

في سفر دانيال[٢٤]، وعلى نحو مئة وخمسين ميلا شرق مال الامير ، على حدود فارس وقرب أقصى روافد كارون في الشرق ، مدينة لرجان (وتسمى أيضا لردكان أو لركان وكلها صور مشتقة من اسم لر) • وقد وصفها الاصطخري بانها قصبة رستاق سردان (أو السردن) وهي مدينة واسعة كثيرة الاشجار أطرى المستوفي عنها الكثير • تعد في الغالب من أعمال اقليم فارس لانها على حدوده[٢٥] •

وأهم تجارات خوزستان وغلاتها السكر • فان قصب السكر كان يكثر في كل ناحية منها • قال المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) : « كل سكر تراه ببلدان الاعاجم والعراق واليمن فمن خوزستان يحمل » • وقال يعمل بالاهواز قوط من القز حسنة تلبسها النساء • ومن تستر يرتفع الديباج الحسن المشهور في سائر الآفاق والانماط والثياب الحسنة • ويحمل من تستر فواكه كثيرة ولاسيما الدستنبوي (البطيخ) • ومن السوس وهي موطن قصب السكر يحمل السكر الكثير الى سائر الجهات وبها بز وخزوز • ومن عسكر مكرم مقانع القز والمناديل والثياب • ومن بصنّا الستور الجيدة • ومن قرقوب الانماط • ومن نهر تيرى أزر كبار[٢٦] •

وكانت انهار خوزستان صالحة لسير السفن ، وأكثر تجاراتها تنقل بين مدنها في تلك الانهار • ومجتمع طرقها في الاهواز ، وللقادم الى الاهواز من البصرة ان يقصدها بطريق الماء في النهر العضدي أو في البر فيجتاز السبخة من عسكر ابي جعفر بازاء الأُبُلّة الى حصن مهدي ومنها الى الاهواز مارا بسوق الاربعاء[٢٧] •

وقد اورد الاصطخري والمقدسي المسافات بين مدن خوزستان بكثير من التفصيل • فقد كان يخرج من الاهواز طريق يتجه غربا الى نهر تيرى ثم الى واسط

---

(٢٤) ما في سفر دانيال (٨ ٢) • « فرايت في الرؤيا وكان في رؤياي وانا في شوشن القصر الذي في ولاية عيلام » • (م) •

(٢٥) الاصطخري ١٠٣ و ١٢٦ ؛ ابن حوقل ١٨٢ و ١٩٧ ؛ المقدسي ٤١٤ ؛ القزويني ٢ : ٢٠١ ؛ ياقوت ١ : ٤١٦ ؛ ٤ • ١٨٩ ؛ المستوفي ١٥١ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٦ •

وعن سوسن راجعما قاله السر هنري لايارد والسر هنري رولنسون في JRGS لسنة ١٨٣٩ ص ٨٣ وسنة ١٨٤٢ ص ١٠٣ •

(٢٦) المقدسي ٤١٦ •

(٢٧) قدامة ١٦٤ ؛ المقدسي ١٣٥ •

في العراق . ويبدأ الطريق الشمالي من قاعدة الاقليم فيمر بعسكر مكرم الى تستر . ويتجه غربا من جند يسابور والسوس الى الطيب . ومن الطيب طريق آخر يذهب الى واسط .

وذكر المقدسي الطريق الذي يخترق جبال اللر من جند يسابور الى گل بايكان في اقليم الجبال وهو شمال غربي اصفهان . وكان يخرج من عسكر مكرم طريق آخر (وصفه قدامة وغيره) يتجه شرقا الى ايذج ومنها يجتاز الجبال فيصل الى اصفهان(٢٨) .

وكان يلتقي في رامهرمز طريقان احدهما من عسكر مكرم والآخر من الاهواز . ومن رامهرمز يضربان شرقا ويصلان حدود فارس عند نهر طاب خلف ارّجان . وقد ذكر قدامة وغيره من المصنفين هذين الطريقين فأشاروا الى انهما قسم من الطريق الذاهب من البصرة الى شيراز . وذكر الاصطخري أيضا طريقا آخر معظمه بالماء من حصن مهدي الى ارّجان يمر بباسيان على الساحل الى الدورق ومنها الى آسك فارّجان . وقد ذكر المقدسي المراحل من شمال رامهرمز الى ايذج ، ووصف أيضا طريقا من رامهرمز يجتاز جبال اللر الى اصفهان وطريقا آخر يجتاز صحراء اللر شمال دزفول فيمر بسابور خواست الى كرج ابي دلف ، على انه لم يذكر المسافات الا بالمراحل . ومن الصعب ، ان لم يكن مستحيلا ، تعيين مواضع هذه المراحل الآن . وقد ذكر المقدسي طريقا ثالثا في الشمال يخترق الجبال من ارّجان في سبعة أيام حتى يصل سميرم (في فارس) في جنوب اصفهان ويصاقب حدود خوزستان وفارس(٢٩) .

---

(٢٨) الاصطخري ٩٦ ؛ ابن حوقل ١٧٨ ؛ المقدسي ٤١٨ ـ ٤٢٠ ؛ ابن رسته ١٨٧ و ١٨٨ ؛ قدامة ١٩٧ .

(٢٩) قدامة ١٩٤ ؛ ابن رسته ١٨٨ ؛ الاصطخري ٩٥ ؛ ابن حوقل ١٧٧ ؛ المقدسي ٤٠١ و ٤٢٠ و ٤٥٣ و ٤٥٩ .

الفصل السابع عشر

فارس

تقسيم الاقليم الى خمس كور ـ كورة اردشير خره ـ شيراز ـ بحيرة ماهلوية ـ نور
سكان ـ جويم ـ بحيرة دشت ارزن ـ كوار ـ خير والصمكان ـ كارزين
وكورة فساذ خره ـ جهرم ـ جويم ابى احمد ـ ماندستان ـ
ايراهستان ـ جور او فيروز اباد ـ اسياف
فارس ـ جزيرة قيس ـ سيراف ـ
نجيرم ـ توج ـ الفندجان ـ
خارك وسائر جزر
خليج فارس .

كان اقليم فارس ، موطن الدولة الاخمينية وقاعدة حكومتها . وقد عرفه اليونان باسم برسس (Persis) ، وجروا خطأ على استعمال اسم هذا الاقليم الاوسط وأرادوا به المملكة كلها . وشاع وهمهم فى استعمال هذا الاسم فى انحاء أوربة الى يومنا هذا . فالاسم Persia (بلاد فارس) عندنا ـ وهو مشتق من Persis اليونانية ـ قد صار اسما عاما يطلق على دولة الشاه بأسرها ، فى حين ان الفرس أنفسهم يسمون بلادهم مملكة ايران . وما فارس ، أى Persis القديمة ، الا اقليم واحد من أقاليمها الجنوبية . وقد ورث العرب عن المملكة الساسانية تقسيم فارس على خمسة أقسام ، يقال لكل قسم منها كورة . وظل هذا التقسيم ـ ومن الملائم أن نأخذ به فى وصف الاقليم ـ معمولا به حتى أيام المغول . وهذه الكور الخمس ، هى : (١) أردشير خرّه ، وقصبتها شيراز

أولى مدنها . (٢) سابور أو شابور خُرّة ، ومدينتها شابور وهى أكبر مدنها . (٣) أرَجان ومدينتها العظمى أرّجان . (٤) اصطخر ، ومدينتها اصطخر القديمة (برسبوليس Persepolis) قصبة فارس الساسانية . وأخيرا (٥) دار ابجرد ، ومدينتها بالاسم نفسه دار ابجرد .

ثم ان مما يحسن ذكره ، أن اقليم فارس ، كان فى أيام الخلافة يضم مدينة يَزْد وناحيتها وناحية روذان (وهى بين أنار الحديثة وبهرام أباد) . وقد كانت هاتان الناحيتان جزءا من كورة اصطخر . على ان يزد ، بعد الفتح المنولى ، كانت من اقليم الجبال . أما اليوم ، فتعدّ جزءا من كرمان . وكذلك القول فى ناحية روذان القديمة . ومعنى « خرّه » بالفارسية القديمة « بهاء »[١] . وعليه يكون أردشير خرّه وشابور خرّه اسمين لكورتين ، الاولى تخلد مجد أردشير مؤسس الدولة الساسانية ، والثانية تخلد ذكر ابنه المشهور سابور أو شابور ، وهو سابور (Sapor) عند اليونان . وأخيرا قسّم البلدانيون العرب اقليم فارس على قسمين ، هما : الاراضى الحارة والاراضى الباردة ، أى الجروم والصرود ، يفصل بينهما خط يمتد شرقا وغربا . وما زلنا حتى اليوم نجد هذا التقسيم متبعا فى الاراضى الخفيضة القريبة من الساحل ، الممتدة من الهضاب التى تلى الدروب ، فانها تعرف بهاتين اللفظتين : گرم سير وسرد سير ، أى المنطقة الحارة والمنطقة الباردة ، وهما تسميتان جرى المستوفى على استعمالهما أيضا[٢] .

وشيراز ، قصبة فارس ، قد مصّرها العرب واتخذ المسلمون موضعها وقت الفتوح فى أيام الخليفة عمر ، معسكرا لهم لما أناخوا على فتح اصطخر . ولعل ما بلغته من منزلة ، يرجع ، على ما ذكر المقدسى ، الى كونها فى وسط البلاد ، اذ يقال انها على ستين فرسخا من الحدود فى كل جهة من الجهات الاربع ، وعلى ثمانين فرسخا من كل زاوية من زوايا الاقليم الاربع . وجاء فى الاخبار ان شيراز

---

(١) جاء فى معجم البلدان (١ ، ١٩٩) ان اردشير خره « اسم مركب ، معناه بهاء اردشير ، واردشير ملك من ملوك الفرس » . (م) .

(٢) انفرد المقدسى (ص ٤٢١) بتقسيم فارس على ست (بدلا من خمس) كور ، مكورا من النواحى المحيطة بشيراز كورة قائمة بنفسها .

الاصطخرى ٩٧ و ١٣٥ ؛ البلاذرى ٣٨٦ ؛ المقدسى ٤٤٧ .

قد تولى عمارتها فى سنة ٦٤ (٦٤٨) محمد أخو الحجاج أو ابن عمه[٣] ، والحجاج هو عامل بنى أمية المشهور على العراق • ثم اتسعت رقعتها وصارت مدينة كبيرة فى النصف الاخير من المئة الثالثة (التاسعة) حين اتخذها بنو الصفار قاعدة لدولتهم نصف المستقلة • وكانت شيراز فى المئة الرابعة (العاشرة) نحوا من فرسخ فى السعة ، أسواقها ضيقة يزدحم فيها الناس ، وكان للمدينة حين ذاك ثمانية أبواب[٤] ، وهى : باب اصطخر ، تستر ، بنداستانه ، غسان ، سَلْم ، كُوار ، مَندر ، مهندر • ومياه شيراز من القناة التى تجرى من جُويَم وهى قرية على خمسة فراسخ من شمالها الغربى • ولشيراز بيمارستان ، وفيها دار عضد الدولة البويهى • التى أنشأ فيها خزانة كتب على ما جاء فى فارسنامه •

وعلى نصف فرسخ من جنوب شيراز ، بنى عضد الدولة البويهى ، الملقب بفنا خسرو ، قصرا آخر له وخط حوله مدينة جديدة نسبت اليه ، فقيل لها كرد فناخسرو • وجعل الى جنب قصره بستانا أنفق عليه الاموال العظيمة ، سعته نحو من فرسخ • ونقل الى الدور التى نشأت حوله الصوافين وصناع الخز والديباج وغيرهم من أصحاب الحرف الذين نقلهم بنو بويه من أقاصى البلاد وأسكنوهم فى فارس • وكان يقام فى كرد فناخسرو احتفال فى كل سنة • وقد صارت هذه المدينة أيضا دارا لضرب النقود حينا من الزمن • ولكن عزّها لم يدم بعد موت مؤسسها فقد أشرفت على الخراب قبل ختام المئة الرابعة (العاشرة) وصار ربضها يعرف بسوق الأمير • وايجار حوانيته عشرون ألف دينار (عشرة الآف باون) فى السنة •

وأول من بنى سور شيراز وأحكمه ، صمصام الدولة أو سلطان الدولة (وهما ابن وحفيد عضد الدولة المار ذكره) • وكان عرض حائطه ثمانية أذرع وطوله اثنى عشر ألف ذراع • وله ما لا يقل عن أحد عشر بابا • وفى منتصف

---

(٣) ما فى معجم البلدان (٣ : ٣٤٩) : « قيل أول من تولى عمارتها ، محمد بن القاسم بن عقيل ابن عم الحجاج » • (م) •

(٤) ما فى المقدسى (ص ٤٣٠ من المتن) : لشيراز ثمانية دروب • وسرد اسماءها (على النحو الذى فى اعلاه مضافة الى كلمة « درب » • وقد ذكر ناشر كتاب المقدسى فى الحاشية ، ان فى مخطوطة برلين « ثمانية أبواب » • والظاهر ان لسترنج اخذ بهذه القراءة • (م) •

المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تخرب هذا السور فعمره محمود شاه انجو[٥] ، غريم آل مظفر ، وأحكمه بأبراج من الآجر • وحين زار المستوفى مدينة شيراز رآها ذات سبع عشرة محلة وتسعة أبواب • وهذه الابواب هي باب اصطخر ، وباب دارك (أو دراك موسى) نسب الى جبل بهذا الاسم على نحو من فرسخين من شيراز وفيه يخزنون ثلج الشتاء في مخابيء لاستعماله أيام الصيف • ثم باب البيضاء ، وباب كازرون ، وباب سلم ، وباب قبا (وجاء في بعض المخطوطات بصورة فنا وقنا) ، ثم باب نو (الباب الجديد) ، وأخيرا باب الدولة ، وباب السعادة • وزاد المستوفى ، على ايراده أسماء هذه الابواب قوله ، ان شيراز مدينة في غاية الحسن ، ذات أسواق عامرة ، غير انها قذرة على ما وصف • وكان ماؤها من قناة ركن أباد المشهورة ، وهي التي حفرها ركن الدولة البويهي أبو عضد الدولة المار الذكر ، ومن قناة بستان سعدى • وفي أيام الربيع تنحدر السيول من جبل دارك فتخترق المدينة ثم تجتمع في بحيرة ماهلوية •

وكان في شيراز ثلاثة مساجد جامعة ، أولها الجامع العتيق وقد بناه عمرو بن الليث الصفار في النصف الأخير من المئة الثالثة (التاسعة) وأشار المستوفى الى ان هذا الجامع لم يخل من المصلين قط • والثاني الجامع الجديد وهو من النصف الأخير من المئة السادسة (الثانية عشرة) بناه الأتابك سعد بن زنكي السلغري ، وثالثها مسجد سُنْقُر في مربعة الحلاقين وقد بناه أول أتابك من السلغريين • وما زال بيمارستان عضد الدولة قائما • ويزور الشيعة في شيراز مشهد محمد وأحمد ولدى الامام السابع موسى الكاظم • وما أسلفنا من كلام على شيراز قد عزّزه ابن بطوطة ، معاصر المستوفى ، فقد تكلم هو أيضا على الجامع العتيق فيها وقال : بشماله باب يعرف بباب حسن • كما تكلم على مشهد أحمد وكان فيه مدرسة • ثم انه قد أطرى الانهار الخمسة التي تشق المدينة ، أحدها النهر المعروف بركن آباد ، ينبعث من عين في سفح جبل هنالك يسمى القليعة ، وبقربه بستان مليح يحفّ بقبر الشاعر سعدى [الشيرازى] المتوفى سنة ٦٩١ (١٢٩٢) أي قبل

(٥) جاء اسمه في رحلة ابن بطوطة (٢ : ٦٤) ابو اسحق بن محمد شاه ينجوا • (م) •

زيارة ابن بطوطة لها بنصف قرن ، وقد كانت لسعدى منزلة رفيعة في قصر الاتابك أبي بكر بن الأتابك سعد باني المسجد الجديد . وكان في البستان الذى فيه قبر سعدى ، والناس يزورونه كثيرا ، حياض حسنة من المرمر لغسل الثياب ، صنعها سعدى عند نهر ركن آباد .

وفي ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) نجت شيراز لحسن حظها من محاصرة تيمورلنك لها الذى تغلب على آل مظفر في وقعة بانيله في الارض المبسطة في ظاهرها ، فلم تعان المدينة الا شيئا قليلا من الأذى على ما ذكر على اليزدى . لأن تيمورلنك قد عسكر في بستان يقال له تخت قراجه في ظاهر باب سلم وباب السعادة المفضيين الى يزد . وذكر هذا المؤلف نفسه ان الابواب الثمانية الأخرى كانت مغلقة حين ذاك ، وأشار أيضا الى كوه قلعة سرخ (أى تل القلعة الحمراء) قرب شيراز ، ولا يعلم موضعها . ومما ذكره المستوفى من القلاع المشهورة بالقرب من شيراز ، قلعة تير ، وتقوم على تل منفرد بعد ثلاثة فراسخ عن جنوب شرقي المدينة ، وقد كان فيها عين ماء في قمة التل ، وأخرى في السهل أسفلها . وأما ما يليها فمفازة معطشة ، مقدارها مسيرة يوم[٦] .

وشيراز لا تقوم على نهر كبير ، غير أن أنهارها تنحدر شرقا ، على ما بينا ، وتصب في بحيرة تغمر وهدة في السهل على بضعة فراسخ من المدينة . وقد سمى الاصطخرى هذه البحيرة بالجنكان . وجاء اسمها في أبي الفداء وابن بطوطة بصورة الجمكان . ووردت في فارسنامه وفي المستوفى باسم ماهلوية ويقال لها اليوم بحيرة ماهلو ، وماؤها ملح . ويرتفع من أطرافها الملح ويحمل الى شيراز ، وصيد السمك فيها كثير ، وطول البحيرة اثنا عشر فرسخا ، وعلى شطآنها الجنوبية قرى ناحية الكهرجان ، وفي جنوبها الشرقي مدينة خورستان ويقال لها

---

(٦) قراءة اسم تير ليست مضبوطة ، فقد جاءت في غير مخطوطة من كتاب المستوفى بصور مختلفة : تير ، تبر ، ببر ، بير ، تسير ، تشير .

الاصطخرى ١٢٤ ؛ المقدسي ٤٢٩ و ٤٣٠ و ٤٥٦ ؛ فارسنامة ٧١ ا ـ ب ؛ ياقوت ٣ : ٣٤٩ ، ٤ : ٢٥٨ ، المستوفي ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٩ و ٢٠٣ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٥٣ و ٧٧ و ٨٧ ؛ على اليزدى ١ : ٤٣٧ و٥٩٤ و ٦٠٩ و ٦١٣ . وانما عرف بستان تخت قراجة (أى عرش قراجة) ، بذلك نسبة الى الاتابك قراجة الذى حكم فارس على أثر وفاة الاتابك جاولي في سنة ٥١٠ (١١١٦) . ويقال ان هذا البستان هو الذى يعرف اليوم بتخت قجر .

أيضا سروستان ويكثر فيها النخيل والقمح وهى خصبة يجتمع فيها ما يكون فى بلاد الصرود والجروم . وكانت كوبنجان ، على ما فى فارسنامه والمستوفى ، بلدة صغيرة بالقرب من سروستان(٧) .

وأطول أنهار فارس ، نهر سكّان ، مخرجه على ثلاثين ميلا من شمال غربى شيراز ، ويجرى منحرفا باتجاه الجنوب الشرقى مسافة تزيد على مئة وخمسين ميلا ، ثم ينعطف انعطافا كبيرا فيتجه نحو الغرب الى مسافة مئة وخمسين ميلا أخرى ، وتكثر التعاريج فى مجراه الأخير ، ثم انه بعد ان يستقبل مياه نهر فيروز اباد من الشمال ، يقع فى البحر على شىء يسير جنوب نجيرم(٨) . وذكر الاصطخرى ان اسم «سكان» مشتق من اسم قرية سك ، وهى فى غرب المنعطف الكبير لنهر سكان بالقرب منه أما غيره من المصنفين ، فقد أورد اسمه بالصور المختلفة الآتية : سنجان ، تكّان ، سيكان . وأورده المستوفى بصورة زكان أو ژكان . وقال صاحب فارسنامه ومن جاء بعده من المصنفين ، أن مخرج هذا النهر فى ناحية يقال لها ماصرم . أما الاصطخرى فقال انه يخرج من رستاق الرويحان وهو السهل الذى فى جنوب جويم وخلار ، وهاتان قريتان كبيرتا الشأن ، الاولى على خمسة فراسخ والاخرى على تسعة فراسخ من شيراز فى الطريق الذاهب الى النوبنجان فى شمال دشت أرزن . ويخرج من قرب جويم ، على ما بيّنا ، أحد أنهار شيراز . وكانت خلار ، على ما فى المستوفى ، تشتهر بحجر الأرحاء وان كان أهلها لا أرحاء لهم . وكانوا يحملون حبوبهم الى أماكن أخرى لطحنها . وكان يحمل منها أيضا عسل كثير . وكان دشت أرزن (أى سهل اللوز المرّ) معروفا بمراتعه الممرعة (مر غزار) . وكان طول بحيرة دشت أرزن نحوا من عشرة فراسخ فى موسم الامطار ، وماؤها عذب . وربما تجف فى الصيف حتى لا يبقى فيها من الماء

---

(٧) ابن خرداذبه ٥٢ ؛ الاصطخرى ١٢٢ و ١٣١ ، المقدسى ٤٢٢ و ٤٥٥ ؛ فارسنامة ٧٣ أ ؛ ٨٠ ب ؛ المستوفى ١٧٢ و ٢٢٦ ، أبو الفداء ٤٣ ، ابن بطوطة ٢ : ٦١ ، ياقوت ٢ : ١٩٣ . وجاء فيه اسم جيكان (بدلا من : جنكان) وهو من وهم النساخ .

(٨) ويعرف مجراه الاعلى باسم قرا أغاج ، أى الشجرة السوداء (بالتركية) . ومجراه الاسفل باسم نهر ماند . ولعل نهر سكان يطابق نهر ستكس (Silakus) عند نيرخس (Nearchus) انظر الكولونيل روس فى PRGS لسنة ١٨٨٣ ص ٧١٢ .

الا القليل ويصاد فيها سمك كثير على ما ذكر الاصطخرى وزاد المستوفى على ذلك ان الأسود كانت تكثر فى غابة قريبة منها[٩] •

وعلى عشرة فراسخ من جنوب شيراز يمرّ نهر سكّان بمدينة كَوار أو كُوار وهى قرب ضفته اليسرى • وقد أُنشىء فى هذا النهر ، على ما جاء فى المستوفى ، سد من شاطىء الى شاطىء لكى يرتفع الماء به فيدخل انهار السقى • وكانت المراعى القريبة من كوار مشهورة • ويكثر فيها الكرز البرى واللوز وكذلك الرمان الكبير وفى ما يلى كوار ، فى يسار نهر سكان أيضا ، مدينة خَبْر ، وهى مشهورة بقبر سعيد أخى الحسن البصرى الفقيه • وذكر المستوفى ان « خبر » كانت أكبر من كوار ، وأن بالقرب منها القلعة المشهورة المسماة تِير خُدا (سهم الله) ، وانما سميت بذلك لامتناعها واعتصامها ، فقد كانت تقوم على قمة جبل ، فلا تبلغها سهام الاعداء • وأسفل من خبر يتجه نهر سكان جنوبا فينساب فى مجرى متمعج مخترقا ناحية الصيمكان • وكانت مدينة الصيمكان قرب ضفته اليسرى عند ملتقى رافد كبير به ينحدر من دار أبجرد فى الشرق[١٠] •

وكانت الصيمكان ، على ما جاء فى المستوفى ، مدينة حسنة ، تقوم على النهر وعليه هناك جسر • ومما يلفت النظر ان فى أعلى هذا الجسر ، تنمو أشجار بلاد الصرود (أى أشجار المنطقة الباردة) فقط كالجنار (الدلب) والجوز وفى أسفله يكثر النارنج والليمون وغيرهما من فواكه بلاد الجروم • وما يعصر فيها من خمور فى غاية القوة فلا تشرب الا بعد مزجها بما يعادل ضعفيها أو ثلاثة أضعافها من الماء • وهيرك لا تبعد عنها كثيرا ، وهى قرية كبيرة من أعمال الصيمكان • وكان بالقرب من يمين نهر سكان ، فى جنوب ناحية الصيمكان ، المدن الثلاث : كارزين ، وقير ، وأبرز • وكانت كورتها تعرف بقباذ خرّة (أى بهاء قباذ) تخليدا لذكرى

---

(٩) تكتب جويم أحيانا بصورة جوين ، وهى قرية كوين الحالية •
الاصطخرى ١٢٠ و ١٢٢ ؛ ابن خرداذبه ٤٤ ؛ فارسنامه ٧٧ ب ، ٧٩ ب ، ٨٠ ب ، ٨١ أ ؛ ياقوت ٢ ، ٤٥٧ ؛ المستوفى ١٧٧ و ١٧٩ و ٢١٤ و ٢٢٦ •

(١٠) الاصطخرى ١٠٥ و ١٢٠ ؛ فارسنامه ٧١ ب ، ٧٢ أ ، ٨١ أ ، ٨٣ أ ، ٨٦ أ ؛ ياقوت ٢ : ٣٦٦ ؛ المستوفى ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٩ • ويقال اليوم لهذه الناحية سيماكون ، وكثيرا ما تكتب فى الخوارط خطأ بصورة أكون Akun انظر E. Stack فى Six Months in Persia ٢ : ٢٣٢ •

أحد الملوك الساسانيين . وذكر الاصطخرى ان كارزين نحو الثلث من اصطخر (پرسبوليس) ولها قلعة منيعة يرفع الماء اليها من نهر سكان ، وكانت ضاربة فى الفضاء حتى لترى منها قلاع كثيرة بعيدة عنها[١١] .

ومدينة جَهْرَم (أو جَهرُم) ، وقد كانت تحسب أحيانا من أعمال كورة دار أبجرد ، فى جنوب الصيمكان وشرق كارزين ، وحولها بسيط من الارض خصب ، واشتهرت بقلعتها العظيمة التى تبعد عن المدينة خمسة فراسخ ، يقال لها قلعة خُورشَه . وكان نظام الملك وزير السلاجقة العظيم ، قد أحكم بناءها وزاد في تحصينها. وأول من بناها خورشة، وكان عامل بني أمية على جهرم[١٢] . والى جنوب شرقى جهرم مدينة جويم أبى أحمد ، (وقد عرفت بذلك تمييزا لها عن جويم التى فى أعالى نهر سكان ، أنظر الصفحة ٢٨٩) ، وصفها المقدسى بانها على نهر صغير ، حولها النخيل ولها جامع حسن ، وبين الجامع والسوق زقاق طويل ، وتعرف الناحية التى فى جنوبها الغربى بايراهستان . وبالقرب من المدينة قلعة منيعة يقال لها سميران (أو شميران) وصفها المستوفى بقوله انها « عش اللصوص وقطاع الطرق ، وتكثر حولها المراعى ، وأحسنها ما كان بين جويم وضفة نهر سكان تكثر فى نواحيها الخبارى الآسنة وتكثر الأسود فى غاباتها .

ومدينة الكاريان ، وتشرف عليها قلعة حصينة ، على مرحلة غرب جويم ، « وبها بيت نار معظم عند المجوس تحمل ناره الى بيوت النار فى الآفاق » . وقلعتها على رأس جبل ، حصينة لا تقتحم وفى غرب الكاريان ، فى منعطف نهر سكان الى الغرب ، مدينة لاغر وهى موضع كان له حين كتب المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) بعض الشأن . فقد كان مرحلة فى طريق القوافل الذاهبة من شيراز الى جزيرة قيس . وجاء ذكر لاغر أيضا عند الكلام على كهرجان (أو مكرجان) وهذا الموضع لا أثر له فى الخارطة . وما بين لاغر والساحل ، وبمحاذاة

---

(١١) الاصطخرى ١٢٥ ؛ المقدسى ٤٢٢ ؛ فارسنامه ٧٢ آ ، ٧٣ آ ، ٨٢ ب ، ٨٣ آ ؛ المستوفى ١٧٣ و ١٧٩ . ويظهر مما جاء فى فارسنامه (الورقة ٧٨ آ) والمستوفى (ص ١٧٧) ان كورة أخرى غير هذه يقال لها كورة تباذ خره قد كانت على ضفاف نهر طاب فوق أرجان .

(١٢) الاصطخرى ١٠٧ ؛ فارسنامة ٦٩ آ ، ٨٢ ب ؛ المستوفى ١٧٥ و ١٧٩ .

وقد جاء اسم القلعة فى مخطوطات مختلفة بصورة خروشة وخورشة وخرشة . وكذلك بصورة خرشد وخرشر . ولكن البلدانيين العرب القدماء لم يذكروها .

الجانب الايمن من نهر سكان الى شماله ، مفازة ماندستان وهي في وسط المسافة بين نجيرم وبوشكانات . وليس في هذه المفازة قرى أو وديان الا في ما ندر حين هطول الامطار الغزيرة ، على ما ذكر المستوفي ، فيمكن ان ينمو في هذه المفازة القطن والقمح ، فيغل في نهاية الشتاء الواحد ألفا[١٣] .

وماندستان ، وهو ما كانت تعرف به هذه المفازة في القرون الوسطى — ومعناه « بلاد ماند » — تحتفظ ولا ريب باسم نهر ماند ، وهذا الاسم ، على ما قد بيّنا ، يطلق اليوم على أسفل نهر سكّان . ويستقبل هذا النهر من الشمال في نحو من نصف المسافة بين لاغر والبحر ، رافدا كبيرا يقال له نهر فيروز اباد . ومدينة فيروزاباد كان يقال لها قديما جُوْر . وكانت في أيام الساسانيين مدينة كورة اردشير خرّه « بدلا من شيراز المحدثة » . وحكى الاصطخري « يقال ان مكانها كان ماء واقفا كالبحيرة ... فاحتال الملك اردشير في ازالة ماء ذلك المكان بما فتح من مجاريه ، فبني بذلك المكان جور ... وفي وسط المدينة بناء مثل الدكة يسمى الطربال[١٤] — كان ما زال فيها في المئة الرابعة (العاشرة) وما بعدها — . ويعرف بلسان الفرس بايوان . وهو بناء بناه أردشير ، على الدكة . وكانت جور في هذا الزمن « قريبة في السعة من اصطخر ... وعليها سور عامر وخندق ، ولها أربعة أبواب : باب مما يلي المشرق يسمى باب مِهر . ومما يلي المغرب باب بهرام . ومما يلي الشمال باب هرمز . ومما يلي الجنوب باب أردشير » .

واسم جور ، ويلفظ بالفارسية گور ، يوافق اسم القبر . فكان اذا خرج اليها عضد الدولة (البويهي) قيل قد ذهب الملك الى القبر . فكره ذلك ، فسماها فيروز أباذ ومعناه أتم دولته[١٥] . وتكلم المقدسي ، وقد حكى قصتها ، على رحبتها الواسعة ، وعلى بساتين فيروز اباد الحسنة . « وهي مدينة نزهة جدا ، يسير الرجل

---

(١٣) الاصطخري ١١٧ ؛ المقدسي ٤٢٧ و ٤٢٨ ؛ فارسنامة ٦٩ ب ، ٧٣ ب ، ٨٢ ب ، ٨٦ أ ؛ المستوفي ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨٠ ؛ جهان نما ٢٦٨ ؛ القزويني ٢ : ١٦٢ .

(١٤) الطربال : علم يبنى . وكل بناء عال . معرب تربالى . وهو اسم قصر متين شامخ بناه اردشير بن بابك بقرب مدينة جور من اعمال فارس ، وشيد دونه معبدا للنار . (الالفاظ الفارسية المعربة لأدى شير . ص ١١١) (م) .

(١٥) هذا التفسير من ياقوت . وقال المقدسي : ان معنى بيروز اباذ في ألم دولة (ص ٤٣٢) (م) .

منها من كل باب نحوا من فرسخ في بساتين وقصور » . وماؤها من جبل قريب . يخرج من قدر نحاس فيه ثقبة ضيقة ، ماء حاد جداء وكان على نحو من أربعة فراسخ من المدينة قلعة حصينة يقال لها قلعة "شهادة « أو شهارة » على قول البلدانيين الفرس . وقد سمى الاصطخرى نهر فيروز آباد بنهر تيرزه . اما فارسنامة والمستوفى ، فقد سمياه بنهر "برازة (أو براره) وهو يخرج من ناحية الخنيفغان[16] . ويقال ان الاسكندر الكبير قد غير مجرى النهر الاصلى حين كان ضاربا الحصار على جور ، فاغرق ما حولها من صياع وكوّن البحيرة التى احتال في ازالة مياهها من بعده برازة الحكيم في عهد الملك أردشير ، ثم انه مدّ الماء من النهر الى المدنة ، في قناة أنشأها ، فسب النهر اليه فقيل له نهر برازة . وذكر القزوينى ان في فيروز أباد بيت نار مشهورا ، وأشار الى النثر العجيبة على باب المدينة التى يخرج منها ماء حاد جدا ولا يحتاج الى استقائه . ونوّه بالورد الجوري وهو ورد أحمر من أجود أنواع الورد وله شهرة في الآفاق . وفي شمالها ، على ما بيّنا ، ناحية "خنيفقان أو خنيفقان ويلفظها الفرس "خنافكان . وكان بين الجبال قرية كبيرة بهذا الاسم يخرج منها طريق صخرى وعر ينحدر الى فيروزاباد[17] .

وكان يقال للساحل البحرى في كورة اردشير "خرّه ، السيف (أى الشاطىء) وكان لها ثلاثة أسياف على خليج فارس كلها في گرمسير أى المنطقة الحارة وهى : سيف عمارة في شرق جزيرة قيس ، وسيف زهير على الساحل جنوب ايراهستان وحول سيراف . وأخيرا سيف المظفر الى شمال نجيرم . وكانت "عمارة وزهير والمظفّر ثلاث قبائل عربية عبرت الى السواحل الشمالية من الطرف الآخر من خليج فارس وأقامت في هذه الديار من فارس . وكان في سيف عمارة في المئة الرابعة (العاشرة) قلعة على البحر لا نقدر أحد أن يرتقى اليها ، يقال لها قلعة الديكدان (أو الديكبايه) وتعرف أيضا بحصن ابن عمارة وسيفها يتسع لعشرين مركبا . « ولا يرتقى الى القلعة الا في شيء من المحامل » . وعلى مسافة قصيرة من

(١٦) ما في الاصطخرى (ص ١٢١) : « ونهر تيرزة يخرج من ناسية دارجان سياه ، فيسقى رستاق الخيمان وجور » . (م) .

(١٧) الاصطخرى ١٠٥ و ١٢١ و١٢٣ ؛ المقدسى ٤٣٢ ؛ فارسنامه ٧٠ أ – ٧٢ ب ، ٧٩ ب ، ٨٢ أ ؛ المستوفى ١٧٢ و ١٧٩ و ٢١٩ ؛ القزوينى ٢ . ١٢١ .

غربها ، جزيرة قيس ، ويكتبها الفرس بصورة كيش • وصارت فى المئة السادسة (الثانية عشرة) مرفأ تجارة خليج فارس بعد خراب سيراف التى سنأتى على وصفها قريبا • وفى جزيرة قيس أنشئت مدينة عليها سور مكين • وشربهم من صهاريج كثيرة ، وفى قربها مغاص على اللؤلؤ ، وهى مرفأ مراكب بلاد الهند والعرب ، ويكثر فى الجزيرة النخيل • ووصف القزوينى حرّها فى الصيف فقال انها « أشبه شىء ببيت حمام حار شديدة السخونة » • ومع ذلك فقد كانت قيس مدينة آهلة عامرة • وكانت الجزيرة على أربعة فراسخ من الساحل • وفى الساحل مرفأ هزو ، واليها كان ينحدر فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) طريق قوافل من شيراز مارا بلاغر • وكانت هُزُو حين رآها ياقوت قد خربت ، الا انها كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) قلعة حصينة لبنى بويه جعلوها محبسا لمن سخطوا عليه • وكان بالقرب من المدينة قرية يقال لها ساوية (وجاء اسمها فى المخطوطات بصور مختلفة : تابه ، تانه • أما القراءة الصحيحة لها فغير معروفة)[١٨]•

والى الغرب من سيف عمارة ، بامتداد ساحل البحر ، سيف زهير وكانت مدينته : كُران فى الداخل ومرفآه المشهوران سيراف ونابَنْد• وهذه الناحية كانت تمتد حتى نجيرم مما يلى فم نهر سكان • ومما يلى هذه الناحية نحو الداخل ، ناحية ايراهستان • وفى ناحية كران ، على ما فى الاصطخرى ، « طين أخضر كالسلق ، يؤكل ، ليس فى ما علمته فى بلد مثله » • وعدّ المستوفى كران من أعمال

(١٨) الاصطخرى ١١٦ و ١٤٠ ؛ ابن حوقل ١٨٨ ؛ ياقوت ٢ : ٧١١ ؛ ٤ : ٣٣٢ و ٩٧٤ ؛ فارسنامه ٧٤ ب ؛ المستوفى ١٧١ و ١٧٣ و ١٨٠ ؛ القزوينى ٢ : ١٦١ •

ويلفظ اسم الجزيرة بصورة قيس وقيش وكيش •

وسرد المستوفى (ص ٢٠٠) المراحل التى فى الطريق من لاغر الى هزو • ولكن لما لم يسلك سائح معاصر هذا الطريق ، لا نجد هذه الاسماء فى الخارطة ، فمعظمها لا يعرف موضعه • وقد ذكر المستوفى ما بينها من مسافات بالفراسخ •

قال : (من لاغر ٦ الى ناحية فارياب • ثم ٦ الى مدينة صبح (صبح ، صح ، صنج ، وغير ذلك من القراءات) • ثم ٥ الى آب أنبار كنار • ثم ٥ الى هرم (سيم أو مرمز) • ثم ٦ فى دروب وعرة وافقة الانحدار الى قرية داروك (دارزك ، أورك دورك) • ثم ٦ الى ماهان (هامان ، مايان) • ثم ٦ من درب لردك الى هزو على سيف البحر » • وهذه الناحية التى سماها المستوفى فارياب ، توافق باراب على ما يظهر • وهى فى نصف الطريق بين الكاريان وكران ، على ما جاء فى المقدسى (ص ٤٥٤) • أما مدينة صبح ، فامرها مبهم ، اذ ليس فى الناحية بلدة بهذا الاسم • ولكن قد تقرأ : جم (الاصطخرى ١٠٦) • ومما يؤسف عليه ان صاحب جهان نما أو غيره من بلدانيى العرب لم يذكروا هذا الطريق •

والظاهر ان سيف بنى الصفار يوافق سيف عمارة ان وازنا بين ما جاء فى الاصطخرى (ص ١٤١) وما كتبه ياقوت (٣ : ٢١٧) •

ايراهستان وقال ان فى أطرافها لا ينمو غير النخيل • وفى جنوبها كانت ناحية ومدينة ميمند ، غير بعيدة عن مرفأ نابند • ونابند عند رأس الخور المعروف بخور أو خليج نابند • ويكثر فى ميمند ، على ما ذكر المستوفى ، العنب وفاكهة المنطقة الحارة (گرمسير) وقد اشتهرت بالمهرة من الصنّاع[١٩] •

وعلى الساحل فى أعلى نابند والى شمالها الغربى ، مرفأ سيراف • وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) الفرضة العظمى فى خليج فارس قبل اشتهار أمر جزيرة قيس • وذكر الاصطخرى أن سيراف تقارب شيراز فى الكبر والفخامة ، « وبناؤهم بالساج وخشب يحمل من بلاد الزنج (زنزبار أو زنجبار اليوم) ، وأبنيتهم طبقات ، وهى على شفير البحر » • وقال أيضا ان « أهلها يبالغون فى نفقات الأبنية حتى ان الرجل من التجار لينفق على داره زيادة عن ثلاثين ألف دينار » (١٥ ألف باون) • ثم قال « وأهلها أيسر أهل فارس ، ومنهم من يجوز ماله ستين ألف ألف درهم (مليونا باون) ما اكتسبه الا من تجارة البحر » • « وليس حواليها بساتين وأشجار ، وانما فواكههم وأطيب مياههم من جبل مشرف عليهم يسمى جم » • وفى هذا الجبل قلعة عظيمة يقال لها سميران • وتكلم المقدسى على سيراف وقال انها أفضل تجارة من البصرة • وان دورها أحسن ما رأى • وحكى انه « جاءت زلزلة سنة ٣٦٦ أو ٣٦٧ (٩٧٧) فقلقلتها وحركتها سبعة أيام حتى هرب الناس الى البحر وتهدم أكثر تلك الدور وتفطرت » • وبذهاب دولة بنى بويه ، أخذت سيراف بالزوال • وروى صاحب فارسنامه ان آخر ما أصابها من خراب أوقعه بها ركن الدولة خمارتكين أمير جزيرة قيس ، فقد اتخذ من هذه الجزيرة مرفأ للتجارة ، ولكنه بقى يبنى سفنه الحربية فى سيراف • وحين زارها ياقوت فى مطلع المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، لم يبق فيها قائما غير جامعها المبلج على سوارى ساج ، وقد رآها ، وبها آثار عمارة فى طرف الساحل • ولم يكن للمراكب فيها حينذاك ميناء ، فاذا قدمت اليها استأمنت فى موضع يقال له نابند • وذكر ياقوت ان أهلها يسمونها فى زمنه شيلاو •

(١٩) الاصطخرى ١٠٤ و ١٥٢ ؛ ياقوت ١ . ٤١٩ ؛ ٢ : ٤٨٩ ؛ ٣ : ٢١٢ و ٢١٧ ؛ المستوفى ١٧٢ و ١٧٣ ؛ ابو الفداء ٣٢٢ •

ونجيرم ، ميناء قليل الشأن ، الى غرب سيراف ، وهو مما يلي فم نهر سكان ، وكان في أول سيف المظفر ، وهذا السيف كان يمتد حينذاك حتى جنّابة في كورة أرّجان . وكان بنجيرم حين كتب المقدسي جامعان وأسواق حسنة . وبرك تملأ من المطر ، . وكانت ناحية الدستقان أيضا في جملة سيف المظفر ، وكانت أجل مدنها في المئة الرابعة (العاشرة) صفّارة والظاهر ان هذه الناحية كانت بالقرب من جنّابة ، غير انه لا يعرف الموضع الحقيقي لمدينة صفّارة(٢٠) .

وبالقرب من حدّ كورة أرّجان ، يصب نهر شابور في البحر . وعلى مسافة قليلة من فمه ، ولعل ذلك فوق التقاء نهر جرّه به ، وسنأتي على ذكره فيما بعد ، كانت تقوم مدينة توّج أو توّز ، المركز التجاري المهم . وقد كانت توّج في المئة الرابعة (العاشرة) تقارب أرّجان في الكبر على ما ذكر الاصطخري ، وهي « مدينة شديدة الحر ، في وهدة ، وهي كثيرة النخيل ، وتوّج مدينة ذات تجارة ، يعمل فيها ثياب كتان تنسب اليها ، ألوانها حسنة ، ولها طرز مذهبة . وكان نهر شابور المار على مقربة من المدينة يسمى في الغالب نهر توّج وقد اسكن عضد الدولة البويهي فيها عربا جاء بهم من الشام وآلت توّج الى الخراب في مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) . اما موضعها فلم يعين حتى الآن . ولكن يقال ان المدينة كانت عند نهر شابور أو بقربه في وهدة من الأرض على ١٢ فرسخا من جنابة على الساحل واربعة فراسخ من الدرب المنحدر من دريز . وكانت توّج من المواضع المشهورة أيام الفتح الاسلامي ويرقى زمن جامعها الى ذلك العهد . على انها كانت خرابا يبابا حين كتب المستوفي .

---

(٢٠) لعل ناحية الدستقان هذه توافق سيف بني الصفار وقد مر ذكره .

الاصطخري ٣٤ و ١٠٦ و ١١٦ و ١٢٧ و ١٤١ و ١٥٤ ؛ المقدسي ٤٢٢ و ٤٢٦ و ٤٢٧ ؛ فارسنامه ٧٣ ب ، ٧٤ أ ؛ ياقوت ٣ : ٢١١ و ٢١٧ ؛ المستوفي ١٧٢ .

وقد وصف خرائب سيراف الكابتن ستيف Stiffe في JRGS لسنة ١٨٩٥ ص ١٦٦ .

قلنا بل راجع عن وصف خرائب سيراف كتاب السر أوريل شتاين وهو أحدث وأكمل ما وقفنا عليه في بابه وعنوانه .

Stein (Sir Aurel), Archaeological Reconnaissances in North-Western India and South-Eastern Iran. (London, 1937; pp. 202-212).

وقد عزز هذا المؤلف بحثه عن سيراف بخارطة وصور كثيرة لاطلال هذه المدينة الاثرية هيأها بنفسه حين تحرى ذلك الموضع . (م) .

وكانت مدينة الغندجان المشهورة ، في دشت بارين ، بالقرب من توّج . وقد وصف فارسنامة موضع الغندجان ، ولم يبق لها أثر اليوم على ما يظهر ، بانها على أربعة فراسخ من جرّه و ١٢ فرسخا من توّج . وتكلم أيضا على نهر جرّه وقال انه يشق قسما من الغندجان . وكانت هذه المدينة في المئة الرابعة (العاشرة) تقارب ، على ما يقال ، اصطخر (پرسپوليس) أو جنابة في الكبر . ويرتفع منها البسط والستور . وكانت تعد من بلاد الجروم . ووصف المقدسي نهرا في جبال الغدحان فقال : « وبها نهر بين جبلين يخرج منه دخان لا يمكن أحدا ان يقربه ، وان اجتاز به طائر سقط فيه فاحترق » . وكان فيها أيضا عيون حارة معدنية يبرأ من يغتسل بمائها . وأكثر أهل الغندجان على ما جاء في المستوفي ، من صنّاع النعال والخفاف ومن الحاكة . وفي أيامه صار اسم الغندجان يطلقه الناس على ناحية دشت بارين . وبالقرب منها قلعة حصينة يقال لها قلعة رمزوان (وجاءت بصورة دمدران وغير ذلك) وفيها صهاريج كبيره أنشئت لخزن المياه . وناحية بوشكانات في نصف الطريق بين الغندجان ومفازة ماندستان (أنظر الصفحة ٢٩١) الى شمال نجيرم . وكانت هذه المفازة ، على ما ذكر المستوفي ، خالية من المدن ، الا ان التمور أهم غلاتها . لان بوشكانات من بلاد الجروم في الخليج[٢١] .

وجزيرة خارِك ، البعيدة عن فم نهر شابور ، كانت من ضمن كورة اردشير خرّه . وكانت ميناء للسفن اذا خرجت من البصرة تريد جزيرة قيس والهند . وقد زار ياقوت هذه الجزيرة وقال : « يقابلها في البر جنابه ومهروبان ، تنظر

(٢١) ذكر المقدسي وياقوت وغيرهما من المصنفين الاقدمين ، ان دشت بارين كان اسم « المدينة » والغندجان اسم « الناحية » . على ان الأمر في الأصل لا يمكن ان يكون كذلك لأن الاسم دشت بارين ، معناه سهل بارين ، وهذا لا يطلق على مدينة . وكثيرا ما حصل في الشرق ان أطلق على أهم مدينة في ناحية أو اقليم اسم تلك الناحية أو ذلك الاقليم ، فيحتمل جريا على هذه القاعدة انه حين بطل استعمال اسم الغندجان ، حل محله دشت بارين فاطلق اسم دشت بارين على المدينة وعلى الناحية في وقت واحد ، على ما سنه المستوفي أيضا بعد ذلك ولكنه خالفهم في الاسم الذي اتخذ للناحية والمدينة فقال انه الغندجان .

الاصطخري ١٠٦ و ١٢٨ و ١٣٠ و ١٥٢ و ١٥٣ ؛ المقدسي ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٣٢ و ٤٣٥ و ٤٤٥ و ٤٤٨ ؛ فارسنامه ٧٣ أ ، ٧٦ أ ، ٧٩ ب ، ٨٢ ب ، ٨٦ أ ؛ المستوفي ١٧١ و ١٧٧ و ١٧٩ و ٢١٨ ؛ ياقوت ١ : ١٩٩ و ٨٩٠ ، ٢ : ٥٧٦ ؛ ٣ : ٥ و ٨٢٠ . وقد كان البلدانيون القدماء يعدون توج في الغالب من أعمال كورة شابور خره .

هذه من هذه للجيد النظر » • وكانت كلتاهما على ساحل كورة أرّجان • وهذه الجزيرة خصبة وافرة الخيرات تكثر فيها الفاكهة ويجود فيها النخيل وفي بحرها من أحسن مغاص اللؤلؤ • وقد ذكرت مراجعنا جزرا كثيرة في خليج فارس غير هذه ، وعدّته من كورة أردشير خرّه • غير ان أعظمها شأنا في التجارة ، جزيرتا خارك وقيس • اما الجزر الاخرى فليس من اليسير التحقق لها • وكانت أوال أهم جزيرة في جزر البحرين عند الساحل العربي • وقد جاء ذكرها في أخبار الفتوحات الاسلامية الأولى • وأول من ذكر بوشهر (بوشير اليوم) ياقوت ، ويقابلها في الداخل ريشهر أو راشهر توّج على ما ذكر البلاذري • والجزيرة التي يقال لها لاوان (اللان ، ولان ، أو لار) ، هي اليوم بالاستناد الى المسافات التي أوردها البلدانيون ، جزيرة الشيخ شعيب في غرب جزيرة قيس • وجزيرة أبرون هي ولا شك هندرابي الحالية ، وهذه مع چين (أو آخين) بالقرب من جزيرة قيس •

والجزيرة الكبرى عند مضايق الخليج التي يقال لها اليوم كشْم ، وتسمى أيضا الجزيرة الطويلة • وربما كانت الجزيرة التي أشارت اليها مراجعنا المؤلفة في العصور الوسطى ، بالاسماء المختلفة الآتية – لعل منشأ ذلك اختلاف النسخ – : جزيرة بني (أو ابن) كوان ، وجزيرة أبركافان ، وجزيرة أبركمان • وذكر ياقوت انها تسمى أيضا لافت • وكانت جزيرة خاسك ، أو جاسك ، احدى الجزر القريبة منها ، وقد لا تكون غير اسم آخر لجزيرة كشم (الجزيرة الطويلة) • وكان « لأهلها جلادة وخبرة في حرب البحر » • وعلى ما ذكر القزويني كانوا يسطون على السفن ويسلبون ما فيها ، وفي هذه الجزر مغاوص اللؤلؤ ، الا ان معظم هذه الجزر غير مأهول الا في مواسم الغوص • ومما يلي جزيرة كشم ، في شرقيها، جزيرة هرمز • وبما ان هذه الجزيرة كانت من اقليم كرمان ، فسنتكلم عليها في الفصل الذي عقدناه عن هذا الاقليم[٢٢] •

---

(٢٢) الاصطخري ٣٢ ؛ ابن خرداذبه ٦١ ؛ البلاذري ٣٨٦ و ٣٨٧ ؛ ياقوت ١ : ٣٩٥ و ٥٠٣ ؛ ٢ ٣٨٧ و ٥٣٧ ؛ ٤ : ٣٤١ و ٣٤٢ ؛ المستوفي ١٨١ و ٢٢٢ ؛ القزويني ٢ : ١١٧ •

الفصل الثامن عشر

فارس «تابع»

كورة شابور خرة ـ مدينة سابور وكهفها ـ نهر رثين ـ النوبنجان ـ القلعة
البيضاء وشعب بوان ـ زموم الاكراد ـ كازرون وبحيرة كازرون ـ
نهر اخشين ونهر جرشيق ـ جره وقنطرة سبوك ـ
كورة ارجان ومدينة ارجان ـ نهر طاب ـ
بهبهان ـ نهر شيرين ـ كنبد ملغان ـ
مهروبان ـ سينيز وجنابة
ـ نهر الشاذكان •

كانت كورة سابور خرّه أى « بهاء سابور » (سابور هو التسمية العربية للاسم الفارسى شابور ، على ما قد بيّنا) ،أصغر الكور الخمس فى اقليم فارس، ولا تتعدى حدودها حوض نهر شابور الاعلى وروافده •

وكانت قصبة هذه الكورة فى الزمن القديم ، مدينة شابور • وأصل اسمها كان بشابور[1] • وأكثر ما كانت تعرف بشهرستان ، أى « موضع المدينة » أو القصبة والعاصمة • قال ابن حوقل : « أما سابور فمدينة هى فى السعة نحو اصطخر الا انها أعمر وأجمع وأيسر أهلا » • غير ان المقدسى تكلم عليها فى

---

(١) جاء الاسم فى المخطوطات بوجه عام (وربما كان ذلك خطأ) بصورة نشابور (بفتح النون وكسرها) • اما بشابور فأصلها به شابور • وكانت قديما وه‌شابور ، ومعنى ذلك « سابور الصالح » او « رفعة سابور » • و « به » قد تصدرت أسماء أمكنة أخرى أنظر : به اردشير ، أو كواشير فى أوائل الفصل الحادى والعشرين •

النصف الاخير من المئة الرابعة (العاشرة) بقوله انها « اليوم قد اختلت وخرب أطرافها ... وخف البلد وقل أهلها وأذهبت كازرون دولتها » . ومع ذلك فقد كانت سابور وافرة الخيرات فيها قصب السكر والزيتون والعنب والفواكه والازهار . ويكثر فيها التين والياسمين والخرنوب . وتسمى دُنْبُلاء وفى سورها أربعة أبواب : باب هرمز ، وباب مهر ، وباب بهرام ، وباب شهر (أى باب المدينة) . ولها جامع فى ظاهر البلد ، ومسجد آخر يسمى مسجد الخضر ، أى مسجد الياس . وقال صاحب فارس نامه فى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) ان شابور فى أيامه قد استولى عليها الخراب . وحين كتب المستوفى بعد ذلك بقرنين ، كان اسم شابور أو بشابور ، قد انتقل الى كورة كازرون المجاورة لها .

والظاهر ان المستوفى ، عرف نهر شابور باسم شهربار رود ، وقال ان المدينة كانت تسمى دين دار ، نسبة الى مؤسسها الأول الملك طهمورث الاسطورى « مكتّف الشيطان » . ثم خرّبها الاسكندر الكبير ، وأعاد الملك شابور بناءها فعرفت باسم بناشابور ، على ما قال المستوفى . ثم صارت شابور أو بشابور . وكانت فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وافرة الحبوب ، يكثر فيها البلوط والبنفسج والياسمين والنرجس ، وينسج فيها الحرير . والى ذلك فقد أشار المستوفى الى تمثال هائل معروف للملك سابور كان فى كهف قرب أطلالها ، ووصفه بقوله انه « تمثال أسود لرجل يفوق الحجم الطبيعى ، منصب فى هيكل قال بعضهم انه طلّسم ، وزعم آخرون انه كان انسانا مسخه الله حجرا . وكان ملوك تلك البلاد يزورونه ، ويكرّمونه بمسح تمثاله بالزيت » . وقد سبق للمقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) ان نوّه بهذا الكهف وقال انه « على فرسخ من النوبندجان » . ووصف « صورة سابور على باب كهف عليه تاج . خلفه ماء واقف لا مدّ له ولا منفذ ، وثم ريح تخرج شديدة ، وتحته ثلاثة أوراق خضر . طول مشط رجله ثلاثة عشر شبرا ، ومن رأسه الى قدميه أحد عشر ذراعا »[٢] .

---

(٢) ابن حوقل ١٩٤ ؛ المقدسى ٤٣٢ و ٤٤٤ ؛ فارس نامه ٧٤ ب ، ٧٥ ا حيث جاءت تهجئة الاسم بصورة بيشاور وبشابور ؛ المستوفى ١٧٥ و ١٧٦ . انظر C.A. De Bode فى كتابه Travels in Luristan لندن ، ١٨٤٥ ، ١ : ٢١٤ .

وكان البلدانيون العرب يسمون أعالى نهر شابور بنهر رنين ، ومخرجه فى ناحية خمايجان أو خمايگان العليا . وكان أكبر قراها ديه علي على ما ذكر المستوفى . وكانت خمايجان السفلى تعد من أعمال كورة اصطخر (پرسپوليس ، وسيأتى وصفها فى الفصل القادم) وهى حول البيضاء على رافد لنهر كرّ . وكان فى هاتين الناحيتين ، خمايجان العليا والسفلى ، ثمار البلاد الباردة كالجوز والرمان ويحمل منها العسل الجيد . وأكثر أهلها من المكارين وأصحاب البغال ، وفى غرب خمايجان ناحية أبوران ومدينتها النوبندجان ويقال لها أيضا النوبندگان أو النوبنجان ، وكانت هذه المدينة ، حين كتب الاصطخرى ، أكبر من كازرون . وهواؤها حار ويكثر فيها النخيل . وتكلم المقدسى على أسواقها الحسنة العامرة ، وبساتينها ذات العيون الكثيرة ، وجامعها . وآلت النوبنجان فى أيام السلاجقة الى الخراب ، ولكن الأتابك الأمير جاولى المشهور[3] ، قد جدد بناءها فى المئة الخامسة (الحادية عشرة) .

وعلى فرسخين من النوبنجان ، يبدأ الشعب المشهور الذى يعده المسلمون احدى جنات الدنيا الاربع وهو شعب بوّان . وتقع مياهه فى نهر كرّ فى كورة اصطخر . وطول هذا الشعب ثلاثة فراسخ ونصف ، وعرضه فرسخ ونصف . وكان لا نظير له فى الخصب والرخاء ، وعلة ذلك ، على ما فى المستوفى ، طبيعة الجبال التى تكتنف جانبيه ، فانها تختزن ثلوج الشتاء فاذا ذابت صيفا أمدت الوادى بالمياه . وعلى فرسخين من شمال شرقى النوبنجان التحصينات الجبلية المعروفة بقلعة سفيد أى القلعة البيضاء ، واسفيد دز — أى قلعة اسفنديار ، وهى على ظهر جبل دوره عدة أميال وجافته حادة قائمة الانحدار . ولعل المقدسى قد أشار اليه باسم قصر أبى طالب الذى يقال له « عيان » على ما ذكر . وقال صاحب فارس نامه ان قلعة سفيد قد جدد بناءها أبو نصر وهو من أهل تيرمردان ، فى أوائل عهد

---

(٣) كان الامير جاولى (بالجيم المثلثة ويكتب غالبا جاولى بالجيم) وقد ورد اسمه كثيرا فى فارس نامه والمستوفى ، مقرونا بما جدده من مدن وقلاع فى اقليم فارس ، وبما أنشاه من سدود فى الانهار ، حاكم اقليم فارس عن السلطان محمد السلجوقى . وقد لقب الاتابك جاولى سقاوو (ومعناه الباز) بفخر الدولة . ومات فى سنة ٥١٠ (١١١٦) بعد أن حكم اقليمى كرمان وفارس زهاء عشرين سنة .

السلاجقة ، ثم صارت فى أيدى عاملهم فى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) . ولا يرتقى الى قمة الجبل البالغ محيطها عشرين فرسخا ، الا بدرب واحد وكان يحمى أسفل هذا الدرب حصن يقال له دزك تشناك ، وكانت هذه القمة منبسطة السطح ، فيها عيون كثيرة وبساتين وافرة الفواكه . ومحاصرة تيمور لقلعة سفيد فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قد أكسبتها شهرة تاريخية . فانه فى مسيره من بهبهان الى شيراز استولى عليها عنوة بعد تضييق الخناق عليها ومقاتلتها يومين كاملين وذلك فى ربيع سنة ٧٩٥ (١٣٩٣)[٤] .

وعلى مرحلة من شرق النوبنجان فى الطريق الذاهب الى شيراز ، تقع تيرمردان . وهى بليدة حولها ست قرى ، أجلها كرْجِن أو جركن وهى على خمسة فراسخ من النوبنجان . وكان رستاقها وافر الماء خصب عامر ، يحمل منه عسل كثير . ومدينة انوران من هذه الكورة وهى فى غرب النوبنجان فى الطريق الى أرّجان . وتجاورها أيضا ناحية باشت قوطا وقصبها باشت وما زالت قائمة . ويشقّ هذه الاراضى نهران هما درخيد والخوبذان . وعلى ضفاف نهر خُوْراواذان ، ويقال له أيضا الخوبذان ، مدينة تعرف باسمه على اربعة فراسخ من النوبنجان . وكانت مدينة الخوبذان فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة آهلة ، لها جامع وأسواقها عامرة . وعلى أربعة أو ستة فراسخ غرب هذا النهر ، وعلى مرحلتين من النوبنجان ، كانت المدينة الصغيرة درخيد ، على نهر درخيد ومخرج هذا النهر فى بحيرة صغيرة ، ويرى بعضهم انه يصب فيها . وقد جاء فى الأخبار ان نهر درخيد واسع عريض فلا يعبر . ونهر الخوبذان رافد من روافد نهر شيرين ، وسيأتى وصف هذا النهر فى الكلام على كورة أرّجان . وكان على نهر الخوبذان أو نهر درخيد قنطرة عظيمة بناها رجل يسمى أبا طالب النوبنجانى بانى قلعة عيان وقد مرّ ذكرها فى الفقرة السابقة . ولم يتفق الاصطخرى

---

(٤) الاصطخرى ١١٠ و ١١١ و ١٢٠ و ١٢٧ ؛ المقدسى ٤٣٤ و ٤٣٧ و ٤٤٧ ؛ فارس نامه ٧٦ ب ، ٧٨ أ ٨٢ ب ؛ المستوفى ١٧٧ و ١٧٨ و ٢١٩ ؛ على اليزدى ١ : ٦٠٠ .

وجاء فى المخطوطات صور مختلفة لاسم القلعة السفلى ، وهى دزكى تشكان واسناك . وقلعة سفيد وصفها وصفا حسنا ، مكدونالد كينر Macdonald Kinneir فى كتابه Persian Empire ص ٧٣ .

والمقدسي على أي النهرين كانت تقوم هذه القنطرة الشهيرة . وقد زاد المصنفون المحدثون هذا الموضوع التباسا وارتباكا ، حين أعطوا أسماء مختلفة لهذين النهرين ، فصار من الصعب علينا الآن ان لم يكن مستحيلا ، معرفة أي من هذين النهرين هو الذي تعيّنه خوارطنا . وقد وصف المقدسي هذه القنطرة فقال « وجسر أبي طالب عمل في هذا العصر ، يعجز عن مثله كل بناء بالشام وأقور »[٥] . فكان بناؤها في النصف الاخير من المئة الرابعة (العاشرة) ، والظاهر ان ياقوت الحموي أشار في المئة السابعة (الثالثة عشرة) الى انها ما زالت باقية . وقد ذكر علي اليزدي كثيرا من هذه المواضع في وصفه مسير تيمور لنك من بهبهان الى شيراز[٦] .

وفي هذا القسم الجبلي من فارس ، وقد عرف بعدئذ بجبل جيلويه ، قبائل الأكراد الخمس ويقال لها زمّ الأكراد ، وكانت فيها في المئة الرابعة (العاشرة) مراعيهم ومنازلهم . وتكلم المقدسي على قلعة لهم في الجبل قرب منازلهم ، « لها رستاق ونهر وهي وسط الجبال ذات بساتين ونخيل وفواكه وخيرات »[٧] .

ومدينة كازرون ، أضحت منذ النصف الأخير من المئة الرابعة (العاشرة) حين خربت سابور ، أجل مدن كورة سابور . ووصفها ابن حوقل بقوله انها في أيامه أصغر من النوبندجان ، حسنة البناء وبيوتهم من جص وحجارة . وأشار اليها المقدسي بعده بزمن قليل ، فقال هي « دمياط الأعاجم » وكانت واسعة التجارة ، تعمل فيها ثياب الكتان . وقد بنى عضد الدولة [البويهي] دارا جمع

---

(٥) يريد المقدسي بـ « أقور » اقليم الجزيرة . (م) .

(٦) تتباين تهجئة الاسماء تباينا كبيرا . فخورا وادان اختصر الى الخوبدان . وكتبه بعضهم بصورة خوابدان وصادان وخاودان ، أو خاوران على ما في علي اليزدي . وكتب اسم درخيد بصورة درخويد ، الا ان دحونه (على ما جاء في المقدسي) ربما كان من وهم النساخ ليس الا .

الاصطخري ١١٠ و ١٢٠ ؛ ؛ المقدسي ٤٣٥ و ٤٤٠ . فارس نامه ٧٦ أ ب ، ٧٩ أ ٨٠ ب ؛ المستوفي ١٧٦ و ٢١٨ ؛ ياقوت ١ : ٩٠٥ ؛ ٢ ٤٨٧ ؛ ٣ ٨٢٨ ؛ ابن الاثير ٨ ؛ ١٢٢ و ٢٠٢ . علي اليزدي ١ : ٦٠٠ .

(٧) الاصطخري ٩٨ و ١١٣ ؛ المقدسي ٤٣٥ ؛ ياقوت ٢ : ٨٢١ ؛ المستوفي ١٧٦ و ٢٠٦ .

معنى زم بالكردية « قبيلة » (وأصح وجه لكتابتها « زومه ») وقد وردت هذه الكلمة خطأ بصورة رم . انظر : ترجمة البروفسور دي‌غويه لابن خرداذبه . ص ٣٣ الحاشية .

فيها السماسرة ، دخلها على السلطان كل يوم عشرة الآف درهم »[٨] (أى أربعمائة باون) • ووصف المقدسى دور المدينة فقال انها كانت كلها قصورا لها بساتين « والجامع على تل يصعد اليه » • وذكر المستوفى ان كازرون كانت تتألف فى الاصل من ثلاث قرى متجاورة ، هى : نورد ودربست وراهشان ، أنشئت على قني بهذه الاسماء وظل شرب أهلها من هذه القني التى صارت من ضمن أحياء المدينة • وتمور كازرون فاخرة لاسيما المعروف منها بجيلان • وكان يحمل منها ثياب قطن تسمى الكرباس • ويقال لمراعيها المشهورة مرغزار نرگس أى مراعى النرجس • وكان ما حولها يعرف ببلاد شول على ما ذكر ابن بطوطة وقد مرّ بها سنة ٧٣٠ (١٣٣٠) •وهى اليوم تعرف بشولستان • وكان فى السهل ، على شيء يسير من شرق المدينة ، بحيرة كازرون وكان يقال لها فى المئة الرابعة (العاشرة) بحيرة موز[٩] أو مورك (وقراءة الاسم غير مضبوطة) طولها نحو من عشرة فراسخ « وماؤها مالح وفيها صيد كثير » • والدربان المشهوران فى الطريق الذى فوق البحيرة الصاعدان الى شيراز ، والمعروفان اليوم عند المسافرين باسم كتال پير زن (درب المرأة العجوز) وكتال دختر (درب البنت) قد سمى المستوفى أولهما حوشنگ وهو على ثلاثة فراسخ من كازرون ، والثانى مالان وهو فوقه وكلاهما شديد الانحدار[١٠] •

والطرق المنحدرة الى الساحل البحرى من كازرون تمرّ بدريز الى كمارج ثم تمرّ بخشت على نهر سابور الى توّج وقد مّر وصفها فى الفصل السابق (ص ٢٩٥) • وكانت دريز مدينة صغيرة • وكان بها فى المئة الرابعة (العاشرة) « صنّاع كتّان كثير » • وخشت تليها ولها قلعة حصينة على ما جاء فى المقدسى ، ولها رستاق واسع • وورد ذكر خشت وكمارج فى فارس نامه سوية • ووصف

---

(٨) هذا نص المقدسى ، أما المؤلف فقد وهم بنقله ، فقال « دخلها على السلطان كل سنة عشرة آلاف درهم » • (م) •

(٩) ذكرها الاصطخرى (ص ١٢٢) بصورة : بحيرة توز • (م) •

(١٠) الاصطخرى ١٢٢ ؛ ابن حوقل ١٩٧ ؛ المقدسى ٤٣٣ ؛ المستوفى ١٧٦ و ١٨٠ و ٢٠٠ و ٢٦٦ - جاءت أسماء الاحياء الثلاثة فى كازرون بصور مختلفة فى نسخ خطية أخرى للمستوفى : نور ، دريست ، ورسيان أو رحبان - ابن بطوطة ٢ : ٨٩ • وقد جاء فى فارس نامه (الورقة ٨٠ ب) اسم البحيرة « مور » فى غاية الوضوح ، ويقال لها أحيانا درياچه شور « البحيرة الملحة » •

المستوفى أهل هذين الموضعين برداءة الخلق وقال انهم لصوص دهاة ٠

وعلى شيء يسير أسفل من خشت ، يستقبل نهر سابور فى يساره مياه نهر جرّه ، وهو الذى عرفه البلدانيون العرب بنهر جرشيق ٠ وهذا النهر قبل التقائه بنهر سابور ببضعة أميال ، يقع فى يساره نهر صغير سمّوه نهر اخشين ٠ ويخرج نهر اخشين من خلال جبال ناحية داذين ٠ وماء هذا النهر ، على ما فى الاصطخرى ، عذب « يشرب ويسقى الاراضى ٠ واذا غسل به ثياب خرجت خضرا » ٠ واما نهر جرشيق فانه يخرج من جبال فى جنوب جرّه فى رستاق ماصرم (وعلى ما فى المستوفى ، كانت ماصرم ناحية تمتد من هذا النهر شمالا حتى أعالى نهر سكان) ٠ وقبل أن يبلغ مدينة جرّه « يجرى تحت قنطرة حجارة عادية [أى عتيقة] تعرف بقنطرة سبوك » ٠ ثم يسقى هذا النهر رستاق داذين ٠ وأخيرا بعد أن يستقبل نهر اخشين يقع فى نهر سابور على شيء يسير فوق توّج ٠ وذكر فارس‌نامه والمستوفى ان‌البلاد التى عند أعالى‌نهر جرّه قرب‌مدينة جرّه، تؤلف‌قسما من رستاق الفندجان وهذا الخبر يقودنا الى معرفة موضع دشت بارين ، وقد مرّ بنا القول فى صفحة سابقة انه من أعمال كورة أردشير خرّه ٠ ووصف المقدسى مدينة جرّه فقال انها « على رأس جبل ، كثيرة النخيل » ٠ وقال ياقوت ان العامة تقول لها فى أيامه « گرّة » ٠ وقد أيده فى ذلك صاحب فارس نامه والمستوفى ٠ وقد أشارا أيضا الى قمحها ونخيلها والى شدة خصب رستاقها[11] ٠

أما كورة أرّجان فهى أبعد كور فارس الخمس غربا ٠ وقصبتها مدينة أرّجان فى أقصى حدها الغربى على نهر طاب ٠ ونهر طاب يؤلف فى هذا الجانب الحدّ الفاصل بين اقليمي فارس وخوزستان ٠ وأطلال أرّجان على بضعة أميال من شمال مدينة بهبهان الحالية التى انتقل اليها أهلها وصارت أهم مدن هذه الكورة منذ ختام المئة السادسة (الثانية عشرة) ٠

وكانت أرّجان فى المئة الرابعة (العاشرة) « مدينة كبيرة كثيرة الخير بها نخيل كثير وزيتون » ٠ وكان عليها ستة أبواب تغلق كل ليلة ، وهى : باب

---

(١١) الاصطخرى ١٢٠ و ١٢٧ و ١٥٢ ؛ المقدسى ٤٣٣ و ٤٣٤ و ٤٣٥ ؛ فارس‌نامه ٧٥ ب و ٧٦ أ ، ٧٩ ب ؛ المستوفى ١٧٦ و ١٧٧ و ٢١٨ و ٢١٩ ؛ ياقوت ٢ : ٣٦ و ٦٧ ٠

الاهواز ، وباب ريشهر ، وباب شيراز ، ثم باب الرصافة ، وباب الميدان ، وأخيرا باب الكيّالين . وبها جامع حسن وأسواق عامرة . وفي المدينة يعمل الصابون . وكان قرب أرّجان قنطرتان مشهورتان من حجر على نهر طاب تعبرهما الطرق الذاهبة الى خوزستان ، وما زالت بقاياهما شاخصة ، ويقال ان احداهما تنسب الى الديلمي طبيب الحجاج ، عامل بني أمية على العراق . قال الاصطخري في وصفها « هي طاق واحد سعة الطاق على الارض ما بين العمودين نحو ثمانين خطوة وارتفاعه مقدار ما يجوز فيه راكب الجمل بيده علم من أكبر ما يكون » . وكانت هذه القنطرة ، وتعرف بقنطرة ثكان ، على رمية سهم من مدينة أرّجان في الطريق الى سنبيل . أما القنطرة الثانية فكان طولها أكثر من ٣٠٠٠ ذراع ، وهي من بناء الساسانيين . وتعرف بالقنطرة الكسروية ، وكانت في الطريق الذاهب الى قرية دهلزان . وفي جبل قرب أرّجان كهف قال القزويني في وصفه « ينبع منه الموميا الجيد » ، وله خواص طبية وفي أرّجان أيضا بئر لا قرار لها يقال لها بئر صاهك « يفور الدهر كلّه منها ماء » يسقي تلك القرية حتى في أجف أيام الصيف .

وفي مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ذكر المستوفي ، ان أرّجان كان يسميها العامة أرخان أو أرغان . وأشار علي اليزدي في نهاية هذه المئة الى نهر طاب باسم آب أرغون . وعلى ما جاء في المستوفي ، قاست أرّجان كثيرا من الاهوال حين استولى عليها في المئة السابعة (الثالثة عشرة) الاسماعيلية (وهم الحشيشية أصحاب شيخ الجبل) . ولم يقيّظ لها ان تستعد ازدهارها الاول . وقد كان للاسماعيلية قلاع في قمم الجبل المجاور لها اسم احداها قلعة طيغور والاخرى دزكلات . وكثيرا ما كان رجال هذه القلاع ينزلون الى المدينة فنهبون ما فيها وما في رستاقها . ثم ان أرّجان في النصف الاخير من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) استحوذ عليها الخراب وقام مقامها بعد وقت قصير مدينة بهبهان وهي على نحو من ستة أميال أسفل منها على نهر طاب. ولم يذكر أحد من البلدانيين العرب اسم بهبهان . وأول من ذكرها علي اليزدي في وصفه مسير تيمور من الاهواز الى شيراز في ربيع سنة ٧٩٥ (١٣٩٣) . وصارت بهبهان منذ هذا

التاريخ أجل مدينة فى هذه الناحية التى كانت تعرف قبلا بكورة أرّجان[١٢].

والنهر الذى سماه البلدانيون العرب نهر طاب ، يقال له اليوم جراحية وجراحى أو نهر كردستان • أما الاسم « طاب » فانه اليوم انتقل اعتباطا الى أنهار خيراباد وهى روافد نهر هنديان أو نهر زُهرة الذى يصب فى خليج فارس عند هنديان وهو غير نهر طاب • فقد كان مخرج طاب فى القرون الوسطى ، ان أخذنا بما ذكره الاصطخرى والمقدسى ، فى جبال جنوب غربى اصفهان بقرب البرج مقابل سميرم فى كورة اصطخر • ثم ينحدر الى ناحية يقال لها السردن فى خوزستان • وكان يلتقى بيسار طاب نهر مسين ، وقرية مسين تقع بالقرب من اجتماعه به ، ثم يجرى النهران المتحدان الى أرّجان • وأسفل هذه المدينة يسقى طاب رساق ريشهر ثم يتجه جنوبا ويقع فى البحر غرب مهروبان • وينبع نهر مسين المار الذكر فى جبال قرب سميرم أيضا ويمر بموضع يقال له سيسخت قبل التقائه بطاب على ما ذكر صاحب فارس‌نامه والمستوفى • ويقال ان طوله اربعون فرسخا وعرضه من السعة ما لا يسهل معها عبوره • وكان بالقرب من أعالى نهر طاب ، بلاد شابور أو بلاسابور • وقصبتها تسمى جومة وهى على الحدّ بين فارس وخوزستان • وكان رستاق بلاسابور شديد الخصب ، غير ان الزراعة فيه أيام المستوفى قد انعدمت • وكان بامتداد مجرى طاب ، على ما فى فارس‌نامه ، كورة قباذ حرّه • غير ان جميع المصنفات القديمة تطلق هذا الاسم على الكورة التى حول كارزين على ما جاء وصفه فى الصفحة ٢٨٩[١٣] •

---

(١٢) الاصطخرى ١٢٨ و ١٣٤ و ١٥٢ ؛ ابن رسته ١٨٦ ابن خرداذبه ٤٣ ؛ المقدسى ٤٢٥ ؛ القزوينى ٢ : ٩٤ و ١٦٠ ؛ المستوفى ١٧٧ و ١٧٨ ؛ على اليزدى ١ : ٦٠٠ •

وقد ذكر صنيع الدولة فى كتابه « مرآة البلدان » (المطبوع بالحجر فى طهران سنة ١٢٩٤ هـ ، المجلد الاول ص ٣٠٦) ان أول من نزل بهبهان بأمر تيمور عشائر الكوهكلو البدويه وقد انتقلوا اليها من الكوفة • ومن اطلال أرجان والقنطرتين المعروفتين اليوم باسم پل بكم وپل دختر « أى قنطرة السيدة وقنطرة البنت » راجع De Bode فى كتابه Luristan ١ : ٢٩٥ و ٢٩٧ • وغالبا ما ذكرت المخطوطات اسم القنطرة الاولى بصورة قنطرة ركان أو تكان • والى ذلك فقد ذكر ابن حوقل (ص ١٧٠) جسرا من خشب فوق نهر طاب « معلقا بين السماء والماء ، وبينه وبين الماء نحو عشر أذرع » •

(١٣) الاصطخرى ١١٩ • المقدسى ٢٤ و ٤٢٥ ؛ فارس‌نامه ٧٧ ب ، ٧٨ أ ، ٧٩ أ • المستوفى ١٧٦ و ١٧٧ و ٢١٨ •

والظاهر ان البلدانيين العرب قد خلطوا بين أعالى نهر ارجان (طاب) ورافده (مسين) وبين

وفى أسفل أرّجان ، بدور نهر طاب ، على ما قد بيّنا ، حول رستاق ريشهر (فلا يلتبس اسم هذا الرستاق بريشهر بوشير المار الذكر فى صفحة ٢٩٧) وما عدا ريشهر ، فقد كان هنا فى نصف الطريق بين ارجان ومهروبان ، مدينة يقال لها دريان (وكذلك ديرجان أو درجان) وقد كان بها فى المئة الرابعة (العاشرة) أسواق عامرة ورستاقها خصب كثير الخيرات • ودام شأن ريشهر فى أيام السلاجقة • وتكلم صاحب فارس‌نامه على قلعتها وقال ان السفن كانت تصنع فيها • وذكر المستوفى ان الفرس عرفوا الموضع باسم بريبان وقال ان اسمها الأول كان ريصهر • وفيها تعمل ثياب الكتان ، ولأهلها تجارة واسعة مع موانىء الخليج • والحر فيها صيفا شديد مؤذ فيصعد أهلها الى دزكلات وهى على فرسخ منها ، وقد مرّ بنا انها كانت قبلا من قلاع الاسماعيلية • وبالقرب من ريشهر بلدة هنديجان وهى مدينة ورستاق على نهر أرّجان الاسفل وحكى المقدسى ان هنديجان ، أو هندوان ، كانت سوقا عظيمة للسمك ولها جامع حسن • وفى رستاق هنديجان بقايا بيوت نار وأرحاء من الزمن القديم • وبها الى ذلك ، على ما يقال ، « دفائن كما فى أرض مصر » وتكلم القزوينى على بئر « يعلو منها دخان لا يتهيأ لاحد أن يقربها ، واذا طار طائر فوقها سقط محترقا » • وأخيرا ، جنّبس ، وهى مدينة فى هذه الكورة فى الطريق الى شيراز ، كان فيها مأصر أيام بنى سلجوق[١٤] •

وكانت الجلاّدكان ، وتلفظ أيضا الجلاّدجان ، ناحية قريبة منها بين أسافل نهرى طاب وشيرين • ويخرج نهر شيرين ـ الماء الحلو ـ فى جبل يسمى جبل دينار فى ناحية بازرنج أو بازرنك • ويشق ناحية فرزك وهى على أربعة فراسخ

الانهار التى هى على ما نعلم الفروع العليا لنهر كارون • ومما يلاحظ أيضا ان نهر أرجان فى أسفله قرب خليج فارس قد تغير مجراه على ما يظهر منذ المئة الرابعة (العاشرة) وقد قال المقدسى انه يقع فى البحر قرب سينيز ، ولعل ذلك من وهم النساخ لا غير بدلا من « قرب [نهر] تستر » أى فيض دجيـل •

(١٤) الاصطخرى ١١٢ و١١٣ و١١٩ و١٢١؛ المقدسى ٤٢٢ و٤٢٦ و٤٥٣؛ فارس نامه ١٧٨ آ ـ ب؛ المستوفى ١٧٧ و ١٧٨ ؛ ياقوت ٤ ، ٩٦٣ و ٩٩٣ ؛ القزوينى ٢ : ١٨٦ •

الظاهر ان هنديجان وهندوان وهنديان يشير كلها الى موضع واحد • وقد اوردت المخطوطات صورا كثيرة لما يحتمل ان يكتب به اسم جنبس • فجاء ، خبس ، جبس ، جنس • وقد كانت مرحلة بريد على ما ذكرت كتب المسالك •

من جنوب شرقي أرّجان . وذكر علي اليزدي ان تيمورلنك ، في مسيره من بهبهان الى شيراز ، عبر نهر شيرين بعد مغادرته بهبهان بيوم ، ثم وصل بعد أربعة أيام الى نهر خاودان (وقد مرّ ذكره في الصفحة ٣٠١ باسم : الخوبذان) . ثم سار منه الى النوبنجان . وقد مرّ بنا ان الخوبذان رافد لنهر شيرين ، وهذا الاخير يطابق ، على ما يظهر ، النهر المعروف اليوم في أعاليه باسم نهر خيراباد (مع روافده الكثيرة) وفي أسفله باسم نهر زهرة وهو ما تسميه الخوارط الحديثة بنهر طاب أو هنديان . وكان على أحد روافد نهر شيرين ، گنبذ ملّغان ، وهي موضع ذو شأن في الطريق من النوبنجان الى أرّجان ، ويقال لها اليوم دوگنبدان « أي القبّتان » وترى فيها خرائب واسعة . وكان بجوارها جبل دينار وناحية بازرنك على ما مرّ بيانه . وكذلك صرام ، حيث يقسو الجو في الشتاء . ولا يفارق الثلج قمم الجبل المجاور لها حتى في الصيف . على ان مدينة گنبذملّغان كانت من بلاد الجروم ومشهورة بنخيلها . ويلفظ اسمها أيضا بصورة گنبد ملّجان أو ملقان . وتكلم المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) على القرية هنا وقال هي خربة . وذكر صاحب فارس‌نامه في مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) هذه المدينة الصغيرة وقال : كان يحميها قلعة يخزن فيها ما يكفي من المؤونة لحاميتها مدة ثلاث أو أربع سنوات . وكانت تكلّل رؤوس الجبال المجاورة قلاع أخرى مثلها ، نذكر منها بوجه خاص قلعة خِنْگ . وقال المستوفي ان الناحية القريبة منها كانت تعرف باسم پول‌بولو (وجاءت في بعض المخطوطات بصورة : پول‌لولو) وقد كانت ناحية عظيمة الخصب معروفة بمشمشها الجيد . وقال ان قلعة گنبذ ملّغان كانت من المنعة والقوة بحيث يتمكن رجل واحد فيها من ان يصدّ جيشاً[١٥] .

وغير بعيد من فم نهر شيرين ــ وهو نهر طاب الحديث أو زهرة ، على ما

---

(١٥) الاصطخري ١١١ و ١١٢ و ١١٣ و ١١٩ و ١٢٠ ؛ المقدسي ٤٣٥ ؛ فارس نامه ٧٦ب ، ١٧٧ ، ٧٨ ب ، ٧٩ أ ، ٨٣ ب ، ٨٥ ب ؛ المستوفي ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨ و ١٧٩ و ٢١٨ ؛ ياقوت ٣ : ٥ ؛ ٤ : ٦٣٠ ؛ علي اليزدي ١ : ٦٠٠ ؛ حافظ أبرو ٣١ ب ؛ De Bode لورستان ١ : ٢٥٨ . يقوم اليوم في شمال دوگنبدان القلعة المعروفة بقلعة أرو ، ولعلها هي التي جاءت في فارس نامه باسم خنك .

قد بيّنا - ميناء مهروبان ، على حدّ فارس الغربي • وكانت أول فرضة تصلها السفن الذاهبة الى الهند بعد خروجها من البصرة وفيض دجلة ، ومهروبان تعدّ فرضة أرجان • وكانت في المئة الرابعة (العاشرة) مدينة آهلة لها جامع حسن وأسواق عامرة • قال المستوفي ان الفرس يسمونها ماهي رويان أو مهرويان • ويعمل فيها الكتان ويحمل منها التمر ، غير ان الملاحة وسير السفن أهم مورد لاهلها • وفي سنة ٤٤٣ (١٠٥٢) بلغ ناصر خسرو مهروبان ووصفها فقال : هي مدينة على ساحل البحر في جانبه الشرقي ، أسواقها عامرة ، مسطور على مسجدها الجامع اسم يعقوب بن الليث الصفار • ويحفظ أهلها الماء في حياض وبنى بها ثلاثة ربط ينزل فيها من قصد أرّجان من المسافرين • وتجارتها عظيمة • ويلي مهروبان شرقا على ساحل الخليج من أسفلها ، سينيز أو شينيز ، وبقاياها عند سيف يقال له اليوم بندر ديلم • وقد وصف الاصطخري في المئة الرابعة (العاشرة) هذه البلدة فقال انها أكبر من مهروبان • وهي على خور صغير ، فتكون المدينة على نصف فرسخ من البحر • وهي « شديدة الحر ، وبها نخيل وما يكون في الجروم من الفواكه » • وقال المقدسي لها جامع ، ودار الامارة • وأسواقها عامرة جيدة • وذكر ياقوت ان القرامطة في سنة ٣٢١ (٩٣٣) أغاروا على سينيز فقتلوا أهلها وخرّبوها ولم يبق الا اليسير • أما فارس‌نامه في المئة السادسة (الثانية عشرة) والمستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقالا انها ما زالت مدينة عامرة مزدهرة يزرع فيها الكتان وينسج • وكان يحمي هذه الفرضة قلعة (حصار) • وكان زيت المسارج يحمل من رستاقها الى الآفاق[16] •

وفي جنوب سينيز كانت جنّابة (أو جنّابا) ، وما زالت خرائبها ترى • وهي بالقرب من فم النهر الذي سماه البلدانيون العرب الشاذكان • وجنّابة على ما في الاصطخري ، شديدة الحر ، وخور جنابة « مكان مخوف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر » • وهي أكبر من مهروبان ولها أسواق عامرة وفيها ولد أبو طاهر القرمطي • والفرس يعرفونها باسم گنفه أو آب گنده لمائها القذر •

---

(١٦) الاصطخري ٣٤ و ١٢٨ ؛ المقدسي ٤٢٦ ؛ ناصر خسرو ٩٠ = [١٠٠ من الترجمة العربية] ؛ ياقوت ١ : ٥٠٢ ؛ ٣ : ٢٢١ ؛ فارس نامه ٧٨ ب ، ٧٩ آ ؛ المستوفي ١٧٨ •

ومن أعمالها أربع قرى على سيف البحر مجاورة لها . أما نهر الشاذكان فانه يخرج من ناحية بازرنك ويسقى سهل الدستقان ، ثم يقع فى البحر . وغير واضح أى نهر يطابقه فى الخارطة الحديثة . على انه ولا شك أحد النهرين الصغيرين اللذين يقعان فى خليج فارس قرب جنابة . ويحسن بنا ان نذكر ان هذه الناحية خالية من أنهار كبيرة ، وان قال المستوفى ان نهر الشاذكان « نهر كبير لا يهون عبوره ، طوله تسعة فراسخ » لانه كان يتصوره نهرا على شيء من الكبر[١٧] .

(١٧) الاصطخرى ٣٢ و ٣٤ و ١١٩ و ١٢٨ ؛ المقدسى ٤٢٦ ؛ فارس نامه ٧٨ ب ؛ المستوفى ١٧٨ و ٢١٨ .

الفصل التاسع عشر

فارس «تابع»

كورة اصطخر ومدينة اصطخر اى برسبوليس ـ نهر الكر وبلوار ـ بحيرة البختكان
وما حولها من مدن ـ سهل مرودشت ـ البيضاء ومايين ـ كوشك زرد ـ
سرمق ويزدخواست ـ الطرق الثلاث من شيراز الى اصفهان ـ
ابرقوه ـ يزد : ناحيتها ومدنها ـ ناحية
الروذان ومدنها ـ شهر بابك
وهراة .

تشمل كورة اصطخر جميع القسم الشمالى من اقليم فارس . وكانت هذه الكورة فى القرون الوسطى ، على ما قد بيّنا ، تشتمل على يزد والمدن والرساتيق القريبة منها مما يكون فى حد المفازة الكبرى . ومدينة هذه الكورة كانت اصطخر على ما قد سمى به العرب المدينة الساسانية التى كانت تعرف عند اليونان باسم برسبوليس .

وتقوم مدينة اصطخر على نهر بلوار ، على بضعة أميال فوق اقترانه بنهر الكرّ ، وعلى مسافة يسيرة غرب بقايا القصور الاخمينية العظيمة . وفى أيام الفتح الاسلامى كانت اصطخر من أجل مدن فارس الساسانية ، ان لم تكن أجلها ، وكان أخذها صلحا بمعاهدة . وصفها ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) فقال : « سعتها مقدار ميل . وكان فى قديم الايام على اصطخر ، سور قد تهدم » ،

« وقنطرة خراسان خارج من المدينة ، على بابها » ، ولا يعرف لم سميت هذه القنطرة بذلك • وهى قنطرة فخمة حسنة ، وراءها أبنية ومساكن تكتنفها البساتين، وفيها كثير من الرز والرمان • ولم يزد البلدانيون العرب الآخرون شيئا على ما قاله ابن حوقل ، كما ان المصنفين المسلمين لم يذكروا شيئا مفيدا عن القبور والابنية الاخمينية المشهورة التى ينسبونها عادة الى جمشيد والملك سليمان • وقال المستوفى ان خراب اصطخر (ويصعب أن يعثر اليوم على معالم المدينة الاسلامية) سببه الفتن الهوجاء التى نشبت فيها ، فاضطر أخيرا صمصام الدولة ابن عضد الدولة البويهى الى أن يرسل اليها جيشا بقيادة الامير قطلمش ، فى النصف الأخير من المئة الرابعة (العاشرة) ، فكان مصيرها الدمار والخراب • وتضاءلت اصطخر منذ ذلك الحين وأمست قرية لا يسكنها أكثر من مئة انسان على ما ذكر صاحب فارس‌نامه فى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) •

وتكلل الجبال التى فى شمال غربى المدينة ، ثلاث قلاع ، هى : قلعة اصطخريار (صديق اصطخر) ، وقلعة شكسته (القلعة المنكسرة) ، وقلعة شكوان • وكان يطلق عليها جملة سى كنبذان (أى القباب الثلاث) وكان يرفع الماء الى أولى هذه القلاع من غور عميق فى الجبل ، أنشىء فيه سد • وعمل عضد الدولة البويهى فى هذه القلعة حياضا عظيمة ترتفع على عشرين سارية ، يكفى ماؤها ألف رجل اذا ما ضرب الحصار عليها مدة سنة • وكان قرب هذه القلاع فوق الجبل ، ميدان لتدريب الجند ، أمر بعمله وانشائه عضد الدولة أيضا[1] •

ونهر پلوار ـ وسماه البلدانيون العرب فرواب ، وكتبه الفرس بصورة پرواب ـ يخرج فى شمال أوجان أو أُزْجان عند قرية فَرَوَاب فى الجويرقان، فيجرى أولاً الى الشرق ، ثم يدور الى الجنوب الغربى فوق بازاركد Pasargadae عند قبر كورش • وقد سمى المسلمون هذا القبر بمشهد أم سليمان (مشهد مادر سليمان) • ثم يخترق النهر غور اصطخر فيمر بهذه المدينة

(١) البلاذرى ٣٨٨ ؛ ابن حوقل ١٩٤ ؛ المقدسى ٤٣٥ ؛ فارس‌نامه ٦٧ ب ، ٨١ ب ، ٨٣ أ ؛ المستوفى ١٧٣ و ١٧٤ و ١٧٨ و ١٧٩ ؛ حافظ ابرو ٨٥ ب •
ما زالت ترى اطلال القلاع الثلاث • وقد زار احداها J. Morier انظر : Second Journey Through Persia (لندن ١٨١٨) ؛ ص ٨٣ ـ ٨٦ ؛ دى‌بود : لرستان ١ : ١١٧ •

ويدخل سهل مرودشت حيث يسقط فى نهر الكر على مسافة قليلة فوق السد العظيم المسمى بند أمير . ومخرج نهر الكرّ فى ناحية كروان على شيء يسير جنوب أوجان ، فهو لا يبعد عن مخرج نهر بلوار ، لكنه يتجه فى أوله اتجاها معاكسا له . ويجرى نهر الكر نحو الشمال الغربى ، ويدور دورة عظيمة ، جاريا تحت قنطرة شهريار وهى فى الطريق الصيفى من شيراز الى اصفهان فى ناحية الأُرد . ثم يتجه الكر جنوبا فيمر قرب قريتى كُورِد وكَلّار ، ثم يميل الى الجنوب الشرقى فيستقبل رافدا من شعب بوان (أنظر صفحة ٣٠٠) وشق ناحيتى رامجرد وكام فيروز . ثم يخترق سهل مرودشت حيث يستقبل فى يساره نهر بلوار ويسقى ناحيتى كربال العليا وكربال السفلى . ثم يمر قرب القرية الكبيرة المسماة خُرّمة ويقع فى بحيرة البختكان بين ناحية جفوز فى الجنوب وناحية كاسكان فى يساره .

وقال صاحب فارس نامه وغيره من المصنفين الفرس ، ان نهر الكر ، يعرف فى أعلاه باسم رود عاصى ، لأنه وان سكر ماؤه بسكر (بند) ، الا ان ماءه عصى عن سقى الارض فلم ينتفع به . وأول هذه السدود التى على الكر ، يعرف ببند مُجَرّد . وقد كان هذا السد من الزمن القديم ، فلما انهار أعاد بناءه الاتابك فخر الدولة جاولى ، فى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) وسماه فخرستان نسبة اليه . وكان يعرف بذلك فى زمن حافظ أبرو أيضا . وسكر نهر الكر أسفل اقتران نهر بلوار به ، بند أمير المشهور أو البند العضدى ، ويعرف قسم من هذا السكر أيضا باسم سكر فناخسرو خرّه . وهذه الاسماء كلها منسوبة الى عضد الدولة البويهى الذى أنشأ السكر ليسقى ناحية كربال العليا . وقد كان هذا البند من عجائب فارس على ما ذكر المقدسى ، وهو من أهل ذلك الزمن . قال : « قد سكر عضد الدولة النهر بحائط عظيم جعل أساسه بالرصاص ، فتبحر الماء حوله وارتفع فجعل عليه من الجانبين عشرة دواليب وتحت كل دولاب رحا وجرّ الماء فى قنى فأسقى ثلاثمئة قرية ، وبنى ثم مدينة » قرب البند وكان يقال للسكر الاسفل على الكرّ ، بند قَصّار ، وقد أنشيء لرفع الماء وسقى ناحية كربال السفلى . وكان هذا السد منذ قديم الزمن ، ولكنه انهار فى مطلع المئة السادسة (الثانية

عشرة) ، فأصلحه الاتابك جاولى المار الذكر الذى رم أيضا بند أمير[٢] .

وبحيرة البختكان التى يقع فيها نهر الكر ، وان كان حولها اليوم مفاوز ، الا انها كانت فى العصور الوسطى محاطة بقرى ومدن ذات رساتيق خصبة . ومياه هذه البحيرة تؤلف بحيرتين متصلتين : الجنوبية منهما كانت تعرف فى العصور الوسطى ببحيرة البختكان ، والشمالية تسمى بحيرة الباسفوية أو جوبانان . وماء هذه البحيرة ملح ، وصيدها كثير ، وعامة سمك شيراز منها ، وفى أطرافها آجام كثيرة ومنها قصب وبردى . وناحية جفوز فى الطرف الغربى من البحيرة ، وفيها مدينة خرمه (وما زالت الآن قرية ذات شأن) وهى على ١٤ فرسخا من شيراز فى طريق كرمان المحاذى لشاطىء بحيرة البختكان الجنوبى . وذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) ان خرمة لها رستاق واسع وبها قلعة فوق رأس جبل ، وكانت قلعة حصينة محكمة البناء ، على ما قال المستوفى وقد كتب فى العهد المغولى . وأشار فارس‌نامه الى حياضها[٣] .

وكان الطرف الجنوبى الشرقى من بحيرة البختكان ، فى كورة دار أبجرد ، وعليه خَيْرَهْ ونيريز ، وسنتكلم عليهما فى الفصل القادم . وبالقرب من طرفها الشرقى ، حيث اليوم مفازة معطشة ، كانت تقوم فى المئة الرابعة (العاشرة) المدينتان الجليلتان : صاهَك أو صاهِيك ، الكبرى والصغرى . وكتب الفرس هذا الاسم بصورة چاهك (ومعناه حفرة صغيرة أو بئر) . ويجتمع عند صاهك الكبرى طريقان - أولهما يمتد فى الجانب الشمالى من بحيرة البختكان آتيا من اصطخر ، والثانى يمتد بمحاذاة شاطئها الجنوبى آتيا من شيراز - ، ويخرج منها طريق واحد نحو كرمان . ووصف المقدسى صاهك الكبرى فقال انها مدينة صغيرة ولأهلها « حذق فى كتابة المصاحف » . وبالقرب منها ، على ما فى المستوفى ، معدن الحديد . وتكلم فارس‌نامه على ما يعمل فيها من السيوف الصقيلة . وفى الطريق من صاهك الكبرى الى اصطخر ، وعلى الساحل الشمالى من شطر

---

(٢) الاصطخرى ١٢١ ؛ المقدسى ٤٤٤ ؛ فارس‌نامه ٧٩ ب ؛ المستوفى ٢١٦ و ٢١٨ ؛ حافظ ابرو ٣٢ أ . ياقوت ٢ : ١٠٧ .

(٣) الاصطخرى ١٢٢ و ١٣٥ ؛ المقدسى ٤٣٧ ؛ فارس‌نامه ٨٠ آ ، ٨٢ ب ، ٨٧ ب ؛ المستوفى ١٧٤ و ١٧٩ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

بحيرة البختكان المعروف ببحيرة الباسفوية أو ُجوبانان ، مدينتان كانتا على شأن كبير في القرون الوسطى ، ولا أثر لهما في الخارطة الآن . أقصاهما شرقا على ستة أو ثمانية فراسخ من صاهك الكبرى ، هي مدينة الإِدْ ّبجان ، وتعرف بقرية الآس ، وسماها المستوفي بالفارسية « ديه‌مورد » . ويكثر في رستاقها القمح والآس ، فعرفت المدينة به . وفي غرب قرية الآس ، على ستة أو سبعة فراسخ فوقها في طريق اصطخر ، قرية عبد الرحمن ويقال لها أيضا أباده ، وهي مدينة في ناحية بَرْم . وفي هذه المدينة بيوت وقصور حسنة . وحكى القزويني ان آبارها : « عمقها قامات كثيرة ، جافة القعر عامة السنة . حتى اذا كان الوقت المعلوم عندهم في السنة ، نبع ماء يرتفع على وجه الارض . ويجرى وينتفع به في سقى الزروع ثم يغور » . وكان لأُبادة في أيام السلاجقة قلعة حصينة فيها آلات الحرب وبها حياض عظيمة للماء[٤] .

أما سهل مرودشت الرحب ، فتخترقه أسافل نهر الكر بعد أن يستقبل مياه پلوار . وتشرف على هذا السهل من الشمال اصطخر وقلاعها الثلاث ، وكان السهل ينقسم بين عدة نواح . فبالقرب من الطرف الغربي لبحيرة البختكان ، ناحيتا كربال السفلى وكربال العليا ، وأعلى من ذلك ، على نهر الكر ، ناحيتا َحفْرَك وقالى . وعلى ضفاف نهر پلوار مراعى ناحية قالى . وكانت في ناحية حفرك (وجاء اسمها بصورة : حبرك في مخطوطات أقدم) القلعة العظيمة ُخوار ، قرب قرية تعرف بهذا الاسم . وقد ذكر الاصطخري هذا الموضع ، كما ذكره فارس‌نامه غير مرة وقال انه في نصف الطريق بين السكر العضدى على الكر وأباده على بحيرة البختكان ، فهو على عشرة فراسخ من كل منهما . وقد أشار ياقوت الى خوار أيضا مرتين ، ولكنه لم يعرف موضعها على ما يظهر . وماؤها من الآبار ، وكانت قلعتها محكمة حصينة ، أما سهل مرودشت فقد كان مشهورا بكثرة قمحه ، وسقيه من السكور التي على الكر . وذكر فارس‌نامه انه اشتق اسمه من قرية

---

(٤) ابن خرداذبه ٤٨ و ٥٣ ؛ قدامة ١٩٥ ؛ الاصطخرى ١٠١ و ١٣١ ؛ المقدسى ٤٣٧ ؛ فارس نامه ٦٦ أ ، ٦٨ أ ـ ب ، ٨٣ أ ؛ المستوفى ١٧٥ و ١٧٩ ؛ القزوينى ٢ : ١٦٠ .

وقد كان ما خلا مدينة اباده (او اباذه) قرية بهذا الاسم أيضا في الطريق من اصطخر الى اصفهان ، سنأتى على وصفها .

مرو التى كانت بالأصل حيا من أحياء مدينة اصطخر حيث قامت بعدئذ بستان جمشيد أسفل من الاطلال الاخمينية[٥] .

وفوق مرودشت تقع ناحية كام فيروز، ومعظمها على يمين نهر الكر، وكانت قصبتها وهى كذلك اليوم ، مدينة البيضاء . واسم البيضاء عربى النجار . وهذا الاسم من الاسماء العربية النادرة التى اتخذها الفرس (الا انهم لفظوا الاسم بيزا) وظلوا على الأخذ به الى وقتنا هذا ، وانما سميت هذه المدينة البيضاء « لان لها قلعة بيضاء بيض من بعد » . وزاد ابن حوقل على قوله هذا ان « اسمها بالفارسية نسائك »[٦] ومعناه على ما ذكر ياقوت دار اسفيد أى القصر الابيض ، « وكانت هذه المدينة معسكرا للمسلمين يقصدونها فى فتح اصطخر » . وكانت البيضاء نحوا من اصطخر كبرا على ما كانت عليه هذه الاخيرة فى المئة الرابعة (العاشرة) . وأشار اليها المقدسى فقال « البيضاء ظريفة طيبة ، بها جامع حسن ومشهد يقصد » . وحولها مراع مشهورة ، وكانت المدينة ، وهى فى وسط حقول القمح الخضر ، تبرز ببياضها اللامع . وفى ناحية كام فيروز عدة قرى ، سرد الاصطخرى أسماءها ، وفى أيامه كان فى غابات البلوط بالقرب منها ، أسود مفترسة تخشاها قطعان الماشية التى ترعى فى مراعيها .

وكان الى شمال كام فيروز وشرقها ، ناحية رامجرد ، وقصبتها مدينة مايين . وفى نصف الطريق بينها وبين شيراز ، مدينة يقال لها هزار ، أو أزار سابور ، وتسمى أيضا نيسابور . وكثيرا ما تردد ذكرها فى المئة الرابعة (العاشرة) . قال المقدسى فيها : « صغيرة لها رستاق واسع ، شربهم من قنى » . وهى أول مرحلة بريد فى الطريق الذاهب من شيراز الى مايين ، وفى الطريق الصيفى أى الجبلى من شيراز الى اصفهان . وكانت مايين قصبة رامجرد ، وصفها المقدسى بقوله : « عامرة كثيرة الفواكه » . وقال المستوفى ان دخلها فى أيام الدولة المغولية ٥٧٥٠٠ دينار ايلخانى (نحو ١٧٥٠٠ باون) . وكان فى هذه المدينة مشهد

---

(٥) الاصطخرى ١٠٤ ؛ فارس نامه ٦٦ ب ، ٦٧ ب ، ٨٣ آ ، ٨٤ ب ، ٨٦ آ ــ ب ، المستوفى ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ؛ ياقوت ١ : ١٩٩ ؛ ٢ : ٤٨٠ .

(٦) جاء الاسم بصورة « نسايك » فى ابن حوقل (٢ : ٢٨١) وياقوت (١ . ٧٩٢) . وبصورة « نشانك » فى الاصطخرى (ص ١٢٦) . (م) .

مشهور للشيخ گل‌أندام . وعند حافة الدرب ، في الطريق الذاهب شمالا ، مشهد اسماعيل ابن الامام السابع موسى الكاظم . وكانت ناحية رامجرد كثيرة الغلات وافرة الخيرات لوفرة أنهار السقي فيها الآخذة من فوق السكر الذي على الكر عند بند مجرد . وهو الذي كان الاتابك جاولي قد أصلحه وعمّره ، على ما بيّنا ، وفي رامجرد أيضا قلعة يقال لها سعيد آباد ، « وهي على جبل شاهق يرتقى اليها فرسخا . وكانت في الشرك [أي في زمن قبل الاسلام] تعرف بقلعة اسفيد باذ (أي الموضع الأبيض) » . وبها امتنع غير مرة رؤساء الفتن على جيوش بني أمية التي جردوها عليهم لتأديبهم . ثم استولى عليها في ختام المئة الثالثة (التاسعة) يعقوب بن الليث الصفار ، وأعاد بناءها وأحكم حصونها ، وجعلها محبسا لمن سخط عليه » . ولعل في قراءة اسفيد باذ وهما ، فانه يكتب أحيانا بصورة اسفنديار ، وهذا يطابق ، على ما يظهر ، اسم اسفيدان في فارس‌نامه والمستوفي ، وقد كانت بقربه قرية قمسنان وكهف في الجبل المجاور لها[٧] .

وعلى مقربة من يسار نهر الكر ، غير بعيد عن ماين ، تقوم مدينة وقلعة أبرج (وغالبا ما تكتب خطأ بصورة ايرج) . وقد ذكرها الاصطخري في ضمن هذه الكورة . وما زال موضعها ظاهرا في الخارطة . وفي فارس‌نامه والمستوفي ان أبرج قرية كبيرة ، في أسفل جبل قامت بعض بيوتها على منحدره . اما قلعتها دز أبرج ، فبعضها ما أحكم تحصينه بالبناء وبعضها ما حصّنته جروف وأسنان قمة الجبل الذي تقوم عليه ، فكانت منيعة لا تقتحم . وكان لها بساتين ، ومياهها زاخرة وافرة . وذكر المستوفي مدينة أوجان أو أزجان ، وهي على مرحلة شمال ماين ، الا انه لم يفدنا بأخبار عنها . ولعل أوجان توافق الموضع الذي سماه قدامة حوسكان (أو حوسجان) حيث طبع الاسم خطأ بصورة خوسكان

---

(٧) قدامة ١٩٦ ؛ الاصطخري ١١١ ، ١١٧ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ؛ ابن حوقل ١٩٧ ؛ المقدسي ٤٣٢ ، ٤٣٧ ، ٤٥٨ ؛ فارس نامه ٦٦ أ ، ٨١ ب ؛ المستوفي ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٨٠ ؛ ياقوت ٢ : ٥٦١ ؛ ٣ : ٩٣ و ٨٣٨ .

لعل قلعة سعيد اباد هي منصور اباد الحالية ، وقد وصفها شندلر (H. Schindler) في PRGS لسنة ١٨٩١ ص ٢٩٠ .

كما انه صحّف أيضا فى طبعة المقدسى فجاء فيها بصورة حرسكان[٦] .

وأعدل الطرق الذاهبة من شيراز الى أصفهان ، هو الطريق المتجه نحو مايين ومنها الى كوشك زرد مارا بدبه‌گردو ويزد خواست الى قومشه على حدّ اقليم فارس . ومن مايين يصعد الطريق فى الدرب الى الشمال فيعبر نهر الكر عند قنطرة شهريار ، وبالقرب منها كانت مسلحة صلاح الدين فى سهل يقال له دشت رون أو دشت روم . ويليها شمالا ، على ما فى المستوفى ، درب الأم والبنت (گريوه مادر ، ودختر) . ثم كوشك زرد (الجوسق الاصفر) ولعله يوافق قصر أعين عند الاصطخرى والمقدسى . وكانت سهول دشت رون الكبرى والصغرى مشهورة بمراعيها . وأرضها الزراعية وافرة الخصب ، وتؤتى أربع غلات فى السنة ، وبسقيها نهر الكر وروافده . وأول ذكر لكوشك زرد جاء فى فارس‌نامه، حيث ورد فى الغالب بصورة كوشك زر أى الجوسق الذهبى . والى الشمال أيضا ، بين كوشك زرد وديه‌گردو ، تمتد أرض أوفر خصبا وأعم مرتعا تعرف بناحية أُرد أو أُورّد ، وأهم مدينتين فيها ، على ما فى الاصطخرى ، بجه وتيشمَرستان (وجاءت فى فارس‌نامه بصورة طيمرجان) . وأشار المستوفى الى ديه‌گردو . وجاء فى فارس نامه بصورة ديه‌گوز (بدل جوز) وهما يدلان على اسم قرية معناه قرية الجوز . ولم يذكر البلدانيون العرب القدماء هذا الاسم (وهو فارسى بحسب الصور التى أوردناها له أعلاه) ، ولكن يتبين من موضعه فى المسالك ، ان ديه‌گردو الحالية تقابل اصطخران عند قدامة والاصطخرى .

وتقوم على حدود سهل دشت أُرد الشرقية ، اقليد وسرمق وقرية أباده ، ثم شورستان وقرية سروستان فى منتصف الطريق بين ديه‌گردو ويزد خواست . وكان لاقليد قلعة حسنة ، على ما جاء فى فارس نامه . وكانت مثل سرمق ،

---

(٨) قدامة ١٩٦ ؛ الاصطخرى ١٠٢ و ١٣٦ ؛ المقدسى ٤٥٧ و ٤٥٨ ؛ فارس‌نامه ٦٦ ب ، ٨٣ أ ؛ المستوفى ١٧٤ و ١٧٩ .

لا شك فى أن اسم أبرج ، على ما ورد فى فارس نامه ، هو اللفظ الصحيح . اما ايرج (على ما طبع فى كتابى الاصطخرى والمقدسى) فقد جاء من وهم نساخ المخطوطات ، فنقل ياقوت ذلك عنهم (١ : ٤١٩) . والقلعة القديمة القائمة فوق أبرج ، المعروفة اليوم باسم اشكنوان ، تذكرنا باسم شكوان المار الذكر (فى الصفحة ٣١٢) . وقد كان اسم قلعة من قلاع اصطخر الثلاث . انظر : Schindler فى PRGS لسنة ١٨٩١ ص ٢٩٠ .

مشهورة بحقول القمح • وقد كتب المقدسي اسم سرمق بصورة جرمق • وقال فيها حسنة البناء « أخصب هذه المدن وأكثرها أشجارا » • ويكثر فيها الاجاص الاصفر ، فيجفف ويحمل منها الى سائر البلدان • وقرية أبادة ، مرحلة في طريق البريد الحالي من شيراز الى اصفهان ، وأول من ذكرها فارس‌نامه ، ثم المستوفي • وكذلك يقال عن شورستان وهي على نهر ملح يجري شرقا الى المفازة • أما قرية سروستان فقد قال فيها المقدسي ، في المئة الرابعة (العاشرة) : « الجامع وسط البلد ، وقنيهم ظاهرة » تحمل ماءها من الجبال المجاورة • أما يزد خواست ، المدينة التي في شمال سروستان ، فأول من ذكرها فارس‌نامه ، ولكن لا ريب في انها هي التي نحت المقدسي اسمها فجعله أزكاس • وأورد المستوفي يزد خواست مع ديه‌گردو ولكنه لم يصفها • وغالبا ما يكتب اسمها بصورة يزدخاس[٩] •

أما قومشه ، وقد سماها المقدسي قومسه ، فانها على ما بيّنا ، في حد اقليم فارس الشمالي • وكانت في الغالب تعد من أعمال اصفهان • وقد أشار المستوفي الى قلعة قولنجان المبنية بالطين التي كانت تحميها ، وذكر انه كان لهذه القلعة رساتيق خصبة • والى غرب يزدخواست ، تقوم مدينة سميرم قرب منابع نهر طاب • ويشقها الطريق الغربي من شيراز الى اصفهان • قال المقدسي فيها « بها جامع حسن محدث ناء عن الاسواق ، كثيرة الجوز والفواكه • وثم قلعة مذكورة ، فيها عين ماء » • وذكر ياقوت ان اسم هذه القلعة كان وهان زاد • والطريق الغربي الآتي من شيراز الى اصفهان ، يشق مدينة البيضاء في سهل مرودشت ، ثم يتابع سيره الى مهرجاناواذ (أو مهرجاناباد) • وقد وصفها المقدسي بقوله : « لها رستاق واسع ، شربهم من أنهار » • والظاهر انها كانت على ضفاف الكرّ ، أو على أحد روافده الغربية • وبين هذه المدينة وسميرم ، لم يكن من المدن المهمة غير كورد وكلاّر (على نهر الكر ، حسبما بيّنا) ، وهما مدينتان متجاورتان على ما قال المقدسي والمستوفي ، تشتهران بكثرة القمح وثمار بلاد الصرود • وأشار

---

(٩) ابن خرداذبه ٥٨ ؛ قدامة ١٩٦ ؛ الاصطخري ١٠٣ و ١٣٢ ؛ المقدسي ٤٣٧ و ٤٥٨ ؛ فارس‌نامه ٦٥ ب ، ٦٦ أ ، ٨٠ ب ، ٨١ أ ، ٨٣ أ — ب ، ٨٤ أ — ب ؛ المستوفي ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٩ ، ٢٠٠ ؛ ياقوت ١ : ١٩٧ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٥٢ •

الاصطخرى الى حسن بنائها وقصورها . والظاهر انه لا أثر اليوم لهذين الموضعين[١٠].

وأقصر الطرق الثلاثة من شيراز الى اصفهان ، هو الطريق الذى وصفناه آنفا ، المارّ بمايين وسهل دشت رون ، وهو الذى سماه فارس‌نامه بالطريق الشتوى . اما الطريق الصيفى ، فقد كان أطول الطرق الثلاثة وأقصاها شرقا . وكان يمرّ باصطخر مخترقا كمين ومحاذيا قبر كورش الى ديه‌بيد ، حيث يتفرع من يمينه طريق الى يزد . ويواصل طريق اصفهان سيره الى الغرب ، مارا بسرمق وقرية اباده الى يزد خواست وقومشه . وكَمِين وهى غير بعيدة عن ضفة نهر پلوار الشرقية ، كانت ، على ما ذكر المستوفى ، مدينة كبيرة الشأن فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تقوم فى رستاق خصب كثير القمح . ولها مراع واسعة بامتداد النهر . وفى أعلى ذلك ، عند منحنى نهر پلوار ، بازاركد Pasargadae وقبر كورش ، وقال المسلمون انه قبر أم سليمان على ما سبق بيانه ، وهذا الضريح الملكى المربع الجوانب ، المبنى بالحجر ، ما زال يرى هناك ، ويقال ان طلسما يحرسه . وكل من حاول السكنى داخل جدرانه باغته العمى على ما جاء فى فارس نامه . وكان يقال لما حوله من مراع ، مرغزار كالان . أما ديه‌بيد « قرية الصفصاف » فانها المرحلة التالية فى شماله ، حيث يتشعب الطريق . وهى التى ذكرها المقدسى وغيره من البلدانيين العرب باسم قرية البيذ . والى شمالها أيضا ، فى نحو من نصف الطريق بين اصطخر ويزد ، تقوم مدينة أبَرقوه .

وأبرقوه ، أو أبرقويه ، ــ وتختصر أحيانا الى برقوه ــ قد قال فيها ابن حوقل ، انها مدينة محصنة[١١] « تكون نحو الثلث من اصطخر » ، ولها أسواق عامرة . وذكر المقدسى ان لها جامعا جيدا . وقال المستوفى ، ان أهلها من الصنّاع

---

(١٠) الاصطخرى ١٢٦ ؛ فارس‌نامه ٦٦ أ ، ٨٤ آ ــ ب ، المقدسى ٣٨٩ ، ٤٣٧ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ؛ المستوفى ١٧٥ ؛ ياقوت ٣ . ١٥١ ؛ ٤ : ٩٤٢ .

ومما يحسن أن نشير اليه ، ان المقدسى ، فى وصفه المسالك (ص ٤٥٨) قد اشار الى كرود وكلار ، وكأن الواحدة جنب الاخرى . اما فارس نامه ، فقد ذكر فى المسالك (الورقة ٨٤ ب) ان كلار على خمسة فراسخ من شمال كورد .

(١١) القول للمقدسى (ص ٤٣٧) (م) .

وتغل رساتيقها كثيرا من القمح والقطن ، وزاد على ما تقدم ان لجوّها مزية خاصة هي ان اليهودى لا يبقى فيها حيا اذا جاوز مكثه فيها أربعين يوما ؟ ومن ثم لا تجد فى أبرقوه يهوديا • ووصف المستوفى قبرا فى المدينة نفسها لولي مشهور يسمى طاووس الحرمين (مكة والمدينة) • ومن الامور الشائعة عن هذا القبر ، انه لشدة تواضع صاحبه ، يأبى القبر ان يرتفع فوقه سقف ومع ان كثيرين أقاموا سقفا فوق القبر مرارا الا انه تهدم بقدرة خارقة على ما ذكر المستوفى ، حتى لا يكون من عظام الولىّ ما يتعبد الناس له • وكان بالقرب من أبرقوه قرية مراغة (أو فراغة) وفيها أشجار السرو العظيمة المشهورة فى سائر البلدان بأنها أكبر وأحسن حتى مما فى بلخ أو كشمر فى قهستان[١٢] •

أما يزد ، فقد كانت تعرف فى قديم الزمان باسم "كثّه • وقد انتقل هذا الاسم حين غلب اسم يزد على المدينة الى ناحيتها ، فقيل لها حومة يزد أو جومة يزد • ووصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة يزد بقوله « الغالب على أبنيتها آزاج الطين ، وبها مدينة محصنة بحصن ، وللحصن بابان من حديد ، ويسمى أحدهما باب ايزد والآخر باب المسجد لقربه من الجامع ، وجامعها فى الربض » ولها نهر يخرج من ناحية الجبل الذى عليه القلعة ، ورساتيقها يشتمل على رخص ، وهي على طرف المفازة ، وثمارها كثيرة تحمل الى أصبهان • وبالقرب منها « معدن الآنك »[١٣]• وتكلم القزوينى وغيره على حريرها بقوله : « بها صنّاع الحرير السندس فى غاية الحسن والصفاقة ، يحمل منها الى سائر البلاد » • وزاد المستوفى على ذلك ان بنيان المدينة من اللبن ، وهو يدوم هنا دوام الآجر فى سائر البلاد ، اذ يندر أن يهطل المطر فيها ، غير ان مياهها وافرة ، من القني الآتية

---

(١٢) الاصطخرى ١٢٩ ؛ ابن حوقل ١٦٦ ؛ المقدسى ٤٣٧ و ٤٥٧ ؛ فارس نامه ٨١ ب ، ٨٤ ب ؛ المستوفى ١٧٤ و ١٧٥ و ١٨٠ و ٢٠٠ ؛ جهان نما ٢٦٦ •

وظاهره قبر لا مية عليه ، قد وصفها أيضا ابن بطوطة (٢ : ١١٣) فى كلامه على قبر ابن حنبل ببغداد • وللبروفسور جولدسيهر ، ملاحظات نافعة على هذه الخرافة الغريبة فى كتابه : Muhammedanische Studien (١ : ٢٥٧) •

(١٣) جاء فى طبعة ابن حوقل لسنة ١٩٣٩ (٢ : ٢٨٠ والحاشية) : فى الاصل باب الدور وكتبه ناشر الطبعة الاولى بصورة ايرد تبعا لياقوت •

أما معدن الآنك فهو الرصاص الابيض • واللفظة فارسية • (م) •

من الجبل . وفى كل بيت حوض للماء .

وعلى مرحلة من شمال يزد ، أنجيرة « قرية التين » . ثم فى المرحلة الثانية خزانة (وقد طبعت وهما : خرانة) وهى قرية كبيرة . « بهـا زرع وضرع وبساتين وكروم » . وعليها قلعة فوق جبل قريب منها . وفى المرحلة الثالثة ، على حدّ المفازة ، ساغند . وساغند ، على ما ذكر ابن حوقل ، « قرية فيها نحو اربعمئة انسان ، وعليها حصن . لها عين ماء جار يزرع عليها ، وعليهـا قنى وبساتين عامرة » . أما المدن الثلاث : مَيبُد وعقدة ونايين ، فانها فى شمال غربى يزد ، تلي احداها الاخرى على حدّ المفازة . وهى تعد فى الغالب من أعمال يزد ، وان ألحق بعض المصنفين مدينة نايين باصفهان . وكان على نايين قلعة ، ومحيط أسوارها ٤٠٠٠ خطوة ، على ما ذكر المستوفى . على ان مراجعنا لم تصف هذه المواضع ، بل اقتصرت على ذكر اسمائها(١٤) .

وعلى نحو من ٧٥ ميلاً جنوب يزد ، فى نصف الطريق بين هذه المدينة وشهر بابك ، مدينة أنار . وتبعـد عنهـا بهـرام أباد ستين ميلا باتجاه الجنوب الشرقى . وكلتا هاتين المدينتين معدودة اليوم من أعمال اقليم كرمان . غير ان هذه الناحية جميعها كانت فى القرون الوسطى تؤلف قسما من اقليم فارس ، وكان يقال لها الروذان . والمدن الثلاث المهمة فى هذه الناحية هى : أبان (اليوم : أنار) وأذكان وأناس (بالقرب من بهرام اباد)(١٥) .

---

(١٤) الاصطخرى ١٠٠ ؛ ابن حوقل ١٩٦ ، ٢٦٤ ، ٢٩٥ ؛ المقدسى ٤٢٤ ، ٤٣٧ ، ٤٦٣ ؛ القزوينى ٢ : ١٨٧ ؛ المستوفى ١٥٣ ؛ ياقوت ٣ : ٦٦٤ ، ٤ : ٧١١ و ٧٣٤ .

(١٥) ذكرت مراجعنا ان ابان كانت على ٢٥ فرسخا من الفهرج (وهى على خمسة فراسخ من جنوب شرقى يزد) . ومدينة الروذان على ١٨ فرسخا من أبان . وكانت أناس على مرحلة قصيرة أو بريدين من الروذان . والى ذلك ، فان أناس على مرحلة طويلة وفرسخين (اى بريد واحد) من بيمند . وبيمند على أربعة فراسخ غرب السيرجان . وكان من الروذان الى شهر بابك مسيرة ثلاثة أيام . لمسيرة اليوم الأول الى قرية الحال . وهذه المسافات ترينا ان موضعى أنار وبهرام أباد الحديثتين يوافقان بالتعاقب ما كان يعرف فى القرون الوسطى بأبان وأناس . اما مدينة الروذان التى يظن انها الموضع المسمى أذكان ، فقد كانت اذا بين الاثنتين بالقرب من قرية كلناباد الحالية ؛ الاصطخرى ١٣٥ و ١٦٨ ؛ ابن خرداذبه ٤٨ ، المقدسى ٤٥٧ و ٤٧٣ .

وقد زاد ياقوت الامر تعقيدا ذكره (٣ : ٩٢٥) ان مدينة أنار توافق أناس وذلك غير واقع بالنظر الى المسافات التي بيناها . ولعل أنار هنا ليست الا من وهم النساخ فى كتابة اسم أناس التى عدها فى مادة أخرى (١ : ٣٦٧) من أعمال اقليم كرمان .

أما أناس قصبة الناحية فهي على ما ذكر الاصطخرى نحو من أبرقوه في الكبر. وتكلم المقدسى على جامعها ، فقال : « بها جامع لطيف حسن يصعد اليه بدرج » . وقال ان بها حمامات وبساتين حسنة « وليس بها ربض ، وقد أحاطت بها الرمال » . وحصن أناس منيع بثمانية أبواب ، سرد المقدسى اسماءها ، فانه زار هذا الموضع . و « هي معدن القصارين والحاكة » . ويقال ان ناحية الروذان كانت نيفا وستين فرسخا مربعا وكانت في أول أمرها ، كما هي اليوم ، من أعمال كرمان . الا انها في المئة الرابعة (العاشرة) أضيفت الى فارس . وقد دام هذا التنظيم على ما في فارس نامه الى أيام ألب أرسلان السلجوقي الذى بعد أن تمّ له الاستيلاء على هذه الديار في منتصف المئة الخامسة (الحادية عشرة) ، أعاد الحاق الروذان نهائيا بكرمان(١٦) .

وبين الروذان وشهربابك ، المدينة الصغيرة ديه اُشتُران، وهي بالعربية قرية الجمال . وذكر المقدسى : « لها جامع به منارة طويلة ، والنهر تحت البلد ، وحولها بساتين حسنة » . أما شهر بابك فمعناها مدينة بابك أو بابك ، وهو أبو أردشير أول ملوك الساسانيين . وكانت تعد في اقليم كرمان . وما زال هذا الموضع قائما ، وذكره الاصطخرى والمقدسى وغيرهما ، الا انهم لم يأتوا بوصف له . وقد عدها المستوفى من كرمان ، وقال يكثر فيها القمح والقطن والتمر . وعلى مرحلتين من غرب شهر بابك ، في الطريق الى اصطخر ، المدينة الصغيرة هراة التي جمع صاحب فارس نامه بينها وبين صاهك (وقد مرّ ذكرها في صفحة ٣١٤) . قال الاصطخرى فيها ان هراة كانت في المئة الرابعة (العاشرة) أكبر من أبرقوه . ويحمل منها ، على ما في المقدسى ، سائر الفواكه لاسيما التفاح والزيتون . ولها أسواق عامرة ، وفيها جامع حوله طرق . ولها نهر كبير يتخلل بساتينها. ولمدينة هراة باب واحد . وذكر المقدسى ان «فَرّعا» مدينة صغيرة بقرب هراة . وذكر القزوينى ، وقد كتب في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ان في

(١٦) الاصطخرى ١٠٠ ، ١٢٦ ؛ المقدسى ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٤٦٢ ؛ فارس‌نامه ٦٤ ب ؛ ياقوت ٢ : ٨٣٠ .

ما زالت آثار ذات خيرات كثيرة تزيد غلتها من الصحع عن حاجتها فيحمل منها الى سائر الجهات .

هراة تكثر أشجار الفبيراء ، وقال : « قالوا ان نساءها يغتلمن اذا أزهرت أشجار الفبيراء » . والى جنوب شرقي صاهك ، على حد كورة دار أبجرد ، مدينة قطْر ، وهي ما زالت على شيء من المكانة . وفيها ، على ما ذكر فارس‌نامه والمستوفي (وقد كتب اسمها بصورة گدرو) ، معدن الحديد الجيد[17] .

---

(١٧) وجد ميجر سايكس (Major Sykes) بالقرب من شهر بابك ، بقايا بيت نار . انظر : Ten Thousand Miles in Persia ص ٧٨ .

الاصطخري ١٠٢ ؛ ابن حوقل ١٨٢ ؛ المقدسي ٥٢ و ٤٢٣ و ٤٢٤ و ٤٢٥ و ٤٣٦ و ٤٣٧ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٦٦ أ ، ٦٨ أ ؛ ياقوت ١ : ٧٥ و ١٧٨ ؛ المستوفي ١٧٥ و ١٨٢ ؛ القزويني ٢ : ١٨٦ . تتشابه تهجئة اسم قرية هراة مع هراة المدينة المشهورة في خراسان .

الفصل العشرون

فارس «تتمة»

كورة دار ابجرد او كورة شبانكاره ـ مدينة دار ابجرد ـ دركان وايك ـ
نيريز واصطهبانات ـ فسا وروليز وخسو ـ لار وفرج ـ
طارم ـ سورو ـ تجارات فارس وصناعاتها ٠
مســالك اقليم فارس ٠

كانت كورة دار أبجرد ، أبعد كور فارس الخمس الى الشرق ٠ وهى تكاد تطابق ولاية شبانكاره التى سلخت من فارس أيام السيادة المغولية وتألف منها حكومة قائمة بنفسها ٠ وقد كانت شبانكاره ، على ما ذكر صاحب فارس نامه ، (وهو على كل حال لم يطلق هذا الاسم على كورة دار أبجرد) ، قبيلة انحدرت من فضلويه وهى أسرة ديلمية الاصل ، كان أبناؤها على مذهب الاسماعيلية من فرق الشيعة ٠ وفى أيام السلاجقة ، تغلبت قبيلة شبانكاره والاكراد على الاتابك جاولى ٠ وبعد انهيار الدولة السلجوقية ، استولت قبيلة شبانكاره على القسم الشرقى من اقليم فارس ، فنسب اليهم ٠ وقد ذكر ماركوبولو ولاية شبانكاره تحت اسم سنكاره (Soncara) فقال انها سابعة الممالك الثمان حسب تقسيمه لبلاد فارس ومهما يكن من أمر ، فقد بطل هذا الاسم أيضا ٠ وهى تعرف اليوم باسم دار أبجرد[1] ٠

---

(١) انظر سر يول Sir H. Yule : The Book of Ser Marco Polo
(لندن ١٨٧٤ الطبعة الثانية) ١ ٠ ٨٤ ٠ (بقية الحاشية فى الصفحة الآتية) ٠

وقد كانت قصبة هذه الكورة أيام الخلافة ، مدينة دار أبجرد ، أو دار أبگرد. وصفها الاصطخرى بقوله « عليهاسور عامر ، وعليها خندق ، ولها أربعة أبواب ، وفى وسط المدينة جبل حجارة » . وقال المقدسى « والمدينة دورها فرسخ مكسر ، ذات بساتين ونخيل ، حسنة الاسواق ، ولهم آبار وقنى » وكان بالقرب من دار أبجرد قبة المومياء المشهورة وعلى هذه القبة باب حديد يفتح مرة فى السنة ويدخله عامل السلطان فيجمع ما نزّ فى تلك السنة من المومياء ، ثم يجعل فى صندوق ويختم عليه ويبعث به الى شيراز ليستعمله الملوك[٢] . وفى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) حلّ الخراب فى أكثر مدينة دار أبجرد ، على ما فى فارس نامه . وان بقى فى وسطها حصن منيع . وكانت حولها مراع مشهورة تعرف بمر غزار دار ابجرد . وبناحية دار أبجرد جبال من الملح بسبعة ألوان يؤخذ منها الملح[٣] . وذكر المستوفى انه كان قريبا من دار ابجرد درب منيع حصين عليه قلعة عظيمة يقال لها تنك زينه[٤] .

وحين حكم الشبانكاره دار ابجرد ، نقلوا قصبة الولاية الى داركان (أو زركان) وفى شمالها كانت تقوم قلعة ايگ (أو أويگ) . أما البلدانيون العرب فانهم ذكروا هذين الموضعين فى المئة الرابعة (العاشرة) وسموها الداركان أو الداراكان وايج . وقال الاصطخرى كان فى كل منهما منبر . أما المستوفى

ووردت شبانكاره فى تاريخ ابن الاثير (١٠ : ٣٦٢) بصورة الشوانكاره . أما من حارب الاتابك حاولى من رؤساء هذه القبيلة فى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) فقد كان فضلوه وأخاه خسرو ، ولعل كتابة فارس نامه للاسم الاخير بصورة حسويه أصوب (بدلا من حسنويه) .

(٢) أما ما قاله المقدسى (ص ٤٢٨) فهو : « على قبة المومياء باب حديد ، وقد وكل رجل بحفظه ، فاذا كان شهر مهرماه ، صعد العامل والقاضى وصاحب البريد والعدول ، وأحضرت المفاتيح وفتح الباب ، ثم دخل رجل عريان ، فيجمع ما نز فى تلك السنة ، ولا يبلغ رطلا على ما سمعت من بعض العدول ، ثم يجعل فى شىء ويختم عليه . ويبعث مع عدة من المشايخ الى شيراز . ثم يغسل الموضع . فكل ما ترى فى أيدى الناس ، فانما هو معجون بذلك الماء ، ولا يوجد الخالص الا فى خزائن الملوك » . (م) .

(٣) قال الاصطخرى (ص ١٥٥) . « وبناحية دار ابجرد جبال من الملح الابيض والاصفر والاخضر والاسود والاحمر ، تنحت من هذه الجبال موائد وغير ذلك وتحمل الى سائر المدن » . (م) .

(٤) الاصطخرى ١٢٣ و ١٥٥ ؛ المقدسى ٤٢٨ ؛ فارس نامه ٦٨ ب ، ٨١ أ ، ٨٦ ب ؛ المستوفى ١٨١ .

وذكر ابن الفقيه (ص ١٩٩) ان قبة المومياء أو قبة تشبهها ترى بالقرب من ارجان (انظر ص ٣٠٥ أعلاه) .

فقد كتب الاسم بصورة زركان وسمى القلعة بقلعة أويگ ، وقال ان هذه الناحية كانت وافرة الخصب ، يكثر فيها القطن والقمح والتمر وغير ذلك من الفواكه. وذكر أيضا أن قبيلة خسويه كانت أول من أحكم تحصين قلعة أويك فى أيام السلاجقة . وزاد ياقوت عليه ، ان فواكهها كانت تجلب منها الى جزيرة كيش (أى قيس) .

والى شمال شرقى ايج ، مدينة وناحية تَيريز (أو نيريز) ، وهى فى الطرف الشرقى من بحيرة البختكان ، وقد سرى اسم المدينة حينا على البحيرة . وقال المقدسى ان « نيريز كبيرة ، الجامع الى جانب السوق » وما زالت ترى أطلال هذا الجامع عليه مكتوب سنة ٣٤٠ (٩٥١) . وعند ساحل البحيرة مدينة خِير (وجاءت أيضا بصورة خيار والخيره) ، وقد ورد ذكرها من المئة الرابعة (العاشرة) فما بعدها بأنها مرحلة فى الطريق المحاذى لجانب بحيرة البختكان الجنوبى ، الذاهب من شيراز الى كرمان . وأطلق المستوفى وفارس نامه على الناحية التى حول خيره اسم ميشكانات ، وكانت مشهورة بالكشمش ، وكان على كل من نيريز وخيره قلعة حصينة[٥] .

وفى نصف الطريق بين خيره وايگ ، مدينة اصطهبانات ، وقد كتب البلدانيون العرب هذا الاسم أيضا بصورة الاصطهبانان وأحيانا الاصبهانات ، فاختصره الفرس الى اصطهبان . ووصف المستوفى هذه المدينة بأن الاشجار تلف عليها ، وبجوارها قلعة حصينة خرّبها الاتابك جاولى ، ثم أمر بعد ذلك بتجديدها . وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) استولت قبيلة خسويه على القلعة .

اما مدينة فسا ، ويلفظها الفرس پسا ، فقد كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) ثانية المدن فى كورة دار أبجرد وتقارب شيراز فى الكبر . كانت حسنة البناء ، وأكثر الخشب فى أبنيتهم السرو ، صحيحة الهواء ، أسواقها عامرة عليها حصن وخندق ، ولها ربض واسع يمتد خارج أبواب المدينة وفيها الرطب والجوز والاترج

---

(٥) الاصطخرى ١٠٧ و ١٠٨ و ١٣٢ و ١٣٦ و ٢٠٠ ؛ المقدسى ٤٢٣ و ٤٢٩ و ٤٤٦ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٦٨ ب ، ٦٩ أ — ب ؛ المستوفى ١٨١ ؛ ياقوت ١ : ٤١٥ ؛ ٢ : ٥٦٠ . وانظر كابتن لوفيت Lovett فى JRGS لسنة ١٨٧٢ ص ٢٠٣ .

وغير ذلك • وقال المقدسي : « الجامع فيها من آجر ، له صحنان ، على عمل جامع مدينة السلام » • وقال صاحب فارس نامه ان فسا تقارب اصفهان في الكبر • خرّبنها قبيلة شبانكاره ثم أعاد بناءها الاتابك چاولى • وزاد المستوفى على ذلك ، ان المدينة كانت تسمى قديما ساسان ، وكانت مبنية بهيئة مثلث • مياهها وافرة تحمل اليها بقنى وليس فيها آبار • وكانت شق ميسكاهان وشق رودبال (رودبار) من أعمالها •وبالقرب منها قلعة خواذان المنيعة ، فيها حياض عظيمة للماء[٦] •

ومدينة كُـرْم ، على بضعة أميال شمال فَسا في الطريق الى سروستان ، على ما وصفت به في كتب المسالك • وكانت ناحيتها وناحية رونيز (أو روبنز) من أعمال فسا ، على ما جاء في فارس نامه • وتؤلف الاخيرة قسما من ناحية خسو التي ذكر المقدسي انها على مرحلة جنوب غربي دار ابجرد في الطريق الى جويم أبي أحمد (أنظر الصفحة ٢٩٠ أعلاه) • وقد أورد البلدانيون الاقدمون هذا الاسم بصورة رونيج (أو روبنج) • ولعل هذه المدينة تطابق خسو (أو كسو) الحالية • وقال المستوفى في كرم ورونيز انهما مدينتان هواؤهما حار كثيرتا الماء • وعلى ما ذكر المقدسي ، كانت ناحية خسو (أو خشو) توغل نحو الشرق لأنها كانت تشتمل ، الى رونيج ، على مدن رستاق الرستاق وفرج وطارم • وعد المستوفى خسو من أعمال دار أبجرد[٧] •

والى الجنوب من رونيز ، المدينة الصغيرة يزد خواست ، وقد ذكر المقدسي وياقوت انها من كورة دار ابجرد • والى جنوب هذه المدينة ، مدينة لار • ولم يذكر أحد من البلدانيين العرب القدماء لار ، كما لم ترد في فارس

---

(٦) الاصطخرى ١٠٨ و ١٢٧ و ١٣٦ ؛ المقدسي ٤٢٣ و ٤٣١ و ٤٤٨ ؛ فارس نامه ٦٩ أ ، ٧٠ أ ٨٢ ب ، ٨٣ أ ؛ المستوفى ١٧٥ و ١٧٩ و ١٨١ ؛ جهان نما ٢٧٢ •

(٧) ابن خرداذبه ٥٢ ؛ الاصطخرى ١٠٨ ، ١١٦ ، ١٣٢ ؛ المقدسي ٤٢٢ و ٤٢٣ و ٤٥٤ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٦٩ ب ؛ المستوفى ١٨١ •

والظاهر أن تهجئة الاسم بصورة روبنج وهي ما اخذ به ناشر كتاب المقدسي ، قد استند فيها الى ياقوت (٢ : ٨٢٨) فانه ضبط تهجئة الاسم حرفا حرفا • وجاءت في مخطوطات فارس نامه والمستوفى بصورة رونيز (عوضا عن رونيج وهي تهجئة ترجع الى زمن أقدم) وكانت ما زالت اسم ناحية في تلك الجهات حينذاك • وعلى هذا ينبغي ان « روبنج » بحسب ورودها في المطبوع من الاصطخرى والمقدسي قد تكون من وهم النساخ وانه بتغيير طفيف في نقاط الحروف تقرا رونيج او رونيز بدلا من روبنج وروبنز •

نامه ، الذى يرقى الى مطلع المئة السادسة (الثانية عشرة) • وأول من تكلم على لار من المصنفين ، المستوفى فى النصف الأول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قال ان لار اسم ولاية على البحر ، أغلب أهلها من التجار الذين يجوبون البحر كثيرا • وكان ينمو فيها القمح والقطن والتمر • وقد زار ابن بطوطة معاصره مدينة لار فى نحو سنة ٧٣٠ (١٣٣٠) ووصفها بقوله : « مدينة كبيرة كثيرة العيون والمياه المطردة والبساتين ، ولها أسواق حسان » • وصارت لار فى أيام شاه شجاع المظفرى فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ثم فى أيام الامراء التيموريين ، مدينة لضرب النقود ، وهذا يدلنا على انها كانت حينذاك موضعا على شيء غير قليل من الكبر والشأن •

أما فُرّك ، وهى على ثلاث مراحل من جنوب شرقى دار ابجرد ، فانها ما زالت من المدن الكبيرة • ذكر المقدسى ، وقد كتبها بصورة فُرْج ، ان بجانبها مدينة برك • ويظهر ان هذين الاسمين لم يأتيا الا من اختلاف قراءة اسميهما الفارسيين الاولين • ومدينة بُرْك « فى هودة على فرسخين من الجبل ، والجامع على جانب السوق ، حسن نظيف » • أما جارتها فرج فقد كان لها قلعة على تل ، وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة غير كبيرة « الا ان بها جامعا وحماما » ، والماء فيهما كثير • ومن الطبيعى ان يقع اللبس فى اسمى هاتين المدينتين فيطلق اسم احداهما على الاخرى • وكتب فارس نامه هذا الاسم بصورة پرك وقال انه كان للمدينة قلعة مكينة لا تقتحم مبنية بحجارة غاية فى الكبر • وزاد المستوفى على ذلك انه كان يكثر فى برك (على ما كتب الاسم) القمح والتمر • أما رستاق الرستاق ، فقد وصفها المقدسى بقوله « صغيرة ليس لسوقها ذاك الكبر ، الا ان رستاقها أربعة فراسخ فى مثله » وهى على مرحلة شمال غربى فرج فى الطريق الى دار ابجرد[٨] •

ومدينة تارم ، وتلفظ أيضا طارم ، على اسم ناحية فى اقليم الجبال (أنظر الصفحة ٢٦٠ أعلاه) ، على مرحلتين شرق فرگ فى الطريق الى ساحل البحر •

---

(٨) المقدسى ٤٢٨ و ٤٥٤ الحاشية n ؛ فارس نامه ٦٩ آ ، ٨٣ آ ؛ المستوفى ١٨١ ؛ ياقوت ٢ : ٥٦٠ ؛ ابن بطوطة ٢ . ٢٤٠ •

والظاهر ان مدينة برك ، توافق القلعة القديمة بهمن وهى ذات ثلاثة أسوار وخندق ، وكانت على نحو من ميل جنوب مدينة فرك الحالية • انظر . ستاك Stack فى Persia ١ ٠ ٧٥٦ •

أشار المقدسي اليها فقال : « تارم : جامعهم ناء عن السوق ، وشربهم من شعبة نهر يدخل عليهم ، لهم بساتين ونخيل ، وبها عسل كثير » . وعلى ما في فارس نامه، كانت تارم تقارب فرج في الكبر لها قلعة قوية فيها حياض للماء كثيرة . وكان طريق القوافل يخرج من طارم آخذا صوب الجنوب الى الساحل حيث ميناء سورو أو شهرو مقابل جزيرة هرمز . وقد سمى المستوفى هذا الميناء بتوسر ، الا ان قراءته غير مضبوطة . وتكلم البلدانيون العرب على سورو ، فقالوا انها قرية « بها صيادون ، ولبس بها منبر » . وشرب أهلها من آبار حفرت في جبل قريب منها[9] . وزاد المقدسي على ذلك ان سورو « قد بدت تعمر لان حمولات عمان اليها » وقال هي مدينة « بحرية صغيرة على رأس حد كرمان »[10] .

أما تجارات وصناعات اقليم فارس فقد عنى بوصفها في المئة الرابعة (العاشرة) الاصطخري والمقدسي . ففي هذا الزمن كانت مدينة سيراف أجل فرضة في فارس على ساحل الخليج ، على ما قد بيّنا . فاليها كانت تقع أمتعة البحر وما يجلب من الهند من الاشياء النادرة والثمينة التي كان يقال لها بالعربية بربهار . وسرد الاصطخري ما يرد الى سيراف ، بقوله : « يقع اليها من أمتعة البحر من العود والعنبر والكافور والجواهر والخيزران والعاج والآبنوس والفلفل والصندل وسائر الطيب والادوية والتوابل » التي تحمل من الهند . ويرتفع من سيراف الفوط وأزر الكتان ، وكانت سوقا كبيرة للؤلؤ .

وقد ذاع صيت فارس في كل زمان بما يعمل فيها من العطور وماء الورد بشتى صنوفه ، ولاسيما المعمول من الورد الاحمر وهو يكثر في رساتيق جور أو فيروز اباد . وكان ماء الورد ، على ما ذكر ابن حوقل ، يحمل الى سائر البلدان لاسيما الى الهند والصين وخراسان والمغرب والشام ومصر . ويرتفع من جور أيضا ، الى ماء الورد ، ماء الطلع وماء القيصوم وماء الزعفران وماء السوسن وماء الخلاف . ويعمل بسابور ، على ما جاء في المقدسي ، عشرة أدهان : « دهن بنفسج

---

(٩) قال المقدسي (ص ٤٢٧) . « شربهم من ماء يقبل من الجبل ، فيجتمع في موضع ، فاذا انقطع حفروا ذلك الموضع نحو خمسة أذرع فيخرج عليهم ماء حلو » . (م) .

(١٠) الاصطخري ١٦٧ ؛ ابن حوقل ٢٢٤ ؛ فارس نامه ٦٩ أ ؛ المقدسي ٤٢٧ و ٤٢٩ ؛ المستوفي ١٨١ و ٢٠١ .

ونينوفر ونرجس وكـارده وسـوسن وزنبق ومرسين ومرزنجـوس وبادرنك ونارنج ، وتحمل هذه الادهان الى سائر آفاق المشرق .

وكانت لبسط فارس وثيابها الموشاة شـهرة بعيدة فى كل العصور . وفى الشرق حيث كانت الثياب تدل على منزلة الشخص وعلو مقامه ، كان للسلطان فى كل بلد من فارس طراز يوشى فيه اسمه وطغراؤه . وكانت أشهر هذه الطرز ترتفع من توّج ، وكان يرتفع كذلك من فسا أنواع من الثياب بها طراز الوشى مذهبا ، منه ما كان أزرق كلون الطاووس وأخضر ، يعمل ذلك كله للسلطان .

أما تجارات فارس الاخرى ، فيحسن أن نصنفها بحسب المدن التى تعمل فيها . فمن شيراز يرتفع « الاكسية البَرْكانات والمَنَيْرات والأبراد الجياد ، ويعمل بها خز وديباج وقصب وحلل » . ويرتفع من جَهْرَم « البسط والنخاخ والستور والمصليات »[11] هذا الى الادهان التى ترتفع منها على ما ذكرنا . ويرتفع من سابور الادهان من كل جنس وقصب السكر والاترج والجوز والزيت والفواكه والصفصاف . ويرتفع من كازرون ودريز ثياب كتان وثياب القصب على عمل الدبيقى المصرى ، والمناديل المخملة . ومن الفندجان ، قصبة دشت بارين ، البسط والستور والمقاعد ، وبها طراز للسلطان . ويرتفع من أرّجان الدوشاب يعمل من الزبيب ويقال له أيضا الدبس . ويرتفع منها أيضا « الصابون والفوط وثياب الكندكية » . وكان يحمل الى أرّجان ما يقال له البربهار . ويحمل من فرضة مهربان « الاسماك والتمور والقرب الجياد » ومن سينيز « ثياب تشاكل القصب » . ويرتفع منها أيضا الكتان وكذلك من جنّابة .

ويرتفع من اصطخر الأُزُر[12] . ومن الروذان ثيـاب جياد والشمشكات (نوع من الخفاف) والقَيرب . ويحمل منها التوابل . ومن يزد وأبرقوه ثيـاب القطن .

---

(١١) جاء فى تاج العروس (٢ : ٢٨٢) : « النخ . بساط طويل ، طوله أكثر من عرضه ، وهو فارسى معرب ، وجمعه نخاخ » . والمصليات . واحدها المصلى وهو السجاد الصغير الذى يصلى عليه . (م) .

(١٢) ما فى المقدسى (ص ٤٤٣) : الازر . (م) .

ويرتفع من دار أبجرد « كل شيء نفيس من الثياب المرتفعة والوسط والدون وما يشاكل الطبرستاني والبسط الجيدة والحصر » . ويحمل منها دهن الرازقي والطيوب والبزر الكثير . ويحمل من أرّجان ودار أبجرد المومياء على ما قد بيّنا .

وقال الاصطخري « وبدار ابجرد سمك بالخندق الذي يحيط بالبلد ، لا شوك فيه ولا عظم ولا فقار ، وهو من ألذ السموك » . ويرتفع من فُرْج « الثياب والبسط والستور والدبس الجيد والبزر والكتان » . ومن طارم « الدوشاب والقرب والدلاء الحسان » . ويرتفع من فسا ثياب الشعر والقز والبسط والزلالي والفوط والمناديل والستور المذهبة المعلمة وبزر الهان والعصفر والفروش والخركاهات[١٣].

وأخيرا ، بفارس ، على ما ذكر ابن حوقل ، الفضة في نائين والحديد والزئبق في جبال اصطخر ، وكذلك في نواح مختلفة من فارس معدن الآنك والصفر والكبريت والنفط . وليس بها ذهب[١٤] . وبفارس أصباغ من مختلف الانواع ، فكثر فيها الصبّاغون وعملهم صبغ الثياب[١٥] .

أما الطرق في فارس ، فقد أسهبت في وصفها جملة كبيرة من المراجع العربية والفارسية ، وذكرت مسافات هذه المسالك بالفراسخ بوجه عام . على ان ما يؤسف عليه ، ان اليعقوبي ، وهو من أجل مراجعنا في المسالك ، يفتقر كل الافتقار الى ما يتعلق بفارس منها . ولم يوفر لنا ابن رسته كثيرا في هذا الباب . وأول الواصفين لهذه المسالك ، ابن خرداذبه وقدامة في المئة الثالثة (التاسعة) ، ثم الاصطخري والمقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) . وفي مطلع المئة السادسة عني مؤلف فارس‌نامه الفارسي بذكر مسالك فارس عناية فائقة ، فلم يترك منها شاردة ولا واردة . فلهذا الكتاب قيمة جليلة الشأن في جغرافية اقليم فارس خلال تلك الحقبة ، ما أحوجنا الى مثلها لسائر بلاد ايران . وقد دوّن المستوفي ، في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وهو مؤلف فارسي أيضا ، ما أحدثه الفتح المغولي من

---

(١٣) الخركاهات واحدتها الخركاه وهي الخيمة الكبيرة . فارسية معربة . (م) .

(١٤) في ابن حوقل (٢ : ٣٠٠) . « وبها معدن ذهب » . اما الاصطخري (ص ١٥٥) فقد قال : ولا أعرف بها معدن ذهب » . (م) .

(١٥) الاصطخري ١٥٢ ـ ١٥٥ ؛ ابن حوقل ٢١٣ ـ ٢١٥ ؛ المقدسي ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

التبدلات . ثمّ في ختام هذه المئة ، أسهب علي اليزدى فى وصف زحف تيمور من الاهواز الى شيراز ، وهى تقع على طريق من أهم الطرق .

تتشعب طرق هذا الاقليم كلها من شيراز . ومن الاوفق ان نبدأ بالطرق الذاهبة الى ساحل البحر . فان سيراف وجزيرة قيس ثم جزيرة هرمز ، وقد أضحت كل واحدة منها بالتعاقب أهم فرضة على خليج فارس ، كانت الطرق تؤدى اليها ، على نحو ما هى عليه اليوم طرق القوافل والبريد المنحدرة الى بوشير التى بلغت اليوم شأو هرمز فى القديم . فأبعد هذه الطرق شرقا ، الذاهبة الى الساحل ، كان الطريق المؤدى الى الفرضة المقابلة لجزيرة هرمز . ومنها يحاذى الساحل ، فينتهى الى مدينة هرمز . وسنأتى فى الفصل الثانى والعشرين على وصف هذين الموضعين . فاذا بارح الطريق شيراز ، مرّ بسروستان وفسا الى دار ابجرد وفرج وطارم . فاذا دار الى الجنوب فانه كان يصل قديما الى مدينة سورو أو شهرو أو على ما سماها به المستوفى توسر . ونشأ فى أيام الصفويين ، غير بعيد منها ، بندر عباس ، وهى ما زالت قائمة ، على ما سيأتى بيانه ، وقد انتهت الينا صفة هذا الطريق فى خمسة من مراجعنا[١٦] .

وثانى هذه الطرق ، الطريق الآخذ من شيراز جنوبا ، وكان ينتهى فى الأزمنة الاولى بسيراف . ولكن بعد خراب هذه الفرضة سلكت القوافل طريقا يتفرع منه فى منتصفه فيتجه الى الجنوب الشرقى نحو الساحل . وكان هذا الطريق الجديد ، ينتهى الى الفرضة المقابلة لجزيرة قيس ، وهو الطريق الذى وصفه المستوفى . وذكر المقدسى أيضا طريقا مهما آخر يخرج من دار أبجرد على طريق هرمز ، يتجه نحو الجنوب الغربى الى سيراف ، وكان يقاطع الطريق من شيراز الى جزيرة قيس الذى وصفه المستوفى بعد هذا الزمن . وكل هذه الطرق البادئة من شيراز كانت تمر بكوار الى جور أو فيروز اباد وكان فيها يتفرع الطريق القديم ذات اليمين منحدرا الى سيراف . والطريق الذى جاء ذكره فى فارس نامه ، ينعطف فى فيروزاباد الى اليسار فيمر بكارزين الى لاغر ، ومنها

(١٦) ابن خرداذبه ٥٢ و ٥٣ ؛ الاصطخرى ١٣١ و ١٣٢ و ١٧٠ ؛ المقدسى ٤٥٤ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٨٥ أ ؛ المستوفى ٢٠٠ .

يأتي الى كران وينتهي بسيراف • أما طريق المستوفى ، فانه اذا بارح فيروزاباد ، اتجه شرقا بضعة فراسخ ، ثم انحدر مثل طريق فارس نامه الى لاغر ، وفيها يتفرع نحو الجنوب الشرقي ونحو اليسار فيمرّ بفارياب ثم بالمفازة الى هزو وهي الفرضة المقابلة لجزيرة قيس • ولا يرى وصف هذا الطريق من لاغر الى هزو الا في المستوفي يا للأسف • وقراءة ما جاء في المخطوطات عن أسماء مراحله لا يركن اليها في الغالب • والظاهر أيضا انه لم يسلك هذا الطريق أحد من السياح المحدثين ليتسنى لنا تصويب قراءة هذه الاسماء ، فبقيت خوارطنا خالية من ذكرها • ويمر الطريق من دار ابجرد ، على ما وصفه المقدسي ، بجوبم أبي أحمد الى فارياب أو باراب ، وهي مرحلة في طريق المستوفي ، ثم الى كران في طريق فارس نامه ومنها ينتهي بسيراف[١٧] •

والطريق الغربي الذاهب الى الساحل ، كان يسلك في قسمه الاعلى ، الطريق الحالي من شيراز الى بوشير ، فكان يمرّ بكازرون ودريز الى توّج ، المدينة التجارية الجليلة في المئة الرابعة (العاشرة) ، ومنها الى فرضة جنّابة • وجاء في فارس نامه وصف طريق آخر ذي شأن مغاير لهذا الطريق ، وهو المار بأرض ماصرم الى جرّه ومنها الى توج مارا بالفندجان ، وعند الفندجان كان يتفرع منه فرع ينحدر جنوبا الى فرضة نجيرم ، وهي على مسافة قليلة من غرب سيراف • ولم يشر غير المستوفي الى الطريق الذاهب الى الغرب من شيراز حتى كازرون • وكانت توّج في أيامه قد خربت • وأول فرضة على خليج فارس حينذاك كانت جزيرة قيس[١٨] •

وأوفى طرق فارس وصفا ، الطريق الذاهب من شيراز باتجاه الشمال الغربي الى أرّجان وخوزستان • فقد انتهى الينا عن هذا الطريق ما لا يقل عن الثمانية أوصاف • وان اختلفت في ذكر بعض المراحل • وآخر وصف منها ، لعلي اليزدي ، فقد وصف مسير تيمور في سنة ٧٩٥ (١٣٩٣) من الاهواز الى

---

(١٧) الاصطخري ١٢٨ و ١٢٩ ' المقدسي ٤٥٤ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٨٦ آ ــ ب ' المستوفي ٢٠٠ وانظر صفحة ٢٩٣ الحاشية ١٨ من كتابنا هذا •

(١٨) الاصطخري ١٣٠ ؛ المقدسي ٤٥٣ و ٤٥٤ و ٤٥٦ ؛ فارس نامه ٨٦ آ ؛ المستوفي ٢٠٠ -

شيراز مارا ببهبهان ، حين هاجم فى طريقه قلعة سفيد . فجاء وصفه هذا الطريق منتهيا بشيراز بخلاف من سبقه . وكان الطريق من شيراز الى خوزستان ، على ما جاء وصفه فى كتب المسالك ، يتجه نحو الشمال الغربى مارا بجويم الى النوبنجان ، ومنها مارا بكنبذ ملغان الى أرّجان ، ثم يقطع نهر طاب على قنطرته العظيمة فينتهى الى بستانك على حد فارس . وقد ذكر المقدسى والبلدانيون الاولون المسافات من أرّجان الى فرضة مهربان ، ومنها نحو الجنوب الشرقى بمحاذاة الساحل الى فرضة سينيز ، ثم الى جنّابة[١٩] .

وكان فى القرون الوسطى ، ثلاثة طرق منفصل بعضها عن بعض ، من شيراز الى اصفهان . وأبعد هذه الطرق غربا ، الطريق الآخذ يمينا من طريق أرّجان عند جويم . وقد كان هذا الطريق يذهب الى البيضاء فى سهل مرودشت ، ثم يمر بكورد وكلاّر الى سميرم واصفهان . وقد وصف هذا الطريق ابن خرداذبه والمقدسى . أما الطريق الاوسط ، فهو الطريق الصيفى المار بالبلاد الجبلية . وقد كان يذهب من شيراز الى مائين ، ومنها يمرّ بكوشك زرد وديه گردو ، ويخترق يزدخواست الى أصفهان . وقد وصف هذا الطريق ، بشىء من الاختلاف فى أسماء المراحل ، البلدانيون العرب الاولون ، وكذلك المصنفون الفرس المتأخرون أما أبعد هذه الطرق الثلاثة شرقا ، فهو الطريق الشتوى أو طريق القوافل الذى يقطع السهول . وكان يخرج من شيراز ميمماً ناحية الشمال الشرقى الى اصطخر ، ومنها الى ديه‌بيد . وفى هذا الموضع كان يخرج من يمينه طريق يمرّ بأبرقوه الى يزد . أما الطريق الى أصفهان ، فكان ينعطف الى اليسار . فيمر بسرمق وقرية اباده ، ثم يلتقى بالطريق الصيفى فى يزد خواست ، الى قومشه وينتهى بأصفهان . وقد وصف هذا الطريق الشتوى ، وهو طريق البريد الحالى من شيراز الى اصفهان ، المقدسى وفارس‌نامه . وسردت جميع المصادر تقريبا أسماء ما فيه من مراحل الى يزد[٢٠] .

---

(١٩) ابن خرداذبه ٤٣ : ٤٤ ؛ قدامة ١٩٥ ؛ ابن رسته ١٨٩ و ١٩٠ ؛ الاصطخرى ١٣٣ و ١٣٤ ؛ المقدسى ٤٥٣ و ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٨٥ ب ؛ المستوفى ٢٠١ ؛ على اليزدى ١ : ٦٠٠ .

(٢٠) عن الطريق الغربى ، أنظر : ابن خرداذبه ٥٨ ؛ المقدسى ٤٥٧ و ٤٥٨ . وعن الطريق الصيفى

والطرق من شيراز الى شهر بابك ومنها الى السيرجان احدى قصبات كرمان ، كانت تسلك مسلكين . الاول : فى شمال بحيرة البختكان . والثانى بمحاذاة ساحل البحيرة الجنوبى . فالطريق الشمالى كان يخرج أولا من شيراز الى اصطخر (برسپوليس) ومن اصطخر الى شهر بابك طريقان : الاول كان يمر بقرية هراة ، والآخر بمدينة اباده الى صاهك حيث يلتقى بالطريق المحاذى لساحل البحيرة الجنوبى . أما هذا الطريق الجنوبى ، فقد كان اذا بارح شيراز ، ينجه الى ناحية الشرق فى الجانب الشمالى لبحيرة ماهلو الى خرّمة . ثم يصل خيرة من جنوب بحيرة البختكان . وقد ذكر فارس نامه مسافات طريق فرعى من خيرة الى نيريز وقطره . أما الطريق الكبير فكان يذهب من خيرة الى صاهك الكبرى حيث يلتقى بالطريق الآتى من اصطخر بمحاذاة ساحل البحر الشمالى ، على ما قد بيّنا . ومن صاهك الكبرى ، كان يقطع طريقا صحراويا باتجاه الشمال الشرقى الى شهر بابك . وقد ذكرت المراجع العربية والفارسية وصفا كاملا لهذه المسالك التى فى شمال بحيرة البختكان وفى جنوبها . غير ان أسماء بعض المراحل التى تتوسطها لا يركن الى صحة قراءتها ، نعني بذلك أسماء القرى التى لم يبق لها أثر اليوم ، اذ ان جميع هذه البقاع قد أجدبت وأمحلت وخلت من سكانها منذ نهاية القرون الوسطى[21] .

او الجبل : قدامة ١٩٦ و ١٩٧ ؛ الاصطخرى ١٣٢ و ١٣٣ ؛ المقدسى ٤٥٨ ؛ فارس نامه ٨٣ ب ؛ المستوفى ٢٠٠ . وعن الطريق الشتوى : المقدسى ٤٥٨ ؛ فارس نامه ٨٤ ب . وعن طريق يزد : ابن خرداذبه ٥١ ؛ الاصطخرى ١٢٩ ؛ المقدسى ٤٥٧ ؛ فارس نامه ٨٦ ب ؛ المستوفى ٢٠١ .

(٢١) عن الطريق المار بهراة : المقدسى ٤٥٥ و ٤٥٦ و ٤٥٧ . عن الطريق المار باباده وشمال البحيرة : ابن خرداذبه ٥٣ ؛ قدامة ١٩٥ ؛ الاصطخرى ١٣٠ و ١٣١ ؛ فارس نامه ٨٤ ب . عن الطريق المار بخيرة وجنوب البحيرة . ابن خرداذبه ٤٨ ؛ المقدسى ٤٥٥ ؛ فارس نامه ٨٥ أ ؛ المستوفى ٢٠١ . عن الطرق الملتقية فى السيرجان والآتية من فارس ، أنظر : الفصل القادم ، والفصل الثانى والعشرين .

الفصل الحادي والعشرون

كرمان

كور كرمان الخمس ـ قصبتا الاقليم ـ القصبة الأولى : السيرجان ، موضعها وتاريخها ـ القصبة الثانية : بردسير ، وهى مدينة كرمان اليوم ـ ماهان وولِيها ـ خبيص ـ زرند وكوه بنان وهى كوبنان Cobinan لدى ماركو بولو .

اقليم كرمان ، على ما ذكر الاصطخرى ، أكثره من بلاد الجروم ، ونحو من ربعه فقط جبلى يؤتى غلات بلاد الصرود . فان معظم الاقليم فى المفازة العظمى . « وفى أضعاف مدنه مفاوز كثيرة ، وليس اتصال عماراتها مثل اتصال عمارات فارس » . وقال ياقوت « قد كانت [أى بلاد كرمان] فى أيام السلجوقية من أعمر البلدان وأطيبها » . ثم حين كتب فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) كانت « قد تشعثت بقاعها واستوحشت معاملها وخربت أكثر بلادها » . وأخيرا استولى عليها الخراب وتمكن منها الدمار من جراء غزو تيمور لها فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) .

وجعل المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) اقليم كرمان خمس كور ، كل كورة باسم قصبتها ، وهى : (١) بردسير ، ولها ناحية خبيص فى شمالها . ثم (٢) السيرجان ، على حد فارس . ثم (٣) بَم . و (٤) نرماسير وهى على شفير المفازة شرقا . وأخيرا (٥) جيرفت وهى تتاخم ساحل بحر هرمز . وكان الحد فى الشمال

والشرق : المفازة الكبرى • وفي الجنوب الغربي : البحر • ولها في غرب كرمان « في حد الشيرجان ، دخلة في حد فارس ، مثل الكم » حسب وصف الاصطخري لها • وكانت شهر بابك ، على ما روته بعض الاخبار القديمة ، تعد من اقليم كرمان[١] •

وقصبة الاقليم الحالية ، مدينة كرمان • وهذا الاقليم وقصبته يعرفان باسم واحد على ما هو جار في بلاد الشرق غالبا • ومع ذلك ، فقد كان لاقليم كرمان في القرون الوسطى قصبتان ، هما : السيرجان وبردسير • وتوافق المدينة الاخيرة مدينة كرمان الحالية القائمة قرب الناحية التي ما زالت تعرف بناحية بردسير •

أما السيرجان قصبة كرمان الاسلامية القديمة ، فانها كانت أجل مدينة في أيام بني ساسان • وكتب البلدانيون العرب اسمها بصورة السيرجان والشيرجان (معرّفة بأل) • ومع انه لم يبق اليوم مدينة بهذا الاسم ، الا ان ناحية السيرجان ما زالت تؤلف القسم الغربي من ولاية كرمان وأجل مدنها سعيد آباد • وما الخرائب التي اكتشفت حديثا في قلعة سنگ[٢] الجاثمة على سن جبل ، على خمسة فراسخ شرق سعيد اباد في طريق بافت ، إلا موضع السيرجان القصبة القديمة على ما يبين • اذ يستدل بحالها أنها أطلال مدينة عظيمة • وتدل مسافات المسالك في القرون الوسطى ، على ان موضع هذه الخرائب هو حيث كانت مدينة السيرجان • ومع ان ناحية السيرجان الحالية لا تؤلف الا جزءا فقط من الكورة القديمة ، فانها قد احتفظت بالاسم القديم • ظلت السيرجان بعد الفتح العربي ، قصبة الاقليم الاسلامي حتى أواسط المئة الرابعة (العاشرة) ، حين صارت ايران الجنوبية كلها تحت سلطان بني بويه • فانهم عينّوا على كرمان عاملا اسمه ابن الياس • فنقل هذا العامل ، لسبب غير معروف ، مقامه الى بردسير (مدينة كرمان الحالية) ثم

---

(١) الاصطخري ١٥٨ و ١٦٣ و ١٦٥ ؛ المقدسي ٤٦٠ و ٤٦١ ؛ ياقوت ٤ : ٣٦٣ •

(٢) تقوم قلعة سنگك ، وتسمى ايضا القلعة البيضاء ، على جبل من حجارة الكلس ، يعلو نحوا من ثلاثمئة قدم من السهل ، بيضي الشكل ، طوله نحو من ٤٠٠ يارد • وما زال يحيط بالاطلال سور خفيض من اللبن • يقوم على أسس أقدم زمنا - وأول من زارها مستكشفا الميجر سايكس في سنة ١٩٠٠ وأسهب في وصف هذه الخرائب في الصفحة ٤٣١ من كتابه Ten Thousand Miles in Persia المطبوع في لندن سنة ١٩٠٢ •

بانتقال دواوين الحكومة من السيرجان اليها ، سقطت منزلة السيرجان وقلّ شأنها . ومع ذلك ، فقد ظلت السيرجان حين كتب الاصطخرى « أكبر مدينة بكرمان ، وأبنيتها آزاج لقلة الخشب بها » على ما ذكر . اما المقدسى فقد قال ان السيرجان كانت فى أيام بنى بويه « أبهى وأوسع من شيراز ، ولها سوقان : عتيق وجديد . والاموال كثيرة جمة . وبها خصائص وصناعة ، وشوارع فرجة ، ودور حسنة ، بها بساتين . ولها ثمانية دروب » (وقد سرد المقدسى أسماءها ، ولكن قراءة بعضها فى المخطوطات لا يركن اليها) . وبنى عضد الدولة البويهى على باب حكيم ، دارا حسنة وكان مسجدها الجامع بين السوق العتيق والسوق الجديد، أقام منارته عضد الدولة . ومياه البلد من قناتين شقهما عمرو وطاهر ابنا ليث الصفار فى المئة الثالثة (التاسعة) .

أما ياقوت ، وقد كتب فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) فقد قال ان السيرجان فى أيامه ثانية مدن كرمان « وهى خمسة وأربعون منبرا كبارا وصغارا » وقد نص على ان مدينة السيرجان ، « كانت تسمى القصرين » ولم يوضح لم سميت بذلك. وورد فى تاريخ ابن الاثير وميرخواند اسم السيرجان غير مرة فى الكلام على بنى بويه والسلاجقة . وقال المستوفى فيها بعد الفتح المغولى ، ان لها قلعة حصينة ، وارضها خصبة ، كثيرة القطن والقمح . ثم انتقلت السيرجان الى أيدى الامراء المظفريين الذين قامت دولتهم فى شيراز وحكموا فارس ، وفى مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قهروا دولة قراختاى ، فدانت لهم كرمان كلها . وفى سنة ٧٨٩ (١٣٨٧) زحف تيمور الىفارس وحشد قواته ازاء شيراز فانقاد له الامراء المظفريون طائعين . ثم انه لما غادر فارس لفتح العراق ، جعل منهم فيها حكاما تابعين له . فلما خلا لهم الجو وتمكنوا من الامر ، تمرّدوا وخلعوا طاعته ، فما كان من تيمور الا أن أعاد الكرة على فارس فى سنة ٧٩٥ (١٣٩٣) وتغلب على القوات المظفرية بعد وقعة حامية ، وولى ابنه الامير عمر شيخ على فارس وكرمان .

على ان كثيرا من النواحى ، لا سيما نواحى كرمان ، أبت ان تستكين لتيمور وثبت گودرز والي السيرجان على الحكم فيها باسم آل مظفر . واضطر الامير عمر

شيخ أخيرا الى ان يوجه جيشا لمحاصرة هذا الحصن المنيع • وكانت قلعة السيرجان قد جددت حصونها منذ عهد قريب ، على ما ذكر علي اليزدى ، فكانت مكينة الجوانب يرتد عنها من هاجمها ، فمضت سنة على حصارها وهى ثابتة لا تزعزعها الشدائد • فما كان من عمر شيخ الا ان قصد السيرجان بنفسه ليحسم أمرها • على انه ، وهو يتأهب لذلك ، استدعاه أبوه • ولكن المنية ادركته حين كان يجتاز كردستان للّحاق بتيمور فى معسكره الذى ضربه أمام آمد فى الجزيرة • وكان ذلك فى سنة ٧٩٦ (١٣٩٤) • وظلت السيرجان مقاومة سنتين فاستسلم مقاتلتها بعد ذلك لما لحقهم من جوع لا من غلبة القوة عليهم • وأخيرا لما اضطر گودرز الى التسليم • أمر تيمور بقتله هو ومن بقى من رجاله القلائل ، غدرا ليكونوا عبرة لمن اعتبر فى هذا الاقليم • وترك السيرجان قاعا صفصفا • وقد تكلم حافظ أبرو على السيرجان ، مع انه كتب فى عهد من جاء بعد تيمور ، قال انها المدينة الثانية فى كرمان (تلى بردسير) لها قلعة حصينة تتوج صخرة عالية • ثم خفى اسم السيرجان بعد هذا الزمن من التاريخ ولم يعرف موضعها الصحيح الا حديثا فى أطلال قلعة سنك على ما قد بينا[٣] •

بينا آنفا ، ان قصبة الاقليم الحالية مدينة كرمان • وهذه المدينة ، وان لم

---

(٣) الاصطخرى ١٦٦ ؛ المقدسى ٤٦٤ و ٤٧٠ ؛ ياقوت ٤ : ١٠٦ و ٢٦٥ ؛ المستوفى ١٨٢ ؛ حافظ ابرو ١٤٠ أ ؛ على اليزدى ١ • ٦١٨ و ٦٦٧ و ٧٨٤ ميرخواند القسم الرابع ص ١٧٠ • القسم السادس ٤٨ و ٦٩ •

ذكر البلدانيون العرب موضع السيرجان بالمراحل من امكنة مختلفة معروفة • وهم غالبا ما ذكروا المراحل بما يساويها بالفراسخ • ولكن مما يؤسف عليه ان وصف المسالك فى كرمان يفتقر الى ما فى كل طريق من مراحل مع وصف المدن التى تمر بها (بخلاف ما ذكروه عن مسالك اقليم الجبال وفارس) • ومع ذلك فانا نلخص فيما يأتى المسافات التى ذكروها ، وهى تجمع على ان موضع قلعة سنك هو مدينة السيرجان • فى شهر بابك فى الشمال الغربى حيث تجتمع الطرق الآتية من شيراز واصطخر الى السيرجان ٢٤ أو ٣٢ فرسخا بحسب اختلاف الطرق • وكانت السيرجان على ٣٨ الى ٤٦ فرسخا أى ثلاث مراحل طويلة من صاهك الكبرى • ومن رستاق الرستاق (وهى على مرحلة يوم قصيرة من شمال غربى هرج) كانت السيرجان على أربع مراحل ، وكانت تبعد عن تيريز خمس مراحل ونصف مرحلة • وكان الطريق الذاهب الى الشرق والى الجنوب الشرقى من السيرجان الى جيرفت يقدر بست مراحل أى ٥٤ فرسخا • وكان الى راين خمس مراحل والى سروستان (فى الجنوب الشرقى من راين) ٤٥ أو ٤٧ فرسخا • وأخيرا كانت المسافة من السيرجان الى ماهان ثلاث مراحل، والى بردسير (مدينة كرمان) مرحلتين • اما المراجع عن هذه المسافات ، فهى : ابن خرداذبه ٤٨ و ٤٩ و ٥٣ ؛ قدامة ١٩٥ و ١٩٦ ؛ ابن الفقيه ٢٠٦ و ٢٠٨ ؛ الاصطخرى ١٣١ و ١٣٥ و ١٦٨ و ١٦٩ ؛ المقدسى ٤٥٥ و ٤٦٤ و ٤٧٣ •

تكن القصبة الاسلامية الاولى ، الا انها كانت على ما يظهر مدينة جليلة منذ أيام الساسانيين • أما أصلها ، فقد قال فيه حمزة الاصفهانى ، وهو من مؤرخى المئة الرابعة (العاشرة) ، انها من بناء الملك اردشير مؤسس الدولة الساسانية ، فسماها به أردشير ومعناها الموضع الطيب لاردشير • فحرف العرب هذا الاسم حين تلفظهم به وقالوا بهرسير (أو بهدسير) وبردسير (أو برد شير) • أما الفرس فانهم على ما ذكر المقدسى « يسمونها بلسانهم گواشير » من ويه ارتخشير وهو اللفظ الأعرق زمنا لاسم به أردشير • وزاد ياقوت على ذلك أنه فى أيامه كانت تسمى جُواسير وجواشير ويقال گواشر • وهذه الصور كلها تقابل الاسم العربى بردسير وتستعمل بدلا منه دون تقيّد[٤] •

ومدينة برد سير هذه ، التى أصبحت قصبة اقليم كرمان الجديدة فى عهد بنى بويه ، لا ريب فى انها تطابق كل المطابقة مدينة كرمان الحالية ، يثبت ذلك : ما ذكرته كتب المسالك عن موضعها ، ووصف البلدانيين العرب لكثير من الأبنية فى بردسير ، والعوارض الطبيعية فيها ، وكل ذلك ما زال موجودا يرى فى مدينة كرمان • كما دعمت التواريخ العربية والفارسية ، على ما سيأتى بنا ، هذه المطابقة وعززتها • فمدينة بردسير صارت تعرف بعد المئة الرابعة (العاشرة) باسم گواشير ، وجرى على ألسنة الناس عدّهم اياها قصبة كرمان • وبمرور الزمن حلّ محل هذه الاسماء اسم « مدينة كرمان » أو « كرمان » فقط اختصارا • فخلع الاقليم اسمه ــ على ما هو الحال غالبا ــ على القصبة •

والمقدسى ، وقد أطال فى كلامه على بردسير ، قال فى بردسير حين اتخذها ولاة بنى بويه قصبة الاقليم الجديدة ، انها : قصبة ليست بالكبيرة لكنها حصينة • على جانبها قلعة كبيرة عالية فيها بساتين، وقد حفر فيها بئر عظيمة عجيبة ، وهذه القلعة

---

(٤) حمزة الاصفهانى ٤٦ ؛ المقدسى ٤٦٠ و ٤٦١ ' ياقوت ١ : ٥٥٥ ؛ ٢ : ٩٢٧ ' ٤ : ٢٦٥ •
وقد وردت تهجئة الاسم احيانا بصورة « يزدشير » وليس ذلك الا من وهم النساخ جاء من اعجام الحروف فى الكتابة العربية • اما اليوم ، فان بردسير يطلق على ناحية صغيرة فى جنوب غربى مدينة كرمان الحالية ، وقصبتها مايجز • وليس اليوم مدينة باسم بردسير - وانظر ص ٢٩٨ الحاشية ، من هذا الكتاب ، ان أردت مثالا آخر على ورود « به » أو « وه » على أسماء الامكنة الفارسية •

من بناء أبي علي بن الياس ، كان يصعد اليها ابن الياس على الدواب الجبلية المعتادة لصعودها ، وينام فيها كل ليلة . وعلى الباب حصن ثان وخندق ذو قناطر . وفى وسط البلد قلعة ثالثة والجامع قربها وهو لطيف ويحدق بالبلد . وللمدينة أربعة أبواب الثلاثة الاولى منها سميت باسماء المدن التى تؤدى اليها الطرق الخارجة منها ، وهى : باب ماهان وباب خبيص وباب زرند . والرابع باب مبارك . ولعله سمى بذلك نسبة الى رجل اسمه مبارك . وزاد المقدسي على ذلك ان فى المدينة بساتين كثيرة وأكثر شربهم من آبار ، والقني تسقى بساتينهم المحيطة بها[٥] .

ومنذ أن نقل ابن الياس ، فى أيام عضد الدولة ، دواوين الاقليم الى بردسير ، دامت هذه المدينة قصبة لكرمان ، على ما بيّنا ، وارتبط مصيرها بمصير الاقليم كله . فقد كان كل من حكم بلاد فارس ألحقها به على جارى العادة . وفى النصف الاول من المئة الخامسة (الحادية عشرة) ، سقط بنو بويه بقيام السلاجقة فكانوا سادة اقليم كرمان من سنة ٤٣٣ الى ٥٨٣ (١٠٤١ الى ١١٨٧) . والسيرجان وان كانت فى أيامهم من أجل مدنهم ، الا ان بردسير ظلت دارا للملك . وفى تاريخ السلاجقة لابن ابراهيم جاء اسم القصبة احيانا بصورة بردسير وأحيانا بصورة گواشير ، بينما أشار ميرخواند فى فصول كتاب روضة الصفا التى تتناول هذا العصر ، الى القصبة السلجوقية باسم « مدينة كرمان » أو « كرمان » بوجه الاختصار . ولم يرد قط اسم « بردسير » عنده . وعليه فاسما بردسير وكرمان ، كانا يستعملان دون تقيد للاشارة الى موضع واحد دون غيره ، فابن الاثير مثلا ذكر فى أخبار سنة ٤٩٤ (١١٠١) اخراج ايرانشاه السلجوقى « عن مدينة بردسير التى هى مدينة كرمان »[٦] .

---

(٥) المقدسي ٤٦١ .

(٦) ابن الاثير ١٠ : ٢١٦ . ولقول ابن الاثير هذا مظهر خداع ، يستشف منه الجزم بان بردسير كانت مدينة كرمان الحديثة على ان الامر وان كان صحيحا لا شك فيه من الناحيتين التاريخية والخططية ، فان هذا القول لا يصح الاخذ به كبرهان عليها ، لان « مدينة كرمان » يراد بها قصبة (أى مدينة اقليم) كرمان . فهى عبارة مبهمة . وقد روى ابن الاثير فى جزء سابق من تاريخه (٣ : ١٠٠) كيف فتح العرب فى ايام عمر السيرجان وزاد على ذلك هذه الكلمات « وهى مدينة (أى قصبة)

وفى سنة ٥٨٣ (١١٨٧) اكتسحت قبائل الغز التركمانية ، اقليم كرمان ، ونهبت بردسير وخربت معظمها ، واتخذت مدينة زرند قصبة موقتة للاقليم . وكانت قوة السلاجقة حينذاك آخذة فى الضعف والاضمحلال . وفى سنة ٦١٩ (١٢٢٢) خضعت كرمان كلها لنفوذ الدولة المعروفة بقراختاى « قراخطاى » القصيرة العمر . وقال ميرخواند ان قتلق خان أول أمراء هذه الاسرة ، استولى على « مدينة كرمان » ، ويقال انه دفن فى المدرسة التى أنشأها فى حيّ يقال له ترك آباد فى ظاهر مدينة كرمان . ومن الجهة الثانية ذكر المستوفى فى تاريخ گزيدة ، وابن ابراهيم فى تاريخ السلاجقة ، ان قتلق خان استولى فى سنة ٦١٩ (١٢٢٢) على « مدينة بردسير » (أو گواشير على ما فى گزيدة) . فأضحى بذلك أميرا على مملكة كرمان كلها . وأخيرا ، فمعاصره ياقوت ، ذكر بردسير اسما لقصبة كرمان فى هذا الزمن (أى فى المئة الثالثة عشرة للميلاد)[7] .

أما الفتح المغولى لايران ، فلم يؤثر فى كرمان تأثيرا محسوسا . وفى أوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تزوجت ابنة آخر أمير من أمراء قراختاى أمير فارس المظفرى الذى تولى الحكم فى اقليم كرمان تحت ظل المغول . والمستوفى ، فى كلامه على القصبة گواشير ، أى برد شير ، وصف جامعها القديم ، وقال ان زمنه يرقى الى ختام المئة الاولى للهجرة ، فى عهد الخليفة الاموى عمر الثانى المتوفى سنة ٧٢٠ للميلاد . ووصف أيضا البستان الذى أنشأه ابن الياس عامل بنى بويه ، وكان يعرف بباغ سيرجانى أى « بستان الآتى من السيرجان » . وكان هذا البستان حين كتب ذلك فى سنة ٧٣٠ (١٣٣٠) زاهرا زاهيا . وزاد المستوفى على ذلك ، ان ابن الياس بنى أيضا القلعة التى فوق الجبل وهى التى وصفها المقدسى على ما بيّنا . وكان فى المدينة جامع يسمى جامع تبريزى ، بناه توران شاه السلجوقى ،

كرمان » . مع ان السيرجان فى الواقع ليست كرمان الحالية على ما يفهم من هذه العبارة فى اول نظرة .

قلنا : وجدنا ان ابن الاثير (١٠ : ٢١٩) ذكر تيرانشاه لا ايرانشاه فى سياقة هذا الخبر . (م ،) .

(٧) المستوفى : گزيده . الفصل الرابع ، القسم العاشر ، عهد براق حاجب ؛ ابن ابراهيم ٤ : ٥٤ و ٢٠٠ و ٢٠١ ؛ ميرخواند : الجزء الرابع ١٠٤ و ١٠٥ و ١٢٨ و ١٢٩ ؛ ياقوت ٤ : ٢٦٥ .

والمزار المشهور المنشأ على قبر الولى شاه شجاع الكرمانى . وذكر حافظ أبرو ، وقد نشأ بعد سلفه ، ان ترخان خاتون ابنة قتلق خان القراختائى ، ابتنت فى سنة ٦٦٦ (١٢٦٨) جامعا فخما كبيرا فى كرمان الى غيره من الجوامع والمدارس ، وسنشير الى احداها عما قريب . وهذا المؤلف نفسه ، وقد كتب سنة ٨٢٠ (١٤١٧) ، أشار الى المدينة دون تفريق بين تسميتها بردسير (أو گواشير) وكرمان[٨] .

وهذه الاوصاف التى انتهت الينا عن بردسير من مختلف مراجعنا ، من المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) حتى حافظ أبرو فى أوائل المئة التاسعة (الخامسة عشرة) ،قد أشارت اشارة واضحة الى كثير من الابنية التى ما زالت قائمة ، وبعضها مشعث خرب فى مدينة كرمان الحالية . وذكر المقدسى ، على ما بيّنا ، القلاع الثلاث التى اشتهرت بها المدينة . وردّد ابن ابراهيم غير مرة فى تاريخ السلاجقة الاشارة الى القلعة التى فوق الجبل (قلعة كوه) والقلعة العتيقة والقلعة الجديدة – وهى توافق ، على ما يتضح ، المواضع الثلاثة التى وصفها المقدسى – . أما فى كرمان الحديثة فاننا نجد أولا قلعة عتيقة تتوّج جبلا قريبا منها من الشرق يقال لها اليوم قلعة دختر أى « قلعة البنت » وهى تنسب الى الملك أردشير على ما يزعمون ، ونجد ثانيا فى جنوب المدينة الشرقى ، جبلا آخر ، محكم التحصين فى الزمن القديم بأسوار وأبراج ، وقد تداعت الآن ، تعرف بقلعة أردشير . فينبغى ان تكون هى القلعة التى فى ظاهر باب المدينة . وأخيرا نجد القلعة العتيقة فى وسط البلد وكانت ولا شك حيث قصر الوالى الآن[٩] .

أما جامع توران شاه ، وهو الذى ذكره المستوفى ، فما زال قائما يعرف بمسجد ملك . وفى كرمان أيضا بناء آخر ، يصل مدينة كرمان بالزمن الذى كانت تسمى فيه بردسير ، وهو القبة الخضراء (أو الزرقاء) العظيمة ، المسماة قبة سبز ، وقد كانت حتى وقت قريب تقوم فوق قبر ترخان خاتون ابنة قتلق خان أمير

---

(٨) المستوفى ١٨٢ ؛ حافظ ابرو ١٣٩ ب ، ١٤٠ أ .

(٩) وضع الميجر سايكس تخطيطا لمدينة كرمان (ص ١٨٨) وكتب لمحة عن حصنين القديمين ص ١٩٠ من Ten Thousand Miles in Persia .

قراختاى ، على ما مرّ آنفا . وجاء فى التاريخ عن هذه الاميرة ، انها بعد وفاة أبيها ، خلعت أخاها عن العرش واصبحت مدى خمس وعشرين سنة الحاكم الحقيقى لكرمان ، تحكم باسم زوجها — ابن عم قتلق خان — وباسم ابنيها اللذين سمحت لهما بتولى العرش اسميا الواحد تلو الآخر . وروى ميرخواند انها توفيت فى سنة ٦٨١ (١٢٨٢) ودفنت تحت قبة مدرسة شيهر ، أى مدرسة المدينة . وفى القبة الخضراء القائمة فوق قبرها ، كتابة على الجدران تنوه بأسماء البنائين وبسنة ٦٤٠ (١٢٤٢) وهى سنة الانتهاء من عمارتها أى فى أيام الحكم الاسمي لابن قتلق خان الذى خلعته اخته ترخان خاتون فيما بعد[١٠] .

ولم يذكر البلدانيون العرب عن غيرها من المدن فى ناحية بردسير الا لمحات خفيفة . فلم تقم فيها مجاميع من القرى ، على ما كان الامر عليه فى فارس ، وكان فى أضعاف مدن كرمان مفاوز . فعلى عشرين ميلا من جنوب غربى كرمان مدينة بغين . ويليها ، على نحو المسافة نفسها ماشيز . وهاتان المدينتان فى الطريق من كرمان الى السيرجان . وليس فى هذه البقعة اليوم غير هاتين المدينتين . وقد ردّد ابن ابراهيم ذكرهما فى تاريخ السلاجقة فى أخبار النصف الاخير من المئة الرابعة (العاشرة) . ومما يدعو الى العجب ، ان بغين وماشيز لم يذكرهما لا البلدانيون العرب الاولون ولا المستوفى ، بل ولا المصادر الفارسية التى وصفت حروب تيمور على ما يظهر . وعلى مرحلتين قصيرتين من جنوب شرقى مدينة كرمان ، مدينة ماهان ، وهى مشهورة اليوم بمزار نعمة الله الولى الصوفى ونسترادامس (Nostradamus)[١١] ايران الذى ما زالت تنبؤاته تُروى فى تلك

---

(١٠) انهارت قبة سبز انهيارا كاملا بزلزال سنة ١٨٩٦ . وقد وصفها ميجر سايكس الذى نشر صورة لها سقفها حين رآها قبل الزلزال (Persia ص ٢٦٤) . واورد ميجر سايكس ايضا وصفا لهذه القبة ص ١٩٤ ، وكذلك لجامع توران شاه ، وقد حكم من ٤٧٧ الى ٤٩٠ (١٠٨٤ — ١٠٩٧) . ابن ابراهيم ٢٨ ، ٣٤ ، ١٧٧ ، ١٨٧ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩٤ ، ميرخواند ٤ : ١٢٩ و ١٣٠ وانظر ايضا Stack فى Persia ١ : ٢٠٢ و ٢٠٤ ؛ وشندلر Reise in Persien: Schindler فى Zeitschrift der Gesellschaft fur Erdkunde (برلين) ١٨٨١ ص ٣٢٩ و ٣٣٠ .

(١١) منجم مشهور ، عاش فى سنة ١٥٠٣ — ١٥٦٦ م . ولد فى اقليم بروفنس بفرنسة . وكان طبيب الملك شارل التاسع . (م) .

الانحاء الاسلامية من آسية . وقد توفى سنة ٨٣٤ (١٤٣١) وله من العمر نيف ومئة سنة . ويقال انه كان من أصحاب الشاعر حافظ (الشيرازى) . وفى المئة الرابعة (العاشرة) وصف المقدسى ماهان بقوله « مدينة العرب ، الجامع وسط البلد ، وفى وسطها قلعة بباب واحد يحيط بها خندق . وتسير منها مرحلة الى القصبة فى أشجار مشتبكة ومياه جارية ، شربهم من نهر » .

اما غُبَيرا ، وكوغون ، وبينهما فرسخ ، ولم يبق لهما اليوم أثر على ما يظهر ، فقد كانتا جنوب ماهان على مرحلة غرب راين (وهى ما زالت قائمة) . وصف المقدسى غبيرا فى المئة الرابعة (العاشرة) بقوله « صغيرة لها قرى .... فى وسطها قلعة ، وقد بنى ابن الياس (الوالى البويهى) خارج البلد سوقا » . ولمدينة غبيرا وكوغون جامع حسن ، وشرب أهلهما من نهر وقنى . وعلى نحو من خمسين ميلا شرق كرمان ، فى شفير المفازة العظمى ، خبيص ، وكانت على ثلاث مراحل من ماهان . وكان مستوى المفازة خفيضا ، اذ ان المفازة هنا أكثر اطمئنانا بكثير من هضبة ايران الوسطى التى تقوم عليها مدينة كرمان . فكانت خبيص ، على ما أشار اليه الاصطخرى ، من جروم كرمان ، وبها نخل كثير . وزاد المقدسى على ذلك « عليها حصن بأربعة أبواب عامرة ، معدن الابريسم ، كثيرة التوت ، شربهم من نهر ، جيدة التمور »[١٢].

وعلى مرحلتين من شمال غربى كرمان ، مدينة زرند . وكان فى نصف الطريق بين المدينتين فى القرون الوسطى ، مدينة جنزروذ ، لم يبق لها أثر على ما يظهر . وقد وصف المقدسى جنزروذ بقوله « الجامع فى الاسواق ، كثيرة الفواكه ، ولهم نهر » يسمى نهر جنز . أما زرند فما زالت قائمة ، قال المقدسى « قد بنى ابن الياس على حافتها قلعة » وكانت زرند فى المئة الرابعة (العاشرة) كبيرة ،

---

(١٢) ابن ابراهيم ٦٦ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١٢١ ؛ الاصطخرى ٢٣٤ ؛ المقدسى ٤٦٢ و ٤٦٣ ؛ كولونيل سى . اى . يت Khurasan and Sistan : C. E. Yate ص ١١ .

وجد ميجر سايكس (Persia ص ٤١) فى خبيص شاهد قبر ، فيه تاريخ ١٧٣ (٧٨٩) وكذلك بقايا بناء يظهر منه انه كان كنيسة نصرانية أو معبدا لغير المسلمين . وذكر المقدسى (ص ٤٦٠) اربع مدن فى ناحية خبيص ، هى : نشك ، كشيد ، كوك ، وكثروا (بفتح أوله وثالثة ورابعه وسكون ثانيه) ، ولكنه لم يشر الى مواضعها . والظاهر انه لا اثر لها اليوم .

« عليها حصن بستة أبواب ، والجامع في الميدان عند السوق » . وكان يرتفع منها نسيج يقال له البطانة ، وكانت البطانة الزرندية تحمل الى فارس والعراق في المئة الرابعة (العاشرة) لشهرتها هناك .

وعلى خمسين ميلا شمال زرند ، مدينة راور ، على شفير المفازة الكبرى . والى الغرب من راور : كوبنان ، وقد زارها ماركو پولو . وصف المقدسي هاتين المدينتين وقال ان راور في المئة الرابعة (العاشرة) كانت « أكبر من كوه‌بيان (كوبنان) لها حصن على رأس الحد » . وقال في كوبنان أو كوه‌بيان « صغيرة، لها بابان ، وربض فيه حمامات وخانات . والجامع على الباب ، قد التفت بها البساتين ، والجبل منها قريب » . وبالقرب منها مدينة بهاباد ، وقد كتبه المقدسي بصورة بهاوذ ، وذكره مع مدينة قواق وقال هما عامرتان ، بينهما ثلاثة فراسخ وهما من المنطقة الباردة ، كلها بساتين . وما زالت بهاباد قائمة . اما قواق فليس لها أثر في الخارطة . وذكر ياقوت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ان « فيها وفي قرية أخرى يقال لها بهاباذ ، يعمل التوتيا الذي يحمل الى أقطار الدنيا » وأشار المستوفي في المئة التالية للسابعة الى كوه‌بنان التي سماها معاصره ماركو پولو بمدينة « كوبنان Cobinan » وقد وصف هذا الرحالة البندقي ، التوتيا التي تصنع فيها بقوله « شيء في غاية الصلاح للعيون » . وقد كانت التوتيا في المئة الرابعة (العاشرة) من أهم تجارات اقليم كرمان . وقال المقدسي « التوتياء المرازبي ، وانما سمي مرازبيا لانهم يتخذون شبه أصابع من الخزف كبارا ، ثم يصبونه عليه فيلتزق به فيبقى كالمرازيب . ورأيتهم يجمعونه من الجبال وقد بنوا أكوارا عجيبة طويلة يصفونه كما يصفى الحديد »[١٣] .

---

(١٣) الاصطخري ٢٣٣ ؛ ابن حوقل ٢٢٤ و ٢٩٢ ؛ المقدسي ٤٦٢ و ٤٧٠ و ٤٩٣ ؛ ياقوت ١ : ٧٦٧ ؛ ٤ : ٣١٦ ؛ المستوفي ١٨٣ . انظر Yule, The Book of Ser Marco Polo, I, 127-130 للاطلاع على وصف عمل التوتيا . وقد شاهد ميجر سايكس (Persia ص ٢٧٢) عملها في كوه‌بنان في وقتنا في الطريقة نفسها الموصوفة أعلاه .

ويغلب أن يصحف اسم راور الى زاور ، وهو من وهم النساخ ، وكذلك ظهر اسم كوه بنان بصورة كوهيان وكوه بيان بسبب الاعجام . وبنان الاسم الفارسي للفستق البري ، فمعنى كوه‌بنان جبل الفستق .

وعلى نحو من خمسين ميلا غرب كوهبنان ، على شفير المفازة فى نصف الطريق بين هذه المدينة ويزد ، تقوم بلدة بافق فى وقتنا هذا . وفى اقليم كرمان مدينتان اسمهما متشابه كثيرا وهو بافق المارة الذكر ، وبافت أو بافد . وهذه الاخيرة على ثمانين ميلا جنوب مدينة كرمان وتبعد مئى ميل عن بافق الشمالية . وهذا التشابه بين الاسمين قد ازداد لبسا بكون بافق (الشمالية) غالبا ما تلفظ اليوم بافد . ومن ثمة ، فانها تتفق اسما مع المدينة التى فى جنوب ماشيز ، اذ ان من الشائع فى اللغة الفارسية قلب القاف دالا أو تاء . وذكر ياقوت بلدة باسم بافد قال فيها « بلدة بكرمان ، على طريق شيراز ، من البلاد الحارة » . وذكر ابن ابراهيم فى تاريخ السلاجقة ، اسمى المدينتين بافد وبافق ، ولكن لم يورد ابن ابراهيم ولا ياقوت ، وصفا يفي بتعيين مواضعهما[١٤] .

(١٤) ياقوت ١ : ٤٧٤ ؛ ابو الفداء ٣٣٦ ؛ ابن ابراهيم ٣١ ، ٤٣ ، ٦٧ ، ٩٠ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٤ ، ١٧٢ ، Persia: Stack ٢ ١٣ .

الفصل الثاني والعشرون



كورة السيرجان ـ كورتا بم ونرماسير ـ ريكان ـ جيرفت وكمادين : كمادى
Camadi لدى ماركوبولو ـ دلفريد ـ جبال البارز والقفص ـ
روذكان والمنوجان ـ هرمز العتيقة والجديدة وكمبرون ـ
تجارات اقليم كرمان ـ مسالكها .

تقوم كورة السيرجان ـ وكانت مدينة السيرجان أجل مدن هذا الاقليم، وقد كانت قصبة اقليم كرمان القديمة التي مرّ وصفنا لها في الفصل السابق ـ في غرب ناحية بردسير على حد فارس . وقد ذكر المقدسي جملة مدن في هذه الكورة لم يعد لها أثر اليوم يا للأسف في الخارطة ، مع ان مواضعها بالنسبة الى موضع مدينة السيرجان معروفة .

فعلى أربعة فراسخ غرب السيرجان ، عند حد اقليم فارس : مدينة بيمند ، قيل فيها في المئة الرابعة (العاشرة) « عليها حصن منيع وأبواب حديد » . وكانت موضعا جليلا أيضا لكونه ملتقى ثلاث طرق ـ هي الطريق الآتي من شهر بابك (في الشمال) والآتي من الروذان (في الشمال الشرقي) والآتي من صاهك (في الغرب) ـ ومنها الى السيرجان حيث تلتقي جميعا . وصف المقدسي بيمند بأن « الجامع وسط السوق ، شربهم من قني » . ثم انه على مرحلة يوم من شرق السيرجان ، في طريق رايين ، موضع يقال له الشامات مدينة « كثيرة البساتين

والكروم ، فواكهها تحمل الى النواحى ، والجامع وسط البلد » • ويقال لهذه البلدة أيضا قوهستان • وعلى مرحلة واحدة أيضا شرق الشامات ، بهار • وعلى مرحلة أخرى : خشاب • وفى الموضعين الاخيرين نخل كثير • ويلي خناب ، غبيرا وقد مرّ وصفها فى كورة بردسير • وعلى مسيرة يومين من جنوب شرقى السيرجان ، فى طريق جيرفت ، تقوم مدينة باسم يكتب اما واجب أو ناجت (وللاسم قراءات أخرى) • وقال المقدسى فى واجب انها « عامرة كثيرة البساتين لهم منازه ، شربهم من قنى ، الجامع فى الاسواق »[1] •

أما كورة بم (ويكتبها البلدانيون العرب بتشديد الميم) ، فهى حول المدينة التى بهذا الاسم ، فى الجنوب الشرقى من ماهان ، على شفير المفازة العظمى ، وعند الحد الشرقى لكرمان • وصف ابن حوقل مدينة بم فى المئة الرابعة (العاشرة) • بأنها أكبر وأصح هواء من جيرفت ، بها نخيل ، ولها قلعة منيعة مشهورة • « وبمدينة بم ثلاثة مساجد يجمعون فيها الجمعات ، فمنها مسجد للخوارج ، ومسجد جامع فى البزازين ، ومسجد جامع فى القلعة » • « ويعمل ببم ، ثياب من قطنهم فاخرة حسنة ، تحمل الى أباعد الديار ، ويحمل من بم أيضا العمائم والمناديل والطيالسة » • وذكر المقدسى : « عليها حصن بأربعة أبواب : باب نرماسير ، باب كوسكان ، باب أسبيكان ، باب كورجين • فيها بعض الاسواق وبقية الاسواق خارج • وفى وسط البلد نهر يجرى على حافة البلد ويدخل القلعة • ومن أسواقها سوق جسر جرجان • ومن حماماتهم المذكورة ، حمام زقاق البيذ • وجبل كود منها على فرسخ ، بقربها قرية عظيمة ، أكثر ما يعمل من الثياب بها » وأشار المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) الى قلعة بم المنيعة وتكلم على هوائها وقال انه حار[2] •

---

(١) ابن خرداذبه ٤٩ و ٥٤ ؛ الاصطخرى ١٦٨ و ١٦٩ ؛ المقدسى ٤٦٤ و ٤٦٥ • وجاء اسم ناجت فى ابن حوقل بصورة ناحته ، وفى ابن خرداذبه : باخته وناخته أو قاخته ، وكلها ولا شك تصحيف لبافت المدينة المارة الذكر فى الفصل السابق (ص ٢٤٨) • وما زالت قائمة فى نحو من الموضع الموصوف •

(٢) قد وصف قلعة بم القديمة وهى ما زالت قائمة الى اليوم ، ميجر سايكس (انظر Persia ص ٢١٦ و ٢١٨) • واطلال المدينة التى كانت فى القرون الوسطى ، ترى على ضفة النهر عند كزاران ، تبعد نحوا من ميل عن الحصن •

أما راين ، فهي الى جنوب ماهان ، على نحو من سبعين ميلا شمال غربي بم . وصفها المقدسي بقوله : « صغيرة ، الجامع وسط الاسواق ، كثيرة البساتين » . وفي ثلث الطريق من راين الى بم ، تقوم أوارك ومهركرد (أو مهرجرد) وهما ملتصقتان . أما الاولى فما زالت ، وهي تلفظ اليوم : أبارك . وكانت تقوم بين الاثنتين في المئة الرابعة (العاشرة) قلعة ، بناها ابن الياس عامل بني بويه . وشرب أهلهما من نهر ، وبناؤهم طين . وتقوم بين أبارك وبم مدينة دهرزين وكتبها المقدسي بصورة دارزين ، وغيره بصورة دارجين وديروزين « بها جامع حسن ، ولهم منازه وبساتين ومزارع ، وشربهم من نهر »[٣] .

اما كورة نرماسير (وبالفارسية نرماشير) ، فانها جنوب شرقي بم ، على شفير المفازة . وتقوم قصبتها مدينة نرماسير في نصف الطريق بين بم والفهرج ، وما زالت الفهرج قائمة . وكانت نرماسير في المئة الرابعة (العاشرة) ، مدينة جليلة الشأن ، نوه المقدسي بقصورها الحسنة الانيقة وكثرة أهلها . وبها تجار من خراسان ، لهم تجارة مع عمان « وعليها طريق حاج سجستان ، ومنها ينقل البهربهار » . وكانت نرماسير في المئة الرابعة (العاشرة) أصغر من السيرجان « عليها حصن بأربعة أبواب : باب بم ، باب صوركون ، باب المصلى ، باب كوشك . والجامع وسط الاسواق ، يصعد اليه بعشر درجات من الآجر ، به منارة ليس لها في الاقليم من نظير . وثم قلعة يقال لها كوش وران (ولم يفسر هذا الاسم) ، وعلى باب بم ثلاثة حصون يعرفن بالاخوات . يحدق بالبلد البساتين والنخيل » . ولا أثر اليوم في الخارطة لمدينة نرماسير . ولكن الاطلال المعروف موضعها باسم جكك اباد « أي مدينة العصفور » القائمة على يمين النهر البطيء الذي يدور في سهل نرماسير ، ينبغي أن تكون هي بقايا مدينة القرون الوسطى العظيمة . وهذا الموضع اليوم في قفر بلقع وان كان المستوفي حتى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قد أشار الى نرماسير بانها بلدة آهلة .

وعلى عشرين ميلا من جنوب الفهرج ، مدينة ريكان (وتكتب أيضا ريقان

---

(٣) ابن حوقل ٢٢٣ و ٢٢٤ ؛ المقدسي ٤٦٥ و ٤٦٦ و ٤٧٠ ؛ المستوفي ١٨٢ ؛ ياقوت ٤ : ٧٠٠ . وقد وصف ميجر سايكس ابارك ودارزين . انظر : Persia ص ٢١٤ .

أو ريغان) . ذكر المقدسي ان لها حصنا « والجامع على بابها ، كثيرة النخيل والبساتين » . وأشار المستوفي اليها ، فقال هي بلد في غاية الحر ، يكثر فيها النخيل والقمح . وبين ريغان وبم ، مدينة كرك ، وقد جمع المقدسي بينها وبين جارتها باهر (ولا يلتبس هذا الاسم باسم بهار في السيرجان أنظر ص ٣٤٩) . وقد كانت هاتان المدينتان في المئة الرابعة (العاشرة) « عامرتين لهما بساتين ونخيل » . وكانت مدينة نسا من كورة نرماسير أيضا ، ولكن موضعها غير معروف كان (لها بساتين ، في سهلة ، والجامع في الاسواق ، شربهم من نهر »[٤] .

وقد كان جميع النصف الجنوبي من اقليم كرمان حتى ساحل البحر ، تحتويه كورة جيرُفت (أو حَيرُفت) . وكانت جيرفت في القرون الوسطى مدينة جليلة الشأن ، يتخللها نهر ، لم يسم البلدانيون العرب غيره في هذا الاقليم . وتعرف خرائب جيرفت اليوم (وقد بقي هذا الاسم اليوم على ناحية جيرفت فقط) بشهر دقيانوس (أي مدينة الملك Decius) الذي يضرب المثل بطغيانه في الشرق وفي أيامه دخل أهل الكهف السبعة كهفهم على ما في القرآن (السورة ١٨ الآية ٨ ؛ وأنظر صفحة ١٨٨ أعلاه) وقد أضحت قصة أهل الكهف من الاقاصيص الشعبية . ويمر بالقرب من هذه الخرائب ، نهر يقال له خليل رود (أو حليل رود) وهو الذي سماه البلدانيون العرب والفرس بـ « ديو رود » (أي نهر ابليس) لشدة جريه . وهو أحد روافد بم بور ، ويصب شرق الهامون أي المناقع .

وفي المئة الرابعة (العاشرة) ، وصف ابن حوقل جيرفت فقال « مدينة طولها نحو من ميلين ، وهي متجر خراسان وسجستان ، ويجتمع فيها ما يكون في الصرود والجروم . . . وترتفع من نواحي جيرفت النيل الكثير والكمون ولهم فانيد ودوشاب »[٥] . وبقرب جيرفت ناحية تعرف بالميزان (وفي الاصطخري : الميجان) عامرة بالبساتين والقرى ، يكثر فيها الرطب والجوز والاترج . والثلوج

---

(٤) ابن خرداذبه ٤٩ ؛ المقدسي ٤٦٣ ، ٤٦٤ . في الطبعة الحجرية للمستوفي ، (ص ١٨٢) اقرأ « نرماسير » بدل « ماشير » وذلك استنادا الى أحسن المخطوطات المؤيدة بنص جهان نما التركية (ص ٢٥٧) . وأنظر عن جكك أباد سايكس : Persia ص ٢٢٠ .

(٥) الفانيد : السكر .

تحمل اليها من الجبال القريبة . وماؤها من نهر يعرف بـ « ديو روذ » له وجبة ، وجرى سريع يجرى على الصخور ، وفيه ماء بالتقدير يدير خمسين رحى » . ومن شعب درفارد القريب من جيرفت ميرتها وفيه ، على ما جاء فى المقدسى ، البطيخ الحلو والنرجس الذى يعمل منه الطيب المشهور . وعلى المدينة حصن بأربعة أبواب ، هى : باب شابور (سابور) ، باب بم ، باب السيرجان ، باب المصلى . « والجامع على طرف عند باب بم من آجر وجص ، بعيد عن الاسواق » . وزاد المقدسى على ذلك قوله « هى أكبر من اصطخر ، بناؤهم طين ، أساسه حجر » .

وقال ياقوت ، ان ولاية جيرفت خصبة كثيرة الخيرات يقال لها جردوس . وأشار المستوفى الى الغابات المكتظة بالسباع ، التى كانت تحيط بالمدينة قبلا . أما فى أيامه ، فقد نشأت فى موضعها بساتين النخيل . وكثيرا ما أشار ابن ابراهيم فى تاريخ السلاجقة الى قمادين فى المئة السادسة (الثانية عشرة) بقوله انه موضع عند باب جيرفت ، وفيه يختزن تجار بلاد الروم والهند سلعهم وحيث يجتمع المسافرون بحرا وبرا . وذكر فى مكان آخر ان السلع الفاخرة النفيسة الآتية من الصين وبلاد ما وراء النهر وخطاى ومن هندستان وخراسان ومن الزنجبار والحبشة ومصر ومن الروم وأرمينية والعراق والجزيرة واذربيجان ، كان كلها يباع فى أسواق قمادين . وقمادين الفارسية هى الموضع الذى ذكره ماركو بولو باسم Camadi أو مدينة كمادى . وقد كانت قبلا موضعا عظيما جليلا . ولكن حين زارها ماركو بولو كانت حقيرة من جراء ما لحقها من غارات التتر المتعاقبة . وهذا يفسر لنا سبب اختفاء جيرفت وقمادين من التاريخ بعد ختام المئة السابعة (الثالثة عشرة) وخلو الخارطة من اسميهما . وكان حول جيرفت ناحية الروذبار التى ذكرها البلدانيون العرب وجاءت عند ماركو بولو باسم Reobarles ريوبارلس[٦] .

---

(٦) عن أطلال شهرديبانوس وهى على يمين نهر خليل روذ ، على مسافة قصيرة من غرب سرجاز ، انظر : Keith Abbott فى JRGS لسنة ١٨٥٥ ، ص ٤٧ وسايكس : Persia ص ٢٦٧ ، الاصطخرى ١٦٦ ؛ ابن حوقل ٢٢٢ ؛ المقدسى ٤٦٦ ، ٤٧٠ ؛ ياقوت ٢ : ٥٧ ؛ المستوفى ١٨٢ ؛ ابن ابراهيم ٤٨ ، ٤٦ ، ٨٣ ؛ شندلر : JRAS لسنة ١٨٩٨ ص ٤٣ ، و (Yule) The Book of Ser Marco Polo ١ : ٩٨ .

وعلى مرحلة من شمال شرقي جيرفت وفي نصف الطريق الى دارجين ، بلدة هرمز الملك (وقد سميت بذلك تمييزا لها عن فرضة هرمز) وكان يقال لها أيضا قرية الجوز • وهي على ما جاء في الادريسي – ولكن غير واضح من أين استقى روايته – مدينة قديمة أسسها الملك هرمز الساساني في المئة الثالثة للميلاد ، وكانت قصبة اقليم كرمان • وظلت على ذلك حتى خرابها ، فنقلت دواوين الدولة الى السيرجان ، فظلت هذه المدينة قصبة الاقليم في الدور الساساني الاخير • وقد أشار المقدسي وغيره من البلدانيين الاولين الى موضع هرمز الملك ، غير انهم لم يذكروا شيئا عنها • وزاد الادريسي ان هرمز هذه كانت في أيامه (أو على أكثر احتمال في أيام المؤلف المجهول الذي استقى منه روايته) مدينة أنيقة لطيفة على صغرها • أهلها أخلاط ، يكثر فيها الماء وأسواقها عامرة حسنة • وكانت تبعد ، على قوله ، مرحلة من بم[٧] •

وعلى مرحلة يوم شمال خرائب جيرفت ، دلفريد ، وقد سماها المقدسي درفاني، وابن حوقل درفارده وهي في شعب خصب تجتمع فيه فواكه الصرود والجروم على ما بيّناه ومنه ميرة جيرفت • وعلى مرحلة أخرى من شمال غربي دلفريد ، جبل المعادن حيث الفضة • وتكثر بوجه خاص في واد في جبل الفضة[٨] •

والى شرق جيرفت ، جبل البارز ، وكان في المئة الرابعة (العاشرة) تكسوه غابات كثيفة • واليه التجأ المجوس المطاردون في أيام الفتح الاسلامي الاول تخلصا من الجيش الذي جرده عليهم خلفاء بني أمية ، ولم يخضع هذه البلاد للاسلام الا بنو الصفار • واشتهرت بعد ذلك بمعادن حديد • وأقرب منها الى ساحل البحر ، في جنوب شرقي جيرفت ، بلاد جبل القُفْص • كان بها في المئة الرابعة

---

(٧) الاصطخري ١٦١ و ١٦٩ ؛ ابن حوقل ٢١٩ و ٢٢٥ ؛ المقدسي ٤٧٣ ؛ الادريسي (طبعة جوبرت) ١ : ٤٢٣ ومخطوطتا باريس : الرقم ٢٢٢١ عربيات ، الورقة ١٥٧ ب ، والرقم ٢٢٢٢ ، الورقة ١٠٤ أ ؛ ياقوت ٢ : ١٥١ •

وقد طابق ميجر سايكس (Persia ص ٤٤٤) بين هرمز الملك (ولا وجود لها الآن بهذا الاسم) وبين Carmana omnium mater لدى اميانس مرشلينوس •

(٨) الاصطخري ١٦٥ • وقد كتب الاسم بصورة درباى ، ولعل ذلك من وهم النساخ • ابن حوقل ٢٢١ و ٢٢٢ ؛ المقدسي ٤٦٧ و ٤٧١ ؛ أبو الفداء ٣٣٥ •

(العاشرة) قبائل جبلية ، وفى شرقيها البلوص (أو البلوج) وكانوا يتنقلون عند تخومها الشرقية أمام الحدود السفلى للمفازة الكبرى . وسيأتى الكلام على أجبال القفص من اللصوص عند وصفنا المفازة الكبرى . وكان يقال لقسم من هذه البلاد البعيدة : الخواش ، نسبة الى قبائل يعرفون بالاخواش . وهم أصحاب ابل ومراع وكانوا فى شعب شديد الحر يكثر فيه قصب السكر ويحمل الى سجستان وخراسان . وهذه الرقعة الجبلية هى التى تفصل بين الطرف الجنوبى للمفازة الكبرى ومكران . وقد كانت هذه المرتفعات سبعة أجبل ، ولكل جبل رئيس منهم ، وقد حمل عليهم عضد الدولة البويهى فى المئة الرابعة (العاشرة) لاخضاعهم . وهم « رجّالة لا دواب لهم » . « وهم صنف من الاكراد كانوا أصحاب نعم وبيوت شعر مثل البادية » ، لا مدن لهم . وفى الاقسام السفلى من بلادهم نخل كثير[٩] .

وعلى خمسين ميلا جنوب غربى جيرفت ، مدينة گلاشكِرد، وقد كتبها المقدسى بصورة ولاشجرد وقال فيها : « عليها حصن ولها قهندز يسمونه كوشه ، شربهم من قنى ذات بساتين » . ومنون « كثيرة البساتين والنارنج ، وهى من معادن النيل ،شربهم من قنى » وهى على مرحلة شمال ولاشجرد نحو جيرفت ، ولعل خرائبها هى ما يعرف اليوم باسم فرياب أو پرياب[١٠] . وعلى خمسين ميلا من جنوب ولاشجرد المدينة الجليلة منوقان ، ويقال لها اليوم منوجان . قال فيها المقدسى « هى بصرة كرمان » اشارة الى مكانتها التجارية . وهى جانبان ، بينهما واد يابس يقال له كلان ويعرف أحد جانبيها باسم كوئين والآخر زامان ، بينهما قلعة [ما زالت قائمة] وجامع يسمى جامع سيان . وعلى مرحلة منها ، فى رملة قريبة من البحر ، مدينة درهقان ، ولا أثر لها اليوم على ما يبدو . وكان الجامع وسط البلد ، ولها بساتين فيها نيل ، وشربهم من قنى .

---

(٩) الخواش اليوم ، قصبة سرهد ، وهى ناحية جبلية وصفها ميجر سايكس Persia ص ١٣٠ و ٣٥٣) . وتقوم فى شرق نرماشير . الاصطخرى ١٦٣ و ١٦٤ و ١٦٨ ؛ ابن حوقل ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٤ ؛ المقدسى ٤٧١ ؛ ياقوت ٤ : ١٤٨ . وينبغى ان يقرأ فيه : البارز بدلا من القارن .

(١٠) وقد اشار ميجر سايكس (Persia ص ٢٦٩) الى فرياب بقوله كانت حينا ما مدينة عظيمة ثم خربها طوفان على ما ترويه الأساطير المحلية .

وبين ولاشجرد ومنوجان نهر كثير الروافد يقال له الآن رودخانه دزدى ، ذكره الاصطخرى باسم نهر الزنكان ، وياقوت باسم نهر راغان . وأشار المقدسى الى مدينة روذكان وقال انها عامرة ، بها بساتين ونخيل ونارنج كثير ، ولعلها كانت على هـــذا النهـــر . والى شـــمال شرقى منـــوقان ، فى طـــريق ريگـــان ، وهى على ثلاث مراحل من ميناء هرمز ، مدينتا باس وجكين ، متجاورتان ، لكل منهما جامع وسوق . ونهر سليمان أو جوي سليمان ، مدينة عامرة كثيرة الاهل على مرحلة غرب ريگان ، وقد ذكرها المقدسى فى كورة جيرفت . « وفيها نهر يتخلل البلد ، والجامع وفهندز وسطها » . وأخيرا ذكر المقدسى فى القسم الشمالى من ناحية جبل القفص مدينة قوهستان ، ويقال لها قوهستان أبى غانم تمييزا لها عن غيرها وهى « وسطة حارة كثيرة النخيل ، والجامع وسطها وبها قهندز »[١١] .

أما هرمز القديمة ، أى هرمز التى فى البر ، فهى تبعد نحو بريدين أو مرحلة نصف يوم من ساحل البحر . على خليج من بحر فارس يسمى الجير على ما فى الاصطخرى « يدخل فيه السفن من البحر » . وما زالت خرائب المدينة ترى فى موضع يقال له اليوم مناب واسمها الدارج مناو . وكانت هرمز القديمة فى المئة الرابعة (العاشرة) مجمع تجارة كرمان وسجستان وفى الأزمنة الاخيرة ، لما بنيت هرمز الجديدة فى الجزيرة ، حلت محل قيس مثلما حلت قيس محل سيراف قبلا ، وأصبحت أجل فرضة تجارية فى خليج فارس . وتكلم الاصطخرى على هرمز (القديمة) وقال « بها مسجد جامع ، ومساكن التجار فى رساتيقها ، متفرقين فى القرى نحو فرسخين ، والبلد كثير النخل ، والغالب على زرعهم الذرة ، ويزرع فيها النيل والكمون وقصب السكر » . وأطرى المقدسى أسواق هرمز فقال « سوقهم جاد ، وشربهم من قنى ، وبناؤهم من طين » . والصَّرْصة على ساحل البحر ، تبعد عن هرمز مرحلة نصف يوم ، ويظن انها كانت عند مدخل خليج هرمز .

وقد ذكر ابن خرداذبه فى أواسط المئة الثالثة (التاسعة) ، الجزيرة القريبة

(١١) الاصطخرى ١٦٩ ؛ المقدسى ٤٦٦ ، ٤٦٧ ؛ ياقوت ٤ : ٣٣٠ .

منها باسم أرموز (وكتبها المستوفى : أرموص) ولا ريب فى انها هى الجزيرة التى تعرف بجزيرة جرون . ففى مطلع المئة الثامنة (الرابعة عشرة) - وذكر أحد مراجعنا السنة ٧١٥ (١٣١٥) - هجر ملك هرمز المدينة التى على ساحل البحر ، لاتصال غزوات اللصوص لها ، وبنى هرمز الجديدة فى الجزيرة المارة الذكر المعروفة باسم جرون (أو زرون) وهى تبعد فرسخا عن الساحل . وفى هذا الزمن ، زار ابن بطوطة هرمز الجديدة . وقد وصفها معاصره المستوفى وأطرى كثرة نخيلها وقصب سكرها . وحكى ابن بطوطة ان هرمز القديمة كانت تسمى فى أيامه موغ أستان ، وأطلق على المدينة الجديدة اسم الجزيرة المعروفة بجزيرة جرون ، وهى مدينة حسنة لها أسواق حافلة ، وبها جامع ، وهى متجر سلع الهند والسند .

وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، جرد تيمور حملة على المدن الساحلية القريبة من هرمز القديمة ، فاستولى على سبع قلاع هناك أحرقها كلها وفر مقاتلتها الى جزيرة جرون . أما هذه القلاع السبع ، فان علي اليزدى سرد أسماءها ، وهى : قلعة الميناء فى هرمز القديمة ، وتنگ زندان ، وكشكك ، وحصار شامل ، وقلعة منوجان (وقد مر ذكر المدينة) ، وترزك ، وتازيان . وفى سنة ٩٢٠ (١٥١٤) استولى البرتغاليون على هرمز ، واسمها الشائع أرمز ، بقيادة ألبوكرك (Albuquerque) وعرفت الميناء الساحلية التى نزلوا فيها باسم گمبرون (Gombroon) . وهو الموضع الذى اطلق عليه الشاه عباس بعد قرن اسم بندر عباس . وهو فرضة كرمان الحالية . ولعلها تقوم فى موضع سورو أو شهرو المارة الذكر فى الفصل المعقود لفارس . ويقال ان الاسم گمبرون هو الذى حرف الى كمرك (من اليونانية Koumerki) ومن هذا الاسم شاعت كلمة الكمرك فى أنحاء الشرق . وأشارت جهان نما التركية الى ان گمرو ميناء هرمز . ومنها الى مدينة لار (فى فارس) مسيرة أربعة أو خمسة أيام[١٢] .

---

(١٢) ابن خرداذبه ٦٢ ؛ الاصطخرى ١٦٣ و ١٦٦ و ١٦٧ ؛ ابن حوقل ٢٢٠ و ٢٢٢ و ٢٢٣ ؛ المقدسى ٤٦٦ و ٤٧٣ ؛ المستوفى ١٨٢ و ٢٢٢ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٢٣٠ ؛ ابو الفداء ٣٣٩ ؛ علي اليزدى ١ : ٧٨٩ و ٨٠٩ و ٨١٠ ؛ جهان نما ٢٥٨ و ٢٦٠ .

وقد اختلف فى اسم الملك الذى نقل القصبة الى الجزيرة فقيل انه شمس الدين وقطب الدين

وتجارات كرمان تقصر كثيرا عن تجارة فارس ، ولم يته الينا من البلدانيين العرب شيء كثير عن تجارة هذا الاقليم • ذكر المقدسي ان في كرمان تمورا وذرة وهي طعامهم • وتحمل من كرمان التمور الى خراسان ، والنيل الى فارس ، وغلات ناحية ولا شجرد الى هرمز ، ومنها تحمل في السفن الى أقاصي البلدان(١٣) •

وما ذكره بلدانيو المئة الثالثة والمئة الرابعة (التاسعة والعاشرة) عن مسالك اقليم كرمان ، أقل كثيرا مما وصفوا به مسالك اقليم فارس • وهم الى ذلك أوردوا المسالك بالمراحل فقط ، وهو مقياس غير دقيق • ويفتقر وصفهم لمعظم الطرق الى ذكر مراحلها الواحدة تلو الأخرى بالفراسخ •

فالطرق الآتية من فارس الى كرمان ، تجتمع في بيمند ، وهي على ما بيّنا ، على أربعة فراسخ من غرب السيرجان • فمن الشمال الشرقي ينحدر طريق من أناس وناحية روذان الى بيمند (وقد ذكره الاصطخري والمقدسي) • ومن صاهك الكبرى الى بيمند (والسيرجان) طريقان جاء وصفهما بالفراسخ ، الاول يمرّ بشهر بابك (ولم يذكره غير ابن خرداذبه) والآخر يقطع المفازة الى بيمند رأسا • وكان يبلغ اليها بطريقين : الاول (ذكره ابن خرداذبه) يمـرّ بقـرية الملح ، والآخر يمر برباط پشت خم (ذكره قدامة والاصطخري) • والى ذلك ، ذكر المقدسي الطريق من نيريز (بالمراحل) الى بيمند والسيرجان • وقد وصف هو والاصطخري ، الطريق من الجنوب الغربي الذاهب رأسا من رستاق الرستاق الى السيرجان ومسيرته نيف وأربعة أيام(١٤) •

وكان من السيرجان الى بردسير (مدينة كرمان) مسيرة يومين • وذكر المستوفي انها عشرون فرسخا • ولم يته الينا اسماء ما بينهما من محطات • مع انه كان بالقرب من هذا الطريق : ماشيز وبغين على ما قد بيّنا • ذكرهما ابن ابراهيم ،

او فخر الدين • وقد استولى الانكليز على جزيرة هرمز في سنة ١٦٢٢ • وعن وضعها الحالي انظر : Stiffe في Geographical Magazine لسنة ١٨٧٤ ، ١ : ١٢ ؛ و JRGS لسنة ١٨٩٤ ص ١٦٠ • وقد كتب الاسم بصورة هرمز وهورموز •

(١٣) المقدسي ٤٧٠ •

(١٤) ابن خرداذبه ٤٨ و ٥٣ ؛ قدامة ١٩٥ ؛ الاصطخري ١٣١ و ١٦٨ ؛ المقدسي ٤٥٥ و ٤٧٣ ؛ المستوفي ٢٠١ •

وقد كتب في المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) ، غير مرة ، وقال انهما كانتا قائمتين في المئة الرابعة (العاشرة) . ومن بردسير (كرمان) الى زرند مرحلتان . وكانت جنزروذ تتوسطهما . ومن السيرجان الى ماهان مسيرة ثلاثة أيام . ومنها الى خبيص ثلاثة أيام أخرى . ولكن لا يعرف ما بينهما من محطات[١٥].

وكان طريق القوافل العظيم ، من السيرجان شرقا الى مكران ، يمر بجملة مدن لم يبق لها أثر . فقد كان يأتي الى راين ، ومنها في طريق يمر بدرزين وبم ونرماسير الى الفهرج على شفير المفازة . وقد ذكر ابن خرداذبه وقدامة المراحل في هذا الطريق بالفراسخ ، هذا الى ما انتهى الينا في مرجعين آخرين عن المحطات التي في مرحلة كل يوم[١٦] .

اما الطريق من السيرجان ، نحو الجنوب الشرقي الى جيرفت ، فمع ان ابن خرداذبه قد وصفه بالفراسخ ، والاصطخري بالمراحل ، لا يمكنا ان نعين من المواضع التي جاء ذكرها فيه غير درفارد ، فلربما لا يمكن العثور عليها في الخارطة ما خلا مدينة بافت الجنوبية . كما ان القراءات المختلفة لهذه الاسماء في المخطوطات لا يصح الركون اليها في أي حال ، ومن جيرفت ينعطف الطريق جنوبا فيمر بولاشجرد ومنوقان ثم ينتهي بالساحل عند هرمز (القديمة) . وعلى ما جاء في الاصطخري ، كان يتفرع منه عند ولاشجرد طريق يضرب غربا الى حد اقليم فارس ، يمرّ بسلسلة من المدن والقرى قد اختفت اليوم كلها ، بل لا يمكن ، يا للأسف ، تعيين منتهى هذا الطريق في حد اقليم فارس[١٧] .

والطريق من هرمز القديمة الى ريگان ونرماسير ، قد ذكره المقدسي بالمراحل . وكان يمرّ بمديتني باس وجكين . أما الطريق نحو الجنوب من راين الى جيرفت ، فقد ذكر الاصطخري المسافات فيه ما بين دارجين وهرمز الملك بالمراحل[١٨] .

---

(١٥) الاصطخري ١٦٩ ؛ المقدسي ٤٧٣ ؛ المستوفي ٢٠١ .
(١٦) ابن خرداذبه ٤٩ ؛ قدامة ١٩٦ ؛ الاصطخري ١٦٨ ؛ المقدسي ٤٧٣ .
(١٧) ابن خرداذبه ٥٤ ؛ الاصطخري ١٦٦ .
(١٨) الاصطخري ١٦٩ ؛ المقدسي ٤٧٣ .

الفصل الثالث والعشرون

المفازة الكبرى ومكران

امتداد المفازة الكبرى وخواصها ـ الواحات الثلاث : الجرمق ونابند وسنيج ـ
اهم مسالك المفازة ـ اقليم مكران ـ فنزبور وميناء التيز ـ
مدن اخرى ـ السند والهند ـ ميناء الديبل ـ المنصورة
والملتان ـ نهر مهران (Indus) ـ كورة
طوران وقصدار ـ كورة البدهة
والقدابيل ٠

تمتد المفازة الكبرى فى ايران فتقطع هضبة ايران العالية ، من الشمال الغربى الى الجنوب الشرقى ، فتفصل الاقاليم الخصبة فى هذه البقاع الى مجموعتين ٠ فان هذه المفازة تبدأ من جنوب جبال ألبرز التى يشرف شماليها على بحر قزوين ، وتمتد الى جبال مكران المجدبة ، الاقليم المتاخم لبحر فارس ٠ ويقدر طول المفازة بنحو من ٨٠٠ ميل ، ولكن عرضها يختلف باختلاف بقاعها ، لان شكل هذه الرقعة الفسيحة من الفيافى القاحلة أشبه شيء بزجاجة الساعة الرملية الضيقة العنق ، لا يتجاوز عنقها الضيق مئة ميل وهو يفصل بين كرمان وسيستان ، بينما يتسع عرضها كثيرا فى الشمال والجنوب حتى ليتجاوز فى بعض المواضع مئتى ميل[١]٠

(١) بينا حدود المفازة الكبرى بوجه عام فى الخارطة رقم ١ (أمام الفصل الاول) ، وتفاصيل القسم الشمالى منها فى الخارطة رقم ٥ (أمام الفصل ١٣) ٠ والقسم الاسفل منها فى الخارطه رقم ٦ (أمام الفصل ١٧) والخارطة رقم ٧ (أمام الفصل ٢٣) والخارطة ٨ (أمام الفصل ٢٤) ٠

وقد عرف البلدانيون العرب في القرون الوسطى هذه الصحراء بالمفازة ، وعنوا كثيرا بتعيين حدودها . فمن غربيها وجنوبها الغربى يحدها اقليم الجبال وكورة يزد (وكانت تعد بالاصل جزءا من اقليم فارس) وكرمان ، وفى جنوبها تتداخل فى أضعاف جبال ساحل مكران . ومن شرقيها وشمالها الشرقى خراسان والاقاليم التابعة لها والمجاورة : وهى قومس فى شمال المفازة ، ثم زاوية من اقليم خراسان نفسه ، ثم قوهستان ، وفى أسفل ذلك سجستان وهى عند القسم الضيق من المفازة مقابل كرمان . وسجستان اليوم مفازة بلوجستان ، وكانت فى العصور الوسطى تعد جزءا من مكران .

وما كتبه ابن حوقل والمقدسى عن المفازة انما كان عن خبرة ومشاهدة ، اذ أن كليهما اجتاز قفارها غير مرة . أوجز ابن حوقل وصفها فقال : « ليست فى حيز اقليم بعينه ، وهى من أكثر المفاوز لصوصا وفسادا » قد جعلوا منها ملجأ يعتصمون به ويأوون اليه . وليس فيها قرية ولا مدينة سوى فى ثلاثة مواضع . أما المقدسى فقد نبسط فى الكلام عليها . ونحن نلخص شيئا مما ذكره قال : مثل المفازة كمثل البحر ، كيفما شئت فسر اذا عرفت السمت وسلكت حيث تلمح الحياض والقباب المعمولة فيها فوق حياض المياه التى كان يعنى بانشائها فى المئة الرابعة (العاشرة) بامتداد أهم طرقها بين مرحلة كل يوم وأخرى . وقد أمضى المقدسى فى هذه المفازة سبعين يوما ، مخترقا اياها من اقصاها الى أقصاها . وتكلم كلام خبير على ما فيها من دروب ومعارج فى جبال فيها وكلها مخيف ، سباخها وسرودها وجرومها ، وقال ان فيها رمالا قليلة ونخيلا وزروعا فى أضعاف كثير من وديانها الصغيرة .

وكانت المفازة فى ذلك الزمن مخيفة ، لان عصابات من البلوص (وهم

وتعرف هذه المفازة اليوم بـ « دشت لوط » أى مفازة لوط . ويعرف ما فيها من مستنقعات ملحة وسباخ بـ « دشت كوير » [موزن ، صحير] . ويطلق احيانا اسم كوير على المفازة باجمعها ايضا . اما اشتقاق اسم لوط (وهو لوط التوراة بحسب التسمية العربية) وكوير ، فغير معروف . أنظر : Major Sykes فى Persia ص ٣٢.

قلنا : وانظر ايضا الطبعة الجديدة من كتاب :
Sir Percy Sykes, A History of Exploration (London, 1949; p. 341, 372.
ففيه أحدث وصف للرحلات فى ساحل مكران ومفازة لوط الجنوبية . (م) .

البلوج) كانوا يعتصمون في جبال القفص عند تخوم كرمان ، وهم « قوم لا خلاق لهم ، وجوه وحشة وقلوب قاسية ، وبأس وجلادة ، لا يبقون على أحد حتى يقتلوا من ظفروا به بالأحجار كما تقتل الحيّات ، تراهم يمسكون رأس الرجل على بلاطة ويضربونه بالحجارة حتى ينصدع » وسألهم المقدسي عن سبب ذلك ، فقالوا له لئلا تفسد سيوفنا . وفي أيام المقدسي أباذهم عضد الدولة البويهي ، وحمل منهم أمة رهائن الى فارس . فسلم الطريق من شرّهم ، اذ كان مع القوافل بذرقة من قبل السلطان . وكان هؤلاء البلوص ، على ما ذكر المقدسي ، « رجّالة ، وربما ركبوا الجمّازات »[٢] . وهم وان كانوا يدّعون الاسلام ، الا انهم « أشدّ على المسلمين من الروم والترك : اذا أسروا الرجل أمروه بالعدو معهم نحو عشرين فرسخا حافي القدم جائع الكبد . زادهم شيء مثل الجوز يتخذ من النبق . وهم أصبر خلق الله على الجوع والعطش » .

وبعد المقدسي بنحو من نصف قرن ، أي في سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) ، قطع ناصر خسرو الجزء الشمالي من المفازة في عودته من حجه الى مكة . ولم يطلق ناصر خسرو على المفازة الكبرى اسما خاصا بها ، بل أشار اليها فقط بلفظ بيابان ، أي « أرض لا ماء فيها » . على انه ذكر أهم صفتين خطرتين فيها : الرمال المتحركة (ريك روان) والسباخ (شورستان) التي قد يبلغ طولها ستة فراسخ . غادر ناصر خسرو نايين في اقليم الجبال الى الواحات الوسطى في الجرمق ، ومنها الى طبس في قوهستان ، سالكا الطريق الذي سنصفه الآن . على ان وصفه هـذا الطريق غامض لم يزد الا القليل على ما نعرفه عنه . فقد تكلم على گيلكى أمير طبس وقال انه نشر الأمن والسلام في المفازة ، وهابه لصوص القفص الذين سماهم كوفج ، وزال خطرهم . وذكر ان بين كل فرسخين من الطريق الذي سلكه ، قبابا فوق حياض الماء ، شيدت حتى لا يضلّ المسافرون الطريق ولكي يأووا اليها في الحر والقر . وذكر انه لو لا العناية بهذه الحياض لما استطاع أحد اجتياز المفازة وهم في خوف من اللصوص . وقد عزّز قول ناصر خسرو هذا ، ما جاء

(٢) الجمازات : واحدتها الجمازة . وهي ناقة تعدو الجمزى . والجمزى نوع من العدو السريع كالوثوب (م) .

فى وصف كتابي المسالك لابن حوقل والمقدسى عن طرق القوافل العديدة فى هذه القفار الممتدة الى كثير من الجهـات ، ففى جميعها ، حياض للماء بين مرحلة ومرحلة(٣) .

وعلى مدى الخط الاوسط لهذه المفازة الكبرى ، ثلاث واحات تبعد احداها عن الاخرى بعدا كبيرا . واليها طبعا تتوجه طرق المفازة المختلفة التى تقطعها من الغرب الى الشرق . كانت هذه الواحات تعرف فى القرون الوسطى بالجرمق ونابند (وما زالت تسمى بذلك) وسنيج . ولم يكن فى المفازة ، على ما ذكـر المقدسى ، من مدن غير هذه الاخيرة .

وتتوسط القسم الأعلى الواسع من المفازة ، عند منتصف الطريق بين اصفهان وطبس فى قوهستان ، واحة يقال لها اليوم جندك أو بيابانك وهى التى كان يعرفها العرب فى القرون الوسطى بالجرمق ، وكانت تكتب بالفارسية بصورة گرمه . وهى ثلاث قرى : الجرمق (أو گرمه) وبيادق (أو پياده بالفارسية) وأرابه . وأطلق ابن حوقل على هذه القرى اسم سهده وتفسيرها ثلاث قرى . وذكر ناصر خسرو انه كان فى هذا الموضع فى المئة الخامسة (الحادية عشرة) من عشر الى اثنتى عشرة قرية . وكان فى پياده أيضا حصن صغير فيه بذرقة الامير گيلكى لحماية مسالك المفازة . وكان فى هذه الواحة نخيل وزروع ومواش كثيرة . وقال ابن حوقل كانت هذه القرى الثلاث فى رأى العين قريبة بعضها من بعضها . وكان فيها فى المئة الرابعة (العاشرة) نحو ألف رجل . ولم يزد من جاء بعده من المصنفين شيئا على ما ذكر . وكل من كتب عنها حتى زمن المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) يطابق قول ابن حوقل ، وكلهم ناقل عنه .

أما نابند ، الواحة الثانية ، فما زالت تعرف بهذا الاسم . وهى فى الطرف الشمالى من جزء المفازة الضيق بين راور فى كرمان وخور فى قوهستان . قال ابن حوقل فى نابند انها « رباط فيه مقدار عشرين مسكنا وفيه ماء يجرى ، عليه رحى صغيرة ، ولهم نخل ، ولهم زرع على ماء عين . وقبل نابند بفرسخين عين ماء

(٣) ابن حوقل ٢٨٧ و ٢٨٨ ؛ المقدسى ٤٨٨ و ٤٨٩ ؛ ناصر خسرو ٩٣ ـ ٩٤ (=١٠٣ ـ ١٠٤ من الترجمة العربية) ؛ ياقوت ٤ : ١٤٧ .

وعندها نخيلات وقباب ، وليس بها أحد ، وهى ملجأ للصوص » •

أما الواحة الثالثة فالى الجنوب أيضا ، فى أضيق قسم من المفازة وهى مرحلة فى نصف الطريق بين نرماسير فى كرمان وزرنج قصبة سجستان • وفى هذا الموضع واد صغير فيه عيون ، يسميه الفرس اليوم بنصرت أباد ، ولكن ما زال البلوج يعرفونه باسم اسپى أو اسفى وهذا الاسم يطابق قراءة الاسم « اسبيذ » لهذه الواحة فى المقدسى الذى سماها أيضا سنيج أو سنبگ ، وعدّها من مدن سجستان • أما ابن حوقل فقد جعلها من أعمال كرمان • ولم يكن فى المفازة ، على ما بينا ، مدينة غيرها بحسب قول البلدانيين العرب • وقال فيها المقدسى : « عامرة آهلة ، بها مزارع كثيرة وفنى ، غير انها كانت فى حدود المفازة »[٤] •

وتبسط بلدانيو المئة الرابعة (العاشرة) فى صفة طرق المفازة • فمن غربيها كان يخرج ، من اصفهان ومن نايين ، طريقان يجتمعان فى الجرمق : أولهما (وقد وصفه المقدسى) ثمانى مراحل • ومن نايين الى الجرمق خمس مراحل • وبين كل بضعة فراسخ منه حياض للماء وقباب •

والمقدسى مرجعنا فى وصف الطريق من الجرمق المتجه شمالا الى الدامغان فى قومس رأسا وطوله تسعون فرسخا • خمسون فرسخا الى موضع يقال له ونده ، ثم أربعون فرسخا الى الدامغان • ومن الجرمق يشرّق ، وبعد مسيرة أربعة أيام يبلغ موضعا يقال له • نوخانى أو نوجاى • وبين كل ثلاثة أو أربعة فراسخ منه قباب للماء • ويتفرع الطريق فى نوجاى الى فرعين : يتجه أحدهما نحو الشمال الشرقى الى ترشيز ، والآخر نحو الجنوب الشرقى الى طبس • وكلا الموضعين فى اقليم قوهستان • والمسافة من نوجاى الى ترشيز أربع مراحل • تتوسطها بن أفريدون (وتعرف اليوم باسم ده‌نابند ولا يلتبس هذا الموضع بواحة نابند ، وقد مرّ ذكرها الآن) • وذكر المقدسى أيضا طريقا يقطع المفازة من الجرمق الى

---

(٤) ابن حوقل ٢٨٩ و ٢٩٣ ؛ المقدسى ٤٨٨ و ٤٩٤ و ٤٩٥ ؛ ناصر خسرو ٩٣ و ٩٤ (=١٠٣ ـ ١٠٤ من الترجمة العربية) ؛ المستوفى ١٨٣ ؛ يالوت ٣ : ١٧٠ •

وواحة يابانك (ويقال لها جندق أو خور) قد ذكرها تافرنيه فى المئة السابعة عشرة للميلاد • (الرحلات ١ : ٧٦٩ ' لاهاى ١٧١٨ م) • وزارها الكولونيل ماك كريكور (Macgregor) فى سنة ١٨٧٥ انظر : Khorasan ١ : ٩١ • ثم زار الميجر سايكس نابند واسفى أى نصرت اباد (انظر Persia ص ٣٦ و ٤١٦ •

بن أفريدون هذه في سبعة أيام ، في كل مرحلة منه حوض • ومن نوجاى يتجه الطريق نحو الجنوب الشرقى فيبلغ طبس بعد مسيرة ثلاث مراحل • وذكر ابن خرداذبه المسافات بين طبس وترشيز عن طريق بن بالفراسخ • أما في غير هذا الطريق ، فان طرق المفازة قد وردت بذكر مرحلة اليوم فقط(٥) •

والطريق من يزد الى طبس رأسا ، كان يمرّ بأنجيرة وخَزانة فيبلغ ساغند وهي في شفير المفازة • وقد مرّ ذكر هذه المواضع في اقليم فارس (أنظر ص ٣٢٢) • من ساغند الى طبس ذكر ابن خرداذبه المراحل الست التي فيه بالفراسخ • وقد نقل ابن حوقل والمقدسي وصفه لهذا الطريق ، ولكنهما ذكراه بالايام واتبعا طريقا يخالفه بعض الشيء • وكان على مرحلتين من ساغند حصن يقال له رباط آب شُتران (أي رباط نهر الجمل) • وكان الماء يأتي من قناة ويصب الى بركة • وقد وصف المقدسي هذا الرباط بقوله « ما رأيت أحسن منه ، من الحجارة والجص ، عليه أبواب حديد ، وفيه قوم يحفظونه » • بناه ناصر الدولة ابن سيمجور وهو من قادة بني بويه المشهورين • وكان والي هذه الجهات في أواسط المئة الرابعة (العاشرة) •

وبعد هذا الحصن بثلاث مراحل ، تنتهي المفازة • وعندها بجانب الطريق طبس ، على ما ذكر ابن حوقل (معيدا قول الاصطخري) ، ويسير سيرا متصلا من المحطة التي في جنوب هذه المدينة بمرحلة ، الى المحطة التي في شمالها بمرحلة في الطريق الذاهب الى بن(٦) •

والطريق الآخر الذي يقطع المفازة ، يبدأ من قرية يزة في ناحية يقال لها شور ، أي الماء المالح ، وكانت عند حدّ كرمان قرب كوهبنان • والطريق من هذا الموضع الى كُري تسع أو ثمان مراحل — في كل مرحلة منها حوض ماء — وكري قرية عند حد المفازة في قوهستان ، تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقي طبس • وذكر الاصطخري عن هذا الطريق ، وقد كان يعرف بطريق شور ، ان

---

(٥) الاصطخري ٢٣١ ، ابن حوقل ٢٩١ ؛ ابن خرداذبه ٥٢ ؛ المقدسي ٤٩١ •

(٦) ابن خرداذبه ٣١ ؛ الاصطخري ٢٣٦ ، ابن حوقل ٢٣٥ ؛ المقدسي ٤٩١ و ٤٩٣ •

على نحو فرسخين من شماله « حجارة في صور الفواكه (لا ريب في انها من المتحجرات) من اللوز والتفاح ونحوه ، وفيها صور تقارب الناس والأشجار وغير ذلك » . وذكر المقدسي انه الى الطريق المار الذكر ، طريق آخر يتجه رأسا من كوه بنان الى كري طوله ستون فرسخا ، وعند كل ثاني مرحلة حياض للماء .

وراور[٧] ، وقد جاء ذكرها في الفصل الحادي والعشرين ، على بضعة فراسخ من شرق كوه‌بنان في حد كرمان . وكان يتجه من هذا الموضع طريق فيه خمس مراحل الى نابند وهي الواحة المارة الذكر ، ومنها طريق فيه ثلاث مراحل الى خور في قوهستان . وكان بين كل ثلاثة أو أربعة فراسخ من هذا الطريق ، حياض الماء المألوفة . أما مدينة خبيص ، وهي على ثلاث مراحل من ماهان ، في حد كرمان ، فقد كانت ، على ما ذكرنا ضمن حدود المفازة تقريبا (راجع ص ٣٤٦) . وكـان يخرج منهـا طريق ينتهي الى خوست (خوسف الحالية) في قوهستان ، ويقطع في عشر مراحل . وكان حد قوهستان يقع على مرحلتين قبل بلوغ خوست عند قرية كوكور وهي في منتهى المفازة . وهذا الطريق ، عند مكان يقال له قبر الخارجي ، « حصى صغار بعضه في لون الكافور بياضا ، وبعضه أخضر في لون الزجاج » . وفي موضع آخر يبعد عن الطريق نحو اربعة فراسخ « حجارة صغار سود » مظهرها يسترعي النظر[٨] .

والطريق الاخير من نرماسير في كرمان الى زرنج قصبة سـيستان ، يقطـع الجزء الضيق من المفازة مارا بواحة سنيج أو اسبي ، وقد مرّ وصفها . وكانت المرحلة الاولى في هذا الطريق الى فهرج وهي في حد المفازة ، وبعد أربع مراحل ينتهي الى سنيج . وقد ذكر ابن خرداذبه المسافة بين مرحلة ومرحلة من هذا الطريق بالفراسخ . أما الاصطخري فقد ذكره بالايام . وذكر أيضا طريقا ثانيا ينتهي الى سنيج سماه الطريق الجديد . الا انه أطول مسافة . ومن سنيج الى زرنج سبعة أو ثمانية أيام . وكان هذا الطريق يجتاز حد سـيستان في گاونيشك ،

(٧) وجاءت في الاصطخري (ص ٢٣٣) وابن حوقل (ص ٤٠٦) من الطبعة الثانية والمقدسي (ص ٤٩٢ و ٤٩٣) بصورة زاور . (م) .

(٨) الاصطخري ٢٣٢ و ٢٣٣ و ٢٣٤ ؛ ابن حوقل ٢٩٢ و ٢٩٣ و ٢٩٤ ؛ المقدسي ٤٩١ و ٤٩٢ .

وهى لاتبعد عن كُندر الموضع الذى ما زال يرى فى الخارطة . وكان بين گاونيشك وكندر ، على ثلاث أو أربع مراحل جنوب زرنج ، رباط بناه عمرو الصفار فى المئة الثالثة (التاسعة) كان يعرف ، على ما ذكر الاصطخرى ، بقنطرة كرمان ، فقد قال « ليس هناك قنطرة ولكن تسمى كذلك » . ولهذا الموضع شأن خاص ، اذ ان بحيرة زره كانت تمتد جنوبا فى العصور الوسطى حتى هذا الموضع ، على ما سنبينه فى الفصل القادم[٩] .

اقليم مكران

ليست جبال ساحل مكران القاحلة فى مظهرها الطبيعى العام ، الا امتدادا للمفازة الكبرى . ومع ان بلاد مكران كانت فى القرون الوسطى أوفر خصبا وأكثر أهلا عما هى عليه اليوم ، على ما يظهر ، فان هذا الاقليم لم يكن قط غنيا أو ذا شأن سياسى . وأهم ما فى مكران قصب السكر وصنف من السكر الابيض عرفه العرب بالفانيذ (من پانيد الفارسية) وكان يحمل منه الى البلدان المجاورة[١٠] .

وسرد البلدانيون الأوائل أسماء كثير من المدن فى مكران ، ولكنهم لم يتبسطوا فى وصفها . كان أجل مركز تجارى فيه ، فرضة التيز على ساحل خليج فارس . وكانت قصبة الاقليم فنّزبور أو بنجبور وهى فى داخل البلاد فى موضع يعرف اليوم باسم پنجگور . وكان لبنجبور فى المئة الرابعة (العاشرة) على ما ذكر المقدسى ، حصن من طين حوله خندق ، وهى بين النخيل ، لها بابان ، باب التيز فى الجنوب الغربى يفضى الى الطريق الذاهب الى فرضة الخليج — وباب طوران — فى الشمال الشرقى كان يفضى الى الطريق الذاهب الى ناحية طوران ،

---

(٩) ابن خرداذبه ٤٩ و ٥٠ ؛ الاصطخرى ٢٣٧ و ٢٥١ و ٢٥٢ ؛ ابن حوقل ٢٩٦ و ٣٠٦ و ٣٠٧ ؛ المقدسى ٤٩٢ . سر ف . كولدسمد Sir F. Goldsmid فى Eastern Persia ١ : ٢٥٦ .

(١٠) ابن حوقل ٢٦٦ و ٢٣٢ و ٢٣٣ ؛ المقدسى ٤٧٥ و ٤٧٦ ؛ ياقوت ٤ : ٦١٤ .

وقد توفر على البحث فى مواضع مدن العصور المتوسطة فى مكران ، سر ت . هـ . هولدج Sir T. H. Holdich فى Geographical Journal لسنة ١٨٩٦ ص ٣٨٧ . والمعلومات التى لدينا الآن ليست بأحسن مما توصل اليه .

وكانت قصبتها قصدار (أو قزادار) ، وشربهم من نهر والجامع وسط الاسواق • وعلى رأى المقدسى ، ان أهل الاقليم « قوم غنم ، ليس معهم من الاسلام الا اسم ، لسانهم بلوصي" »[١١] •

وبقايا فرضة التيز العظيمة ، تقوم فى رأس ما كان فى العصور الوسطى ميناء حسنا تدخله السفن الصغيرة • قال المقدسى فى التيز : « كثيرة النخيل ، بها رباطات فاضلة وجامع حسن ، وهم قوم متوسطون ، غير انها فرضة مشهورة » • وفى المئة السادسة (الثانية عشرة) استحوذت هذه الفرضة على تجارة هرمز التى آلت الى الخراب وصارت أطلالا[١٢] •

أما مدن مكران الاخرى ، فالبلدانيون العرب ، لم يذكروا غير أسمائها دون أى وصف لها • فاسما المدينتين المشهورتين بمپور وفهرج المجاورة لها ، جاءا فى المقدسى بصورة بربور (بدلا من بنبور) وفهل فهرة • وذكر ياقوت الاسم الاخير بصورة بهره[١٣] • أما مدينة قصرقند ، فى شمال التيز ، فما زالت موضعا ذا شأن • وكج" ، وهى على مسافة قليلة فى شرق قصرقند ، جاء اسمها بصورة كيج وكيز ، وورد أيضا اسم جالك ودزك • أما خواش ، أو خواص ، ويحتمل انها كوشت الحالية ، فانها الى شرق خواش فى ناحية السرهد (وقد مر" ذكرها فى صفحة ٣٥٥) • وكانت راسك فى العصور الوسطى مدينة ذات شأن لخصب ناحيتها المعروفة بالخروج • على انه لا يمكننا من وصف المسالك مطابقتها بالبلدة الحالية التى بهذا الاسم • وكانت أرمابيل وقملى ، مدينتين جليلتين على الساحل

---

(١١) وما منزبور ، وفنجبور ، الواردة فى بعض المطبوعات ، الا من وهم النساخ جاء بوضع نقطتين فوق أول حرف من فنزبور •

الاصطخرى ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٧ ؛ ابن حوقل ٢٢٦ و ٢٣٢ ؛ المقدسى ٤٧٨ • وقد اطلق على هذه المدينة اسم بنج كور « اى القبور الخمسة » نسبة الى خمسة من المقاتلين العرب الذين استشهدوا فيها اثناء الفتح العربى الاول • وهى على مرحلة واحدة من عرب ملحة بافة ، وتسمى الناحية المحيطة بها باسم بنج كور ايضا • انظر Sykes فى Persia ص ٢٣٤ •

(١٢) المقدسى ٤٧٨ ؛ ياقوت ١ : ٩٠٧ • وللاطلاع على ما هى عليه الآن خرائب تيز ، راجع : Sykes فى Persia ص ١٠١ و ١١٠ • وكذلك Schindler فى JRAS لسنة ١٨٩٨ ص ٤٥ • وانظر ايضا : تاريخ افضل كرمانى ، طبعة هوتسما فى .ZDMG لسنة ١٨٨١ ص ٣٩٤ و ٤٠٢ •

(١٣) تقوم فهرج على بضعة اميال من شرق بنبور فى مكران • ولا يلتبس اسمها بمدينة فهرج التى على بضعة اميال من شرق نرماسير فى كرمان • وهناك فهرج ثالثة قرب يزد •

أو بالقرب منه فى نحو نصف الطريق بين النبز والديبل عند فم نهر مهران (الاندس) • وقال الاصطخرى فى هاتين المدينتين « مدينتان كبيرتان ، وبينهما مقدار منزلتين • وبين أرمابيل والبحر مقدار نصف فرسخ » • وكان أهلهما من أغنياء التجار ، أكثر تجاراتهم مع الهند[١٤] •

وكتابنا هذا لم نرم فيه الى البحث عن الهند فى العصور الوسطى • بل ان البلدانيين العرب أنفسهم لم يعنوا بوصف هذه البلاد وصفا كاملا شاملا • فهم لم يعرفوا من الموانىء الهندية ، فيما يلى الطرف الشرقى لخليج فارس ، أكثر من معرفتهم فرضة الديبل • فقد كانت حينذاك ميناء حسنا عند أكبر فم لنهر الاندس (Indus) ، والديبل فى اقليم السند ، وكانت قصبته المصورة ، واسمها بالهندية برهمناباذ ، وكانت مدينة عظيمة على فرع من فروع نهر الاندس الاسفل • وكان العرب يسمون نهر اندس نهر مهران • وذكروا كثيرا من المدن التى على ضفافه ، أهمها المُلْتان وهى المدينة العظيمة التى فى أعلى رافد من روافد السند وهو السندرود ، وكان فيها بيت صنم (بذ) مشهور • والاصطخرى الذى شبه نهر مهران بالنيل فى الكبر والنفع ، قال ان فيه تماسيح مثل تماسيح نيل مصر ، وقال « ان مخرجه من ظهر جبل (فى الشمال يخرج منه بعض أنهار جيحون) • وعرف العرب أهل اقليم السند بالزطّ ، واسمهم بالفارسية جت • والمقول اليوم انهم أسلاف النور أو الغجر »[١٥] •

---

(١٤) الاصطخرى ١٧٠ و ١٧١ و ١٧٧ و ١٧٨ ؛ ابن حوقل ٢٢٦ و ٢٣٢ ؛ المقدسى ٤٧٥ و ٤٧٦ ؛ ياقوت ١ : ٧٦٩ ؛ ٤ ، ٣٣٢ •

ويكثر وهم النساخ فى كتابة ارمائيل بدلا من ارمابيل • ولعل أطلال ارمابيل فى لس بلا (Lus Bela) • وأطلال قنبل فى خيروكوت (Khayrokot) انظر سر تى • هولدچ فى JRGS. لسنة ١٨٩٦ ص ٤٠٠ •

ومما ينبغى ذكره ، ان البلدانيين العرب القدماء لم يعرفوا الا شيئا قليلا عن مكران ، ولم يزد عليهم من جاء بعدهم ما يستحق الذكر • فقد أعاد ياقوت قول من سبقه من بلدانيى المئة الرابعة (العاشرة) لا غير • وغاية ما أفادنا به القزوينى (٢ : ١٨١) عن هذا الاقليم ذكره القنطرة العجيبة فيه . قال : « ان بأرض مكران نهرا عليه قنطرة من الحجر ، قطعة واحدة ، من عبر عليها يتقيأ جميع ما فى بطنه بحيث لا يبقى فيها شىء ولو كانوا ألوفا ، هذا حالهم • فمن أراد من الناس القىء عبر على تلك القنطرة » •

(١٥) الاصطخرى ١٧١ و ١٧٢ و ١٧٣ و ١٧٥ و ١٨٠ ؛ ابن حوقل ٢٢٦ و ٢٢٧ و ٢٢٨ و ٢٣٠ و ٢٣٤ و ٢٣٥ ؛ المقدسى ٤٧٦ و ٤٧٩ و ٤٨٢ و ٤٨٣ •

ترى أطلال ميناء الديبل اليوم فى داخل البلاد على نحو عشرين ميلا جنوب غربى تتا (Thatta)

وقد وصف البلدانيون العرب ، كورتين عند حدود مكران الشمالية الشرقية مصاقبتين لحد الهند ، هما طوران وقصبتها قصدار ، والبُدّهة الى الشمال منهـا وقصبتها قندابيل • وجاء اسم قصدار بصورة القزدار أيضا ، فقد ورد ذكرها بهذه الصورة فى فتوحات السلطان محمود الغزنوي الاولى • قال فيها ابن حوقل انها على واد ، وفى وسط الوادى حصن • « وهى ناحية خصبة ، وبها أعناب وفواكه الصرود ورمان حسن » • وزاد المقدسى عليه انها « ذات جانبين ، بينهما واد يابس بلا جسور ، فى أحدهما دار السلطان فيه قلعة ، ويسمى الجانب الاخر بودين وفيه دور التجار والمطارح ، واليها يقصد نفر خراسان » • وزاد المقدسى على ذلك ان بنيانها من طين وشربها من قنى ، « الا أن ماءها ردىء » قليل •

أما طوران ، وهو اسم ناحية قصدار ، فغالبا ما كانت تضم اليها ما فى شمالها من أرض الناحية المعروفة بالـ « بدهة » وقصبتها قندابيل • والمتحقق انها قندوه الحالية وهى فى جنوب سيبى وشرق كلات • قال ابن حوقل فى قندابيل « مدينة كبيرة ، وليس بها نخيل ، وهى فى برية مفردة بذاتها » • ومن أعمالها مدينة كيزكانان أو كيكان • ويمكن القول استنادا الى وصف موضعهـا فى المسالك انها كلات الحديثة • وهاتان المدينتان كثيرا ما تعـدان من أعمال طوران • وجاء ذكر أسماء غيرهما أيضا بما لا يمكن التحقق منها الآن لضآلة أخبارها ولشـدة اختلاف المخطوطات فى تهجئتها[١٦] • والى شـمال هاتين الناحيتين : بالس أو والشتان ومدينتا سيبى ومستنج • الا ان البلدانيين القدماء عدّوها من أعمال سجستان • وعليه سنشير اليها فى الفصل القادم •

وعلى ٤٥ ميلا شرق الجنوب الشرقى لكراتشى • أما المنصورة فهى على فرع قديم من فروع دلتا الاندس ، على نحو من ارسين ميلا شمال شرقى حيدر اباد • والسند ليس بطبيعة الحال الا التسمية الفارسية القديمة للهند ، ولكن استعمال العرب لها كان مبهما ، ارادوا به الدلالة على الاقليم العظيم الذى فى شرق مكران وبعضه اليوم يقال له بلوجستان ، وبعضه الآخر بلاد السند الحالية أما السند روذ فهو نهر السند •

قلنا: لقد وقفت دائرة آثار الحكومة الباكستانية إلى الوقوف على بقايا الديبل. انظر مجلة «سومر» (٧[١٩٥١] ص ١١٤).(م).

(١٦) ابن خرداذبه ٥٦ ؛ الاصطخرى ١٧١ و ١٧٦ و ١٧٨ ؛ ابن حوقل ٢٢٦ و ٢٣٢ و ٢٣٣ ؛ المقدسى ٤٧٦ و ٤٧٨ •

أما طرق مكران ، فانها استمرار لطرق المفازة الكبرى التى سبق وصفها وهى تنتهى فى بلاد الهند • على ان مما يؤسف عليه ، ان هذه الطرق قد ذكرت بايجاز ولم يتعد وصفها ، على ما هو مألوف ، ذكر الايام التى بين بلدة وأخرى ، ولا يوثق بما قيل عن المسافات التى بينها • ومع ذلك، فان ابن خرداذبه قد أفاض فى القول فى أحد هذه الطرق فذكره بالفراسخ ووصفه مرحلة مرحلة وان كان يستحيل علينا اليوم تعيين خطه الحقيقى فى المفازة • يبدأ هذا الطريق من الفهرج عند شفير المفازة فى شرق بم ونرماسير فى كرمان • وذكر ابن خرداذبه مراحله الاربع عشرة الى فنّزبور قصبة مكران ، ومنها يتجه شرقا الى قصدار ، أشار فيه الى أسماء ثلاث محطات • وذكر المقدسى طريقا موازيا له تقريبا ، واصفا اياه بالاتجاه المعاكس وهو من قصدار الى تّجي أو نهر سليمان ، وهى على عشرين فرسخا شرق بم ، الا ان هذا الطريق يكون مسيره شمال فنزبور ويمر بجالك وخواص[17] •

ومن فرضة التيز الى كيز خمس مراحل ، ثم مرحلتان الى فنزبور وكان ينتهى الى هذه المدينة طريق آخر من قصر قند ولكنه لا يأتيها رأسا • ومن كيز ومن قصر قند الى أرمابيل ست مراحل على ما انتهى الينا ، ثم مرحلتان الى قمبلى ومنها أربع مراحل الى الديبل فى فم الاندس[18] •

والمعروف انه كان من فنزبور الى الديبل أربع عشرة مرحلة • وجاءت المسافات من قصدار الى قندابيل والى كيزكانان (كلات) بأرقام تقريبية ، وكذلك من هذين الموضعين الى سيبى وّمستنج فى والشتان • وتختتم كتب المسالك وصفها بسرد موجز لعدد الايام التى يتطلبها الوصول الى الملتان والمنصورة ، المدينتين اللتين على نهر مهران من قصدار ومن قندابيل ومن حدود والشتان مما يلى سيبى[19] •

---

(١٧) ابن خرداذبه ٥٥ ؛ المقدسى ٤٨٦ •
(١٨) الاصطخرى ١٧٨ ؛ ابن حوقل ٢٣٢ ؛ المقدسى ٤٨٥ •
(١٩) الاصطخرى ١٧٩ ؛ ابن حوقل ٢٣٣ و ٢٣٤ ؛ المقدسى ٤٨٦ •

الفصل الرابع والعشرون

سجستان

سجستان اى نيمروز وزابلستان ـ زرنج وهى القاعدة ـ بحيرة زره ـ نهر هيلمند والانهار الآخذة منه ـ العاصمة العتيقة للاقليم وهى رام شهرستان ـ نه ـ فره ونهر فره ـ نهر خاش ورستاق نيشك ـ قرنين ومدن اخرى ـ روذ بار وبست ـ رساتيق زميناور ـ رخج وبالس اى والشتان ـ قندهار ـ غزنة وكابل ـ معدن الفضه ـ المسالك فى سجستان .

سيستان ـ وسمتها المراجع العربية القديمة سجستان ، من الاسم الفارسى سكستان (Sagistan) ـ هى البلاد السهلية حول بحيرة زره وفى شرقها ، ويدخل فيها دلتا نهر هيلمند وغيره من الانهار التى تصب فى هذا البحر الداخل [أى بحيرة زره] ، وكانت مرتفعات رستاق قندهار ، وهى بامتداد أعالى هيلمند ، تعرف بزابلستان . وسيستان يقال لها بالفارسية نيمروز أيضا ، ومعناه نصف يوم أو الارض الجنوبية . ويقال ان هذا الاقليم انما سمى بذلك ، لوقوعه فى جنوب خراسان . وقال الاصطخرى ، ان سجستان « خصبة كثيرة الطعام والتمور والاعناب ... ويرتفع منها غلة عظيمة من الحلتيت[1] ، حتى انه قد غلب على

---

(١) جاء فى تاج العروس (مادة : حلت ١ : ٥٢٨) : « قال ابن سيده . الحلتيت عربى او معرب . قال : ولم يلقنى انه ينبت ببلاد العرب ولكن ينبت بين بست وبلاد القيقان . قال : وهو نبات

طعامهم ويجعلونه فى عامة أطعمتهم »[٢] .

ولا يغرب عن البال ، ان بحيرة زره كانت فى القرون الوسطى أوسع رقعة مما صارت اليه فى أيامنا . وكان يقع فى البحيرة غير نهر هيلمند ، وهو نهر عظيم ذو روافد كثيرة ، ثلاثة أنهار أخرى كبيرة ، هى نهر خواش ونهر فره والنهر الآتى من أنحاء أسفزار (وهى سبزوار هراة) ويقال له اليوم هارود . وفى الاساطير الفارسية ، ان سيستان وزابلستان اشتهرتا بكونهما موطن زال أبى البطل القومى « رستم » الذى ما زال يتحدث الناس بأعماله ومآثره[٣]. وفى صدر أيام الدولة العباسية ، اشتهرت سيستان أيضا ، بأن فيها نشأ أمراء بنى الصفار الذين حكموا فى النصف الثانى من المئة الثالثة (التاسعة) معظم بلاد ايران الجنوبية والشرقية ، وقد كانوا أمراء مستقلين .

وكانت قاعدة الاقليم فى العصور الوسطى ، مدينة زَرَنْج العظيمة ، وقد خرّبها تيمور وما زالت أطلالها تنتشر فى رقعة واسعة من الارض . على ان اسم زرنج قد خفى اليوم ، بل ان استعماله بطل منذ أواخر العصور الوسطى ، ولم يكن البلدانيون العرب المتأخرون يعرفونها الا بمدينة سجستان . ويقابلها بالفارسية شهر سيستان . وكان ذلك اسمها حين خرّبها تيمور أخيرا ولم يبق منها حجرا على حجر[٤] . وكانت زرنج فى أيام الملوك الساسانيين مدينة عظيمة ،

يسلطح ثم يخرج من وسطه قصبة تسمو فى راسها كمرة . قال : والحلتيت أيضا صمغ يخرج فى أصول ورق تلك القصبة . قال . وأهل تلك البلاد يطبخون بقلة الحلتيت ويأكلونها ، وليست مما يبقى على الشتاء » . (م) .

(٢) الاصطخرى ٢٤٠ ؛ ابن حوقل ٣٠١ .

(٣) قال ياقوت (معجم البلدان ٢ : ٩٠٤) : زابلستان ، منسوبة الى جد رستم بن دستان . (م) .

(٤) ترى خرائب زرنج حول القريتين الحديثتين : زاهدان وشهرستان ، بامتداد عقيق أكبر نهر آخذ من هيلمند . وقد جف ماؤه فى القرون الوسطى . وللاطلاع على حال هذه الخرائب اليوم وغيرها من المواضع الخربة ، راجع السر هنرى رولنصن (Sir H. Rawlinson) فى JRGS لسنة ١٨٧٣، ص ٢٨٠ و ٢٨٣ و ٢٨٤ . والسر ف . كولد سمد (Sir F. Goldsmid) كتاب Eastern Persia (١ : ٣٠١) . وسايكس (Sykes) فى Persia (ص ٣٧٥ و ٣٨٢ و ٣٨٣) . ونشر سائح للسر (A.H. Savage Landor) مخططا لأهم اطلالها فى كتاب Across Coveted Lands ٢ . ٢٢٨ .

وما زال يرى بالقرب من زاهدان ، بقايا برج علوه نحو من ثمانين قدما ، يسمى ميل زاهدان ،

وجاء ذكرها غير مرة فى أخبار الفتوحات الاسلامية الاولى ، سنة ٢٠ (٦٤١) • وكانت تقوم بالقرب من نهر سناروذ وهو من الانهار الكبيرة الآخذة من هيلمند نحو الغرب ، وتصل مياهه فى أيام الفيضان الى بحيرة زره •

وذكر اليعقوبى فى المئة الثالثة (التاسعة) ان محيط زرنج اربعة فراسخ • وانتهى الينا من ابن حوقل فى المئة التالية لها ، وصف مفصل لهذه المدينة ، قال : « هى مدينة عليها حصن ، ولها خمسة أبواب • ولها ربض واسع ، وعليه سور وحصن دائر بالربض ، وخندق على الربض حصين ، وفيه ماء ، وماؤه ينبع من مكانه ويقع فيه فضل من المياه الجارية اليها • وللربض ثلاثة عشر بابا » • والابواب الخمسة للمدينة الداخلة كلها حديد • اثنان متجاوران يفضيان الى الجنوب الشرقى يخرج منهما الى فارس، يعرفان ببابى فارس ، ويسمى أحدهما الباب الجديد والآخر الباب العتيق وباب يفضى الى الشمال ، يخرج منه الى خراسان ، هو باب كركويه نسبة الى مدينة كركويه القريبة منها • وكان باب نيشك فى الطريق الشرقى يخرج منه الى بست • ويعرف الباب الخامس بباب الطعام ، وهو أعمر أبوابها ، يفضى الى الطريق الذاهب جنوبا الذى يخترق الاسواق والبساتين فى ظاهر زرنج •

والمسجد الجامع كان فى الربض قرب البابين اللذين فى الجنوب الغربى على طريق فارس • والحبس عند الجامع • وهناك أيضا دار الامارة • وبين باب نيشك وباب كركويه فى الشمال الشرقى من المدينة ، أبنية عظيمة تسمى أرك أى قلعة ، وفيها كانت الخزانة • بناها عمرو بن الليث الصفّار ، ثانى أمراء الدولة الصفارية • وكان أخوه الامير يعقوب ، مؤسس هذه الدولة ، قد بنى له قصرا صار دار الامارة الجديدة وهى فى هذا الجزء من المدينة الداخلة بين البابين اللذين فى الجنوب الغربى وباب الطعام • وبالقرب منها قصر عمرو أيضا • وكانت هذه الابنية ، كسائر أبنية المدينة ، « من طين ، آزاج معقودة ، لان الخشب بها يتسوس ولا

وله درج لولبية ، وفيه كتابتان بالكوفية يمكن قراءة شيء منهما • ويرى ان هذا البرج قد خربه تيمورلنك • انظر : تيت (G. P. Tate) فى .JRAS لسنة ١٩٠٤ ص ١٧١ •

وتقوم نصرت اباد ، قاعدة سيستان الحالية ، على بضعة أميال جنوب هذه الخرائب • وكانت تعرف أولا باسم ناصر اباد ، الا ان هذا الاسم قد بطل اليوم • وعلى ما ذكر المستر سايكس لندن ، تعرف اليوم بشهر نصرية أيضا •

بثبت » لرطوبة جوها وانتشار الارضة فيها . وفي المدينة الداخلة وربضها ، كثير من الفنادق . وفي الربض دور الامارة . وأسواق المدينة الداخلة حوالى المسجد الجامع . وأسواق الربض أسواق عامرة أيضا ، منها سوق يسمى سوق عمرو ، بناه ثانى الامراء الصفاريين . « وغلة هذا السوق في كل يوم نحو ألف درهم (٤٠ باونا) ووقفه على المسجد الجامع والبيمارستان والمسجد الحرام » .

والسوق في الربض متصل غير منقطع نحو نصف فرسخ ، ممتد من باب فارس في السور الداخل ، الى باب فارس في سور الربض . وكانت المياه وافرة في انحاء زرنج ، تجرى اليها في أنهار صغيرة وقنى متصلة تأخذ من نهر سناروذ وتدخل الى المدينة الداخلة من ثلاثة مواضع : من الباب العتيق ، ومن الباب الجديد ، ومن باب الطعام . « ومقدار هذه الانهار ، اذا اجتمعت ، ما يدير الرحى . وعند المسجد الجامع حوضان عظيمان يدخلهما الماء الجارى ويخرج ويتفرق في بيوت أهل البلد .» وبيوت الربض تجرى اليها المياه فى قنى أيضا ولا غنىً عن هذه المياه لشدة حر المدينة . وفي كل بيت سرداب يعيش فيه الناس في فصل القيظ لاشتداد الحرارة في زرنج . وأرض المدينة سبخة ورمال ، بها نخيل « وتشتد رياحهم وتدوم ، وتنقل رمالهم من مكان الى مكان . ولولا انهم يحتالون فيها بسياسات ، لطمّت القرى والمدن بها ، وذلك ان جميع البلد رمل » . ولدوام رياحهم « نصبوا عليها أرحية لطحن قموحهم ، يديرونها بالريح » . وهو أمر اختصت به هذه البلاد . وكانت « الرمال المتحركة » مبعث خطر وضرر دائم لأهل المدينة . ولابن حوقل حديث طويل بلغه في سنة ٣٦٠ (٩٧٠) ، ذكر فيه كيف ان الرياح قبل ذلك بسنة « أكبت بالرمل على الجامع » .

هذا ما كان من حال زرنج في المئة الرابعة (العاشرة) . وقد ردّد المقدسى هذا الوصف أيضا . فأشار الى غنى أهلها والى انهم ذوو عقل وعلم ، ونوه بقلعتها الحصينة وبمنارتيها المشهورتين في مسجدها الجامع . بنى احداهما يعقوب بن الليث الصفار[٥] . وبقيت هذه المدينة على ازدهارها قرونا كثيرة حتى انها

(٥) قال المقدسى (أحسن التقاسيم . ص ٣٠٥) : « ... الجامع فيها ، له منارتان . القديمة وأخرى من صغر بناها يعقوب من الليث » (م) .

على ما يبدو قد نجت من التدمير فى خلال الغزو المغولى سنة ٦١٩ (١٢٢٢) ، حين بعث جنكيزخان بجموعه لتخريب سيستان . وبقيت زمنا بعد هذا التاريخ يحكمها وال مغولى . وفى النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تكلم المستوفى على زرنج (ويلفظ الفرس اسمها زرنگ) وقال انها مدينة على غاية من الازدهار ، وكان يحمى زرنج من الرمال المتحركة التى تأتيها من المفازة المجاورة لها ، « بند » عظيم يقال ان أول من بناه الملك گرشاسف فى قديم الزمان . وجدده بعد ذلك الملك بهمن بن أسفنديار . وأطرى المستوفى بساتين زرنج التى تكثر فيها الفواكه الطيبة . وكان يسقى هذه البساتين سياه رود (النهر الاسود) وهو يأخذ من أحد فروع هيلمند . على انه فى أواخر هذا القرن أى سنة ٧٨٥ (١٣٨٣) ، ظهر تيمور بجحافله أمام المدينة ، وكانت تعرف حين ذاك ، على ما بيّنا ، بشهرسيستان (أى مدينة سيستان) وما عتمت أن لاقت مصيرها المحتوم . ذلك ان تيمورلنك استولى على قلعتها وقوضّها ، وهى القلعة المعروفة بـ « حصار زره » ولعلها كانت تقوم فى شمال زرنج بالقرب من حافة البحيرة . أما سيستان العاصمة نفسها ، فقد سدت أبوابها بوجهه وامتنعت عن التسليم ، فحاصرها حصارا لم يطل أمده ، فقد استولى عليها عنوة وأعمل السيف فى رقاب أهلها ، ودك أسوارها وخرب دورها . ومنذ ذلك الحين تحولت زرنج الى خرائب لا اسم لها[٦] .

وبحيرة زَرَه ، أو زِرِه ، كانت فى القرون الوسطى على ما بيّنا ، أوسع بكثير مما هى عليه اليوم . الا ان هذه البحيرة ، كانت فى كل الازمان « يتسع الماء فيها وينقص على قدر زيادة الماء [فى الانهار] ونقصانه »[٧] . وقال ابن حوقل فى وصفها فى المئة الرابعة (العاشرة) : « طولها نحو ثلاثين فرسخا (مئة ميل) من ناحية كَرِين (أو كُرين) على طريق قوهستان الى قنطرة كرمان على

(٦) البلاذرى ٣٩٢ و ٣٩٤ ؛ اليعقوبى ٢٨١ ؛ الاصطخرى ٢٣٩ ــ ٢٤٢ ؛ ابن حوقل ٢٩٧ ــ ٢٩٩ و ٣٠١ ؛ المقدسى ٣٠٥ ؛ المستوفى ١٨٣ ؛ علي اليزدى ١ : ٣٦٢ .

(٧) وقد نشر ميجر سايكس فى كتابه Persia فى الصفحة ٣٦٤ و ٣٧٢ عددا من الخوارط البيانية ، توضح حالة دلتا هيلمند والبحيرة فى يومنا . ففى اقصى الطرف الجنوبى من حوض البحيرة العظمى ، تتصل بمجرى كبير ــ طوله نحو من خمسين ميلا ومعدل عرضه ٣٥٠ ياردة وله جروف

طريق فارس ، عند حد سجستان فى المرحلة الثالثة فى الطريق من زرنج الى نرماسير (أنظر ص ٣٦٦ أعلاه) • وعرض هذه البحيرة مقدار مرحلة (أى مسيرة يوم وهو نحو ثلاثين ميلا) وهى عذبة الماء ، وافرة القصب ، ويرتفع منها سمك كثير • و « حواليها كلها قرى سوى الوجه الذى يلى المفازة » وفى هذه القرى كان هذا السمك يجفف ويحمل الى سائر البلاد •

وأكبر الانهار التى تحمل الماء الى بحيرة زره ، هو نهر هيلمند العظيم الذى أجاد ياقوت فى وصفه « انه ينصب اليه مياه ألف نهر » • وقد ضبط اسمه بصورة هند منـد • أما هبد مند فلعله من خطأ النساخ • وكذلك هير مند (أو هيرميد) وبهذا الاسم الاخير ذكر المستوفى النهر ، كما سماه أيضا آب زره ، أى نهر زره • وما هيلمند الا الصيغة الحديثة الأكثر شيوعا • ويخرج هذا النهر الكبير فى الجبال بين غزنة وباميان ، وتؤلف هذه الجبال اليوم قسما من أفغانستان ، وقد كانت فى القرون الوسطى تعرف بناحية (أو مملكة) الغور • ويجرى هيلمند نحو الجنوب الغربى فينحدر فى الوادى العريض المعروف بزميناداور الى مدينة بست حيث يلتقى بضفته اليسرى نهر قندهار الذى يسقى بلاد رُخّج • وكانت بست أولى مدن سجستان التى يبلغها النهر • ومن هذه المدينة ينعطف هيلمند انعطافه العظيم نصف الدائرى ، باتجاهه جنوبا فغربا فشمالا حتى يبلغ زرنج ومنها يدور نحو الغرب ثانية ثم يقع فى بحيرة زره •

وتقوم فى نهر هيلمند ، على بعد مرحلة ، أى مسافة نحو ثلاثين ميلا من زرنج ، سدود أنشئت لتقسيم مياهه على أنهار الرى • وفى هذا الموضع تفرغ أعظم كمية من مائه فى أنهار خمسة كبيرة تجرى نحو زرنج والبحيرة • فأول هذه الانهار المنشقة عنه : نهر الطعام وهو أبعدها جنوبا • وكان يسقى الرساتيق خارج باب الطعام من أبواب زرنج وقد مرّ ذكره • ومن هذه الرساتيق ما ينتهى

ارتفاعها خمسون قدما ـ يقال له شلا ، ويجرى هذا النهر نحو الجنوب الشرقى فيقع فى كود زره ، أى وهدة زره وهى عقيق ثان للبحيرة الى جنوب عدوة هيلمند الاسفل • وتستقبل هذه الوهدة (كود) فى موسم الفيضان فضلة مياه البحيرة ، ومساحة كود زره نحو مئة ميل من الشرق الى الغرب وثلاثين ميلا عرضا • انظر : سايكس فى Persia ص ٣٦٥ •

الى حد نيشك ويليه نهر يقال له نهر باشتروذ . ثم نهر ثالث هو نهر سناروذ ، كان يأخذ من هيلمند على فرسخ من زرنج ، وهو النهر الذى يحمل الماء الى قاعدة الاقليم . ولهذا فقد أشار ابن حوقل الى ان فى موسم الفيضان كانت تجرى فيه السفن من بست الى زرنج . أما النهر الرابع ، فكان يسقى مقدار ثلاثين قرية ويقال له نهر شعبة . والنهر الخامس كان نهر ميلى . وكانت فضلة ماء نهر هيلمند بعد ذلك تجرى فى نهر يسمى نهر كزك ، « وقد سُكر هناك سكْر يمنع الماء ان يجرى الى بحيرة زره حتى يجىء المدّ ، فاذا جاءت أيام المدّ زال السكر ووقع فضل هذا النهر الى بحيرة زره »[٨] .

ويؤخذ من أقوال البلدانيين العرب الأولين ، أن زرنج لم تكن قاعدة سجستان فى أيام ملوك العجم القدماء ، بل كانت مدينة اسمها رام شهرستان ويقال لها أيضا أبر شهريار . وهذه المدينة كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) قد دفنتها رمال المفازة ، وأبنيتها وبعض بيوتها بقيت قائمة الى ذلك الزمن . ويقال ان موضع هذه العاصمة القديمة كان على ثلاث مراحل من زرنج ، عن يسار الذاهب من زرنج الى كرمان « اذا جزت ، (مدينة) دارك بحذاء (مدينة) راسك » وهما موضعان مجهولان . ويقال ان الفرع الكبير المنشق من هيلمند « كان يجرى عليها فى الايام الخالية فيسقى رساتيقها . ثم انقلع السكر فى هذا النهر وانبثق الماء منه ومال الى نهر آخر فانقطع عنها » ومن ثم تحول ما كان يكتنف المدينة العتيقة من رساتيق الى مفازة ، فهجرها الناس وبنوا زرنج .

وعلى مسافة يسيرة غرب بحيرة زره ، على حد قوهستان ، عند شفير المفازة العظمى ، مدينة نه أو نيه ، وقد ذكرها البلدانيون العرب الاولون بكونها من أعمال سيستان . قال فيها المقدسى « عليها حصن ، بناؤهم طين ، وشربهم أكثره من قنى ، يجرى اليها الماء من الجبال . وأشار الى نه أيضا ياقوت والمستوفى . ولم يزد الاخير شيئا الا قوله : بناها الملك أردشير بابكان . وما يشاهد اليوم من بقايا

---

(٨) الاصطخرى ٢٤٢ — ٢٤٤ ؛ ابن حوقل ٣٠٠ — ٣٠١ ؛ المقدسى ٣٢٦ ؛ ياقوت ١ ، ٥١٤ ؛ ٤ : ٢٧٢ و ٦٦٢ و ٩٩٣ ؛ المستوفى ٢١٦ و ٢٢٦ . واشار المقدسى الى البحيرة باسم بحيرة الصنط ولعل ذلك من وهم النساخ .

الحصون والخرائب الهائلة لا يدل الا على انها كانت فى القرون الوسطى موضعا جليل الشأن[٩] .

أما ما يقع من أنهار فى بحيرة زره من الشمال ، وهى الانهار المنحدرة من أسفُزار (سبزوار هراة) ويقال لها اليوم هارود ، فلم يذكرها البلدانيون العرب على ما يبدو ، الا انهم أشاروا الى نهر فره . ومخرجه فى جبال ناحية الغـور . ووادى فره هذا ، بعد ان يجتاز الجبال ، يدخل اقليم سجستان ويصل الى مدينة فره . وقد وصفها ابن حوقل بقوله هى أرض سهلة ومدينة كبيرة ، أبنيتها طين ولها رستاق يشتمل على نحو من ستين قرية ، وبها نخيل وفواكه وزروع . وزاد المقدسى على ذلك قوله « فره : ذات جانبين ، جانب للخـوارج وجانب لأهل الجماعة » . وعلى مرحلة من جنوب المدينة ، قنطرة على نهر فره يقال لها قنطرة فره (وبالفارسية پل فره) . وعندها يعبر الطريق الآتى الى زرنج من ضفة النهر اليمنى الى اليسرى . وكانت هذه القنطرة ، وعندها مدينة أيضا ، على أربع مراحل فوق جوين . وكان فى نحو نصف الطريق بين المدينتين (على ما ذكر ابن رسته) موضع يقال له كَهَن . وقرب كهن ، على بعد فرسخ من غربها ، كثيب رمل كبير ، ذو خاصية اسماع الاصوات . فان القيت على رمل هذا التل الماء أو أى شيء حتى الصغير « سمعت منه صوتا شديدا ودويا هائلا مسمعا » . وذكر البيرونى أيضا هذا الجبل العجيب ، وقد كتب فى المئة الخامسة (الحادية عشرة) . ومثل هذه الخاصيات التى فى الرمال المتنقلة تلاحظ اليوم فى كثبان المفازة بين سجستان وقوهستان . والمدينة المزدوجة الحديثة لاش - جوين ، وهى فى يومنا موضع جليل الشأن قد ذكرها المقدسى باسم كُوين (عوضا عن كوين) ، وقال فيها « كوين ، عليها حصن منيع كبير ، وليس بها منبر من أجل انهم خوارج » .

---

(٩) الاصطخرى ٢٤٢ ؛ ابن حوقل ٣٠٠ ؛ المقدسى ٣٠٦ ؛ ياقوت ٤ : ٨٧١ ؛ المستوفى ١٨٣ - لا يعلم موضع رام شهرستان بالضبط . وقد جعل سر هـ . رولنصن (JRGS لسنة ١٨٧٣ ص ٢٧٤) موضعها فى رامرود بالقرب من مخرج شلا ، حيث ترى هناك اطلال واسعة كبيرة . وقد وصف هذه الخرائب التى تسمى اليوم شهر رستم أى مدينة رستم ، ووضع لها مخططا : سفج لاندر ، فى كتابه Across coveted Lands ٢ : ٢٧٠ . ووصف ميجر سايكس خرائب تـه فى كتابه Persia (ص ٤١٣) .

أما غير المقدسي من بلدانيي القرون الوسطى ، فلم يذكروا هذا الموضع الا بكونه مرحلة في الطريق . ولم يذكروا الاسم « لاش » .

وفي نحو نصف المسافة بين جوين وزرنج ، يعبر الطريق أكبر فروع هيلمند على قنطرة . وعلى بضعة فراسخ جنوبها ، المدينة الجليلة كَرْكُوْيَه كانت هذه المدينة على مرحلة شمال زرنج ، وباسمها على ما بيّنا ، سمي باب زرنج الشمالي . وكان أهل كركويه من الخوارج على ما ذكر ياقوت . وفي كركويه بيت نار معظّم عند المجوس . وأسهب القزويني ، وقد كتب في ختام المئة السابعة (الثالثة عشرة) في صفة هذه البناية . قال « بها قبتان عظيمتان ، زعموا انهما من عهد رستم الشديد . وعلى رأس القبتين قرنان قد جعل ميل كل واحد منهما الى الآخر تشبيها بقرني الثور ، بقاؤهما من عهد رستم الى زماننا ... وتحت القبتين بيت نار للمجوس ... ونار هذا البيت لا تطفأ أبدا ، ولها خدم يتناوبون في اشعال النار ، يقعد الموسوم بالخدمة على بعد من النار عشرين ذراعا ، ويغطي فمه وأنفاسه ويأخذ بكلبتين من فضة عودا من الطرفاء نحو الشبر يقلبه في النار . وكلما همّ النار بالخبو يلقي خشبة خشبة . وهذا البيت من أعظم بيوت النار عند المجوس » . وعلى شيء يسير من كركويه ، على ثلاثة فراسخ من زرنج ، كانت مدينة كُرُنْك . وقال ياقوت ان بعضهم يسميها كُرُون وهي ما زالت الى يومنا تعرف بهذا الاسم . وزاد ياقوت على ذلك انها « بليدة نزهة كثيرة الخيرات ، وأهلها كلهم خوارج ، حاكة »(١٠) .

---

(١٠) ابن رستة ١٧٤ . ويصدد الكثبان الرملية المسماة اسراتا ، راجع البيروني : الآثار الباقية من القرون الخالية وقد نقله الى الانكليزية سخو (C. E. Sachau) ص ٢٣٥ من الترجمة (ص٢٤٦ من المتن العربي) . وللاطلاع على مثال في يومنا هذا لتل رمل يسمع اصواتا كاصوات « القيثارة الايولية » (Aeolian Harp) انظر . سر ف . كولد سمد (Eastern Persia ١ . ٣٢٧) فقد زار هذا التل العجيب في مشهد الامام زيد على خمسة أميال غرب قلعة كاه .

الاصطخري ٢٤٤ ؛ ابن حوقل ٣٠٣ و ٣٠٤ ؛ المقدسي ٣٠٦ و ٣٢٩ ؛ المستوفي ٢١٥ ؛ القزويني ٢ . ١٦٣ ؛ ياقوت ٣ : ٤٢ و ٨٨٨ ؛ ٤ : ٢٦٣ و ٢٦٩ .

أما موضع كركويه ، فيمكن البحث عنه بين الخرائب الواسعة في جنوب بيشاوران ، وعندها قنطرة قديمة ذات عقدين ، يقال لها تخت بول . انظر ايضا : سر كولد سمد في Eastern Persia (١ : ٣١٥) ويت Yate في كتابه خراسان وسيستان (ص ١١٨) .

كان الزردشتيون يسمون بيت النار المذكور أعلاه ، ميثيو كركو . (انتهت حاشية المؤلف) .

أما نهر خاش ، أو خَنّواش ، أو خُواش [١١] ، فانه يقع فى بحيرة زره بين نهر فره وهيلمند • وقد سماه ابن حوقل نهر نيشَك • ونيشك اسم الناحية العامرة فى شرق زرنج ، وبها سمى ، على ما ذكرنا ، الباب الشرقى فى العاصمة زرنج • ومخرج هذا النهر فى جبال الغور أيضا • ومدينة خواش راكبة عليه ، وهى على نحو مرحلة من زرنج • وذكر ابن حوقل ان مدينة خواش أكبر مدن هذه الناحية ، بها نخيل وأشجار • وحين كتب ياقوت ، صار اسمها يلفظ بصورة خاش ، على ما هو اليوم • وأجل مدينة فى هذه الناحية ، وان كانت

قلنا : القيثارة الايولية آلة موسيقية تتألف من صندوق مستطيل فارغ ، مربوط على وجهه أوتار ، تعزف من تلقاء نفسها بفعل الريح • وانتهى الينا من أحبار رؤساء اليهود (الربيليين) ان الملك داود كان يعلق قيثارته فوق منامه ليلا ، فاذا انتصف الليل سمع منها صوت ناعم • والمعروف ان الصينيين الى يومنا يطيرون طيارات من الورق يعلق فى خيطها آلة تعطى أصواتا موسيقية اذا لامستها الريح • ونجد مثل ذلك فى العراق لدى الصبيان الذين يطيرون طيارات ورقية ، فانهم يعلقون فى خيط الطيارة آلة خفيفة تسمى « الدبركة او السنطور » تعطى أصواتا موسيقية وهى فى الجو •

وتنسب القيثارة الايولية الى ايولس (Aeolus) وهو فى الاساطير اليونانية ، على ما ذكر هوميرس ، ابن هيبوتس (Hippotus) ضابط الريح وحاكم جزيرة ايولية العائمة • وايولية Aeolia مقاطعة يونانية قديمة فى آسية الصغرى (راجع دائرة المعارف البريطانية • مادة : Aeolian Harp من الطبعة الرابعة عشرة) •

ان الظاهرة العجيبة التى تسمى « موسيقى الرمال » ، قد سمعها الكثير من علماء الجيولوجية ورواد الصحارى والقفار • روى بعضهم ، ان نوعا من الموسيقى الصاخبة التى تشبه الى حد ما « الجاز » العنيف ، تسمع فى بعض الاحيان فى صحراء كلهارى (فى جنوبى افريقية) ، حيث يوجد « لسان » من الرمل الابيض مستقر على « شهر » من الرمل الاحمر • وقد ترتفع هذه الموسيقى حتى تشبه صوت محرك الطائرة • ويرون فى تفسير ذلك ، ان هذا « اللسان » من الرمل الابيض ، يزحف كله على الرمل الاحمر المستقر فيحدث الصوت •

وذكر غيرهم ، انهم سمعوا غير مرة فى صحراء بيرو ، أصواتا موسيقية واضحة تشبه طقطقة الاجراس النحاسية ، وقال آخرون انهم سمعوا موسيقى الرمال جلية فى بلاد الافغان ، على اربعين ميلا من مدينة كابل الى الشرق •

وفى مصر عرفت ظاهرة موسيقى الرمال أيضا • فان البدو ، فى أقصى الجنوب الغربى من صحارى مصر ، يزعمون ان هذه الموسيقى اما ان تكون أصوات الاجراس فى الكنائس والاديرة التى طمرتها الرمال ، أو انها صفير الجن وعويل الشياطين • ولو زرت « جبل الناقوس » فى وادى العربة شمال مدينة الطور بشبه جزيرة سينا ، لسمعت عجبا عجابا : رنين يبدأ خافتا ثم يعلو رويدا رويدا حتى يزعج السامع ويخيفه ، وقد فسر بعضهم سبب ذلك ان الطبقة العليا من الرمل تكون شديدة الحرارة ، فتأتى الريح لتحركها فتحدث الموسيقى • (م) •

(١١) فى هذه الارجاء ، ثلاثة مواضع بهذا الاسم أو بما يشابهه ، هى نهر ومدينة خاش الحاليين • ثم مدينة بهذا الاسم فى جبل القفص (انظر ص ٣٥٥) وأخيرا خواص مكران (انظر ص ٣٦٨) •

أصغر من خواش ، مدينة قرنين أو القرنين . وهى موطن آل الصفار يعقوب وعمرو ابني الليث الصفار المشهور . وكانت قرنين فى المفازة فى شمال غربى خواش ، على مرحلة منها فى الطريق الذاهب الى فره . وفيها ، على ما ذكر ابن خرداذبه ، « أثر مربط فرس رستم » . وتكلم المقدسى على قرنين فقال : هى صغيرة وعليها حصن ولها نهر وبها جامع ولها ربض . وأشار المستوفى اليها أيضا وقال : يكثر فى رساتيقها الخصبة القمح والفواكه .

وفى نصف الطريق بين قرنين وفره ، مدينة جزّة الصغيرة وهى نحو قرنين سعة . ذكر ابن حوقل انها تشتمل « على قرى ورساتيق ، وهى خصبة ، وماؤهم من قنى لهم ، وأبنيتهم أيضا من طين » . وذكر ياقوت ان أهلها فى أيامه كانوا يقولون لها كزه . ويقال للناحية التى تحف بنهر خواش : نيشك ، وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) كثيرة السكان ، على ما بيّنا . وحرورى ، « قرية عامرة سلطانية » وهى ما زالت قائمة على ضفة النهر أسفل خواش حيث يعبر الطريق الآتى من بست نهر خواش على قنطرة آجر . وكانت قرية سروزن المرحلة التالية لها فى طريق زرنج . وبين هاتين القريتين زانبوق ، وهى قرية عليها حصن منيع قال المقدسى انها نحو جوين سعة .

وعلى مسيرة يوم شمال زرنج ، مدينة الطاق الجليلة ، ولم تعين كتب المسالك موضعها الصحيح . قال المقدسى : « الطاق صغيرة كثيرة الاعناب واسعة الرستاق » . وذكر ابو الفداء فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، نقلا عن ابن سعيد ، وقد سماها حصن الطاق : « هو على جبل مرتفع عند التواء النهر » (أى نهر هيلمند) ، وعنده ينعطف النهر غربا بعد أن تتفرع منه الانهار الجارية الى زرنج فيقع فى بحيرة زره . وقد جاء ذكر هذا الحصن مع قلعة زره (أو حصار زره) فى جملة المدن التى استولى عليها تيمورلنك قبيل هجومه على زرنج . وفى أخبار الفتوح الاسلامية الاولى ، جاء ذكر قلعة أخرى فى هذه الانحاء ، هى زالق ، قيل انها على خمسة فراسخ من كركويه ومن زرنج . ولا يعرف عنها شىء غير ذلك . ولم يرد لها ذكر فيما بعد[١٢] .

---

(١٢) البلاذرى ٣٩٢ و ٣٩٥ ؛ ابن حوقل ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٣ و ٣٠٤ ؛ ابن خرداذبه ٥٠ ؛

أما بست ، فانها على نحو خط عرض زرنج . والطريق من زرنج يأخذ شرقا مارا بحروری ، على ما بيّنا ، ويقطع المفازة . اما مجرى هيلمند ، فانه يضاعف المسافة اذ يلتوى التواء نصف دائرى باتجاه الجنوب ، وفى منتصف امتداد مجراه تقوم مدينة رودبار . وقد ذكر البلاذرى هذا الموضع على ما يظهر فى أيام الفتوحات الاسلامية الاولى ، فتكلم على مدينة يقال لهـا الروذبار فى سجستان ، فى طريق قندهار وبالقرب من الروذبار هذه ، كانت كش (أو كس) . ويبدو انها هى الموضع المعروف اليوم باسم كاج أو كهيج . ولم يذكر البلدانيون العرب الروذبار الا عرضا ، ولعلها تطابق روذبار التى وصفها الاصطخرى وقال انها من أعمال فيروز قند قرب بست . « وأكثر غلاتها الملح ، ولهم مع ذلك زروع وفواكه ومياه جارية » . وفى هذه الانحاء موضع آخر هو الزالقان ، وتكتب أيضا الصالقان أو الجهالكان . وصفها ابن حوقل بكونها من بست على مرحلة واحدة ، ولكنه لم يذكر فى أى اتجاه هى منها . ولم يرد هذا الاسم فى كتب المسالك . وكانت مدينة « أكثر أهلها حاكة ، وبها فواكه ونخيل وزروع ، وماؤهم أنهار جارية » وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) نحوا من القرنين فى الكبـر .

وبُست (أو بَست) على نهر هيلمند ، عند ملتقى النهر الآتى من ناحية قندهار معه . وقد كـانت دائماً موضعـاً جليلاً . قال الاصطخرى « على باب بست ، جسر من السفن كما يكون على أنهار العراق » وعليه يعبر الطريق الآتى من زرنج . وكانت بست فى المئة الرابعة (العاشرة) ثانية المدن الجليلة فى سجستان . « وزيّ أهلها زي أهل العراق ، وبها متاجر الى بلد الهند ، وبها نخيل وأعناب ، وهى خصبة جدا » . وكانت بست تعد أجل مدن البلاد الجبلية فى شرق سجستان التى تشتمل على الناحيتين الكبيرتين : زمين داور ورخج . قال المقدسى ان حول بست وقلعتها أرباضا كبيرة على فرسخ فوق ملتقى نهر خردروى (نهر أرگنداب الحالى) بهيرمند (هيلمند) . ولها جامع حسن

المقدسى ٣٠٦ ؛ ياقوت ٢ : ٧٢ و ٤٨٦ ؛ ٤ : ٢٧٢ ؛ المستوفى ١٨٥ ؛ ابو الفداء ٣٤٣ . على اليزدى ١ : ٣٧٠ .

وأسواق عامرة » • وعلى نصف فرسخ من نحو غزنين (غزنة) ، مدينة صغيرة تسمى السكر ، ينزلها السلطان » وقال ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، ان الخراب فى بست ظاهر ، ونوّه بانها « من البلاد الحارة المزاج ، وهى كثيرة الانهار والبساتين » • وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) أوقع تيمور بها وبما جاورها ، الدمار حين زحفه اليها من زرنج ، وخرّب فى طريقه أحد السكور العظيمة فى هيلمند المسمى بند رستم ، وكان هذا السكر يسكر المياه التى تسقي الرساتيق فى غرب سيستان[١٣] •

وما زال الوادى العريض الذى يجرى فيه نهر هيلمند منحدرا من جبال هندوكش الى بست ، يعرف باسم زمين داور ، وهو الاسم الذى أطلقه البلدانيون العرب على ناحيته • وهذه هي التسمية الفارسية ، ويقابلها بالعربية أرض الداور أو بلد الداور • ومعنى هاتين التسميتين واحد ، هو أرض الأبواب أى دروب الجبال • وكانت هذه البلاد فى القرون الوسطى خصبة عامرة كثيرة السكان ، بها أربع مدن جليلة ، هى درتل ودرغش وبغنين وشروان • ولها قرى ورساتيق عديدة • وأكبر مدن هذه الناحية درتل أو تل ، على ما كتب الاصطخرى اسمها • والظاهر انه يطابق المدينة التى وصفها المقدسى باسم الداور وقال « الداور : كبيرة طيبة وهى ثغر جليل عليها حراس مرتبون » اذ كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) على حد جبال الغور وهى عند ضفة نهر هيلمند على ثلاث مراحل فوق بست • وورد فى أخبار الفتوحات الاسلامية الاولى ، ان بالقرب منها جبل الزور حيث الصنم العظيم المسمى زور أو زون • وقد غنمه العرب • وكان هذا الصنم كله من ذهب وعيناه مرصعتان بياقوت •

ومدينة درغش ، على هيلمند فى الضفة التى عليها درتل ، وهى أعلى منها بمرحلة • أما بغنين ، فكانت على مرحلة من غرب درتل فى البلاد التى تسكنها القبائل التركية المعروفة بالشلنك • وتقيم بنهم قبيلة الخَلَج • وقد هاجرت

---

(١٣) البلاذرى ٣٩٤ و ٤٣٤ ؛ الاصطخرى ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٨ ؛ ابن حوقل ٣٠٢ و ٣٠٤ ؛ المقدسى ٢٩٧ و ٣٠٤ ؛ ياقوت ٢ : ١٠ و ٦١٢ ؛ ٤ . ١٨٤ ؛ على اليزدى ١ : ٣٧٠ •

قبائل الخلج هذه بعد ذلك نحو الغرب ، الا ان ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ، وصفهم بقوله انهم من بلد الداور « على خلق الاتراك وزيّهم ولباسهم » . وفى زمين داور مدينة خامسة هى خواش (واسمها كاسم الموضع الذى على نهر خواش ، وقد مرّ ذكره) . قال الاصطخرى انها بلد لا سور عليه ، وبها قلعة . ومما يؤسف عليه ان موضعها لم تذكره المراجع ، غير ان بعضهم عدّها من أعمال كابل .

وبين بست ودرتل ، على مرحلة جنوب المدينة الاخيرة ، سروان أو شروان ولم تكن على نهر هيلمند على ما يظهر ، قال فيها ابن حوقل : مدينة صغيرة نحو القرنين ، الا انها أعمر وأكثر أهلا ، وبها فواكه واسعة تحمل ، ونخيل وكروم تجلب منها وتنقل من رساتيقها ومن فيروز قند . وهذه الاخيرة جنوب ناحية شروان . وعلى مرحلة من شرق بست[١٤] .

ورساق رخّج ، يتألف مما حول قندهار من بلاد ، وهو فى شرق بست بامتداد ضفاف النهرين المعروفين اليوم بـ « ترنك » و « أرگنداب » . وكانت قاعدة رخج فى العصور الوسطى : بنجواى . وهى الصيغة العربية لـ « پنج واى » (أى الانهار الخمسة) . وما زال هذا الاسم يطلق على الناحية غرب قندهار قرب التقاء نهرى ترنك وارگنداب . وقد كانت بلاد رخج على غاية الرفاهة والخصب والسعة فى القرون الوسطى . « وعامتها صَوَافِى يرتفع لبيت المال منها مال عظيم جسيم » . ومن الصعب تعيين موضع بنجواى ، فقد كانت على طريق بست على اربع مراحل منها ، وعندها كانت تتشعب الطرق : طريق يتجه شمالا فيصل غزنة فى اثنتى عشرة مرحلة . وطريق آخر الى الشرق يبلغ سيبى فى ست مراحل . ولعلها لم تكن بعيدة عن قندهار . غير ان المسافة بين المدينتين لم تذكرها المراجع . وعلى مرحلة من غرب بنجواى ، قلعة كوهك (أى الجبيل) . وحول القلعة المدينة . وكانت بنجواى نفسها منيعة ، وبها جامع حسن . وشرب

---

(١٤) البلاذرى ٣٩٤ ' الاصطخرى ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٢٤٨ ؛ ابن حوقل ٣٠٢ و ٣٠٤ ؛ المقدسى ٣٠٥ ؛ ياقوت ٢ : ٥٤١ ؛ ٤ : ٢٢٠ .

لم يبق اليوم مدينة من مدن زامين داور . الا ان درتل قاعدة هذه البلاد ينبغى انها كانت حيث موضع گيرشك الحديثة .

أهلها من نهر .

وعلى مرحلة من هذا الموضع فى طريق سيبى ، مدينة بكراواذ (عوضا عن بكر اباد ، وقد أشار اليها الاصطخرى وابن حوقل باسم تكى ناباذ ، ولعل ذلك من وهم النساخ) . وهى « مدينة كبيرة ، الجامع فى السوق » . وكانت على نهر يلتقى بنهر قندهار .

أما مدينة قندهار (أو القندهار) فقد ذكرت غير مرة فى أخبار الفتوح الاسلامية الاولى ، فى جملة المواضع القريبة من حدود الهند . وأشار البلاذرى الى ان المسلمين وصلوها من سجستان بعد أن اجتازوا المفازة ، ثم اتوا المدينة فى السفن من ناحية النهر ففتحوها وكسروا البـد العظيم ، وقد كان ولا شك تمثالا لبوذا . وبعد الفتوحات ، لم يرد اسم قندهار الا عرضا فى المقدسى وابن رسته واليعقوبى ، وذكروها انها فى الهند أو على حدود الهند . ولم يوصلنا أحد من أصحاب المسالك الى قندهار يا للأسف . ولا ذكر لهذا الاسم فى الاصطخرى وابن حوقل فى سياق كلامهما على هذا الاقليم . وربما تكون پنجواى قد حلت محلها فى صدر القرون الوسطى . اذ ان ياقوت الحموى ، لم يأتنا بوصف لها ، وبرز اسمها ثانية فى التاريخ عند الكلام على تخـريب المغول لهـا فى النصف الاول من المئة السابعة (الثالثة عشرة) ثم تدمير تيمور لهـا فى ختـام المئـة التى تليهـا[١٥] .

وكانت ناحية سيبى ، تعرف لدى البلدانيين العرب باسم بالس ، ويقال لها أيضا بالش أو والشتان . وقاعدتها ، على ما فى الاصطخرى : سيبى ، وكتبت أيضا سيوي أو سيوى . ولكن الوالى كان يقيم عادة فى القصر ، (أى القلعة) . والقصر بلدة صغيرة على فرسخ من أسفنجاى أو سفنجاوى ، وهى ثانية مدن هذه الناحية ، ولم يعين موضعها الصحيح ولكنها كانت على مرحلتين شمال سيبى فى طريق پنجواى رخج . أما مدينة مستنك أو مستنج فقد ذكرها أيضا الاصطخرى

---

(١٥) البلاذرى ٤٣٤ و ٤٤٥ ؛ الاصطخـرى ٢٤٤ و ٢٥٠ ؛ ابن حوقـل ٣٠١ و ٣٠٢ و ٣٠٥ ؛ المقدسى ٣٠٥ ؛ ياقوت ٤ : ٣٣١ ؛ على اليزدى ١ : ٣٧٦ ؛ الدكتور هـ . و . بلو H. W. Belleu فى كتاب From the Indus to the Tigris ص ١٦٠ .

والمقدسي وقال الاخير ان في هذه الناحية الفين ومئتي قرية . ولكن لم يته الينا وصف لأي موضع من هذه المواضع[١٦] .

وغزنة أو غزنين ، اشتهرت في التاريخ في ختام المئة الرابعة (مطلع المئة الحادية عشرة) اذ كانت عاصمة السلطان محمود الغزنوي العظيم وقد ساد في وقت واحد على الهند في الشرق وبغداد في الغرب . ولكنه لم يته الينا يا للأسف وصف واف لغزنة حين جدّد محمود بناءها وزيّنها بما غنمه من غزواته في الهند . وقد وصف الاصطخري هذه المدينة قبل هذا الزمن بجيل ، فقال انها كالباميان ، ولا بساتين لها . ولها نهر « وليس في هذه المدن التي في نواحي بلخ أكثر مالا وتجارة من غزنة ، فانها فرضة الهند » . وسرد المقدسي أسماء كثير من رساتيقها وقراها ومدنها ومعظمها لا يعرف موضعه اليوم . وكتب اسمها بصورة غزنين ، بصيغة المثنى ، ولكنه لم يشر الى ما يقصده بغزنين وان استُعمل اسم غزنين في الأزمنة أكثر من غزنة . وزاد المقدسي على ذلك ان البلاد التي ما بين غزنة وكابل كانت تعرف بكابلستان .

جدد السلطان محمود بناء غزنة في نحو سنة ٤١٥ (١٠٢٤) حين رجوعه الى بلاده محملا بالغنائم من الهند . وبلغت المدينة أوج ازدهارها في أيامه واستمرت على ذلك نحو نيف وقرن . وقد لقب السلطان علاء الدين الغوري هذه المدينة بجهان سوز ، (أي مفسدة العالم) ، انتقاما لموت أخيه على يد بهرام شاه الغزنوي ، واستولى على غزنة عنوة سنة ٥٤٤ (١١٤٩) ثم أمر بنهب المدينة وحرقها ، فلم يقم لها قائمة بعد هذه الكارثة . ولكن الظاهر ان قبر محمود العظيم في الجامع قد نجا من هذا الدمار أو قد جدد بناؤه ، فقد رآه ابن بطوطة حين كان في هذا الموضع في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وقال ان غزنة في أيامه معظمها خراب ولم يبق منها الا يسير . وكانت قبل ذلك مدينة كبيرة . وتكلم عليها معاصره المستوفي فقال انها بلدة صغيرة ، البرد فيها شديد جدا لعظم ارتفاع موضعها . ولم يزودنا بوصف ذي وزن لها[١٧] .

---

(١٦) الاصطخري ١٧٩ و ٢٤٤ ؛ ابن حوقل ٣٠١ ، المقدسي ٢٩٧ .

(١٧) الاصطخري ٢٨٠ ؛ ابن حوقل ٣٢٨ ؛ المقدسي ٢٩٦ و ٢٩٧ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٨٨ ؛ المستوفي

وكان البلدانيون العرب ، على ما قد رأينا ، يسمون الاقليم الجبلى فى أعالى نهر هيلمند ونهر قندهار ، بزابلستان . وهو اسم مبهم الاستعمال ، ولكنه فى الغالب يعين البلاد التى حول غزنة . ومن جهة ثانية ، كانت كابلستان اقليم كابل ، وهى أبعد شمالا من غزنة ، على حدود الباميان . وهذا هو التقسيم الموجود فى أخبار فتوحات تيمور . وقد وصف اليعقوبى فى المئة الثالثة (التاسعة) مدينة كابل بقوله : « النجار يدخلون اليها ويحملون منها الاهليلج الكابلى الكبار »(١٨). وقال أيضا : « مدينة كابل العظمى ، يقال لها جُرْوَس » . اما الاصطخرى فى المئة التالية ، فقد قال ان اسمها طابان . ولكن الظاهر ان اسمها الشائع كان كابل ، وأكثر ما كان يطلق ، على ناحيتها .

وكان فى كابل قهندز ـ أى قلعة ـ مشهور . وعلى المدينة سور منيع ، ولا يؤدى اليها الا طريق واحد ، وكانت فرضة لتجارة الهند . « باع بها من النيل فى كل حول ، ما يعمل بقصبتها على ما ذكره تجارهم بألفى ألف دينار(١٩) وزائد » . وفيها تجارات الهند والصين الثمينة . وللمسلمين فى كابل ربض ، ومثله لليهود والوثنيين . وفيها أسواق عامرة كثيرة السلع . وذكر المقدسى أيضا ان فى قلعتها بئرا عجيبة وان كابل فى نظره « بلد الهليلج الرفيع » . وعدّ كابلستان فى آخر اقليم سجستان . وقال القزوينى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) : « يجلب منها

---

١٨٤ .

ولم ياتنا العبى فى كتابه « سيرة محمود صاحب غزنة » بوصف مسهب عن عاصمة هذا السلطان . وانظر مادة (غزنة) التى كتبها سر هـ . يول (H. Yule) فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة التاسعة) المجلد العاشر . ص ٥٦٠ وفيها تخطيط للمدينة .

(١٨) الاهليلج أطلق فى القرون الوسطى ، على ثمر جاف وحب فابض الخاصية . يجلب من الهند . اشتهر كثيرا فى طبخ العقاقير فى تلك الايام . وهذا الاسم يونانى الاصل . وثمره الهندى المستعمل فى تركيب التوابل مختلف الانواع . وأجودها يقال له الكابلى اى المنتج فى كابل . وسمى العرب هذا العقار (على ما انتهى الينا) اهليلج او هليلج . ولابن البيطار فى كتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » (وقد نقله الدكتور جى . سونثيمر Dr. J. Sontheimer راجع ١ : ١٦٣ ، ٢ : ٥٧٢) نبذتان فيه . أنظر أيضا دوزى فى تكملة المعجمات العربية (مادة : اهليلج) و Glossary of Anglo-Indian Terms تاليف يول وبرنل Yule and Burnell فى مادة : Myrobalan .

(١٩) هذا ما ذكره الاصطخرى ، أما المؤلف فقد جعل المبلغ الف الف دينار ، أى ما يساوى نصف مليون باون استرلينى (م) .

(أى من كابل) النوق البخاتى ، وهى أحسن أنواع الابل ، فى أنحاء آسية الوسطى . وذكر ابن بطوطة مدينة كابل وقد زارها فى المئة الثالثة ، فقال : « كانت فيما سلف مدينة عظيمة ، وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الاعاجم يقال لهم الافغان » .

ونهر كابل ، رافد من روافد نهر الاندس (نهر مهران) ، ويتكون من التقاء جدولين ينحدران من جبال هندوكش وهى الجبال التى فى شمال كابل[٢٠]. وعند منبعه الشرقى جبل الفضة ، وقد سماه العرب بنجهير (من بنج — هير أى خمسة جبال ، فى لغة تلك البلاد) . ومنه كان يستخرج مقدار كبير من هذا المعدن الثمين. وصارت بنجهير دارا للضرب[٢١] فى أيام بنى الصفار فى المئة الثالثة (التاسعة) . وكان على دراهمها اسم الخليفة العباسى ولا شك . وصف ابن حوقل مدينة بنجهير بقوله « مدينة على جبل ، وتشتمل على نحو عشرة آلاف رجل ، ويغلب على أهلها الفبث واللغب والفساد » . وجاربابة ، تجاورها على نهر بنجهير أيضا ، أى نهر كابل ، وكان هذا النهر حين ذاك ينحدر منها الى سهول الهند مارا بِقَرْوان وهى مدينة كبيرة لها جامع . وذكر المقدسى أيضا مدينة شيان ، وقال انها من رستاق اسكيمشت « وبها عين عجيبة ، وعلى حافتها مسجد قتيبة بن مسلم » وهو القائد المشهور فى الفتوح الاسلامية الأولى . وأسهب ياقوت فى حديثه عن جبل الفضة وعن المعدّنين من أهله ، وفيهم شرّ ، قال : ان الجبل كان كالغربال من كثرة الحفر . وكان الرجال يتبعون عروق الفضة فى أعماق الارض ، مستعينين بالمصابيح ، وهم يتسابقون ويتنافسون فى البلوغ اليها . « والرجل منهم يصبح غنيا ويمسى فقيرا ، أو يصبح فقيرا ويمسى غنيا » .

---

(٢٠) هندوكش معناها بالفارسية (الجبل) « قاتل الهنود » . وابن بطوطة (٢ : ٨٤) أول من ذكر هذا الاسم ، فلم ينوه به قبله البلدانيون العرب . وقال انما سمى بذلك « لان العبيد والجوارى يؤتى بهم من بلاد الهند (الى فارس) يموت هنالك الكثير منهم » .

(٢١) بنجهير ، فى افغانستان اليوم . وكانت من دور الضرب أيام بنى الصفار والسامانيين والداووديين . وجاء اسمها فى بعض النقود بصورة « بنجير » . راجع :
O. Codrington, A Manual of Musulman Numismatics, (London, 1904, p. 145).
(م) .

ويتفق أن ينفق الرجل منهم على الحفر ثلاثمئة ألف درهم (١٢ ألف باون)[٢٢]. وقد خرب جنكيزخان هذا الموضع . وحين زارها ابن بطوطة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وتكلم على نهر بنجهير العظيم الأزرق ، لم يشاهد هناك من مناجم الفضة الا بقايا الحفر القديمة .

أما تجارات سجستان ، فقليلة . وما ذكره المقدسي منها : « التمور والزنابيل والحبال من الليف والحصر »[٢٣] .

اما المسالك في سجستان ، فكلها تجتمع في زرنج ، فاليها ينتهي طريق المفازة من نرماسير مارا بسنيج وقد جاء وصفه في الفصل السابق . ومن زرنج يتجه طريق نحو الشمال قاصدا هراة مارا بكركويه ومنها يعبر جسرا على نهر هيلمند الى جوين وهي على نهر فره . ومن جوين يصل طريق الى فره يصعد مع النهر ويعبر النهر على قنطرة فره (وقد ذكرها في الصفحة ٣٧٩) . وما وراءها مدينة فره نفسها . وعلى ثلاث مراحل شمال فره مدينة أسفزار (أو سبزوار هراة) أولى مدن خراسان . ولم تنته الينا يا للأسف مسافات هذا الطريق بالفراسخ ، بل وصلنا ما فيه من مراحل الايام . وأوثق مراجعنا فيها : الاصطخري

---

(٢٢) ولطرافة وصف ياقوت للطريقة التي كان أهل بنجهير يتبعونها في استخراج الفضة ، ننقل وصفه بحروفه (معجم البلدان ١ : ٧٤٣ ـ ٧٤٤) لما فيه من فائدة عمرانية . قال : « بنجهير ... فيها جبل الفضة . واهلها أخلاط ، وبينهم عصبية وشر وقتل ... والفضة في أعلى جبل مشرف على البلدة والسوق . والجبل كالغربال من كثرة الحفر ، وانما يتبعون عروقها يجدونها تدلهم على انها تفضي الى الجوهر . وهم اذا وجدوا عرقا حفروا أبدا الى أن يصيروا الى الفضة ، فيتفق ان للرجل منهم في الحفر ثلاثمئة الف درهم أو زائدا او ناقصا ، فربما صادف ما يستغني به هو وعقبه ، وربما حصل له مقدار نفقته ، وربما أكدى وافتقر لغلبة الماء وغير ذلك ، وربما يتبع رجل عرقا ويتبع آخر شعبة أخرى منه بعينه ، فيأخذان جميعا في الحفر . والعادة عندهم ، ان من سبق فاعترض على صاحبه فقد استحق ذلك العرق وما يفضي اليه . فهم يعملون عنده هذه المسابقة عملا لا تعمله الشياطين . فاذا سبق أحد الرجلين ، ذهبت نفقة الآخر هدرا ، وان استويا اشتركا . وهم يحفرون أبدا ما حييت السروج واتقدت المصابيح . فاذا صاروا في البعد الى موضع لا يحيى السراج لم يتقدموا ، ومن تقدم مات في أسرع وقت ... » .

وهذا يشبه ما يتبعه المعدنون اليوم في المناجم البعيدة الغور ، باتخاذ مصابيح خاصة يقال لها مصابيح الأمان . (م) .

(٢٣) اليعقوبي ٢٩٠ و ٢٩١ ؛ الاصطخري ٢٧٨ و ٢٨٠ ؛ ابن حوقل ٣٢٧ و ٣٢٨ ؛ المقدسي ٢٩٧ و ٣٠٣ و ٣٠٤ و ٣٢٤ ؛ ياقوت ١ : ٧٤٣ ؛ ٢ : ٩٠٤ و ٩٠٥ ؛ ٣ : ٤٥٤ ؛ القزويني ٢ ١٦٢ . علي اليزدي ١ : ٥٥٨ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٨٥ و ٨٩ ؛ المستوفي ١٨٨ .

وابن حوقل[٢٤] • والى ذلك ، فيشك فى تهجئة أسماء كثير من المحطات •

ومن زرنج تتجه الطريق شرقا الى حرورى على نهر خواش ، ومنها يقطع المفازة بخط مستقيم فيبلغ مدينة بست فى خمس مراحل • وعند بست تنقسم الطرق : طريق يذهب الى بلاد زمين داور فى أعالى هيلمند ، وطريق الى پنجواى رخج فى انحاء قندهار • وعند پنجواى تنقسم الطرق ثانية : طريق يأخذ الى الشمال الشرقى الى غزنة ، وطريق ثان الى سيبى مارا ببلدة يقال لها أسفنجاى • ومما يلاحظ ، ان المسافات فى هذه الطرق قد جاءت أيضا بالمراحل فقط • وان كثيرا من أسماء المراحل يشك جدا فى قراءته[٢٥] •

---

(٢٤) ابن رسته ١٧٤ ؛ الاصطخرى ٢٤٨ و ٢٤٩ ؛ ابن حوقل ٣٠٤ و ٣٠٥ ؛ المقدسى ٣٥٠ •

(٢٥) الاصطخرى ٢٤٩ ــ ٢٥٢ ؛ ابن حوقل ٣٠٥ ــ ٣٠٧ ؛ المقدسى ٣٤٩ و ٣٥٠ •

الفصل الخامس والعشرون

قوهستان

اقليم قوهستان ، هو تونوكاين (Tunocain) لدى ماركو بولو ـ قاين وتون ـ ترشيز ورستاق بشت : سروة زرادشت العظيمة ـ زاوة ـ بوزجان واقليم زم ـ رستاق باخرز ومالن ـ خواف ـ زيركوه ـ دشت بياض ـ كناباد وبجستان ـ طبس التمر ـ خوست او خوسف برجند ومومناباد ـ طبس مسينان ، ودره .

عدّ البلدانيون العرب اقليم قوهستان ، من أعمال خراسان كسجستان . وقوهستان معناه بلاد الجبل . وانما سمي هذا الاقليم بذلك ، لطبيعة أرضه . فالجبال فيه تناظر السهول في اقليم سجستان ، الذي في شرق قوهستان على دلتا هيلمند . وأشار ابن حوقل الى ان أكثر مدن قوهستان صرودية وان النخيل لا ينمو الا في طبس گيلكي عند حافة المفازة الكبرى . وكان « يسكنها في المئة الرابعة (العاشرة) الأكراد وأصحاب السوائم من الابل والغنم » . ولا ريب في ان هذا الاقليم يطابق « مملكة تونوكاين » التي ذكرها ماركو پولو . وقد ركّب اسمها من اسمي مدينتيها الكبيرتين : « تون » و « قاين » ، ويريد به البلاد كلها[1] .

---

(١) الاصطخري ٢٧٣ و ٢٧٤ ؛ ابن حوقل ٣٢٤ و ٣٢٥ ؛ المقدسي ٣٠١ ؛ ماركوبولو (طبعة يول) ١ : ٨٧ و ١٣١ .

كتب العرب الاسم قوهستان (بالقاف) وهو كوهستان بالفارسية . ومعنى « كوه » فيها الجبل .

وأجلّ* مدن قوهستان : قاين • قال فيها ابن حوقل : « لها قهندز ، وعليه خندق ، ومسجد جامع ودار الامارة فى القهندز • وماؤهم من القنى ، وبساتينهم قليلة ، وقراها متفرقة ، وهى ناحية من الصرود » • ولقاين ثلاثة أبواب ، وهى فرضة خراسان • وذكر ابن حوقل « فى حد قاين منها ، على مسيرة يومين مما يلى نيسابور ، الطين النجاحى الذى يحمل الى الآفاق للأكل » وزار ناصر خسرو مدينة قاين سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) ووصف المدينة الداخلة وقال هى قلعة حصينة ، وبها مسجد جامع به مقصورة عليها عقد عظيم لم أر أكبر منه فى خراسان • وعلى جميع بيوت المدينة قباب • وأهم ما نوه به المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) موقع قاين المركزى بين المدن • فهى حسب قوله على عشرين فرسخا من كل مدينة جليلة من مدن قوهستان • وكانت مدينة حسنة ، وشرب أهلها فى البيوت من قنى ، ولها سراديب تتخذ فى أيام القيظ • وتبكر أثمارها فى النضج وتجنى محاصيلها قبل غيرها • وتكثر فيها القمح والفواكه ولاسيما الزعفران • وتجود المواشى فى مراعيها لكثرة عشبها • وزاد المستوفى على ذلك ان أهلها شديدو السمرة •

أما مدينة تون ، فهى على نيف وخمسين ميلا من غربى قاين الى شمالها قليلا • قال المقدسى فيها ، انها عامرة آهلة ، أصغر من قاين ، عليها حصن ولها جامع حسن ، وأكثر أهلها حاكة • وأطرى ناصر خسرو سجادها ، وكان بها اربعمئة نول لعمل السجاد حينذاك ولما رآها كان الخراب غالبا عليها ، أما حصنها فكان ما زال باقيا • وفى أرباضها الشرقية بساتين كثيرة حسنة ، وافرة الفستق • وقال المستوفى ، ان تون أول ما بنيت ، بنيت على غرار مدينة صينية ، ولكنه لم يوضح أمر ذلك • وتكلم على قلعتها العظيمة وخندقها الجاف العميق • وكان يحف بالقلعة شوارع وأسواق المدينة الخارجة • ورساتيقها وافرة الخيرات لأن أهلها ، على ما ذكر ، يحذقون بناء السدود (البند) فيجمعون عندها مياه الأمطار ويحبسونها ، وكانوا ينتجون من أراضيهم البطيخ وهو مشهور بحلاوة

---

* وغالبا ما يكتب قوهستان بدون راو ، فيقال قهستان •

طعمه . ويكثر عندهم القمح والفواكه . وتغلّ كثيرا من الحرير لأن هواء تون معتدل ، وقنيّها عديدة[٢] .

وفي شمال غربي قوهستان ، رستاق بشت أو پوشت ، أو بشت العرب . وأجل مدنه : ترشيز وكُنْدُر[٣] . وقد ذكر البلدانيون العرب اسمها القديم بصورة طريثيث وطُريثيث ثم كتبت ترشيش وترشيس . وعرفت أحيانا بحومة نيسابور . وقال ابن حوقل ان ترشيز كثيرة الأهل والخير . وكان في رستاق بشت سبع مدن أخرى فيها مساجد جامعة. ووصف المقدسي جامع ترشيز بقوله: بها جامع ليس بعد جامع دمشق أغنى منه، وعند بابه حوض للماء مدوّر، وبها أسواق عامرة فكانت خزانة خراسان، ومنها تحمل التجارات إلى فارس واصفهان ومنهما إليها. وكانت مدينة كندر القريبة منها، في نحو ترشيز خيرات وغنى، وفي رستاقها ٢٢٦ قرية كبيرة.

وذكر ابن الاثير انه في سنة ٥٢٠ (١١٢٦) ، حاصر وزير السلطان سنجر السلجوقي مدينة ترشيز ونهبها ، وهي التي أصبحت بعدئذ من مدن الاسماعيلية أي الحشيشية . فان « شيخ الجبل » استولى على أكثر الاماكن الحصينة في جوارها وبنى كثيرا من القلاع لارهاب هذه الانحاء من قوهستان . وقد جعل ياقوت قدوم الاسماعيلية الى هذه المواضع في سنة ٥٣٠ (١١٣٦) وروى ان رئيس هذه الناحية ، استمد الاتراك لنصرته ، لردّ الملاحدة ، وهم الاسماعيلية ، فرأى ثقل وطأة الاتراك وقلة غنائهم ، ولم تكن همتهم صادقة في دفع العدو ، وانما كان قصدهم تحصيل ما يحصلونه مما ألحق الدمار بترشيز . وفي منتصف المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، تمكن هولاكو خان المغولي من القضاء على قوة الاسماعيلية

---

(٢) ابن حوقل ٣٢٤ و ٣٢٥ ؛ المقدسي ٣٢١ ؛ ناصر خسرو ٩٥ ؛ المستوفي ١٨٤ . وفي جامع ماين ، كتابة فيها سنة ٧٩٦ (١٣٩٤) ، راجع سر كولد سمد في Eastern Persia ١ : ٣٤١ .

(٣) ما زال في يومنا ناحية باسم ترشيز ، ولكن لا مدينة فيها بهذا الاسم . ومدينة كندر الصغيرة مؤشرة في الخارطة واستنادا الى الاصطخري فان مدينة ترشيز ، على مرحلة من غرب كندر ، وعليه ان موضع ترشيز تعينه خرائب فيروز اباد قرب قرية عبد الاباد الحالية . وعلى كل حال ، فمدينة ترشيز التي كانت في القرون الوسطى لا تطابق سلطاناباد القاعدة الحديثة لناحية ترشيز ، لان هذه المدينة في شرق كندر .

واستولت جيوشه فيما يقال على سبعين قلعة من قلاعهم فى اقليم قوهستان • ثم سرعان ما استعادت ترشيز مكانتها حتى ان المستوفى بعد ذلك بقرن ، قال انها من أجل مدن قوهستان وان كان بعضها ما زال خرابا • وذكر القلاع الاربع المشهورة القريبة منها وهى قلعة بردارود ، وقلعة مبكال (أو هيكال) ، ومجاهد اباد ، وآتشگاه (بيت النار) — وقد كانت كلها ولا ريب من قلاع الاسماعيلية • ونوّه بوفرة قمح ترشيز ، وقال انه كان يحمل الى الانحاء الشمالية حول نيسابور • وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، كانت ترشيز من القلاع المنيعة التى لا تقتحم لعلو أسوارها ، ولكنها ما عتمت ان انهارت أمام تيمور ولم يبق من ترشيز قائما بعد نهبها غير أنقاض • وكان ذلك فى سنة ٧٨٣ (١٣٨١) • ومنذ ذلك الحين ، اختفى اسم ترشيز من الخارطة[٤] •

وذكر المستوفى ، انه ما زالت فى قرية كشمر قرب ترشيز ، شجرة السرو المشهورة التى غرسها زرادشت تخليدا لاعتناق الملك كشتاسب المجوسية • وقد نمت هذه الشجرة نموا عظيما ، حتى أضحت شجرة لم ير مثلها فى عظمها • وهى ، على ما جاء فى الشاهنامه ، قد نشأت من غصن أتى به زرادشت من الجنة • وقد كان لهذه السروة من المقدرة شيء عظيم حتى انها حالت دون وصول ضرر الزلازل الى كشمر • وذكر القزوينى ان الخليفة المتوكل ، أمر بقطع هذه السروة العظيمة فى سنة ٢٤٧ (٨٦١) وحملها قطعا على الجمال عبر فارس لاستعمالها فى بناء قصره الجديد فى سامراء ، فقطعت ولم تنفع شفاعة الشافعين وتضرّعهم • ولما وصلت السروة الى ضفاف دجلة كان المتوكل قد لقى حتفه غيلة على يد ابنه[٥] •

---

(٤) ابن حوقل ٢٩٥ و ٣٩٦ ؛ المقدسى ٣١٧ و ٣١٨ ؛ ياقوت ١ : ٦٢٨ ؛ ٣ : ٥٣٤ ؛ ٤ : ٣٠٩ ؛ المستوفى ١٨٣ ؛ على اليزدى ١ : ٣٤٤ ؛ ابن الاثير ١٠ : ٤٤٥ •

ويمثل شيخ الجبل فى زمننا (على ما أقرته المحاكم الانكليزية) ، اغا خان ، رئيس طائفة الخوجة فى بومبى • ومما يدعو الى العجب ان نجد جماعة من الاسماعيلية ما زالوا باقين فى قوهستان ، وهم يؤدون الاعشار الى الاغاخان ، على نحو ما كان يفعل اسلافهم لشيخ الموت • وقد رأى ميجر سايكس (Persia ص ٤٠٩) فى قرية سهده (بكسر اوله وثالثه) فى جنوب قاين ، نحو ألف عائلة من هؤلاء الاسماعيلية يبعثون فى كل سنة مبلغا كبيرا من المال الى رئيس طائفتهم الدينى فى الهند • ماركو بولو (طبعة يول ١ : ١٤٥) •

(٥) المستوفى ١٨٣ ؛ الشاهنامة (طبعة ترنرمكان ٤ : ١٠٦٧ الاسطر الثمانية من الاسفل) ؛

والى شرق رستاق ترشيز ، رستاق زاوة • وكان رستاق زاوة ، أو بعضه ، يعرف أيضا باسم رُخ وقصبتها بيشك أو مدينة زاوة • وكان اسم رخ حين كتب ياقوت ، يلفظ رِخ عادة • وفي المئة السابعة (الثالثة عشرة) اشتهرت زاوة : بكونها مقام الولى المعروف بحيدر كان يلبس اللبّاد وفي الصيف يدخل النار وفي الشتاء يدخل في وسط الثلج • واليه تنتسب طائفة الحيدرية من الفقراء (الدراويش) • وكان هذا الشيخ باقيا الى مجيء التتر سنة ٦١٧ (١٢٢٠) • ثم عرف باسم الشيخ قطب الدين • ولما زار ابن بطوطة زاوة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وصف مريدى الشيخ فقال « يجعلون حِلَق الحديد في أيديهم وأعناقهم وآذانهم • ويجعلونها في أعضاء أخرى من أجسامهم فكان ذلك اظهارا لقواهم وزهدهم • ووصف المستوفى زاوة بانها مدينة حسنة تقوم في ناحية كثيرة الخيرات ومن أعمالها خمسون قرية ، ولها قلعة حصينة من اللبن ، وسقيها وافر يكثر فيها القمح والقطن والاعناب والفواكه وكذلك الحرير • وتكلم أيضا على تربة الشيخ الذى كان مكرما في زمنه • وزاوة اليوم ، هو الاسم الشائع للناحية ، أما المدينة فتعرف عادة بتربة الحيدرى • وما زالت هذه التربة تزار[٦] •

والى شرق رستاق زاوة ، في شمال شرقي قوهستان ، قرب نهر هراة : ناحية زام ، أو جام وكانت قصبتها في المئة الرابعة (العاشرة) بوزجان • وكانت مدينة كبيرة ، من أعمالها : مئة وثمانون قرية • وكان الفرس يلفظون بوزجان بصورة بوزكان ، وفي الازمنة الحديثة كتبوه پوچكان • ووصفها المستوفى في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وقد سماها جام ، فقال تقوم في ناحية عظيمة الخيرات وافرة المياه والحرير بها كثير لكثرة شجر التوت • واشتهرت المدينة بكثرة مزاراتها ،

القزويني ٢ • ٢٩٩ وفيه جاء الاسم بصورة كشم وهو من خطأ الطبع • وما ذكره القزويني (المئة الثالثة عشرة للميلاد) بصددها لا يتعدى ما تناقلته الروايات ، ولم يرد في الطبري ولا في غيره من التواريخ العربية القديمة ذكر لسروة كشمر على ما يظهر • وأطال كتاب دبستان ، وهو من مؤلفات المئة السادسة عشرة للميلاد (وقد ترجمه شيا Shea وترويير Troyer ١ : ٣٠٦ ـ ٣٠٩) ، في حكاية قصة السروة • وينبغي ان يكون عمر سروة زرادشت نحو ١٤٥٠ سنة • ولعلها هي التى ارادها ماركو بولو في عبارته Arbre sol (رحلة ماركو بولو • طبعة يول ١ : ١٣١) •

(٦) المقدسي ٣١٩ ؛ ياقوت ٢ : ٧٧٠ و ٩١٠ ؛ القزويني ٢ : ٢٥٦ ؛ ابن بطوطة ٣ • ٧٩ ؛ المستوفى ١٨٨ ؛ سر كولد سمد في Eastern Persia ١ : ٣٥٣ •

فقد دفن فيها كثير من الرجال الصالحين . وذكر ابن بطوطة أشهرهم وهو الولى الزاهد شهاب الدين أحمد الجامى ، وأولاده وأحفاده « ولهم بها نعمة وثروة » . وكان هذا الولى مشهورا حتى ان تيمور ، فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) زار قبره بنفسه . وتعرف المدينة اليوم ، وما زالت موضعا زاهرا ، بشيخ جام ، وهى اليوم عامرة[7] .

أما ناحية باخرز ، أو گواخرز ، ففى جنوب جام الى غرب نهر هراة ، وعندها يتجه مجراه نحو الشمال . وكانت قصبة باخرز مدينة مالين . ويظهر من المسافات الواردة فى كتب المسالك ان موضعها يطابق مدينة شهرناو (المدينة الحديثة) الحالية . وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة عامرة « ويرتفع منها الحبوب والزبيب وثياب كثيرة » . وفسر ياقوت اسم باخرز فقال « اصلها باد هرزه لانها مهب الرياح ، وهى باللغة البهلوية ، تشتمل على مئة وثمان وستين قرية » منها جَوْذقان . أما المستوفى فقد ذكر اسم قصبتها بصورة مالان . وأفاض فى ذكر خيراتها ولاسيما بطيخها الطويل وقد كان مشهورا فى انحاء خراسان[8] .

والى جنوب غربى باخرز ، ناحية خَوَاف (وهى خواب قديما) وتكتنف قصبتها المسماة باسمها . واشتهرت خواف فى المئة الرابعة (العاشرة) بكثرة ما فيها من الزبيب والرمان . وكانت سَلُومَك ، ثم كتبت سلام ، أكبر مدن هذه الناحية فى الازمنة الاولى ، ومن مدنها المهمة أيضا سنجان (أو سنكان) وخرجرد . وقد ذكر ابن حوقل هذه المدينة بصورة خركرد ، وكذلك مدينة فركرد (وقد كتبها ياقوت فرحرد أو فلجرد) على مرحلة من شرقها . أما كُوسُوِي أو كوسويه ، فكانت أقرب الى نهر هراة شمال فركرد . وكانت كوسويه أكبر هذه المدن الثلاث ، وتحو ثلث مدينة بوشنج المجاورة لها فى خراسان ، وسنأتى على

---

(٧) ابن خرداذبه ٤٤ ؛ ابن رسته ١٧١ ؛ اليعقوبى ٢٧٨ ؛ ابن حوقل ٣١٣ ؛ المقدسى ٣١٩ و ٣٢١ ؛ ياقوت ١ : ٧٥٦ ؛ ٢ : ٩٠٩ ؛ ٣ : ٨٩٠ ؛ المستوفى ١٨٨ و ١٩٧ . ابن بطوطة ٣ : ٧٥ . على اليزدى ٢ : ٢١١ و ٢٢٩ . وانظر . س . اى . يات فى . خراسان وسيستان . ص ٣٧ .

(٨) المقدسى ٣١٩ ؛ ياقوت ١ : ٤٥٨ ؛ ٢ . ١٤٥ ؛ ٤ : ٣٩٨ ؛ المستوفى ١٨٧ .

وصفها . ويعدّ كثير من المراجع هذه المدن الثلاث من أعمال اقليم خراسان . وبناء أهل كوسوى من طين . ومع صغر المدينتين الآخريين ، فان فيهما بساتين حسنة ومياه كثيرة . وذكر ياقوت أيضا مدينتى سِرآوند ولاز ، وقال انهما فى زمنه من المدن المهمة فى ناحية خواف ، ولا يعرف موضعاهما . وأطرى المستوفى الاعناب والبطيخ والرمان والتين فى خواف ، وقال ان الحرير يكثر فى ناحيتها . وذكر أن سلام وسنجان وزَوْزَن (أو زُوزن) أهم مدنها فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وكانت زوزن لما كتب المقدسى ، « عامرة كثيرة الحاكة وصنّاع اللبود » . وكانت نقطة مهمة فى نظام الطرق ، فهى تتصل بقاين وسلام (سلومك) وفرجرد . وسمى ياقوت زوزن « البصرة الصغرى » لكثرة تجارتها ، وأشار الى ان فيها بيت نار للمجوس ، ومن أعمالها مئة وأربع وعشرون قرية[٩] .

وذكر المستوفى ، وقد كتب فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، جملة مواضع فى أواسط قوهستان ما زالت ترى فى الخارطة الا ان البلدانيين العرب الاولين لم يذكروها . فقد أشار الى ناحية زيركوه (أى أسفل الجبل) وقال انها كثيرة الخيرات يكثر فيها القمح والقطن والحرير ويحمل الى سائر البلاد . وما زالت البلاد الجبلية جنوب زوزن وشرق قاين تعرف بهذا الاسم . وذكر المستوفى المدن الثلاث المهمة فيها ، وهى : شارخس ، وإسْفَنْد ، وإسْتَنْد وما زالت الى يومنا . وفى شمال غربى قاين ، ناحية كتب اسمها بصورة دشت بياض ومعناه السهل الابيض ، وينطق بها الفرس اليوم دشت بياز ، وكانت قصبتها مدينة فارس ، وقد أطرى المستوفى جوزها ولوزها وقال انها كانت يَيْلاق ، أى مصايف لأهل تون وجناباد .

وتعرف المدينة الاخيرة اليوم باسم گناباد ، وهى مدينة كبيرة فى شمال شرقى تون ، سماها ابن حوقل ينابذ ، والمقدسى جناود ، وفيها غير ذلك من

---

(٩) الاصطخرى ٢٦٧ ؛ ابن حوقل ٣١٣ و ٣١٩ ؛ ابن رسته ١٧١ ؛ اليعقوبى ٢٧٨ ؛ المقدسى ٢٩٨ و ٣٠٨ و ٣١٩ و ٣٢١ ؛ ياقوت ٢ ، ٤٨٦ و ٩٥٨ ؛ ٣ : ٩١٠ ؛ ٤ ، ٣٤١ المستوفى ١٨٨ . وانظر سى . اى . يات C. E. Yate : خراسان وسيستان (ص ١٢٨ و ١٢٩) للاطلاع على حال هذه المواضع اليوم .

القراءات . كان بناؤها فى المئة الرابعة (العاشرة) من طين ، ومن أعمالها سبعون قرية ، وماؤها من القنى . وقال ياقوت انها تسمى كنابذ عوضا عن جنابذ . وقال المستوفى : لها قلعتان كل قلعة على جبل فى طرف من المدينة ، يقال لاحداهما قلعة خواشر وللاخرى قلعة درحان ، وكان يرى منهما القرى المجاورة وما وراءها من المفازة . ونوه بان الرمل لم يغز بساتين گناباد على نحو ما حدث فى بعض انحاء قوهستان . وماؤها من قنى ، طول تلك القنى فى الغالب أربعة فراسخ ، ماؤها من عيون فى سفح الجبل وذكران مباهها عند رأس العين تجتمع فى آبار يبلغ عمقها أحيانا سبعمئة ذراع . وكان يرتفع منها حرير كبير وقمح ويحمل الى المدن الاخرى . وعلى ثلاثين ميلا شمال غربى گناباد ، ومثلها من شمال تون ، المدينة الصغيرة بجستان ، ويبدو ان ياقوت الحموى أول من ذكرها وقال انها قرية فى زمنه . وذكر المستوفى انها تشبه تون ، ولم يزد على ذلك[١٠] .

وقد كانت وما زالت فى قوهستان ، مدينتان يقال لهما « طبس » ، ولذلك كثيرا ما ذكرهما البلدانيون العرب بصيغة المثنى ، فقالوا طبسين . والى ذلك ، فقد كان أحيانا يطلق خطأ الاسم طبسين (المثنى) على هذه المدينة أو تلك ويراد واحدة منهما ، على ان البلدانيين العرب ، كان يميزون بين المدينتين ، فسموا الواحدة طبس التمر ، والاخرى طبس العنّاب .

وكانت طبس التمر ، على شفير المفازة العظمى ، وينتهى اليها كثير مما كان يجتاز المفازة من طرق . ولذلك سماها البلاذرى باب خراسان . وكانت هذه المدينة فى المئة الرابعة (العاشرة) ، على ما ذكر ابن حوقل ، أصغر من قاين ، وعليها حصن ، ونخيلها كثير « وهى ناحية جرومية » لانها على حافة المفازة .

---

(١٠) دشت بياض ، أو دشت بيار ، اسم مركب من الفارسية والعربية ، ومثل ذلك نادر جدا فى تسميات بلاد ايران . فان كانت الكلمة الاخيرة عربية حقا ، لا يبعد ان الفرس نسوا معناها الاول (أى البياض) وعدوها علما .

ابن حوقل ٣٢٥ ؛ المقدسى ٣١٩ و ٣٢٠ و ٣٢٢ ؛ المستوفى ١٨٣ و ١٨٤ ؛ ياقوت ١ : ٤٩٧ ؛ ٢ : ١٢٠ ؛ ٤ : ٢٠٦ .

تعرف مدينة نارس اليوم باسم قلعة كهنه (أى القلعة العتيقة) انظر Bellew فى From Indus to Tigris ص ٣٢٩ .

وماؤها من القنى ، كثير . وتكلم المقدسى على جامعها اللطيف وقال « شربهم من حياض تجرى اليها قنى ظاهرة ، ورأيت بها حمامات طيبة ، ولم أر بقوهستان نهراً جاريا ولا موضعا ذا مشاجر الا طبس ، فانى سرت نحو مرحلة كلها قرى ونخيل وقنى » .

وقال ناصر خسرو ، وقد مرّ بطبس سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) انها مدينة حسنة عامرة لا سور عليها ، وتحفّ بها البساتين والنخيل . وكان يقبض على زمامها بيد من حديد أبو الحسن گيلكى بن محمد — وهو من گيلان — مما أشاع الامن والسلام فى أنحائها ، فعرفت بطبس گيلكى نسبة الى هذا الامير المشهور ، وكان على ما ذكر ناصر خسرو معروفا بحزمه وعدله . وفى النصف الثانى من المئة الخامسة (الحادية عشرة) ، انتقلت طبس الى ايدى الاسماعيلية . وفى سنة ٤٩٤ (١١٠٢ هـ) حاصرها الجيش الذى بعثه السلطان سنجر السلجوقى لمقاتلة الحشيشية وخرّب بعض أبنيتها . وسمى ياقوت والمستوفى طبس التمر هذه بطبس گيلكى . وذكرها المستوفى فى موضعين ، وذلك فى كلامه على المفازة العظمى وفى وصفه قوهستان . ويرتفع من طبس ، ما سوى التمور ، الليمون والنارنج أكثر من سائر مدن خراسان . وماؤها كثير من عين ، وهو يكفى لادارة رحيين . وكان على طبس حصن منيع ، وحولها كثير من القرى[١١] .

وعلى حافة المفازة شمال طبس ، فى نصف طريق ترشيز ، قرية بِن . وكانت ، على ما ذكر ابن حوقل ، عامرة وفيها نحو من خمسمئة رجل . والظاهر ان هذا الموضع يطابق أفريدون ، المرحلة التى ذكرها ابن خرداذبه . ويبدو ان ابن حوقل ذكر فى مسالكه قرية أخرى وقال انها « بن » أخرى . ويؤخذ مما أورده من مسافات ان هاتين المرحلتين ان لم تكونا موضعا واحدا ، فهما قريتان متجاورتان باسم واحد . وبن اليوم ، تمثلها دهنابند (فلا تلتبس بالمدينة التى فى المفازة ذات الاسم نفسه ، وقد مرّ وصفها فى الصفحة ٣٦٣) .

وكانت قرية مهمة ، لان عندها يدخل قوهستان أحد طرق المفازة الآتى من

---

(١١) البلاذرى ٤٠٣ ؛ ابن حوقل ٣٢٤ و ٣٢٥ ؛ المقدسى ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ناصر خسرو ٩٤ ؛ ياقوت ٣ : ٥١٣ و ٥١٤ ؛ ٤ : ٣٣٣ ؛ المستوفى ١٨٣ و ١٨٤ ؛ ابن الاثير ١٠ : ٢٢١ .

جِرْمَق (١٢) .

وعلى نحو من ثلاثة فراسخ جنوب شرقي طبس ، على حافة المفازة ، حيث يدخل المفازة طريق شور الآتي من كوهبنان ، كانت كُري أو كرين . قال البلاذري انها احدى قلعتي طبس . وهذا قد يسوغ تسمية طبس التمر وحدها بطبسين . وقد وصف ابن حوقل كرى بأن عندها تتجمع طرق كثيرة ، « وهي قرية فيها نحو ألف رجل ولها رستاق كبير » . وذكرها المقدسي باسم كرين وقال انها أصغر من طبس . ومن أعمالها قرية الرقة . ـ وقد كانت على ١٢ فرسخا من طبس و ٢٠ من تون ـ . وكانت الرقة حين زارها ناصر خسرو في سنة ٤٤٤ (١٠٥٢) قد صارت مدينة حسنة لها مسجد جامع وحولها بساتين ومياهها وافرة . وعلى نحو ثلاث مراحل جنوب شرقي طبس مدينتا خور وخوست ، وكانتا مرحلتين ينتهي اليهما الطريقان اللذان يقطعان المفازة من راور وخبيص في كرمان (أنظر الصفحة ٣٦٦) . وكانت خور ، على ما ذكر ابن حوقل ، أصغر من طبس ، ولها جامع وماؤها شحيح ولها بساتين قليلة ولم يكن لها حصن على قول المقدسي .

أما خوست ، فهي وان لم يكن فيها مسجد جامع في المئة الرابعة (العاشرة) ، الا انها كانت موضعا ذا شأن . فهي حصينة ولها قلعة ، وأبنيتها من طين ولها بساتين قليلة « وشربهم من القنى ، وبمائهم ضيق » . وقال المقدسي « هي أكبر وأقل أهلا من تون ، قليلة الاشجار » . ووراءها ، تقوم جبال قوهستان الجرد . وكتب ياقوت اسمها خطأ بصورة جوسف وهو وهم من الناسخ في كتابة خوسف ، أو خوسب ، الحديثة لاسمها . وأول من ذكره المستوفي . وياقوت ، وان اعترف بانه لم يتحقق ضبط الاسم وقال « ووجدتها في بعض الكتب هذا ، وبعضهم يسميها جوزف ، بالزاء » ، الا انه ذكرها في مادة أخرى باسمها الصحيح خوست ، حين نقل عن المقدسي . وقد أشرنا الآن ، ان المستوفي أول من ذكر اسمها بتهجئته الحديثة ، ووصف خوسف بانها بلدة صغيرة ولها قرى « يسقيها نهر ، فيكثر فيها

(١٢) ابن خرداذبه ٥٢ ؛ الاصطخري ٢٣١ و ٢٣٦ ؛ ابن حوقل ٢٩٥ .

القمح[١٣] .

وعلى نحو من عشرين ميلا شرق خوسف، مدينة برّجند، وقد صارت اليوم قصبة قوهستان عوضا عن قاين . ولم يذكر برجند قبل ياقوت ، على ما يظهر أحد من البلدانيين العرب . قال ياقوت في المئة السابعة (الثالثة عشرة) انها من أحسن قرى الاقليم . وأشار المستوفي اليها في المئة التالية لها ، فقال انها قصبة اقليم جليلة ، تحفّ بها الرساتيق والقرى العامرة ، وكان يكثر فيها الاعناب والفواكه الاخرى والزعفران . ولا يجود فيها القمح . وعلى مسيرة يوم شرقي برجند ، الناحية الجبلية التي ما زالت تعرف بمومناباد — أي بلد المؤمن — قال فيها المستوفي : عليها حصن منيع وكانت قبلا من قلاع الحشيشية . ولها قرى عامرة كثيرة ، أشار المستوفي بوجه خاص الى شاخن وكانت على نهر يقال له فشارود ، وهي ما زالت قائمة على مسيرة ثلاثة أيام من جنوب شرقي قاين[١٤] .

وعلى نحو خمسين ميلا من شرق برجند ، مدينة طبس الثانية التي عرفها البلدانيون العرب بطبس العنّاب ، وسماها الفرس طبس مسينان . وقد وصف ابن حوقل هذه المدينة في المئة الرابعة (العاشرة) وقال هي « أكبر من ينابذ (گناباد في شمال غربي قاين) ، ولها حصن خراب ولا قهندز لها ، وأبنيتها من طين » . وذكر المقدسي انها كثيرة العنّاب . وقال القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة): على قلة جبل ، بقرب طبس ، قرية ايراوة ، ولها قلعة حصينة ، كثيرة البساتين والأشجار والمياه . وأشار المستوفي الى أن مياه طبس مسينان تكفي المدينة أيام الجدب سبعين يوما . أما رساتيقها فلا يكفيها ماؤها أكثر من سبعة أيام . وروى انه كانت فيها بئر ، في قاعها مادة سامة ، كل من شرب منها صدفة مقدارا ضئيلا ، حتى وان كان بقدر حبة الدخن مات لساعته ، ولهذا كان الناس يحكمون سد

(١٣) البلاذري ٤٠٣ ' الاصطخري ٢٣٢ و ٢٧٤ ' ابن حوقل ٢٩١ و ٣٢٥ ؛ المقدسي ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ياقوت ٢ : ١٥٢ ؛ ٤ : ٢٣ و ٢٧٠ ؛ المستوفي ١٨٤ ؛ ناصر خسرو ٩٤ .

(١٤) ياقوت ١ ، ٧٨٣ ؛ المستوفي ١٨٤ ؛ سايكس في Persia ٣٠٥ و ٣٠٦ .

ويتكلم ميجر سايكس ، وقد كتب اسمها بصورة شاخن ، على قلعة قديمة بالقرب منها ولعلها كانت قبلا من قلاع الحشيشية التي مر ذكرها .

قوهتها . وكان فيها بئر أخرى تبتلع فى الشتاء كل ما اجتمع فيها من ماء . وفى الصيف تسقى رساتيق المدينة كلها دون ان ينضب ماؤها . وفيها بئر ثالثة كل من حدق بباطنها رأى صورة سمكة . وما زالت هذه المدينة الى اليوم تعرف بطبس مسينان ، وهى مدينة جليلة يقال لها أيضا سنى خانه (أى بيت أو منزل السنّة) لان أكثر أهلها اليوم من الافغان السنّة . وعلى نحو ستين ميلا جنوب طبس العنّاب ، قرية دُرُه ، وفيها قلعة قديمة تقوم على جبل قريب منها . والظاهر ان البلدانيين العرب لم يذكروا دره ، وأول من نوّه بها المستوفى فقد ذكر ان قلعة دره من الامكنة المنيعة ، فيها عين ماء قد اُنبطت فى داخل القلعة . ويكثر فيها شجر العنّاب والقمح ، وأقل من ذلك الاعناب والفواكه الاُخرى .

أما تجارات قوهستان ، فقليلة . أوجز المقدسى ذكرها بقوله : « يرتفع من قوهستان ثياب تشابه النيسابورية ، بيض ، وبسط ومصليات حسنة »[١٥] .

أما ما يعرف من المسالك فى قوهستان ، فالافضل ان تتكلم عليها فى فصل آت لاتصالها بطرق خراسان . وقد ذكر المقدسى وغيره المسافات بين مدن قوهستان بالمراحل . ولكنه لم يذكر ما بينها من فراسخ . ويظهر ان الطرق المستقيمة فى هذا الاقليم الجبلى قليلة .

---

(١٥) ابن حوقل ٣٢٥ ؛ المقدسى ٣٢١ و ٣٢٤ ؛ ياقوت ٣ : ٥١٣ و ٥١٤ ؛ القزوينى ٢ : ٢٠٢ ؛ المستوفى ١٨٤ ؛ سايكس فى Persia ٣٩٦ و ٣٩٧ .

الفصل السادس والعشرون

قومس وطبرستان وجرجان

اقليم قومس ــ الدامغان ــ بسطام ــ بيار ــ سمنان وخوار ــ طريق خراسان المار بقومس ــ اقليم طبرستان او مازندران ــ امل ــ سارية ــ جبل دماوند ورساتيق فادوسبان وقارن ورويج ــ فيروز كوه وغيرها من القلاع ــ نائل وسالوس وناحية رويان ــ حصن الطاق وناحية رستمدار ــ ممطير وطميسة ــ كبود جامه وخليج نيم مردان ــ اقليم كركان او جرجان ــ نهر جرجان ونهر اترك ــ مدينة جرجان واستراباد ــ ميناء ابسكون ــ ناحية دهستان وآخر ــ مسالك طبرستان وجرجان.

يمتد اقليم قومس الصغير فى محاذاة جبل ألبرز الذى سيأتى وصفه أدناه وتحده من الشمال هذه المرتفعات ، وتؤلف أراضيه رقعة ضيقة بين حافة هذه الجبال وبين المفازة الكبرى فى جنوبه . ويقطع طريق خراسان هذا الاقليم من أقصاه الى أقصاه ، آتيا من الرى ، فى اقليم الجبال ، الى نيسابور فى خراسان . وتقوم أهم مدن اقليم قومس ، على امتداد هذا الطريق . وقد بطل اليوم استعمال اسم قومس ، وصار معظم الاقليم ضمن حدود خراسان الحديثة . أما طرفه فى أقصى الغرب ، فقد صار ناحية من نواحى الرى أى طهران الحديثة[1] .

---

(١) راجع الخارطة ٥ فى الصفحة ٢٢٠ حول هذه الاقاليم . المقدسى ٣٥٣ ؛ ياقوت ٤ : ٢٠٢ ؛ المستوفى ١٩١ .

وكانت قاعدة الاقليم : دامغان ، وكتبها العرب الدامغان . وكثيرا ما أشاروا اليها ، على عادتهم ، باسم قومس (أى مدينة قومس) ، فاقتبست العاصمة اسم اقليمها . والدامغان ، على ما ذكر ابن حوقل ، « قليلة الماء ، وهى متوسطة العمارة، ويرتفع منها أكسية معروفة تحمل الى الامصار ، وهى فاشية فى جميع الارض » . وقال المقدسى ان الدامغان قد خربت أطرافها فى المئة الرابعة (العاشرة) ولكن كان « عليها حصن بثلاثة أبواب : باب الرى وباب خراسان » ولم يذكر اسم الباب الثالث . وقال لهم سوقان : أعلى وأسفل « والجامع فى الازقة بهيّ نظيف ولهم حياض مثل مرو » . وذكرت جميع المراجع المتأخرة ، كثرة رياحها ، وقال ياقوت وغيره ان الرياح تهب عليها من واد مجاور لها . فكانت أشجار الدامغان لا تنقطع عن الاهتزاز . وفى المدينة ، بناء عظيم من زمن الاكاسرة ، يقسم المياه الجارية الى الدامغان على مئة وعشرين نهرا للسقى[٢] . وتكثر فى بساتينها الكمثرى الفاخرة . وقال المستوفى ان محيط أسوار دامغان عشرة آلاف خطوة . وقال ياقوت ان على مسيرة يوم من الدامغان (ثلاثة فراسخ ، على ما ذكر المستوفى) ، فى وسط الجبل ، قلعة گرد كوه ، والواقف بالدامغان يراها ، وهى من قلاع الحشيشية المشهورة . وقال المستوفى ان هذه القلعة كان يقال لها دز گنبدان (أى القلعة المقبّبة) ، ويعرف رستاقها الخصب ، بمنصور اباد . وأشار المستوفى أيضا الى معدن الذهب فى جبل كوه‌زر (جبل الذهب) قرب الدامغان ، ولكنه لم يعين موطن الذهب[٣] .

والمدينة الثانية فى الكبر بقومس : بِسطام (أو بَسطام) وتلفظ اليـوم

وقومس ، الصيغة العربية للاسم . اما الصيغة الفارسية فهى كومس . وسماه المستوفى ديار قومس .

(٢) هذا ما قاله ياقوت بصدد مقسم الماء فى الدامغان ، نقلا عن الرحالة مسعر بن مهلهل (معجم البلدان ٢ : ٥٣٩) . « وبها (أى بالدامغان) مقسم للماء ، كسروى عجيب ، يخرج ماؤه من مغارة فى الجبل، ثم ينقسم اذا انحدر عنه على مئة وعشرين قسما لمئة وعشرين رستاقا ، لا يزيد (بتشديد الياء الثانية) قسما على صاحبه ، ولا يمكن تأليفه على غير هذه القسمة ، وهو مستطرف جدا ، ما رأيت فى سائر البلدان مثله ولا شاهدت أحسن منه » أ . هـ . وأنظر ذلك أيضا فى آثار البلاد للقزوينى (ص ٢٤٥) . (م) .

(٣) ابن خرداذبه ٢٣ ؛ قدامة ٢٠١ ؛ ابن حوقل ٢٧١ ؛ المقدسى ٣٥٥ ، ٣٥٦ ؛ ياقوت ٢ . ٥٣٩ ؛ القزوينى ٢ : ٢٤٥ ؛ المستوفى ١٩١ ، ٢٠٤ .

بُسطام . قال ابن حوقل ان رستاقها أخصب رساتيق الاقليم . وتكثر الفواكه في بساتينها . وأشار المقدسى الى جامعها فقال « ظريفة ، الجامع كأنه حصن ، في وسط الاسواق » . ويظهر ان ناصر خسرو ، وقد زارها في سنة ٤٣٨ (١٠٤٦) ، عدّها قصبة الاقليم ، اذ سماها مدينة قومس . وأشار الى قبر مشهور فيها للصوفى العظيم الشيخ ابى يزيد المعروف بابزيد البسطامى وقد توفى ودفن فيها سنة ٢٦٠[4] (٨٧٤) . وما زال قبره مكرما في يومنا . وأطرى ياقوت تفاح بسطام اطراء عارف به . وقال « وعلى تل بازائها ، قصر مفرط السعة ، عليه سور ، ويقال انه من بناء سابور ذى الاكتاف (سابور الثانى) » . وأشار ياقوت أيضا الى أسواق المدينة وكثرة نعمها . وذكر ابن بطوطة عنها ، وقد زارها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، مثل ذلك وأشار الى القبة التى فوق قبر الشيخ الصوفى[5] .

وعلى أربعة فراسخ من بسطام ، في الطريق الذاهب الى استراباد : مدينة خُرْقان ، وقد كانت موضعا ذا شأن في المئتين السابعة والثامنة (الثالثة عشرة والرابعة عشرة) . قال المستوفى انها كالقرية ، هواؤها طيب ، وماؤها كثير ، وفيها قبر الولى ابى الحسن الخرقانى المشهور . وعلى نحو من خمسين ميلا جنوب شرقى بسطام ، عند شفير المفازة الكبرى ، المدينة الصغيرة بِيّار ، ويقال لها اليوم بيار جُمَنّد . وصفها المقدسى في المئة الرابعة (العاشرة) فقال انها مدينة صغيرة ليس بها مسجد جامع ، وفيها حصن ، وأسواق عامرة ، ومزارعها خصبة . وتكثر في بساتينها الكروم والثمار . « وهى معدن الابل والأسمان والأغنام » . وفي حصنها الداخل مسجد ، وعلى المدينة حصن له ثلاثة أبواب حديد ، وفيه باب

---

(٤) في شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى (٢ : ١٤٣) انه توفى سنة ٢٦١ هـ (م) .

(٥) ابن حوقل ٢٧١ ؛ المقدسى ٣٥٦ ؛ ناصر خسرو ٣ ؛ ياقوت ١ ، ٦٢٣ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٨٢ . أما مدينة شاهرود التى على ميلين جنوب بسطام ، وهى اليوم مركز التجارة في هذه الانحاء ، فلم يذكرها احد من البلدانيين العرب أو الفرس ، وقد اعترف صنيع الدولة انه لم يتمكن من معرفة زمن بنائها . راجع : مرآة البلدان ١ : ٢١٠ .

واحد الى الحصن الداخل[٦] .

وقال المستوفى ان هواءها طيب معتدل ، وفيها قمح جيد . وفى أقل من نصف الطريق بين الدامغان والرى ، مدينة سَمنان أو سِمنان ، على طريق خراسان . قال المقدسى بها جامع لطيف فى السوق ، وحياضٌ للماء عظيمة . وقال المستوفى ان فستق سمنان مشهور ، وتكثر فيها صنوف الفواكه . وذكر أيضا أهوان ، وقال انها مدينة صغيرة بين سمنان والدامغان ، فيها قبور للصالحين ، ويكثر فيها القمح والفواكه[٧] .

وخُوار ، أبعد مدن قومس غربا ، على طريق خراسان ، وأهم مدينة فى شرق الرى ، وقد كتبها العرب : الخوار . قال ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ان مدينة خوار « مدينة لطيفة صغيرة ، نحو ربع ميل ، وهى عامرة ... وفيها ماء جار يخرج من ناحية دُنْبَاوند (جبل دماوند) » ، وزاد على ذلك قوله « وخوار ، أشدّ تلك النواحى (أى قومس) بردا ... ولها ضياع ورساتيق » . وقال القزوينى فى خوار « بها قطن كثير ، يحمل منها الى سائر البلاد » . وذكر المستوفى انها مشهورة بالقمح والشلتوك ، وهو الرز الشلب . وسميت هذه المدينة خوار الري ، تمييزا لها عن خوار التى فى فارس (أنظر ص ٣١٥) ، وبهذه التسمية جاءت فى أخبار حروب تيمور . وذكر المستوفى ، ان خوار هذه كان يقال لها أيضا بالفارسية محلة باغ ، أى محلة البستان .

وذكر المقدسى تجارات قومس ، فقال : « لهم المناديل البيض من القطن المعلمة ، صغار وكبار ، وسواذج ومحشّاة ، ربما يبلغ المنديل منها ألفى درهم

(٦) اطال المقدسى فى صفة مدينة بيار ، لان منها اخواله ، قال : « وانما استقصينا وصفها كالقصبات ، لان أصل أخوالى منها ، وكل قومسى تراه ببيت المقدس ، فاعلم انه منها . وقد كانوا عرفوا جدنا ابا الطيب الشوا ، وذكروا انه رحل الى الشام مع ثمانية عشر رجلا » (احسن التقاسيم ص ٣٥٧) - (م) .

(٧) المقدسى ٣٥٦ و ٣٥٧ ؛ القزوينى ٢ : ٢٤٣ ؛ ياقوت ٢ : ٤٢٤ ؛ المستوفى ١٨٦ و ١٩٢ .

خرقان (بضم اوله وسكون ثانيه) هى تهجئة القزوينى لهذا الاسم . وهى تشبه خرقانه (بفتح أوله وتشديد ثانيه مع الفتح) فى اقليم الجبال ، فأحداهما غير الاخرى .

« نحو ثمانين باونا) ، ولهم أيضا أكسية (من الصوف) وطيالسة (للرأس) »[٨] .

واقليم قومس ، كان يخترق طوله كله طريق خراسان العظيم ، على ما بيّنا . وقد أجمعت على ذلك كتب المسالك من ابن خرداذبه الى المستوفى . فاذا غادر هذا الطريق مدينة الرى ، وصل خوار فى ثلاث مراحل . يليها بمرحلة ، قصر أو قرية الملح ، ويقال لها بالفارسية دەنمك على ما فى المستوفى ، وهو اسمها اليوم . والمرحلة التالية ، على ما فى كتب المسالك كلها ، كانت رأس الكلب ، ولا يرى هذا الاسم الآن فى الخارطة ، ولكن موضعه حيث قلعة لاسگرد العجيبة (ولا أثر لهذا الاسم فيما كتبه بلدانيو القرون الوسطى) . وهذه القلعة اليوم تتوّج جرفا جبليا يشرف على المفازة . وتليها ، بعد مرحلة طويلة : سمنان . والى شرقها ، على مرحلة طويلة أيضا : الدامغان (وهى التى ذكرتها كتب المسالك القديمة باسم قومس) . وعلى مرحلة ممـا يلى الدامغان ، كانت الحدّادة وقـد جاءت فى المستوفى باسم مهمان دوست (أى الضيف الصديق) . ومنها الى بسطام مسيرة يوم . أما اذا سـلك الطريق الأسفل ، فالمرحلة عند محطة البريد التى على فرسخين من المدينة ، وقد كانت وما زالت تعرف بقرية بَذَش ، ومنها تدخل اقليم خراسان فتسـلك طريق البريد الى نيسـابور . وجاء فى المقدسى ، ان الطريق من بسطام الى بيار يقطع فى ثلاثة أيام . ومن بيار كان يقطع المفازة مسافة ٢٥ فرسخا ويرجع غربا الى الدامغان[٩] .

---

(٨) ابن حوقل ٢٧٠ ؛ المقدسى ٣٦٧ ؛ القزوينى ٢ : ٢٤٣ ؛ المستوفى ١٩١ و ١٩٦ ؛ على اليزدى ٢ : ٢١٢ .

تقوم اليوم فى موضع خوار ، مدينة اردون ، الا ان ناحيتها ما زالت تحتفظ باسم مدينتها القديمة خوار .

(٩) ابن خرداذبه ٢٢ و ٢٣ ؛ قدامة ٢٠٠ و ٢٠١ ؛ ابن رسته ١٦٩ و ١٧٠ (وقد أسهب فى مسالك هذا الاقليم) ؛ الاصطخرى ٢١٥ و ٢١٦ ؛ ابن حوقل ٢٧٤ و ٢٧٥ ؛ المقدسى ٣٧١ و ٣٧٢ ؛ المستوفى ١٩٦ .

وللاطلاع على صورة تمثل لاسكرد الحديثة ، انظر : H.W. Bellew فى From the Indus to the Tigris ص ٤٠٤ .

اما بذش ، فمن الغريب ان ياقوت الحموى ، ذكر الاسم فى معجمه مرة بتهجئته الصحيحة ، ومرة (بصورة مغلوطة) باسم « تذش » أى بالتاء . ياقوت ١ : ٥٣٠ ؛ ٤ : ٧٧٣ .

طبرستان اى مازندران

كانت منطقة الجبال العالية ـ ويتألف معظمها مما يعرف اليوم بجبال ألبرز[١٠] الممتدة فى حذاء الساحل الجنوبى لبحر قزوين ، مما فى شرق قومس وشمالها ـ تعرف لدى البلدانيين العرب الاولين بطبرستان • و « طبر » فى لغة تلك البلاد معناها « الجبل » • فطبرستان ، تعنى « بلاد الجبل » •

وفى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، أى فى نحو من زمن الفتوحات المغولية ، بطل استعمال اسم طبرستان ، على ما يظهر ، وحلّ محله مازندران • ومنذ ذلك الحين أصبح مازندران الاسم الشائع لهذا الاقليم • وربما شمل اسم مازندران أيضا اقليم جرجان المجاور له • ونوّه ياقوت ، وهو أول من ذكر اسم مازندران ، بانه لا يدرى متى أُخذ بهذه التسمية • ومع انه لم يعثر عليه فى الكتب السالفة ، فانه كان شائع الاستعمال فى جميع أنحاء البلاد • وقد كان الاسمان : طبرستان ومازندران فى تلك الايام مترادفين فى واقع الامر • ولكن بينما كان الاسم الاول يطلق على الجبال العالية بوجه خاص ، ويشمل بصورة ثانوية الرقعة الضيقة من الارض الخفيضة المحاذية للبحر ، الممتدة من دلتا سفيد رود الى جنوب شرقى بحر قزوين ، ظهر اسم مازندران أول مرة دالا فى بادىء أمره على هذه الاراضى الخفيضة فقط • ثم شمل المنطقة الجبلية أيضا • ولا يستعمل اليوم اسم طبرستان •

---

(١٠) البرز (بفتح الهمزه وضم الباء) ، ويلفظ اليوم البرز (بكسر الهمزة وضم الباء) ، هو الاسم الحالى لسلسلة الجبال العظيمة الفاصلة بين هضبة بلاد فارس والاراضى الخفيضة على ساحل بحر قزوين • على ان هذا الاسم لم يرد قط لدى البلدانيين العرب الاولين الذين لم يعطوا أى اسم لهذه الجبال • اما لفظة البرز ففارسية • جاء فى معجم فلرس (Vullers) الفارسى اللاتينى انها مشتقة من كلمتين زنديتين ، معناهما « الجبل العالى » أما المستوفى ص ٢٠٢ ، ولعله أول من ذكر الاسم ، فقد استعمله بمدلول غير واضح الحدود • قال فى الفصل الذى عقده عن جبال بلاد فارس ، ان البرز سلسلة جبلية عالية ، تمتد حتى تتصل بجبال باب الابواب (أى جبال القفقاس) ، وانها : « ام الجبال ، الجبال العظيمة الآخذ بعضها برقاب بعض ، التى تؤلف سلسلة تمتد الى ما ينيف على الف فرسخ من تركستان (فى آسية الوسطى) الى الحجاز (فى بلاد العرب) ولهذا ، فان كثيرين حسبوا انها جبال القاف (الاسطورية ، التى تحيط بالارض) وتتصل من الغرب بجبال كرجستان (جورجيا) » • راجع بصدد قمة البرز فى القفقاس ، الصفحة ٢١٦ اعلاه •

وفى صدر أيام الخلافة ، لم يكن لهذا الاقليم من الوجهة السياسية الا بعض الشأن . فقد كان فى الواقع ، آخر جزء من أجزاء الدولة الساسانية قبل بالاسلام دينا . وظل ملوكه من أهل البلاد — ويعرفون باصفهبذ أو اصبهبذ طبرستان نيفا وقرنا من الزمان بعد فتح العرب بقية بلاد فارس مستقلين فى بلادهم الجبلية ، يضربون نقودهم وعليها الرموز الفهلوية حتى منتصف المئة الثانية (الثامنة) . كما ظل الدين المجوسى يهيمن على غابات الجبال العظيمة وغياضها . وكانت غلات هذا الاقليم فى المئة الرابعة (العاشرة) ، على ما ذكر المقدسى : الثوم والرز والقنب وطير الماء والاسماك . فان هذا الاقليم غزير الامطار ، بخلاف بقية بلاد ايران . وبعد ذلك الزمن ، ذكر القزوينى ان أهلها « يتعانون تربية دود القز ، فيرتفع منها الابريسم الكثير ، ويحمل الى سائر البلاد » . وتعمل فيها أكسية الصوف والسجاد والميازر والمناديل الرفيعة والثياب . « وبها الخشب الخلنج ، يتخذ منه الظروف والآلات والاطباق والقصاع » . « وأكثر أبنيتها الخشب والقصب » على ما ذكر ابن حوقل . وقال أيضا هواقليم كثير الامطار ، وربما اتصل المطر فى الصيف والشتاء ، فجعلوا سطوح بيوتهم مسنمة بالقراميد »[11] .

وكانت قصبة طبرستان فى العصر العباسى الأخير : آمل . وان أقام الطاهريون ، فى المئة الثالثة (التاسعة) فى مدينة سارية . وكانت آمل ، على ما ذكر ابن حوقل ، أكبر من قزوين وليس فى نواحيها أعمر منها . وقال المقدسى بها بيمارستان وجامعان ، العتيق فى طرف الاسواق ، بين الاشجار . والآخر بقربه ، قرب سور المدينة . وفى كل جامع رواق عظيم . وتجارات آمل كثيرة ، يكثر فيها الرز ، ولها نهر كبير يشق المدينة ويسقى المزارع . ولم يزد ياقوت على وصف المقدسى شيئا . الا ان المستوفى أشار الى حرها ووخامة هوائها ، وقال تكثر فيها التمور والاعناب والجوز والنارنج والاترنج والليمون ، ولطيوبها وعطورها شهرة واسعة فى سائر البلاد . وكانت فرضة آمل تقوم حيث يقع نهرها فى بحر قزوين ، وهى بلدة صغيرة يقال لها عين الهُم ، وقد كتب ياقوت اسمها

(١١) ابن حوقل ٢٧٠ و ٢٧١ ؛ المقدسى ٣٥٤ ؛ القزوينى ٢ : ٢٧٠ ؛ ياقوت ٣ : ٥٠٢ ؛ وانظر لفظة طبر : ص ٢٥٢ أعلاه .

بصورة أهلم وقال انها ليست بالكبيرة • وقد خرّب تيمور مدينة آمل فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وأمر بنقض قلاع ماهانه سر الثلاث ، وكانت هذه القلاع على أربعة فراسخ من المدينة بازاء ساحل البحر •

وكانت قصبة طبرستان الثانية ، وهى القديمة ، مدينة سارية ، ويقال لها اليوم سارى ، فى شرق آمل • قال المقدسى ان سارية عامرة فيها ثياب فاخرة وأسواق ، وهى حصينة ، حولها خندق ، ولها جامع فيه نارنجة ، وفى قنطرة الجسر تينة ظاهرة وجسورها مشهورة • ولم ينته الينا الا شيء قليل عن سارية فى أواخر أيامها ، فقد عانت كثيرا من الأذى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) خلال الفتح المغولي • وكانت حين كتب المستوفى خرابا يبابا • غير ان رساتيقها كانت كثيرة الاعناب والقمح ، وبها الحرير لكثرة ما يربى فيها من دود القز[١٢]•

ويهيمن جبل دماوند العظيم على أنحاء طبرستان كلها ، وترى قممه التى لا يفارقها الثلج من سهول بلاد ايران التى تبعد مئة ميل أو أكثر عن جنوب طهران • بل قال المستوفى انها ترى من مسافة مئة فرسخ ، وأشار الى أن قممه لا تفارقها الثلوج • وجبل دنباوند على ما كتب اسمه البلدانيون القدماء ، تعدّ الاساطير الفارسية موطن سِيْمُرْغ ، الطير الخرافى الذى ربّى زال أبا رستم وحاماه • وحكى المستوفى كثيرا من القصص الخيالية عن هذا البطل القومى • وقال ابن حوقل ، ان هذا الجبل العظيم يرى من قرب سطوه « وهو فى وسط جبال يعلو فوقها كالقبة ، ولم أسمع ان أحدا ارتقاه الى أعلاه » • وزاد على ذلك « ويرتفع من قلته دخان دائم ، الدهر كله » • « ويتحدث فى خرافات الفرس ، ان السحرة من جميع أقطار الارض ، تأوى اليه وان الضحاك (زهاك ، طاغية بلاد ايران القديم) حيّ فى هذا الجبل » •

وسميت باسم دماوند ، بلدة صغيرة تقوم على قلله الجنوبية ، قال المستوفى انها تعرف بشيان أيضا ؛ كما سميت به الناحية الخصبة العريضة الشقة الممتدة حول سفوحه • وكان فى هذه الناحية ، فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة ويمه

(١٢) ابن حوقل ٢٧١ و ٢٧٢ و ٢٧٥ ؛ المقدسى ٣٠٤ و ٣٥٩ ؛ ياقوت ١ : ٣٥٤ و ٤٠٩ ؛ المستوفى ١٠٩ ؛ على اليزدى ١ : ٣٩١ و ٥٧١ ؛ ابو الفداء ٤٣٧ •

وتجاورها شــأنه • وقد وصفهما ابن حوقل ، بقوله : « لهما زروع ومياه وبساتين وأعناب كثيرة » • وقال ياقوت ، وقد رأى ويمه (أو ويمــه) ، قد استولى عليها الخراب وذكر ان قلعة (فيروزكوه ترى منهــا • وقد زار ياقوت هذه القلعة أيضا • وذكر المستوفى ان ماءها من ينابيع النهر الذى ينساب الى السهل ويشق خوار الرى فى قومس • وكانت فيروزكوه ، من قلاع مازندران التى ذكرت فى جملة ما حاصره تيمور من قلاع واستولى عليه • وفى سفوح دماوند ، قلعة أخرى ، لا تقل شأنا عن الاولى ، هى قلعة أســتوناوند ، أو أســتناباد • قال القزوينى « عمــرت منذ ثلاثة الآف سنة ، لم يعرف انها أخذت قهرا » ، الى ان ورد التتر سنة ٦١٣[١٣] (١٢١٦) فاستولوا عليها عنوة • وذكر ياقوت ان هذه القلعة يقال لها جرهد أيضا • وتبعـد عشرة فراسخ عن الرى • وقال كانت حصنا للاصبهد ، الملك المجوسى القديم لتلك البلاد ، وقد حاصره يحيى البرمكى حتى غلبه وأخذ بناته الى بغداد ، احداهن ، واسمها البحرية ، تزوجها الخليفة المنصور وصارت أم المهدى أبى هرون الرشيد[١٤] • ثم ان فخر الدولة البويهى قد جدد بناء هذه القلعة سنة ٣٥٠ (٩٦١) ثم استولى عليها الحشيشية[١٥]•

وذكر بلدانيو العصور الوسطى ، أســماء كثــيرة من القلاع والمدن فى طبرستان ، لم يعـد لها ذكر فى الخارطة • وهى اما ان الخراب لحقها من الغزو المغولى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) أو ان تيمور لنك دمرّها ، فقد اكتسح مازندران غير مرة فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) • والى ذلك ، فان أسماء معظم هذه المدن والقلاع الضائعة ، لم تذكرها كتب المسالك ، فحال كل

(١٣) ما فى القزوينى (٢ : ١٩٥) : سنة ٦١٨ • (م) •

(١٤) قال ياقوت (معجم البلدان ١ : ٢٤٤) : « استوناوند •••• كان فى أيام الفرس معقلا للمصمغان ملك تلك الناحية ، بعهد تكليته عليه • ومعنى المصمغان مس مغان ، والمس ، الكبير ، ومغان : المجوس • فمعناه كبير المجوس • وحاصره خالد ابن برمك حتى غلب على ملكه وملع دولته • وأخذ بنتين له ، وقدم بهما بغداد ، فشراهما المهدى وأولدهما ، فاحداهما ام المنصور بن المهدى ، واسمها البحرية • وأولد الاخرى ولدا آخر » • (م) •

(١٥) الاصطخرى ٢٠٢ ؛ ابن حوقل ٢٦٥ و ٢٧٠ ؛ المقدسى ٣٩٢ ؛ القزوينى ٢ / ١٩٥ ؛ ياقوت ١ : ٢٤٣ و ٢٤٤ ؛ ٣ : ٩٣٠ ؛ ٤ : ٩٤٤ ؛ المستوفى ١٦١ و ٢٠٣ و ٢٠٤ ؛ على اليزدى ٢ • ٥٧٧ • مازالت فيروز كوه قائمة ، الا ان موضع استوناوند غير معروف على ما يظهر •

ذلك دون تعيين مواضعها في الخارطة ، ولو بصورة تقريبية • وفي المئة الرابعة (العاشرة) وصف ابن حوقل ثلاث نواح جبلية بقوله : « فيها أشجار عالية ، والغياض والمياه ، وهي خصبة جدا » ، كانت في جنوب سارية ، بينها وبين هذه النواحي مرحلة ، وتمتد غربا الى حدود الديلم في اقليم گيلان • وأولى تلك النواحي : جبل فاذوسبان وهو جبل بادوسبان (الصيغة الفارسية للاسم)• وبادوسبان اسم الاسرة الحاكمة شبه المستقلة التي ساد رؤساؤها هذه النواحي نحوا من ثمانمئة سنة ، أي من أيام الفتح الاسلامي حتى زمن الغزو المغولي ، وكانت القرى تنتشر في هذه الناحية الجبلية ، وأكبرها ، قرية يقال لها قرية منصور • ويليها أرم خاست ، أو أرم خاسته ، وهي قريتان : عليا وسفلى ، وتبعد هذه القرية نحو أُرُم خاست ، أوأُ رَّم خاسته ، وهي قريتان : عليا وسفلى ، وتبعد هذه القرية نحوا من مرحلة عن سارية ، ولم يكن في هذه الجبال مدينة كبيرة ذات مسجد جامع •

وكان يجاور فاذوسبان ، الناحية الجبلية المسماة جبل قارن ، وهي مستقر آل قارن • ويقال انهم من الفرثيين • ومهما يكن من أمر ، فقد جاءت اسماء آل قارن في أخبار الساسانيين وفي الزمن الاسلامي ، وكانوا ما زالوا رؤساء تلك الناحية ، وكان أمنع معاقل آل قارن التي توارثوها منذ أيام أكاسرة الساسانيين : فِيرِّم (فريم) وأعمر مدنهم ، مدينة سِهمار (أو شهمار) • وفيها المسجد الجامع ولا ثاني له في سائر تلك الانحاء • ولم تذكر كتب المسالك ، يا للأسف ، موضع فريم ، بوجه التحقيق • ذكرها ياقوت ، وكذلك المستوفي في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، فقال انها عند حد قومس • وكانت الناحية الجبلية الثالثة ، جبل الرويبنج ، وهي شمال الري ، ومن ثمة ، فهي أقرب من غيرها الى حدود الديلم • ولم ينته الينا اسم مدينة أو قرية في هذه الناحية ،الا انها على ما يقال كانت في غاية الخصب وماؤها كثير ، وفي جبالها الاشجار والغابات[١٦] •

---

(١٦) الاصطخري ٢٠٥ و ٢٠٦ ، ابن حوقل ٢٦٨ و ٢٦٩ ؛ ياقوت ١ : ٢١٢ ؛ ٣ - ٣٢٤ و ٨٩٠ ؛ المستوفي ١٩١ • وجاء اسم فاذوسبان بصورة قادوسبان في الاصطخري وغيره من البلدانيين ، وهو من تصحيف الطبع • ومن ثمة ، كثيرا ما ظن بعضهم ان هذه الاقوام تمثل شعب « كدوسي » (Cadusii) القديم الذي ذكره اسطرابون (انظر نلدكه في Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sassaniden ص ١٥١ حاشية ٢) وقد أوضح

وعلى مسيرة يوم ، أى خمسة فراسخ ، من غرب آمل ، فى السهلة التى قرب البحر ، مدينة ناتل أو ناتلة . وعلى مثل تلك المسافة من غرب ناتل ، مدينة سالوس أو شالوس ، قال المقدسى « بها قلعة من حجارة ، الجامع على جانب » . وجاء اسمها أيضا بصورة سالوش . وبالقرب منها مدينتان أخريان هما الكبيرة وكجّه . وورد اسم شالوس فى أخبار حروب تيمور بصورة جالوس . والظاهر ان تيمور لنك قد خرب فى خلال حروبه جميع هذه البلاد وكذلك البلاد الجبلية التى فى جنوبها ، أى رويان ورستمدار[١٧] .

ومدينة كلار ، وقد ظنها ياقوت انها مدينة كجه المذكورة أعلاه ، كانت على مرحلة من شالوس ، ولكن فى الجبال . ومن كلار الى حدود الديلم مرحلة . وفى هذه الاسماء شىء من اللبس . ولكن يظهر ان كلار وكجه ورويان مدن متجاورة ان لم تكن تشير الى مدينة واحدة بذاتها . وكانت رويان ، الى ذلك ، اسم رستاق كبير من رساتيق البلاد الجبلية عند الحد الغربى لطبرستان . وذكر ابو الفداء ان مدينة رويان ، كان يقال لها شارستان أيضا ، وانها كانت تتوّج قمة درب جبلى يبعد ١٦ فرسخا عن مدينة قزوين . وذكر ياقوت ان رويان قصبة الناحية الجبلية فى طبرستان ، مثلما كانت آمل قصبة السهول الخفيضة فيه . كان بها أبنية حسنة وبساتين كثيرة الثمار . وكان بالقرب من رويان (أو كلار) مدينة سعيد اباد الصغيرة .

أما حصن الطاق العظيم عند حدود الديلم ، وهو آخر معقل لجأ اليه اصبهبد طبرستان بعد ان غلبته جيوش الخليفة المنصور ، فينبغى ان يكون فى ناحية

ان البادوسبان كانوا فى أيام الساسانيين ولاة هذه الناحية مقابل الاصبهبد الذين كانوا القادة العسكريين لهذا الاقليم الواقع فى تخوم المملكة . وراجع ايضا : Justi, Iranisches Namenbuch ص ١٥٦ مادة : (Karen) (قارن) . وص ٢٤٥ مادة : (Patkospan) (مانوسبان) . وللاطلاع على اسماء رؤساء البادوسبان فى العصر الاسلامى ، انظر : G. Melgunof فى : Das Südliche Ufer des Kaspischen Meeres ص ٥٠ .

وعلى اسماء رؤساء قارن ، انظر المرجع نفسه ص ٥٢ .

(١٧) ابن حوقل ٢٧٥ ؛ المقدسى ٣٥٩ ؛ ابن الفقيه ٣٠٥ ؛ ياقوت ٣ : ١٣ و ٢٣٧ و ٥٠٤ ؛ ٤ : ٧٢٦ ؛ على اليزدى ١ : ٣٦١ .

وقيل ان شالوس ، لا تبعد الا ثمانية فراسخ عن الرى ، وهذا وهم ولا شك ، فان هذه المسافة تجعلها على بحر قزوين أو فى القرب منه .

رويان هذه ، وقد أسهب ياقوت والقزويني في وصف هذا الموضع ناقلين عمن سبقهما من المصنفين • كان الطاق حصنا منيعا ، « وكان في قديم الزمان خزانة ملوك الفرس ، وهو نقب في موضع عال في جبل صعب المسلك • وهذا النقب شبيه بالباب الصغير ، فاذا دخل فيه الانسان مشى فيه نحوا من ميل في ظلمة شديدة • ثم يخرج الى موضع واسع شبيه بالمدينة قد احاطت به الجبال من جميع الجوانب ، وفي هذه الرحبة مغارات وكهوف ، وفي وسطها عين غزيرة الماء ينبع من صخرة ويغور ماؤها في صخرة أخرى » على مقربة من الاولى • وأفاض ياقوت بعد هذا الكلام في ذكر عجائب هذا الموضع •

وعند منابع شاهرود ــ وهو الفرع الشرقي لسفيد رود (أنظر ص ٢٠٤ أعلاه) ــ ناحية رستمدار • قال المستوفي ان فيها نحوا من ثلاثمئة قرية • وهذه الناحية التي كانت تسقيها أنهار كثيرة تأخذ من شاهرود ، كانت بين مدينة قزوين وآمل ، وفي شرق ناحية رويان • وكان على شاهرود ، على ما بيّنا في الفصل الخامس عشر (في الصفحة ٢٥٥) أعظم قلاع الاسماعيلية أي الحشيشية • وربما كان في ناحية رستمدار هذه ، قلعة كلام ، وقد وصفها ياقوت بقوله انها « قلعة قديمة في جبال طبرستان ، ملكها الملاحدة ، فأنفذ السلطان محمد بن ملكشاه (السلجوقي) من حاصرها وملكها وخرّبها »[١٨] •

وعلى فرسخين من شرق آمل ، في طريق الساحل ، مدينة ميله • وعلى ثلاثة فراسخ مما يليها : بَرجي ، وهي على مرحلة من سارية • وكانت مدينة ممطير ، أو مامطير ، على مرحلة من كل من آمل وسارية ، على ستة فراسخ من البحر ، وهي تطابق بارفروش الحديثة • قال ياقوت : « بها مسجد ومنبر ، ولها رساتيق وقرى وعمارات كثيرة » • وبالقرب من سارية ، وربما الى شرقها ، كانت نامية (أو نامشة) ولها رستاق حسن ، وهي على عشرين فرسخا من سارية • ومهروان ، على عشرة فراسخ من سارية ، بها مدينة ذات منبر وحامية من

---

(١٨) ابن حوقل ٢٧٥ ؛ ياقوت ٢ : ٨٧٣ ؛ ٣ : ٩٣ و ٤٩٠ و ٥٠٤ ؛ ٤ : ٢٤٠ و ٢٩٦ و ٢٩٧ ؛ القزويني ٢ : ٢٣٨ أبو الفداء ٤٣٥ ؛ المستوفي ١٩٠ •

ألف رجل . ولا يعرف ، وآأسفا ، الموضع الصحيح لهاتين المدينتين . وفي آخر الحدود الشرقية لطبرستان ، على ثلاث مراحل من سارية ، في طريق استراباد على مرحلة من الاخيرة : مدينة طميس ، أو طميسة . وتقوم على درب عظيم ممدود من الجبل الى جوف البحر ، وسط المناقع . قال ياقوت ان كسرى أنوشروان (العادل) بناه ليكون دربا يسلكه من يخرج من طبرستان[١٩] .

وفي جنوب شرقي بحر قزوين ، خليج ا ُشَّراده ، على ما يسمى اليوم ، وعنده لسان رملي طويل يمتد شرقا حتى يكاد يصل ساحل جرجان . وقد وصف المستوفي هذا الخليج وجزيرته ، أو شبه جزيرته ، باسم نيم مردان ، فيها موضع آهل في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وكان فرضة تقصدها السفن من سائر أنحاء بحر قزوين . وكانت الفرضة تبعد ثلاثة فراسخ عن استراباد . ويقال للمدينة التي وراءها : شهرأباد وهي ذات تجارات رائجة. وبجوارها ناحية يكثر فيها الحرير والقمح والكروم ، يقال لها كبود جامه ، وقد كانت بلادا كثيرة الغنى والخير ، الا ان الخراب استولى عليها في حروب تيمور ، في ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . ومدينة ُروغد ، أو روغد ، وقد جاء ذكرها في خبر مرور تيمور بها في زحفه على مازندران ، ربما كانت في ناحية كبود جامه . قال المستوفي كانت مدينة وسطة محيطها ٤٠٠٠ خطوة ، تقوم في وسط رساتيق خصبة يكثر فيها القمح والقطن وصنوف الفواكه .

أما تجارات طبرستان ، فالى ما نوّهنا به في الصفحة ٤١٠ ، ذكر المقدسي الاكسية الحسنة والطيالسة وثياب الخبش المحمولة الى الآفاق . وكان يرتفع منها أيضا خشب الخلنج ، وقد مرّ ذكره ، وكان يقطّع قطعا ويحمل منها فتصنع منه في الرى القصاع والاطباق والاواني . والخلنج خشب متنوع الالوان طيب

---

(١٩) ابن حوقل ٢٧٥ ؛ ياقوت ٣ : ٥٠٣ و ٥٠٤ و ٥٤٧ ؛ ٤ : ٣٩٨ و ٦٤٢ و ٦٩٦ و ٧٣٣ .
وأقدم من ذكربارفروش ، باسم باره فروش ده (أى القرية التى تباع منها الاحمال) : احمد الرازى في « هفت اقليم » وهو مؤلف من المئة العاشرة (السادسة عشرة) . انظر : دورن (Dorn) في Muhammedanische Quellen الجزء الرابع ، ص ٩٩ من المتن الفارسي .

الرائحة تصنع منه أحيانا خرز السبحات . وأحسن أنواعه ما ينمو في جبال طبرستان[٢٠] .

جرجان

يمتد اقليم جرجان ، أو گرگان ، على ما ينطق به الفرس ، في جنوب شرقي بحر قزوين . ويضم في الاغلب السهول العريضة والأودية التي يسقيها نهرا جرجان وأترك . وقد كان هذا الاقلم في الأزمنة الاولى ، قائما بنفسه ، وان كان مضافا الى خراسان . ولكن ما أحدثه الفتح المغولي من تغيير أدى الى الحاقه سياسيا بما زندران . وهذا الاقليم ، كغيره من نواحي جنوبي بحر قزوين، قد أغارت عليه جحافل المغول وخربته في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ثم دمرته حروب تيمور في ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) .

وجرجان ، على ما ذكر المقدسي ، وافر الانهار ، وفي سهوله وجباله النخل ، ويكثر فيها النارنج والاعناب . وأهم نهر في هذا الاقليم كان يعرف باسمه ، أي نهر جرجان . وهو النهر الذي قال المقدسي ، في المئة الرابعة (العاشرة) ، انه يعرف بـ « طيفوري » . كما انه لم يذكر نهر أترك . وفي المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، جاء اسم النهر في المستوفي بصورة آب جرجان ، وقال ان نهر جرجان ينبع في وادي شهر ناو (المدينة الجديدة) ومنها يشق سهل سلطان درين فيصل الى مدينة جرجان فاذا جاوزها وقع في بحر قزوين قرب جزيرة آبَسْكُون في خليج نيم مردان . ومجرى هذا النهر برمته كان عميقا لا يكاد يعبر . وكثيرا ما غرق فيه من حاول عبوره من المسافرين . وكانت مياهه في موسم الفيضان تجري في أنهار للسقي ، وان كانت تذهب هدرا في الغالب .

أما نهر أترك ، فهو أطول من جرجان ، ومخرجه في سهول خراسان بين

---

(٢٠) المقدسي ٣٦٧ ؛ المستوفي ١٩٠ و ١٩١ ' جهان نما ٣٣٦ و ٣٤١ ' علي اليزدي ١ ' ٣٤٩ .

لقد تغيرت طبعا هيئة خليج أشراده وشبه جزيرته تغيرا كبيرا منذ المئة الرابعة عشرة للميلاد حين كتب المستوفي ، ولا يعلم الموضع الصحيح للمدينة والفرضة .

نسا وخَبُوشان قرب منابع نهر المشهد • ويجرى نهر المشهد نحو الجنوب الشرقى فى اتجاه معاكس للاول • ونهر أترك عميق الغور ومعظمه صعب العبور ، كنهر جرجان ، على ما ذكر المستوفى • وبعد ان يجرى محاذيا حدود دهستان فى الجانب الشمالى من اقليم جرجان ، يقع فى بحر قزوين • وطول مجراه نحو من ١٢٠ فرسخا • ويقال ان اسم أترك ان هو الا صيغة جمع ترك • فنهر أترك انما سمي بذلك لان الأتراك كانوا يعيشون فى زمن ما على ضفافه • ولم نعثر على اسم لهذا النهر فى كتب البلدانيين العرب الاولين • والمستوفى ، فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، من أقدم من سماه بنهر أترك ، وهى التسمية التى ما زال يعرف بها[٢١] •

أما قصة جرجان ، فهى مدينة بالاسم نفسه ، ويقال لها اليوم « مِن گرگان » • وصفها ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) بقوله انها مدينة حسنة « بناؤها من طين ، وهى أيبس من آمل تربة • والمطر فى جرجان أقل منه فى طبرستان • وجرجان جانبان ، بينهما يجرى نهر جرجان ، » عليه قنطرة معقودة بين الجانبين » • فجرجان الجانب الشرقى ، وبكر أباذ الجانب الغربى • والجانبان ، على وصف ابن حوقل وقد رآهما ، فى نحو مدينة الرى كبرا • وتكثر فى بساتينها الفواكه ، ويعمل بها الابريسم • وسمى المقدسى الجانب الشرقى من جرجان : شهرستان • وقال انها حسنة المساجد والاسواق ، وفى بساتينها رمان وزيتون وبطيخ وباذنجان ونارنج وليمون وأعناب ، وهى جيدة فاخرة رخيصة • وفيها أنهار عليها جسور وطيقان ، وبها ميدان بازاء دار الامير • ولها تسعة أبواب • وحر جرجان شديد ، وذبابها كثير ، وحشراتها مؤذية ، لا سيما براغيثها فانها ضارية تعرف بگرگان ، أى الذئاب • وكانت بكر أباذ ، حسب تهجئة المقدسى لها ، شبه مدينة عامرة بها مساجد ، وتبتعد أبنيتها مسافة كبيرة عن النهر وتمتد قليلا بمحاذاة ضفته الغربية •

---

(٢١) المقدسى ٣٥٤ و ٣٦٧ : المستوفى ٢١٢ و ٢١٣ : جهان نما ٣٤١ : حافظ ابرو ٣٢ أ • يكتب الاسم اترك بدون الف قبل آخره • بينما جمع ترك : أتراك • ومن ثمة قد يكون التفسير الشائع له لا يقوم على أساس صحيح •

ولما كتب القزويني في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، كانت جرجان مشهورة لدى العلويين ، لان فيها مشهدا يقال له گـور سرخ (أي القبر الاحمر) ويقال انه لبعض أولاد علي الذي سماه المستوفي محمد بن جعفر الصادق الامام السادس • وذكر المستوفي ان حفيد ملكشاه السلجوقي قد جدد بناء المدينة ، وكان محيط أسوارها سبعة الآف خطوة • ولما كتب في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، كان الخراب قد دب فيها ، ولم تقم لها قائمة بعد اكتساح المغول لها • وأطرى فواكهها الفاخرة وقد ذكر ، عدا الفواكه المنوه بها قبلا : شجر العناب وهو ينبت من نفسه وتثمر اشجاره ، وعمرها لا يزيد على السنتين أو الثلاث ، مرتين في السنة • وكان أهل جرجان في أيامه من الشيعة ولكنهم غير كثيرين• وفي سنة ٩٧٥ (١٣٩٣) كان تيمور ، الذي خرب مازندران والبلاد المجاورة لها ، قد وقف في جرجان وابتني له على ضفاف نهرها قصره العظيم شاسمن • وقد نوه حافظ أبرو بذكره[٢٢] •

وثانية مدن اقليم جرجان : استراباد ، قرب حدود مازندران ، وصفها المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) بقوله انها مدينة أطيب هواء وأصح ماء من جرجان كلها • ويكثر فيها القز • وقد خرب حصنها في أيامه لان البويهيين خربوا كل هذه البلاد في أثناء قتالهم بني زيار • وزاد المقدسي على ذلك انه كان لها مسجد جامع بني في أيام الفتوحات الاسلامية الاولى ، وما زال قائما في السوق قرب باب المدينة • وكل ما أورده ياقوت والمستوفي عنها ان هو الا تأييد لما مر ذكره ، وأطريا هواء استراباد ووفرة طعامها ، ولم يزيدا على ذلك شيئا • وكانت فرضة جرجان واستراباد على بحر قزوين ، مدينة آبسكون ، وتبعد عن كل منهما مسيرة يوم • والظاهر ان موضعها قد غمره البحر في غضون المئة السابعة

---

(٢٢) ابن حوقل ٢٧٢ و ٢٧٣ ؛ المقدسي ٣٥٧ و ٣٥٨ ؛ القزويني ٢ : ٢٣٥ ؛ المستوفي ١٩٠ ؛ علي اليزدي ١ : ٥٧٨ ؛ حافظ ابرو ٣٢ أ •

وكان يملك جرجان في المئة الرابعة (العاشرة) ، بنو زيار ، وهم منها - وكان سلطانهم قد امتد الى طبرستان والنواحي المجاورة لها • واشهر رجال بني زيار ، قابوس ، المتوفى سنة ٤٠٣ (١٠١٢) وقبره ما زال قائما قرب خرائب مدينة جرجان ، يقال له كنبد قابوس • انظر : سي • اي • يات C.E. Yate في كتاب خراسان وسيستان : ص ٢٣٩ — ٢٤١ •

(الثالثة عشرة) بعد الغزو المغولى • وقد جاء فى الاصطخرى وابن حوقل ، فى المئة الرابعة (العاشرة) ، ان أبسكون سوق كبير لتجارة الحرير وكانت فى ذلك الزمن ثغرا تصدّ الاتراك والغزّ ، وهى فرضة تجارة بحر قزوين التى تحمل الى كيلان • وكان عليها حصن منيع من الآجر ، ومسجدها الجامع فى السوق • وقال المقدسى « هى فرضة جرجان » • وزاد ياقوت على ذلك ان بحر قزوين كان يسمى غالبا بحر أبسكون • واشتهرت أبسكون فى التاريخ بكونها آخر مدينة التجأ اليها محمد ، آخر من حكم من شاهات خوارزم ، وقد فرّ أمام جحافل المغول ومات فيها ذليلا فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠)[٢٣] •

وعلى مسيرة ستة أيام (أو خمسين فرسخا) من شمال أبسكون ، وعلى أربع مراحل من مدينة جرجان ، موضع يعرف بدهستان فى ناحية بالاسم نفسه • وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) ثغرا فى حد الترك • قال ابن حوقل : دهستان بالقرب من بحر قزوين • ولم يكن فيها غير القرى وبعض البساتين ، وأهلها مبشرون فيها • وبالقرب منها ، خليج ضحل فى بحر قزوين كانت السفن ترسو فيه ، ويصيد أهل الساحل سمكا كثيرا منه • وأهم تلك القرى : آخُر ، وقد أشار المقدسى الى انها مدينة ، حولها أربع وعشرون قرية وهذه القرى « من أجل أعمال جرجان » • وفى آخـر : « منارة ترى من البعد فى وسط القرى » •

والى شرق آخـر ، مدينة الرباط وهى « على فم المفازة » حيث يدخل هذه الناحية الطريق الذاهب الى خوارزم • قال المقدسى : « قد خرّب السلطان حصنه ، وكان بثلاثة أبواب ، وهو عامر ظريف • وأسواق بهية ومنازل لطيفة ومساجد حسنة • والمسجد العتيق فيه سواري خشب • وكان النصف الاسفل منه ، فى أيام المقدسى ، تحت الأرض • وللمدينة جامع آخر ، فيه منارة جميلة[٢٤] • وذكر

---

(٢٣) الاصطخرى ٢١٣ و ٢١٤ ؛ ابن حوقل ٢٧٣ و ٢٧٤ ؛ المقدسى ٣٥٨ ؛ ياقوت ١ : ٥٥ و ٢٤٢ ؛ المستوفى ١٩٠ و ٢٢٥ •

وذكر ابن سرابيون (الورقة ٤٦ ب) ان مدينة ابسكون تقوم على نهر جرجان قرب مصبه فى بحر قزوين • المسعودى : التنبيه ٦٠ و ١٧٩ •

(٢٤) قال المقدسى : (ص ٣٥٩) فى الرباط « مسجد بمنارة لاصحاب الحديث » • (م) •

ياقوت هذه المواضع مع مواضع أخرى في ناحية دهستان ، هي : خرتير وفرغول وهبراثان ، ولم يصفها . وذكر المستوفى ، وقد وصف الطريق من جرجان الى خوارزم ، مخترقا دهستان ، ان هذه الناحية ، كانت الحد بين المسلمين والكفرة من الترك والكرد . وهواؤها حار ، ولها نهر يسقيها ، ولكن فواكهها قليلة[٢٥] .

وعلى أربع مراحل من دهستان ، عند حد المفازة ، حيث يبدأ الطريق باجتيازها الى خوارزم ، تقوم مدينة فراوة . ذكر الاصطخرى انها ثغر فى بادية الغز . وكان « يقيم بها المرابطون » فى المئة الرابعة (العاشرة) . وكان بها رباط يحمى البلاد التى وراءها لئلا يتنابها الاتراك « وليست لهم بساتين ولا زروع الا مباقل ، وأهلها دون ألف رجل » . وقد كتب المقدسى اسمها بصورة أفراوة . وقال ياقوت انها كانت رباطا بناه عبدالله الطاهرى فى خلافة المأمون . أما موضعها ، فأكبر الظن ان فراوة تطابق قزل أروات الحديثة ، وهذا الاسم تحريف قزل رباط (أى الرباط الاحمر) . ولم يذكر ياقوت غير أسماء بعض المواضع الاخرى فى اقليم جرجان وقد كانت قرى من أعمال مدينة جرجان أو استراباد . ولم ينته الينا شيء عنها ولم تحدد مواضعها . ويغلب ان تكون قراءة الاسم غير مضبوطة[٢٦] .

وذكر المقدسى مما اشتهر من تجارات جرجان ، صنفا من « المقانع القزية » كان يحمل فى أيامه الى اليمن فى جنوبى بلاد العرب . وكان بها ديباج دون . وكان يكثر فى جرجان الاعناب والتين والزيتون[٢٧] .

---

(٢٥) ترى خرائب هذه المواضع عند حد مفازة خوارزم ، فى مسريان قرب الجبال المعروفة بـ « كورن داغ » . وقد انقطعت الزراعة فى هذه الناحية منذ أمد طويل ، وهى اليوم صحراء لا ماء فيها .

ابن حوقل ٢٧٧ و ٢٨٦ ، المقدسى ٣٥٨ و ٣٥٩ ؛ ياقوت ١ : ٥٩ و ٥٠٠ ؛ ٢ ، ٤١٨ و ٦٣٣ ؛ ٣ : ٨٨٠ ؛ ٤ : ٩٤٩ ؛ المستوفى ١٩٠ و ١٩٧ .

(٢٦) الاصطخرى ٢٧٣ ؛ ابن حوقل ٣٢٤ ؛ المقدسى ٣٣٣ ، ياقوت ٣ : ٨٦٦ ؛ المستوفى ١٩٧ .

وقد ذكر ياقوت من هذه القرى ستة عشر اسما . ياقوت ٢ ، ١٣٧ و ٤٨٩ و ٧٨٢ ؛ ٣ : ٣٢٣ و ٩٢٣ و ٦٣٠ ؛ ٤ . ٢٧٧ و ٣٧٦ و ٣٦٥ و ٣٩٦ و ٥٥٥ و ٦٩٩ و ٧٢٨ و ٩٢٦ و ٦٢٧ .

(٢٧) المقدسى ٣٦٧ .

وليست المسالك فى طبرستان وجرجان كثيرة • لان الجبال فى الاقليم الاول تكاد لا تخترقها الطرق • وذكر الاصطخرى (ومنه اقتبس ابن حوقل) والمقدسى، الطريق الآخذ شمالا من الرى الى آمل ، قاطعا الجبال ، مارا بآسك وبُلُور (بلور) • ويصعب اليوم بل يستحيل تعيين كثير من مراحله • والطريق الذاهب غربا من آمل فى محاذاة الساحل ، ذكر فيه ابن حوقل والاصطخرى المراحل الى نائل وسالوس فالى حد كيلان (الديلم) ، وكذلك ذكرا مراحل الطريق الذاهب شرقا من آمل الى استراباد ومدينة جرجان • والطريق من مدينة جرجان الذاهب شمالا الى دهستان ، ذكر المقدسى مراحله ، وكذلك ذكر المستوفى المراحل فى كلامه على الطريق من بسطام فى قومس الى عاصمة خوارزم • وجاء فى المقدسى أيضا وصف الطريق من بسطام الى مدينة جرجان قاطعا الدرب الجبلى مارا بجهينة، وهى ، على ما ذكر ابن حوقل « واد لقرية حسنة » • وأخيرا وصف المقدسى الطريق من جرجان الذاهب شرقا الى خراسان وهو يقطع فى خمسة أيام الى اسفرايين فى سهل جوين فيجتاز أجغ ويقال لها اليوم أشك • وسنأتى على وصف هذه الناحية فى الفصل القادم[٢٨] •

(٢٨) الاصطخرى ٢١٤ - ٢١٧ ؛ ابن حوقل ٢٧٤ - ٢٧٦ ؛ المقدسى ٣٧٢ و ٣٧٣ ؛ المستوفى ١٩٧

الفصل السابع والعشرون

خراسان

ارباع خراسان الأربعة ــ ربع نيسابور ــ مدينة نيسابور وشاذياخ ــ كورة نيسابور ــ طوس والمشهد ــ بيهق وسبزوار ــ جوين وجاجرم واسفراين ــ استوا وكوجان ــ رادكان ونسا وابيورد ــ كلات ــ خابران وسرخس .

خراسان فى الفارسية القديمة ، معناها « البلاد الشرقية » . وكان هذا الاسم فى أوائل القرون الوسطى ، يطلق بوجه عام ، على جميع الأقاليم الاسلامية فى شرق المفازة الكبرى حتى حد جبال الهند . فخراسان فى مدلولها الواسع هذا ، كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر التى فى الشمال الشرقى ، ما خلا سجستان ومعها قوهستان فى الجنوب . وكانت حدودها الخارجية ، صحراء الصين والپامير من ناحية آسية الوسطى ، وجبال هندكوش من ناحية الهند . الا ان حدودها هذه صارت بعد ذلك ، أكثر حصرا وأدق تعيينا . حتى ليمكن القول ان خراسان ، وقد كان أحد أقاليم بلاد ايران فى القرون الوسطى ، لم يكن يمتد الى أبعد من نهر جيحون فى الشمال الشرقى ، ولكنه ظل يشتمل على جميع المرتفعات فى ما وراء هراة ، التى هى اليوم القسم الشمالى الغربى من أفغانستان . والى ذلك ، فان البلاد فى أعالى نهر جيحون ، من ناحية الپامير ، كانت على ما عرفها العرب

فى القرون الوسطى ، تعد ناحية من نواحى خراسان البعيدة . وكان اقليم خراسان في أيام العرب ، أى فى القرون الوسطى ، ينقسم الى أربعة أرباع ، نسب كل ربع الى احدى المدن الاربع الكبرى التى كانت فى أوقات مختلفة ، عواصم للاقليم بصورة منفردة أو مجتمعة وهذه المدن هى : نيسابور ، ومرو ، وهراة ، وبلخ . وبعد الفتح الاسلامى الاول ، كانت عاصمتا خراسان فى مرو وفى بلخ . الا ان الامراء الطاهريين ، نقلوا دار الامارة الى ناحية الغرب فجعلوا نيسابور فى أيامهم عاصمة الاقليم ، وهى أيضا أكبر مدينة فى أقصى الارباع غربا[1] .

وفى الفارسية الحديثة يلفظ اسمها : نيشابور . وهى فى العربية : نيسابور . وهو مشتق من نيوشاهبور فى الفارسية القديمة ، ومعناه : « (شىء أو عمل أو موضع) سابور الطيب » . وانما سميت المدينة بذلك ، نسبة الى الملك سابور الثانى الساسانى الذى جدّد بناءها فى المئة الرابعة للميلاد ، اذ ان مؤسس نيسابور كان سابور الاول بن أردشير بابكان . وقد سرد البلدانيون العرب فى المئة الثالثة (التاسعة) ثبتا طويلا بأسماء أكبر المدن فى كورة نيسابور التى كانت تضم معظم اقليم قوهستان ، وقد مرّ وصفه . وأهم ما قد يفيدنا به هذا الثبت ، التهجئة القديمة لبعض الاسماء ، وكثير من هذه المواضع لا يمكن تعيينه اليوم[2] .

وفى صدر العهد الاسلامى ، كان يقال أيضا لنيسابور : أبرشهر ، ومعناه : مدينة الغيم فى الفارسية . وبهذه التسمية ظهرت فى الدراهم القديمة التى ضربها فيها الخلفاء الامويون والعباسيون . وسماها المقدسى وغيره باسم ايرانشهر — أى مدينة ايران — أيضا . ولكن هذا الاسم ربما لم يكن غير اسم رسمى ولقب شرف

---

(١) الاصطخرى ٢٥٣ و ٢٥٤ ؛ ابن حوقل ٣٠٨ و ٣٠٩ و ٣١٠ ؛ المقدسى ٢٩٥ ؛ المستوفى ١٨٥ .

(٢) الاصطخرى ٢٥٨ ؛ ابن حوقل ٣١٣ ؛ ابن خرداذبه ٢٤ ؛ اليعقوبى ٢٧٨ ؛ ابن رسته ١٧١ .

المقطع الأول من اسم نيشابور ، فى الفارسية القديمة : « نيو » أو « نيك » . وهو موجود فى الفارسية الحديثة بصورة « نيكو » أى . الطيب . وقد تحول « نى (سابور) » العربى فى الفارسية الحديثة ، الى نيشابور ، لان « ب » تلفظ « پ » (مثلثة) بالفارسية . أنظر : نلدكه فى Sassaniden ص ٥٩ .

لها . كانت نيسابور فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة عامرة جليلة مفترشة البناء ، نحو فرسخ فى مثله ، ولها مدينة وقهندز وربض . ومسجدها الجامع فى الربض ، وهو من بناء عمرو الصفار ، مقابل ميدان يعرف بالمعسكر . وبقربه دار الامارة ، وتفضى الى ميدان آخر يقال له ميدان الحسينيّين والحبس لا يبعد كثيرا عن دار الامارة ، وبين بناء وبناء من هذه الأبنية الثلاثة نحو من ربع فرسخ .

وللقهنـدز بابان . وللمدينة أربعة أبواب . أحدها يعرف بباب القنطرة ، والثانى بباب سكة معقل ، والثالث بباب القهندز (أى باب القلعة) والرابع بباب قنطرة تكين . وأرباضها فى خارج قهندزها ومدينتها ، وتحفّ بهما . وأسواقها فى أرباضها ، ولها أبواب كثيرة . منها باب يعرف بباب القباب . ويخرج منه الى الغرب . ويقابله باب جنـك (أى باب الحرب) أمام ناحية بشـتنفروش[٣] . وباب فى الجنوب يعرف بباب أحوص أباذ وهنالك أسماء أبواب أخرى . وأعظم أسواقها : سوقان أحدهما يعرف بالمربعة الكبيرة ، والاخر بالمربعة الصغيرة . وكان سوق المربعة الكبيرة ، قرب المسجد الجامع ، وقد تقدم ذكره . وسوق المربعة الصغيرة على بعد قليل من السوق الآخر ، فى الارباض الغربيـة قرب ميدان الحسينيين ودار الامارة . وهى أسواق طويلة مكتظة بالدكاكين ، تمتد من مربعة الى المربعة الاخرى ، وتقطعها متعامدة معها أسواق أخرى ، بقرب المربعة الكبيرة وهى تمتد جنوبا الى مقابر الحسينيين ، وتنتهى شـمالا برأس القنطرة على النهر .

وفى هذه الاسواق ، خانات وفنادق يسكنها التجار ، وفيها التجارات كل صنف منها على حدة . وللأساكفة والبزّازين والخرّازين وغيرهم من أصحاب الحرف خاناتهم . ولكل دار فى المدينة قناة تأخذ ماءها من نهر يقال له وادى سغاور ، ينحدر الى نيسابور من قرية بشتنقان المجاورة لها . وعلى هذا الوادى والقنى قوّام وحفظة ، وعمق بعض القنى تحت الارض ربما بلغ مئة درجة . وهذه القنى ، اذا ما جاوزت المدينة ظهرت على وجه الارض فتسـقي المزارع والبساتين .

---

(٣) قال ياقوت (معجم البلدان ١ : ٦٣٠) . « بشتنفروش ، ويقال . بشتفروش ، بغير نون : كورة من اعمال نيسابور ، أحدثها بشتاسف الملك ، بها مئة وست وعشرون قرية » . (م) .

وليس فى كل خراسان ، على ما ذكر ابن حوقل ، مدينة « أصح هواء وأفسح فضاء وأشد عمارة من نيسابور » . وتجارها أهل ثراء ، وتؤمها السابلة والقوافل فى كل يوم . « ويرتفع منها من أصناف ثياب القطن والابريسم ، ما ينقل الى سائر البلدان » . وأيد المقدسى ما سبق ذكره ، وزاد عليه اشياء أخرى قال : فى نيسابور اثنتان وأربعون محلة ، منها ما يكون مثل نصف شيراز . ودروبها المؤدية الى الابواب زهاء الخمسين . ومسجدها الجامع أربع رحبات ، بناه عمرو الصفار ، على ما قد بيّنا ، ويقوم سقفه على أساطين الآجر ، يدور على صحنه ثلاثة أروقة . وأهم بناء فيه قد زوّقت حيطانه بالقرميد المذهب . وللجامع أحد عشر بابا بها أعمدة رخام . وحيطانه وسقفه مجملة مزوّقة . ونهر نيسابور ، على ما سبق ذكره ، يأتى من قرية بشتنقان ، كان يدير سبعين رحى . ومنه تحمل قنى كثيرة تجرى تحت الارض ، ويجرى النهر فيها مسافة فرسخ . وكان فى داخل المدينة وفى دورها آبار كثيرة عذبة الماء[٤] .

وقال ياقوت ، ان فى أيامه ، أى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) كانوا يلفظون اسم هذه المدينة : نشاوور . وأبان عن ان نيسابور بالرغم مما أصابها من الخراب فى زلزال سنة ٥٤٠ (١١٤٥) ، فقد أعقب ذلك نهب عشائر الغز لها سنة ٥٤٨ (١١٥٣) ، ولم ير ياقوت فى خراسان مدينة أحسن منها ، واشتهرت بساتينها بالريباس[٥] وغيره من الفواكه . وبعد فتك الغزّ بها وأسرهم السلطان سنجر السلجوقى وتخريبهم المدينة انتقل الناس الى محلة منها يقال لها شاذياخ ، عمّرها وسوّرها المؤيد عاملها من قبل الملك الأسير سنجر . ومحلة شاذياخ ، ويقال لها الشاذياخ ، كانت قديما بستانا لعبدالله بن طاهر فى أوائل المئة الثالثة (التاسعة) حين نزل نيسابور واتخذها دارا للامارة . وقامت حول قصره ، حيث نزل جنده ، وصارت أكبر أرباض نيسابور ، ثم أضحت بعد غزو

---

(٤) الاصطخرى ٢٥٤ و ٢٥٥ ؛ ابن حوقل ٣١٠ — ٣١٢ ؛ المقدسى ٣١٤ — ٣١٦ و ٣٢٩ .

(٥) الريباس ، على ما فى تاج العروس (٤ : ١٥٩) : « نبت له عساليج غضة الى الخضرة ، عراض الورق ، طعمها حامض مع قبض ، ينبت فى الجبال ذوات الثلوج والبلاد الباردة من غير زرع » . وفى جبال السليمانية فى العراق نبت يقال له هناك « ريواس » يشبه الريباس فى صفته واسمه ولعل هذه من تلك . (م) .

الغز" عاصمة . ونزل ياقوت ، حين مقامه وقتا قصيرا بنيسابور سنة ٦١٣ (١٢١٦)، في الشاذياخ ، وقد وصفها . وبعد ذلك بزمن يسير ، أي في سنة ٦١٨ (١٢٢١) استولى المغول عليها بقيادة جنكيز خان ونهبوها ، على ما انتهى خبره الى ياقوت . وقد كان حينذاك استأمن في الموصل . وقال ياقوت ان المغول « لم يتركوا بها جدارا قائما » .

على ان نيسابور ، صلح أمرها بعد غزو المغول ، فان ابن بطوطة حين زارها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وجدها مدينة عامرة . وقال ان مسجدها بديع ويليه أربع مدارس ، ويقال لها دمشق الصغيرة لكثرة فواكهها وبساتينها . وتسقيها أربعة أنهار تنحدر اليها من الجبال المجاورة . وزاد ابن بطوطة على ذلك انه يصنع بنيسابور « ثياب الحرير من النخ والكمخاء » ويحمل الى أسواقها كثير من التجارات . أما المستوفي ، معاصره ، فقد روى حديثا طويلا عن مدينة نيشابور وكورتها . قال ان مدينة نيشابور القديمة أسست في أيام الاكاسرة على تخطيط كرقعة الشطرنج ، في كل ضلع ثمانية مربعات على ما يقال . ثم اتسعت رقعتها وعظمت ثروتها في أيام بني الصفار وصارت أجل مدن خراسان ، حتى حلت سنة ٦٠٥ (١٢٠٨) فخر"بتها الزلازل . وقد كان بعد هذا التاريخ ، على قول المستوفي ، انتقال السكنى منها لاول مرة الى الشاذياخ . وكان حول هذه البلدة ، سور دوره ٦٧٠٠ خطوة . على ان نيشابور ، قد جد"د بناؤها في الوقت نفسه ، ولكن الزلازل خربتها ثانية في سنة ٦٧٩ (١٢٨٠) ، فابتنيت مدينة نيشابور الثالثة في موضع آخر ، وهذه هي المدينة التي وصفها المستوفي . وكان دور أسوارها حينذاك ١٥٠٠٠ خطوة ، وهي تقوم عند حافة الجبل مقابلة للجنوب . وكانت مياهها كثيرة ، لان نهر نيشابور ، وهو ينبع في الجبال على فرسخين أو أزيد في شرقها ، وافر الماء يدير أربعين رحى قبل وصوله الى المدينة . وقال أيضا ان لأكثر دور نيشابور صهاريج يخزن الماء فيها لأجل موسم الجفاف .

وتقوم مدينة نيسابور الحالية ، في الجانب الشرقي من سهل نصف دائري ، تكتنفه الجبال ويواجه المفازة وهي في جنوبه . ويسقي هذا السهل أنهار كثيرة

تنحدر اليه من المرتفعات التى فى شماله وشرقه • وسرد المستوفى أسماء عدد كبير من هذه الانهار ، وهي بعد أن تسقى رساتيق نيسابور ، تفنى فى المفازة • وعلى خمسة فراسخ من شمال المدينة ، عند منابع نهر نيشابور ، كانت بحيرة صغيرة فى الجبال فى أعلى المضيق يقال لها چشمة سبز ، أى « العين الخضراء » • ومنها كان يخرج ، على ما ذكر المستوفى ، نهران يجرى أحدهما الى الغرب والآخر الى الشرق • وينحدر النهر الشرقى الى وادى المشهد • والظاهر ان هذه البحيرة ، كانت فى جبل يقال له كوه گلشان ، وفيه كانت مغارة الرياح العجيبة ، التى يهب من أعماقها ريح ويندفع منها فى الوقت نفسه ماء تكفى قوته لادارة رحى • وذكر ان محيط بحيرة چشمه سبز نحو فرسخ ، وحكيت عنها عجائب كثيرة ، وقيل انها لا قرار لها ، وان رمي سهم من جانب ، لا يقطعها الى الجانب الآخر •

واشتهرت فى سهل نيسابور ، أربعة رساتيق بوفرة خصبها ، وذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) هذه النواحى ، وهى : الشامات (أى شامات الحسن) ، وريوند ، وما زالت قائمة فى غرب نيشابور ،وماُزل ، وبُشْتَفْرُوش • وكان رستاق ما زل فى الشمال وأكبر قراه بشتقان (أو بشتنقان) وهى على فرسخ من نيسابور وفيها أنشأ عمرو الصفار بستانا له مشهورا • ويرتفع منها ريباس فائق • ويعرف رستاق بشتفروش اليوم باسم پشت فروش ، يمتد مسيرة يوم الى الشرق من باب جنك فى نيسابور ، على ما ذكر المقدسى ، وكانت بساتين قراه المئة والست والعشرين ، على ما ذكر ياقوت ، ذات غلة كبيرة من المشمش الذى يحمل الى سائر الانحاء • وكان رستاق الشامات ، يسميه الفرس على ما ذكر المقدسى تك آب ، أى « اليه يجرى الماء » وهذا الرستاق فى غاية الخصب • أما ريوند ، فمدينة صغيرة فى رستاق على اسمها وهى على مرحلة غرب نيسابور • وكان للمدينة فى المئة الرابعة (العاشرة) جامع بالآجر ، ويشقها نهر ، وهى كثيرة الاعناب ، وبها سفرجل جيد لا نظير له •

ومن أكبر انهار كورة نيسابور ، على قول المستوفى ، شورة رود

« النهر الملح » • وكانت تلتقي فيه مياه النهر الآتي من دزباد ، وبعد ان يسقي رساتيق كثيرة ، يفنى في المفازة • وقد ذكر المستوفي أيضا انهارا أخرى ، غير ان كثيرا من أسمائها مغلوط التهجئة ويصعب اليوم معرفتها ، على ان بعضها لا صعوبة في معرفته • من ذلك نهر بشتقان ، ومخرجه من جهة چشمه سبز ، على ما قد بيّنا • ونهر بشستفروش ، وكلاهما يفيض في الربيع ، على قول المستوفي ، ويلتقي مع شوره رود • ثم هنالك نهر يقال له عطشاباد « أي نهر العطش » وهذا النهر ، وان كان ماؤه في الربيع كافيا لادارة عشرين رحى في مدى عشرين فرسخا من مجراه ، فانه في الفصول الاخرى لا يبقى فيه من الماء ما يروي عطش انسان ، ومن ذلك جاء اسمه المشؤوم[٦] •

والى جنوب شرقي نيسابور ، ينقسم طريق خراسان العظيم ، عند مرحلة عرفها العرب باسم قصر الريح ، والفرس باسم دِزْباد أو دهباد • وقد مرّ بنا آنفا ذكر نهرها بين الانهار التي تصب في نهر شورة • ومنها كان طريق مرو يتجه شرقا ، وطريق هراة يدور الى الجنوب الشرقي • وعند هذه الاخيرة ، وعلى مرحلتين من ده باد ، كانت قرية فرهادان ، وهي التي سماها ياقوت فرهاذ جرد • وأطلق المقدسي على ناحيتها التي كانت تعد من أعمال نيسابور ، اسم أسفند ، وكتب ابن رسته اسمها بصورة أشبند ، وكتبه ياقوت : أشفند ، وزاد على ذلك ان بها ثلاثا وثمانين قرية • والظاهر ، ان اسم الناحية القديم قد ضاع اليوم ، ولكن القرية التي يقال لها فراجرد (عوضا عن فرهاذ جرد القديم) ما زالت يؤشر عنها في الخوارط في الموضع الذي ذكرته كتب المسالك[٧] •

ومدينة المشهد ــ أو مشهد الامام ــ في الجهة الشرقية من نيسابور ، وتفصلها عنها سلسلة الجبال التي فيها مخارج أكثر أنهار سهل نيسابور • وهي اليوم

---

(٦) ابن رسته ١٧١ ؛ المقدسي ٣٠٠ و ٣١٦ و ٣١٧ ؛ ياقوت ١ : ٦٣٠ ؛ ٣ : ٢٢٨ ــ ٢٣١ ؛ ٤ : ٣٩١ و ٨٥٧ و ٨٥٨ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٨٠ و ٨١ ؛ المستوفي ١٨٥ و ٢٠٦ و ٢١٩ و ٢٢٠ و٢٢٦ ؛ جهان نما ٣٢٨ • وراجع C.E. Yate في كتابه خراسان وسيستان ص ٣٥١ و ٣٥٣ عن بحيرة چشمه سبز ومغارة الرياح • وهما ما زالتا مشهورتين في خراسان •

(٧) ابن رسته ١٧١ ؛ المقدسي ٣٠٠ و ٣١٩ ؛ ياقوت ١ : ٢٨٠ ؛ ٣ : ٨٨٧ ؛ المستوفي ١٩٦ و ١٩٧ •

قاعدة القسم الايراني من خراسان • وعلى بضعة أميال من شمال المشهد ، أطلال طوس المدينة القديمة[٨] • وكانت طوس في المئة الرابعة (العاشرة) المدينة الثانية في ربع نيسابور من أرباع خراسان • وتتألف من المدينتين التوأمين الطابَران و نُوقان • وعلى مرحلتي بريد عنها : البستان العظيم في قرية سناباذ ، حيث قبر الخليفة هرون الرشيد وقد توفي فيها سنة ١٩٣ (٨٠٩) وقبر الامام الثامن علي الرضا وقد مات من سم دسه له المأمون[٩] سنة ٢٠٢ (٨١٧) ، وكان يقال لقرية سناباذ هذه : برذعة أيضا ، وتسمى كذلك المثقّب[١٠] • ويظن ان هذه التسمية جاءت من الكوى التي في الضريح أو من سبب وهمي آخر •

وكانت نوقان في المئة الثالثة (التاسعة) ، على ما ذكر اليعقوبي ، أكبر نصفي طوس ، الا ان الطابران قد جاوزتها كبرا في المئة التالية لها ، وبقيت المدينة الكبرى حتى أيام ياقوت ، حين أخربت جحافل المغول طوس • وكانت نوقان مشهورة بصنع البرام التي تحمل منها الى سائر البلدان ، ويستخرج من جبالها معدن الذهب والفضة والنحاس والحديد • وبالقرب من طوس أيضا : الفيروزج ، وحجر يقال له الخماهن والدهنج ، وكانت هذه المعادن تجلب الى أسواق نوقان للبيع • وهذا القسم من طوس ماؤه قليل • وكان الحصن المجاور للطابران بناء فخما عظيما يرى من بعيد ، على قول المقدسي • وأسواق هذا النصف من المدينة عامرة وجامعها حسن البناء بديع التزويق • وكان على القبرين في سناباذ ، في المئة الرابعة (العاشرة) ، حصن حصين منيع ، وفيه قوم معتكفون ، على ما ذكر ابن حوقل • وقال المقدسي : ان الامير عميد الدولة فائقا ، بنى على قبر الامام علي الرضا ، مسجدا

---

(٨) نشر السيد محمد مهدي العلوي رسالة في « تاريخ طوس » طبعت في بغداد • (م) •

(٩) راجع هذا الموضوع في كتاب « الامام علي الرضا » لعبد القادر احمد اليوسف : (بغداد ١٩٤٧ : ص ١٠٠ - ١١٠) • (م) •

(١٠) أطلق اسم المثقب على حصون مختلفة ، احدها قرب المصيصة (Mopsuestia) وقد مر ذكرها في الفصل التاسع صفحة ١٦٢ • ولم يفسر أصل تسميتها ببرذعة • اما نوقان ويلفظ نوكان ، فهو ما زال اسم المحلة الشمالية الشرقية وبابها في « المشهد » الحديثة وبابها المؤدي الى نوقان في طوس وما زال ماء سناباذ اليوم يسقي القسم الشمالي الغربي من المشهد •

ابن رسته ١٧٢ ؛ ابن خرداذبه ٢٤ ؛ ياقوت ٤ : ٤١٤ ؛ C. E. Yate في كتاب خراسان وسيستان • ص ٣١٦ و ٣١٧ •

« ما بخراسان أحسن منه » وبُني قبر هرون الرشيد بجانب ضريح الامام . وقامت فى أرض البستان الكبيرة دور كثيرة وسوق .

ولم يزد ياقوت فى وصفه مدينة طوس شيئا على ما مرّ ذكره ، غير انه ذكر ان من أشهر القبور فى الطابران : قبر الفقيه السني العظيم الامام الغزالى[١١] المتوفى سنة ٥٠٥ (١١١١) وقد عاش فى بغداد بضع سنين مدرسا فى المدرسة النظامية . وكان اسم طوس حين كتب ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) يدل فى الغالب على ناحيتها ، وكان بها أكثر من ألف قرية . على ان هذه البلاد ، وبضمنها مدينتا طوس والقبران فى سناباذ (المشهد) ، قد خربتها ونهبتها جحافل المغول فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) . والظاهر ان طوس لم تقم لها قائمة بعد نهب المغول لها ، ولكن القبرين المحاورين لها ، نالا عناية الاثرياء من الشيعة فاستعادا بهاءهما السابق ، فكان المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) من أوائل من أشار الى قرية سناباذ مسميا اياها « المشهد » ، وهو الاسم الذى عرفت به منذ ذلك الحين .

وقال القزوينى فى قبرى الخليفة والامام « أن الرشيد فى القبر الذى يعرفه الناس للرضا ، والرضا فى القبر الذى يعرفه الناس للرشيد ، وذلك من تدبير المأمون (وهو ابن هرون الرشيد الذى دس السم لعلي الرضا) . والقبران متقاربان فى قبة واحدة . وأهل تلك القرية شيعة ، بالغوا فى تزيين القبر الذى اعتقدوا انه للرضا وهو للرشيد » . ولما كتب المستوفى ، صارت المشهد مدينة عظيمة حولها قبور عديدة مع قباب مشهورة كثيرة منها قبر الغزالى وقد مرّ ذكره الآن وهو فى شرق قبة الضريحين ، وهناك أيضا قبر الفردوسى الشاعر المشهور . وحول المدينة أرض سهلة خصبة يقال لها مرغزارتكان ، طولها اثنا عشر فرسخا وعرضها خمسة . يكثر فيها العنب والتين . وأهل ناحية طوس ، على ما ذكر المستوفى ، من أحسن الناس أخلاقا وألطفهم مع الغرباء .

وانتهى الينا من ابن بطوطة ، وقد زار مشهد الامام الرضا بعد ذلك ببضع

(١١) وفى بغداد اليوم فى الجانب الشرقى قرب محلة باب الشيخ قبر منسوب الى الغزالى المذكور ولا يصح ذلك أبدا . (الدكتور مصطفى جواد)

سنين ، وصف حسن للضريح ، قال : مدينة كبيرة ضخمة عامرة الاسواق وحولها جبال ، وعلى المشهد قبة عظيمة ، وتجاوره مدرسة . وهذه الابنية قد زوقت جدرانها بالقاشانى « وعلى قبر الامام ، دكّانة خشب ، ملبّسة بصفائح الفضة ، وعليه قناديل فضة معلقة . وعتبة باب القبة فضة . وعلى بابها ستر حرير مذهب ، وهى مبسوطة بأنواع البسط » . وازاء هذا القبر ، قبر الخليفة « وعليه دكانة خشب ، يضعون عليها الشمعدانات » واذا دخل الشيعى للزيارة ركل قبر هرون الرشيد برجله وسلم على قبر الامام الرضا . وقد تنبه الى فخامة ضريح الامام وجلاله ، السفير الاسبانى كلافيجو Clavijo الذى زار بلاط تيمور فى سنة ٨٠٨ (١٤٠٥) فقد مرّ فى طريقه بالمشهد . ومما يذكر ان النصارى فى تلك الايام كان يسوغ لهم دخول المشهد ، فلم يكن الشيعة الفرس على ما هم عليه اليوم من تعصب فى هذا الامر[١٢] .

وعلى مسيرة أربعة أيام من غرب نيشابور فى رستاق بيهق ، مدينتا سبزوار وخسروجرد ، وبينهما فرسخ . وسبزوار أكبرهما ، وكانت تسمى هى نفسها فى العصور الوسطى بيهق . ورستاق بيهق يمتد الى آخر حدود ريوند ، وقطره خمسة وعشرون فرسخا من كل جهة . وبه ، على ما قال ياقوت ٣٢١ قرية ، وزاد على ذلك ان أصل بيهق بالفارسية بيهه أى بَهاين ومعناه الأجود . وأشار ياقوت أيضا الى أن سابزوار أصح تسمية للمدينة ، وان قالت العامة سبزوار . وقد كانت خسرو جرد فى الاصل قصبة الرستاق ، ولكن سبزوار قد حجبتها فى أيامه وصارت فى مكانها . وقال المستوفى ان أسواق هذه المدينة كانت

---

(١٢) يلفظ الفرس اليوم ، اسم الامام الرضا ، بصورة رزا .

اليعقوبى ٢٧٧ ؛ الاصطخرى ٢٥٧ و ٢٥٨ ؛ ابن حوقل ٣١٣ ؛ المقدسى ٣١٩ و ٣٣٣ و ٣٥٢ . ياقوت ٣ : ١٥٤ و ٤٨٦ و ٥٦٠ و ٥٦١ ، ٤ : ٨٢٤ ؛ القزوينى ٢ : ٢٦٢ ؛ المستوفى ١٨٦ ؛ ابن بطوطة ٣ ٧٧ ـ ٧٩ Narrative of the Embassy of Ruy Gonzalez de Clavijo (Hakluyt Society) ص ١٢٠ جاء فيها : « ذهب السفراء لمشاهدة الجامع ، ثم لما سمعهم الناس فى بلدان اخرى يتحدثون عن زيارتهم هذا الضريح ، قبلوا ثيابهم قائلين انهم كانوا قرب مشهد خراسان المقدس » .

ذات سقوف من الخشب تقوم على طيقان متينة البناء . وتكثر فى هذا الرستاق الاعناب والفواكه الاخرى . وكان جلّ أهله من الشيعة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة)[١٣] .

وقد كان يصل بين بسطام (فى اقليم قومس) ونيسابور : طريقان ، أقصرهما طريق البريد ، وكان فى محاذاة شفير المفازة ويشق سزوار . وأطولهما طريق القوافل وهو فى الشمال ، ويدور فى هضبة جوين التى يفصلها عن المفازة الكبرى سلسلة من الجبال . وكان رستاق جوين هذا ، وهو ما قد سماه المقدسى گويان ، رستاقا واسعا كثير الخير ، واسم مدينته : أزاذوار أو أزادوار . وكان رستاق اسفرايين فى شماليه . وفى الطرف الغربى على حد قومس كان رستاق أرغيان ، حول جاجرم . وكان من أعمال أزاذوار نحو من مئتى قرية ، على قول ياقوت . وأزاذوار ، على وصفه ، كانت مدينة عامرة بها مساجد حسنة ، وبظاهرها عند الباب خان كبير للتجار . وأسواقها زاخرة بالتجارات . وكانت بساتين قراها متصلة حتى الوادى . وسقيها من قنى تأخذ ماءها من عيون فى الجبال الجنوبية . وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) انتقلت قصبة رستاق جوين ، على ما ذكر المستوفى ، الى فريومد ، وهى على بضعة أميال جنوب ازاد وار . وكانت خداشة ، وهى على مرحلة شرق أزاد وار فى طريق القوافل ، موضعا ذا شأن حيث قُتل فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حاجى برلاس عم تيمور ، حسبما ذكر علي اليزدى فى تاريخه[١٤] .

أما مدينة جاجَرم ، ويقال لها أيضا أرغيان ، وهو اسم ناحيتها بوجه خاص ، فان المقدسى قال فيها جامع حسن وكانت محصنة ومن أعمالها سبعون قرية . ووصف ياقوت مدن سملقان أو سمنقان الثلاث وقال انها شرق جاجرم ، وهى

---

(١٣) المقدسى ٣١٧ و ٣١٨ ؛ ياقوت ١ : ٨٠٤ ، ٢ : ٤٤١ ؛ المستوفى ١٨٦ . وللاطلاع على اطلال بيهق ، انظر . C.E. Yate فى كتاب خراسان وسيستان . ص ٣٩٨ .

(١٤) المقدسى ٣١٨ ؛ ياقوت ١ . ٢٣٠ ، ٢ : ١٦٥ ؛ المستوفى ١٨٦ و ١٩٦ ؛ على اليزدى ١ : ٥٨ .

وقد يلتبس بين اسم خداشه ، وهى على أربعة فراسخ من شرق ازادوار ، وخراشة ، وهى على نحو المسافة نفسها شمال أزاد وار ، لأن هذين الاسمين تكادان يتشابهان فى كتابتهما بالعربية .

راونير (أو راونسر) وبان وهما فى رستاق أرغيان أو جاجـرم ، ولم يعين موضعيهما . وذكر أيضا : سـبنج أو اسفنج ، وهى ما زالت قائمة فى جنوب غربى جاجرم على طريق بسطام . وقد سمى المستوفى هذا الموضع رباط سونج. ووصف المستوفى جاجرم بانها مدينة لا بالكبيرة ولا بالصغيرة ولا يمكن لأى جيش أن يهاجمها . لكونها وسط برية تحيط بها مسيرة يوم من كل جهة يكسوها عشب سام يفتك بالماشية . ولكن قد كان عند قاعدة قلعتها ، شجرتان من الچنار من مضغ شيئا من لحائها فى صباح الاربعاء شفى من وجع الاسنان . وزاد المستوفى على ذلك ان هذا اللحاء كان يحمل الى سائر البلدان . وكان رستاقها كثير الخير ، فيه الفواكه والقمح . ونهر جاجرم ، وكان يجرى نحو الجنوب وينتهى بالمفازة ، قد سماه المستوفى جغان رود ، ومخرجه من ثلاثة ينابيع كل منها يدير رحى . وبعد ان يجتمع ماؤها ، يجرى مسافة اثنى عشر فرسخا أو أكثر . وهذا الماء كان يستعمل أكثره للسقى[١٥] .

وسهل أسفرايين العظيم ، قد قال المقدسى فيه ان بـه مزارع الارزاز الكثـيرة والاعناب . ومدينته على اسمه ، عامرة ذات أسواق حسنة . وذكر ياقوت ان مدينة اسفرايين كان يقال لها قديما مهرجان ، وقد كان هذا الاسم حين كتب فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ما زال اسما لقرية قرب المدينة الخربة . ومن أعمالها احدى وخمسون قرية . واسم اسفرايين على ما قال ياقوت ، أصله « من اسبرايين ، وأسبر بالفارسية هو الترس ، وايين هو العادة . فكأنهم عرفوا قديما بحمل التراس ، فسميت مدينتهم بذلك » . وروى المستوفى انه كان فى جامع اسفرايين وعاء عظيم من النحاس لم ير أعظم منه ، فان محيط حافته الخارجة كان اثنتى عشرة ذراعا . وكان فى شمال المدينة قلعة زر ، أى قلعة الذهب . وماء البلدة من نهر يمر من أسفل التل الذى عليه القلعة . وكانت تكثر فى

---

(١٥) المقدسى ٣١٨ ؛ ياقوت ١ : ٢٠٩ و ٢٤٩ و ٤٨٥ ؛ ٢ : ٤ و ٧٤٢ ؛ ٣ : ٣٥ و ١٤٥ ؛ المستوفى ١٨٦ و ١٩٦ و ٢٢٠ .

رستاقها أشجار الجوز • وهواؤها رطب ويكثر فيها الاعناب والقمح[١٦] •

وفي المستنقعات التي يخرج منها نهر أترك فيجرى الى الغرب ، ثم ينعطف باتجاه معاكس لمجراه الاول، أى الى الشرق، ويخرج أيضا نهر المشهد : تقوم مدينة كوچان • وكان يقال لها في العصور الوسطى خبوشان أو خوجان • وقد سمى البلدانيون العرب رستاقها أستوا وأطروا خصوبة أرضه ، ويقال ان معنى اسمها « الارض المشرفة »[١٧]• وكان يلي أستوا من الشرق ، رستاق نسا • قال ياقوت ان اسم قصبته كان يلفظ في أيامه خوشان ويشتمل على ثلاث وتسعين قرية • وجاء اسمها في جهان نما بصورة خوچان • وذكر المستوفي انه وان كان اسم استوا ما زال يشار به الى الرستاق في السجلات المالية ، فانه لم يكن شائعا في أيامه • وأطرى خصوبة أرضه وزاد على ذلك ان هولاكو خان المغولي قد أعاد بناء خبوشان في المئة السابعة (الثالثة عشرة) ثم وسّع حفيده أرغون ، من ايلخانيي فارس ، هذه المدينة كثيرا • وفي نحو من نصف الطريق بين خبوشان وطوس ، مدينة راذكان ، ذكرها ابن حوقل ووصفها ياقوت بقوله : بليدة ، يقال ان منها نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي[١٨] •

ورستاق نَسا أو نسا المشهور ، هو الوادي العريض المعروف اليوم بـ « درّه‌گز » أى وادى المن وقد وصف ابن حوقل مدينة نسا بانها في الكبر نحو سرخس ، ومياهها جارية ، مخرجها في الجبال المجاورة • وامتدح المقدسي جامعها الظريف وسوقها العامرة وقال « أقل دار ، الا وبها بستان وماء جار » • وبها قرى كبار تنتشر حولها في الوادي • أما ياقوت فقد قال في نسا « هي

---

(١٦) المقدسي ٣١٨ ؛ ياقوت ١ : ٢٤٦ ؛ المستوفي ١٨٦ •

ولعل مدينة اسفرايين القديمة (وما زال السهل هناك يعرف باسمها) تطابق الخرائب المعروفة بشهر بلقيس • انظر C.E. Yate في كتاب خراسان وسيستان • ص ٣٧٨ و ٣٧٩ •

(١٧) جاء في معجم البلدان (١ : ٢٤٣) : « استوا ••• معناه بلسانهم المنحاة والمشرفة » (م) •

(١٨) ابن حوقل ٣١٣ ؛ المقدسي ٣١٨ و ٣١٩ ؛ ياقوت ١ : ٢٤٣ ؛ ٢ : ٤٠٠ و ٤٨٧ و ٧٣٠ ؛ المستوفي ١٨٦ ؛ جهان نما ٣٢٣ •

لقد بنيت مدينة بجنورد (بضم الباء والنون ، وسكون الجيم والراء) الحالية ، وهي في شمال اسفرايين ، على ستين ميلا شمال غربي كوچان ، منذ قرنين • ولكن بالقرب منها مدينة قديمة يقال لها بزهان وهي ما زالت قائمة • ويقال لقلعتها الخربة ، القلعة • انظر C.E. Yate في كتاب خراسان وسيستان ص ١٩٥ و ١٩٦ ؛ وسايكس في Persia ص ٢٢ •

مدينة وبئة جدا يكثر بها خروج العرق المديني[١٩] حتى ان في الصيف قل من ينجو منه من أهلها » ، وذكر القزويني ، ان نسا كان يقال لها شهر فيروز ، لان فيروز الملك الفارسي القديم قد بناها على ما يقال[٢٠] .

والى شرق نسا ، في ما وراء الجبل ، وعلى حافة مفازة مرو : كانت أبيورد ويلفظ هذا الاسم أحيانا باورد . قال المقدسي « ابورد أعجب اليّ من نسا وأحر سوقا وأرخى وأخصب ، والجامع بالسوق » . وأطرى المستوفي فواكهها . وقال ان الرباط في كوفن تابع لأبيورد ، وهو في قرية على ستة فراسخ منها . بنى هذا الرباط عبدالله بن طاهر في المئة الثالثة (التاسعة) ، وكان له اربعة أبواب ، وفي وسطه جامع . وكان يقال لرستاق أبيورد : خابران ، أو خاوران . وقصبته مِهْنَه أو مَيْهَنَه . وذكر ياقوت مواضع أخرى مهمة في هذا الرستاق ، منها أزجاه وباذن وخرو الجبل وشُوكان ، الا ان ميهنه كانت خرابا حين كتب . وفي المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تكلم المستوفي على بساتين رستاق خاوران الكثيرة الحسنة ــ وجاء فيه الاسم بصورة خوردان أيضا ــ وقال ان في قصبتها كان يعيش الشاعر أنوري ، من أهل المئة السادسة (الثانية عشرة) مادح السلطان سنجر السلجوقي[٢١] .

وفي الجبال ، في نحو من نصف الطريق بين أبيورد ومهنه ، تقوم القلعة الطبيعية الهائلة المعروفة اليوم بـ « كلات نادر » ، نسبة الى نادرشاه ملك بلاد

---

(١٩) العرق المديني واسمه بالانكليزية Guinea-worm واسمه العلمي Filaria Medinensis دودة بالغة ، الانثى منها طفيلية تحت جلد الانسان في الهند وغرب آسية الجنوبي وافريقية الحارة وبعض جهات من اميركة ، وقد يبلغ طول الدودة ست اقدام . وبسببها يتكون خراج في جلد الثوى المصاب بها . وتخرج منه لولادة آلاف من الاجنة الصغيرة . وقد تكلم عليه ابن سينا . (راجع : معجم شرف . الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٨ ، ص ٣٤٨) . (م) .

(٢٠) الاصطخري ٢٧٣ ؛ ابن حوقل ٣٢٤ ؛ المقدسي ٣٢٠ ؛ ياقوت ٤ : ٧٧٦ ؛ القزويني ٢ : ٣١١ . ولعل مدينة نسا تطابق محمد اباد الحديثة ، أكبر مدن دره كز .

(٢١) المقدسي ٣٢١ و ٣٣٣ ؛ ياقوت ١ : ١١١ و ٢٣٢ و ٤٦٢ ؛ ٢ : ٣٨٣ و ٣٩٥ و ٤٢٨ ؛ ٣ : ٣٣٧ ؛ ٤ : ٣٢١ و ٧٢٣ ؛ المستوفي ١٨٩ ؛ علي اليزدي ١ : ٣٨٢ ؛ جهان نما ٣١٨ .

واسم خاوران جاء من خروران ــ بفتح اوله وسكون ثانيه ــ القديم ومعناه البلاد الغربية (مقابل : خراسان أي البلاد الشرقية) . الذي كان يطلق قديما على بلاد فارس الغربية مما لم يكن يعد حينئذاك من خراسان (أي من البلاد الشرقية) .

فارس المشهور فى المئة الثامنة عشرة للميلاد الذى أخفى كنوزه فيها • والظاهر ان هذا المعقل الحصين لم تذكره كتب المسالك ولم ينوه به البلدانيون العرب فى المئين الثالثة والرابعة (التاسعة والعاشرة) ولم يتنبّه اليه ياقوت وأقدم ذكر انتهى الينا عن كلات ، جاء به العتبى فى كتابه تاريخ محمود الغزنوى • فقد ذكر عرضا ، ان أميرا من الامراء ذهب من نيشابور الى كلات ، وتكتب بالعربية بصورة قلعة • وقد أوجز المستوفى وأفاد فى صفة هذا الموضع وقال ان أهم مدنه يقال لها جــرم ومريناں ، وان كلات بها ماء وافر وأرضها زراعية وفى نواحيها كثير من القرى • وأول اشتهارها فى التاريخ جاء من حصار تيمور لقلعتها فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وبعد ان سقطت بيده ، أمر باعادة بناء حصونها وتمكين بنائهـا[٢٢] •

وتقوم مدينة سَرَخْس فى أقصر طريق من طوس الى مرو الكبرى ، على ضفة نهر المشهد اليمنى أى الشرقية ، ويقال له اليوم تَجَنْد • والظاهر ، ان هذا النهر لم يذكره بلدانيو القرون الوسطى • ومخرجه ، على ما قد مرّ بيانه ، فى المنابع القريبة من كوچان • وهو يجرى أولا نحو الجنوب الشرقى مارا بالمشهد • فاذا ما جاوزها مسافة تقرب من مئة ميل ، استقبل من الجنوب رافدا كبيرا هو نهر هراة • ثم يتجه نحو الشمال فجرى الى سرخس • وعلى مسافة قليلة من شمال ذلك ، عند خط طول ابيورد ، توزع مياهه ثم تفنى فى رمال المفازة عند موضع يقال له الأجمة حيث تكثر أشجار الطرفاء • ولم ينوّه الاصطخرى وابن حوقل بنهر تجنــد هذا الا بقولهما انه نهر « من فضل مياه هراة » • وقال ابن رسته ، وقد كان رأيه فى هذا النهر رأى من ذكرنا ، اذا صار نهر هراة (أى القسم الاسفل من تجند) على فرسخين من سرخس ، اشعب منه نهـر

---

(٢٢) العتبى : كتاب اليمينى • المتن العربى (القاهرة سنة ١٢٨٦ هـ) ، ١ : ٢١٥ ؛ المتن الفارسى (طهران ١٢٧٢ هـ) ص ١٥١ ؛ المستوفى ١٨٧ ؛ على اليزدى ١ : ٣٣٤ و ٣٣٧ ؛ جهان نما ٣٢٣ •

كلات بالفارسية ترادف كلك بالارمنية ، ويراد بها « مدينة » وهى بالعربية « قلعة » • قد زار كلات نادر ، كولونيل ماك كريكر Mac Gregor فى سنة ١٨٧٥ ووصفها بدقة فى كتابه (Journey Through Khurasan) (الجزء الثانى ص ٥١) •

الى هذه المدينة ، وانشعبت أيضا انهار كثيرة تسقى رستاق سرخس ، أهمها نهر يعرف بـ « خُشْكْرود » (أى النهر الجاف) وعليه قنطرة حجارة عظيمة . ولكن فى أكثر أيام السنة ، لا يدوم الماء فى النهر ، حتى عند سرخس .

وكانت سرخس فى المئة الرابعة (العاشرة) ، مدينة عظيمة نحو من نصف مرو ، صحيحة التربة والهواء ، وتكثر فى مراعيها الجمال والاغنام ، ولو ان ما يزرع من أراضيها محدود المساحة لقلة مائها . وقال المقدسي ان فيها جامعا وأسواقا حسنة ولها بساتين كثيرة فى أرباضها . وقال القزوينى ان سرخس مدينة كبيرة آهلة « ولاهلها يد باسطة فى عمل العصائب والمقانع المنقوشة بالذهب ، منها تحمل الى سائر الآفاق » . وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، وصف المستوفى أسوار سرخس وقال ان دورها خمسة آلاف خطوة ، وعليها قلعة حصينة ، وشربهم من نهر يأتى من طوس وهراة (ولم يذكر اسم تجند) . وهو نهر حسن ، ماؤه يساعد على الهضم ، وكان يسقى مزارع سرخس التى يكثر فيها البطيخ والعنب[٢٣] .

---

(٢٣) ابن رسته ١٧٣ ؛ الاصطخرى ٢٧٢ ؛ ابن حوقل ٣٢٣ و ٣٢٤ ؛ المقدسى ٣١٢ و ٣١٣ ؛ القزوينى ٢ : ٣٦١ ؛ المستوفى ١٨٦ .
تقوم سرخس الحديثة على الضفة الغربية لنهر تجند .

الفصل الثامن والعشرون

خراسان «تابع»

ربع مرو – نهر مرغاب – مرو الكبرى وقراها –
آمل وزم على جيحون – مرو الروذ أو
مرو الصغرى وقصر احنف ٠

يمتد ثاني أرباع خراسان ، وهو ربع مرو ، على نهر مرغاب أي نهر مرو ٠ وينحدر هذا النهر من جبال الغور في شمال شرقي هراة ، ثم يمر بمرو الصغرى ويدور منها شمالا الى مرو الكبرى ، حيث تتشعب منه جملة أنهار ، ثم يفنى ماؤه في رمال مفازة الغز ، وهي في نحو من خط طول سباخ نهر تجند أي نهر هراة ، ولكنها تبعد نحوا من ميلا عن شرق هذا النهر ٠

وما خلا المدن المختلفة المنتشرة على نهر مرغاب ، فان ربع مرو ، يشتمل أيضا على المواضع القائمة على طريق خراسان العظيم ، مما يلي مرو الى الشمال الشرقي من نهر جيحون عند آمل ، حيث معبر الطريق الى بخارا ٠

واسم ُمرغاب ، أو َمرغاب ، أصله على ما ذكر ابن حوقل ، مرو آب (أي ماء مرو) الا ان الاصطخري قال ان مرغاب اسم موضع ينبع فيه هذا النهر ٠ وسمى المقدسي نهر مرغاب نهر المروين ، وقال هو « يمد الى مرو العليا (أي الصغرى) ثم يعطف الى السفلى (أي مرو الكبرى) » فاذا صار من مرو الكبرى على نحو من مرحلة ُسدّ قاعه من الجانبين بالحطب فانحبس بذلك الماء وامتنع

مجراه عن أن يتحول . وكان على هذا السد فى المئة الرابعة (العاشرة) أمير لحمايته تحت يده عشرة آلاف رجل ، وعليه حراس يحفظونه لئلا ينبثق « ولا ترى أحسن ولا أتقن من قسمته » . وقد أقيم لوح على السد لقياس علو الماء وقت الفيضان . « وربما علا الماء فبلغ طوله فى اللوح ستين شعيرة ، ويستبشر الناس بذلك ، واذا كانت ست شعيرات ، كانت سنة قحط » .

وعلى فرسخ من جنوب مدينة مرو الكبرى ، أقيم فى النهر سد شبه حوض عظيم مستدير ، منه تخرج أربعة أنهار الى محلات وارباض المدينة المختلفة . وقد أقيم فى الحوض أبواب ومقاسم تضبط علو الماء فى الحوض . ويبتهج الناس حين يصل الفيضان حدا عاليا ، فتفتح السدود المختلفة ويوزع الماء على الانهار « قدر الحاجة » . وأسماء هذه الأنهار الاربعة ، المادة الى المدينة ، على ولاء ، هى : نهر هرمز فرّه ويجرى غربا . وفى شرقه نهـر الماجان ، ثم نهـر الزرق أو الرزيق ، وآخرها نهر أسعدى . ويبدو ان عمود نهر مرغاب هو نهر الماجان أحد هذه الانهار الاربعة . وهو بعد أن يشق البلد ويتخلل أرباضها ، وعليه هناك جسور ، يخرج الى المفازة فيوالى جريه حتى تضيع مياهه فى السبخة . وذكر ياقوت فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ان نهر مرغاب كان يعرف فى أيامه بنهر رزيق (ولعله يطابق النهر المذكور أعلاه) وقال ان هذا الاسم كثيرا ما أخطأوا فيه فقالوا : زربق . وهناك صورة ثالثة سماه بها كتاب جهان نما وهى زربق . وجاءت هذه الاسماء فى المستوفى أيضا ، وقد ذكر ان مرغاب هى التسمية الشائعة فى أيامه . وما زال هذا النهر الكبير معروفا بهذا الاسم حتى اليوم[1] .

وكانت مرو الكبرى تعرف فى العصور الوسطى بمرو الشاهجان تمييزا لها عن مرو الروذ وهى مرو الصغرى . ولعل الشاهجان ليس الا الصيغة العربية لـ « شاهگان » الفارسية القديمة ، ومعناها « السلطانى » أو « يخص السلطان » .

---

(١) الاصطخرى ٢٦٠ و ٢٦١ ؛ ابن حوقل ٣١٥ ؛ المقدسى ٣٣٠ و ٣٣١ ؛ ياقوت ٢ ٧٧٧ ؛ المستوفى ٢١٤ ، جهان نما ٣٢٨ .

وأطلق حافظ ابرو على الموضع الذى تلتقى فيه مياه مرغاب بين الرمال اسم ماياب . راجع حافظ ابرو ٣٢ ب . وانظر الخارطة ١٠ أمام الفصل التالى والثلاثين للاطلاع على ما حول مرو من مدن . ويخمن ان ستين شعيرة تعادل ذراعا .

أما ياقوت الحموى وغيره فقالوا ان الشاهجان معناه « نفس السلطان » . ومرو ، على ما وصفها الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، تتألف من قلعة داخلة (قهندز) ، والقهندز مرتفع « ومقداره مقدار مدينة » حوله المدينة الداخلة ، ولها أربعة أبواب ، ويليها أرباض واسعة تمتد على ضفاف الانهار الكبيرة . والابواب الاربعة للمدينة الداخلة : باب المدينة (فى الجنوب الغربى) ، واليه ينتهى طريق سرخس . وباب سنجان (فى الجنوب الشرقى) ، ويفضى الى ربض بنى ماهان ونهر أسعدى . وباب درمسكان (فى الشمال الشرقى) ، ومنه يخرج الى ما وراء النهر . والباب الرابع يعرف بباب بالين (فى الشمال الغربى) . وكان فى مرو فى المئة الرابعة (العاشرة) ثلاثة مساجد جامعة : أولها مسجد القلعة، ويقال له مسجد بنى ماهان . ثم المسجد العتيق ، وكان على باب المدينة المفضى الى سرخس . والمسجد الثالث هو المسجد الجديد فى ربض ماجان فى خارج باب ماجان ، جنب الاسواق الكبرى فى مرو .

ونهر رزيق يدخل المدينة من باب يقال له باب المدينة ثم يدخل المسجد العتيق ، فتتفرق مياهه فى حياض لشرب أهل المحلة . ويجرى نهر ماجان فى غربه وهو يسقى ربض ماجان الكبير ، وكان حول الميدان ، وفى الميدان المسجد الجديد ودار الامارة والحبس ، وهى من بناء أبى مسلم (الخراسانى) أكبر دعاة العباسيين ، وكان له الفضل الأول فى نيلهم الخلافة ، على ما فى التاريخ . وفى دار الامارة ، قبة من الآجر سعتها خمسة وخمسون ذراعا على ما ذكر الاصطخرى ، وعندها « صبغ أول سواد ولبسته المسوّدة » واتخذ السواد شعارا للدولة الجديدة .

وفى غرب نهر ماجان ، على ما بيّنا ، نهر هرمز فرّه ، وكان فى نهاية أرباض مرو . وعلى ضفافه أبنية وبيوت كثيرة وعليه بنايات حسين الطاهرى، وكان قد نقل كثيرا من الاسواق الى هذا الربع . وتكلم ياقوت بعد ذلك بزمن على ربض ماجان الغربى العظيم وذكر دربين من دروبه هما الدرب المعروف بـ « برارجان » (عوضا عن برادرجان) أى « نفس الاخ » فى ماجان الاعلى . ودرب تخاران به . ثم

يصل نهر هرمز فره الى بلدة بهذا الاسم قرب سباخ نهر مرغاب، فيها جامع . وكان على فرسخ من هرمز فره بلدة باشان ، فيها أيضا مسجد جامع . وفى هذا الجانب من مرو بلدة خرق (أو خره) وبلدة السوسنقان[٢] ، وبينهما فرسخ . وكان فى كل واحدة منهما مسجد جامع .

وعلى مرحلة من غرب مرو ، مدينة يقال لها سِنْج[٣] (وكتبها المقدسى : سنك) . وفيها مسجد جامع حسن على نهر وبها بساتين كثيرة . ويليها على مرحلتين من جنوب غربى مرو ، فى الطريق الى سرخس ، مدينة الدمدانقان . وكانت مدينة صغيرة محصنة لها باب واحد وحمامات فى ظاهر سورها . ورأى ياقوت خرائبها فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) فان الاتراك الغزية خربوها فى سنة ٥٥٣ (١١٥٨) . وعندها تنتهى مزارع مرو فى الجنوب الغربى . أما كُشْمَيْهَن ، وهى على مرحلة من مرو فى طريق بخارا آخر حد الزراعة من الشمال الشرقى . وكانت كشميهن أو كشماهن مشهورة ، على ما ذكر اليعقوبى ، بالزبيب الكشماهنى . وفيها مسجد جامع حسن وأسواق عامرة ويسقيها نهر عظيم وفيها كثير من الخانات والحمامات . وتكثر فى بساتينها الفاكهة .

وفى ظاهر باب درمسكان من أبواب مرو ، وكان يفضى الى بلدة كشميهن ، قصر المأمون وفيه عاش أيام مقامه بمرو ، حتى أفضت اليه الخلافة بعد أخيه الامين ، فانتقل الى بغداد . وكان باب مرو الجنوبى الشرقى ، وهو باب سنجان ، يفضى الى نهر أسعدى ، وعليه كانت دور بنى ماهان (أو ميرماهان) وقصر مرزبان مرو وهو حامى السباخ الفارسى . ومن هذا الباب ، كان الطريق يذهب الى نهر مرغاب بالقريتين الى مرو الروذ . وعلى ستة فراسخ من المدينة فى اتجاهه هذا ، كانت مدينة جيرنج (وهى كيرنك فى المقدسى) على ضفة النهر . وعلى فرسخ مما يليها زرق . وبجنبها الطاحونة التى اختفى فيها يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين وقتله الطحان طمعا بكنوزه . وكان فى قرية زرق هذه ، على

---

(٢) ذكرتها المراجع البلدانية بصورة « سوسقان » و « السوسقان » بحذف النون الاولى . (م) .

(٣) قال ياقوت (معجم البلدان ٣ : ١٦١) : سنج قريتان بمرو ، احداهما يقال لها سنج عباد (بفتح العين وتشديد الباء) ، والثانية من أعظم قرى مرو الشاهجان . ولم يذكر المؤلف فى كلامه اعلاه أهى الأولى أم الثانية (م) .

ما ذكر ابن حوقل ، مقسم ماء نهر مرغاب ، فتخرج منه أنهار تسقى البساتين حول مرو[٤] . وكانت هذه البساتين مشهورة بجودة بطيخها . وفى مفازتها يكون الاشترغاز[٥] الذى يحمل الى نواح أخرى من خراسان . ويرتفع من مرو : الابريسم والقز الكثير والثياب المروية المشهورة[٦] .

وفى النصف الثانى من المئة الرابعة (العاشرة) ، زار المقدسى مدينة مرو ، فرأى ثلث ربضها مهدما ، وقهندزها ليس بأحسن حالا . على ان فى المئة التالية اتسعت المدينة وعظم شأنها فى أيام السلاجقة . وفيها دفن السلطان سنجر آخر السلاجقة العظام سنة ٥٥٢ (١١٥٧) وما زالت بقايا قبره فيها حتى اليوم . ووصف ياقوت ، وقد كان فى مرو سنة ٦١٦ (١٢١٩) قبر السلطان سنجر ، قائلا « قبره بها ، فى قبة عظيمة زرقاء تظهر من مسيرة يوم ، لها شباك الى الجامع . بلغنى ان بعض خدمه بناها له بعد موته » . وفى قرية أندرابة ، على فرسخين من مرو ، وهى من أملاك السلطان سنجر كانت ترى بقايا قصره فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) . وكانت أسواره باقية الا ان سائره قد استولى عليه الخراب وكذلك كان حال القرية المجاورة له ، على ما ذكر ياقوت .

وقال ياقوت ان بمرو فى أيامه كان « جامعان للحنفية والشافعية ، يجمعهما

---

(٤) قال ابن حوقل (٢ : ٤٣٦ طبعة كريمرز) : « ومقاسم الماء من رزق ، قرية بها مقسم ماء مرو ، وقد جعل لكل محلة وسكة من هذا النهر ساقية صغيرة عليها الواح خشب فيها ثقب مقدرة لا يترك احد يزيد فيها ولا ينقص . ويأتى كل قوم من شربهم بمقدار ، ان زاد الماء دخلت عليهم الزيادة ، وان نقص نقصوا باجمعهم ، لا ايثار لقوم على قوم » . (م) .

(٥) الاشترغاز : نبت طويل الشوك ترعاه الابل . مركب من اشتر أى جمل ومن غاز اى شوك (الالفاظ الفارسية المعربة . ص ١٠) (م) .

(٦) اليعقوبى ٢٨٠ ؛ الاصطخرى ٢٥٨ ـ ٢٦٣ ؛ ابن حوقل ٣١٤ ـ ٣١٦ ؛ المقدسى ٢٩٨ و ٢٩٩ و ٣١٠ ـ ٣١٢ و ٣٣١ ؛ ياقوت ١ ٥٣٤ و ٨٢٧ ؛ ٢ : ٦١٠ ؛ ٤ : ٥٠٧ .

كانت قرية زرق وطاحونة زرق على سبعة فراسخ من مرو . وكان الحوض الذى منه تقسم مياه مرغاب على انهار المدينة الاربعة ، وأحدها نهر رزيق ، على مسافة فرسخ واحد من مرو . وعليه فنهر رزيق وطاحونة زرق لم يكونا متجاورين . وكان للتصحيف أثر فى حصول الالتباس بين : زرق أو رزق ، وزريق أو رزيق . فقد جاء اسم الطاحونة احيانا بصورة ررق (بضم الاول وسكون الثانى) أو زرق (بضم الاول وتشديد الثانى مع الفتح) ، وجاء نهر زريق بصورة زربق ، وعلى صعافه ، حسب قول بعضهم ، لقى الملك يزدجرد حتفه . انظر : ياقوت ٢ : ٧٧٧ و ٩٢٥ ؛ ٤ : ٥٠٨ . وذكر المقدسى (ص ٣٣٣) ان على فرسخين من مرو ، دون ان يعين الجهة ، رباطا « فيه قبر صغير قالوا هو قبر رأس الحسين بن على » حفيد الرسول . الا انهم ذكروا مواضع اخرى دفن فيها رأس الحسين والثابت ان رأس الحسين بعد وفاته لم يرسل الى مرو .

السور » • وأقام ياقوت فى مرو ثلاثة أعوام يجمع مادة لكتابه « معجم البلدان » لان مرو كانت قبل ورود التتر اليها مشهورة بخزائن كتبها فنوه بذلك قائلا لو لا ما عرا من ورود التتر الى تلك البلاد وخرابها ، لما فارقتها الى الممات ، وذكر من بين خزائنها ، خزانتين فى الجامع ، « احداهما يقال لها العزيزية ، وكان فيها اثنا عشر الف مجلد أو ما يقاربها • والاخرى يقال لها الكمالية ، وبها خزانة شرف الملك فى مدرسته • وخزانة نظام الملك (الحسن ابن اسحق) فى مدرسته ، وخزانتان للسمعانيين ، وخزانة أخرى فى المدرسة العُميدية » ، وفيها أيضا خزانة المدرسة الخاتونية وخزانة لمجد الملك ، وبها خزانة الضُميرية فى خانقاه أى زاوية الدراويش وليس فيها الا ٢٠٠ مجلد ، ولكن كل مجلد قيمته على ما ذكر ياقوت مائتا دينار ذهبا ، لان كل كتبها فريد لا يقدر بثمن[٧] •

وبورود التتر الى مرو فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) ، هرب ياقوت الى الموصل فى اقليم الجزيرة ، أما ما فى خزائن مرو من نفائس الكتب فقد أضحت طعمة للنيران عقب نهب المغول لهذه المدينة العظيمة • وبقى من جراء ذلك تسعة ملايين جثة بين أنقاضها لم تدفن[٨] • وقال ابن الاثير « ثم انهم أحرقوا تربة السلطان سنجر » • وأحرقوا أيضا الجوامع والخزائن وغيرها • وزاد حافظ أبرو على ذلك، انالترك سروا السدود وخربوا المسنّيات ومقاسم الماء فى نهر مرغابالتى كثرت فىأيام السلاجقة • فان السلاجقة قد عنوا بمياه هذا النهر عناية فائقة ورتبوا أمر توزيعها على هذه الواحة التى تحولت الآن سبخة مقفرة وحين اجتاز ابن بطوطة بمرو فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) رآها فاذا هى جميعا خربة عظيمة •

وتكلم معاصره المستوفى على ماضى مرو الزاهر ومجدها الغابر فى المئة الثانية (الثامنة) حين كان يتولاها أبو مسلم الذى مكن العباسيين من الوصول الى

---

(٧) اما ياقوت فقد قال فى هذا الصدد ما هذا نصه (٤ : ٥٠٩ — ٥١٠) : « ••• والضميرية فى خانكاه هناك ، وكانت سهلة التناول ، لا يفارق منزلى منها مائتا مجلد واكثر بغير رهن ، تكون قيمتها مائتى دينار • فكنت ارتع فيها واقتبس من فوائدها ••• واكثر فوائد هذا الكتاب وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن » • (م) •

(٨) قلنا . لا يعقل ان يكون القتل فى مدينة واحدة بهذا العدد الجسيم • وقد رجعنا الى ابن الاثير (الكامل ١٢ : ٢٥٦) فالفيناه يقول : « وأمر [جنكيزخان] باحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة الف قتيل » • (م) •

الخلافة ، وحين كان يقيم بها المأمون قبل شخوصه الى بغداد . ثم نقل بنو الصفار عاصمة خراسان الى نيسابور ، الا ان السلاجقة جعلوا مرو أولى المدن مرة أخرى . وبنى السلطان ملكشاه سورا عظيما حول المدينة دوره ١٢٣٠٠ خطوة ، وكانت غلات واحة مرو مفرطة المحصول . فقد روى المستوفى ان قمحها كان يعطى الواحد فى السنة الاولى مئة ضعف وما تخلف من حب يعطى الواحد فى السنة الثانية ثلاثين . ويعطى الواحد فى السنة الثالثة عشرة حتى وان لم تزرع ، على ان هواءها كان وخما وبيئا . وكان « الرشتة » فيها أى « العرق المدينى » من الآفات الخبيثة التى تعترى أهلها . وكانت الرمال المتحركة من المفاوز المجاورة لها قد طمرت فى أيامه كثيرا من رساتيقها الخصبة ، ولكن بطيخها الجيد بقى يزرع فيها ويجفف ويحمل الى سائر البلدان وكذلك كان فيها عنب وكمثرى .

وقال المستوفى فى سياق وصفه مرو ، ان الخراب ما زال مستوليا على أكثرها ، وان استعادت فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) شيئا من بهائها الاول . فان تيمور لنك كان كثيرا ما ينزل عندها حين يخفت دوى الحرب . وكان غالبا ما يقيم فى موضع سماه علي اليزدى ماخان ، ولعله تصحيف النساخ لاسم ماجان ، وهو على ما بيّنا ، كان يطلق قديما على الربض الغربى العظيم فى مرو . وذكر ياقوت موضعا سماه أيضا ماخان وقال انه قرية قرب المدينة . واستعادت مرو عظمتها الاولى فى أيام شاه رخ ، حفيد تيمور . فقد جدد قسما كبيرا من المدينة فى سنة ٨١٢ (١٤٠٩) ، حتى ان حافظ أبرو ، حين كتب فى سنة ٨٢١ (١٤١٨) ، قال انها قد عادت ثانية الى ما كانت عليه من عمران وازدهار[٩] .

ومدينة آمل كانت فى يسار نهر جيحون ، على نحو من ١٢٠ ميلا شمال شرقى مرو ، حيث يعبره طريق خراسان الذاهب الى بخارا وما وراء النهر . وعلى نحو من مئة ميل من شرق آمل فى أعلى هذه الضفة نفسها ، كانت مدينة زمّ وهى عند معبر النهر أيضا . أما آمل ، وقد كانت تعرف فى العصور الوسطى بآمويه ، ثم عرفت بچهار جوى (أى الاربعة أنهار ، وما زال موضعها يعرف

(٩) ابن الاثير ١٢ : ٢٥٦ ؛ ياقوت ١ ، ٣٧٣ ؛ ٤ : ٣٧٨ و ٥٠٩ و ٥١٠ ؛ ابن بطوطة ٢ : ٦٣ ؛ المستوفى ١٨٩ ؛ على اليزدى ١ : ١٤٧ و ١٥٠ و ٥٦٩ ؛ حافظ ابرو ٣٢ ب .

بهذا الاسم) • فقد وصفها ابن حوقل بأنها مدينة صغيرة طيبة عظيمة الشأن ، لان بها مجمع طرق خراسان الى ما وراء النهر • وفى طريق مرو الماد نحو الجنوب الغربى ، آبار فى كل مرحلة • وما سوى ذلك ، فقد كانت المفازة تحيط بها من كل جانب حتى ضفة النهر • وامتدح المقدسى أسواق آمل العامرة • وقال ان جامعها على نشزة ، وهى على فرسخ من نهر جيحون ، كثيرة الضياع ، وفيها أعناب نفيسة • وكان بازاء آمل ، على ضفة النهر اليمنى فى رستاق بخارا ، مدينة فِرَبْر •

ولكى يميز بين آمل هذه ومدينة آمل الاخرى التى كانت قاعدة طبرستان ، (أنظر صفحة ٤١٠ أعلاه) فقد ذكرتها المراجع ، على ما جاء فى ياقوت ، باسم آمل زم (نسبة الى مدينة زم ، وهى فى أعلاها على نهر جيحون) وآمل جيحون ، وآمل الشط ، وآمل المفازة • على ان آمل ، فى زمنه كان يقال لها أمو وأمويه ، وبهذه التسمية وردت فى أخبار حروب المغول وأخبار حروب تيمور • وكانت تعرف أيضا بقلعة أمويه • وفى المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) أطلق أبو الغازى عليها اسم أمويه حين وصف زحف جنكيزخان • ولكنه حين تكلم على حوادث زمنه ، ذكر اسم چهار جوى وهو يقصد هذا الموضع على نهر جيحون ، وانما أراد بهما موضعا واحدا • أما مدينة زم ، وقد بيّنا انها على جانب خراسان من النهر ، فهى كرخي الحديثة • وفى العصور الوسطى ، كان بازائها من جانب بخارا ، مدينة أخسيسك • وتكلم ابن حوقل على زم وقال انها نحو من آمل فى الكبر • ولا يمكن الوصول اليها من آمل ، الا من جانب خراسان ، فى الطريق الصاعد بمحاذاة جيحون بعد مسيرة أربع مراحل • فالطريق من زم الى مرو كان يخترق المفازة المجدبة • ومن زم ، يصل باتجاه الشرق الى بلخ وبعد عبوره نهر جيحون يبلغ ترمذ • وقد أشار المقدسى الى زم أيضا بايجاز فقال ان الجامع وسط الاسواق • وهذا يدل على انه كان لمدينة زم ، فى المئة الرابعة (العاشرة) ، بعض الشأن[١٠] •

---

(١٠) الاصطخرى ٢٨١ و ٣١٤ ؛ ابن حوقل ٣٢٩ و ٣٦٣ ؛ المقدسى ٢٩١ و ٢٩٢ ؛ ياقوت ١ : ٦٩ ؛ ٢ : ٩٤٦ ؛ على اليزدى ١ : ١٤٨ و ٣٢٤ و ٥٦٨ ؛ ابو الغازى ١٢٤ و ٣٢٩ •

ولنعد الى الكلام ثانية على نهر مرغاب • فعلى نحو من ١٦٠ ميلا فوق مرو العظمى ، تقوم مرو العليا أو الصغرى ، فى موضع من النهر حيث ينعطف شمالا بعد خروجه من جبال الغور فيقطع البرية الى مرو الكبرى • ومرو الصغرى أى مرو العليا على ما سماها المقدسى وغيره ، هى الموضع المعروف لدى الفرس باسم بالا مرغاب أى « مرغاب الاعلى » • وهى اليوم خراب وقد ظلت على خرابها منذ غزو تيمور لها • الا ان مرو الروذ ، أى مرو الشط ، على ما كانت تسمى به فى المئة الرابعة (العاشرة) ، كانت حينذاك أكبر مدينة فى هذا الرستاق العامر الآهل • وهنالك ما عداها ، أربع مدن أخرى بها منابر • ومن مرو الروذ الى نهر مرغاب ، غلوة • ولها عليه بساتين وكروم ، وتبعد ثلاثة فراسخ عن الجبال التى فى غربها ، وفرسخين عن الجبال التى فى شرقها • وجامعها فى السوق ، وهو على ما ذكر المقدسى ، على سوارى خشب • وزاد قدامة على ذلك ان على فرسخ من « مرو الاعلى » (حسب تسميته لها) موضعا يقال له قصر عمرو ، فى الجبل على فم الشعب • وذكر ياقوت ان اسم مرو الروذ فى أيامه كان يلفظه الناس مرّوذ • والظاهر انها لم يصبها من التدمير ما أصاب مرو الكبرى على أيدى المغول • ومهما يكن من أمر فان المستوفى ، فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، قال انها موضع ، عامر ، عليه سور دوره خمسة آلاف خطوة ، بناه السلطان ملكشاه السلجوقى • وكانت رساتيقها فى غاية الخصب ، يكثر فيها العنب والبطيخ • والمعيشة فيها رخيصة[١١] •

وعلى مسيرة يوم من مرو الروذ ، على الضفة نفسها من ناحية مرو الكبرى ، كان القصر المعروف بقصر أحنف ، نسبة الى أحنف بن قيس القائد العربى فى أيام الخليفة عثمان ، وقد أخضع هذه البلاد للاسلام فى سنة ٣١ (٦٥٢) • وكانت بلدة قصر أحنف كبيرة على ما ذكر ابن حوقل ، لها بساتين وكروم حسنة • وهى طيبة الهواء والتربة • وقال المقدسى ان جامعها فى السوق • وتؤشر موضع

---

(١١) قدامة ٢١٠ ؛ الاصطخرى ٢٦٩ ؛ ابن حوقل ٣٢٠ ؛ المقدسى ٣١٤ ؛ ياقوت ٤ : ٥٠٦ • المستوفى ١٩٠ ؛ ومن خرائب بالامرغاب ، انظر • C.E.Yate Northern Afghanistan ص ٢٠٨ •

قصر أحنف اليوم قرية مروچك أى مروكوچك (مرو الصغرى) على ما يسميها الفرس . وكان فى العصور الوسطى ، على أربعة فراسخ فوق مرو الروذ ، بلدة. دزه ، ويشقها نهر مرغاب الى نصفين ، بينهما قنطرة . ولها جامع حسن . وزاد ياقوت على ذلك انها كانت تسمى فى الاصل سِنْوان[١٢] .

وقرى پنج ديه (أى الخمس قرى) ، أسفل من مروچك ، على نهر مرغاب . وقد زارها ناصر خسرو . فى سنة ٤٣٧ (١٠٤٥) فى طريقه الى مكة . ورآها ياقوت فى سنة ٦١٦ (١٢١٩) وذكر انها مدينة حسنة . وجاء ذكر هذا الموضع أيضاً فى زمن تيمور فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقد قال علي اليزدى انها تعرف باسم پندى (ولكن قراءتها غير مضبوطة على ما يظهر ، وقد جاءت فى بعض المخطوطات بصورة يندى) . وفى أوائل العصور الوسطى ، كانت البلاد من مرو الصغرى الى مرو الكبرى ، على جانبى مرغاب ، مزروعة تنبتّ فيها القرى والمدن ، وكانت القرينين ، وقد نوهنا بها ، على أربعة فراسخ فوق مرو الكبرى وفرسخين أسفل من مرو الروذ . وفى نصف الطريق بين القرينين والمدينة الاخيرة : لوكر أو لوكرا ، وكانت على ما ذكر المقدسى عامرة ، فى كبر قصر أحنف . وفوق مرو الروذ فى أعلى مرغاب فى جبال غرجستان ، نواح ورساتيق عامرة كثيرة ستكون موضوع بحثنا فى الفصل القادم فى كلامنا على الغور فى ربع هراة[١٣].

---

(١٢) يفهم مما ذكره ياقوت (٤ ١٠٨) ان قصر احنف كان فى الاصل حصنا يقال له سنوان فلما افتتحه الاحنف فى سنة ٣٢ أيام عثمان نسب اليه . (م) .

(١٣) اليعقوبى ٢٩١ ؛ الاصطخرى ٢٧٠ ؛ ابن حوقل ٣٢١ ؛ المقدسى ٢٩٩ و ٣١٤ ؛ ناصر خسرو ٢ ؛ ياقوت ١ : ٧٤٣ ؛ ٤ : ١٠٨ ؛ علي اليزدى ١ : ٣٥٣ . وعن خرائب مروچك انظر: C.E. Yate فى كتاب افغانستان ص ١١٠ و ١٢٠ و ١٦٤ .

الفصل التاسع والعشرون

خراسان «تابع»

ربع هراة ــ نهر هراة او هرى رود ــ مدينة هراة ــ مالن والمدن التى
فى اعلى نهر هرى رود ــ بوشنج ــ كورة اسفزار ــ كورة
بادغيس ومدنها ــ كنج رستاق ــ رساتيق
غرجستان والغور ــ الباميان .

يقع ربع هراة برمته ، فى البلاد المعروفة اليوم بأفغانستان . ويسقى معظمه نهر هراة أو هرى رود . ومخرج هذا النهر فى جبال الغور . ويجرى فى أوله مسافة نحو الغرب . ولسقى وادى هراة شقت منه أنهار كثيرة ، بعضها فى أعلى مدينة هراة وبعضها فى أسفلها . وقد سمى المقدسى سبعة من هذه الانهار بوجه خاص وقال انها تسقى ما حول القصبة من رساتيق خصبة .

ويجرى نهر هراة فى أوله من الشرق الى الغرب ويمر بمدينة هراة على سبعة أميال من بابها الجنوبى بالقرب من مدينة مالن . وعليه هناك جسر قال المقدسى فيه « ليس بجميع خراسان أعجب عملا منه . بناه رجل مجوسى وكتب عليه اسمه ــ ويقال ان سلطانا أراد ان يكتب عليه اسمه ــ منهم من قال أسلم ، ومنهم من قال طرح نفسه فى النهر » . وذكر المستوفى أسماء تسعة من أنهار السقى الكبيرة التى كانت تأخذ من هرى رود من حوار هراة . وفى ما يلى هراة ، كان هرى رود يمر بمدينة فوشنج قرب ضفته الجنوبية ، ثم يعطف شمالا فيجرى

الى سرخس ، وقبل ان يصلها ، يستقبل مياه نهر المشهد ، على ما بينا فى الفصل السابق . ثم فى ما يلى ذلك تفنى مياهه فى المفازة شمال سرخس . وقال حافظ ابرو ان نهر هراة يعرف أيضا باسم خجاچران (وتهجئة هذا الاسم تتعدد بتغير نقاط الاعجام ، أما التهجئة الصحيحة فغير معروفة) . وهو يؤكد ان مخرجه كان فى عين لا تبعد كثيرا عن موضع مخرج نهر هيلمند[1] .

وفى المئة الرابعة (العاشرة) كانت هراة ، على ما وصفها به ابن حوقل والمقدسى ، مدينة جليلة عليها حصن وسور له أربعة أبواب : باب سراى مما يلى الشمال فى الطريق الى بلخ . والباب الثانى الى الغرب يفضى الى نيسابور ، وهو باب زياد . وباب فيروز اباد ، وقد سماه المقدسى باب فيروز ، كان فى الجنوب ، يُخرج منه الى سجستان . وكان فى الشرق باب خُشْك ، ويؤدى الى جبال الغور . وكانت أبوابها هذه خشبا الا باب سراى فقد كان حديدا ، على قول ابن حوقل . وكان لحصن هراة (ويقال له القهندز) أربعة أبواب أيضا « بحذاء كل باب من أبواب المدينة باب لهذا الحصن ويسمى باسم ذلك الباب » . والمدينة مقدار نصف فرسخ فى مثله . ودار الامارة بمكان يعرف بخراسان أباذ فى ظاهر البلد بينهما ميل ، على طريق فوشنج الذاهب غربا . وعند كل باب من أبواب المدينة الاربعة ، سوق وفى ظاهر الباب ربض واسع . وكان المسجد الجامع فى وسط أسواق المدينة . « وليس بخراسان وسجستان مسجد أعمر بالناس من مسجد هراة » . « والسجن على ظهر قبلة مسجد الجامع » أى فى غربه .

وفى شمال هراة : الجبال ، وهى من المدينة على فرسخين . والاراضى هنا بادية لا تسقى . ويرتفق الناس من هذه الجبال « بالحجارة للأرحية والفرش » وعلى رأس هذا الجبل بيت نار (قديم) يسمى سرشك ، كان يقصده المجوس فى المئة الرابعة (العاشرة) . وفى نصف المسافة بين بيت النار والمدينة بيعة للنصارى . والى جنوب هراة ، فى طريق مالن ، قنطرة على هرى رود . وبينها

---

(١) الاصطخرى ٢٦٦ ؛ ابن حوقل ٣١٨ ؛ المقدسى ٣٢٩ و ٣٣٠ ؛ المستوفى ٢١٦ ؛ حافظ ابرو ٣٢ آ .

وبين المدينة بساتين كثيرة ورساتيق عامرة تسقيها أنهار عديدة ، وقراها متصلة مقدار مرحلة على طريق سجستان ،

واستمرت هراة على ازدهارها وعمرانها حتى اجتياح المغول لها ، وحين كان ياقوت فيها سنة ٦١٤[٢] (١٢١٧) أى قبل أن تنكب بهذه الكارثة بأربع سنوات ، وصفها بقوله « لم أر (بخراسان) مدينة أجل ولا أعظم ولا أفخم ولا أحسن ولا أكثر أهلا منها ، فيها بساتين كثيرة ومياه غزيرة » ، وأيد معاصره القزوينى كلامه هذا وأشار الى أرحيتها التى « تديرها الريح بنفسها كما يديرها الماء » وهو منظر لم يألفه القزوينى ، على ان هراة قد انتعشت بعد ما أصابها من كوارث على يد التتر ، فان المستوفى فى المئة التالية لها ، أيد قول ابن بطوطة فى انها كانت أكبر المدن العامرة فى خراسان ، بعد نيسابور ، ودور أسوارها حينذاك تسعة آلاف خطوة ، ولها ١٨ قرية يسقيها نهر (نهريجه) يأخذ من هرى رود ، وكان يجود فيها صنف من الاعناب يقال له « الفخرى » وكذلك التين ، وكان أهل هراة فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) من السنّة ، وقد كان أقصى ما بلغته هراة من ازدهار ، على قول المستوفى ، فى المئة السادسة (الثانية عشرة) أيام حكم الدولة الغورية فيها ، فقد كان فيها حينذاك ١٢٠٠٠ دكان ، و ٦٠٠٠ حمام ، و ٦٥٩ مدرسة ، وعدد سكانها ٤٤٤٠٠٠ ،

وكان فى شمال هراة ، حين كتب المستوفى ، حصن مكين يقال له شميران ، بنى فى موضع بيت النار المسمى سِرِشْك وقد ذكره ابن حوقل ، وهو على رأس جبل يبعد فرسخين عن المدينة ، وعرف هذا الحصن أيضا بقلعة امكلجه ، وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، بعد ان تملك تيمور هراة ، نقض أسوارها وأرسل معظم الحذّاق من صناعها الى مدينته الجديدة شهر سبز فى ما وراء النهر تكثيرا لسكانها ، وجاء فى كتاب جهان نما بالتركية ، انه كان لهراة فى زمن كتابته ، أى سنة ١٠١٠ (١٦٠٠) خمسة أبواب : باب يقال له دروازه مُلك فى الشمال ، وباب عراق فى الغرب ، وباب فيروز أباد فى الجنوب ،

(٢) ذكر ياقوت (معجم البلدان ٣ ، ٩٥٨) انه كان فى هراة سنة ٦١٧ (١٢٢٠) ، (م) ،

وباب خُشك في الشرق ، وباب رِكيچاق في الشمال الشرقي ، والاخير أحدثها . وذكر جهان نما أيضا البلوكات العشر أي الرساتيق التي حول هراة ، ولكنه لم يذكر موضع كل بلوك من الآخر[٣] .

وعلى فرسخين ، أي مسيرة نصف يوم ، من جنوب هراة ، مدينة مالين أو مالَن ، ويخمّن انها في ما يلي القنطرة العظيمة التي كانت على هرى رود وبها عرفت القنطرة . وحول المدينة رستاق على اسمها مداه مسيرة يوم . وكان يقال لمالن هذه السَّفَلْقات ومالن هراة ، تمييزا لها عن مدينة بالاسم نفسه في رستاق باخرز بقوهستان (وقد مرّ ذكرها في الفصل الخامس والعشرين ، ص ٣٩٧) . كانت مالن بلدة صغيرة مشتبكة البساتين كثيرة الكروم . زارها ياقوت وكتب اسمها مالين ولكنه قال ان الناس في أيامه يسمونها مالان . وفي رستاقها خمس وعشرون قرية خص بالذكر منها أربعا : مُرغاب وباشينان وزَنْدان وتَعْشَتقان .

وعلى مرحلة من شمال هراة ، بلدة كروخ أو كاروخ . قال ابن حوقل انها كانت في المئة الرابعة (العاشرة) أكبر مدن كورة هراة بعد قصبتها . ويرتفع من كروخ المشمش والزبيب ويحمل الى سائر البلدان « ومسجدها الجامع بمحلة منها تعرف بسبيدان ، وبناؤها من طين ، وهي في شعب بين جبال مقدار عشرين فرسخا وجميعها مشتبكة البساتين والمياه والاشجار والغياض والقرى العامرة » . ويصب أكبر أنهارها في هرى رود ، ويظهر انه هو النهر الذي سماه ياقوت نهر كراغ .

---

(٣) الاصطخري ٢٦٤ ـ ٢٦٦ ؛ ابن حوقل ٣١٦ ـ ٣١٨ ؛ المقدسي ٣٠٦ و ٣٠٧ ؛ ياقوت ٤ : ٩٥٨ ؛ القزويني ٢ : ٣٢٢ ؛ ابن بطوطة ٣ . ٦٣ ؛ المستوفي ١٨٧ ؛ جهان نما ٣١٠ ـ ٣١٢ . علي اليزدي ١ : ٣٢٢ و ٣٢٣ .

وما أورده الحاج خليفة من اخبار في جهان نما ، قد اقتبس بعضه من مقالة عن هراة كتبها معين الدين الاسفزاري سنة ٨٩٧ (١٤٩٢) وهي المقالة التي ادخلها بحذافيرها ميرخواند في خاتمة كتابه « روضة الصفا » الجزء السابع ص ٤٥ ـ ٥١ . وقد ترجمها باربيه دي مينار في Journal Asiatique لسنة ١٨٦٠ (٢ : ٤٦١) ولسنة ١٨٦١ (١ : ٤٣٨ و ٤٧٣) ص ٢٥ ـ ٢٨ . (انتهت حاشية المؤلف) .

قلنا : نشر محمد زبير الصديقي كتاب « تاريخ نامة هراة » (بالفارسية) ، تاليف سيف بن محمد بن يعقوب الهروي (ولد سنة ٦٧١ هـ ـ ١٢٨٢ م) وقد طبع في كلكته سنة ١٩٤٣ . (م) .

والى شرق هراة ، في وادى هرى رود المريض ، تقوم مدن تلى احداها الاخرى ذكرها بلدانيو المئة الرابعة (العاشرة) ، وهى بشان على يوم من هراة ، م تخيسار فاستربيان فماراباذ فأوفه • تبعدالواحدةعنالاخرىشرقامسيرةيوم• ثم على يومين مما يلى أوفه ، مدينة خشت وكانت تعد من ناحية الغور • ومن بين هذه المدن التى ذكرناها كانت أوفه نحو كروخ فى الكبر وتليها فى الشأن • أما المدن الاربع الاخرى ، فقد تشابهت فى الوصف ، فلكلها مياه وبساتين وزروع • وكلها أصغر من مالن وكانت استربيان لا كروم فيها ، وهى فى جبال • وماراباذ « يرفع منها آرز كثير يجلب الى النواحى »[٤] •

وعلى مسيرة يوم من غرب هراة مدينة بوشنج أو فوشنج الجليلة • والظاهر انها حيث تقوم غريان الحالية على شىء يسير من ضفة هرى رود اليسرى فى جنوبها • وقد وصف ابن حوقل بوشنج بانها كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) ، نحوا من نصف هراة ، « وهى وهراة فى مستواة ومن بوشنج الى الجبل نحو فرسخين » • وبناؤها حسن تحف بها الاشجار • وبها من أشجار العرعر ما لبس فى غيرها ويحمل خشبه الى سائر النواحى • ولبوشنج سور وخندق وثلاثة أبواب • باب يسمى باب علي يفضى الى نيسابور ، وباب هراة الى الشرق ، وباب قوهستان الى الجنوب الغربى • وكان ياقوت ، قد رآها وهو مار فى طريقه ، فى واد كثير الشجر ، وسماها بوشنج وفوشنج وذكر ان « العجم يقولون بوشنك بالكاف » • ووصف المستوفى مدينة فوشنج ، فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وقال انها مشهورة بالبطيخ والاعناب ، وبها من الاعناب مئة وخمسة أصناف • ومما خصت به ، الأرحية التى تديرها الريح • وأصلها يعزى الى فرعون مصر من أيام موسى ، فقد بلغ هذه المدينة فى احدى حملاته نحو الشرق • وفى سنة ٧٨٣ (١٣٨١) غزا تيمور مدينة فوشنج ونهبها ، وقد استولى عليها بالرغم من علو أسوارها وعمق ماء خندقها ، على ما نوه به علي اليزدى • وبعد ذلك اختفى اسم فوشنج من التاريخ لغير ما سبب واضح ثم قامت بعد زمن مدينة غريان ،

---

(٤) الاصطخرى ٢٦٧ و ٢٨٥ ؛ ابن حوقل ٣١٨ و ٣٣٤ ؛ المقدسى ٥٠ و ٢٩٨ و ٣٠٧ و ٣٤٩ ؛ ياقوت ١ . ٤٧٠ ؛ ٢ : ٩٥٠ ؛ ٣ : ٦٠٥ ؛ ٤ . ٢٤٧ و ٣٩٧ و ٤٩٩ •

المدينة العامرة اليوم ، على خرائب المدينة التى نهبها تيمور وخرّبها • ومما تحسن الاشارة اليه ، ان المدن الثلاث : فرجرد وخرجرد وكوسوى ، وقد سبق وصفها بين مدن اقليم قوهستان (أنظر ص ٣٩٧ — ٣٩٨) ، غالبا ما عدت من أعمال فوشنج[٥] •

وكورة أسفُزار ، فى جنوب هراة فى طريق زرنج • كان فيها فى المئة الرابعة (العاشرة) أربع مدن مهمة ، ما خلا القصبة أسفزار ، وهى أدْرَسْكَر وكُوران وكوشك وكواشان • وأسفزار اليوم أكبر المدن ، ويقال لها فى وقتنا سبزوار (وتسمى أيضا سبزوار هراة ، تمييزا لها عن سبزوار التى فى غرب نيسابور • أنظر ص ٤٣٢) • الا ان أكبر مدن هذه الكورة قديما كانت كواشان • ومقدار الكورة مسيرة ثلاثة أيام من الشمال الى الجنوب ، وعرضها مرحلة يوم • قال الاصطخرى كان عندها شعب يسمى كاشكان ، وفيه قرى عامرة • ونهرها ومنابعه بالقرب من اسفزار (سبزوار) هو النهر المعروف اليوم بهارود سستان ويقع فى رأس بحيرة زره غرب جوين • ومدن أسفزار هذه تحيط بها كلها الاراضى الخصبة والبساتين • وذكرت كتب المسالك اسما ثانيا لاسفزار ، هو خاشتان (أو جاشان فان قراءته غير محققة) ولا يستبعد ان تكون خواشان صورة أخرى لهذا الاسم • فتكون هذه المدينة فى الواقع اذاً ، مطابقة لاسفزار (سبزوار) • ومدينة أدرسكر أو أردسكر ، على ما تلفظ به أيضا ، ما زالت قائمة فى شرق أسفزار ، ويكتب اسمها اليوم بصورة أدرسكن • وذكر ياقوت ان اسفزار من أعمال سجستان ، وتكلم عليها المستوفى بانها مدينة ليست بالكبيرة ولا بالصغيرة ، لها قرى كثيرة وبساتين وافرة الاعناب والرمان • وكان جل أهلها فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) من السنة على المذهب الشافعى • ومما يؤسف عليه ان كتب المسالك لم تبين مواضع المدن الاخرى فى هذه الكورة ، بالنسبة الى بعضها[٦] •

---

(٥) الاصطخرى ٢٦٧ و ٢٦٨ ؛ ابن حوقل ٣١٩ ؛ المقدسى ٢٩٨ ؛ ياقوت ١ : ٧٥٨ ؛ ٣ : ٩٢٣ ؛ المستوفى ١٨٧ ؛ على اليزدى ١ : ٣١٢ •

وذكر صنيع الدولة (مرآة البلدان ١ : ٢٩٨) انه مر قرب خرائب بوشنج ورآها حين قدومه من نيسابور الى هراة ، وقال انها قرب عريان وليست فيها •

(٦) الاصطخرى ٢٤٩ و ٢٦٤ و ٢٦٧ ؛ ابن حوقل ٣٠٥ و ٣١٨ و ٣١٩ ؛ المقدسى ٢٩٨ و ٣٠٨ و ٣٥٠ ؛ ياقوت ١ : ٢٤٨ ؛ المستوفى ١٨٧ •

والطريق من هراة الضارب شمالا الى مرو الروذ ، يجتاز كورة باذغيس العظيمة ، وكانت تمتد بين نهر هراة من الغرب (فى شمال فوشنج) ومياه نهر مرغاب الاعلى من الشرق وهى الآتية من جبال غرجستان • وكان يسقى باذغيس نفسها كثير من روافد نهر مرغاب اليسرى • وكان القسم الشرقى من باذغيس ، وهو يبدأ على نحو من ١٣ فرسخا من شمال هراة ، يعرف بكنج رستاق ، وله ثلاث مدن كبيرة هى : بَبْن ، وكَيِف ، وبَغشور • وقد عينت كتب المسالك مواضعها على وجه التقريب أما فى بقية باذغيس ، فقد ذكر المقدسى تسع مدن كبيرة ولكن مما يؤسف عليه انه لا يمكن تعيين موضع واحدة من هذه المدن ، لان كتب المسالك لم تذكرها • وهذه البلاد اليوم ، غامرة لا سكان فيها ، فقد خربتها الغزوات المغولية فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) •وتشهد الخرائب الكثيرة المنتشرة فى تلك البقعة على ما كانت عليه هذه البلاد قبلا من وفرة فى المياه وازدهار فى العمران • الا ان اسماءها الحديثة هى غير تلك التى ذكرها بلدانيو القرون الوسطى •

أما أطلال مدينة بغشور ، وهى من مدن كنج رستاق الكبيرة ، فالظاهر انها هى المعروفة بقلعة مَور • وصف ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) مدينة بغشور بقوله انها من أحسن مدن خراسان وأكثرها ثروة ، وهى نحو بوشنج • وكان سلطان هذه الناحية يقيم فى ببن أو بينة وهى أكبر هذه المدن ، بل أكبر من بوشنج • أما « كيف » فكانت نحوا من نصف بغشور • وهذه المدن حسنة ، بناؤها من طين • وحولها البساتين والزروع ، وفيها مياه كثيرة جارية وآبار • وقد رأى ياقوت هذه البلاد فى سنة ٦١٦ (١٢١٩) ، وأيد ما كانت عليه بغشور السابقة والمدن المجاورة لها من ثروة ، ولكنه قال « الخراب فيها ظاهر » مع ان ذلك كان قبل الغزو المغولى• وزار ياقوت بينة وسماها : بَوْن وبَوْن• وزار أيضا بلدة أخرى يقال لها الباميان ، أو بامنج ، وهى على شىء يسير من بينة • وقال انها « ذات خير ورخص يكثر فيها شجر الفستق »[7] •

(٧) ابن رسته ١٧٣ ؛ الاصطخرى ٢٦٩ ؛ ابن حوقل ٣٢٠ ؛ المقدسى ٢٩٨ و ٣٠٨ ؛ ياقوت ١ : ٤٦١ و ٤٨١ و ٤٨٧ و ٦٩٤ ؛ ٢ : ٧٦٤ ؛ ٤ : ٣٢٣ • وللاطلاع على سال كورة باذغيس

أما القسم الجنوبي من كورة باذغيس ، فان ما يقال عن سابق عمران كنج رستاق وازدهارها ، يقال عن هذا القسم أيضا . الا ان مدنه قد زالت اليوم جميعا من الخارطة ، ويصعب تعيين مواضع أسمائها التي عرفت في القرون الوسطى أو مطابقتها مع أسماء الخرائب الحالية . وقد اتفقت الاخبار على ان قصبة هذا القسم كانت دهستان ، وموضعها قد يتفق هو ومرقد خواجه دهستان الحالي في شمال شرقي هراة . وذكر المقدسي أسماء سبع مدن أخرى ، هي : كوغاناباذ و كوفاو بُشت وجاذاوا وكابرون وكالوون وجبل الفضة . ولا يمكن معرفة مواضعها الا بوجه تقريبي . كانت دهستان في المئة الرابعة (العاشرة) ثاني المدن الكبرى في باذغيس ، مثل نصف بوشنج ، وهي على جبل ، وبناء أهلها طين ولهم أسراب تحت الأرض لأيام الحرّ ، وبساتينها قليلة ومزارعها مباخس . وكان سلطان الناحية يقيم في كوغاناباذ ، وهي أصغر من دهستان . ومدينة جبل الفضة كانت على ما يدل عليه اسمها ، عند جبل فيه معدن الفضة في الطريق الماد رأسا من هراة الى سرخس . والظاهر انها في شمال كوغاناباذ . ويكثر في ناحيتها الحطب . وكانت كوفا أكبر من جبل الفضة ، في برية ، لها بساتين حسنة . ولكن المقدسي لم ينوه بشيء عن المدن الاربع الاخرى ، الا قوله ان هذه المدن كانت تقوم قرب الطريق الذاهب شمالا من هراة الى سرخس .

وذكر ياقوت ، وقد قال ان دهستان « ناحية بباذغيس » ، ان « أصلها بالفارسية باذ ــ خيز ، معناه قيام الريح أو هبوب الريح لكثرة الرياح فيها » . أما كلام المستوفي على باذغيس فيصعب فهمه لان أسماء الامكنة كثيرة التصحيف في المخطوطات . قال ان دهستان كانت القصبة وأشار الى جبل معدن الفضة بالتسمية الفارسية كوه نقرة « جبل الفضة » . وفيها موضع ثالث ذو شأن هو كوهغاباد (عوضا عن كوغاناباذ) ، وفيها كان يقيم الامير . وجاء ذكر مدينة رابعة يقال لها بزركترين . ولكن قراءة الاسم غير معتمد عليها . وذكر المستوفي أيضا مدينة

اليوم رخرائبها ، انظر : C.E. Yate في كتاب افغانستان ص ٦٧ و ٦٨ . وترى بقايا قلاع واطلال في كلران وسكردان وتزاباغ (ص ١٠١) وايضا في قلعة مور (ص ٩٦ و ١٠٣) وفي قرتبه . ولا شك ان بعض هذه الاطلال هي بقايا المدن التي ذكرها البلدانيون العرب .

باسم كاريز (أو كاريزه) أى « الكهريز » وقال انها كانت مقام حكيم برقعى — « الحكيم المبرقع » — المعروف لدى الناس بصانع القمر بنخشب ، وهو نبي خراسان المبرقع الذى ثار فى المئة الثانية (الثامنة) على الخليفة المهدى واقتضى لقمع ثورته جهد كبير[٨] .

وقد انتهت الينا أسماء مواضع أخرى أيضا ذكرها المقدسي والبلدانيون العرب الاولون (ويعتور اسماءها كثير من التصحيف فى متون كتبهم) دون ان يذكروا شيئا عنها . وفى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، كانت باذغيس على قول المستوفى ، مشهورة بغابات الفستق . وفى موسم جمعه كان يخرج كثير من الناس فيحملون منه ما قدروا على حمله ، وكان يحمل الى سائر البلدان المجاورة . وكانت أشجار الفستق من الكثرة فيها حتى ان المستوفى قال ان كثيرا من الناس يعتاشون السنة كلها على ما يربحون مما جمعوه فى موسم جنيه . وما أعجب مرأى أشجاره. وفى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) استولى الخراب على باذغيس نهائيا على ما يظهر بمرور جيوش تيمور بها فى اثناء زحفها اللاحق من هراة الى مرو الروذ[٩] .

---

(٨) هذا ما قاله المستوفى بنصه الفارسى (نزهة القلوب ، ص ١٥٣ طبعة لسترانج) : (كاريزكه مقام حكيم برقعى كه سازنده ماه نخشب » . وحكى القزوينى (ص ٣١٢) فى كلامه على نخشب فى شان هذا الحكيم ما ياتى : « نخشب : مدينة مشهورة بارض خراسان ؛ منها الأولياء والحكماء ، ينسب اليها الحكيم ابن المقفع (ابن المقنع ؟) الذى أنشا بنخشب بئرا يصعد منها قمر يراه الناس مثل القمر ، واشتهر ذلك فى الآفاق . والناس يقصدون نخشب لرؤيته ويتعجبون منه . وعوام الناس يحسبونه سحرا ، وما كان الا بطريق الهندسة وانعكاس شعاع القمر ، لانهم وجدوا فى قعر البئر طاسا كبيرا مملوءا زئبقا ، وفى الجملة قد اهتدى الى أمر عجيب سار فى الآفاق واشتهر حتى ذكره الناس فى الاشعار والامثال ، وبقى ذكره بين الناس » .

اما المقنع الذى ثار فى أيام الخليفة المهدى فهو المقنع الخارجى . (م) .

(٩) الاصطخرى ٢٦٨ و ٢٦٩ ؛ ابن حوقل ٣١٩ و ٣٢٠ ؛ المقدسى ٢٩٨ و ٣٠٨ ؛ ياقوت ١ : ٤٦١ ؛ ٢ . ٦٣٣ ؛ المستوفى ١٨٧ و ١٨٨ ؛ جهان نما ٣١٤ و ٣١٥ ؛ على اليزدى ١ : ٣٠٨ . C.E. Yate فى كتاب الفانستان ص ٦ .

كان الطريق من هراة الى مرو الروذ ، على ما وصفه البلدانيون العرب الاولون فى مسالكهم ، يسير من مدينة الى مدينة مخترقا كنج رستاق . واقصى المراحل فيه جنوبا مرحلة « ببنة » ، على يومين من هراة . أما المستوفى (ص ١٩٨) فقد وصف طريقا آخر فيه سبع مراحل وهو من هراة الى هنكاماباد فى خمس مراحل ، ومنها الى باذغيس فى خمس مراحل (وهى ولا شك دهستان ، القصبة) . ومنها الى بون (بفتح أوله وثانيه ، او ببنة) فى خمس مراحل . ثم الى مرغزار دره « أى وادى المراعى » فى خمس مراحل . ثم الى بفجى شور (بنشور) فى ثمانى مراحل . ثم الى اسرود أو لوسرود فى خمس مراحل . وأخيرا الى مرو الروذ فى اربع مراحل .

والى شرق باذغيس عند منابع نهر مرغاب ، البلاد الجبلية المعروفة لدى بلدانيي العرب الاولين بـ « غرج الشار » • ويلقب ملك هذه الجبال بـ « الشار » • والغرج على ما ذكر المقدسي ، هي الجبال في لغتهم ، فتفسير غرج الشار جبال الملك • وصاروا يسمون هذه البلاد في أواخر العصور الوسطى : غرجستان • وبهذا الاسم جاءت في أخبار الحروب المغولية • ثم ان ياقوت الحموي أشار الى ان غرجستان تكتب غالبا : غرشستان أو غرستان وكثيرا ما كان يلتبس اسمها بغورستان أي بلد الغور الذي في شرقها وهي مدار بحثنا الآن • والشار ، أي ملك غرجستان ، كان يعرف لدى العرب بملك الغرجة • وفي المئة الرابعة (العاشرة) كان في هذه الناحية الواسعة ، عشرة جوامع في مختلف بلدانها •

وأكبر مدينتين في غرجستان ، هما : أبشين وشورمين ، ولا يعرف موضعاهما الصحيحان • كانت أبشين (أفشين أو بشين) على غلوة من الضفة الشرقية لأعلى نهر مرغاب ، وعلى أربع مراحل فوق مرو الروذ ، حولها بساتين حسنة ، ويرتفع منها أرز كثير يحمل الى بلخ • وكان لها حصن مكين ومسجد جامع • وشورمين (او سورمين) في الجبال على اربع مراحل جنوب ابشين ، وعلى مثل ذلك من كروخ ، في شمال شرقي هراة • « ويرتفع منها زبيب كثير يحمل الى النواحي » • وليس مقام ملك هذه الناحية ، وهو الشار ، بهما بل بقرية كبيرة في جبل ، تعرف بـ « بليكان » (أو بلكيان) • وذكر ياقوت اسم مدينتين أخريين في غرجستان ، هما سِنْجَة وبَيْوار • وغاية ما ذكره عنهما انهما في الجبال ، نقلا عن رجل من هذه البلاد • ولم يشر الى موضعيهما[١٠] •

والبقعة الجبلية العظيمة التي في شرق غرجستان وجنوبها ، كانت تعرف بالغور أو غورستان ، تمتد من هراة الى الباميان وتخوم كابل وغزنة • وهي جنوب

ومن الخانات الخربة التي ما زالت تعين هذا الطريق ، انظر : C.E. Yate الفانستان ص ١٩٤ و ١٩٥و ٢٢٢ •

(١٠) الاصطخري ٢٧١ و ٢٧٢ ' ابن حوقل ٣٢٣ ؛ المقدسي ٣٠٩ و ٣٤٨ ' ياقوت ١ ، ٨٠٣ ؛ ٣ : ٧٢ و ١٦٣ و ١٨٦ و ٧٨٥ و ٧٨٦ و ٨٢٣ •

وليس لغرجستان في خراسان ، علاقة بكرجستان في جنوبي القفقاس (راجع الفصل الثاني عشر • ص ٢١٦) وهي المعروفة اليوم بجورجيا • ومن الخطأ ان يطلق اسم جورجيا على غرجستان ، على نحو ما فعل بعض الكتبة في وصفهم حروب المغول في بلدان اعالي مرغاب ، فلا جورجيا في الفانستان •

نهر هراة . وأشار بلدانيو العصور الوسطى الى انها البلاد التى فيها مخارج كثير من الانهار الكبيرة ، أى منابع نهر هرى رود ، وهيلمند ، ونهر خواش ، ونهر فره (ويقع فى بحيرة زره) ، وكان يخرج من حدود غرجستان نهر مرغاب . أما صفة هذه البلاد الجبلية الواسعة فلم ينته الينا شيء عنها يا للأسف . فلا يعرف مواضع مدنها وقلاعها المذكورة فى تاريخها . وفى المئة الرابعة (العاشرة) كانت الغور دار كفر على ما ذكر ابن حوقل ، وان كان بها مسلمون . وفيها شعاب عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار . وقد اشتهرت بمعادن الفضة والذهب ، وأكثرها عند البامبان وبنجهير (أنظر ص ٣٨٩ — ٣٩٠) . وأغزر هذه المعادن ، فى موضع يقال له خرخيز . وبعد سقوط دولة محمود الغزنوى ، استقل رؤساء الغور وقد كانوا قبلا من أعوانه . وأنشأوا لهم عاصمة فى فيروز كوه ، وهى قلعة عظيمة فى الجبال لا يعرف موضعها .

وقد استقل الغوريون فى حكمهم منذ منتصف المئة السادسة (الثانية عشرة) حتى سنة ٦١٢ (١٢١٥) حين غلبهم خوارزمشاه . وبعد بضع سنين ، زالت دولتهم لما غزاهم المغول . الا ان الغوريين قبل ذلك ، تمكنوا فى سنة ٥٨٨ (١١٩٢) من فتح معظم شمالى الهند وبسط سلطانهم على جميع البلدان من دهلى الى هراة . وبعد أن قضى المغول على دولتهم قضاء مبرما ، استمر ممالكهم على حكم دهلى فى سلسلة طويلة من السلاطين ، حتى سنة ٩٦٢ (١٥٥٤) .

وبلغت الغور ، أو غورستان ، أوج عزها وأعظم ثرائها ، ما بين سنة ٥٤٣ و ٦١٢ (١١٤٨ و ١٢١٥) فى أيام السلاطين الغوريين من سلالة سام . وقد تكلم ياقوت على عاصمتهم العظيمة فى فيروز كوه أو بيروز كوه (أى جبل الفيروز) ولكنه لم يفصل القول فيها . ولمح المستوفى أيضا الى هذه القلعة ، وذكر ، ان من مدنها الكبيرة أيضا : هنگران ، غير انه يشك فى هذه القراءة . وفى سنة ٦١٩ (١٢٢٢) اكتسح جنكيزخان هذه البلاد جميعا ، واستولى على فيروز كوه عنوة وأنزل فيها الخراب والدمار . وجاء ذكر قلعتين أخريين أتعبتا الجيش المغولى ، وهما : كليون وفيوار ، وبينهما عشرة فراسخ . ولكن لا يعرف موضع

كلتيهما • ويقال ان جنكيزخان قد خربهما تخريبا تاما • وذكر القزوينى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) مدينة أخرى من مدن الغور الكبيرة ، وهى خُوسْت ، ولعلها تطابق مدينة خشت وقد مرّ ذكرها فى صفحة ٤٥٣ ، بانها قرب منابع هرى رود • ولم يذكر من مواضع الغور فى أيام تيمور ، على ما يبدو ، غير قلعة خستار ، وهذه أيضا لا يعرف شىء عن موضعها[١١] •

أما مدينة الباميان ، فقد كانت قصبة كورة عظيمة على اسمها • وتؤلف القسم الشرقى من الغور • ويستدل ببقاياها السحيقة فى القدم انها كانت مركزا بوذيا عظيما قبل الاسلام بزمن طويل • وقد وصف الاصطخرى الباميان فى المئة الرابعة (العاشرة) فقال « تكون نحوا من نصف بلخ ، وهى على جبل وليس لها سور » وناحيتها فى غاية الخصب يسقيها نهر كبير • وأشار المقدسى الى مدينة اللحوم[١٢] وقراءة اسمها مشكوك فيه ، وقد أشاد بذكر هذه المدينة وقال « هى احدى فرض خراسان وخزائن السند • البرد فيها شديد والثلوج كثيرة • ومن اختلف اليها أفاد انها جيدة لا براغيث ولا عقارب بها » • وفى المدينة جامع وأسواق عامرة فى أرباضها • ولها أربعة أبواب تفضى الى خارج المدينة • وفى المئة الرابعة (العاشرة) كان فى ناحية الباميان مدن كبيرة كثيرة ولكن مواضعها قد ضاعت علينا اليوم • ومن أكبر مدنها ، ثلاث ، هى : بسغورفند وسكيوند ولخراب •

وفى أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) أفاض ياقوت فى وصف أصنام البد العظيمة التى كانت حينذاك فى الباميان • قال : « وبها بيت ذاهب فى الهواء بأساطين مرفوعة منقوش فيه كل طير خلقه الله تعالى على وجه الارض • وفيه صنمان عظيمان نقرا فى الجبل من أسفله الى أعلاه ، يسمى أحدهما سُرْخْبُد ، والآخر

---

(١١) الاصطخرى ٢٧٢ ؛ ابن حوقل ٣٠٤ و ٣٢٣ ؛ ياقوت ٣ : ٨٢٣ ؛ ٤ . ٩٣٠ ؛ القزوينى ٢ : ٢٤٤ ؛ المستوفى ١٨٤ و ١٨٨ ؛ على اليزدى ١ : ١٥٠ وعن بلاد الغور راجع ما كتبه Sir H. Yule فى دائرة المعارف البريطانية (الطبعة التاسعة ١٠ : ٥٦٩) •

(١٢) لم نعثر على ذكر مدينة باسم « اللحوم » لا فى المقدسى ولا فى غيره من كتب البلدان • الا اننا لاحظنا ، من مراجعة الصفحتين ٣٠٣ و ٣٠٤ فى المقدسى ، اللتين ذكرهما المؤلف فى حاشيته، ان ما ذكره من وصف لمدينة زعم ان اسمها « اللحوم » جاء فى سياق كلام المقدسى على مدينة غزنين فى الصفحتين المذكورتين • فقد قال المقدسى فى غزنين « ... رخيصة الاسعار كثيرة اللحوم طيبة الفواكه ... » الى آخر النص الذى نقله المؤلف أعلاه وعزاه الى مدينة اللحوم • وهو وهم ولا شك • (م) •

خنكبُد (أى بوذا الاحمر وبوذا الاشهب) وقيل ليس لهما فى الدنيا نظير » .
وتكلم القزوينى على « بيت ذهب »[١٣] فى باميان كما تكلم على الصنمين العظيمين للبد . وذكر أيضا ان بها معادن زئبق وعين كبريت . وخراب الباميان ومدن كورتها كلها حتى پنجهير ، على ما قد بيّنا ، انما كان من غضب جنكيزخان وسخطه لمقتل حفيده العزيز موتوكن بن جغتاى فى حصاره الباميان ، فأمر جنكيز جيشه بتخريب أسوار المدينة وبيوتها ودكها الى الارض . ومنع الناس من العودة الى بنائها أو العيش فيها . وغيّر اسم الباميان الى موبلق ومعناه بلغته التركية : المدينة الملعونة . وأصبحت الباميان منذ ذلك الحين قفرا بلقعا[١٤] .

---

(١٣) ما فى القزوينى « بها بيت ذاهب فى الهواء » (آثار البلاد . ص ١٠٣) (م) .

(١٤) الاصطخرى ٢٧٧ و ٢٨٠ ؛ ابن حوقل ٣٢٧ و ٣٢٨ ؛ المقدسى ٢٩٦ و ٣٠٣ و ٣٠٤ ؛ ياقوت ١ : ٤٨١ ؛ القزوينى ٢ : ١٠٣ ؛ المستوفى ١٨٨ ؛ أبو الغازى ١١٤ و ١٤٩ . وللوقوف على رسوم لصنمى البد العظيمين فى الباميان ، انظر : Talbot and Maitland فى JRAS لسنة ٨٨٦ ص ٣٢٣ .

الفصل الثلاثون

خراسان «تتمة»

ربع بلخ فى اقليم خراسان ـ مدينة بلخ والنوبهار ـ ناحية الجوزجان ـ الطالقان والجرزوان ـ ميمنة او اليهودية ـ الفارياب ، شبرقان ، انبار ، واندخود ـ ناحية طخارستان ـ خلم ، سمنجان والدرابة ـ ورواليز والطايقان ـ تجارات خراسان وغلاته ـ المسالك فى خراسان وقوهستان .

بلخ ، ـ « أم البلاد » ـ قد سمي بها رابع أرباع خراسان وما كان من هذا الربع خارج حد قصبته ، انقسم الى قسمين : الغربى منهما فى الجوزجان ، والشرقى فى طخارستان ، ناحيتيه العظيمتين .

وفى المئة الثالثة (التاسعة) تكلم اليعقوبى على بلخ ، وقال انها مدينة خراسان العظمى ، وكان عليها فى متقدم الايام ثلاثة أسوار وثلاثة عشر بابا[1] . وزاد المقدسى عليه : « يقال ان اسمها فى كتب الاعاجم بلخ البهية » . وفى ظاهر المدينة ربض النوبهار . وكانت مساحة المدينة ثلاثة أميال فى مثلها . ولبلخ ، على ما ذكر اليعقوبى نيف وأربعون منبراً[2] . وأشار الاصطخرى الى ان مدينة بلخ « فى مستو وبينها وبين أقرب الجبال اليها نحو أربعة فراسخ ، ويسمى جبل كو » . وقال ان بناءها من الطين وكذلك سور المدينة . ويحف بالسور خندق عميق . وكان المسجد الجامع فى المدينة فى وسطها ، وأسواقها حوالى المسجد الجامع ،

(١) ما فى اليعقوبى (البلدان . ص ٢٨٧) : اثنا عشر بابا (م) .

(٢) ذكر اليعقوبى (البلدان ٢٨٨) : ان لبلخ سبعة واربعين منبرا (م) .

ولها نهر يسمى دهاس ومعناه (بالفارسية) على قول ابن حوقل « عشر أرحية » . وهو بعد ان يديرها يمر على باب النوبهار ويسقي رساتيقها الى سياه جرد فى طريق ترمذ . ويحف ببلخ البساتين وفيها النارنج والنيلوفر وقصب السكر والاعناب ، وتحمل منها الى سائر الجهات . وأسواقها عامرة كثيرة التجار .

وللمدينة سبعة أبواب ، هي : باب النوبهار ، وباب رحبة ، وباب الحديد ، وباب الهندوان (أى باب الهندوس) وباب اليهود ، وباب شست بند (أى باب الستين سداً) وباب يحيى . ووصف المقدسي حسن موقعها وبهاءها ويسارها وكثرة أنهارها ورخص أسعارها ووفرة غلاتها وسعة طرقها . وذكر سورها ومسجد جامعها واشراق قصورها . وبقيت بلخ على ما كانت عليه من بهائها هذا وحسنها ، حتى منتصف المئة السادسة (الثانية عشرة) حين استحوذ عليها الخراب أول مرة باستيلاء الغز الاتراك عليها فى سنة ٥٥٠ (١١٥٥) . الا انهم بعد أن تخلوا عنها عاد اليها أهلها وجددوا بناء مدينتهم فى موضع آخر مجاور لموضعها الاول ، وما عتمت بلخ ان استعادت بعض سابق عزها ، فوصفها ياقوت فى أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، وهى فى حالها هذا ، قبل خرابها الثانى على يد المغول .

أما ربض بلخ الكبير ، المسمى النوبهار ، وقد كان فيه أيام الساسانيين على ما ذكر المسعودى ، بيت نار من أكبر بيوت المجوس ، فقد جاءنا عن ياقوت وصف طويل له ، نقله عن عمر بن الأزرق الكرماني . وللقزويني وصف مشابه له . كان السادن الاكبر لبيت النار هذا ، يسمى برمك ، وهو جد البرامكة . وكانت هذه الاسرة فى أيام الساسانيين تتوارث رئاسة الدين الزردشتي فى هذه المدينة . وجاء عن النوبهار انهم اتخذوا بيت النار فيها « مضاهاة لبيت الله الحرام » فى مكة . فزينوا جدرانه بالجواهر النفيسة وعلقوا عليها سائر الديباج والحرير وكانوا يكللونه بالريحان لا سيما فى وقت الربيع . فمعنى نوبهار أول الربيع وبواكيره . وفيه يكون الحج الى هذا البيت . وكان على البناء قبة عظيمة يسمونها الأستن ، « وارتفاعها فوق مئة ذراع بأروقة مستديرة حولها ، وكان حول البيت ثلاثمئة

وستون مقصورة يسكنها خدّامه وقوّامه وسدنته . وكان على كل واحد من سكان تلك المقاصير خدمة يوم لا يعود الى الخدمة حولا كاملا » . وكانت الأعلام تنصب على أعلى قبته . ويقال ان الريح ربما حملت الحرير من العلم الذى فوق القبة مسافة لا تصدق . وكان فى هذا البيت كثير من الأصنام ؛ بينها الصنم الاكبر ، يحج الناس اليه من كابل ومن الهند والصين ، فيسجدون له ثم يقبّلون يد برمك السادن الاكبر . وكان ما حول النوبهار من الارضين سبعة فراسخ فى مثلها وقفا على هذا البيت تغلّ مالا عظيما . ولما افتتح الأحنف بن قيس بلاد خراسان فى أيام عثمان بن عفان ، نقض بيت النوبهار العظيم وأدخل أهلها فى الاسلام[٣] .

وفى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) دمّر المغول مدينة بلخ . وذكر ابن بطوطة ان جنكيزخان « هدم من مسجدها نحو الثلث بسبب كنز ذكر له انه تحت سارية من سواريه » . ولما زار ابن بطوطة هذه الناحية فى النصف الاول من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت بلخ « خاوية على عروشها غير عامرة ، ومساجدها ومدارسها باقية الرسوم » . يزورها أهل التقى والورع . وكثيرا ما تردد ذكر بلخ فى أخبار حروب تيمور ، فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وهذا يدل على انها استعادت حينذاك شيئا من سالف مجدها . وكان تيمور قد جدّد القلعة التى فى ظاهر أسوارها المعروفة بقلعة الهندوان أى قلعة الهندوس ، واتخذت مقاما لعامله عليها . ثم انه جدد بناء قسم كبير من المدينة القديمة .

أما اليوم ، فان بلخ تعد من أجل مدن أفغانستان الحديثة . وفيها المزار العظيم المشهور المعروف بـ « مزار شريف » حيث دفن على ما يقال ، الخليفة علي

(٣) اليعقوبى ٢٨٧ و ٢٨٨ ؛ الاصطخرى ٢٧٥ و ٢٧٨ و ٢٨٠ ؛ ابن حوقل ٣٢٥ و ٣٢٦ و ٣٢٩ ؛ المقدسى ٣٠١ و ٣٠٢ ؛ المسعودى ٤ ٤٨ ؛ ياقوت ١ : ٧١٣ ؛ ٤ : ٨١٧ و ٨١٨ . القزوينى ٢ : ٢٢١ .

ترجم هذه النبذة الغريبة عن النوبهار بحذافيرها ، باربيه دى مينار Barbier de Meynard فى صحفة Dictionnaire Géographique de la Perse ص ٥٦٩ . واستنتج السر هنرى رولنسن (H. Rawlinson) من وجود الاصنام الكبيرة والصغيرة والاعلام (المقدسة) ان النوبهار ، كان فى الاصل ، معبدا بوذيا ــ فسر اسمه بـ « نوفهاره » « أى نهار الجديد » ــ أو ديرا بوذيا . انظر JRGS لسنة ١٨٧٢ ص ٥١٠ .

ـ ويسمى شاه مردان « أي ملك الرجال » ـ . وعلى قول خواندامير ، ان هذا القبر الوهمي لعلي الشهيد قد اكتشف في سنة ٨٨٥ (١٤٨٠) يوم كان ميرزا بيقرا حفيد تيمور واليا على بلخ . ففي السنة المذكورة أطلع ميرزا بيقرا على كتاب تاريخ كتب في أيام السلطان سنجر السلجوقي ، جاء فيه ان عليا مدفون في قرية خواجا خيران وهي تبعد ثلاثة فراسخ عن بلخ . وبناء على ذلك ، ذهب الوالي الى تلك القرية ، ليتحرى الامر فاكتشف لوحا فيه ما نصه بالعربية : « هذا قبر أسد الله ووليّه علي أخي (عوضا عن ابن عم) رسول الله » . فأقيم على هذا القبر مزار عظيم ، وصار منذ ذلك الحين مكرما عظيم التكريم لدى أهل آسية الوسطى ، وهو ما زال من المواضع الشريفة التي تزار[٤] .

وكانت الُجوزجان (الجوزجان أو جزجانان) الناحية الغربية من ربع بلخ ، وبها يمرّ الطريق من مرو الروذ الى مدينة بلخ . وكانت في العصور الوسطى من أعمر النواحي وأكثرها أهلا ، فبها مدن كثيرة لم يبق منها اليوم غير ثلاث تعرف بأسمائها القديمة . أما مواضع المدن الاخرى فقد ذكرها بلدانيو العرب ، ومن الممكن تعيينها بالاستناد الى كتب المسالك . ومع ان اسماءها قد تبدلت ، غير ان الخرائب ما زالت تعين مواضعها القديمة . وكانت هذه الناحية عظيمة الخصب كثيرة التجارات ، وأكثر ما كان يرتفع منها الجلود المدبوغة التي تحمل الى سائر خراسان[٥] .

وعلى ثلاث مراحل من مرو الروذ منجهة بلخ ، مدينة الطالقان. ولم يبق لهذا الاسم ذكر في الخارطة . غير ان المرتفعات وبقايا الآجر بالقرب من جاچكتو ، قد تعين موضعها . وكانت الطالقان في المئة الثالثة (التاسعة) مدينة جليلة الشأن . قال اليعقوبي « بها تعمل اللبود الطالقانية » . وهي بين جبلين عظيمين ، بها مسجد جامع واسع . وفي المئة التالية لها ، قال الاصطخري « الطالقان مدينة نحو من

---

(٤) ابن بطوطة ٣ : ٥٨ و ٥٩ ؛ علي اليزدي ١ : ١٧٦ ؛ خواندمير ٣ (الجزء الثالث) ص ٢٣٨ ؛ C.E. Yate في كتاب الفانستان ص ٢٥٦ و ٢٨٠ . (انتهى) . قلنا : وراجع مادة « بلخ » في دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية ٤ : ٧٨ ـ ٨١) . (م) .

(٥) الاصطخري ٢٧١ ؛ ابن حوقل ٣٢٢ ؛ المقدسي ٢٩٨ ؛ ياقوت ٢ : ١٤٩ .

مرو الروذ فى الكبر • وهى أصحّ هواءً وبناؤها من طين » • وكان بالقرب منها قرية جُنْدُوَيْة وفيها على ما قال ياقوت وقعت فى المئة الثانية (الثامنة) « أول وقعة بين أصحاب أبى مسلم الخراسانى (داعى العباسيين) وبين أصحاب بنى أمية ، وهى وقعة مشهورة لها ذكر » • وبعد مضى زمن يسير على ما كتبه ياقوت ، استولى جنكيزخان على الطالقان فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) بعد أن حاصرها سبعة أشهر ، وقتل جميع أهلها وسوّى قلعتها بالارض •

وكانت اُلجرْزُوان بين الجبال - وهى أشبه شىء بمكة ، لانها بين جبلين - وفيها كان أمير الجوزجان يقضى أيام الحر • واسم المدينة بهذه الصورة ، انما هو بحسب تسمية العرب لها • أما الفرس فيقولون كرزوان • وكانت تكتب أيضا جرزبان أو كرزبان • وهى بين الطالقان ومرو الروذ فى ما كان من نحو تخوم الغور • قال ياقوت « هى مدينة آهلة ، وأهلها كلهم مياسير » • ولا يرى اليوم فى الخارطة موضع بهذا الاسم • الا ان الخرائب المعروفة بقلعة والى ، تشير فى أكثر الاحتمال اليها[٦] •

أما مدينة ميمنة ، وهى على مرحلتين مما يلى الطالقان فى طريق بلخ ، فما زالت مدينة عامرة • وكان يقال لها فى العصور الوسطى اليهودان أو اليهودية • وكانت تعد فى الغالب قصبة الجوزجان • قال ابن حوقل ان لمسجدها الجامع منارتين • ذكر ياقوت ، وقد أورد أسمها بصورة يهودان الكبرى أيضا ، ان اليهود لما أخرجوا من البيت المقدس فى أيام بختنصر كانوا أول من نزل موضعها • ثم بدل اسمها الى ميمنة « أى المدينة الميمونة أو الموفقة » تيمناً بذلك ، لأن اسم اليهودية يأباه المسلمون • وما زالت تعرف باسم ميمنة الى هذا اليوم • والظاهر

---

(٦) اليعقوبى ٢٨٧ ؛ الاصطخرى ٢٧٠ ؛ ابن حوقل ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ياقوت ٢ : ٥٩ و ١٢٩ ؛ ٣ : ٤٩١ ؛ ٤ : ٢٥٨ ؛ أبو الفدا ؛ ١١٤ C.E. Yate : افغانستان ١٥٧ و ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ٢١١ •

تبعد خرائب جاجكتو (الطالقان) ٤٥ ميلا فى أقصر الخطوط عن بالامرغاب (مرو الروذ) وهى تعادل مسيرة ثلاثة أيام فى أرض جبلية من الموضع الاخير الى الطالقان • وقد ذكر على اليزدى اسم جاجكتو (وكتبها : جيجكتو) فى أخبار حروب تيمور (١ : ٨٠٦ ؛ ٢ : ٥٩٣) ولكنه لم يذكر الطالقان • وترى خرائب قلعة والى (لعلها الجرزوان) على ٢٧ ميلا من بالامرغاب وهناك موضع آخر قد يشير الى بقاياها العظيمة بالقرب من تخت خاتون • فلعل أحد هذين الموضعين هو كرزوان ، ومما يحسن ذكره انها كانت دار ضرب للنقود فى أيام ملوك خوارزمشاه •

ان المستوفى ذكر ميمنة أيضا فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فقال هى بلدة وسطة من البلاد الحارة ، ينمو فيها القمح والفواكه والتمور ، وماؤها من نهر قريب منها. ولعل هناك بعض الالتباس بين ميمنة الجوزجان هذه وميمند ، عوضا عن ميوند فى زابلستان ، فى نصف الطريق بين گرِشْك وقندهار • وظهر مثل هذا الالتباس فى صفحات معجم ياقوت وقد كتب عن ميمند غزنة قال هى « بين باميان والغور » ويريد بذلك على ما يبدو ميمنة أى اليهودية • وعلى مرحلة من اليهودية أى ميمنة ، كانت مدينة كنــدرم ، وتكتب أيضا كنــددرم • وهى على ما ذكــر اليعقوبى « يسكنها ملك الجوزجان » • وقال الاصطخرى « كنــددرم فى الجبل ، وهى مدينة كثيرة الكروم والجوز ولها مياه كثيرة »[٧] •

ومن أجلّ مدن الجوزجان فى العصور الوسطى : الفارياب • ولم يبق لاسمها ذكر فى الخارطة • الا انه يؤخذ من وصف كتب المسالك لموضعها ، ان خرائبها قد تطابق ما يعرف اليوم بـ « خيراباد » حيث توجد قلعة قديمة تحيط بها تلول من الآجر • كانت الفارياب ، على ما ذكر ابن حوقل ، فى المئة الرابعــة (العاشرة) ، مدينة أصغر من الطالقان ، الا انها أكثر بساتين ومياها ، وأصح هواءً منها ، « جامعة للصنائع والتجارة ، وليس لمسجد جامعها منارة » • أما ياقوت ، وقد كتب اسمها فيرياب ، فانه ذكر موضعها بالنسبة الى الطالقان وشبورقان ، ولم يزد شيئا على ذلك • وفى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) أى بعد مقامه فيها بشىء يسير ، خرّب المغول مدينة الفارياب عن آخرها • ولم يذكرها المستوفى الا لمماً • وكان بين اليهودية والفارياب ، على قول ابن حوقل ،مدينة مرسان[٨] • وكانت « تقارب اليهودية فى الكبر » فى المئة الرابعة (العاشرة) • ولعلها تطابق قرية تريان التى ذكرها ياقوت فى ما يشبه هذا الموضع • وفى هذه البلاد الجبلية كانت بلدة سان الصغيرة ، قال فيها ابن حوقل لها بساتين كثيرة مثمرة بها الأعناب والجوز ،

---

(٧) اليعقوبى ٢٨٧ ؛ الاصطخرى ٢٧٠ و ٢٧١ ؛ ابن حوقل ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ياقوت ٢ : ١٦٨ ؛ ٤ : ٧١٩ و ١٠٤٥ ، المستوفى ١٨٥ • C.E. Yate افغانستان ٣٣٩ ·

(٨) رجعنا الى ابن حوقل فى طبعته الثانية (ص ٤٤٢ و ٤٤٣ ، المقابلة لصفحة ٣٢٢ من طبعته الاولى) فلم نعثر فيه على مدينة باسم مرسان · بل انه تكلم على مدينة « سان » فقط فى ثلاثة مواضع · كما ذكر مدينة باسم « تريان » مما يدل على انهما مدينتان لا مدينة واحدة · (م) ·

ومياهها وافرة[٩] .

وشبرقان ، وجاء اسمها بصورة أشبورقان ، أو أشبرقان ، وكذلك شبورقان أو سبورغان ، ما زالت قائمة ، صارت فى المئة الثالثة (التاسعة) مرة قاعدة الملك فى ناحية الجوزجان ، ثم انتقلت منها الى اليهودية (ميمنة) وكانت حينذاك تقاربها كبرا . وبساتينها ومزارعها فى غاية الخصب ، كثيرة الفواكه ، تحمل منها الى سائر الانحاء . وقال ياقوت ، وقد كتبها بصورة شبرقان وشفرقان وشبورقان ، انها كانت فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) فى أيام الغزو المغولى « عامرة آهلة يقصدها التجار ويبيعون فيها الامتعة الكثيرة » . وتكلم عليها المستوفى بعده بقرن بما يشبه ذلك ، جامعا بين شبورقان وفارياب ، وقال ان القمح فيهما كثير رخيص .

وعلى يوم جنوب شبورقان ، فى نحو من المسافة نفسها شرق اليهودية ، مدينة أنبار ،وكتبت أيضا أنبير . قال فيها ابن حوقل : هى أكبر من مرو الروذ وبها مقام سلطان تلك الناحية فى الشتاء . ولم يبق مدينة باسمها اليوم ، غير انه يؤخذ من موضعها ان أنبار قد تطابق سرپول فى أعلى نهر شبورقان ، وهذه ما زالت ذات شأن . وكانت الكروم تحف بأنبار ، وبناؤها من طين . وتعد فى الغالب أكبر مدن الجوزجان ، ولعلها هى البلدة التى زارها ناصر خسرو فى طريقه الى شبورغان وجعلها قصبة الجوزجانان ، وتكلم على مسجدها الجامع العظيم ، وأشار الى ادمان أهلها شرب الخمر . وفى البرية ، شمال غربى شبورقان ، مدينة أندخوى ، وقد كتب البلدانيون الاولون اسمها بصور مختلفة : أندخذ ، أدخود ، أنخذ ، وقال ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) انها « مدينة صغيرة فى مفازة لها سبع قرى وبيوت للأكراد من أرباب الأغنام ، ولهم ابل » . وذكرها ياقوت دون أن يزيد شيئا على ما تقدم . وكثيرا ما ورد اسمها أيضا فى أخبار حروب

---

(٩) الاصطخرى ٢٧٠ ؛ ابن حوقل ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ناصر خسرو ٣ ؛ ياقوت ٣ : ٨٤٠ و ٨٨٨ ؛ ٤ : ٧٧٥ ؛ المستوفى ١٨٨ ؛ الفانستان ٢٣٣ .

وقد سمى ناصر خسرو فارياب الجوزجان بـ « ده پارياب » وكان مر بها حين ذهابه من شابرقان الى الطالقان . وذكرها جهان نما بصورة ناراب (ص ٣٢٤) . وينبغى ان لا يلتبس اسمها بفاراب التى يقال لها أيضا باراب ، وهى الرار على نهر سيحون على ما سنبينه فى الفصل الرابع والثلاثين .

تيمور[١٠] .

وناحية طخارستان العظيمة ، فى شرق بلخ ، ممتدة بحذاء الضفة الجنوبية لنهر جيحون حتى حدود بدخشان . وتحدها من الجنوب الجبال التى فى شمال الباميان وبنجهير . وكانت تنقسم الى قسمين : طخارستان العليا وهى فى شرق بلخ فى محاذاة نهر جيحون ، وطخارستان السفلى وهى فى جنوبها الشرقى على حدود بدخشان . وقد ذكر بلدانيو القرون الوسطى عددا من مدن طخارستان ، ولكنهم لم يأتوا بشيء كثير عنها ، ولهذا اذا استثنينا المدن التى ذكرتها كتب المسالك ، وما زالت قائمة ، تعذر علينا معرفة مواضع معظم المدن الاخرى .

وعلى يومين من شرق بلخ ، مدينة خُلم . وصفها المقدسى بقوله « صغيرة ، الا ان قراها ورستاقها ومزارعها كثيرة ، وهواءها صحيح » . وعلى يومين أيضا من خلم ، سمنجان ورؤب وهما متصاقبتان . ولعل مدينة هيبك الحالية تمثل كلتيهما وهى جنوب مدينة خلم القائمة فى أعالى نهر خلم . قال المقدسى : « سمنجان أكبر من خلم ، بها منبر واحد وبها ثمار » . وقال ياقوت فيها انها بين شعاب ، وقد نزلها عرب من بنى تميم . وذكر المستوفى سمنجان بقوله : انها مدينة كبيرة وكانت خرابا فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ولكن القمح يزرع فيها بكثرة وكذلك القطن والعنب . وذكرها علي اليزدى بصورة سمنكان فى سياق وصفه لزحف تيمور من خلم الى حدود الهند .

وفيما يلى سمنجان ، فى جنوبها الشرقى كانت بغلان : العليا والسفلى والاخيرة كانت القصبة ، على ما ذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) وبها جامع . ويظهر ان بغلان ، أو بقلان ، بحسب تهجئة علي اليزدى لاسمها ، كانت تتاخم طريق اندرابة وهى اندراب ، وقد وصفها المقدسى بقوله « لها أودية مشجرة وبها أسواق حارة » . وكانت هذه الاودية فى سفوح جبل بنجهير الشمالية ، وفيها معدن الفضة على ما ذكر ابن حوقل ، وقال أيضا ان نهر أندراب

(١٠) اليعقوبى ٢٨٧ ؛ الاصطخرى ٢٧٠ و ٢٧١ ؛ ابن حوقل ٣٢١ و ٣٢٢ ؛ ناصر خسرو ٢ ؛ ياقوت ١ : ٣٦٧ و ٣٧٢ ؛ ٣ : ٢٥٤ و ٢٥٦ و ٣٠٥ و ٨٤٠ ؛ المستوفى ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ على اليزدى ١ : ٨٠٥ ؛ ٢ : ٥٩٣ ؛ C.E. Yate افغانستان ٣٤٦ .

ونهر كاسان ، ينحدران من هذه الناحية . ولم يزد ياقوت شيئا على ما مرّ ذكره ، وقد كتب اسمها بصورة أندراب أو أندرابة[١١] .

ونهر خلم ، لا يصب في جيحون . بل تفنى مياهه في المناقع على بضعة أميال شمال خرائب المدينة القديمة . وفي عدوة جيحون القريبة من خلم ، كان رباط حصين منيع في المئة الرابعة (العاشرة) يقال له رباط ميلة ، حيث يعبر الطريق الآتي من بلخ ، النهرَ العظيم الى ما وراء النهر وبلاد الختّل في ثلاث مراحل .

وعلى مرحلتين من شرق خلم ، كانت ورواليز أو ورواليج ، وقد وصفها ابن حوقل وغيره بانها كانت في المئة الرابعة (العاشرة) مدينة كبيرة ، وليس هناك اليوم مدينة قائمة بهذا الاسم ، الا ان موضعها ، بناء على وصف كتب المسالك ، ينبغي ان يكون قريبا جدا من موضع قندز . ولم يضف ياقوت الى ذلك شيئا الا انه وهم ، على ما يظهر ، في كتابة اسمها فجعله وزوالين ، كما ان قندز لم يذكرها ياقوت ولا غيره من البلدانيين الاولين ، ولا ريب ان اسمها مختصر من قهندز اللفظة الفارسية الدارجة للقلعة . وعلى ذلك فان قندز قد تكون القلعة القديمة لورواليز[١٢] .

وعلى يومين من شرق ورواليز ، مدينة الطايقان أو طالقان طخارستان وهي ما زالت قائمة (وينبغي ان لا يلتبس اسمها مع طالقان الجوزجان وقد مرّ وصفها في صفحة ٤٦٦) كانت في المئة الرابعة (العاشرة) من أعمر مدن هذه الناحية وأكثرها سكانا . وذكرها المقدسي بصورة الطالقان ، وان كانت الطايقان الصيغة المفضلة لاسمها . وقال « لها سوق كبير » وكانت « في مستواة ، وبينها وبين الجبل غلوة » وكانت في المئة الرابعة (العاشرة) نحوا من ثلث بلخ . يسقيها نهر يأخذ من جيحون يقال له خُتَّلاب (وقدكتب أحيانا خيلاب) ونهر وتراب (أو تراب ، فانه يشك في قراءة هذين الاسمين) . والظاهر ان هذا النهر كان من فروع

---

(١٢) الاصطخري ٢٧٩ ؛ ابن حوقل ٣٢٦ و ٣٣٢ ؛ المقدسي ٢٩٦ ؛ ياقوت ٢ : ٥١٨ ، ٢ : ٨٢٧ ؛ ٣ : ١٤٢ و ٥١٨ ؛ المستوفي ١٨٨ ؛ علي اليزدي ٢ : ١٩ G. E. Yate افغانستان ٣١٧ . وانظر الخارطة رقم ١ مقابل الفصل الاول ، لمعرفة مواضع هذه الامكنة .

(١١) الاصطخري ٢٧٩ ؛ ابن حوقل ٣٢٦ ؛ المقدسي ٢٦٦ و ٣٠٣ ؛ ياقوت ١ : ٣٧٢ ، ٤ : ٩٢٦ .

نهر ختــلاب ويلتقى به فوق قندز . وكانت هذه البقعة فى غاية الخصب والنزهة يكثر فيها ، على ما ذكر المستوفى ، القمح والفواكه . وكان جل سكانها فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) من الحاكة . وكان لها حينذاك قلعة منيعة ، حولها رساتيق كثيرة الزرع ، يكثر فيها العنب والتين والخوخ والفستق . وقد ذكر علي اليزدى الطايقان غير مرة فى حديثه عن حروب تيمور . وعلى سبعة أيام من شرقها ، على ما ذكر البلدانيون الاولون : بذخشان ، وسننوّه بها فى الفصل القادم[١٣] .

وأشهر تجارات خراسان ، على ما نوه ابن حوقل ، ما يرتفع من نيسابور ومرو من ثياب القطن والابريسم . وتكثر فيهــا الابل والغنــم وهى رخيصة ، « وأنفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك » ــ فقد بيع الرقيق ، غلاما كان أو جارية ، على قوله ، بخمســة آلاف دينار (نحو ٢٥٠٠ باون)ــ والاطعمة فيها وافرة وسرد المقدسى غير ذلك من التجارات فذكر ان نيسابور كانت مجمع الصناعات . فمنها « ترتفع الثياب البيض والعمائم الشهجانية الحفية والراخنج والتاختج والمقانع وبين الثوبين والملاحم بالقزّ والمصمت والعتابى والسعيدى والطرائفى والحلل وثياب الشعر والقز » . ويرتفع من نيسابور أيضا الحديد وغير ذلك كالابر والسكاكين . وبساتين نيسابور مشهورة بالتين والكمأة والراوند . ومن جبال رستاق ريوند فى نيسابور يرتفع معدن الفيروزج .

ويرتفع من نســا وأبيورد : القز وثيابه وما تنسجه النساء فى رساتيقهما . ويرتفع منهما أيضا فراء الثعالب . وفى نسا نوع من البزاة ، وفيها سمسم كثير . ويرتفع من طوس البرام الفائقة والحصر والحبوب والتكك الحسنة والابراد الجيدة . ومن هراة البز الكثير والديباج . ويرتفع منها « الزبيب ودوشاُبهُ وناطفــه والبولاذ والفستق » . ويرتفع أيضا من هراة الحديد . ومن غرج الشار البلاد الجبلية : اللبود والبسط الحسان والحقائب والسروج والذهب والخيل الجيدة والبغال وتحمل منها الى سائر الانحاء .

---

(١٣) ابن رسته ٩٢ ؛ الاصطخرى ٢٧٥ ـ ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٧٩ ؛ ابن حوقل ٣٢٦ ؛ المقدسى ٢٩٦ و٣٠٣ ' ابو الفداء ٤٧٢ ؛ ياقوت ٣ : ٥٠١ ، ٥ . ٢٤ ؛ المستوفى ١٨٨ و١٨٩ ' علي اليزدى ١ : ٨٢ و ١٧٩ . وجاءت تهجئة هذا الاسم (بأل وبدونها) بصورة طايقان وطايكان وطالقان مثل اسم المدينة التى فى الجوزجان .

ويرتفع من مرو القز والابريسم والقطن ومنها تعمل المقانع وأنواع الثياب . ويرتفع من رساتيقها الشيرج والتوابل والعطور والمن . وتصنع فيها أوانى النحاس . « وليس فى الدنيا مثل خبز مرو ولا نظير له فى أقاليم الاعاجم » . ويرتفع من بلخ السمسم والارز واللوز والجوز والزبيب وصابونها مشهور . ويعمل العسل فيها من العنب والتين ولب الرمان ، ويحمل منها الدوشاب والسمن . وفى أطرافها معادن الرصاص والزاج والكبريت والزرنيخ وطيوب بلخ مشهورة وكذلك الكركم والادهان . ويحمل منها الجلود المدبوغة والحلل . ويرتفع من ترمذ فى ما وراء النهر الصابون والحلتيث . ويحمل من وروالیج الى بذخشان ، على ما ذكر المقدسى ، من أنواع الفواكه الجوز واللوز والفستق والكمثرى وكذلك كثير من الارز والسمسم . ويحمل منها أيضا الجبن والسمن والقرون والفراء ولا سيما جلود الثعالب(١٤) .

أما المسالك التى كانت تخترق خراسان وقوهستان فهى : طريق خراسان العظيم، وكان يدخل خراسان مما يلى بسطام (فى قومس ، أنظر ص ٤٠٥ - ٤٠٦) وكان من هذا الموضع الى نيسابور طريقان : الشمالى وهو طريق القوافل من بسطام الى جاجرم ثم منها مارا بأزادوار مخترقا برية جوين الى نيسابور ، وهو الطريق الذى وصفه المستوفى ، ووصف بعضه الاصطخرى وابن حوقل . والطريق الجنوبى ، وهو أقصرهما ، هو طريق البريد الى نيسابور . وكان يبدأ من بذش ، وقد مر ذكرها (ص ٤٠٨) ، وكانت على فرسخين من بسطام . وهذا الطريق يتاخم الجبال ، والمفازة على يمينه ، ويصل الى اسداباد ثم يجتاز بهمن اباد أو مزينان ، وعندها يتفرع منه طريق نحو الشمال الى ازادوار . ويتابع طريق البريد سيره شرقا فيجتاز سزوار حتى يصل نيسابور وهذا هو الطريق الذى وصفه ابن خرداذبه وجميع كتب المسالك القديمة . وكان من اسداباد الى الجنوب الشرقى ، على ما ذكر المقدسى ، طريق يقطع هذا الطرف من المفازة العظمى ، طوله ثلاثون فرسخا الى ترشيز فى قوهستان . أما الطريق من نيسابور الى ترشيز ، فقد

---

(١٤) الاصطخرى ٢٨١ ؛ ابن حوقل ٣٣٠ ؛ المقدسى ٣٢٣ - ٣٢٦ .

ذكره ابن خرداذبه والمقدسى ، كما ذكر المقدسى مراحل الطريق من نيسابور شمالا الى نسا[١٥] .

وعلى مرحلة مما يلى نيسابور ، عند قصر الريح ، أى دزباد ، ينشطر طريق خراسان شطرين . الايمن وهو الجنوبى الشرقى ، ينزل الى هراة وسنأتى على وصفه فى الفقرة الآتية . ومن قصر الريح يتعطف الطريق الى اليسار فالى الشمال الشرقى الى المشهد وطوس . ومنها عن طريق مزدران الى سرخس عند معبر نهر تَجَنْد . ومن سرخس يقطع المفازة الى مرو الكبرى ومنها يخترق المفازة ثانية حتى يصل ضفة جيحون عند آمل (أى چهار جوى) . ثم انه اذا غادر خراسان ، وقع منتهاه فى بخارا . وقد جاء وصف هذا القسم من طريق خراسان من نيسابور الى آمل عند معبر جيحون فى جميع كتب المسالك تقريبا مع اختلاف طفيف . وما زال أكثر مراحله قائما الى اليوم معروفا بأسمائه القديمة[١٦] .

مرّ بنا القول ان طريق خراسان ينشطر من يمينه طريق على مرحلة مما يلى نيسابور ، ومنها يبلغ هراة . وكان ينشطر من يمينه أيضا طريقان عند سرخس ومرو ، يذهب كلاهما الى مرو الروذ ، وكان ينتهى الى هذه المدينة أيضا طريق من هراة ضارب الى الشمال . ومن مرو الروذ ، كان طريق خراسان الكبير يتجه الى الشمال الشرقى نحو بلخ ، فاذا تجاوزها عبر نهرجيحون الى ترمذ . فاذا أخذنا أولا طريق هراة من موضع انشطاره عند قصر الريح ، نجد انه يصل الى بوزجان فى أربع مراحل ، وفى مثل هذه المسافة الى بوشنج . ثم الى هراة فى مرحلة يوم . وقد وصف هذا الطريق ابن رسته وبلدانيو المئة الرابعة (العاشرة) وكذلك المستوفى . ويخرج من بوزجان ومن بوشنج طريقان نحو الجنوب الغربى والغرب ، يجتمعان فى قاين . وقد أورد الاصطخرى وغيره

---

(١٥) ابن خرداذبه ٢٣ و ٥٢ ؛ قدامة ٢٠١ ؛ ابن رسته ١٧٠ (وفيه تفاصيل هذا الطريق) ؛ الاصطخرى ٢١٦ و ٢٨٤ ؛ ابن حوقل ٢٧٥ و ٣٣٣ ؛ المقدسى ٣٥١ و ٣٥٢ و ٣٧١ و ٣٧٢ و ٤٩١ ؛ المستوفى ١٩٦ .

(١٦) ابن خرداذبه ٢٤ و ٢٥ ؛ قدامة ٢٠١ و ٢٠٢ ؛ ابن رسته ١٧١ ؛ اليعقوبى ٢٧٩ ؛ المقدسى ٣٤٨ و ٣٥١ ؛ المستوفى ١٩٦ (وقد وصف الطريق حتى سرخس) .

المسافات بين مدن قوهستان المختلفة . وتجتمع فى قاين أيضا الطرق الآتية من طبس وخور على حدود المفازة الكبرى[١٧] .

ومن هراة ينزل الطريق جنوبا الى زرنج مارا باسفزار قاطعا حد سجستان بين تلك المدينة وفره (أنظر ص ٣٧٩ أعلاه) ، وقد جاء وصف هذا الطريق فى ابن رسته والبلدانيين الثلاثة من أهل المئة الرابعة (العاشرة) . والطريق من هراة شرقا يصعّد فى وادى هرى رود الى حد الغور ، وقد ذكر هؤلاء البلدانيون أنفسهم أسماء ما فيه من مدن ، بين المدينة والمدينة يوم . وذكر بلدانيو المئة الرابعة (العاشرة) أيضا ، مسافات الطريق من هراة فكروخ الى شرمين وابشين فى غرجستان بالايام . ثم ينحدر الطريق الى نهر مرغاب فيصل الى مرو الروذ . وجاء ذكر الطرق الى مرو الروذ أو قصر الأحنف (مروچك) التى تجتاز باذغيس مارة ببنشور ، قصبتها) فى الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، وكذلك فى المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة)[١٨] .

وكان يجتمع فى مرو الروذ طريقان : من سرخس ومن مرو الكبرى يقطع أولهما المفازة بين النهرين الكبيرين . والثانى يصعد مع نهر مرغاب مارا بالاراضى الخصبة وبما على ضفافه من مدن . اما طريق المفازة الذى يمرّ بجملة رباطات ، فلم يذكره غير المقدسى ، وقد نقل عنه المستوفى وجهان نما الكتاب التركى . وذكر ابن خرداذبه وقدامة الطريق من مرو الكبرى الى نهر مرغاب وكذلك المقدسى ولكن وصفه كان لغير هذا الطريق[١٩] .

ومن مرو الروذ الى بلخ ، ذكر ابن خرداذبه وكتب المسالك القديمة طريقا يخترق ناحية الجوزجان ويمر بالطالقان ، ومنها الى بلخ مارا اما بفارياب وشبورقان ، واما باليهودية (ميمنة) وأنبار . وذكره الاصطخرى والمقدسى مع

---

(١٧) ابن رسته ١٧٢ (وفيه تفاصيل الطريق بدون ذكر المسافات) ؛ الاصطخرى ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٨٦ ؛ ابن حوقل ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٣٥ ؛ المقدسى ٣٥١ و ٣٥٢ ؛ المستوفى ١٩٧ .

(١٨) ابن رسته ١٧٣ و ١٧٤ ؛ الاصطخرى ٢٤٨ و ٢٤٩ و ٢٨٥ ؛ ابن حوقل ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٣٤ ؛ المقدسى ٣٤٨ و ٣٤٩ و ٣٥٠ ؛ المستوفى ١٩٨ .

(١٩) ابن خرداذبه ٣٢ ؛ قدامة ٢٠٩ ؛ المقدسى ٣٤٧ و ٣٤٩ ؛ المستوفى ١٦٦ ؛ جهان نما ٣٢٩ .

بيان المسافات بالمراحل • وذكر المستوفى طريقا من مرو الروذ الى بلخ بشيء من الاختلاف ، كان يمر فى غرب كل من الطالقان ، وتبعد عن يمين الطريق ستة فراسخ ، والفارياب وتبعد فرسخين عن يمينه أيضا ، فيصل الى شبورقان ، ثم يعبر قنطرة جموخبان الى بلخ • وقد نقل جهان نما هذا الوصف للطريق • ومن بلخ كان الطريق يصل الى نهر جيحون عند موضع منه بازاء ترمذ فى مرحلتين مارا بسياه جرد[٢٠] •

ومن شرق بلخ ، يضرب الطريق الى حدود بذخشان مارا بخلم والطايقان • ويتفرع منه طريق من خلم يتجه نحو الجنوب الشرقى الى اندرابة ومعادن پنجهير شمال كابل • وقد أجمل الاصطخرى والمقدسى أيضا ذكر طرق من بلخ مجتازة الجبال الى الباميان ، ثم منها نحو الجنوب الى قصدار مارة بغزنة • ويفرع من غزنة طريق نحو الشرق الى حدود الهند • الا انه يشك فى مراحل هذه الطرق ، لان الامكنة المسماة بها غير معروفة[٢١] •

---

(٢٠) ابن خرداذبه ٣٢ ؛ قدامة ٢١٠ ؛ الاصطخرى ٢٨٦ ؛ ابن حوقل ٣٢٢ ؛ المقدسى ٣٤٦ و ٣٤٧ ؛ المستوفى ١٩٧ ؛ جهان نما ٣٢٩ •

(٢١) الاصطخرى ٢٨٦ ؛ ابن حوقل ٣٣٤ و ٣٣٥ ؛ المقدسى ٣٤٦ و ٣٤٩ و ٤٨٦ •

الفصل الحادي والثلاثون

ماوراء النهر

(نهر جيحون)

بلاد ما وراء النهر اجمالا ـ اسما جيحون (Oxus) وسيحون (Jaxartes) ـ روافد نهر جيحون العليا ـ بلخشان ووخان ـ الختل والوخش ـ القباذيان والصغانيان ومدنهما ـ قنطرة الحجارة ـ ترمذ ـ الأبواب الحديد ـ كالف والحسيسك وفربر ـ بحر آرال اى بحيرة خوارزم ـ انجماد ماء جيحون شتاء .

كان نهر جيحون القديم يعدّ الحدّ الفاصل بين الاقوام الناطقة بالفارسية والتركية ، أى ايران وتوران . فما كان فى شماله ، أى ورائه ، من أقاليم ، قد سماها العرب ما وراء النهر (وهو نهر جيحون) وكذلك سموها الهيطل . وقد كان الهياطلة فى المئة الخامسة للميلاد أعدى أعداء الدولة الساسانية . وهم الافثلاطيون (Ephthalites) لدى المؤلفين البزنطيين ، ويعرفون بالهون البيض . على ان مصنفى القرون الوسطى من العرب ، كانوا لا يتقيدون فى استعمال اسم الهيطل فقد أطلقوه اعتباطا على جميع الشعوب والبلاد التورانية فى ما وراء جيحون وعلى ذلك جرى المقدسى فى استعماله اياه .

وقد يكون من الملائم تقسيم هذه البلاد بين خمسة أقاليم . أجلها شأنا كان الصُغْد ،وهو صغديانا (Sogdiana) القديمة مع قصبتيه بخارا وسمرقند . وفى غرب الصغد : خوارزم ، وهو الاقليم المعروف اليوم بـ « خيوة » . ويشتمل على دلتا نهر جيحون . وفى الجنوب الشرقى : الصغانيان ومعه الختّل وغيرهما

من الكور الكبيرة التى فى أعالى نهر جيحون . واليه أيضا تسود بذخشان ، وان وقعت فى ضفته اليسرى أى الجنوبية ، فان المنعطف الكبير للنهر فيما وراء طخارستان يكاد يطوقها . ثم اقليما نهر سيحون ، وهما فرغانة فى أعلى النهر واقليم الشاش (وهو اليوم تاشكند أو طشقند) مع النواحى التى فى الشمال الغربى الممتدة حتى مصب سيحون فى مناقع بحر آرال .

وأطلق العرب فى القرون الوسطى على نهر أوكسس Oxus ونهر جكزرتس Jaxartes اسمى : جيحون وسيحون على ولاء . وهما كدجلة والفرات يعدان من أنهار الجنة حسب ما يروى . ويعتور الغموض أصل هذين الاسمين ، انما يبدو ان العرب قد اقتبسوهما من اليهود . فجيحون وسيحون ليسا الا صورتين مصحفتين لاسمى النهرين المذكورين فى سفر التكوين (٢ : ١١ و ١٣): جيحون (گيحون Gihon)وفيشون (پيسون Pison)[1] .

وفى أواخر العصور الوسطى ، فى نحو من زمن الغارة المغولية ، كاد يبطل استعمال اسمى جيحون وسيحون . فعرف نهر اكسس فى الغالب بـ « أمويه » أو « أمودريا » أما جكزرتس فعرف بـ « سيردريا » ، على ما سنبينه فى فصل قادم . وأصل لفظة أمويه أو أمو غير واضح كل الوضوح فحافظ أبرو فسره بانه ليس الا اسم مدينة وكورة على ضفة جيحون من جانب خراسان كتبت فى الاصل بصورة آمل (وهى چهار جوى . أنظر ص٤٤٥-٤٤٦ أعلاه). ولعل أمر ذلك بالعكس ، فيكون التفسير الصحيح ان مدينة آمل ربما سميت أمويه أو أمو نسبة الى اسم محلى (فارسى) للنهر العظيم ، شاع استعماله وحل محل اسم

---

(١) الاصطخرى ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٥ ؛ ابن حوقل ٣٣٥ و ٣٤٧ و ٣٤٨ ؛ المقدسى ٢٦١ - ٢٦٨ .
وقد حرف هذان الاسمان تحريفا طفيفا الى سيحان وجيحان ، واطلقا على ما قد بينا (ص ١٦٣) ، على پيرامس وسارس . وهما النهران اللذان تحدان قليقية أمام بلاد الروم . وقد اشتق هذان الاسمان ، على ما يظهر ، من لغة غريبة ، ولا نعرف معنياهما . وقد صيغ اسم سيحون وجيحون على وزن ذى سجع ونغم واحد ، كما جرى الامر على أسماء دخيلة كثيرة غيرهما . مثال ذلك الاسماء الواردة فى القرآن والحديث وهى : قابيل وهابيل (Able , Cain) وطالوت وجالوت (شاول وجلياد) ويأجوج ومأجوج (Magog , Gog). انظر ما كتبه Sir H. Yule فى كتاب وود Captain J. Wood بعنوان The Oxus (١٨٧٢) ص ٢٢ من المقدمة .

جيحون (العربى) الأبعد زمنا . على انه يلاحظ ان العرب قد سموا الانهار بأسماء ما عليها من مدن كبيرة . ومن ثمة فان اكسس أى أمودريا هو نهر آمو ، وكان يعرف فى الغالب أيضا بنهر بلخ ، وان قامت هذه المدينة على بضعة أميال من ضفته الجنوبية . أما اسم اكسس ، وبه عرف اليونان هذا النهر العظيم فقد حافظ عليه وخش ــ آب ، أى نهر الوخش وهو من روافده العليا . الا ان العرب ، لم يطلقوا أبدا على ما يظهر اسم الوخش على عمود النهر نفسه .

ومنابع نهر جيحون ، على ما ذكره ابن رسته وغيره من البلدانيين الاولين ، وما قالوه صحيح ، من بحيرة فى التبت الصغرى وفى الفامر (بامير Pamir) وذكر الاصطخرى ، وقد نقل عنه من جاء بعده من المصنفين ، أسماء أربعة أنهار من روافد نهر جيحون العليا الكبيرة . وليس من اليسير التحقق منها ولكنه قد تسنّى تعيين الاسماء الآتية منها : فعمود نهر جيحون الاعلى كان نهر جرياب ، وهو اليوم نهر پنج ، وكان يصل الى بذخشان من الشرق . ويخرج من بلاد يقال لها وخّان . وكان يقال لنهر جرياب أيضا نهر وخّاب وكان عمود جيحون هذا ينحدر من الهضاب الشرقية ويدور دورة كبيرة حول بذخشان ويضرب نحو الشمال ، ثم يتجه غربا فجنوبا قبل أن يبلغ أطراف خلم . وينصب فى يمين مجراه هذا الذى يؤلف ثلاثة أرباع الدائرة ، كثير من الروافد الكبيرة أولها نهر أنديجاراغ ، وقرب ملتقاه بجيحون مدينة باسمه . والظاهر انه هو نفسه نهر برتنك اليوم . ثم يلتقى معه نهر فارغر (وكتب أيضا بصورة فرغار ، فرغان ، فرغي) وهو ينحدر من بلاد الختل ويطابق نهر ونج اليوم . وفى أسفله يستقبل نهرأخشوا (أخشْ) وهو يقابل عمود نهر جيحون ، وعليه مدينة هُلْبُك قصبة بلاد الختل . ومن منابعه : نهر بلبان أو بربان . وهذه الانهار المتحدة تعرف اليوم باسمها التركى آقصو ، أى النهر الابيض . فهذه روافد نهر جيحون العليا الاربعة على ما جاءت فى الاصطخرى . وقد قال ان هذه المياه تجتمع كلها فيه فوق معبر النهر فى آرهن .

وفوق هذا المعبر أيضا ، ولكن فى يسار النهر ، يصب فى جيحون نهر

بذخشان ، المعروف اليوم بـ « ككچه » ويقال له نهر الضرغام . وتحت معبر آرهن ، يستقبل نهر جيحون رافده الايمن الكبير وخشاب وهو نهر الوخش ، ومنه اشتق اليونان ، على ما قلنا ، تسميتهم له بـ « اكسس » (Oxus) ، وهـذا النهـر يفصل بلاد الختل وبلاد الوخش اللتين في شرقـه عن ناحيتي القباذيان والصغانيان اللتين في غربه . ونهر وخشـاب ، هو النهر المعروف اليوم بسرخاب أي النهر الاحمر . وفي الموضع الذي يتجه فيه نهر جيحون الى الغرب ، بعد انعطافه حول بذخشـان من ثلاثة جوانب ، يستقبل في يساره ، أي في ضفته الجنوبية ، نهري الطايقان وقندز الآتيين من طخارستان . وهذان النهران هما اللذان سماهما ابن رسته بنهر ختلاب ونهر وتراب على الولاء ، على ما قد بيّنا في الفصل السابق (ص ٤٧٠) ويلتقي نهرا القباذيان والصغانيان - والاخر ، وهو يمرّ بترمذ ، قد سماه ابن رسته بنهر زامل - بجيحون في ضفتـه الشـمالية أي اليمنى . ومخرجهما في جبال البُتّم . وتفصل هذه الجبال في الشمال مياه جيحون عن مياه زرفشان التي في الصغد . فهذه هي آخر روافد النهر العظيم ، لان نهر جيحون لا يستقبل غيرها من الانهار اذا ما جاوز غرب بلخ . فيجري في المفازة باتجاه غربي وشمالي غربي حتى دلتاه في جنوب بحر آرال[٢] .

وبلاد بذخشان في شرق طخارستان ، يحدق بها من ثلاثة جوانب المنعطف العظيم في نهر جيحون الاعلى ، على ما مرّ بنا . وقد وصف الاصطخري هذه البلاد بقوله : « لها رستاق كبير عامر جدا خصب وبها كروم وأنهار » وقصبتها باسمها ، الا ان نهر بذخشان (أي ككچه) كان معروفا عند العرب بنهر الضرغام على ما قد بيّنا . أما موضع مدينة بذخشان ، فلم تفصح عنه كتب المسالك التي انتهت الينا . الا انه نظرا الى مناعة أكثر هذه البلاد ، فمن المحتمل على ما يبدو ، انها كانت في الوادي حيث تقوم اليوم مدينة فيض أباد (فيزاباد) ، قصبة البلاد الحالية .

---

(٢) ابن رسته ٩٢ و ٩٣ ؛ ابن خرداذبه ٣٣ ؛ ابن الفقيه ٣٢٤ ؛ الاصطخري ٢٧٧ و ٢٩٦ ؛ ابن حوقل ٣٤٨ ؛ المقدسي ٣٠٣ ؛ ابن سرابيون ٢٥ آ ، ٤٤ ب ؛ ياقوت ٢ : ١٧١ ؛ ٣ : ٤٦٩ .
وقد جاء في القزويني (١ : ١٧٧) اسم جرناب عوضا عن جرياب . وفي (٢ : ٣٥٣) جريان . وهما من وهم النساخ .

وكانت بذخشان تشتهر منذ القديم بأحجارها الكريمة ، لا سيما « معدن البلخش المقاوم للياقوت وبها معدن اللازورد »[٣] . وقال المقدسي في المئة الرابعة (العاشرة) انه كان فيها عند معادن الجوهر حصن لزبيدة زوجة هرون الرشيد ونسب اليها . وفيها غير الياقوت والبلخش واللازورد : البلور وحجر البازهر . وبها أيضا « الاسبست » وقد سماه العرب حجر الفتيلة وهو لا تحرقه النار . قال المقدسي « وينسج منه الخوان ، فاذا اتسخت وأرادوا غسلها طرحوها في التنور فتعود نظيفة » . وهكذا كانوا يصنعون بحجارة الفتيلة اذا اتسخت فانهم يطرحونها في النار المتأججة ساعة فتعود الى ما كانت عليه ، وزاد المقدسي على ذلك انه كان بها « حجر يجعل في البيت المظلم فيضيء أدنى شيء » . ولعل هذا الحجر ضرب من الحجر الفسفوري المضيء (نوع من حجر الفلور) .

وقد أعاد القزويني نقل أكثر هذا القول ، وذكر ان في بذخشان ، غير هذه الاحجار الكريمة ، حجر البجاذي « وهو حجر كالياقوت » . وقال ان حجر الفتيلة كان يحسبه العامة في أيامه « ريش الطائر لا تحرقه النار »[٤] . وكان معدن البلخش يكثر بالقرب من مدينة يمكان في جوار معدن الفضة . وذكر أبو الفداء مدينة حِرم وهو الاسم الذي أطلقه علي اليزدي على نهر بذخشان . ولما غزا تيمور بذخشان في النصف الثاني من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت قصبتها كِشْم ، وفيها مقام ملك بذخشان . ومن أكبر مدنها كلاوقان ، الا انه لم يته الينا وصف لهما . ولا نعرف مواضعهما .

وفي شرق بذخشان في أعالي جيحون ، مدينة وخان . قال ابن حوقل انها في الطريق الى التبّت (الصغرى) . ويرتفع منها المسك . وكانت من دور الكفر تاخم بلادا يقال لها السقينة وكرّان (أو كرّام) . ويلي هذه البلاد من جهة كشمير ناحية « بُلُور » بها موضع في كل سنة ثلاثة أشهر يدوم فيه الثلج والمطر بحيث لا يرى فيها قرص الشمس » . وكانت معادن الفضة في وخان مشهورة في المئة الرابعة (العاشرة) ، وفي أودية أنهارها معدن الذهب . وكانت قوافل

---

(٣) اشتقت كلمة Azure من اللازورد .

(٤) سمره « السد » . (الدكتور مصطفى جواد) .

الرقيق من أواسط آسية تجتاز هذه البلاد الى خراسان ومنها الى أسواق المدن الاسلامية فى الغرب[٥] .

وكان أكبر روافد جيحون ، نهر وخشاب ، على ما مر بيانه . يصب فى يمينه آتيا من الشمال . وكانت البقاع الجبلية العظيمة الواقعة فى الزاوية التى يؤلفها نهر وخشاب مع جيحون ، تعرف بالختل . وكان هذا الاسم يطلق دون تقيد على جميع بلاد الكفر مما يلى شرق خراسان وشمالها[٦] . وكانت الختل تشتمل على بلاد الوخش فى قسمها الشمالى حيث مخرج نهر وخشاب وهى على ما ذكر الاصطخرى فى غاية الخصب ، وبها الخيول ودواب الحمل ، وبها جملة مدن كبيرة على ضفاف أنهارها الكثيرة . ويكثر فيها القمح والفواكه .

وكانت قصبة الختل فى المئة الرابعة (العاشرة) ، مدينة هلبك . وبها يقيم السلطان (ولعلها كانت بالقرب من موضع ُخلاب الحالية) . الا ان مدينة ُمنْك وهلاورد ، كانتا أكبر من هلبك . ومن مدنها الكبيرة أيضا انديجاراغ (أو انداجاراغ) وفرغان (أو فارغر) وهما على نهرين باسميهما . وفيها كذلك مدينة تمليات ولاوكند ، وهذه الاخيرة كانت على نهر وخشاب أسفل من قنطرة الحجارة (بالقرب من كرگان تپه الحديثة) . وصف المقدسى هلبك فقال : « هى قصبة الختل ، الجامع وسط البلد ، شربهم من نهر ، يسمى نهر أخشوا » . وكانت مدينة انديجاراغ قريبة من ضفة جيحون حيث يصب رافد باسمها فيه . وربما كانت فى موضع قلعة َوْمر الحالية . أما منك فهى أكبر مدينة فى هذه البلاد، وهى فى شمال هلبك وشرق تمليات . وكانت هلاورد على نهر وخشاب . قال المقدسى : « هى أجل من هلبك ، كبيرة » . وكانت تمليات بين منك وقنطرة

---

(٥) الاصطخرى ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٩٧ ؛ ابن حوقل ٣٢٧ و ٣٤٩ ؛ المقدسى ٣٠٣ ؛ القزوينى ٢ : ٢٠٣ و ٢٢٥ و ٣٢٨ ؛ أبو الفداء ٤٧٢ ؛ على اليزدى ١ : ١٧٩ .

(٦) يستور تسمية هذه البلاد كثير من الالتباس . فنجد اسم الختل وختلان وختلان (الاولى بسكون التاء والثانية بتشديدها) . على ان القزوينى (٢ : ٣٥٢) قال ان ختلان بضم أوله وتشديد ثانيه مع الفتح) مدينة بارض الترك فى شعب بين جبلين ، ولم يشر الى موضعها - وعلى اليزدى (١ : ٤٦٤ وفى غير هذه الصفحة) فى وصفه حروب تيمور كتبه بصورة ختلان (بضم أوله وسكون ثانيه) واسم الختل (بقراءاته المختلفة) ان هو الا لفظة الهيطل نفسها على ما يظهر . وهو الاسم الذى اطلقه العرب على الافتالطيين (Ephthalites) اى الهون البيض فى أيام الساسانيين والبزنطيين .

الحجارة على وخشاب ولعلها فى موضع بلجوان الحالية . وقد ذكر على اليزدى بلجوان فى سياق حديثه عن حروب تيمور[٧] .

وقنطرة الحجارة المشهورة التى على نهر وخشاب ، ما زالت قائمة . ذكرها ابن رسته والاصطخرى وكثيرون من المصنفين المحدثين بانها تقوم على وخشاب حيث يعبره الطريق من تمليات الى مدينة واشجرد فى قباذيان . والى الشمال بلاد الكميذ ، بحسب تسمية ابن رسته لها ، ويليها أيضا بلاد الراشت عند منابع وخشاب .وكانت قنطرة الحجارة هذه على ما ذكر الاصطخرى ، حيث يضيق مجرى النهر فى جبل هناك . وقال « لا يعلم ماء فى كثرته يضيق مثل ضيقه فى هذا الموضع » . ومثل ذلك ما قاله القزوينى وغيره من المصنفين . وأشار على اليزدى الى القنطرة أيضا ، وسماها باسمها الفارسى پول سنگين ، وباسمها التركى تاش كوپرك . وقد وصف الرحالون المحدثون هذا الموضع غير مرة[٨] .

والى غرب نهر الوخش ، ناحية يحدها من جنوبها نهر جيحون ، سماها العرب الصغانيان ، وكتب اسمها بالفارسية چغانيان . وكان القسم الشرقى من هذه الناحية يعرف بالقباذيان نسبة الى مدينة بهذا الاسم كانت على أول نهر يلتقى بجيحون غرب وخشاب . وصف ابن حوقل قباذيان ، أو قواذيان ، بقوله « هى أصغر من الترمذ بكثير ، وتسمى فز . ويرتفع منها الفوّة[٩] ويحمل منها

---

(٧) الاصطخرى ٢٧٦ و ٢٧٧ و ٢٧٩ و ٢٩٦ و ٢٩٧ ؛ ابن حوقل ٣٢٦ و ٣٢٧ و ٣٤٨ ٣٤٩ ؛ المقدسى ٢٩٠ و ٢٩١ ؛ ياقوت ٢ : ٤٠٢ ؛ على اليزدى ١ : ٨٣ .

(٨) ابن رسته ٩٢ ' الاصطخرى ٢٩٧ ؛ ابن حوقل ٣٤٨ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٣ ؛ على اليزدى ١ : ٨٣ و ٤٥٢ ، H. Yule فى كتاب وود Wood عن جيحون The Oxus ص ٨٢ من المقدمة . مايف Mayef فى المجلة الجغرافية Geographical Magazine لسنة ١٨٧٥ ص ٣٣٧ . ولسنة ١٨٧٦ ص ٣٢٨ .

جاء فى وصف قنطرة الحجارة على ما هى اليوم ، ان طولها لا يزيد على عشر خطوات وهى معلقة على صخرتين ناتئتين . ويجرى نهر سرخاب تحتها وقد انحصر بين جبلين عاليين قائمى الانحدار لا تتجاوز الفجوة التى يمر فيها النهر بينهما ، ثلاثين خطوة . وينحدر ماؤه فى هذا المضيق بهدير هائل .

(٩) الفوة ، جذور النبات المسمى لوة أو روبيا . تستخرج منها مادة للصبغ بالاحمر . أنظر معجم شرف . ص ٤٦٥ (م) .

الى بلد الهند » . ونهر القباذيان الذى تقوم عليه المدينة فى غاية الطول . وكان فى هذه الناحية ، على ما ذكر المقدسى ، كثير من المدن الجليلة ، منها أوزج ، ولعلها أيوج الحالية . وهى على ضفة جيحون الشمالية فوق الترمذ وتحت رباط ميلَه الذى فى الضفة اليسرى . وذكر ياقوت ان هذه الناحية مشهورة بفواكهها .

وفى أعالى نهر القباذيان وغرب قنطرة الحجارة ، واشجرد ، وهى على ما ذكر الاصطخرى « نحو الترمذ فى الكبر » . وعلى شىء يسير من جنوبها ، قلعة شومان أو الشومان العظيمة . وكان بكثر فى هذه الناحية حول شومان : الزعفران ومنها يحمل الى سائر الآفاق . وأشار المقدسى الى شومان فقال « شومان من الامهات ، عامرة طيبة » . وزاد ياقوت على ذلك قوله فى أهلها « قوة وامتناع عن السلطان » . وكانت فى أيامه من الثغور الاسلامية أمام الترك . وكثيرا ما أشار على اليزدى اليها فى وصفه لحروب تيمور ، باسم حصار شادمان وغالبا ما اختصره بلفظة حصار أو حصارك فقط . وتعرف اليوم بحصار أيضا[10] .

ومدينة الصغانيان ، هى مدينة سرآسيا الحديثة على ما يحتمل ، فى أعالى نهر الصغانيان ، ويقال له أيضا نهر زامل . كانت الصغانيان فى المئة الرابعة (العاشرة)، على ما ذكر الاصطخرى ، « مدينة أكبر من ترمذ الا ان الترمذ أكثر أهلا ومالا . وللصغانيان قلعة » وكانت تقوم على جانبى النهر . أما المقدسى فقال : الصغانيان تكون مثل الرملة فى فلسطين وجامعها وسط السوق ، « وهى من معادن أجناس الطيور وموضع الصيد » . ومن أعمالها ٦٠٠٠ قرية[11] ، وبها خبز رخيص . وكانت مدينة باسند الصغيرة « رحبة كثيرة البساتين » ،تبعد مرحلتين عن مدينة الصغانيان تقوم فى الجبال المشرفة على النهر . وعلى نهر زامل أسفل منها فى نحو من نصف الطريق بين الصغانيان وترمذ ، كانت دارزَنجي . وفيها ، على ما ذكر ابن حوقل ، رباط جليل « وعامة أهلها صوافون يعملون الاكسية ، والجامع وسط الاسواق » . وفى جنوبها أيضا ، بالقرب من نهر زامل ، مدينة صرمنجى أو

---

(١٠) الاصطخرى ٢٩٨ ؛ ابن حوقل ٣٥٠ ؛ المقدسى ٢٨٤ و ٢٨٩ و ٢٩٠ ؛ ياقوت ٢ ، ٨٨ ؛ ٣ : ٣٣٧ ؛ ٤ : ١٩٦ ؛ على اليزدى ١ : ٤٩ و ٥٢ و ٤٥٠ و ٤٥٢ و ٤٦٤ .

(١١) قال المقدسى (ص ٢٨٣) « بها (أى الصغانيان) ستة عشر ألف قرية » (م) .

صرمنجان . وكان بها فى المئة الرابعة (العاشرة) رباط جليل أيضا « لأبى الحسن بن حسن ماه (وهو أميرها) ، يصدق فيه بدينار (١٠ شلنات) خبزا فى كل يـــوم » .

على ان أجل مدن ناحية الصغانيان ، مدينة ترمذ (أو الترمذ) فى شمال مضيق نهر جيحون وهو آت من بلخ بالقرب من ملتقى نهر زامل به . وكان لترمذ فى المئة الرابعة (العاشرة) قلعة فيها دار الامارة ، والربض حول المدينة التى كان عليها سور داخل ، وعلى الربض سور ثان ، ومسجدها الجامع من اللبن فى أسواق المدينة . وكانت أسواقها بالآجر ومعظم سككها مفروش بالآجر . كانت ترمذ فرضة التجارات المحمولة من الشمال الى خراسان . وللمدينة ثلاثة أبواب ، كانت على قول المقدسى حصينة منيعة . وفى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) غزتها جحافل المغول وهى فى طريقها جنوبا الى خراسان . وقامت بعد هذه الغـزوة مدينـة جديدة فى نحو من القديمة كبرا على ما ذكر ابن بطوطة ، وقد زارها فى المئة التالية لها فقال بنيت هذه الحديثة على ميلين من القديمة المهجورة . وقد أحاطت بها البساتين الكثيرة وبها العنب والسفرجل كثير متناهى الطيب .

وفى يمين نهر جيحون ، على شىء يسير اسفل الترمذ ، كانت نويده . وفيها يعبر النهر من أراد سمرقند من بلخ . وفى نويده مسجد جامع فى وسط البلد ، وكانت آخر ما على نهر جيحون من مدن الصغانيان . وعلى مرحلة شمال غربى ترمذ ، فى طريق كش ونخشب فى الصغد ، مدينة هاشم جرد ، وقد كان لهذه المدينة بعض الشأن فى المئة الرابعة (العاشرة) . وعلى مرحلتين من شمالها كان الطريق يجتاز باب الحديد المشهور .

وهذا المضيق الذى فى الجبال ، قد وصفه الرحالة الصينى هوين تسانك (Hwen Thsang) وكـان قد زار الهند فى ســنة ٦٢٩ للميلاد بصفته حاجا بوذيا[١٢] . وتكلم البلدانيون العرب على مدينة فى هذا الموضع ، قد سماها اليعقوبى

(١٢) وللاطلاع على ترجمة لصفة هوين تسانك له ، انظر : سر ايح يول فى مقدمته لكتاب وود The Oxus ص ٦٩ . روى هذا الحاج الصينى ان هذا المضيق كان فى ايامه يسد بأبواب قابلة للانطباق وتشد بالحديد ، قد علق بهذه الابواب أجراس حديد . وأغفلت الاخبار بعده ذكر الابواب . والظاهر انها قد رفعت قبل زمن الاصطخرى .

بمدينة باب الحديد . وذكر أيضا انه يقال لها بالفارسية دراهنين . ونوّه كل من الاصطخرى وابن حوقل والمقدسى ، باسم باب الحديد فى مسالكهم ، ولكنهم لم يذكروا شيئا عنها . واشتهرت باب الحديد باسمها الفارسى دربند آهنين منذ أيام تيمور . وذكرها على اليزدى أيضا بتسميتها التركية "قهلغة" على انه لم يأتنا بوصف لهذا الموضع . وقد قطع هذا المضيق كلافجو (Clavijo) السفير الاسبانى الى بلاط تيمور فى شهر آب سنة ١٤٠٥ للميلاد ، قال : ان هذا المضيق يبدو كأنه قدّته يد الانسان . وتسمق الجبال على جانبيه الى علو شاهق والدرب فيه ممهد عميق جدا . وفى وسط الدرب قرية يرتفع الجبل وراءها الى علو عظيم . ويقال لهذا الدرب أبواب الحديد . ولا ترى فى كل هذه الجبال دربا آخر غيره ، فهو يحمى بلاد سمرقند من ناحية الهند . وتدر أبواب الحديد هذه دخلا لتيمور لان كل التجار القادمين من الهند يمرّون بهذا الدرب[١٣] .

وفى أسفل ناحية الصغانيان ، يشق جيحون طريقه فى المفازة فلا يستقبل نهرا مهما فى كلا جانبيه . ثم يصل دلتاه فى جنوب بحر آرال حيث اقليم خوارزم الذى سنأتى على وصفه فى الفصل القادم . وعلى امتداد المفازة تقوم عدة مدن على يمين النهر ويساره — عامتها ذات جانبين — فى المواضع التى تعبر النهرَ العظيم الطرق الآتية من خراسان الى بلاد الترك . وقد مرّ بنا فى الفصل السابق وصف أكثر ما فى جانب خراسان من مدن . فمدينة كالف أو كيلف فى ضفته الشمالية (وهى ما زالت قائمة) قد كانت فى العصور الوسطى تقابل ربضا لها فى جانب خراسان يقوم حول رباط يقال له رباط ذى الكفل . وكانت كالف فى ذلك الزمن على جانبى جيحون « على عمل بغداد وواسط » على قول المقدسى . وكان فى جانبها الشمالى رباط نسب الى الاسكندر الكبير فسمى برباط ذى القرنين .

وقال ياقوت كان لكالف قلعة حسنة على ثمانية عشر فرسخا من بلخ فى الطريق الذاهب منها الى نخشب فى الصغد . وتكلم المستوفى على جبل عظيم

(١٣) اليعقوبى ٢٩٠ ، الاصطخرى ٢٩٨ و ٣٣٧ ، ابن حوقل ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٤٠٠ و ٤٠١ ؛ المقدسى ٢٨٣ و ٢٨٤ و ٢٩١ و ٢٩٢ و ٣٤٢ ، ابن بطوطة ٣ . ٥٦ ؛ على اليزدى ١ : ٤٩ و ٥٩ ؛ ٢ : ٥٩٣ ؛ كلافيجو فى كتاب سفارته ص ١٢٢ ؛ Geogr. Mag. لسنة ١٨٧٥ ص ٣٣٦ . وانظر هذه المجلة لسنة ١٨٧٦ ص ٣٢٨ للاطلاع على صفة باب الحديد بقلم Mayef .

بالقرب من كالف دوره ثمانية فراسخ كله من تراب أسود وفى أعلاه ماء ومرعى حسن ٠ وزاد على ذلك ان كالف فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كانت مدينة كبيرة فى غاية المناعة ٠

وكان أسفل هذه المدينة ، بازاء زمّ ، وقد مرّ وصفها (أنظر ص ٤٤٦) مدينة أخسيسك كان يخرج منها طريق الى نخشب ٠ وصفها ابن حوقل بقوله مدينة صغيرة أهلها يعبــرون الى زمّ للصلاة فى جامعهــا فلم يكن فى مدينتهــم جامع[١٤] ٠ وكانت المفازة تحف بأرضها من كل جانب ، ولكنها كانت خصبة « والغالب على أطرافها السوائم من الابل والغنم » ٠ وفى أسفل هذه المدينة ، بالقرب من ضفة جيحون اليمنى ، مدينة فِرَبْر بازاء آمل أى آمويه ٠ وهى فى طريق بخارا ، حولها رساق خصب ، وقرى آهلة كثيرة ٠ قال المقدسى ان فربر تبعد نحو فرسخ من ضفة جيحون الشمالية « لها قهندز عامر وبها رباطات حسنة والجامع على باب المدينة من نحو بخارا والمصلى خارج الباب ٠ وثمّ رباط (لنصر بن أحمد) فيه ضيافة لأبناء السبيل » ٠ وكانت فربر موصوفة بأعنابها ٠ ويقال لهذه المدينة أيضا قرية علي أو رباط طاهر بن علي[١٥] ٠

وبعد أن يمر جيحون بن يدى فربر وآمويه ، يبقى جاريا فى وسط المفازة مسافة مئة واربعين ميلا حتى الطاهرية ، وعندها تبدأ أراضى الدلتا المزروعة ٠ ومن هذه المدينة يجرى النهر العظيم فى طريقه الى بحر آرال وفى نحو من ثلاثمئة ميل من مجراه كانت تمد منه كثير من أنهار الري فتسقى الاقليم الخصب المعروف فى العصور الوسطى بخوارزم. ومنذ الفتح العربى الأول غيّر نهر جيحون مجراه فى أراضى الدلتا هذه مرارا ، وكان انبثاق سدوده فى أيام الغزو المغولى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) سببا فى تحول مجراه الاسفل ، على ما سنصفه فيما بعد ٠ على انه ما زال فى وسعنا ، بالاستناد الى وصف البلدانيين العرب الاولين ، ان نرسم خارطة تقريبية لخوارزم فى المئة الرابعة (العاشرة) ٠ وواضح ان نهــر جيحون فى تلك الايام كان يجرى فى مجرى واحد صالح للسفن حتى منافع

---

(١٤) هذا القول للاصطخرى ص ٢٩٨ لا لابن حوقل (م) ٠

(١٥) الاصطخرى ٢٩٨ و ٣١٤ ؛ ابن حوقل ٣٤٩ و ٣٥٠ و ٣٦٣ ؛ قدامة ٢٠٣ ؛ المقدسى ٢٩١ ؛ ياقوت ٣ : ٨٦٢ ؛ ٤ : ٢٢٩ ؛ المستوفى ١٨٩ ٠

الساحل الجنوبى لآرال وهو البحر الذى سماه العرب ببحيرة خوارزم .

وبحر آرال قد كان ضحلا يغطيه القصب ، ولم يكن يصلح لسير السفن على ما يظهر . وكان يستقبل من شماله الشرقى مياه نهر سيحون . ولكن السفن الآتية من جيحون لم تكن تدخل شقيقه النهر الثانى . وكانت البلاد المتاخمة لساحل آرال الشرقى ، بين فمى جيحون وسيحون ، فى المئة الرابعة (العاشرة) وما بعدها تعرف بمفازة التركمان الغز . وهذا الاسم يطلق فى الغالب على مفازة مرو فى شرقى بلاد ايران . وقد كان البلدانيون العرب الاولون يعدّون انجماد مياه نهرى جيحون وسيحون فى الشتاء من العجائب ، فقد كانت القوافل الموقَرة تعبرهما ماشية فوق السطح المنجمد . وهما يبقيان على هذه الحال من شهرين الى خمسة أشهر فى الشتاء . وقد يبلغ ثخن الجليد خمسة أشبار أو أكثر . ولقد ذكر القزوينى ان أهل خوارزم « كانوا يحفرون فيه آبارا بالمعاول حتى يخرقوه الى الماء ثم يسقون منها كما يسقون من البئر لشربهم ويحملونه فى الجرار » . واشار الاصطخرى الى جبل يقال له جبل جغراغز على ساحل بحر آرال ، كان الماء أسفل منه يبقى جامدا طوال أشهر السنة .

وكان بحر آرال ، ولاسيما قسمه الجنوبى قرب سيف « الخليجان » حيث يصب جيحون ، مشهورا بمصائد السمك ، الا انه لم تقم عند حافة البحر قرية بل ولا بيت . وقد بيّنا انه كانت تمد من نهر جيحون ، فى مجراه الاسفل الذى يخترق الدلتا ، أنهار للرى كبيرة وصغيرة من يمينه ويساره ، كان كثير منها صالحا لسير السفن وكانت مياهها أخيرا تسقى أراضى الدلتا . وكان أكثر المدن الكبرى فى خوارزم الكبرى على هذه الانهار ، لا على جيحون للخطر الناجم من دوام تغير مجراه . وقد كان نهر جيحون صالحا لسير السفن فى جميع مجراه الاسفل . قال ابن بطوطة : « ويسافر فى أيام الصيف بالمراكب الى ترمذ ، ويجلبون منه القمح والشعير ، وهى مسيرة عشر للمنحدر » الى أسواق خوارزم لتباع فيها . وكان انجماد جيحون فى الشتاء يجعل الملاحة فيه خطرة أو مستحيلة . فقد حكى ياقوت انه فى شوال من سنة ٦١٦ (كانون الاول ١٢١٩) حين ذهابه من مرو

الى الجرجانية وكان بعض طريقه نهر جيحون بالسفن ، أشرف هو ومن معه على الهلاك ، من ألم البرد وجمود نهر جيحون على السفينة ، ولم ينزلوا الى البر الا بعد عناء وكانت الثلوج أيضا تغطى البر وقد أضلّ ياقوت دابته التى كان يركبها ولم ينج الا بنفسه[١٦] .

---

(١٦) الاصطخرى ٣٠٣ و ٣٠٤ ' ابن حوقل ٣٥٣ و ٣٥٤ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٣ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٥ ؛ ياقوت ١ : ١٩١ .

الفصل الثاني والثلاثون

خوارزم

اقليم خوارزم ـ قصبتاه : كاث والجرجانية ـ اركنج القديمة والجديدة ـ
خيوه وهزاراسب ـ أنهار خوارزم والمدن التى على يمين
جيحون ويساره ـ المجرى الاسفل لجيحون
الى قزوين ـ تجارات
خوارزم وغلاته ٠

كان لاقليم خوارزم فى صدر العصور الوسطى ، قصبتان : أولاهما فى الجانب الغربى ، أى الفارسى من نهر جيحون ، تسمى الجرجانية ، أو أركنج ٠ والاخرى فى الجانب الشرقى ، أى التركى من النهر ٠ ويقال لها كاث ٠ وقد كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) ، فى منزلة تفوق صاحبتها ٠

ومدينة كاث ، ما زالت قائمة ٠ الا ان مدينة العصور الوسطى العظيمة ربما كانت تقوم على بضعة أميال من جنوب شرقى البلدة الحديثة ٠ وفى أوائل المئة الرابعة (العاشرة) خرّب بعضها طغيان نهر جيحون ، فقد كان عرض هذا النهر عندها نحوا من فرسخين ٠ وكانت المدينة تبعد قليلا عن يمين النهر ، تقوم على نهر يقال له جردور يشق البلد ٠ وكان السوق ، وطوله نحو من ميل ، على جانبى هذا النهر ٠ وكان لكاث فى تلك الأزمان الاولى ، قهندز (أى قلعة) فخرّبها النهر وأتى عليها ٠ وكان الجامع والحبس على ظهر القهندز وكذلك قصر لسلطانهم الملقب بخوارزم شاه ٠ وقد أتى فيضان النهر على

هذه الاجزاء جميعها ، فلم يبق منها رسما ولا طللا حين كتب ابن حوقل . فابتنى الناس مدينة جديدة الى الشرق من الاولى على مسافة من جيحون تقيها عواقب طغيـــانه .

وكان الفرس يسمون المدينة الجديدة ، على قول المقدسي ، شهرستان – أي القصبة – . وكانت في ما قال « نحو نيسابور » في خراسان . « لها جامع في وسط الاسواق على أساطين حجارة سود الى قامة ، ثم فوقها سوارى الخشب . ودار الامارة ، وسط البلد . ولهم قهندز قد خرّبه النهر ، فلم يجدّدوه . وللبلد أنهار كثيرة تشق شوارعها . وعلى ما ذكر المقدسي ، كانت البلدة أوسخ من أردبيل (في أذربيجان) لان أهلها ، « عامة تغوّطهم في الشوارع ... وهم يدوسونها بأرجلهم الى الجماعات (أي الى الجامع) » . الا ان أهلها مع ذلك كانوا مياسير وأسواقها حافلة بالخيرات والتجارات ، وبناؤوها حذّاق ، فكانت كاث من أفخم المدن مظهرا . على انها ما عتمت في ختام المئة الرابعة (العاشرة) أن بدأ نجمها بالأفول ومكانتها بالخفوت وفقدت مركزها كأهم قصبة في خوارزم ، ولعل مردّ ذلك ما كان ينتابها بين آن وآخر من طغيان جيحون عليها ، فكان يخرب منها أحياء مختلفة كل مرة ، حتى آل أمرها الى بلدة ليس لها شأن كبير .

فاذا انتهينا الى مطلع المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، وجدنا ان مدينة كاث لم تعان كثيرا من مصائب الفتح المغولي على ما يبدو . وحين مرّ بها ابن بطوطة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) في طريقه من أركنج الى بخارا ، وقد كتب اسمها ألكات قال انها « بلدة صغيرة حسنة » . « فيها بركة ماء كانت وقت زيارته لها « قد جمدت من البرد ، فكان الصبيان يلعبون فوقها ويزلقون عليها » . وفي ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كاد تيمور أن يقضي على كاث ، ولكنه بعد ذلك أمر بتجديد أسوارها ، فذكرها علي اليزدي غير مرة بقوله انها مدينة ذات شأن في أيامه[1] .

---

(١) الاصطخري ٣٠٠ و ٣٠١ ؛ ابن حوقل ٣٥١ و ٣٥٣ ؛ المقدسي ٢٨٧ و ٢٨٨ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٢٠ ؛ علي اليزدي ١ : ٢٣٧ و ٣٦٣ و ٤٤٦ .

أما قصبة خوارزم الثانية التى أصبحت بعد سقوط كاث أولى مدن الاقليم ، فكانت گرگانج وقد سماها العرب الجرجانية ، ثم عرفت بعد هذا الزمن بارگنـج ، تروى أخبار الفتوح الاسلامية ، ان العرب فى سنة ٩٣ (٧١٢) ، لما غزوا خوارزم بقيادة قتيبة ، كان يقال لقصبة الاقليم التى استولوا عليها : الفيـل • ثم صار اسمها المنصورة • ويقال ان هذه المدينة كانت تقوم على الجانب الأبعد من نهر جيحون فى موضع يقابل الجرجانية المحدثة • غير ان فيضان جيحان ما عتم ان طغى على المنصورة وخرّبها فأخذت الجرجانية مكانها[٢] •

والجرجانية فى المئة الرابعة (العاشرة) ـ وان كانت حينذاك مدينة الاقليم الثانية ليس الا ، لكن كاث كانت ما زالت قصبته متجر البلاد وفيها مجتمع القوافل الآتية من بلاد الغز • ومنها تخرج الى بلاد خراسان • والجرجانية على غلوة من غرب نهر كبير تجرى فيه السفن ، يأخذ من جيحون ، ويجرى محاذيا له • وقد احتالوا فى رد خطر الماء باقامة السدود من الخشب والحطب • قال المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) ان للبلد أربعة أبواب « وهى كل يوم فى زيادة • وعلى باب الحجاج قصر بناه المأمون ، عليه باب ليس بجميع خراسان أعجب منه • وقد بنى ابنه علي آخر قـدّامه ، على بابه سهلة تشاكل سهلة بخارا ، فيها تباع الاغنام » • وبانحطاط كاث أصبحت الجرجانية أولى مدن اقليم خوارزم ، ومن ثم قصبته الوحيدة • وفى الأزمنة الاخيرة ، كانت تعرف بوجه عام بمدينة خوارزم •

وفى سنة ٦١٦ (١٢١٩) زار ياقوت الجرجانية ، أو كركانج على ما سماها به ، قبل ان يكتسحها المغول بقيادة جنكيزخان ، فقال فيها « لا أعلم انى رأيت أعظم منها مدينة ولا أكثر أموالا وأحسن أحوالا » فاستحال ذلك كله بتخريب التتر اياها فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) • وقد حدثت فى سدود النهر العظيم فتوق عظيمة وتحولت مياه جيحون الى مجرى جديد ، على ما سنبينه فيما بعد ، وغمرت المياه المدينة كلها • ولما سارت عنها جحافل المغول قال ياقوت فيها « لم يبق فى ما بلغنى، الا معالمها ، وقتلوا جميع من كان بها » • على ان قصبة خوارزم ما عتمت ان نهضت

---

(٢) ان موضع الفيل مشكوك فيه جدا • وقد جاء اسمها فى نقود الخلفاء الامويين كدار للضرب • وعلى واحد من هذه النقود تاريخ سنة ٧٩ (٦٩٨) •

من كبوتها بعد بضع سنين ، فابتنى الناس بلدا قريبا منها ، وكان ذلك في سنة ٦٢٨ (١٢٣١) على ما جاء في تاريخ ابن الاثير المعاصر لتلك الايام ، قال : « وعمروا مدينة تقارب مدينة خوارزم ، عظيمة »، وكان قبل الغزو المغولى لهذه الارجاء ، على ما ذكر ياقوت وغيره ، مدينة تعرف بكركانج الصغرى . وسماها الفرس كركانجك على نحو من ثلاثة فراسخ من القصبة كركانج الكبرى . ومن المحتمل ، على ما يظهر ، ان خوارزم الجديدة ، قد اختير لها موضع كركانج الصغيرة .

وسرعان ما صارت خوارزم الجديدة قصبة الاقليم . وصفها المستوفى وابن بطوطة في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) . وذكر القزوينى ، وهو ممن كتب في النصف الاخير من المئة السابقة ، ان أهل كركانج (الجديدة) ، « أهل الصناعات الدقيقة كالحداد والنجار وغيرهما . فانهم يبالغون في التدقيق في صناعاتهم ، والسكاكون يعملون الآلات من العاج والآبنوس ، لا يعمل في غير خوارزم الا بقرية يقال لها طَرّق من أعمال أصفهان . ونساؤها يعملن بالابرة صناعات مليحة كالخياطة والتطريز والاعمال الدقيقة » . وقال القزوينى أيضا : « ومن عجائبها زراعة البطيخ الذى لا يوجد مثله في شيء من البلاد حلاوة وطيبا » . وقد أيد هذا الامر أيضا ابن بطوطة .

وقال المستوفى ، وقد سمى هذه المدينة باسمها الشائع أُركنج ، وكذلك خوارزم الجديدة ، انها على عشرة فراسخ (ولعله وهم في ذلك ، ويريد عشرة أميال) من اركنج العتيقة . ورأى ابن بطوطة ، معاصره ، خوارزم (على ما سمى البلدة) مدينة من أعظم المدن وأجملها ، لها الاسواق المليحة والشوارع الفسيحة « وهى ترتج بسكانها لكثرتهم وتموج بهم موج البحر » . ولها سوق يقال له الشور ، وهو بناء عظيم بالقرب منه الجامع والمدرسة . وفيها مارستان كان له حين زيارة ابن بطوطة « طبيب شامى يعرف بالصهيونى ، نسبة الى صهيون من بلاد الشام » . وما كادت المئة الثامنة (الرابعة عشرة) تأذن بالختام ، الا واجتاح تيمور مدينة خوارزم هذه وتركها قاعا صفصفا بعد حصار دام ثلاثة أشهر . الا ان تيمورلنك أمر بتجديد بنائها فكمل ذلك في سنة ٧٩٠ (١٣٨٨) . وكان أبو

الغازى أمير خوارزم ، وسنأتى قريبا على ما قاله فى مجرى جيحون الاسفل ، يعقد مجلسه فى مطلع المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) فى هذه البلدة ، وهى التى يسميها أركنج . قال فيها انها بلد حسن كثير البساتين . الا انه بعد هذا الزمن تربعت مدينة خيوه فى مكانها ثم صارت قصبة الاقليم الجديدة . أما خرائب اركنج هذه ، أى المدينة التى ابتنيت بعد الغزو المغولى ، فهى المعروفة اليوم باركنج العتيقة (كهنه اركنج)[٣] .

أما خيوه — وهى التى أخذت فى عهد الرؤساء الازبك بعد زمن تيمور تحجب بالتدريج مدينة اركنج وصارت قصبة خوارزم وشمل اسمها مع الايام الاقليم كله — فقد ذكرها غير مرة بلدانيو المئة الرابعة (العاشرة) بأنها بلدة صغيرة . كانت تهجئة اسمها القديمة خيوق ، وكان هذا الاسم هو الشائع حتى زمن ياقوت . قال فيها المقدسى « خيوه ، على فم المفازة ، رحبة ، على شعبة من النهر (تأخذ من يسار جيحون) ، بها جامع عامر » فكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) موضعا ذا شأن . وتكلم ياقوت ، وقد قال ان اسمها يلفظ أيضا خيوق ، على حصنها وقال ان أهلها فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) شافعية « دون جميع بلاد خوارزم فانهم حنفية » .

وفى هذا الزمن اشتهرت خيوه بانها بلد الشيخ نجم الدين الكبرى ، وكان قد أبلى بلاءً عظيما فى الدفاع عن أركنج بازاء المغول حتى قتلوه [سنة ٦١٨ هـ] فصارت تربته موضعا يزوره الناس للتبرك وهى بالقرب من اركنج على ما ذكر ابن بطوطة فى القرن الذى تلا استشهاده . وذكر على اليزدى مدينة خيوه ووصف مغامرة وقعت لتيمور فيها أيام شبابه . وقد أمر بعد زمن بتجديد أسوار خيوق

---

(٣) زار انطونى جنكنسن Anthony Jenkinson مدينة اركنج Urgence) (بحسب تهجئته) فى سنة ٩٦٦ (١٥٥٨) أى قبل زمن ابى الغازى بنصف قرن . وقال فيها انها مدينة حسنة لها اسوار يقدر دورها باربعة اميال . انظر Hakluyt: Principal Navigations (كلاسكو سنة ١٩٠٣) ٢ : ٤٦٣ ؛ البلاذرى ٤٢١ ؛ الاصطخرى ٢٩٩ و ٣٠٠ ؛ ابن حوقل ٣٥٠ و ٣٥١ ؛ المقدسى ٢٨٨ ؛ ياقوت ٢ : ٥٤ ؛ ٣ . ٩٣٣ ، ٤ : ٢٦١ . أبو الفداء ٤٧٩ . ابن الاثير ١٢ : ٢٥٧ و ٣٢٣ . القزوينى ٢ : ٣٤٩ . المستوفى ١٩٧ و ٢٣٤ . ابن بطوطة ٣ : ٣ — ٦ . على اليزدى ١ . ٢٩٨ و ٤٤٨ . جهان نما ٣٤٥ . ابو الغازى ١١١ . وراجع أيضا Geographical Magazine لسنة ١٨٧٤ ص ٧٨ .

(على ما كانت تسمى حينذاك) . وفى المئة الحادية عشرة (السابعة عشرة) ذكر أبو الغازى هذه المدينة مرارا ، وقد عاش فيها أحيانا كما عاش أيضا فى كات (أو كاث) عند عدم مقامه فى اركنج . واستمرت خيوه بالتعاظم منذ أيامه حتى اليوم ، فأصبحت الآن قصبة الاقليم المعروف باسمها[٤] .

أما هزاراسب (ومعناها بالفارسية « الف فرس »[٥]) فهى فى سمت خيوه ، الا انها أقرب منها الى ضفة جيحون اليسرى . وهى موضع ذو شأن قد حافظ على اسمه دون ما تغير منذ الفتح الاسلامى حتى هذا اليوم . ذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) انها فى نحو من خيوه كبرا ، لها أبواب خشب وخندق . وتكلم ياقوت عليها وقد كان فيها سنة ٦١٦ (١٢١٩) قائلا هى قلعة حصينة ومدينة جيدة ، فيها أسواق كثيرة وبزازون وأهل ثروة ، وكان الماء محيطا بها كالجزيرة « وليس اليها الا طريق واحد على ممر قد صنع ، يقبل اليها من نواحى اركنج قاطعا السهلة الممتدة من ضفاف جيحون .

وفى نحو من نصف الطريق بين الطاهرية ـ حيث تبدأ أراضى الدلتا الزراعية ـ وهزاراسب ، يخترق نهر جيحون مضيقا جبليا يقال له اليوم ديوه بويون (أى رقبة الجمل) وهو فى جروف جبلية عالية يضيق النهر عندها « حتى يعود عرض الماء الى نحو من الثلث » . وقد سمى الاصطخرى هذا الموضع أبو قشه أو بوقشه ، وزاد على ذلك قوله « هو موضع يخاف على السفن منه من شدة جريه والهور الذى عند مخرجه » . اما المستوفى ، وقد سمى هذا الموضع تنگ دهان شير (مضيق فم الاسد) ، فقال ان جرفى المضيق المتقابلين لا يبتعدان عن بعضهما أكثر من مئة « گـز » (أى : ذراع) . وعلى جانبه الايسر رباط . وفى أسفل هذا الموضع يجرى جيحون ، حسب قوله ، تحت الارض مسافة فرسخين فلا يرى منه شىء .

وبين الطاهرية وهزاراسپ ثلاث مدن على ضفة جيحون اليسرى ، كانت على

---

(٤) المقدسى ٢٨٩ ؛ ياقوت ٢ : ٥١٢ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٥ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٦ ؛ على اليزدى ١ : ٦٢ و ٤٤٩ ؛ ابو الغازى ١١٢ و ٢٩٤ .

(٥) قال المؤلف وحسا ا نمساها مئة فرس (م) .

بعض الشأن فى العصور الوسطى : فعلى الجادة ، أسفل الطاهرية بمرحلة ، جكربند ، تحفّ بانهارها الاشجار والبساتين . وفيها ، على ما ذكر المقدسى ، جامع حسن فى وسط سوقها . وعلى مرحلة أخرى شمالها قرب مضيق نهر جيحون ، مدينة درغان . قال فيها المقدسى انها تقارب الجرجانية كبرا « لها جامع حسن ليس بالناحية مثله ، فيه جواهر رفيعة وتزاويق حسنة ، والمدينة تمتد فرسخين على الشط ، حولها الكروم نحو من خمسمئة . وكانت درغان أول مدينة عظيمة فى خوارزم تقوم على الطريق الآتى من مرو . وذكر ياقوت ، وقد كان فيها سنة ٦١٦ (١٢١٩) ، « هى مدينة على جرف عال وذلك الجرف على سن جبل ... وبينها وبين جيحون مزارع وبساتين لأهلها ، وبينها وبين نهر جيحون نحو ميلين . بناحية البر منها رمال » . وبين درغان وهزاراسب تقوم سدُور على ضفة النهر وهى حصينة وبها جامع وسط البلد ، وحولها أرباض[٦] .

وأول الانهار العظيمة فى خوارزم كان يأخذ من ضفة جيحون اليمنى أى الشرقية فى موضع بازاء درغان وكان يقال له گاوخوارِه وتفسيره « أكل البقر » وكان يحمل السفن وعمقه نحو من قامتين وعرضه خمس ، ويجرى شمالا فيسقى كثيرا من المزارع حتى كاث . ومما يلى مخرجه بخمسة فراسخ ، كان يحمل منه نهر صغير يسمى نهر كريه « يعمر به بعض الرساتيق » . وذكر المقدسى أربع مدن قليلة الشأن تقوم على الجانب الشرقى هذا من جيحون بين الواحدة والاخرى نحو من مرحلة يوم فى الرساتيق جنوب كاث . وكانت أبعدها ، عن كاث : مدينة نوكفاغ وكانت فى وسط الانهار ، وهى مدينة حسنة قرب شفير المفازة . وأقرب منها الى كاث كانت ارذخيوه ولعلها تطابق الموضع الذى سماه ياقوت حصن خيوه وقال انه يبعد خمسة عشر فرسخا عن خيوه الجانب الغربى . وكانت أرذخيوه « على فم البرية عليها حصن بباب واحد تحت جبل » . وكانت وايخان حصنا أيضا حولها خندق « وعلى الابواب عرّادات » . وهى على مرحلة أيضا نحو الشمال . ثم تليها غردمان وكانت على مرحلة من كاث « عليها حصن

(٦) الاصطخرى ٣٠٤ ؛ ابن حوقل ٣٥٤ ؛ المقدسى ٢٨٨ و ٢٨٩ ؛ ياقوت ٢ : ٥٦٧ ؛ ٤ : ٩٧١ . المستوفى ١٩٨ و ٢١٣ .

ولها بابان وخندق ملآن من الماء سعته رمية سهم » .

وكان يأخذ أيضا من غرب جيحون ، أي يساره ، جملة أنهار ، أولها نهر يمر بهزاراسب ويسقي رساتيقها . وهو نهر تجري فيه السفن وان كان نحوا من نصف سعة كاوخواره . وكان يعود مرتدا في انعطاف دائري لو تابع اتجاهه لوصل مدينة آمل . وعلى فرسخين من شمال هزاراسب ، يأخذ من جيحون نهر كردران خواش ويمر بمدينة باسمه ، وكانت في نصف الطريق بين هزاراسب وخيوه وهو أكبر من نهر هزاراسب . ومدينة كردرانخاس (على ما سماها المقدسي) حولها خندق ولها أبواب خشب . ومن شمال ذلك كان يحمل منه أيضا نهر خيوه ، وهو نهر أكبر من سابقه تجري فيه السفن الآتية من جيحون الى هذه المدينة . ويحمل منه أيضا نهر رابع من موضع يبعد عن شمال نهر خيوه ، وهو نهر مدرا ، وهو ضعف نهر كاوخواره الآخذ من ضفته الشرقية ، وكان يسقي مدينة مدرا وما جاورها .

وكاث ، قصبة الاقليم الشرقية ، على ما بيّنا ، بعيدة عن جيحون ، على نهر يقال له جردور كان يأخذ من جيحون على شيء يسير من جنوب المدينة . وعلى فرسخين شمال كاث كان يأخذ من ضفة جيحون اليسرى ، أي الضفة الغربية ، نهر وداك الكبير (وجاء اسمه أيضا وداك أو ودان) وكان يحمل السفن الى نحو الجرجانية قصبة خوارزم الغربية . ومخرج نهر وداك على نحو من ميل شمال مخرج نهر مدرا . وكان يأخذ من يسار جيحون في شماله أيضا ، نهر آخر يسمى نهر بوّه (أو بوه وبوبه) ويجتمع ماؤه وماء وداك في الشمال الغربي على غلوة من قرية تعرف بأندرستان على نحو من مرحلة يوم من جنوب الجرجانية . وكان وداك أكبر من بوّه وتجري فيهما السفن الى الجرجانية . ثم يكون هناك سكر يمنع السفن ، من مواصلة سيرها شمالا . وكانت على ضفافه سدود عظيمة قد انشئت لتقي المدينة من طغيان مياهه ، على ما بيّنا[٧] .

وكان الطريق الذاهب شمالا من خيوه الى الجرجانية في العصور الوسطى ، يتخلل

---

(٧) الاصطخري ٣٠١ و ٣٠٢ ؛ ابن حوقل ٣٥٢ و ٣٥٣ ؛ المقدسي ٢٨٨ و ٢٨٩ و ٢٩٢ و ٢٩٣ ؛ ياقوت ٢ : ٥١٢ ؛ ٤ : ٢٣٠ .

كثيرا من المدن الكبيرة التي لم يبق منها أثر اليوم. فعلى مرحلة من خيوه كانت أرتخشميثن أو راخشميثن وهي التي ذكر ياقوت، وقد أقام فيها سنة ٦١٦ (١٢١٩)، انها مدينة كبيرة ذات أسواق عامرة ونعمة وافرة «وهي في قدر نصيبين (من أعمال الجزيرة) الا انها أعمر وآهل منها». والظاهر ان المغول قد خربوها في غزوهم لها. والى شمال هذه المدينة: روزوند كانت على ما ذكر المقدسي «متوسطة في الرقعة، محصنة بخندق ...، وشربهم من عين لهم ...، والجامع على طرف السوق». فاذا جاوزنا قرية أندرستان، بلغنا مدينة نوزوار وهي عند ملتقى نهر وداك بنهر بوه على مرحلة جنوب الجرجانية. قال المقدسي «نوزوار صغيرة، عليها حصن وخندق ...، لها بابان (حديد) وجسر يرفع كل ليلة. والجامع في الاسواق ...، وعلى باب المدينة الغربي حمام ليس بالاقليم مثله». ولعلها هي المدينة التي سماها ياقوت نوزكاث، ومعناه على قوله «كاث الجديدة» أو «الحائط الجديد». وقد أزال المغول هذه المدينة عن آخرها بعد أن غادرها ياقوت بمدة قصيرة.

وزمخشر، بين نوزوار والجرجانية، وقد كان في هذه المدينة في المئة الرابعة (العاشرة) جسور عند أبوابها ترفع «وعليها حصن وخندق ومحبس وأبواب محددة والجامع ظريف». وفي المئة السابعة (الثالثة عشرة) قال ياقوت فيها انها قرية جامعة اشتهرت لأن الزمخشري صاحب التفسير المعروف قد ولد فيها سنة ٤٦٧ (١٠٧٥) ومات سنة ٥٣٨ (١١٤٤). وقد زار ابن بطوطة قبره فيها في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) وذكر ان زمخشر على مسافة أربعة أميال من أرگنج الجديدة. والى شمال أرگنج كانت تربة نجم الدين الكبرى، وقد مرّ ذكرها. ويلي هذه البلدة أيضا، وعلى خمسة فراسخ من الجرجانية، عند شفير المفازة، تحت الجروف العالية في الجانب الغربي لنهر جيحون، مدينة جيث أو گيث وقد ذكرها البلدانيون الاولون غير مرة. وهي كبيرة واسعة الرساتيق لا تبعد كثيرا عن ضفة النهر اليسرى بازاء مذمينية وهي على أربعة فراسخ من يمين النهر. ويبدو ان جيث كانت في الموضع الذي قامت فيه مدينة محدثة يقال لها وزير (أو شهر وزير). وربما قد حلت محلها بعد فترة من الاضطراب الذي انتابها في اثناء الفتوحات المغولية وحروب تيمور. وكثيرا ما ذكر أبو

الغازى مدينة وزير ، كما ذكرها جهان نما . والى ذلك فمن المحتمل ان شهر وزير هذه هى المدينة التى زارها انطونى جنكنسن (Anthony Jenkinson) ووصفها باسم محرف بعض التحريف وهو سليزور (Sellizure) أو شيزور (Shaysure) حين كان يجوب بلاد خوارزم فى المئة العاشرة (السادسة عشرة)[٨] .

وفى ضفة جيحون اليمنى ، على نحو من أربعة فراسخ شمال كاث ، كان يأخذ أول الانهار الاربعة المادة شمالا ، وبعد أن يجرى مسافة قليلة ، يلتقى به الانهار الثلاثة الصغيرة الاخرى، فتؤلف مياهها المجتمعة نهر كُرْدَر ويقال أن هذا النهر ، وقد كان يكبر نهر وداك وبوه ، فى الجانب الغربى ، كان من سواعد نهر جيحون فى الاصل يجرى نحو الشمال الشرقى الى بحر آرال . وكان يقال للرستاق الذى فيما بين مجرى نهر جيحون نفسه ونهر كردر رستاق مزداخگان (أو مزداخقان) وكانت تسقيه أنهار صغيرة كثيرة تأخذ من يمين جيحون . ويقال انه كان فى هذا الرستاق اثنا عشر ألف قرية ، وقصبته كردر . وقد وصف المقدسى هذه البلدة بقوله انها بلدة كبيرة حصينة جدا ، حولها قرى كثيرة وبرارى واسعة ترعى فيها الماشية . وعلى مرحلة يومين منها ، عند حد خوارزم الشمالى الشرقى ، قرية كبيرة يقال لها قرية براتكين (أو فراتكين) وبالقرب منها مقالع الحجارة التى تحمل الى أنحاء خوارزم للبناء . وقد كان فى براتكين فى المئة الرابعة (العاشرة) أسواق عامرة وجامع حسن . وفى غرب هذه المدينة كانت مذمينية ، وتبعد أربعة فراسخ من يمين جيحون بازاء جيث . ومن هذه المدينة حتى ساحل بحر آرال ، لا يرى بناء ولا قرية ولا أرض مزروعة ، الا مناقع يكثر فيها القصب تقع عند فم نهر جيحون العظيم[٩] .

وفى المئة الرابعة قبل الميلاد ، فى زمن فتوحات الاسكندر الكبير فى آسية الغربية ، كان جيحون ، على ما وصف به آنذاك ، يصب فى بحر قزوين ، ولم

---

(٨) الاصطخرى ٣٠١ ؛ ابن حوقل ٣٥٢ ؛ المقدسى ٢٨٩ ؛ ياقوت ١ : ١٩١ ؛ ٢ : ٩٤٠ ؛ ٤ : ٨٢٢ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٦ ابو الغازى ١٩٥ ؛ جهان نما ٣٤٦ ؛ هكلويت .
Hakluyt, Principal Navigations 2,461.

(٩) الاصطخرى ٢٦٩ و ٣٠٣ ؛ ابن حوقل ٣٥٠ و ٣٥٢ ؛ المقدسى ٢٨٨ ؛ ياقوت ٤ : ٢٥٧ .

يكن البلدانيون اليونان يعرفون شيئا عن بحر آرال على ما يظهر . أما متى جرى تبدل مجراه من بحر قزوين الى بحر آرال فغير معروف . ومع ان نهر جيحون اليوم مثل سيحون يصب فى بحر آرال ، فان عقيقه القديم الذى كان يتجه الى بحر قزوين ما زالت معالمه موجودة وتعينها خوارطنا الحديثة . وقد ارتاده جماعة فى أيامنا . كان مجرى جيحون فى صدر العصور الوسطى ، على ما وصفه البلدانيون العرب فى المئة الرابعة (العاشرة) هو مجراه الحالى فى جملته . الا ان عقيقه القديم الماد الى بحر قزوين قد ذكره المقدسى ، فقال : فى القديم كان العمود ينتهى الى مدينة خلف نسا فى خراسان يقال لها بلخان (أو أبو الخان) . ثم انه بعد المقدسى بقرنين ونصف عاد جيحون ثانية الى مجراه الاقدم على ما يظهر . وهذا ما أفادنا به المصنفون الفرس المعاصرون لذلك الزمن . ومن ثمة ، فالحقيقة التى لا يشك فيها هى ان نهر جيحون ـ فيما عدا فضلة من مائه تحملها بضعة انهار صغيرة الى بحر آرال ـ كان منذ أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) حتى نحو من ختام المئة العاشرة (السادسة عشرة) ، يصل الى بحر قزوين ، جاريا فى عقيقه القديم الذى كان أيام الاسكندر الكبير . وان كان هذا المجرى اليوم بل منذ نهاية المئة العاشرة (السادسة عشرة) قد تعطل ثانية وصار جافا فى الغالب .

وجاء فى تاريخ ابن الاثير ، على ما قد بينا ، ان جحافل المغول بثقت السدود فى سنة ٦١٧ (١٢٢٠) للاستيلاء على أرگنج بعد ان حاصرتها خمسة أشهر فغمرت مياه جيحون وفروعه هذه المدينة ومنذ ذلك الحين أخذت مياهها تجرى من شرق هذه المدينة فى غير مجاريها الاولى . لقد عمت المياه سطح البلاد كلها وبعد مضى زمن أخذت المياه الفائضة تنصرف باتجاه الجنوب الغربى مالئة عقيق جيحون القديم وجارية فى خطه المنخفض الى بحر قزوين عند منقشلاغ . وكان ياقوت ، وهو ممن عاصر تلك الاحداث ، قد تكلم على هذه المدينة قائلا انها قلعة حصينة تقوم على ساحل بحر طبرستان (أى قزوين) ، الذى يصب فيه جيحون ، حسب قوله . وهذا الدليل المستخلص من اشارات عابرة قد عززه وأيده المستوفى فى المئة الثامنة

(الرابعة عشرة) . فانه فى سياق وصفه مجرى جيحون ، ذكر انه وان كان جزء قليل من مياهه ما زالت تحملها الى بحر آرال أنهار تأخذ من يمينه ، فان عموده بعد أن يمرّ بأركنج القديمة ينحدر مارا بعقبة عالية يقال لها حلّم يسمع هدير انصباب الماء عندها من مسافة فرسخين ، ومن هذا الموضع يجرى مسيرة ستة أيام حتى يصب فى قزوين (بحر الخزر) عند خلخال وفيها يصاد السمك .

وموضع عقبة حلم التى يطلق عليها الترك ، على قول المستوفى ، اسم كرلاوه (أو كــرلادى) قد ذكرها المستوفى فى مسالكه ، لان بلدة حلم الجديدة تقوم فى نحو من نصف الطريق بين أركنج القديمة التى خرّبها المغول قبل قرن من زمنه وأركنج الحديثة التى ابتنيت فى مكانها . والى ذلك ، فان المستوفى فى كلامه على بحر قزوين ووصفه للميناء الذى فى جزيرة أبسكون (أنظر الصفحة ٤١٩ — ٤٢٠) ، قال ان هذه الجزيرة قد اختفت فى أيامه فى البحر لأن جيحون الذى كان يصب قبلا فى البحيرة الشرقية (أى آرال) مما يلى بلاد ياجوج وماجوج ، قد غيّر مجراه منذ الفتح المغولى فصار يصب اليوم فى بحر الخزر (أى قزوين) . وبما ان هذا البحر الاخير لا منفذ له ، فان سطح الماء فيه قد ارتفع وغمر الارض اليابسة (أى جزيرة أبسكون) .

وما ذكرناه أعلاه قد أيدته الاخبار التى كتبها عن جيحون فى سنة ٨٢٠ (١٤١٧) حافظ ابرو ، فقد كان من رجال حكومة شاه رخ ابن تيمور وخلفه وهو ولا شك كان حسن الوقوف على جغرافية هذه البلاد بما اطلع عليه بنفسه . فقد كتب فى السنة المذكورة فى كلامه على موضعين متباينين ، ان جيحون الذى كان قديما يصب فى بحيرة خوارزم (أى آرال) قد اتخذ له مجرى جديدا ، فصار الآن ينحدر مارا بكرلاوو ، وتسمى أيضا أقرنجه ، الى بحر الخزر (أى قزوين). وزاد على ذلك ان بحر آرال فى أيامه كاد أن يختفى . ثم ان رُوى كنزاليز دى كلافيجــو (Ruy Gonzalez de Clavijo) السفير الاسبانى الذى زار هذه البلاد سنة ٨٠٨ (١٤٠٥) أى قبل ان كتب حافظ أبرو أخباره ببضع سنين ، قد عزز ذلك بما بيّنه عن ان جيحون « يصب فى بحر باكو » وهذا لا يعنى الا

قزوين . على ان مما ينبغي الاشارة اليه ، ان كلافيجو لم يكن في ما كتبه في هذا الشأن الا راويا ما نقل اليه .

اما سبب عودة جيحون الى ان يصب في بحر آرال ثانية فغير معروف . ولكن هذا التحول العظيم لا بدّ ان حدث قبل ختام المئة العاشرة (السادسة عشرة) ، لان أبا الغازى ، وهو من أهل أرگنج ، قد أشار الى ذلك وكان الامر قد كان حقيقة راهنة في سنة ٩٤٨ (١٥٧٦) أي قبل مولد أبي الغازى نفسه بنحو من ثلاثين سنة . فقد ذكر ان جيحون في التاريخ المذكور قد اتخذ له مجرى جديدا ، وبعد ان ينعطف أسفل من خست مناره‌سى (أي برج خست) ، يتجه رأسا الى بحر آرال وبهذا التحوّل قد جعل الاراضي التي بين أرگنج وبحر قزوين صحراء ماحلة . وفي موضع آخر من كتابه ، في سياق كلامه على الأزمنة الاولى ، ذكر في جملة حوادث سنة ٩٢٨ الى ٩٣٧ (١٥٢٢ - ١٥٣١) ان الطريق من أرگنج الى أبو الخان على قزوين كان كله حقولا مزروعة وكروما تحفّ بما كان حينذاك مجرى جيحون الاسفل . على ان الظاهر ، ان أبا الغازى ، يعيّن حصول التغير في مجرى النهر في زمن متأخر كثيرا . ذلك ان أنطوني جنكنسن حين طوافه في روسيا الى خيوه في سنة ٩٦٦ (١٥٥٨) تكلم على نهر جيحون فقال انه يصب « لا في بحر قزوين ، على ما كان حاله في الأزمنة السالفة » . فانه حين رآه كان هذا النهر العظيم قد اتخذ مجراه رأسا الى بحر آرال « بحيرة كثي (Kithay) أي الخطا »[10] .

---

(١٠) المقدسي ٢٨٥ ؛ ياقوت ٤ : ٦٧٠ ؛ المستوفي ١٩٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٥ ؛ جهان نما ٣٦٠ ؛ حافظ ابرو ٢٧ ب ، ٣٢ ب ، أبو الغازى ٢٠٧ و ٢٩١ ؛ كلافيجو ، Embassy ص ١١٨ Hakluyt, Principle Navigations ٢ : ٤٦١ و ٤٦٢ في « رحلة انطوني جنكنسن » . بحث البروفسور دى غويه في Das Alte Bett des Oxus (Leiden 1875) في تفنيد أقوال البلدانيين العرب ، وانتهى الى ان جيحون كان في غضون العصور الوسطى جميعها ، يصب في بحر آرال على نحو ما هو اليوم . ومهما يكن من أمر ، فان البينات الدالة على ان قسما من مياه جيحون كان يجرى في المعيق القديم الى قزوين خلال مدة تزيد على ثلاثة قرون ، لا يمكن ادحاضها . ولنا ان نزيد على ذلك ان السر هنرى رولنسن ، الذى درس هذه القضية وهو جغرافي يتتبع الحقائق بنفسه ومطلع اطلاعا تاما على ما كتبه المصنفون العرب والفرس ، يصر على الرأى القائل ان جيحون كان في خلال تلك القرون العديدة يصب في قزوين دون أي ريب . ومما ينبغي قوله ، ان شيئا من الالتباس قد حدث من الاسماء المتباينة التي أطلقها البلدانيون المسلمون على قزوين وآرال . فانهم اشاروا الى قزوين بوجه عام باسم بحر الخزر نسبة الى قبائل الخزر التي حلت في سواحله البعيدة ،

وأهم تجارات خوارزم ، الطعام والحبوب والفواكه . وهي بلاد خصبة . ويرتفع منها قطن كثير ، ومن أغنامها الصوف . وترعى في منافعها قرب آرال قطعان الماشية . وكان يحمل منها اصناف كثيرة من الجبن واللبن . وفي أسواق الجرجانية أشهر أنواع الفراء وأغلاها . وتجلب اليها من بلاد البلغار على الفولجا . وذكر المقدسي وغيره اصنافا كثيرة منها . ومما اشتملت عليه : فراء الدلق (أو الدله) والسمّور والثعالب ونوعين من القندس . وكذلك فراء السنجاب وقاقوم (قاقم ، قاقون) والفَنَك وابن عرس ، وتعمل منها الحلل الطويلة والقصيرة . ويحمل منها جلود الارانب والمعزى المدبوغة . وكذلك جلود الحمر الوحشية .

ومن غلات خوارزم وصناعاتها : الشمع ولحاء شجر والحَوَر الابيض المسمى التوز وهو يتخذ غلافا للدروع ، وغراء السمك وأسنان السمك والعنبر والخلنج والعسل والبندق والسيوف والدروع والقسيّ . وعرفت خوارزم أيضا بالبزاة . ويرتفع منها أيضا عنب وعنّاب وسمسم كثير . ويعمل فيها البسط وثياب اللحف والديباج المنسوج من القطن والحرير . وتحمل منها الأُزر والمقانع من القطن والحرير وغيرها من الثياب الملونة . والحدادون يعملون الاقفال . وتنحت فيها السفن من جذوع الاشجار وتتخذ للملاحة في الانهار الصغيرة الكثيرة . على ان أهم تجارات خوارزم في المئة الرابعة (العاشرة) كانت جلب الرقيق ، فقد كانوا يشترون أو يسرقون أولاد وبنات الأتراك من بدو تلك البراري ، وبعد أن يعلموهم ويؤدبوهم بالآداب الاسلامية ، يجلبون منها الى سائر بلاد الاسلام فكانوا يتولون ، على ما يروى التاريخ ، أجل مناصب الدولة ووظائفها[11] .

ولكنهم سموه أيضا بحر طبرستان او مازندران أو بحر ابسكون او جرجان ، نسبة الى أسماء الاقاليم المختلفة المعروفة التى تكتنف سواحله . وسمى قزوين احيانا ، خطا ، باسم دريا قلزم . ولكن قلزم كان الاسم الذى أطلق على البحر الاحمر . اما آرال فكانوا يسمونه بوجه عام باسم بحيرة خوارزم وكذلك بحيرة الجرجانية (قصبة خوارزم) وما أسهل ما يقرأ هذا الاسم الاخير خطا بصورة جرجان ، مما ولد التباسا كبيرا بين قزوين (بحر جرجان) وآرال (بحيرة الجرجانية) . وكان آرال يعرف أيضا لدى البلدانيين الفرس باسم دريا شرق (أى البحر الشرقى) . على ان هذا كله لا ينقض الحقائق التى دولها تدوينا واضحا المستوفى وحافظ ابرو وأبو الغازى .

(١١) الاصطخرى ٣٠٤ و ٣٠٥ ؛ ابن حوقل ٣٥٤ ؛ المقدسى ٣٢٥ .

الفصل الثالث والثلاثون



بخارا والمدن الخمس داخل اسوارها ـ بيكند ـ سمرقند ـ جبل البتم ونهر زرفشان اى نهر السغد ـ كرمينية ـ دبوسية وربنجن ـ كش ونسف والمدن المجاورة لهما ـ غلات الصغد وتجاراته ـ مسـالك ما وراء جيحـون حتى سـمرقند .

يمكن القول ان اقليم الصغد ، وهو صغديانا Sogdiana القديمة ، كان يشمل الاراضى الخصبة فى ما بين نهرى جيحون وسيحون ، التى كانت تسقيها مياه نهرين ، هما زَرَفْشان أى نهر السُغْد ، وعليه كانت تقوم سمرقند وبخارا ، والنهر المنساب حيال مدينتى كش ونسف . وكان هذان النهران ينتهيان الى مناقع أو بحيرات ضحلة فى المفازة الغربية من جهة خوارزم . مع ذلك ، فانه لمن الأوجه أن يعد الصغد اسما للرساتيق المحيطة بسمرقند . فان بخارا وكش ونسف كانت كل واحدة منها تعد كورة بذاتها .

وكان الصغد ، يحسب احدى جنان الدنيا الاربع ، وقد بلغ أوج ازدهاره فى النصف الاخير من المئة الثالثة (التاسعة) فى أيام الامراء السامانيين . ومع ذلك فقد ظل هذا الاقليم فى المئة التالية لها ، فى خصب ويسار لا نظير لهما . وكانت أجل مدنه : سمرقند وبخارا ، ويمكن القول ان الأولى كانت مركزه السياسى ،

بينما كانت بخارا عاصمته الدينية ٠ الا ان كلا من المدينتين كانتا في مرتبة واحدة وتعدان قصبتي الصغد[1] ٠

وكان يقال لبخارا أيضا : نومجكث[2] ٠ كان عليها في المئة الرابعة (العاشرة) سور سعته « نحو فرسخ في مثله » ٠ وهي مدينة في مستواة من الارض ، على مسافة قصيرة من جنوب عمود نهر السغد ٠ ولا جبال بالقرب منها ، وحولها كثير من المدن والقصور والبساتين والمحال ، يجمعها حائط سعته اثنا عشر فرسخا في مثلها ، ويزيد دوره على مئة ميل ٠ ويشق ما يضمه هذا السور العظيم نهر السغد والانهار الكثيرة الآخذة منه ٠

اما مدينة بخارا نفسها ، فلها في خارج السور الى شماله الغربي ، قهندز متصل بها ، « وهو في مقدار مدينة صغيرة ٠ وفيه مساكن الولاة والحبس والخزانة » ٠ وفي خارج المدينة وحولها ، أرباض واسعة تمتد حتى عمود النهر وتحفّ بضفته الجنوبية ٠ ومن أجلها الارباض التي في شرقها ، وهي : درب النوبهار ودرب سمرقند ودرب الراميثنة وغيرها من الدروب التي لا مجال لذكرها لكثرتها ، ولا يمكن اليوم تعيين مواضعها الصحيحة ٠ ولسور المدينة سبعة أبواب : باب المدينة ، وباب نور (أو نوز) ، وباب حفره ، وباب الحديد ، وباب القهندز ، وباب مهر ، وباب بني أسد وآخرها باب يعرف ببني سعد[3] ٠ أما مواضع هذه الابواب فغير معروفة ، الا ان باب قهندز ينبغي ان يكون في الشمال الغربي وهو المفضي الى الريگستان ، السهلة العظيمة أي رحبة بخارا وقد اشتهرت في كل زمان ٠

وبابا القلعة هما : باب الريگستان أي باب السهل ، وباب الجامع وهذا

---

(١) الاصطخري ٣١٦ ؛ ابن حوقل ٣٦٥ ؛ المقدسي ٢٦١ و٢٦٢ و ٢٦٦ ـ ٢٦٨ ؛ ياقوت ٣ ، ٣٩٤ ٠

(٢) هذه التهجئة للاسم ، وكذلك نموجكث ، هي الصحيحة ٠ وكثيرا ما يكتب خطأ بصورة نومجكث (وذلك من تصحيف النساخ) ٠ أنظر : المقدسي ٢٦٧ الحاشية ب ٠ اما التهجئة الصحيحة فقد ضبطها الحجاج الصينيون الذين ذكروا بخارا باسم نمي Numi ٠

(٣) عدد أبواب بخارا حسبما ذكر المؤلف ثمانية لا سبعة ٠ والظاهر انه اعتمد في عدها على الاصطخري وابن حوقل فانهما أشارا الى ان للمدينة سبعة أبواب ولكنهما سميا لها ثمانية ، الا المقدسي فقد ذكر ان للمدينة سبعة أبواب وسرد لها سبعة اسماء وليس باب مهر بينها ٠ (م) ٠

أ

لاخير كان يفضى الى المسجد الجامع القائم فى الريگستان على باب القهندز المار لذكر . وكان يشق الارباض عشرة دروب ، ينتهى كل درب ببابه ، وقد عنى كل من الاصطخرى والمقدسى بسرد أسمائها . والى ذلك فقد كان للمدينة أبواب أخرى عديدة تقوم فى سككها وشوارعها تفصل بين الاحياء المختلفة . وكثير من هذه الابواب حديد. وكان المسجد الجامع بالقرب من القلعة. وللمدينة أيضا مساجد صغيرة متعددة وأسواق وحمامات ورحاب لا تحصى . وفى ختام المئة الرابعة (العاشرة) كانت دار الامارة فى ظاهر القلعة فى رحبة كبيرة يقال لها الريگستان . وقد أسهب ابن حوقل فى ذكر أنهار المدينة الآخذة من يسار نهر السغد ، التى تسقى بخارا وبساتينها ورساتيقها ، ثم تفنى أخيرا فى المفازة التى فى الجنوب الغربى قرب بيكند فى طريق آمل ، فلا يصل نهر منها الى جيحون . وكان المجرى الاسفل للنهر فى هذا الموضع يقال له سامخاس أو خواش[4] .

وترى خرائب بخارا القديمة التى كانت فيما قبل الاسلام ، على بضعة أميال من شمال غربى المدينة الاسلامية قرب ضفة النهر . ويقال لهذه الخرائب ريامِيثن ، قال فيها المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) : « هى بخارا القديمة ، كبيرة خربة الاطراف » . وكان فى داخل السور الكبير (أى حائط بخارا) الذى يجمع سهلة بخارا خمس مدن زاهرة ، منها : خُجَدّة أو خجادة وهى على فرسخ غرب الدرب المنحدر من بخارا الى بيكند ، على ثلاثة فراسخ من القصبة . وصفها المقدسى بقوله « كبيرة ، عليها حصن فيه الجامع ، حسنة ظريفة » . وتليها بلدة مغكان ، وكانت على خمسة فراسخ من بخارا وثلاثة من الدرب لصق الجانب الغربى من السور الكبير . وكان لمغكان « حصن وربض حسن وجامع ظريف به ماء جار ، كثيرة القرى » .

وكانت تُشْجكَث أو تمشكث (وغالبا ما كتبت وهما بصورة بمجكث وبومجكث) مدينة صغيرة فى شمال غربى بخارا على أربعة فراسخ منها ونصف فرسخ عن الدرب الذى الى يسار الطريق الذاهب الى طواويس . والطواويس

---

(٤) الاصطخرى ٣٠٥ — ٣٠٩ ؛ ابن حوقل ٣٥٥ — ٣٥٨ ؛ المقدسى ٢٨٠ و ٢٨١ ؛ ياقوت ١ : ٥١٧ .

(وتكتب معرّفة في الغالب) أعظم المدن الخمس التى فى داخل السور الكبير . وكانت مدينة جليلة « لها سوق ، ومجمع عظيم ينتابه النـاس من أقطـار أرض خراسان فى وقت معلوم من السنة . ويرتفع منها من ثياب القطن ما يحمل منه لكثرته الى العراق . وفيها قهندز ، والمدينة عليها حصار ، ومسجد جامعهـا فى المدينة » . وآخر المدن الخمس الداخلة ، كانت زندنة ، وما زالت قائمة الى يومنا ، قيل انها تبعد عن شمال بخارا أربعة فراسخ . « لها حصن به الجامع وربضها عامر » . وزاد ياقوت على ذلك ان اليها تنسب الثياب الزندنجى وهى ثياب مشهورة فى الآفاق .

وعلى فرسخين من خارج السور الكبير وخمسة من بخارا ، فى الطريق المنحدر الى جيحون عند فِرَبْر ، مدينـة بَيْكَنْد وما زالت قائمة . كان على بيكند فى المئة الرابعة (العاشرة) « حصن بباب واحد وجامع فى محرابه جواهر » ولها ربض فيه سوق ولم يكن لها قرى ، انما فيها عدد كبير من الربط قيل انه يبلغ الألف . ويلى المدينة مفازة رملية الى حد جيحون .

وحافظت بخارا على مكانتها الرفيعة فى أوائل العصور الوسطى ، ولكن فى سنة ٦١٦ (١٢١٩) ادركها الغزو المغولى فنهبت المدينة ودمرت عن آخرها ، ولم تنهض مما أحاق بها من دمار وخراب مدى قرن ويزيد . وفى اوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين زار ابن بطوطة الموضع ، نزل فى ربض يقال له فتح أباد . وكان معظم الجوامع والمدارس والاسواق ، على الحال المشعثة التى كانت عليها حين غادرها جنكيزخان . وفى الواقع ان بخارا لم تستعد شيئا من ازدهارها السابق الا فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) فى عهد تيمور فقد اتخذ سمرقند عاصمة له واستعادت بخارا أختها شيئا من سابق بهائها[٥] .

أما سمرقند ، فكانت فى أعلى النهر ، على نحو من ١٥٠ ميلا من شرق بخارا ، تقوم على مسافة قصيرة من ضفة نهر السغد الجنوبية على نشز من الارض . وعلى

(٥) الاصطخرى ٣١٣ ـ ٣١٥ ؛ ابن حوقل ٣٦٢ ـ ٣٦٤ ؛ المقدسى ٢٨١ و ٢٨٢ ؛ ياقوت ١ : ٧٣٧ و ٧٨٤ ؛ ٢ : ٩٥٢ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٢٧ ، E. Schuyler فى Turkistan ٢ : ٨٩ .

المدينة سور حوله خندق عميق ولها قلعة مرتفعة عن الارض ، وفي أسفلها قرب النهر أرباض كبيرة ، تحف بها البساتين والاشجار ، « وقلّ دار تخلو من بساتين ولا دار الا وفيها ماء جار الا القليل » . وتكثر فيها أشجار السرو . وفي القلعة دار الامارة والحبس ، ولكن حين كتب ابن حوقل كان الخراب قد استحوذ على أكثر هذه القلعة . وقد كان عليها « باب حديد من داخله باب آخر حديد » على ما ذكر ياقوت . أما المدينة نفسها فلها أربعة أبواب ، هي : باب الصين في جهة المشرق ، « ينزل عنه بدرج كثيرة العدد ، مطل على نفس وادي السغد » . وباب بخارا في جهة الشمال ، وباب النوبهار في جهة المغرب ، وهو على النشز أيضا . والباب الكبير ويعرف أيضا بباب كش في جهة الجنوب .

ومساحة المدينة ، على ما ذكر ياقوت ، ٢٥٠٠ جريب (أى ٧٥٠ اكرا) ، فيها الاسواق والحمامات . ولهذه المدينة مساكن كثيرة « وماء جار يدخل اليها في نهر من رصاص ، وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة يجرى عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش ، ووجه هذا النهر رصاص كله » . وسوق سمرقند الكبير يعرف برأس الطاق كان سوقا رحبا وفي أسفل القلعة المسجد الجامع ودار الامارة . ودورها قد بني كلها بالخشب والطين . وكانت المدينة مكتظة بالسكان .

وأرباض سمرقند تمتد بامتداد ضفة النهر ، في بسيط من الارض ، وعليها سور نصف دائرى طوله[٦] فرسخان ، يحيط بها من ناحية البر ، والنهر من ناحية الشمال ، احاطة القوس بالوتر ، فيتم بذلك خط دفاعها . وللربض ثمانية أبواب تفضي منها دروب مختلفة ، هذه أسماؤها : أولا باب شداود ، ثم باب أشبسك ، ثم باب سوخشين ، وباب أفشينه ، ويليه باب كوهك (أى باب الجبل) ويفضي الى النشز حيث المدينة والقلعة . ويليه باب ورسنين ، فباب ريودد . وأخيرا باب فرّخشيذه ومجمع أسواق الربض رأس الطاق في المدينة « والبلد كله : طرقه

(٦) جاء في الاصطخرى عن هذا السور قوله (ص ٣١٧) : « ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين » . وقال ابن حوقل فيه أيضا (ص ٤٩٣ من الطبعة الثانية) : « وقطر هذا السور المحيط بالربض نحو فرسخين في فرسخين » . (م) .

وسككه وأسواقه ، الا القليل ، مفروش بالحجارة » • وكانت أسواق ربضها مجمع التجارات ، زاخرة بالسلع الواردة اليها من جميع الانحاء ، فقد كانت سمرقند فرضة تجارية عظيمة لبلاد ما وراء النهر • ومن جملة ما اشتهرت به الكاغد السمرقندى ، فهو يحمل منها الى سائر بلاد الشرق ، وكانت صناعته قد دخلت اليها من الصين • وهواء سمرقند رطب ، ولكل دار فى المدينة وربضها بستان « حتى انك اذا صعدت أعلى القلعة لم تبد المدينة للنظر لاستتارها بالبساتين والاشجار » • وفى جنوبها جبل صغير يقال له كوهك يمتد طرفه الى مرحلة يوم عن المدينة •

ويرجع سبب الخراب الوقتى الذى حلّ بسمرقند الى المغول ، على ما أوقعوه فى سائر أنحاء ما وراء النهر • فقد خرّبوا معظم البلد فى سنة ٦١٦ (١٢١٩) حتى ان ابن بطوطة لما زارها فى المئة التالية لذلك الزمن ، قال فيها « لا سور لها ولا أبواب عليها » ، وأكثر دورها خراب والقليل منها آهل • وقد سمى نهرها (أو لعله أراد نهرا كان يأخذ من نهر السغد) نهر القصّارين « عليه النواعير » • ومع ذلك فقد استعادت سمرقند مجدها السابق بعد ذلك بقليل ، وذلك فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) حين اتخذها تيمور عاصمة له فجدّد البلد وشيّد المساجد وأقام الربط ، وقد شاهد ذلك كله السفير الاسبانى كلافيجو Clavijo فى سنة ٨٠٨ (١٤٠٥) وما زال بعض ذلك قائما الى يومنا • وذكر على اليزدى ان مسجدها الجامع قد أنشأه تيمور عند عودته من فتح الهند فكان مردّ بهائه وجماله الى ما وضعه فيه من غنائم تلك الحملة • ووصف كلافيجو سمرقند فى هذا الزمن بقوله انها يحيط بها سور طين وان كبر البلد فى نحو مدينة اشبيلية ، موطنه[٧] •

أما رساتيق سمرقند فكان جلها فى شرقها وجنوبها ، وبعضها فى شمال نهر السغد ، وكلها خصبة وافرة الخيرات • فعلى تسعة فراسخ من شرق سمرقند

---

(٧) الاصطخرى ٣١٦ ـ ٣١٨ ؛ ابن حوقل ٣٦٥ ـ ٣٦٨ ؛ المقدسى ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ؛ القزوينى ٢ : ٣٥٩ ؛ ياقوت ٣ : ١٣٤ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٥٢ ؛ على اليزدى ٢ : ١٩٥ ؛ كلافيجو فى كتابه Embassy ص ١٦٩ •

ومثل ذلك من جنوب النهر ، مدينة بنجيكث ، (ما زالت قائمة حتى اليوم باسم بنجكند) حولها رستاق كثير الثمار خصب ، مشجّر باللوز والجوز . وتمتد حقول القمح على الانهار . وبين هذه المدينة وسمرقند ، القرية الكبيرة وَرَغْسَر ورستاقها خصب تسقيه أنهار تأخذ من نهر السغد . وفي الناحية الجنوبية من القصبة كان رستاق مايْمُرْغ فيه قرية رِيْوَدَد على فرسخ من سمرقند ، ويجاوره رستاق سنجرفغن . « وليس في جميع الرساتيق أكثر قرى وأشجارا وخيرات منه (أي مايمرغ) » . والى جنوبه ، الرستاق الجبلي المعروف بجبال الساودار وهو أصح رساتيق الاقليم هواء . وفي هذا الرستاق ، على ما ذكر ابن حوقل ، « عُمْر للنصارى ــ ربما كانوا من النساطرة ــ يعرف بوزكرد » . وكان يزار كثيرا ، ودخله عظيم . وكانت الاودية التي في هذه الجبال ، في غاية الخصب ، وعلى أنهارها تنبث القرى ، وخيراتها وافرة . ورستاق الدرغم « أزكى الرساتيق وأكثرهن مراعي ومياها . ويفضل من أعنابه ما يحمل الى غيرها من الرساتيق » . وعلى حده كان رستاق أوفر أو أبغر ، وهو « رستاق ، عامته مباخس ، كثير القرى ، أهله أصحاب مواش » ، قطره نحو من فرسخين وهذا الرستاق هو آخر الرساتيق في جنوب سمرقند والنهر .

وفي شمال ضفة نهر السغد ، في تخوم أشروسنة ، رستاق بوزماجن أو بوزماجز ، ومدينته باركث أو أباركث ، وهي على أربعة فراسخ أو مرحلة يوم من سمرقند الى شمالها الشرقي . وعلى أربعة فراسخ أخرى شمالا ، كُشْفَغَن وهي قرية ذات شأن عرفت في الازمنة الاخيرة برأس القنطرة . ويليها رستاق بُرنمَذ ، أو فورنمذ ، وهو يتاخم أشروسنة ، ويليه رستاق ياركث وهو أعلى الرساتيق الشمالية . وتكثر في هذين الرستاقين المراعي .

وعلى سبعة فراسخ من شمال سمرقند ، مدينة اشتيخن ، لها قهندز وربض وأنهار تأخذ من نهر السغد ، وهي مشهورة بكثرة زروعها . ونعتها الاصطخري بقلب السغد لخصبها . وعلى سبعة فراسخ أخرى شمالا كانت الكُشانية أو كشاني ، وهي أعمر مدن السغد ، وأهلها من ذوى اليسار والثراء . والى شمالها أيضا ،

رستاق كبوذنجكث ، وهو على ما ذكر ياقوت يبعد فرسخين عن سمرقند ، ومدينته يقال لها لنجوغكث . وعلى ظهر هذا الرستاق ، رستاق وذار وأرضه جبلية ومدينته على اسمه ، وفيها يعمل الثياب الوذارية القطنية . وأخيرا رستاق المرزبان « وهو المرزبان بن تركسفى » من دهاقين الصغد ، أى نبلائه . ويتصل هذا الرستاق برستاق وذار[٨] .

أما نهر السغد ، أو زرفشان (ناشر الذهب) على ما يسمى به اليوم ، فان منابعه فى جبال يقال لها البُتَّم ، وهو يفصل بين أنهار اقليم الصغد من جهة وأنهار الصغانيان ووخشاب من جهة أخرى وقد مر ذكرهما فى الفصل الثانى والثلاثين ، وهما من روافد يمين نهر جيحون . وسفوح جبل البتم وان كانت عالية شديدة الانحدار ، فان القرى كانت تنبث فوقها ، وفيها معادن الذهب والفضة وكذلك يستخرج منها الحديد والزئبق والنحاس والآنك والنفط والقير ، ويحمل من هذا الرستاق الزفت والفيروزج « وحجارة تحرق عوضا عن الفحم » والنوشاذر . والنوشاذر يجمع من غار يرتفع فيه بخار ، ذكر الاصطخرى ان فى الجبل « مثل الغار ، يبنى عليه بيت ، ويستوثق من أبوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان وبالليل النار ، فاذا تلبد هذا البخار ، قلع منه وهو النوشاذر . ولا يتهيأ لاحد أن يدخله من شدة حره الا ان يلبس لبودا ويدخل بها كالمختلس . وهذا البخار يتنقل من مكان الى مكان فيحفر عليه حتى يظهر ، فاذا انقطع من مكان حفر عليه من مكان آخر فظهر منه »[٩] .

ومبدأ نهر السغد فى موضع يقال له جن أو جي ، وهو « مثل بحيرة حواليها قرى ، وتعرف الناحية ببرغر » أو ورغر ، فينصب النهر من البحيرة بين جبال حتى ينتهى الى بنجيكث ثم ينتهى الى مكان يعرف بورغسر « وتفسيره رأس السُّكْر » فى لغتهم . لان عنده تتشعب من النهر أنهار تسقى سمرقند ورساتيقها التى فى شمال نهر السغد . ومن الانهار الآتية الى سمرقند اثنان يحملان السفن ، وقد

---

(٨) الاصطخرى ٣٢١ — ٣٢٣ ؛ ابن حوقل ٣٧١ — ٣٧٥ ؛ المقدسى ٢٧٩ ؛ ياقوت ١ : ٢٧٧ ؛ ٢ : ٤٤٧ و ٨٩٠ ؛ ٤ : ٣٣٤ و ٢٧٦ و ٩٤٤ .

(٩) الاصطخرى ٣١٢ و ٣٢٧ ؛ ابن حوقل ٣٦٢ و ٣٨٢ .

سرد ابن حوقل أسماء هذه الانهار المختلفة والرساتيق التى تسقيها وما فيهما من قرى .

وكان على النهر فى سمرقند قنطرة حجارة يقال لها قنطرة "حرد"، كانت مياه الفيضان أحيانا تغمرها كلها . ويأخذ من النهر أسفل سمرقند أنهار أخرى تسقى الرساتيق التى حول الدبوسية وكرمينية . وسنصفهما الآن . ثم يصل نهر السغد الى قرب بخارا ، فيسمى النهر فى هذا الموضع بنهر بخارا ، وكان يأخذ منه فى ظاهر سور بخارا الكبير أنهار تسقى المدينة وما يليها من أرضين . وقد سرد ابن حوقل أسماء هذه الانهار أيضا وما عليها من قرى وبعض هذه الانهار يؤلف شبكة للسقى تعود مياهها الى عمود النهر ، بينما كان غيرها يفنى بعد السقى ، وهو ما كان فى الجنوب الغربى . والمعروف ان الانهار الكبيرة التى كانت تصل مدينة بخارا يصلح كلها لسير السفن[10] .

وكان بين بخارا وسمرقند فى ضفة السغد الجنوبية ثلاث مدن كبيرة فى المئة الرابعة (العاشرة) ، هى كرمينية (وما زالت قائمة) والدبوسية وربنجن . أما كرمينية فهى على مرحلة بريد شرق الطواويس فى ظاهر السور الكبير ، وهى أكبر من الطواويس وأعمر وأكثر عددا ، ولها قرى كثيرة ، وأراضيها خصبة وانهارها وافرة تأخذ ماءها من نهر السغد . وقد ذكر ياقوت كثرة أشجارها . وعلى مرحلة بريد من شرقها ، مدينة الدبوسية وهى كذلك على نهر يأخذ من ضفة السغد الجنوبية ولكنها لا قرى كبيرة فيها ولا أعمال لها .

وبلدة خُديمَنْكَن ، كانت تبعد فرسخا عن كرمينية وغلوة عن شمال الطريق العام . وعلى ضفة السغد الشمالية ، على فرسخ فوق خديمنكن ، بلدة مذيامشكث . وكانت أسفل منها بفرسخ قرية خرغانكث وهى على ضفة النهر الشمالية بازاء كرمينية ولا تبعد عنها غير فرسخ . وهذه القرى الثلاث ، كانت من الكبر فى المئة الرابعة (العاشرة) بحيث ان لكل منها مسجدا جامعا . وذكر ياقوت ان خديمنكن « تختص بأصحاب الحديث » . اما اربنجن ، أو ربنجن ،

(١٠) الاصطخرى ٣١٠ - ٣١٢ و ٣١٩ - ٣٢١ ؛ ابن حوقل ٣٥٩ - ٣٦١ و ٣٦٨ - ٣٧١ .

فعلى مرحلة بريد من شرق الدبوسية وأكبر منها • والى شرقها أيضا ، فى نصف الطريق بين ربنجن وسمرقند ، على سبعة فراسخ من هذه القصبة ، كانت زرمان • هذا ، وقد سرد المقدسى أسماء عدد كبير من المدن الصغيرة الاخرى حول بخارا ، ووصفها • ولكن مما يؤسف عليه انه لم يذكر المسافات بينها ليتسنى تأشير مواضعها[١١] •

وفى الناحية الجنوبية من نهر السغد ، يجرى نهر مواز له ، وينتهى مثله فى مناقع بيد أنه أقصر منه ، يقال له اليوم كُشكَه دريا ، وعليه تقوم شهر سبز وقرشى • كانت شهر سبز (أى المدينة الخضراء) فى العصور الوسطى ، تعرف باسم كشّ • قال فيها ابن حوقل : « مدينة لها قهندز وحصن وربض • ومدينة أخرى متصلة بالربض » لعلها هى المعروفة اليوم بكتاب • وكان يقال لها قديما المصلى ، فيها الخانات ودار الامارة • وفى ربضها الاسواق • « والحبس والمسجد الجامع فى المدينة الداخلة ، ومقدارها نحو ثلث فرسخ فى مثله (أى ربع ميل مربع)» وبناؤها من طين وخشب ، وهى مدينة خصبة جدا ، جرومية ، تدرك فيها الفواكه أسرع مما تدرك بسائر ما وراء النهر ، وتأتى بواكيرها الى بخارا » • ولمدينة كش الداخلة أربعة أبواب هى : باب الحديد ، وباب عبد الله ، وباب القصابين ، والرابع باب المدينة الداخلة • وللمدينة الخارجة بابان ، أحدهما باب بركنان « وبركنان قرية ينسب اليها الباب » ، وباب المدينة الخارجة[١٢] •

والنهر المعروف اليوم بنهر كشكه كان يقال له فى المئة الرابعة (العاشرة) نهر القصارين « ويخرج من جبل سِيَّام ويجرى فى جنوبى المدينة » أى مدينة كش • ويجرى فى شمالها نهر أسرود • وفى ما يلى طريق سمرقند ، على فرسخ ، كان يقطع هذا الطريق نهر يقال له جاى رود ، والى جنوبه ، على فرسخ من كش فى طريق بلخ ، نهر خُشْك رود (أى النهر الجاف) • وفى ما يلى

---

(١١) الاصطخرى ٣١٤ و ٣١٦ و ٣٢٣ ؛ ابن حوقل ٣٦٣ و ٣٦٥ و ٣٧٥ ؛ المقدسى ٢٨٢ ؛ ياقوت ٢ : ٤٠٦ و ٩٢٥ ؛ ٤ : ٢٦٨ •

(١٢) ذكر المؤلف الباب الثانى بهذا الاسم مستندا الى المقدسى (ص ٢٨٢) • ولكن ابن حوقل (ص ٥٦١) سماه باب المدينة الداخلة (م) •

هذا النهر ، على ثمانية فراسخ منه ، نهر خزار رود . وهذه الانهار ، بعد أن تسقى رساتيق كش ، تجتمع فضلاتها فتصير نهرا واحدا يمر بمدينة نسف . وكان « طول عمل كش نحو أربعة أيام فى مثلها » . وهو معروف بوفرة خصبه . وفى الجبال المجاورة لكش : الملح « وبها يسقط المن المسمى الترنجبين والعقاقير الكثيرة » وكانت تحمل الى كثير من آفاق خراسان . واشتهرت كش فى الازمنة الاخيرة بان فيها ولد تيمور الذى جدد فى أواخر المئة الثامنة (الرابعة عشرة) المدينة وبنى فيها القصر الابيض - آق سراى - وكان يؤثر الاقامة فيه . وفى هذا الزمن عرفت كش باسم شهر سبز (المدينة الخضراء) وما زالت تعرف به حتى اليوم[١٣] .

وعلى مئة ميل ونيف فى منحدر النهر أسفل كش من ناحيتها الغربية ، المدينة المعروفة اليوم باسم قَرْشي وكان يسميها عرب القرون الوسطى نسف والفرس نخشب . كان لنسف فى المئة الرابعة (العاشرة) قهندز ، وربض عامر فى ظاهر المدينة ، له سور وأربعة أبواب هى : باب النجارية وباب سمرقند وباب كش وباب غوبذين . وتقوم نسف على النهر الذى يتألف ، على ما بيّنا ، من مجتمع فضلات أنهار عديدة تأتى من رساتيق كش . وعلى ضفته : دار الامارة ، عند الموضع المعروف برأس القنطرة . وحبسها عند دار الامارة ، والمسجد الجامع قرب باب غوبذين . « وأسواقها فى الربض مجتمعة ما بين دار الامارة ومسجد الجامع والمصلى بناحية باب النجارية داخل الباب » . وقد أطرى المقدسى كثرة أعناب نخشب الجيدة وتكلم على أسواقها الحسنة . وكانت مزارعها خصبة وبساتينها كثيرة . الا انها « ليست لها قرى كثيرة ولا نواح » مثلما كان لكش .

وعرفت نسف أو نخشب فى التاريخ بأنها موطن المقنع - نبيّ خراسان - الذى نهض فى النصف الاخير من المئة الثانية (الثامنة) وصنع العجائب . فقد كان يصعد من بئر فى نخشب ليلة بعد ليلة القمر أو ما هو مثل القمر ، فكان الناس يتعجبون من ذلك . وكان الفرس يلقبون المقنع بـ « ماه سازنده » أى صانع

---

(١٣) الاصطخرى ٣٢٤ ؛ ابن حوقل ٣٧٥ - ٣٧٧ ؛ المقدسى ٢٨٢ ؛ على اليزدى ١ : ٣٠٠ و ٣٠١ .

القمر • وتروى الاخبار التاريخية ان فتنة اتباع المقنع قد عانى منها كثيرا قادة جيش الخليفة المهدى مدى سنين • أما مدينة نخشب ، فقد ابتنى فيها كبك خان بعد الغزو المغولى فى المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، قصرا له فى موضع على فرسخين من المدينة القديمة ، و « القصر » فى اللغة المغولية يسمى « قرشى » فسرى هذا الاسم على الربض الذى قام حوله وحل محل نسف القديمة أى نخشب • نزل ابن بطوطة هنا فى أوائل المئة الثامنة (الرابعة عشرة) ، ووصف قرشى بانها بلدة صغيرة تحفّ بها البساتين • وفى ختام هذا القرن ، كان تيمور كثيرا ما يشتى فى قرشى ، ثم بنى قربها حصارا أى قلعة[١٤] •

وكان قرب نسف ، فى المئة الرابعة (العاشرة) وما بعدها ، مدينتان لكل منهما جامع ، صغراهما بزده أو بزدوه • لها قلعة قوية وهى على ستة فراسخ غرب نسف فى طريق بخارا • والاخرى ، وهى الكبيرة كَسْبَة ، كانت على أربعة فراسخ من نسف فى طريق بخارا • ولها أسواق عامرة على ما ذكر ياقوت • وكان الى ذلك ، بين نسف وكش ، على مرحلة بريد غرب المدينة الاخيرة ، المدينة أو القرية الكبيرة المسماة نَوْقَدقريش • وعلى مرحلة أخرى جنوب شرقى نسف ، فى الطريق الى باب الحديد (أنظر صفحة ٤٨٥) ، كانت سُونَج ، وهى قرية كبيرة • وفى جوارها على فرسخ منها : اسكيفغن ، ويسقى هاتين القريتين نهر خزار وقد سبق ذكره[١٥] •

اما حاصلات اقليم الصغد وصناعاته ، فعديدة • فكان يرتفع من بخارا بطيخ فائق يحمل الى الآفاق ، ويرتفع منها أيضا البسط والمصليات والثياب الرخوة وثياب الفرش التى كانت تفرش فى حجرات الضيوف ، وكانت تنسج فى محابسها حُزُم الخيل ، وتدبغ فيها جلود الضأن ، ويرتفع منها الشحم ودهن الرأس وتحمل الى الآفاق • وأكثر ما اشتهرت به سمرقند : الكاغد • يعمل فيها ثياب

---

(١٤) الاصطخرى ٣٢٥ ؛ ابن حوقل ٣٧٧ و ٣٧٨ ؛ المقدسى ٢٨٢ ؛ القزوينى ٢ : ٣١٢ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٢٨ ؛ على اليزدى ١ : ١١١ •

(١٥) ابن حوقل ٣٧٦ ـ ٣٧٨ ؛ المقدسى ٢٨٣ ؛ ياقوت ١ : ٦٠٤ ؛ ٣ : ١٩٧ ؛ ٤ : ٢٧٣ و ٨٢٥ •

حمر وديباج وقز • وكان الصفارون يصنعون القدور العظيمة من النحاس ، وغيرهم يعملون الركب والسيور وأحزمة السرج وكذلك أصناف القماقم والقناني • ويحمل من رساتيقها البندق والجوز • وكان يرتفع من كرمينية بين بخارا وسمرقند : المناديل • ومن الدبوسية : ثياب وديباج • ومن ربنجن : اللبود الحمر ومصليات وطاسات والجلود وحبال القنب والكبريت ويرتفع منها أيضا أزر النساء[١٦] •

ولقد بيّنا فى الفصل الثلاثين (ص ٤٧٣) ، ان طريق خراسان كان يقطع جيحون مما يلى أموية الى فربر ، ومنها يتابع الى بيكند فيدخل باب السور الكبير الى بخارا • ومن هذه القصبة يصعد الطريق فى محاذاة ضفة نهر السغد اليسرى الى سمرقند مارا بمدن هذه الناحية الكبيرة • وقد وصف هذا الجزء من الطريق جميع المصنفين القدماء باختلاف طفيف فيما بينهم • غير ان ابن حوقل والمقدسى ذكرا أيضا المسافات بين المدن الخارجة فى رساتيق بخارا وسمرقند[١٧] •

والطريق الذى يخترق خراسان الى بلخ (أنظر صفحة ٤٧٤) يعبر جيحون الى ترمذ ، وعندها يتشعب الى طرق مختلفة : ففى الشمال طريق يتخلل الصغانيان وقباذيان الى واشجرد • ومنها يعبر قنطرة الحجارة فيصل الى ناحيتى الوخش والختل • وفى الشمال الغربى ، يصعد طريق آخر من ترمذ الى باب الحديد • وفى ما يلى كَنْدَك بمرحلة ، يتشعب : فالى الشمال يذهب الطريق الايمن الى كش ومنها يبلغ سمرقند والى الشمال الغربى ينتهى الطريق الايسر الى نخشب • وهناك ينعطف فرع منه يتجه شرقا فيعود الى كش • أما الطريق الكبير نفسه ، فانه يقطع المفازة الى بخارا • وقد وصف هذه الطرق ، مع ذكر المسافات القصيرة فى الغالب ، الاصطخرى وبعضها المقدسى[١٨] •

---

(١٦) ابن حوقل ٣٦٤ ؛ المقدسى ٣٢٤ و ٣٢٥ •
قلنا : فى المقدسى (ص ٣٢٤) : « ومن ربنجن ازر الشتاء » وفى الحاشية « النساء » • وقد وهم المؤلف بقراءة لفظة « ازر » فجعلها فى المتن الانكليزى « أرز الشتاء » • (م) •

(١٧) ابن خرداذبه ٢٥ و ٢٦ ؛ قدامة ٢٠٣ ؛ الاصطخرى ٣٣٤ و ٣٤٢ ؛ ابن حوقل ٣٩٨ و ٤٠٢ ؛ المقدسى ٣٤٢ و ٣٤٣ •

(١٨) الاصطخرى ٣٣٧ ــ ٣٤١ ؛ ابن حوقل ٣٩٩ ــ ٤٠٣ ؛ المقدسى ٣٤٢ ــ ٣٤٤ •

وكانت دلتا جيحون فى اقليم خوارزم ، يصلها من آمل فى جانب خراسان طريق يصعد فى محاذاة ضفته اليسرى الى الطاهرية حيث يبدأ حد الزراعة ومنها يتابع الى هزاراسب . وهنا طريق يذهب يسارا مارا بخيوه الى الجرجانية (اركنج) . وطريق آخر ينعطف الى كاث والمدن التى على يمين جيحون . وقد وصف الاصطخرى والمقدسى هذه الطرق . وكذلك الطريق الذى يقطع المفازة نحو الجنوب الشرقى من كاث الى بخارا وآسا . والى ذلك ، فقد ذكر المستوفى فى المئة الثامنة (الرابعة عشرة) طريقين يأتيان من الجنوب ويجتمعان فى اركنج ، فيذهب أحدهما شمالا من فراوة (هى الآن قزل اروات . أنظر صفحة ٤٢١) الى اركنج قاطعا المفازة . والآخر يذهب من مرو ويقطع المفازة أيضا ويجتاز فى مواضع كثيرة الرمال المتحركة حتى يصل الى الطاهرية على جيحون . وقد ذكر هذا الطريق الاخير أيضا جهان نما . ومن هزاراسب يكاد هذا الطريق يتابع الطريقَ نفسه ، الذى وصفه البلدانيون العرب المنتهى بقصبة خوارزم فى الجرجانية(١٩) .

(١٩) الاصطخرى ٣٣٨ و ٣٤١ و ٣٤٢ ؛ ابن حوقل ٤٠٠ و ٤٠٢ ؛ المقدسى ٣٤٣ و ٣٤٤ ؛ المستوفى ١٩٧ و ١٩٨ ؛ جهان نما ٤٥٧ .

الفصل الرابع والثلاثون

اقاليم نهر سيحون

اقليم اشروسنة ـ بونجكث وهى قصبته ـ زامين والمدن الاخرى ـ اقليم فرغانة ـ نهر جكسارتس Jaxartes اى سيحون ـ اخسيكث وانديجان ـ أوش واوزكند والمدن الاخرى ـ اقليم الشاش اى بنكث ـ بناكث اى شاه رخية والمدن الاخرى ـ ناحية ايلاق ومدينة تونكث ، ومعادن الفضة فى خشت ـ ناحية اسبيجاب ـ مدينة اسبيجاب اى سيرام ـ جمكند وفاراب اى اترار ـ يسى وصبران ـ جند وينككنت ـ طراز وميركى ومدن الترك التالية ـ حاصلات اقاليم سيحون ـ المسالك التى فى شمال سمرقند ،

اقليم أشروسنة ـ وكتب أيضا : أسروشنة وسروشنة وستروشنة ـ يقع فى شرق سمرقند ، بين الرساتيق الممتدة فى محاذاة يمين نهر السغد والرساتيق التى فى يسار نهر سيحون ، ولا يدخل هذان النهران ضمن اقليم أشروسنة ، وأرض الاقليم سهول وجبال ، ولا تتخللها أنهار كبيرة ، أما حده الشرقى على ما ذكر البلدانيون العرب ، فكان بامير (الفامر) ،

وكانت قصبتـه مدينـة أشروسنة ، ويقـال لهـا أيضـا بونجكث وبنجكث

وبنوجكث ، وموضعها يطابق مدينة أراتبه[١] الحالية . كانت بونجكث فى المئة الرابعة (العاشرة) « مدينة يحزر رجالها نحو عشرة آلاف رجل ، وبناؤها طين وخشب ، ولها مدينة داخلة منها ، عليها سور بذاتها ، وسور على ربضها ، ولها سور آخر من وراء ذلك . وللمدينة الداخلة بابان : أحدهما يدعى باب الاعلى ، والآخر باب المدينة . وداخل المدينة القهندز والسجن ومسجد الجامع والاسواق . ويجرى بالمدينة الداخلة نهر كبير عليه رحى » . ويشتمل سورها المحيط بالربض ، أى المدينة الخارجة ، على الدور والبساتين ، ويبلغ دوره نحوا من ثلاثة فراسخ . وكان لهذا السور أربعة أبواب ، هى : باب زامين ، وباب مَرسْمَنْدة ، وباب نوجكث ، وباب كهلباذ . وكان لهذه المدينة ستة أنهار صغيرة تسقى اراضيها سرد ابن حوقل اسماءها . وجميع هذه الانهار « من منبع واحد وعين واحدة ، ويكون مقدار ما يدير عشر أرحية ، ومن المدينة الى منبع الماء أقل من نصف فرسخ » . وكانت المدينة مشهورة بكثرة النزه والبساتين .

وزامين ، وهى ما زالت قائمة ، الى الشرق من بونجكث . وهى على طريق خراسان الآتى من بخارا وسمرقند ، حيث يتشعب أخيرا الى طريقين : احدهما يذهب شمالا الى الشاش (تاشكند) والآخر نحو الشمال الشرقى الى فرغانة وما وراءها . كانت زامين فى المئة الرابعة (العاشرة) تقارب القصبة بونجكث فى الكبر ، وهى مدينة قديمة جدا كانت تعرف باسم سوسنده أو سرسنده ، لها مسجد جامع وأسواق حسنة ، تحف بها البساتين والمزارع ، وليس عليها سور . وللمدينة نهر عليه جسور صغار . ومدينة ساباط ، ما زالت قائمة أيضا وهى بين زامين وبونجكث فى طريق فرغانة . قال فيها المقدسى « عامرة ، وبها عين ماؤها جار ، يحدق بها بساتين »[٢] .

---

(١) ينبغى ان لا يلتبس على القارىء اسم بونجكث ، قصبة اشروسنة ببنجيكث (بنجكنت) التى فى شرق سمرقند . وقد عينت المسالك موضع قصبة اسروشنة (أنظر : ابن خرداذبه ٢٩ ؛ قدامة ٢٠٧ والاصطخرى ٣٤٣) هذا فيما عدا الروايات المحلية اليوم التى تؤيد ذلك (انظر : Schuyler فى كتابه Turkistan ١ : ٣١٢) . الاصطخرى ٣٢٥ ؛ ابن حوقل ٣٧٩ ؛ المقدسى ٢٦٥ ؛ ياقوت ١ : ٢٤٥ و ٢٧٨ و ٧٤٤ .

(٢) الاصطخرى ٣٢٦ و ٣٢٧ ؛ ابن حوقل ٣٧٩ و ٣٨٠ ؛ المقدسى ٢٧٧ .

أما مدن اسروشنة الاخرى ، فقد انتهت الينا اسماؤها ، ولكن دون ما وصف ، ومواضع أغلبها غير معروفة . فما زال منها قائما ، أو ما يمكن تعيين مواضعه من وصف المسالك ، هو ما يأتي : ديزك ، ويقال لها أيضا جيزك في شمال غرب زامين . والى جنوبها ، في الطريق من سمرقند ، مدينة خرقانة . وخاوس ، أو خاوص ، في الطريق الذاهب شمالا من زامين الى الشاش . وكركث على حدود فرغانة في نصف الطريق بين ساباط وخجندة . ولا يمكن تعيين موضعي المدينتين الصغيرتين مينك ومرسمندة تعيينا صحيحا لان كتب المسالك لم تذكر ولا واحدة منهما . ولكن ينبغي ان تكون مرسمندة مجاورة للقصبة ان استدللنا بباب مرسمندة في بونجكث على ذلك . كانت مرسمندة في الجبال ، شديدة البرد ، لها ماء جار ، قليلة البساتين لارتفاع سطحها . ذكرها المقدسي فقال « بها أسواق عامرة ، الجامع على ناحية من السوق » ، وهي مدينة جليلة . والظاهر ان مدينة مينك كانت في جوارها . واشتهرت بانها الموضع الذي قاتل فيه قتيبة [بن مسلم] وهو القائد العربي في الفتح الاسلامي الاول لما وراء نهر سيحون . « وهناك حصن يعرف بالافشين الاكبر وهو صاحب المعتصم ، وكان قد اتخذه لنزهته » . وفي ناحية مينك ومرسمندة « تتخذ آلات الحديد التي تعم خراسان ويجهز الى العراق ، وذلك لان الحديد بفرغانة لين ممكن لما يراد قلبه في أي صنعة قصد منه »[٣] .

كان نهر جكسارتس العظيم يسميه العرب ، على ما قد بيّنا (ص ٤٧٧) ، سيحون . على ان اسمه الاكثر شيوعا كان نهر الشاش (والشاش القديمة هي تاشكند) . وانما سمي بذلك لوقوع المدينة المهمة التي بهذا الاسم في القرب من ضفافه . وذكر المستوفي انه في المئة الثامنة (الرابعة عشرة) كان المغول القاطنون في هذه الارجاء يعرفونه باسم گل زريان . ومنذ ذلك الحين حتى يومنا هذا ، أطلق عليه الترك اسم سيردريا أو سيرصو (نهر سير) . وقد ذكره ابو الغازي بهذا الاسم .

---

(٣) الاصطخري ٣٣٦ و ٣٤٣ ؛ ابن حوقل ٣٨١ و ٣٨٢ و ٣٨٣ ؛ المقدسي ٢٧٨ ؛ ياقوت ٢ : ٣٩٥ و ٤٢٥ و ٧١٠ .

وذكر ابن حوقل ان نهر سيحون ، يخرج من بلد الترك ، وهو « يعظم من أنهار تجتمع اليه » تأتي من الجبال ويدخل وادى فرغانة العظيم من طرفه الشرقى فى حدود اوزكند . ويمتد اقليم فرغانة نحوا من مئتى ميل ونيف الى شمال وجنوب مجراه الاعلى[٤] . فاذا ما جرى نهر سيحون شرقا استقبل روافد عديدة وهو يتخلل فرغانة ، هى : نهر خرشان ونهرا اُورَسْت وقُبا وكذلك نهر جِدْغِل ولعله هو نهر نرين الحالى ، وأنهارا أخرى غيرها . فاذا جاوز أسوار اخسيكث القصبة وصل سيحون الى خجندة وعندها يبارح نهائيا اقليم فرغانة . ثم ينعطف شمالا فيستقبل فى يمينه نهرين يقال لهما نهر ايلاق ونهر ترك ، ويمرّ بغرب رستاق ايلاق والشاش . وفى ما يلى ذلك ، ينتهى سيحون الى رساتيق اسبيجاب ثم اذا اجتاز مفاوز الغز والرك ، توزعت مياهه على أنهار عديدة حتى يقع فى بحر آرال فى القسم الشمالى الشرقى منه . وقد ذكر البلدانيون العرب ان نهر سيحون صالح لسير السفن كنهر جيحون وان سيحون يجمد شتاء مدة أطول من جيحون فكانت القوافل تعبره . وكان يعد « نحو ثلثى جيحون »[٥] .

أما اقليم فرغانة الذى كان الى وقت قريب يعرف بخانيّة خوقند ، وقد أعادت اليه الحكومة الروسية رسميا اسمه القديم ، فكانت قصبته فى أوائل العصور الوسطى مدينة أخسيكث ، وسماها ابن خرداذبه وغيره مدينة فرغانة . وهى تقوم على ضفة نهر سيحون الشمالية . وخرائب هذه المدينة شاخصة . وفى المئة العاشرة (السادسة عشرة) لما كان بابر حاكما على فرغانة ، كانت مدينة الاقليم الثانية ، تعرف باسمها المختصر « اخسى » . وانديجان كانت هى القصبة حينذاك .

قال ابن حوقل فى مدينة اخسيكث ، انها مدينة واسعة لها قهندز وفيها الجامع ودار الامارة والحبس ولها ربض واسع . والمدينة الداخلة ميل فى مثله ، فيها مياه جارية وحياض كثيرة . وفيها وفى ربضها أسواق ، وعلى ربضها سور . وللمدينة الداخلة خمسة أبواب ، هى : باب كاسان ، وباب الجامع ، وباب

---

(٤) ومن ثمة ، فان نرين هو اطول منابع نهر سنير . ولم يكن العرب يعدونه عمود النهر .

(٥) ابن حوقل ٣٩٢ و ٣٩٣ ؛ المقدسى ٢٢ ؛ ياقوت : ٣ : ٢١٠ ؛ المستوفى ٢١٥ ؛ حافظ ابرو ٣٣ أ ؛ جهان نما ٣٦٠ ؛ ابو الغازى ١٣ و ١٨١ و ٢٩٠ .

رهانة ، وباب لم يضبط اسمه ، ويمكن أن يقرأ بختر . وأخيرا باب المردقشة .
وكان يحف بالمدينة البساتين الملتفة مقدار فرسخين مما يلى أبواب ربضها .
واذا عبرت جيحون وجدت فى جانبه الجنوبى المروج والمراعى الكثيرة . والظاهر
ان اخسيكث قد استولى عليها الخراب كما استولى على مدن كثيرة فى اقليم فرغانة
اثناء حروب محمد خوارزمشاه فى مطلع المئة السابعة (الثالثة عشرة) . وما لم
تنله هذه الحروب بسوء قد دمرته غزوات المغول ، فانتقلت بعدها قصبة الاقليم
الى انديجان . وفى زمن تيمور ، ذكر على اليزدى اسمها بصورة اخسيكنت أو
اخسيكت ، فاختصر هذا الاسم على ما بيّنا الى أخسى فى أيام بابر[٦] .

أما انديگان (انديجان الحالية) ، فقد اتخذها ، على ما ذكر المستوفى ،
كيدوخان حفيد اغتاى بن جنكيز قصبة لفرغانة فى النصف الاخير من المئة السابعة
(الثالثة عشرة). وقد جاء الاسم اندِگان أو اندُكان بين اسماء المدن التى سردها
ابن حوقل فى المئة الرابعة (العاشرة) ، وكذلك ذكره ياقوت ، ولكن دون أن
نجد وصفا لهذه المدينة فى مرجع ما ، وان أشار اليها علي اليزدى غير مرة فى
كلامه على حروب تيمور . ويستبان من وصف المسالك ان مدينة قبا كانت فى المئة
الرابعة (العاشرة) ، على ما يظهر ، موضعا ذا شأن ، ينبغى ان يكون قريبا من
انديجان . وقبا ، على ما فى الاصطخرى ، تقارب اخسيكث فى الكبر « وهى من
أنزه تلك المدن » . ولها قلعة مكينة فيها الجامع فى وسط ميدانها ، ولها ربض
فيه دار الامارة والحبس . وكان على الربض سور محيط به . وفيها أسواق

---

(٦) ابن خردادبه ٣٠ ؛ الاصطخرى ٣٣٣ ؛ ابن حوقل ٣٩٣ و ٣٩٤ ؛ المقدسى ٢٧١ ؛ القزوينى
٢ : ١٥٦ ؛ على اليزدى ١ : ٤٤١ ؛ ٢ : ٦٣٣ .
اشارت الى اخسى ، الخارطة الروسية التى طبعها Schuyler فى كتابه « تركستان »
١ : ٣٣٦ ، وعينتها على مسافة قصيرة من جنوب غربى نمنكن الحديثة - اما « كت » أو « كات »
التى تنتهى بها بعض الاسماء ، فترادف « تند » أو « كنت » . وكلتاهما ترِدان فى كثير من اسماء
الامكنة فى آسية الوسطى ومعناهما فى اللغات التركية « مدينة » - وقد أصاب ياقوت (١ : ٤٠٤)
فى التنويه بذلك . انظر مثلا نوزكاث (أى الحائط الجديد) فى خوارزم المذكورة فى صفحة ٤٩٧ .
قلنا : فسر ياقوت معنى مدينة اوزكند بقوله « ان كند بلغة أهل تلك البلاد معناه القرية ،
كما يقول أهل الشام الكفر » وقال فى نوزكاث « ونوز معناه بلغة الخوارزمية الجديد ، وكان معناه
الحائط الجديد . وهناك مدينة اسمها كاث ، فكأنهم قالوا كاث الجديدة » ٤ : ٨٢٢ (م) .

كثيرة عامرة[٧] .

وفى نصف الطريق بين اخسيكث وقبا : مدينة اشتيقان ، لها جامع فى الاسواق . والى شرق قبا مدينة أوش ، وقد كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) موضعا عظيم الشأن . وفى قلعة اوش دار الامارة والحبس ، حسب المعتاد . وحول المدينة ربض وعلى الربض سور ، « وهى ملاصقة للجبل » . ولها ثلاثة أبواب ، هى : باب الجبل ، وباب الماء وباب مُغكذة . وكان جامعها فى رحبة واسعة وسط الاسواق . والمدينة كثيرة الانهار التى تسقى أراضيها . وبالقرب منها جبل عليه « مرقب الاحراس على الترك » . وكان فى ما يلى أوش ، مدينة اوزكند ، وهى آخر مدن فرغانة شرقا . « وهى نحو ثلثى أوش ، ولها قهندز وبساتين ومياه جارية » . ولها ربض والاسواق فيه « وهى متجر على باب الاتراك » . و « على بابها نهر ... يحيط بربضها حائط له أربعة أبواب » وجامعها فى الاسواق .

وما هو فى جنوب نهر سيحون من اقليم فرغانة ، يقال له كورة نسيا أو نسائية ، وهى اثنتان : عليا وسفلى بالنظر الى اختلاف مستوى سطحيهما . فالعليا فى الجبل . وكان فى نسائية السفلى مدينة مرغينان (مرغيلان الحديثة) وقد كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) « صغيرة وجامعها ناء عن الاسواق » . وفى الغرب منها رشتان وكانت فى ذلك الزمن كبيرة ولها جامع حسن . أما خوقند التى صارت فى الازمنة الحديثة قصبة فرغانة ونسبت اليها خانيّتها ، فلم يرد ذكرها الا عرضا بين مدن نسائية العليا باسم خواكند أو خواقند .

أما خجندة ، فانها أول مدن فرغانة من الغرب ، اذا جئت من سمرقند تقوم على ضفة سيحون اليسرى . وعلى فرسخ من جنوبها : كند وهى ربضها . وخجندة مدينة « طولها أكثر من عرضها » ولها قلعة قوية فيها السجن ، وجامعها فى المدينة . ودار الامارة فى الميدان بالربض . قال فيها ابن حوقل « هى مدينة نزهة » . وأهلها لهم سفن يسافرون فيها فى سيحون . وكان ربض كند الخارج

(٧) الاصطخرى ٣٣٣ ؛ ابن حوقل ٣٩٤ و ٣٩٥ ؛ المقدسى ٢٧٢ ؛ المستوفى ٢٢٨ ؛ ياقوت ١ : ٣٧٥ ؛ ٤ : ٢٤ ؛ على اليزدى ٢ : ٦٣٣ .

يقال له كند باذام (أى كند اللوز) على ما ذكر القزوينى لان بها لوزا كثيرا « وهو لوز عجيب ينقشر اذا فرك باليد »[٨] .

أما مدن شمالى فرغانة ، أى ما كان منها فى يمين سيحون ، فلا يعرف من أمرها فى الازمنة الاولى الا الشيء القليل . فقد ذكر المقدسى مدينة وانكث فقال : لها جامع وأسواق حسنة . ويتبين من وصف المسالك ، ان وانكث كانت على سبعة فراسخ من غرب اخسيكث وعلى فرسخ من ضفة سيحون ، لا تبعد كثيرا عن حد ايلاق . والى شمال وانكث ، في وسط الجبال ، كانت خَشْيرَم أو خيلام ، وهى مدينة فى رستاق ميان روذان (أى ما بين الانهار) لها جامع حسن فى وسط الاسواق . والى شمال هذه أيضا كانت شِكِت أو سِكِت ، وهى على قول المقدسى « كثيرة الجوز حتى ربما وجدت ألف جوزة بدرهم ، والجامع فى السوق » . اما مدينة قاسان فما زالت قائمة . وصفها البلدانيون الاولون بانها تقوم فى ناحية مسماة باسمها ، وزاد ياقوت على ذلك ان لها قلعة حصينة ، وعلى بابها نهر يلتقى هو وسيحون عند اخسيكث . وأبعد منها شمالا ، ناحية جدغل وكانت مدينتها أردلانكث . والى شرق هذه ، ناحية كروان ، واسم مدينتها نجم . ونوه المقدسى أيضا بجملة مدن أخرى ولكن مما يؤسف عليه انه لا يعلم شيء عن مواضعها[٩] .

والى غرب فرغانة ناحية الشاش . وهى على ما بيّنا ، على ضفة نهر سيحون اليمنى أى الشمالية الشرقية . والخرائب المعروفة اليوم بتاشكند القديمة هى موضع المدينة التى سماها العرب الشاش ، والفرس چاچ . كانت فى العصور الوسطى أعظم المدن العربية فى ما وراء سيحون . وكان يقال لمدينة الشاش أيضا بنكث[١٠] وذلك على غرار كثير من أسماء المدن فى بلاد ما وراء النهر ، فان لها تسميتين ايرانية وتورانية .

وكان على مدينة الشاش فى المئة الرابعة (العاشرة) أسوار كثيرة ، فقد كان

---

(٨) الاصطخرى ٣٣٢ و ٣٣٣ و ٣٤٧ ؛ ابن حوقل ٣٦١ و ٣٩٢ و ٣٩٤ و ٣٩٥ ؛ المقدسى ٢٦٢ و ٢٧٢ و ٣٤٥ ؛ ياقوت ١ : ٤٠٤ ؛ ابو الفداء ٤٩٨ ؛ القزوينى ٢ : ٣٧٢ .
(٩) الاصطخرى ٣٣٤ و ٣٤٧ ؛ ابن حوقل ٣٩٦ ؛ المقدسى ٢٧١ و ٢٧٢ ؛ ياقوت ٤ : ٢٢٧ .
(١٠) لعل ذلك من تصحيف اسم بيكث وقد ذكر ياقوت هذا الاسم (١ : ٧٤٦) .

لها مدينة داخلة ، لها قهندز أى قلعة تلاصقها . عليهما سور ، وفى خارج المدينة الداخلة ، الربض الداخل ، وعلى هذا الربض سور . ويليه أيضا الربض الخارج وفيه بساتين وحقول كثيرة ، حوله سور ثالث . وأخيرا السور الكبير على غرار ما كان لبخارا ، يحمى الناحية كلها فيكون حول الشاش من ناحية الشمال بهيئة نصف دائرة يصل ما بين ضفة نهر الترك فى الشرق وسيحون فى الغرب .

فاذا عدنا الى المدينة الداخلة والقلعة ، وجدنا ان فى القلعة دار الامارة والحبس ، ولها بابان أحدهما يفضى الى المدينة الداخلة والآخر الى الربض . وكان المسجد الجامع على سور القلعة . والمدينة الداخلة فرسخ فى مثله ، وفيها بعض الاسواق ، ولها ثلاثة أبواب : باب أبى العباس ، وباب كش ، ولا شك انه كان يفضى الى الجنوب حيث يصل الطريق الآتى من سمرقند . وأخيرا باب الجنيد . وكان لسور الربض الداخل عشرة أبواب (ذكر المقدسى ثمانية فقط) . وللربض الخارج سبعة أبواب سرد ابن حوقل اسماءها . وكان فى الربض الداخل أسواق مدينة الشاش . ويشق البلد أنهار وقنى كثيرة تسقى البساتين والاشجار التى فى داخل الاسوار .

أما السور الكبير ، فانه فى أقرب نقطة منه الى البلد ، كان يبعد فرسخا واحدا عن باب الربض الخارج . وهذا السور يبدأ فى الشرق من جبل على نهر الترك يقال له جبل سابلغ . كان يكتنف السهل الواسع المعروف بالقِلاص . وقد بنى هذا السور عبدالله بن حُميد لحماية الشاش من غارات الترك فى الشمال . وكان هناك على فرسخ مما يليه ، خندق عميق يمتد من الجبل على نهر الترك الى حافة سيحون فى الغرب . وكان الطريق من شمال الشاش الى اسبيجاب يخترق هذا السور عند باب الحديد .

وفى أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، لحق الدمار بعض الشاش فى غضون فتوحات محمد خوارزمشاه ، ثم كان للغزو المغولى الذى أعقبها ما أضاف الى بؤس أهلها بؤسا على نحو ما حل بغيرها من البلدان . والظاهر ، ان المدينة سرعان ما صلح حالها مما ألم بها من بلايا ، فأصبحت موضعا ذا شأن فى المئة الثامنة

(الرابعة عشرة) حين وقف عندها تيمور بعساكره . وعلى اليزدى الذى ذكرها غير مرة فى وصفه حروب تيمور ، تطرق الى ذكرها بأسماء مختلفة مثل الشاش والچاچ وتاشكنت ، ويظهر ان الاسم الاخير قد حرفه السكان الناطقون بالتركية من الشاش الى تاش . وتاشكنت معناه مدينة الحجر . وباسمها هذا قد اصبحت اليوم عاصمة تركستان الروسية[١١] .

ونهر الترك المعروف اليوم بنهر چرچك المار بجنوب شرقى الشاش ، يخرج ، على ما ذكر ابن حوقل ، من جبال جدغل فى شمال نهر نرين ومن بلد الترك الخُلُخيّة الذى يقال له بسكام . وفى جنوبى هذا النهر كان يجرى نهر آخر بحذائه يسمى نهر ايلاق ، ويعرف اليوم بنهر انگرن . وأسفل من التقائه بنهر سيحون مباشرة ، تقوم مدينة بناكث ، ثانى مدن ناحية الشاش . ويقال لبناكث أيضا بناكت ، ويسميها الفرس فناكنت . ولم يكن لهذه البلدة فى المئة الرابعة (العاشرة) حصن . والجامع فى سوقها . وكانت تقوم على ضفة سيحون اليمنى حيث كان طريق خراسان الآتى من سمرقند يعبر النهر الى الشاش . وقد بقيت موضعا كبير الشأن حتى المئة السابعة (الثالثة عشرة) لما خرّبها جنكيزخان . وبعد مضى قرن ونيف ، أى فى سنة ٨١٨ (١٤١٥) ، جدد شاهرخ حفيد تيمور مدينة فناكنت ، فنسبت اليه وعرفت بـ « شاه رخيّة » ، وبهذا الاسم ذكرها علي اليزدى غير مرة .

وكان الطريق من بناكث شمالا الى الشاش ، يخترق مدينة جينانجكث ، وهى على ضفة نهر الترك الجنوبية أى اليسرى على فرسخين فوق ملتقاه هو وسيحون . كانت هذه المدينة فى المئة الرابعة (العاشرة) كبيرة ليس عليها حصن ، بنيانهم خشب ولبن . وكان فى الجانب الاخر من نهر سيحون الى غربه ، على مرحلة من جينا نجكث فى طريق جيزك ، بلدة وينكرد . قال فيها ابن حوقل « وينكرد قرية للنصارى » (من النساطرة) وفى الجانب الآخر من نهر الترك على شىء قليل من غربه ، فى الزاوية التى أسفل من التقائه هو وسيحون ، مدينة أشتوركث أو

(١١) قدامة ٢٧ ؛ ابن حوقل ٣٨٤ و ٣٨٦ - ٣٨٨ ؛ المقدسى ٢٧٦ ؛ القزوينى ٢ : ٣٦٢ ؛ على اليزدى ١ : ٩٤ و ١٠١ و ١٦٦ .

شُتركث (أى مدينة الجمل) . وكان عليها حصن . وينبغى ان يكون المغول قد خربوا هذه البلدة ، اذ نجد فى النصف الاخير من المئة الثامنة (الرابعة عشرة) قد نشأ فى مكانها بلدة چيناس (وما زالت قائمة) وقد ذكرها علي اليزدى كثيرا بهذا الاسم . وذكر ابن حوقل والمقدسى أكثر من عشرين مدينة أخرى فى ناحية الشاش ، ولكنهما لم يصفاها . ولهذا لا نعرف مواضع هذه الامكنة اليوم . وان كان من الواضح ان هذه الناحية ، وكذلك ناحية ايلاق فى جنوبها واسبيجاب فى شمالها ، كانت فى المئة الرابعة (العاشرة) مكتظة بالسكان وافرة القرى التى تقارب المدن كبرا[١٢] .

اما ناحية ايلاق ، فكانت فى جنوب نهر ايلاق وشمال المنعطف الكبير لنهر سيحون أسفل خجندة ، وقصبتها تونكث . كانت هذه الناحية متصلة بالشاش ، وتشتمل على ما يقرب من عشرين مدينة مهمة ذكرها ابن حوقل وغيره . ومواضع هذه المدن ما زالت غير معينة حتى انه لا يمكن ، ويا للأسف ، معرفة موضع تونكث قصبتها . وكانت تونكث ، على ما ذكر ابن حوقل ، تقوم على نهر ايلاق ، على نحو من ثمانية فراسخ من الشاش وهى نحو نصف الشاش[١٣] . كان لها قهندز ومدينة داخلة حولها ربض يحيط به سور . وفى القهندز دار الامارة والحبس. والمسجد الجامع ، والاخيران عند باب القهندز . وأسواقها داخل المدينة وفى الربض . وفيهما ماء جار . وكانت البلاد من الشاش الى ايلاق متصلة العمارة مختلطة العمل . وقد سرد ابن حوقل اسماء هذه المدن . ولكن مما يؤسف عليه قد ضاعت علينا جميع مواضعها . ومن أهم المدن التى انتهى الينا أمرها ، مدينة خاشت الآهلة (ويكتب اسمها أيضا بصورة خاش وخاس أو خاص) قرب معادن الفضة فى جبال ايلاق على حد فرغانة . وفى المئة الرابعة (العاشرة) ، على ما ذكر ابن حوقل ، « بايلاق دار ضرب للعين والورق » . وتحفّ بالمدينة قرى

---

(١٢) الاصطخرى ٣٢٨ ـ ٣٣٠ و ٣٣٦ و ٣٤٥ ؛ ابن حوقل ٣٨٤ و ٣٨٥ و ٣٨٨ و ٤٠٥ ؛ المقدسى ٢٦٤ و ٢٧٦ و ٢٧٧ ؛ علي اليزدى ١ : ١٠١ ؛ ٢ : ٦٣٦ .

(١٣) جاء اسم تونكث احيانا بصورة توكث ، وذلك من وهم النساخ . أنظر : الاصطخرى ٣٣١ الحاشية س . ولمعرفة المسافة بين الشاش وتونكث ، أنظر . الاصطخرى ٣٤٤ ؛ ابن حوقل ٤٠٤ .

عديدة[١٤] .

وفي شمال الشاش من يمين سيحون فشرقا ناحيــة أو اقليم إســبيجاب أو أسبيجاب ، وقصبته باسمه . ذكر المقدسى فى المئة الرابعة (العاشرة) ، نحوا من خمسين مدينة مشهورة فى هذا الاقليم لا يمكننا الآن ان نعين غير عدد قليل منها .

فمدينة اسبيجاب تتفق هي وموضع سيرام التى على نحو من ثمانية أميال شرق چمكنت على نهر اريس أو بدم ، وهو رافدمن روافد سيحون اليمنى[١٥] . كانت على ما ذكر ابن حوقل « نحو الثلث من بنكث » أى الشاش « تشتمل على مدينة وقهندز وربض . وعلى المدينة الداخلة سور ، وعلى الربض أيضا سور يحيط به مقداره فرسخ . وهى فى مستواة وبينها وبين أقرب الجبال اليها نحو ثلاثة فراسخ » . وفى خارجها مياه وبساتين . وكان للمدينة أربعة أبواب ، على كل باب رباط . وفى المدينــة وربضها أســواق . وفى المدينــة الداخلة دار الامارة والحبس والجامع . وأشار المقدسى الى سوق الكرابيس (أى سوق القطانين) . وغلة دكاكين السوق فى كل شهر سبعة آلاف درهم (نحــو من ٣٠٠ باون) « يجرى على الضعفاء الخبز والادام » . والظاهر ان مدينة اسبيجاب قد تغير اسمها بعد الغزو المغولى الى سيرام ، وبهذا الاسم ذكرها على اليزدى كثيرا فى أخبار فتوحات تيمور .

وكذلك فان علي الزدى كثيرا ما ذكر چمكنت وكتبت چميكنت ، ويبدو انها توافق المدينة التى كتبها المقدسى بصورة جموكث وقال فيها « كبيرة عليها حصن ، والجامع فيه ، والاسواق بالربض »[١٦].

---

(١٤) الاصطخرى ٣٣١ و ٣٣٢ و ٣٤٥ ؛ ابن حوقل ٣٨٦ و ٣٨٨ و ٣٨٩ و ٤٠٤ ؛ المقدسى ٢٦٥ و ٢٧٧ و ٢٧٨ .

(١٥) المقدسى ٢٦٢ ـ ٢٦٤ . لقد ذهب شويلر Schuyler (فى كتابه Turkistan ١ : ٧٥) الى ان مدينة اسبيجاب هي جمكنت ، الا ان ذلك ليس الا وهما ، لان « تاريخ رشيدى » (ترجمة ن . الياس ، و أ . د . روس ، ص ١٧١) ذكر : « سيرام هى التى سمتها الكتب القديـة اسبيجاب » . ويرى النص الفارسى لهذه العبارة فى الورقة ١٠٥ ب من مخطوطة المتحف البريطانى رقم Add. 24090 .

(١٦) الاصطخرى ٣٣٣ ؛ ابن حوقل ٣٨٩ ؛ المقدسى ٢٦٣ و ٢٧٢ و ٢٧٥ ؛ على اليزدى ١ : ١٦٦ ؛ ٢ : ٦٣٣ و ٦٣٦ .

وعلى ضفة سيحون الشرقية ، أسفل انصباب نهر جكنت فيه مباشرة ، المدينة التى عند معبر سيحون ، المعروفة قديما بباراب أو فاراب وفى الازمنة الحديثة باسم أترار ، وفيها لقى تيمور حتفه فى سنة ٨٠٧ (١٤٠٥) وهو على أهبة السير لفتح الصين . وكان الاسم فاراب أو باراب يطلق على الناحية والمدينة . وقد حسبت فاراب أحيانا قصبة ناحية اسبيجاب . وكان يقال أيضا لارباض المدينة فى المئة الرابعة (العاشرة) كدر . قال المقدسى فى باراب « هى كبيرة ، تخرج نحو سبعين ألف رجل ، عليها حصن فيه الجامع ، وأسواق وقهندز » . وكان لكـدر أيضا جامعها وكانت هى المدينة الجديدة . وعلى ما فى القزوينى ، ان فاراب فى أرض سبخة ذات غياض . وينسب اليها أبو نصر الفارابى المتوفى سنة ٣٣٩ (٩٥٠) وهو أشهر فلاسفة المسلمين قبل ابن سينا . على ان ابن حوقل قد نسب مولد الفارابى الى وسيج لا الى فاراب[١٧] . ووسيج بلدة صغيرة محصنة على فرسخين من فاراب ، وفى سوقها المسجد الجامع . ثم بعد هذا الزمن ، عرفت فاراب باسم أترار أو أطرار وقد نهبها المغول فى أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) ولكنها سرعان ما جدد بناؤها ، ففى سراى المدينـة توفى تيمـور على مـا بينا[١٨] .

وفى نحو من نصف الطريق بين سيرام وأطرار ، مدينة ارسبانيكث أو سـبانيكث . قال فيها المقدسى « نبيلة ، نظيفة ، محصنة . الجامع بها ، والعمارات فى الربض » . وكان يقال لرستاقها كنجيدة . وعلى مرحلة يوم شمال أطرار ، على ضفة سيحون اليمنى ، مدينة شاوغر . قال فيها المقدسى « كبيرة ، واسعة الرسـاق ، عليها حصن ، والجامع على طرف السـوق ، وهى من الجادة بمعزل » . ولم يرد اسم شاوغر لدى البلدانيين المحدثين ، ولكن يبدو من موضعها انها توافق

---

(١٧) قلنا ما فى ابن حوقل (ص ٥١٠ من الطبعة الجديدة) : « ... وأما كدر ، فانها قصبة باراب ، ووسيج أيضا من مدن باراب . ومنها أبو نصر الفارابى ، صاحب كتب المنطق ، المفسر لكتب القدماء ، والمتقدم فى ذلك على كل من كان فى زماننا وعصرنا رأيناه » . (م) .

(١٨) ابن حوقل ٣٩٠ و ٣٩١ ؛ المقدسى ٢٦٢ و ٢٧٣ ؛ القزوينى ٢ : ٤٠٥ ؛ ابو الفداء ٤٩٣ ؛ ابن بطوطة ٣ : ٢٣ ؛ على اليزدى ١ : ١٦٦ و ٢٧٥ ؛ ٢ : ٦٤٦ ؛ ابن خلكان : الرقم ٧١٦ ص ٦٣ . وكثيرا ما يقع الالتباس بين فاراب او باراب (اطرار) التى على سيحون ، وفارياب (انظر ص ٤٦٧ أعلاه) التى فى الجوزجان ، وكان يقال لها باراب أيضا .

هى ويسّي ، الموضع الذى غالبا ما ذكره علي اليزدى ، وما زالت قائمة الى هذا اليوم باسم حضرة تركستان ، وهو الولى الحامى لبلاد القرغيز المدفون فيها . وعلى ما ذكر علي اليزدى ، انه هو الشيخ احمد اليسّي من أحفاد محمد بن الحنفية ابن الخليفة علي ، وقد توفى هذا الشيخ هنا فى أوائل المئة السادسة (الثانية عشرة) . وابتنى تيمور فى ختام المئة الثامنة (الرابعة عشرة) الجامع على قبره ، وما زالت بقاياه العظيمة شاخصة . ويزوره الناس من سائر الجهات .

وعلى مرحلة يوم من شمال يسّي أو شاوغر ، كانت سوران أو صبران . وهى ما زالت قائمة الى هذا اليوم ، وكانت فى المئة الرابعة (العاشرة) ثغرا أمام الغز ، و « يجتمع بها الغزية للصلح والهدنة والتجارات اذا كان صلح » . قال فيها المقدسى « كبيرة ، عليها حصون سبعة بعضها خلف بعض ، والربض فيها ، والجامع فى المدينة الداخلة » .وكثيرا ما ذكر علي اليزدى صبران حين كلامه على حروب تيمور . ووصف ياقوت قلعتها العالية المشرفة على حد البلد[١٩].

ومن جملة المواضع الاخرى على سيحون ، التى أكثر من ذكرها علي اليزدى ولم يشر اليها البلدانيون العرب الاولون : سغناق . قال فيها انها قصبة قبچاق وهى على ٢٤ فرسخا من شمال اترار . وأبعد منها شمالا كانت جَنـد ، وقد ذكرها البلدانيون الاولون وياقوت ، وقالوا فيها انها من مدن الاسلام الكبرى فى تركستان فى ما وراء سيحون . وفى أوائل المئة السابعة (الثالثة عشرة) ، دمّرها المغول . وكان آرال كثيرا ما يسمى ببحر جند ، وعنده على نحو من مرحلتين من فم سيحون ، قصبة الغز التى سماها العرب : القرية الجديدة (أو الحديثة) وعرفت فى الازمنة الاخيرة باسم ينغكنت ، أو ينگى شهر ، أى المدينة الجديدة بالتركية[٢٠] .

---

(١٩) ابن حوقل ٣٩٠ و ٣٩١ ؛ المقدسى ٢٦٢ و ٢٧٣ و ٢٧٤ ؛ ياقوت ٣ : ٣٦٦ ؛ علي اليزدى ١ : ٤٦٦ و ٥٥٧ ؛ ٢ : ٩ و ٦٣٦ و ٦٤٢ ؛ Schuyler فى Turkistan ١ : ٧٠ . والاسم الذى ينبغى ان يكتب سوران أو صبران ، كثيرا ما طبع خطأ بصورة صيران فى كتاب ظفرنامه لعلي اليزدى .

(٢٠) ابن حوقل ٣٩٣ ؛ ابو الفداء ٤٨٩ ؛ ياقوت ٢ : ١٢٧ ؛ علي اليزدى ١ : ٢٧٥ و ٢٧٩ . وعن خرائب جند انظر Schuyler فى تركستان ١ : ٦٢ .

وعلى نحو من ثمانين ميلا من شمال شرقى سيرام (أى اسبيجاب) خرائب طراز بالقرب من المدينة الحالية أوليه ـ اتا ٠ وكانت طراز أو الطراز ، مدينة ذات شأن فى المئة الرابعة (العاشرة) ٠ قال فيها ابن حوقل « والطراز متجر للمسلمين من الاتـراك الخرلخيـة » ٠ وزاد المقدسى على ذلك انها « مدينة جليلة حصينة كثيرة البساتين مشتبكة العمارة ، لها خندق وأربعة أبواب ، ولها ربض عامر ، على باب المدينة نهر كبير ٠ والجامع فى الاسواق » ٠ وعلى ما فى القزوينى ان أهل طراز « فى غاية حسن الصورة ، ليس فى تلك النواحى أحسن منهم صورة رجالهم ونساؤهم الى حد يضرب بحسن صورتهم المثل ٠ وهى مدينة طيبة التربة لطيفة الهواء » ٠ ومن مدن بلاد الترك أيضا ، على نحو من مئة ميل من شرق طراز ، مدينة بركى أو ميركى (وهى مركه) الحديثـة ٠ قال فيهـا المقدسى : « متوسطة الرقعة ، محصنة ، ولها قهندز وكان الجامع فى القديم كنيسة (للنصارى النساطرة) ، وقد بنى الامير عميد الدولة فائق (من البويهيين) خارج الحصن رباطا » فى المئة الرابعة (العاشرة) ٠ وذكر المقدسى أيضا كولان ، وهى على مرحلة واحدة غرب ميركى باتجاه طراز ٠ وكانت قرية كبيرة محصنة ولها جامع ، تعد موضعا ذا شأن كبير[٤١] ٠

وفى الختام ، يحسن بنا ان نلاحظ ، ان ابا الفداء ذكر جملة قصبات للترك يصعب اليوم تبين مواضعهـا الصحيحة ٠ منهـا بلاساُغن وكـانت قصبة خانات تركستان فى غضون المئتين الرابعة والخامسة (العـاشرة والحادية عشرة) ٠ وذكرها أيضا ابن الاثير فى تاريخه ، ولا يعرف موضعها الصحيح ٠ ولمح ابو الفداء الى انها كانت قرب كاشغار ولكن فى ما وراء سيحون ٠ وقد عثر على خرائب أمالغ التى اتخذها المغول عاصمة لهم فى عهد جغتاى بن جنكيزخان بالقرب من موضع ُكلنجه القديمة على نهر ايله ، وقد أشار الى موضعها علي اليزدى الذى ذكر أيضا نهر إرْتِش و ُتلاس ٠ ولكن لم يتنه الينا شىء عن جميع هذه المدن ٠ وكلها مثل كاشغار و ُختَن وياركند وغيرها من المدن التى على حدود الصين ، لم تذكرها

(٤١) ابن حوقل ٣٩٠ و ٣٩١ ؛ المقدسى ٢٦٣ و ٢٧٤ و ٢٧٥ ؛ القزوينى ٢ : ٣٦٥ ؛ ابو الفداء ٤٩٧ ؛ Schuyler فى تركستان ٢ : ١٢٠ ٠

مراجعنا الا لما ودون ان تنطوى على فائدة جغرافية ذات بال[٢٢] .

ليس فى اقاليم سيحون صناعات متنوعة كبيرة ، وكان جلب الرقيق أهم عمل لمن يقصدها من التجار . ذكر المقدسى انه كان يرتفع من ديزك (جيسك) فى اشروسنة اللبود الجياد والاقبية . ويرتفع من فرغانة الذهب والفضة والفيروزج والزئبق والحديد والنحاس وكذلك النوشادر والنفط والزفت . واشتهرت فرغانة بحجر الارحاء والفحم الحجرى للوقود . وكان يرتفع من بساتينها ويحمل الى الآفاق : الاعناب والتفاح والجوز . ومن الرياحين : الورد والبنفسج . ويرتفع من الشاش ثياب بيض رقيقة ، وسيوف وغيرها من السلاح ، وآلات النحاس والحديد كالابر والمقاريض والقدور . ويرتفع منها أيضا . سروج الكيمخت (جلود الحمر الوحشية) الرفيعة والجعاب والقسي الجيدة وجلود تجلب من الترك وتدبغ والمصليات والاخبية . . ويرتفع من رستاقها الرز والكتان والقطن . ويرتفع من طراز فى بلاد الترك جلود المعز واشتهرت فى كل وقت بالخيل والبغال التركستانية[٢٣] .

أما مسالك هذه الاقاليم ، فان طريق خراسان كان يواصل اتجاهه شمالا من سمرقند فيعبر نهر السغد ، ومنه يصل الى زامين فى اشروسنة حيث يتشعب ، فكان الطريق الايسر يذهب الى الشاش وسيحون الاسفل . والايمن الى أعالى سيحون وفرغانة . وكان الطريق من زامين الى الشاش رأسا ، يعبر سيحون عند بناكث . وهناك طريق آخر من سمرقند يمرّ بديزك ويقطع المفازة الى وينكرد ، فاذا تجاوزها كان يعبر سيحون الى شُتُوركَث فيلتقى عندها هو والطريق من بناكث الى الشاش . وكان يشرق من الشاش طريق الى تونكث قصبة اقليم ايلاق . وطريق آخر يتجه شمالا الى اسبيجاب ، وعندها يتشعب . فكان يذهب من اسبيجاب غربا طريق الى فاراب (أترار) لعبور سيحون ، ومنها نحو الشمال أيضا بحذاء ضفته اليمنى الى صبران . والى اليمين من اسبيجاب شرقا كان يذهب طريق آخر الى طراز ، ومنها الى بركى أو ميركى آخر مدينة اسلامية فى بلاد الترك فى المئة

---

(٢٢) ابو الفداء ٥٠٥ ؛ على اليزدى ١ : ٤٨٥ و ٤٩٤ ؛ ر ٢ : ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢٣) ابن حوقل ٣٩٧ و ٣٩٨ ؛ المقدسى ٣٢٥ ؛ القزوينى ٢ : ٤٠٥ .

الرابعة (العاشرة) . ومن هذه المدينة أورد ابن خرداذبه وقدامة المراحل التى فى المفازة الى نوشجان العليا على حدود الصين ، وربما كان هذا الموضع يتفق هو وختن[٢٤] .

وكان الطريق الى فرغانة الذى ينشطر من طريق خراسان عند زامين على ما بيّنا ، يمر بساباط (حيث ينعطف الطريق الى بونجكث قصبة اشروسنة) الى خجندة على سيحون . ومنها يبقى محاذيا ضفة النهر الجنوبية صاعدا معها حتى يصل الى اخسيكث قصبة فرغانة عند معبر نهر سيحون . وقد أورد الاصطخرى وابن حوقل المسافات من اخسيكث الى المدن المختلفة التى فى شمال أعالى سيحون ، كما ذكر ابن خرداذبه وقدامة الطريق من قصبة فرغانة فشرقها مارا بأوش الى اوزكند . والى ذلك فقد لمّح المقدسى الى الطريق من اوزكند الى داخل بلاد الترك ثم الى حدود الصين . ويصعب تتبع ما ذكره بهذا الصدد ، ولكنه ، كابن خرداذبه وقدامة ، جعل المرحلة الاخيرة فيه نوشجان أو برسخان العليا ، التى يحزر انها ختن[٢٥] .

---

(٢٤) ابن خرداذبه ٢٦ ــ ٢٩ ؛ قدامة ٢٠٢ ــ ٢٠٦ ؛ الاصطخرى ٣٣٥ ــ ٣٣٧ و ٣٤٣ ــ ٣٤٦ ؛ ابن حوقل ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٣ ــ ٤٠٥ ؛ المقدسى ٣٤١ ــ ٣٤٣ . ومما يؤسف عليه ان المستوفى لم يذكر المسالك فى ما وراء جيحون . وعن الطريق الى ختن والصين انظر مادة سد ياجوج وماجوج للبروفسور دى غويه فى: Mededeeling der Koninklijke Academie Amsterdam, لسنة ١٨٨٨ ص ١٢٣ . وعن الطريق الذى سلكه عبد الرزاق سفير شاهرخ ، وقد رحل الى الصين وعاد منها بين سنتى ٨٢٢ و ٨٢٥ (١٤١٩ و ١٤٢٢) ، انظر النص الفارسى وترجمته بقلم كترمير فى Notices et Extraits المجلد ١٤ الجزء ١ ص٣٨٧ وكذلك تعليقات سر هـ . يول Sir H. Yule فى كتاب Cathay and the Way thither ص ١٩٦ ــ ٢٠٩ .

قلنا : راجع البحث النفيس لمولانا ابو الكلام آزاد ، وزير معارف الهند ، فى مجلة « ثقافة الهند » وعنوانه : سد ياجوج وماجوج (المجلد ١ العدد ٣ سبتمبر ١٩٥٠ ص ٢٥ ــ ٤٠) وهو قسم من بحث واسع عنوانه : « شخصية ذى القرنين المذكور فى القرآن » (م) .

(٢٥) ابن خرداذبه ٢٩ و ٣٠ ؛ قدامة ٢٠٧ ــ ٢٠٩ ؛ الاصطخرى ٣٣٥ و ٣٤٣ ــ ٣٤٧ ؛ ابن حوقل ٣٩٨ و ٣٩٩ و ٤٠٣ ــ ٤٠٦ ؛ المقدسى ٣٤١ و ٣٤٢ .

فهارس الكتاب

١ ـ **الفهرست البلداني**

ويشتمل على أسماء الأقاليم والمدن والقرى والجبال والأنهار والوديان والمفاوز والبحار والبحيرات وغير ذلك

٢ ـ **فهرست الاشخاص والاقوام**

٣ ـ **الفهرست العمراني**

ويشتمل على مصطلحات الحضارة والعمران ، وعلى الألفاظ الدخيلة والمعربة

١ ـ الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلدانى

الفهرست البلداني

ب

الفهرست البلداني

الفهرست البلدانى

الفهرست البلدانى

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلدانى

ث

ج

الفهرست البلداني

ح

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلدانى

الفهرست البلداني

ز

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

ع

الفهرست البلدانى

الفهرست البلداني

ق

الفهرست البلداني

الفهرست البلدانى

ك

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

الفهرست البلداني

ى

٢ـ فهرست الأشخاص والاقوام

فهرست الأشخاص والاقوام

فهرست الأشخاص والأقوام

فهرست الأشخاص والاقوام

فهرست الأشخاص والاقوام

فهرست الاشخاص والاقوام

فهرست الأشخاص والأقوام

فهرست الأشخاص والأقوام

فهرست الاشخاص والاقوام

٣ ــ الفهرست العمراني

ت

ث

ج

ح

خ

الفهرست العمراني

الفهرست العمرانى

الفهرست العمرانى

الفهرست العمراني

